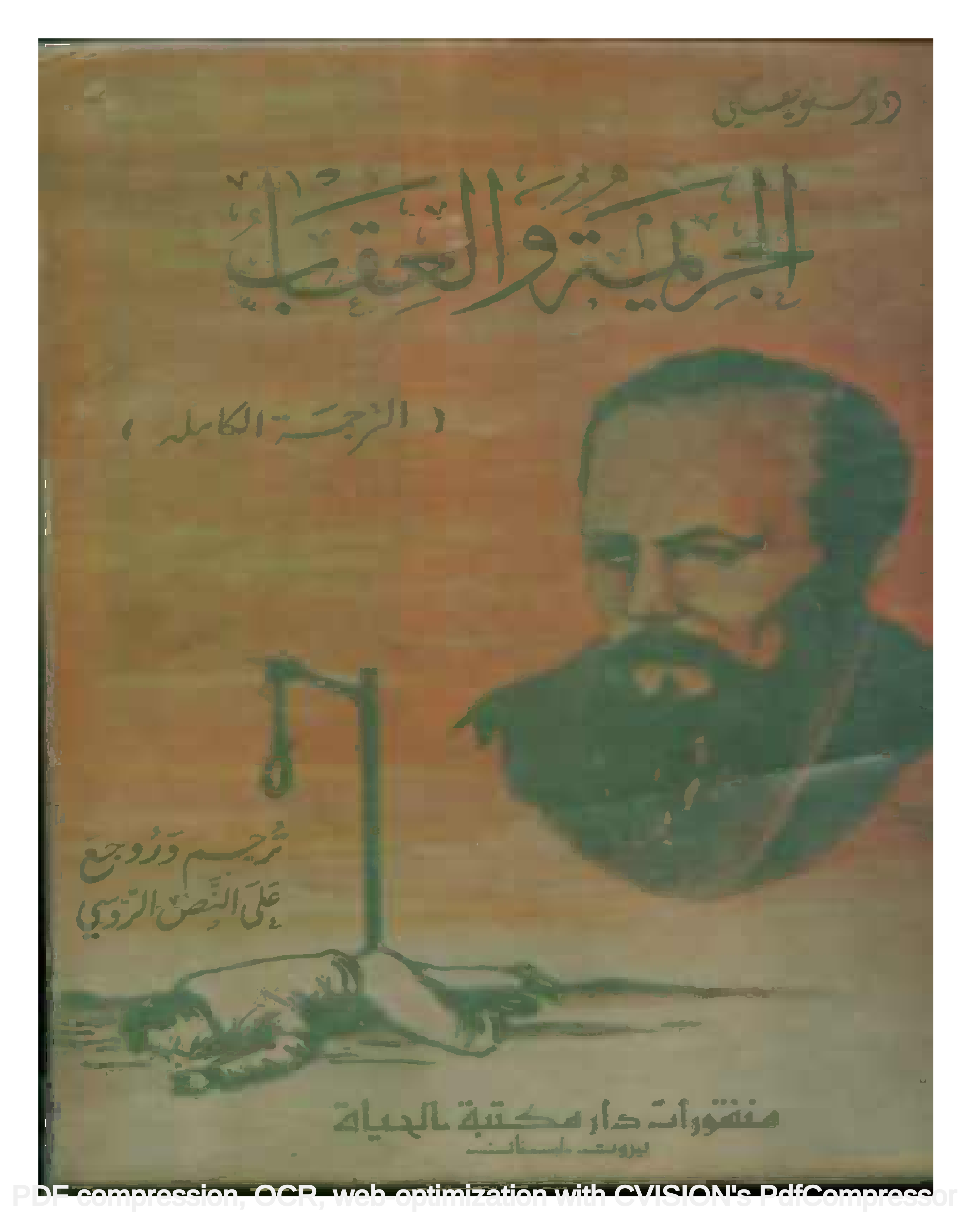

دوستويفسكي
الجريمة والعقاب
(الترجمة الكاملة)
ترجمت ورُوجعت
على النص الروسي
منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

دوستويفسكي

الجريمة والعقاب

(الترجمة الكاملة)

ترجم وروجع
على النص الروسي

ترجمة فايز كم نقش الكردي
مقدمة الدكتور فؤاد أيوب
مراجعة المحامي سهيل أيوب

منشورات

دار اليقظة العربية
ـ دمشق

دار مكتبة الحياة
بيروت

القسم الأوَل

١

في مساء يوم من أيام تموز ، والحرارة فيه على أشدها ، خرج شاب من غرفته المؤثثة المتواضعة ، الكائنة في الطابق الخامس من البناء القديم في شارع « س » وهبط السلالم ثم اتجه ببطء نحو جسر « ك » بعد أن نجح في تجنب لقاء صاحبة البيت التي كانت تقيم في جناح خاص في الطابق الادنى تراقب من يهبط من الاعلى خلال باب المطبخ الذي يطل على السلم والذي كانت تتركه مفتوحا أبدا . وكان يخشى لقاءها لانه كان مدينا لها بمبلغ كبير لقاء سكناه في تلك الغرفة التي تشبه الزنزانة ولقاء الطعام الذي كانت تقدمه اليه ، فكان يهاب ذلك اللقاء ويشعر بارتباك واضطراب كلما اراد التسلل من الدار .

وليس مرد ذلك خوفه وانكساره ، انما كان بسبب الانقباض والتطير اللذين لازماه منذ حين . فقد عاش منطويا على نفسه في عزلة تامة يوقره العوز وتسحقه الفاقة حتى بات يتهيب المقابلات على اختلاف الوانها ...

وبلغ به الحال أن ارتضى بما أحاطه من شظف وجوع بعد أن كان يشعر بمرارة وألم . فاهمل الموارد التي كانت تكسبه خبزه اليومي وعزف عن البحث عن سواها ...

لم تكن صاحبة الدار لتخيفه حقا مهما بلغت نواياها المبيتة ضده، لكنه ما كان يطيق الوقوف معها على « بسطة » السلم والاصغاء الى ذلك السيل المتدفق من الكلمات التي تنطلق من فمها حول موضوعات لا تهمه في قليل أو كثير ، والتي يعقبها دائما الحاح متكرر بلزوم دفع ما عليه من ديون ، الحاح توشيه التهديدات والشكايات وتضطره من جانبه الى اختلاق الحجج والاعتذارات والكذب ... فكان يفضل أن

يتسلل على السلم كالقط الحذر وأن يختفي دون ان يراه احد ، حتى اذا ما بلغ الطريق ، تخلى عن مخاوفه أو تخلت عنه لتعود اليه في محاولته التالية عندما تدعوه الحاجة الى الخروج من جديد !

ولم يكد يبلغ الشارع في تلك الليلة حتى تبخر الخوف الذي يلازمه من دائنيه ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة وراح يحدث نفسه قائلا :

« كيف يثير هذا الامر التافه في نفسي كل هذا القلق وانا أتدبر موضوعا خطيرا كالذي انا بصدده ؟ ••• صحيح ان كل شيء في متناول يد الانسان ، ولكنه يفلت كل شيء بنذالته وجبنه • انني متلهف لمناقشة هذا الامر كمبدأ لأعرف ما يخيف الرجال اكثر من سواه ••• لا شك أن ما يخيفهم لا يتعدى مجرد اجتيازهم خطوة في سبيل تنفيذ فكرتهم ، أو تلفظهم بكلمة دون تدبر ••• بيدَ انني اثرثر كثيرا ••• ولأنني اكثر الكلام لا اعمل شيئا •• او على الاصح انني اثرثر لافتقاري الى العمل ••• ولقد تعلمت ذلك خلال هذا الشهر بسبب بقائي اياما كثيرة منطويا في ذلك الحجر افكر في كل شيء وفي لا شيء•

ولكن لم اذهب الآن الى هناك ؟ هل استطيع تنفيذ ما اعتزمته ؟ هل يعقل ان اكون جادا في ذلك ؟ لا أعتقد أنني جاد في عزمي ••• انني اخدع نفسي بوهم يداعب مخيلتي • ولكنه لا يتجاوز حد الدعابة • نعم الدعابة • »

كان الجو خانقا والحرارة لا تحتمل ، والشارع مزدحما بالناس وقد تناثرت على جنباته « السقالات » المنصوبة وقطع القرميد واحجار الكلس، وعبق الجو برائحة الغبار والعفن التي يتفرد بها الصيف والتي الفها فقراء بيترسبورج الذين افعدهم سوء حالهم عن ارتياد امكنة الاصطياف • لم تكن أعصاب الشاب المتعبة لتحتمل مثل تلك المناظر

المجبولة بالاحاسيس المؤلمة التي ترهق الاعصاب • أضف الى ذلك روائح المشارب المتوافرة في ذلك الجزء من المدينة والسكارى الذين يلاقيهم السائر أينما اتجه ••• كل ذلك كان يضفي على هذا الخليط من المشاهد لونا قاتما تتقزز منه النفس •

بدا الامتعاض واضحا على قسمات وجه الشاب الدقيقة ••• ولكنه كان انطباعا خاطفا سرعان ما تلاشى • ولم يلبث ان استغرق في تفكير عميق واستولى عليه نوع من الذهول ، فراح يتقدم في طريقه دون ان يرى شيئا مما حوله او ان يحاول رؤية ما يحيط به •

لم يكن قبيح المنظر هزيل التكوين ، بل كان مليحا يلفت النظر، ذا شعر أشقر فاتح وعينين داكنتين وقامة فوق الوسط ، رشيقا متين البنيان • كان يسترسل احيانا في مخاطبة نفسه على جري عادته التي الفها في ايامه الاخيرة واعترف بها ، ثم لا يلبث ان يضبط نفسه ليعترف بان افكاره مضطربة متوترة وانه كان خائر القوى منذ ان امضى اليومين السابقين دون أن يتناول طعاما يذكر •

كان يرتدي ثيابا بالية لم يكن ليخرج بمثلها الى الشارع لولا اعتياده عليها وان سكان ذلك الحي لا يلقون بالا الى مثل هذه الامور•

اقترب من « سوق العلف » حيث تقوم متاجر من طراز خاص ، ويقطن عدد من الصناع والعمال تزدحم بهم شوارع هذه المنطقة من بيترسبورج وأزقتها ، وبدت لعينيه صورة نشيطة حافلة بالحركة ، لا تدع مجالا للخوف من التعرض لنقد المارة اذا ما وقعت ابصارهم على مظهره الشاذ الزري • لكن نفسه كانت طافحة بشعور من الاحتقار الاهوج حتى انه رغم سرعة التأثر المعروفة فيه والتي كانت تبلغ لديه احيانا مبلغ السذاجة ، كان يعرف ان خجله من عرض اطماره في الشارع لن يكون اكثر منه في عرضها في اي مكان آخر • بيد انه كان

يخشى ان يقابل بعض معارفه واصدقائه القدامى الذين كان عازفا عن لقياهم والاحتكاك بهم .

وحدث ان مر سكير كان محمولا لغير ما سبب على عربة كبيرة فارغة . فلما حاذاه هتف به قائلا : « اسمع يا هـذا ... يا صانع « البرانيط » الالماني ! » فتوقف الشاب فجأة وامتدت يده بحركة عصبية الى قبعته المائلة على جانب رأسه على ابشع شكل ! لقد كانت قبعة مستديرة عاليه كان قد اشتراها من محلات « زيعرمن » لكنها خلقت لكثرة الاستعمال وحال لونها وامتلأت بالثقوب واللطخات وتمزقت حوافيها ، وخامره شعور لا يمت بصلة الى الارتباك بل الى الـفزع ...

تمتم قائلا : ـ لقد كنت اتوقع ذلك . وانها لهفوة عظيمة هذه التي اكاد اتورط فيها . ان اتفه الاشياء تكفي لتعريض القضية كلها للخطر ... نعم ان هذه القبعة تلفت الي الانظار لانها مضحكة وهذا هو السبب الذي يجعلها محط الانظار ، فلو استبدلتها بقبعة من ذات الطرف الواحد « كاسكيت » لانسجمت تماما مع أسمالي . ان أي كساء للرأس مهما كان قديما افضل من هذه التي لم يعد يمكن تسميتها قبعة والتي لا يقبل احد ان يضع مثلها على رأسه فهي ترى عن بعد ويبقى شكلها عالقا في الاذهان . نعم ... لسوف يذكرونها ... وستصبح عندئذ دليلا على اداتني .. بينما ينبغي ان امر في هذا الظرف دون ان ألفت الي الانظار . نعم .. شيء تافه بل شديد التفاهة ولكنه يكفي لافساد كل التدابير . وعلى الغالب تفسد أتفه الاشياء جلائل الامور !

لم يكن يقصد مكانا قصيا ، بل كان يعرف عدد الخطى اللازمة لبلوغ هدفه ابتداء من باب مسكنه .. نعم .. لقد كان عليه ان يقطع سبعمائة وثلاثين خطوة تماما . فلقد عدها لما كان مشروعه كامنا في

تطلق التصور .. ولم يكن ليؤمن في ذلك الحين بمثل تلك الاحلام وبامكانية تحقيقها ، بل كان يكنها فى اعماقه ليدخل البهجة والرضى على نفسه متأثرا بجرأة تلك الاحلام المخيفة الحافلة بالمغريات . ولكن ها قد مضى على ذلك شهر كامل . وبدأ ينظر الى الامور ويتخيلها من زاوية مختلفة . وعلى الرغم من انه كان يعيب على نفسه خلال مناجاته لها قلة نشاطه وتردده وعدم ثقته ، الا انه اعتاد برغمه على اعتبار « ذلك الحلم الكريه » امرا جديرا بالعناية وها هو الآن فى طريقه للقيام « بتجربة » لمشروعه ، فلا عجب اذا تعاظم اضطرابه مع كل خطوة .

اقترب من بناء كبير يشرف احد جانبيه على القناة والآخر على شارع « ع » وقد اجتاحته هزة عصبية عنيفة ، كان هذا البناء المقسم الى مساكن صغيرة مأهولا بعدد من الصناع من مهن مختلفة بين صانعي اقفال وخياطين وطاهيات وكان فيه المانيون من فئات مختلفة، وفتيات من بائعات الجسد وموظفين صغار مما جعل حركة الدخول والخروج دائمة خلال البوابتين الكبيرتين والناس يخترقون الساحتين الملحقتين بذلك البناء الضخم في طريقهم الى السلالم . وكان امر العناية بالبناء موكولا الى ثلاثة أو اربعة من الخدم . فكان سروره عظيما حينما لم يصادف منهم احدا وهو يجتاز البوابة ويتسلل الى الداخل صاعدا سلما الى اليمين . كان الظلام شديدا فى ذلك السلم الضيق المعد للخدم . ولكنه كان قد اعتاد صعوده حتى اصبح ملما بكل دقائقه ، وشعر انه في تلك الظلمة بمنجاة عن كل عين باحثة .

ولما بلغ الدور الرابع ، راح يناجي نفسه قائلا : «ماذا يكون حالي من الخوف اذا حدث وجئت لتنفيذ « الخطة » وانا الذي ارتعد فرقا من مجرد التجربة ؟

التقى هناك بجنود قدامى ـ اصبحوا حمالين بعد تركهم الخدمة

ـ كانوا يسدون عليه الطريق وهم ينقلون اثاث مسكن اخلاه مؤخرا موظف الماني كان يشغله مع اسرته • وكان يعرف هـذا سلفا ، فراح يحدث نفسه على عادته قائلا : « ان هذا الالماني يرتحل اذن ، ولن يبقى فى هذا الجزء من البناء الا تلك العجوز ، لا بأس •• انها معلومات مفيدة على اية حال •• » ، ثم قرع باب العجوز •

ند عن الجرس صوت صدىء وكأنه لم يصنع من النحاس بل من الحديد (التنك) الابيض شأن كل الاجراس التي في المساكن الصغيرة المشابهة لهذا المسكن ، ولقد ذكره صوت الجرس الذي كان قد نسيه ، بواقعه لم يلبث ان تمثلها في خاطره •• فارتجف فجأة وشعر بان اعصابه لن تستطيع الاحتمال اكثر مما احتملت •

انفرج الباب قلبلا ، ومن خلال الفتحة الضيقة ، راحت صاحبة المسكن تعاين هذا الدخيل بحذر واضح • كانت عيناها تلتمعـان في الظلام ، فلما شاهدت الحمالين يعج بهم المشى اطمـأنت بعض الشيء وفتحت الباب على مصراعه ، فاجتاز الشاب العتبة ليدخل الى حجرة امامية صغيرة غارقة فى الظلام تؤدي الى مطبخ يفصله عنها حاجز من الخشب ، ووقفت العجوز امامه تتفحصه بنظرها بسكون •

راح بدوره ينظر اليها : لقد كانت عجوزا عجفاء قصيرة القـامة تحمل على كاهلها عبء اعوامها الستين ، ذات عينين مستديرتين ثاقبتين وأنف صغير مدبب ووجه اقرب الى الشراسة • كانت عاريـة الرأس يلتمع شعرها الاشهب من الزيت الذي ضمخ به ، وكانت تحيط عنقها الطويل الدقيق الشبيه بساق الدجاجة ، بخرقة من النسيج القطني وقد ألقت على كتفيها فراء رثاً متآكلا ، وهي لا تنفك تسعل سعالا عميقا • ولعلها لمست فى نظرته شيئا غريبا اذ سرعان مـا ارتد اليها حذرها وعادت الى عينيها نظرات الشك التي استقبلته بها •

تذكر الفتى انه يجب ان يتقرب اليها وأن يكون لطيفا مستملحا ، لذلك انحنى امامها باحترام وهو يتمتم قائلا :

ـ اسمي راسكولنيكوف ، وانا طالب علم . ولقد جئت اليك منذ شهر تقريبا ...

فاجابت العجوز وهي تضغط على كل كلمة من كلماتها دون ان تزايلها النظرة المتشككة :

ـ اذكر يا صديقي انك زرتني من قبل .. نعم انني اذكر ذلك تماما .

فاردف راسكولنيكوف وقد اقلقه حذر العجوز كما ادهشه :

ـ حسنا . [illegible] سبيل امر من نوع ذلك الذي سبق ان عرفته ..

ثم سكت وراح يحدث نفسه قائلا : « لعلها حذرة هكذا دائما .. غير انني لم الاحظ ذلك في المرة السابقة .. » وتملكه شعور كريه .

صمتت العجوز كأنما تفكر فيما قاله الشاب ، ثم اشارت اليه بيدها نحو باب الغرفة وقالت وهي تفسح له الطريق :

ـ فلتدخل يا صديقي ..

كانت الغرفة صغيرة يكسو جدرانها ورق اصفر وتزين النوافذ بستائر من « الموصلين » تضفي عليها الشمس الغاربة فى تلك الساعة ضياء قويا . وبنظرة سريعة ، شملت الغرفة ومحتوياتها ، حاول راسكولنيكوف ان يطبع في مخيلته معالمها . اتضح لديه من نظرته الاولى انه ليس فيها ما يلفت النظر ، كان اثاثها القديم البالي يتألف من اريكة ذات مسند عريض من الخشب المليء بالعقد ، وطاولة بيضوية الشكل

موضوعة بالقرب منها ، يضاف الى ذلك منضدة زينـة ذات مرآة في حاجزها وعدد من الكراسي المرصوفة بحذاء الجدران ، وكانت لوحات غير ذات قيمة تحبط بها اطارات متداعية مهشمة ، تمثل فتيات المانيات يحملن فى ايديهن العصافير ، معلقة على الجدران ، وفى احد الاركان اضيء قنديل امام تميمة دينية « ايقونة » صغيرة .

لكن جو الغرفة كان يوحي بنظافة دقيقة . فقد كانت قطع الاثاث ملمعة مصقولة والارضية الخشبية مطلية بالشمع ولامعة حتى ليتعذر اكتشاف ذرة من الغبار في المسكن كله .

لم يمر الشاب بهـذه البادرة دون ابـداء ملاحظته لنفسه على عـادته اذ قـال :

ـ « لا يمكن لغير هؤلاء العجائز المترملات الخبيثات ان يُحِطن انفسهن بمثل هذه النظافة » .

وراح يتطلع بزاوية عينه بفضول الى ستار من قماش هندي يخفي وراءه بابا يؤدي الى غرفة ثانية ـ لم يدخل اليها قط من قبل ـ تحتوي على سرير العجوز وخزانتها .

تبعته العجوز الى الغرفة وانتصبت واقفة امامه لتعود الى تفحصه والتدقيق في قسماته عن قرب ، ثم سألته بلهجة جافة :

ـ مـاذا تريد ؟

فاخرج الشاب من جيبه ساعة دقيقة قديمة من الفضة وقد نقشت على غلافها الكرة الارضية وتدلت منها سلسلة من الفولاذ وقال :

ـ لقد جئتك بشيء ترهنينه !

ـ ولكن الرهن السابق قد حل اجله منذ ثلاثة ايام ..

ـ لا تبتئسي .. سوف ادفع لك فائدة شهر آخر ، فصبرا..

ـ سأصبر اذا شئت يا بني وانا في حل من بيع المرهون منذ الآن!

ـ وهل تعطينني كثيرا لقاء هذه الساعة ، يا آليونا ايفانوفنا ؟

ـ آه .. انك تأتيني باشياء تافهة عديمة القيمة . انت تدري يا صديقي أنني في المرة السابقة رهنت لك ذلك الخاتم لقاء روبلين رغم انه يمكن شراء مثله من اي صائغ بروبل ونصف !

ـ حسنا ، اقرضيني اربعة روبلات ولسوف أعيدها اليك واسترجع ساعتي لانني ورثتها عن ابي ، انني سأحصل على مال في فرصة قريبة .

ـ روبل ونصف اذا اردت . وعلي ان احسم منها الفوائد سلفا.

فصاح الشاب مستنكرا : ـ روبل ونصف ؟..

ـ لك الخيار في اخذها او رفضها .

وارفقت قولها باشارة من يدها التي تحمل الساعة فقدمتها اليه.. اطبقت اصابع الشاب عليها ، لقد بلغ من ثورة غضبه ان كاد ان ينسحب .. بيد انه تمالك نفسه بسرعة حينما فكر في انه لا يملك شروى نقير ، وطمأن نفسه بانه ما جاء لهذا الغرض وحده ، لذلك فقد قال لها بصوت خشن قاس :

ـ حسنا .. هاتي المبلغ ..

نبشت العجوز في جيبها بحثا عن مفاتيحها ، ثم مضت الى الغرفة التي يحجب بابها الستار . ولما انفرد بنفسه ، راح يرهف السمع بفضول وقد استغرق في الحدس والتخمين . تناهى الى اذنه صوت الخزانة وهو يفتح فناجى نفسه قائلا : « لعل المال في الدرج الاعلى ».

حسنا .. انها اذن تحمل مفاتيحها في جيبها الايمن وهي جميعهــا في حزمة واحدة تجمعها حلقة من الفولاذ وبينها مفتاح اكبر من الاخرين بثلاث مرات لا شك انه ليس لباب الخزانة . وعلى هذا فان لديها ولا شك صندوق حديدي وهـــذا مما يثير الفضول .. فالصناديق الحديدية كلها تفتح بمفاتيح من هذا الطراز .. ولكن كم امقت هذا..

رجعت العجوز بعد برهة وابتدرته قائلة :

ــ باعتبار فائدة الروبل الواحد عشرة « كوبيكات » في الشهر ، فان مجموع الفائدة التي يجب ان اتقاضاها سلفا عن روبل ونصف هي خمسة عشر كوبيكا ، يضاف اليها فائدة الروبلين اللذين اقرضتهما لك في الشهر الفائت ولم تردهما ، وهي على هــذا الاساس عشرون كوبيكا ، فيصبح مجموع الفائدة خمسة وثلاثين كوبيكا ، ويبقى لك على ساعتك هذه روبل واحد وخمسة عشر كوبيكا هاكها ..

ــ كيف ذلك ؟ الن يبقى لي اذن الا روبــل واحــد وخمسة عشر كوبيكا ؟

ــ تمــاما ..

لم يعقب الشاب بكلمة ، ومد يده فاخذ المال وراح ينظر الى العجوز كما لو كان لديه ما يفعله او ما يقوله لها دون ان يــتطيع تحديد ذلك القول وذلك الفعل على وجه الدقة ، واخيرا قال :

ــ علني آتيك في الايام القريبة المقبلة بشيء آخر ، قطعة فضية على شكل علبة سجاير فاخرة انتظر ان يردها الي قريبا احد الاصدقاء .

ثم صمت مرتبكا ، فقالت آليونا ايفانوفنا :

ــ سنتحدث عن ذلك في حينه يا عزيزي .

اتجه نحو الردهة وهو يقول بلهجة اجتهد ان تكون بريئة بسيطة:

ــ الوداع •• وعلى فكرة ، هل انت دائما وحيدة في البيت ؟ هل لا تمكث اختك لديك احيانا ؟•

ــ ماذا يهمك من شأن اختي ؟

ــ لا شيء البتة •• لا تتصوري شيئا •• الوداع يا آليــونا ايفانوفنــا •

خرج راسكولنيكوف وهو فريسة اضطراب متزايــد • وراح وهو يهبط السلم ، يتوقف احيانا وكأنه اقتنع بامر ما فجأة • ولمـا بلغ الشارع هتف :

ــ آه يا ربي ! كم هو مقيت كل هذا •• هل من المعقول •• هل من المعقول •• ان أ••• ثم اضاف مؤكدا : « لا ، انها حماقة ، انه محال •• هل حقيقة مرت برأسي فكرة مريعة كهذه ! يا للحمأة التي يستطيع قلبي ان يضمها في اعماقه •• انــه شر الضرر ، بل القذارة ، الخزي الملطخ بكل ذلك •• كلما افكر انني هدهدت هذا الامل •• »

كان يفتقر الى التعابير والكلمات القادرة على التعبير عن الشعور الذي كان يهزه • فالاشمئزاز العميق الذي كان يعذبه ويقلقه حينما كان في طريقه الى مسكن هذه العجوز ، بلغ مــن شدته وامتداده في نفسه درجة جعلته عاجزا عن الافلات من ضيقه وتبرمه الحاليين • مضى في سبيله يذرع الرصيف مترنحا كالرجل الثمل دون ان يلقي بالا الى المارة الذين كان يصطدم بهم • ولم يتجلد ويتماسك الا عند مــا ابتعد عن الدار المشؤومة بشارع كامل • اجال بصره فيما حوله • فاذا به امام حانة تطل على الطريق يهبط النازل اليها على سلم يقوده الــى طبقة سفلى ، واذا باثنين مــن السكارى يخرجــان منها وهمــا يتساندان ويتشاتمان • ودون ان يفكر في الامر هبــط « راســكو لينكوف » الدرجات الى الحانة •

لم يكن قد دخل حانة من قبل ولكنه كان يشعر بدوار في رأسه وبعطش حاد في جوفه ، كان يشتهي ان يشرب كأسا مـن « البيرة » المنعشة وكان يعزو ضعفه الى الجوع • انتحى ركنا معتما قذرا وطلب لنفسه الشراب ، وعب كأسه لاولـى بشراهة ، فشعر براحـة وعادت افكاره اكثر وضوحا وتركيزا ، راح يخاطب نفسه يحفزه امل جديد :

ـ حماقات هي كل هذه الافكار •• ليس في الامر ما يزعج • ان هذا التشوش مرجعه مادي ، ولسوف استعيد قوة التفكير بعـد ان اعب قدحا آخر واتناول قطعة من (البسكويت) ، سيعود الي صفاء افكاري ورباطة جأشي •• نعم لا شك ان هذا كان عديم الاهمية ••

شع في عينيه بريق خلفته الوداعة التي اعقبت الراحة النفسية التي شعر بها ، وبدا كأنه قد تخلص منذ حين من حمل كان يبهظ كاهله وراح يلقي على الموجودين نظرات مفعمة بالود والصداقة • غـير ان شعورا غامضا كان يؤكد له ان هذا التفاؤل الذي غمر نفسه يرجع كذلك الى حالة مرضية •

لم يكن في الحانة الا نفر قليل من الرواد في مثل تلك الساعة •• فقد غادرها في اعقاب الثملين ـ اللذين رآهما يخرجان منها عند دخوله ـ خمسة اشخاص يجذبون معهم فتاة ترقص على انغام (اكورديون) فلما خرجوا ، عم السكون في المكان وران الهدوء • ولم يبق في الحانة الا رجل ـ يبدو انه من الباعة ـ يعاقر كأسا امامه وقـد سيطر عليه الشراب •• بينما كان زميله ـ وهو رجل طويل القامة ضخم الجثة ـ يرزح تحت وطأة المسكر • كان يترنح على مقعده يمينا وشمالا ، ومن حين الى آخر ، كان يستفيق مـن غفوته فيباعد بـين ذراعيه مقلدا الراقصات ، فيتلوى جسمه الممتلىء الضخم بفعل تلك الحركات الوتيرة التي كان يزاولها وهـو جالس في مقعده • كان يدمدم بصوت نشاز

(لازمة) ويحاول تذكر الابيات التابعة لهـا فتخرج من فمـه متفككة متعثرة :

خلال عام داعبت زوجتي .

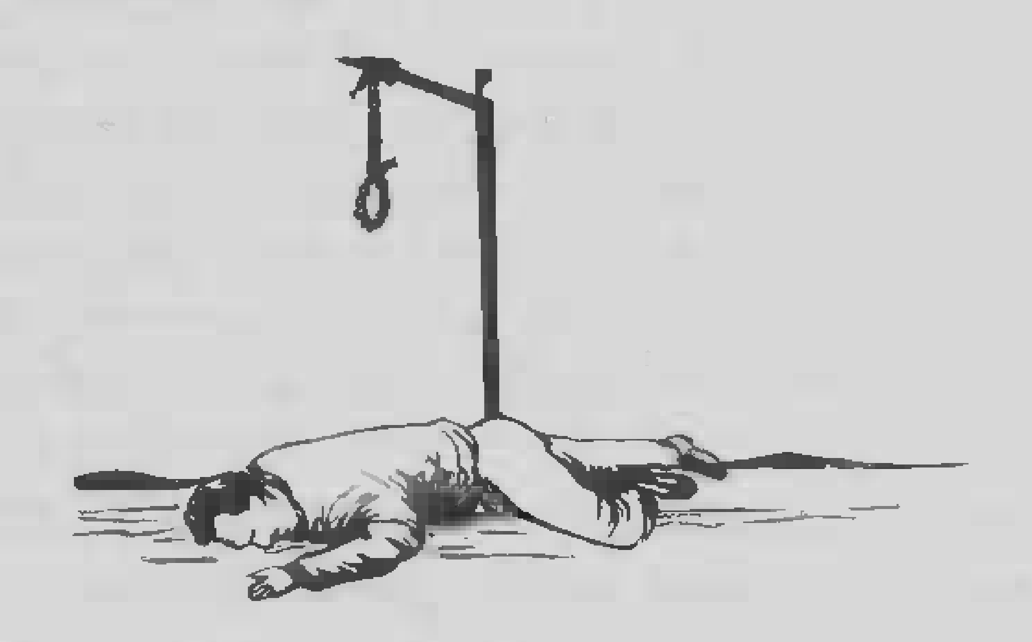
خلا .. ل عام دا .. عب .. ت زوجتي .

ثم يصمت ويغفو حتى اذا استفاق من جديد راح يغني :

كنت امر بالبـاديا تشيسكايـا

عندما وجدت صديقتي الطيبة ....

وغني عن القول انه كان وحده يطرب لغنائه بينما كان صديقه يقابله بمظاهر التقزز والاستنكار كلما انفجر في غنائه [illegible] كان هناك ايضا رجل آخر يلوح عليه انـه موظف متقاعد ... كان يجلس منفردا وهو يتناول من كأسه جرعات صغيرة بين الحين والآخر ويسرح طرفه حوله ... كان يبدو انه فريسة اضطراب معين ...



٢

لم يكن راسكولنيكوف ميالاً الى المجتمعات بل كان كما أسلفنا ، يتحاشى كل احتكاك مع الناس وخصوصا في الآونة الاخيرة. غير انه فى تلك اللحظة ، كان يشعر بدافع يجتذبه الى اقرانه من الناس وكأن ثورة قامت في كيانه جعلته يتنكر لعزلته ويندفع ساعيا وراء اقامة علاقات مع الآخرين ! كان ذلك الشهر المؤلم الحافل بالعزلة والاحاسيس المختلفة قد نال منه لدرجة راح بعدها يحس برغبة قوية في التعرف الى جو جديد وعالم جديد حتى ولو كان مرذولا موبوءا . وهكذا شعر بسرور دفعه الى المكوث في مكانه اطول مدة ممكنة .

كان صاحب الحانة منزويا فى حجرة مجاورة للبهو العام لكنه كان لا يفتأ يتردد على « الصالة » الرئيسية حيث زبائنه يشربون ويسمرون فيهبط اليهم درجات كثيرة تظهر منه بادىء ذي بدء حذاءه اللامع الانيق ذا الساقين الحمراوين .. ولم يكن يضع حول عنقه رباطا بل كان يرتدي تحت « الرودنكوت » المنسجم مع قامته ، صدارة من الساتان الاسود شديدة القذارة وكان وجهه يلمع من الشحم اشبه بقفل غمس في الزيت حديثا . ووراء الخوان ، كان ينتصب غلام يكاد يبلغ الرابعة عشرة من عمره ، بينما يقوم غلام آخر اصغر سنا على خدمة الزبائن . وكانت حلقات من القثاء معروضة على شكل ساعة ، الى جانب قطع من « بسكويت » حائل اللون وشرائح من لحم السمك تفوح منها رائحة كريهة .. وكانت الحرارة شديدة خانقة لا تحتمل والجو مشبعا برائحة الكحول حتى انه يكفي ان يتنفس المرء خمس دقائق فيه حتى يثمل .

يحدث احيانا ان نلتقي باشخاص نجهلهم تمام الجهل ومع ذلك نشعر باهتمام بهم وبدافع يقربنا منهم قبل ان نبادلهم كلمة واحدة ..

كذلك كان شعور « راسكولنيكوف » حيال ذلك الرجل الجالس في معزل عن الآخرين .. ذلك الذي يلوح عليه انه موظف متقاعد .. فلم ينقطع عن النظر اليه خصوصا وان الموظف بدوره كان يرقبه بالحاح ، والرغبة في التقرب منه واضحة على وجهه . بينما كان ينظر الى الآخرين بما فيهم صاحب الحانة ، نظرة عادية ، نظرة خبير ، طافحة بنوع من الترفع المقرون بالاشمئزاز وكأنهم يأتون بعده في رفعة المقام والمكانة الاجتماعية او درجة الثقافة ، حتى لعز عليه ان يبادلهم الحديث والكلام . كان رجلا متجاوزا العقد الخامس من عمره ، متوسط القامة متين البنية تبعثرت على فروة رأسه السوداء شعرات بلون اشهب تشي بسنه . وكان وجهه متورما بتأثير الادمان ، اصفر ، او على الاصح ميالا الى الخضرة . وكانت عيناه تلتمعان تحت جفنيهما المتفخين تشوبهما حمرة لا تخفي الحيوية العنيفة الماثلة في نظراتهما . وكانت فيه ظاهرة خاصة تجتذب الانتباه : ذلك ان نظرته كانت تستعر بنوع من الحماس ... لم يكن ينقصه الذكاء ولا الاتزان ولكن كانت تصدر عنه احيانا حركات فجائية غير مقصودة يمكن ان تعزى الى الجنون . كان مرتديا لباسا اسود رسميا « فراك » قديما ممزقا وقد انتزعت ازراره الا واحدا كان لا يزال صامدا فى مكانه على شكل ما ، وكأنه اراد بادخاله في العروة المقابلة له ، ان يحتفظ بالمظهر اللائق بدافع من احترام الرسميات ، وقد برز من الصدارة المجدبة قميصه المغطى بالبقع والأوساخ .. كان حليق اللحية ككل الموظفين ولكن لحيته ما كانت مزالة منذ ايام بدليل تلك الحزمة من الشعر القاسي التي كانت نابتة على خديه ، اما حركاته وهيئته فكانت مطبوعة « بالبوروقراطية » المهيبة .. كان يبدو عليه برغم ذلك شيء من القلق : فكان لا يفتأ يسوي شعره ويضغط راسه بين راحتيه حينا تلو الآخر بيأس وقنوط ، جاعلا مرفقيه على المائدة القذرة المبللة بالجعة . واخيرا نظر الى

راسكولنكوف بثبات وخاطبه بصوت مرتفع حازم قائلا :

ـ هل تعتبرني متجاسرا يا سيدي اذا اتصلت بك بهذا الشكل المباشر ؟ أنه على الرغم من ان مظهرك لا يدل على مكانة رفيعة ، غير ان خبرتي تدلني على أنك رجل ذو تربية حسنة لم تعتد الشراب . لقد كنت ابدا احترم التربية خصوصا اذا تماشت مع الشعور القلبي . انني احمل لقب مستشار واسمي مارمبلادوف المستشار القانوني . هل انت موظف بالمثل ؟

فاجابه الشاب وقد بوغت قليلا من لهجة التفخيم التي اتسم بها حديث الرجل ومن مفاجأته بهذا الحديث المباشر الذي لم تسبقه مقدمات:
ـ كلا .. انا طالب علم ..

لم يستطع ـ رغم الرغبة التي أحس بها مؤخرا في اقامة علاقات مع كائن من كان ـ التحرر من ذلك الشعور بالنفور الذي ما انفك يلازمه ويستعر في نفسه كلما وجه اليه غريب كلاما ينال منه او على الاقل يحمل بين طياته معنى النيل من شخصه ..

استرسل الموظف قائلا :

ـ طالب علم او طالب سابق ! لقد فكرت في هذا . انها الخبرة الطويلة المستمرة ..

ووضع أصبعا على جبهته تأكيدا لميزاته العقلية واضاف قائلا :

ـ لقد كنت طالب علم او انك على الاقل ترسمت برنامجا دراسيا .. ولكن هل تسمح لي ؟..

وأشفع كلامه بالفعل ، اذ نهض من مجلسه مترنحا وحمل صحيفته وقدحه واتجه نحو مائدة الفتى حتى اذا ما بلغها جلس الى جانبه ..

كان ثملا ولا شك ، ولكنه كان يتحدث بجلاء ، وحماس لو لا بعض الالتباس والاختلاط الذي كان يشوب حديثه بين الحين والحين • تهافت على « راسكو لينكوف » بتعطش حتى وكأنه كان هو الآخر قد امضى شهرا كاملا لم يتحدث خلاله مع احد !

اردف بلهجة رزينة يقول :

ـ حقيقة يا سيدي العزيز ان الفقر ليس عيبا ، كما اعرف كذلك أن الادمان رذيلة •• لكن العوز يا سيدي نعم العوز ، انه عيب ولا شك • لانك في الفقر تستطيع الحفاظ على نبل شعورك المرهف • لكنما فى العوز لم يتوصل احد الى الابقاء على كرامته ! والمعوز لا يستدعي طرده بالعصا بل بالمكنسة ، لتكون معاملته اكثر زراية وتحقيرا •• والناس على حق في ذلك • لان المعوز نفسه هو اول من يتذلل ويريق ماء وجهه ••

واردف بعد صمت قليل :

ـ منذ شهر يا سيدي ضرب السيد « ليبيزيا تنيكوف » زوجتي •• وانت تدرك أن زوجتي تختلف عني بالطبع •• فهل رأيت مثل هذا الذل؟ •• واخيرا اسمح لي بان ألقي عليك سؤالا واعتبره لمجرد الفضول : هل أمضيت مرة الليل على نهر النيفا في الزوارق التي تحمل العلف ؟

فاجابه راسكو لينكوف :

ـ كلا •• لم يسبق أن وقع لي ذلك ! ولكن ماذا تقصد بسؤالك ؟

ـ حسنا •• اردت ان اقول : انـني أبيت حيث ذكرت لك منذ خمس ليـال !

ثم ملأ قدحه وافرغه في جوفـه واسترسل في التفكير ••• كانت ثيابه وما بقي عالقا بها من القش تؤيد قوله ، حتى ان رأسه لم يسلم من المساهمة بنصيبه في هذا التأييد •• ويمكن للناظر اليه ان يحكم بانه لم

يبدل ثيابه ولم يغتسل منذ خمسة ايام حقا •• كانت اظافره مسودة لكثرة ما تراكم تحتها من الاوساخ ويداه الضخمتان المحمرتان ، قذرتين بشكل ملحوظ •

بدا كأن الحديث قد اجتذب اهتماما عاما بين الموجودين لم يبلغ بعد درجة التركيز • فالغلامان كانا يتضاحكان وراء الخوان الكبير بينما لاح صاحب الحانة وكأنه نزل من غرفته العليا خصيصا للاستماع الى هذا الانسان « المسلي » ! فكان جالسا على مقربة وهو يتثاءب بخمول ويتصنع الاهتمام مما يؤكد ان « مارميلادوف » كان معروفا منذ بعيد في ذلك المكان • لا شك ان ضعفه ازاء ميله لالقاء المحاضرات الطنانة ، عاد عليه بمحادثات كثيرة مع غرباء لم يكن يعرفهم مـن قبـل فى غير تلك الحانة •• وعادة التحدث الى الناس مستحكمة عند كثير من السكارى وخصوصا لدى اولئك الذين لا يجدون معاملة حسنة في دورهم ، والذين يفضلون أي شيء على المنزل •• لذلك تراهم يحاولون بث رفاق السكر شكاياتهم وتظلمهم سعيا وراء اكتساب عطفهم اذا امكنهم ذلك •

هتف صاحب الحانة بصوت جهير :

ـ يا لك من مهرج يا هذا •• لِمَ لا تشتغل ؟ لم لا تؤدي اية خدمة طالما أنك موظف ؟

فاجابه « مارميلادوف » موجها حديثه الى راسكو لينكوف كما لو كان هو المتحدث :

ـ لم لا أؤدي خدمة يا سيدي ؟ لم لا أؤدي أية خدمة ؟ أولا يقطر قلبي دما كلما احسـت بما انا عليه من ذل وحقارة ؟•• عندما ضرب السيد « ليبيزيا تنيكوف » منذ شهر زوجتي المسكينة بيده بينما كنت انا متهالكا اشبه بالاموات لشدة السكر •• أو لم يكن ذلك ليحز في

قلبي ؟ اسمح لي ايهـا الشاب •• هل وقع لك •• اه •• ان توسلت لاقتراض بعض المال دون جدوى؟؟

ـ لقد حدث لي ذلك •• اريد ان اقول •• ماذا تقصد بكلمة دون جدوى ؟

ـ اريد ان اقول بكلمة دون اية جدوى ، ان تكون متأكدا سلفا من ان مساعيك فاشلة لن تصل بك الى نتيجة •• خذ على سبيل المثال : انت تعرف سلفا وبكل تأكيد ان هذا الرجل ـ وهو اشد المواطنين نفعا واحسنهم مركزا ـ لن يقرضك مالا مهما تذرعت باسباب • اذ لـم يقرضك ماله ؟ انه يعرف سلفا انك لن ترد اليه ما تقترضه فهل يعطيك بدافع الشفقة ؟ ان السيد « ليبيزيا تنيكوف » ـ وهو من المطلعين على الآراء الحديثة ـ اوضح مرة ان العلم نفسه ينفي الشفقة ، وان الحال كذلك في بريطانيا حيث يسيطر الاقتصاد السياسي ••• كنت اسألك : لم يوافق على اقراضك المال ؟ مع ذلك فانك على الرغم من علمك الاكيد بعقم محاولتك فانك تسير الى هذا الهدف لكي•••

فقاطعه راسكولنيكوف قائلا :

ـ وما فائدة الاستمرار ؟••

ـ ذلك لانه ليس امامك سبيل آخر ، ولانك تميز المكان المناسب عن سواه • المهم ان الحاجة تدفعك الى سلوك سبيل معين • ولسوف يأتي يوم تجد نفسك فيهمكرها عـلى تقرير مصيرك • خذ مثلا : عندما ذهبت ابنتي الوحيدة للمرة الاولى للحصول على بطاقتها • لقـد قمت بنفسي بتدبير يعود علي بالفائدة •• نعم ان ابنتي حصلت علي بطاقة وهي تعيش من هذه المهنة !••

ولما شعر بالغلامين يسخران منه ، وبصاحب الحانـة يشاطرهما

السخرية بدوره ، ورأى ان وجه انشاب قد ظللته سحابة مـن الحزن ، اردف يقول ببرود ظاهر :

ــ لا تبتئس يا سيدي ، لا تبتئس .. فلقد تعودت مثـل هـذه الهزات من الرؤوس .. ان مـا اقوله معروف مـن الناس اجمعين ، والاسرار جميعها تنكشف آخر الامر ، انني اقابل مثل هـذه الامور بالخزي وليس بالاحتقار .. ليكن . نعم ليكن . هذا هـو الانسان !

اسمح لي ايهـا الشاب هل تستطيـع .. كـلا ، يجـدر بي ان أعبر عن رأيي بطريقة اكثر واقعية . لأقل : هل تجرأ بدلا من هل تستطيع .. نعم هل تجرأ ــ بعد ان تمعن النظر في هذه اللحظـة ــ ان تقول بالتأكيد انني لست خنزيرا ؟

غير ان الشاب لم يعقب بكلمة .. بينما استرسل الخطيب المفوه بانتظار انتهاء عاصفة الضحك التي اثارتها عبارته الاخيرة في « الصالة »:

ــ حسنا .. لنفترض انني خنزير ولكن هي ! انهـا سيدة ! انا صورة عن الحيوان ولكن كاترين ايفانوفنا ــ زوجتي ــ شخصـية ممتازة .. فهي ابنة ضابط كبير .. نعم لنفترض انني فاسد ولكنها ــ هي ــ تملك قلبا حانيا الى جانب ثقافتها وعواطفها النبيلة ! ومع ذلك .. آه لو انها اشفقت علي يا سيدي .. ان كل انسان يا سيدي بحاجة الى ملجأ يشعر فيه بالحنان والشفقة ! وكاترين جائرة ظالمة رغم شهامتها ونبلها ورغم علمي بانها عندما تنقي البراغيث عن ثيابي كما افعل احيانا بنفسي، فانها لا تعمل ذلك الا بسبب اشفاقها علي ..

تعالت الضحكات مجددا في المكان فاردف يقول وقد علا وجهه الوقار مجسدا :

ــ آه يا الهي .. لو ان مرة فقط .. ولكن لا .. كل ذلـك لا

يجدي .. فما فائدة الكلام ؟ نعم ما فائدته ؟ انني لم اعامل مرة بحنان. لكن لقد غدا ذلك امرا عاديا بالنسبة الي وغدوت وحشا بالفطرة !

وهنا تدخل صاحب الحانة في الحوار وهتف بعد ان اهوى بقبضته على المنضدة :

ـ وحش فطري .. وأي وحش !

ـ تلك هي طبيعتي ! اتدري يا سيدي .. انني شربت حتى جواربها ولا اقول احذيتها .. لان ذلك يكون غير متناسق مع الوقائع .. اما جواربها .. نعم جواربها فقد شربتها .. وشربت كذلك منديل عنقها المصنوع من شعر الماعز ، وكان قد أهدي اليها قبل زواجنا .. فهو اذن يخصها ولا يخصني .. ونحن نسكن غرفة باردة ... لقد اصيبت بسعال في الشتاء الاخير وها هي الآن تبصق دما .. ولنا ثلاثة اولاد صغار ، وتشتغل كاترين ايفانوفنا من الصباح وحتى المساء ، فهي تغسل الملابس وتنظف الاواني وتعنى بالاطفال لانها منذ حداثة سنها اعتادت النظافة والفتها.. وصدرها ضعيف وقابليته للسل جلية واضحة اشعر بها تماما . وكيف لا اشعر بذلك ؟ انني كلما اكثرت من الشراب ، كلما ازددت احساسا بذلك الخطر . ذلك لانني اكتشف في الشراب استيعابا كبيرا للالم والشفقة . ولذلك اشرب ! انا اشرب لاضاعف ألمي.

ثم احنى رأسه بيأس على المائدة ولبث كذلك برهة لا يريم . ولما استعاد هدوءه اعقب قائلا :

ـ ايها الشاب ، يخيل الي انني اقرأ على وجهك امارات حزن معين ! وقد احسست بذلك منذ ان دخلت ، مما حدا بي الى الاتصال بك . انني باطلاعك على تاريخ حياتي ، لم اقصد تحقير نفسي في اعين هؤلاء الكسالى المتراخين الذين يعرفون ذلك بعد ان استمعوا الي اكثر

حين مرة ، ولكنني كنت ابحث عن انسان لطيف حسن التربية لأبثه شكواي . اعلم ان زوجتي تلقت علومها في مؤسسة ارستقراطية جيدة في الاقاليم وقد رقصت عند تخرجها امام الحاكم مرتدية « شالها » وكانت الحفلة تضم عددا من الشخصيات الرسمية .. ولما انتهت ، حصلت زوجتي على شهادتها وعلى « مدالية » ذهبية .. فاما المدالية ، فقد بعناها كذلك منذ زمن بعيد .. اه .. واما « دبلوم » الشرف ، فلا زالت تحتفظ به الى اليوم في صندوق . وقد أطلعت عليه مؤخرا صاحبة المسكن الذي نقطنه .. نعم .. لقد أطلعتها عليه رغم مشاحناتها المستمرة معها . ذلك انها كانت في حاجة الى التباهي امام بعضهم ، فعمدت الى ذكرياتها الماضية تحييها . وانا لا اثقل عليها ، نعم لا اثقل عليها ، لان ذكرياتها القديمة هي كل ما بقي لها الآن . اما ما تبقى فقد تبدد كالسحاب .. نعم .. نعم ، انها سيدة غضوب متباهية وصعبة المراس . فهي تغسل ارض مسكننا بيدها وتقنع برغيف من الخبز الاسود . لكنها لا تتزحزح قيد انملة امام الامور التي تتعلق بالاحترام والكرامة . لذلك لم تحتمل سماجة السيد ليبيزيا تنيكوف . فلما ضربها هذا بسبب ذلك ، لازمت فراشها متأثرة بالاهانة التي لحقت بها اكثر من آلام الضرب الذي نالها . لقد كانت ارملة لما تزوجتها وكانت اما لثلاثة اطفال صغار . وقد تزوجت للمرة الاولى — بدافع الميل — ضابطا من سلاح المدفعية هربت معه من بيت ذويها . كانت تحبه حبا جنونيا ، ولكنه سقط فريسة المقامرة ، فحوكم بسبب ذلك ومات على اثر المحاكمة . لقد كان يضربها في ايامه الاخيرة وعلى الرغم من انه لم يترك لها شيئا عند وفاته ، فانها لا زالت تذكره اليوم وملء عينيها الدموع ! انها تذكره كلما ارادت ان تقارن بيني وبينه لتشعرني بما انا عليه،وانا مسرور من ذلك لانه يتيح لها بهجة التخيل والتذكر .. ولقد ظلت بعد وفاته وحيدة مع اطفالها الصغار في اقليم ناء مجهول حيث التقيت بها اول مرة . كانت في فاقة

مستحكمة لا استطيع وصفها لك على الرغم من انني تذوقت كل انواع العوز .. وكان ذووها جميعهم منصرفين عنها مغفلين امرها ، مع ذلك فقد كانت فخورة ابدا معتزة بنفسها .. وعندئذ يا سيدي تقدمت انا ، وكنت ارملا بالمثل ، ولي من زوجتي الاولى فتاة كانت في الرابعة عشرة من عمرها ! طلبت يدها لانني ما كنت استطيع تصور مثل ذلك الالم الهائل ينزل بسيدة مثلها .. لك ان تحكم بنفسك الى أي مدى بلغت بها الفاقة حتى قبلت ان تتزوجني ، وهي المهذبة المثقفة سليلة الاسرة العريقة .. المهم انها قبلت بي وهي تبكي وتنتحب وتلوي يديها الما . ذلك لانها لم تجد لنفسها مخرجا آخر ! انت تدرك ماذا اقول .. انت تفهم ما اعني بكلمة : لم تجد لنفسها مخرجا .. ام تراك لم تفهم بعد المعنى ؟ كلا .. انك لم تفهمه بعدها لقد قمت بواجباتي حيالها طيلة عام كامل بشرف وامانه دون ان اقرب هذا (واشار بيده الى زجاجة الشراب) لانني افهم معنى العواطف . غير أنني لم أوفق في تحريك عواطفها .. وبما انني كنت عاطلا بين حين وآخر دونما سبب اللهم الا الدواعي الادارية البحتة ، فقد شغفت بالشراب .. وقد مضى علينا عام ونصف منذ أن جئنا نسعى في هذه العاصمة البديعة المزينة بعدد كبير من الابنية الضخمة . اننا لم نصل الى هنا الا بعد اغتراب ومصائب لا تحصى .. فوجدت هنا عملا ما لبثت أن فقدته كالعادة .. ولكن ليكن معلوما لديك أنني فقدت عملي بخطيئتي هذه المرة لأن طبيعتي الفطرية انتصرت على تطبعي .. اننا نعيش اليوم في كوخ حقير تمتلكه أميلي فيودوروفنا ليبويشسل . أما كيف نعيش ومن أين ننفق وكيف نقتات .. فذلك ما لا أعلمه !..

ان في الدار التي نقطن غرفة منها ، عددا من المستأجرين الاخر .. وكأننا في « كفر نعوم (١) » حقيقة .. نعم ! .. وكانت ابنتي من

---

(١) كفرنعوم مدينة من مدن ـــ فلسطين الشمالية ـــ ، ويقصد المؤلف تشبيه الدار بالمحشر لكثرة سكانها ، ـــ المترجم ـــ

زوجتي الاولى تنمو مع الزمن . أما ما عانته من « خالتها » زوجتي خلال أعوام نموها ، فانني أفضل أن لا أخوض فيه . لأن كاترين ايفانوفنا ، رغم أنها تفيض بالشعور والرقة ، ألا أنها لا تخرج عـن كونها سيدة قاسية سريعة الغضب . أقول لك هذا فقط ، اذ ماذا يجدي البحث في مثل هذه الامور !.. لم تتلقَ ابنتي سونيا شيئا من الثقافة كما لا بد خمنت .. ولقد حاولت منذ اربع سنين أن أعلمها بعض التاريخ العام والجغرافيا ، غير أنني توقفت عن متابعة هذا النشاط لأنني شخصيا ضعيف في هذه المواد ولأن الكتب اللازمــة لاستدراك هذا الضعف تنقصني .. آه ماذا أقول .. ان مثل هذه الكتب المفيدة لم يعد لها وجود ! اذن فقد توقفنا عند سيروس ملك الفرس ..

ولما شبت ابنتي وبلغت الرشد ، قرأت بعض المؤلفات الروائية .. ولقد أعارها السيد ليبيزيا تنيكوف مؤخرا كتابا عنوانه : (فيزيولوجية لويس) . أتعرفه ؟.. لقد قرأته بشغف عظيم . بل أنها التهمته التهاما ، وكانت تقرأ لنا أحيانا بعض الفقرات منه بصوت عال .. ذلك هو كل ذخرها الذهني ! والآن انني أتوجه اليك يا سيدي لألقي عليك سؤالا بصورة خاصة جدا :

« هل تستطيع فتاة فقيرة ولكن متعففه ان تربح شيئا مذكورا من عمل شريف » ؟ لا .. انها لن تربح اكثر من خمسة عشر « كوبيكا » في اليوم اذا كانت شريفة وليس لديها مؤهلات خاصة .. نعم خمسة عشر « كوبيكا » وعلى شرط أن لا تغفل عن العمل دقيقة واحدة ! وقد نالها من مستشار ولاية « كلوبستوك » ايفان ايفانوفيتش ما لا يسر ! أتعرفه؟ لعلك سمعت به ! حسنا .. ان هذا الرجل اللامع لم يكتف بان تمنع عن دفع أجرة قمصانه الستة المصنوعة من القماش الهولندي الفاخر والتي خاطتها له ، ولكنه طردها ايضا وهو يشتمها ويغلظ لها القول ، وقد

ركلها بقدمه وأطلق عليها كل الاسماء التي اسعفته بها قريحته . محتجا بأن ياقة واحدة من القمصان لم تكن مصنوعة بدقة وأنها فصلت بشكل خاطىء .. كل هذا بينما الصغار يتلوون جوعا .. وأمهم كاترين ايفانوفنا لا تنفك تذرع غرفنا وهي تعصر يديها وعلى خديها لطخات حمراء من بوادر ذلك المرض المخيف ! كانت تصيح بها مغضبة قائلة : « أيتها الكسول .. أولا تأكلين وتشربين وتتدفئين ؟ » .. ولكن قل لي بربك ماذا تأكل المسكينة وماذا تشرب اذا كان الصغار لم يجدوا منذ ثلاثة ايام ما يمضغونه في افواههم الجائعة ؟.. نعم .. لقد نمت دون ان أحاول اسكاتها .. ولم أسكتها ؟ لقد كنت ثملا واقرب الى انسان ميت مني الى مخلوق حي .. كنت اسمع « سونيتي » تتكلم . انها هادئة كثيرة الاحتمال فكانت تتكلم بصوت عذب .. وهي شقراء ولها سحنة شاحبة دائما هزيلة ابدا ..

كانت تقول : « ما العمل يا كاترين ايفانوفنا ؟ هل من المعقول أن أزاول مثل هذه المهنة ؟.. غير ان « داريا بافلونا » ــ وهي امرأة سيئة السمعة معروفة لدى رجال البوليس ــ عاتبتها اكثر من مرة لاستنكارها مثل هذا الامر مدفوعة من قبل صاحبة المسكن !.. لذلك فقد أجابتها كاترين ايفانوفنا بلهجة تشوبها السخرية قائلة : « يا الهي .. هذا كنز جدير أن يحتفظ المرء به .. » .. كلا . لا تلمها على هذا يا سيدي لا تلمها ! فهي لم تكن مالكة اعصابها عندما تفوهت بتلك الكلمات .. فلقد كانت عواطفها مهيجة ، وكانت في اقصى حالات الحنق والغضب . انها مريضة وامامها اطفالها يبكون من الجوع ويصرخون ! لم تتفوه كاترين ايفانوفنا بتلك الكلمات الا لتسفه الحجة التي تذرعت بها ابنتي .. وتلك هي عقليتها .. فهي تضرب الأطفال عندما يبكون ولو كان بكاؤهم بسبب الجوع .. لانها تفقد اعصابها اذا غضبت وثارت !

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة •• واذا بسونيا تنهض واقفة وتتشح « بلفحتها » ثم تخرج من الغرفة •• لم تعد قبل الثامنة فاتجهت بسكون الى حيث كانت كاترين ايفانوفنا ووضعت امامها على المائدة ثلاثين روبلا •• ودون أن تنبس ببنت شفة ، اخذت الدثار الكبير الاخضر (وقد فاتني أن أقول لك أن لدينا واحدا نستعمله جميعا حسب الحاجة وهو من قماش « المدام ») فلفت به رأسها وجسدها وتهالكت على السرير ووجهها الى الجدار •• بينما كان كتفاها الناحلين وجسدها الهزيل مسرحا لقشعريرة وتشنجات تفصح عن سريرتها ! كنت انا على حالي من السكر ، مستلقيا كما كنت •• فرأيت ايها الشاب ، نعم رأيت كاترين ايفانوفنا تنهض بسكون ايضا وتتجه نحو سرير ، «سونيتي» الصغيرة •• هناك ركعت على ركبتيها واستمرت طيلة الامسية راكعة بقربها تقبل اقدامها دون فتور ولا توقف •• ولقد نامت بقربها وعانقتها •• نعم لقد نامتا كلتاهما بينما كنت انا متهالكا مخمورا ••

صمت مار ميلادوف وكأنه فقد النطق وملأ قدحه بسرعة وأفرغه في جوفه دفعة واحدة فندت عن حنجرته فرقعة مكتومة ثم أعقب يقول :

ـ •• ومنذ ذلك الحين يا سيدي اضطرت ابنتي صوفي سيميونوفنا ان تقتني بطاقة لمزاولة مهنتها • وبسبب ذلك لم تستطع البقاء عندنا فغادرت المنزل • اما كيف وقع ذلك فان الامر في منتهى السهولة • ذلك انه اثر ملابسة مزعجة ، وبناء على اخبار من بعض المغرضين ساهمت فيه « داريا فرانتزوفنا » بقسط وافر بحجة اننا أسأنا في تقديرها وتقديم آيات الاحترام الواجبة علينا حيالها ، احتجت صاحبة الدار التي نقطنها على سلوك ابنتي وادعت انها لا تحتمل وجودها في دارها على الرغم من انها دفعت داريا من قبل للتأثير عليها •• وهكذا انتقلت ابنتي من حال الى حال •

ثم جاء السيد ليبيزيا تنيكوف الذي .. آه .. كان لـه ذلـك الموقف مع كاترين ايفانوفنا .. كان ذلك بسبب سونيا . لقد كـان في البداية يلتمس من سونيا التفاتة غير انه ما لبث حتى راح يبـدي صدودا واعراضا وتذمرا . كان يقول : « كيف استطيع العيش في منزل يضم هذا العار وأنا ذلك الرجل النير المعروف » .. غيـر ان كاتريـن ايفانوفنا لم تسكت ازاء هذا الادعاء الفارغ .. بل صمدت له وقاومته ومن هنا كان ما حصل لها على يده ! اما « سونيتي» الصغيرة فانها تزورنا غالبا عند هبوط الظلام ، فتساعد كاترين ايفانوفنا وتقدم لها ما يلزمها .. وهي تقطن عند الخياط كابيرناوموف الذي اجر لها غرفة خاصة . وهذا « الكابيرناوموف » اعرج وألكن .. وله عائلة ، وابناؤه جميعهم ورثوا عنه عاهته النطقية وكذلك زوجته .. فهي لكناء مثله ، وكلهم محشورون في غرفة واحدة . غير ان لسونيا غرفتها الخاصة التي يفصلها عن غرفة الاسرة حاجز من الخشب .. نعم .. انهم اناس فقراء جدا وتمتامون .. نعم . وذلك الصباح ، نهضت من فراشي وارتديت اسمالي ثم اتجهت الى حيث يقيم صاحب السعادة ايفان آثـانا سيفيتش بعـد ان رفعت ذراعي الى السماء مبتهلا . على فكرة .. هل تعرف صاحب السعـادة ايفان آثانا سيفيتش ؟ كلا ؟.. انك اذن لا تعرف رجلا ورعا .. انـه شمعة بكر « شمع كافوري » نصبت امام الرب ! والشمـع يذوب .. نعم ولكن هذا ذاب دمعا بعد ان استمع الى ما عندي مـن القول .. وقال لي بالحرف الواحد : حسنا يا مارميلادوف .. لقد خذلت آمالي في المرة الاولى ، غير انني سأعيـدك الى العمـل علـى مسؤوليتي الشخصية فاذكر ذلك .. هيا يمكنك ان تنسحب ! » ولقد قبلت آثار إقدامه .. بالخيال طبعا .. لانني لو اردت عمل ذلك فعلا لما سمح لي به . لان هذا الرجل رفيع الشأن من انصار المبادىء الرسمية الجديدة فيما يتعلق بالتربية والمعاملة .. وعدت الى مسكني . ولا تسل عـن

الهياج الذي حصل حينما اعلنت انني سأعود للعمل ولقبض المرتب !

طغى انفعال عنيف على ماريلادوف فتوقف عن متابعة حديثه •• وفي تلك الاثناء ، دخلت شرذمة من السكارى الى الحانة بصخب وضجيج وعلى العتبة ارتفعت انغام متباينة من ارغن استؤجر لهذه المناسبة ولا شك ، بينما راح طفل في السابعة من عمره يرفع عقيرته مغنيا « المزرعة الصغيرة » •• وعم الصخب في « الصالة » بينما تهافت المعلم واجيراه لخدمة الزبائن الوافدين ! وتابع مارميلادوف قصته دون ان يعبأ بالضجيج :

كان يبدو عليه الانهيار التام الا انه كلما ازداد الثمل نيلا منه كلما قويت رغبته في الحديث والثرثرة •• وبدا وجهه منيرا لمجرد ان تذكر انه توصل الى استعادة عمله •• وكان راسكو لنيكوف يصغي اليه بانتباه ••

•• « مضى على ذلك خمسة اسابيع يا سيدي •• نعم •• خمسة اسابيع منذ ان بلغ نبأ عودتي الى العمل مسامع كاترين ايفانوفنا وابنتي الصغيرة • كنت كمن انتقل الى النعيم في حين انني كنت من قبل مهملا ككلب حقير ، لا اسمع الا الشتائم والسباب •• اما في ذلك الحين فقد كانوا يمشون على اطراف اصابع اقدامهم اذا كنت نائما ويوصون الاطفال بالسكوت والخلود الى السكينة •• « عاد سمعان زاخاريتش تعبا وهو الان يستريح فصمتا •• » وكانوا يقدمون الي القهوة قبل ذهابي الى المكتب ويسخنون « الكريما » •• نعم « الكريما » الاصلية الحقيقية ! لقد استطاعوا اخيرا ان يأتوا بها وان يجدوا احد عشر روبلا ونصفا لتجديد ملابسي وصيانة مظهري •• اما اين وجدوا هذا المبلغ فذلك ما لا اعلمه •• كل ما اعرفه هو انني امتلكت احذية جديدة وقميصا من القطن وثوبا كاملا انيقا كل ذلك بأحد عشر روبلا ونصف ••

فبدوت على اكمل واحسن ما يمكن ان اكون .. ! وكنت عند عودتي الاولى من المكتب الاحظ ان كاترين ايفانوفنا قد هيأت طبقين لتناول الطعام : حساء ولحم بقر مملح ببراعة .. الشيء الذي لم اره ولم اعهد مثله من قبل . كانت من قبل لا تملك ثوبا ترتديه ، اما ذلك الحين فقد ظهرت على احسن زينة وكأنها ذاهبة لزيارة بعضهن .. لقد تجدد العتيق القديم على شكل من الاشكال لان لها موهبة عمل كل شيء من لا شيء.. كانت معتنية بشعرها تبدو انسانا آخر بياقتها الصغيرة البيضاء واكمامها النظيفة . لقد بدت اصغر سنا واوفر جمالا .. وكانت سونيتي الصغيرة العزيزة تكتفي بتزويدنا بالمال وهي تقول : «لن استطيع التردد عليكم بكثرة في الوقت الحاضر لان ذلك غير ممكن في هذا الظرف.. سوف احضر عند هبوط الظلام ولن يراني احد هل تسمعون ؟ ! »

اويت الى فراشي ذلك المساء مبكرا فلم تعترضني كاترين ايفانوفنا ! هل تصدق هذا؟ ولم يكن قد مضى على اشتجارها مع اميلي فيودوروفنا اكثر من ثمانية ايام . مع ذلك فقد دعتها لتناول القهوة ومكثنا معا حوالي ساعتين .. وقد سمعتهما تتهامسان : « نعم .. ان سيميون زاخاريتش قد استعاد عمله وهو يقبض مرتبه من جديد .. لقد تقدم بنفسه الى صاحب السعادة فجاء سعادته بنفسه ليقود سيميون زاخاريتش من يده على مرأى من الآخرين ويدخله مكتبه . » فهل سمعت هذا ؟ هل سمعت ؟.. واضافت زوجتي تقول : « لقد قال له سعادته : لا شك يا سيميون زاخاريتش انني اذكر خدماتك التي سبق ان اديتها لنا وعلى الرغم من ميلك الى الخمر فانني بناء على وعدك لي بالاقلاع عن تلك العادة ونظرا لعدم الاستغناء عنك (هل سمعت هذا . هل سمعته ؟) فانني آمل الآن ان تبر بكلمتك . »

نعم . انني اعترف لك بانها ابتكرت كل هذا من عندها وسوته

وانضجته ليبدو معقولا . فلا تظنين بان ذلك كان مجرد عبث يقصد منه الظهور . كلا . لقد انساقت هي نفسها وراء تخيلاتها .. كانت هـي نفسها تتعزى بهذا القول واشهد الله ! ولست ألومها كلا لست ألومها من اجل ذلك .. اذكر انني عندما اتيتها منذ ايام بمرتبي الاول ـ ثلاثة وعشرون روبلا واربعون (كوبيكا) ـ كاملا دون نقصـان ، دللتني بعبارات عذبة ولعلك تفهم معنى ذلك التدليل اذا اوضحت لك اننا كنا منفردين هي وانا لا يعكر صفونا وجود احد ! نعم .. لقد دللتني وهي تغمز خدي بأناملها بصوت عذب : « آه يا ملفوفتي الصغيرة ! .. »

توقف مارميلادوف برهة وبدا كأنه يحاول الابتسام بدلالة الرعشة التي اجتاحت ذقنه . ثم تمالك نفسه .

كان ذلك الوسط : الحالة وذلك المظهر الفاسق الليـالي الخمس التي قضاها في زورق للعلف ، ومنظر الزجاجة اضافة الى الحب العميق الذي يكنه ذلك الرجل لاسرته ، كل هذه الاشياء كانت تذهل جليسه الشاب الذي كان يصغي مأخوذا وكأنه استحال الى اذان ... بيد انه لم يتخلص من شعور التبرم والنقمة : لقد نقم على نفسه لانه ارتـاد وسطا كذلك الوسط !

هتف مارميلادوف مسترسلا :

ـ عزيزي السيد ، عزيزي السيد ، لعل كلهذا يدعوا الىالضحك مع انني لا اني اعرض على مسامعك ، مآسي العائلية الشخصية ! امـا بالنسبة فانني لا ارى في كل ذلك ما يضحك . لانني قادر على استعادة التجسس بكلما قلته لك ... لقد كنت مستسلما لحلمي الذهبي طوال ذلك اليوم وامسيته الفردوسية ! كنت احلم فياعادة بناء اسرتي وكساء اولادي كنت اتوقع ان اجلب الهدوء الى نفس زوجتي واتطلـع الى انتزاع ابنتي من الوحدة التي تردت فيها واعادتها الىحظيرة الاسرة..

كنت احلم بأشياء اخرى كثيرة .. نعم .. كنت استطيع التفكير بحرية في كل هذا لانه ميسور للانسان مباح له .

وفجأة انتفض مارميلادوف ورفع رأسه يحدق في وجه زميلـــه الجديد ... ثم قال :

ـ ومنذ صباح اليوم الثاني وبعد كل هذه الاحلام الجميلة وعلى الدقة منذ خمسة ايام فقط ، سرقت من زوجتي كاترين ايفانوفنا مفتاح صندوقها بحيلة بارعة شأن اللص المدرب.واستوليت على رصيد راتبي الذي كنت اعطيته لها وها انت ذا تراني اين جئت .. بـل انظروا الي جميعكم لقد غادرت منزلي منذ خمسة ايام وهم يبحثون عني هناك ولا شك ! ولقد فقدت مركزي وشربت نعم شربت بذلتي الجديدة بعد ان استبدلتها بهذه الاطمار البالية في حانة بالقرب مـــن جسر « مصر » وانتهى كل شيء !

لم يكد مارميلادوف يصل الى هذا الحد من حديثـه حتى ضرب جبهته بقبضته وصرف على اسنانه واغلق عينيه ثم مـال بمرفقيه بقوة على المائدة . لكن ذلك لم يدم اكثر من خمس دقائق عاد بعدهـــا الى مطارحة زميله الحديث نظر اليه بعين لم تخل من خبث مصطنع وقـال وهو يبتسم :

ـ لقد كنت اليوم عند سونيا وطلبت منها مـالا لأتمـــل ... ها ها ها ...

صاح واحد من افراد « الشلة » الذين دخلوا الحانـة يقول : ـ وهل اعطتك ؟ واشفع سؤاله بقهقهة مجلجلة ! غير ان مارميلادوف لـم يلتفت الى المتكلم بل وجه حديثه الى راسكولنيكوف وقال :

ـ هذه الزجاجة اشتريتها من المال الذي اعطتنيه ! لم تكن تملك الا ثلاثين « كوبيكا » لقد تأكدت من ذلك بنفسي فاعطتها لي دون ان تهمس بكلمة .. لقد اكتفت بالنظر ولكن ليس كما ينظرون هنا .. بل انها كانت نظرة علوية لا يحسنها الا الذين يؤمنون بان الرجال لا يستثيرون الا الشفقة ولا يستحقون الا البكاء من اجلهم وليس اصدار الحكم عليهم ! ولعمري ان ذلك يعادل ابلغ الحزن لما لا يوجه اليك اي تثريب ! نعم .. ثلاثون « كوبيكا » اخذتها راضيا رغم حاجتها اليها . ألست من هذا الرأي يا عزيزي ؟ انها الآن احوج ما تكون الى النظافة ومتطلباتها ؟ وتلك النظافة تكلف ثمنا معينا وانت تفهمني ولا شك ! فهناك المراهم والادهان التي يجب شراؤها والتي لا يمكن عمل شيء بدونها .. هناك الملابس الانيقة والاحذية الجميلة الثمينة التي تصون الاقدام من برك الماء التي تعترض طريقك . انت تفهم ولا شك يا سيدي وتدرك ما معنى الحفاظ على النظافة !

اذن ما قولك وانا ابوها اسلبها الثلاثين « كوبيكا » التي لم تكن تملك غيرها ولأي شيء ؟ لاعاقر الخمر وانهل من الشراب !.. هل في الدنيا من يشفق على مثل ذلك الرجل الذي هو انا ؟ قل بربك هل تشفق على مثلي ؟ اجب بنعم ، او لا .. هل تشفق علي الآن يا سيدي؟ قلها ولا تخف ، هل تشفق ؟.. نعم او لا .. ها ها ها ها .

اراد بعد ذلك ان يرتشف جرعة جديدة ولكنه لم يجد في الزجاجة شيئا .. كانت الزجاجة قد فرغت .

صاح به صاحب الحانة وكان قد عاد الى مكانه قريبا منهما :

ـ ولم يشفق على مثلك ؟

ودوت ضحكة صاخبة مصحوبة بشتائم وسباب . ذلك ان الذين لم يكونوا قد استمعوا الى تلك المناجاة ، كانوا يصرخون لا لشيء الا

للنيل من الموظف السابق والتسلي على حسابه •

وزأر مارميلادوف فجأة وهو ينهض قائلا :

ــ الشفقة ؟ ولم الشفقة ؟

كان منتصبا وذراعاه مرفوعتان كان فريسة حماس واندفـــاع شديدين كان يتحدث كما لو لم يكن قد سمع بتلك الكلمات من قبل •

ــ لم يشفق علي؟ أهذا ما قلته؟ انك على حق فانا لا اوحي بالشفقة علي •• على العكس ينبغي ان اصلب نعم ان اصلب على صليب وليس ان يرثى لحالي ! ولكن اصلبوني بعد ان تحاكموني واشفقوا علي قليلا وانتم تصلبونني وعندئذ سأمضي الى عقابي لانني لست مشوقا للسرور بـل انني في شـوق للالم والدموع وانا متعطش اليهما فهل تظن ــ ويحك ــ ان نصف الزجاجة التي قدمتها الي قد خففت ما بي ؟ لقد بحثت في اعماقها عن الالم •• الالم والدموع هذا ما انا بسبيل البحث عنه فيها ! فلما لمستها بشفتي وجدت ما اريد ! ولسوف يرحمني مـــن يشفق على الناس اجمعين •• ذلك الذي يفهم كل شيء ! انه الاحد •• هو القاضي العادل •• ولسوف يظهر يوم الدينونة وسيقول : «ايـــن هي تلك الفتاة المسكينة التي ضحت بنفسها من اجـل « خالة » لهـــا مصدورة ؟ ضحت بنفسها لتساعد اطفالا لم يكونوا اطفالها ! اين هـــي تلك الفتاة التي اشفقت على ابيها في الارض، ذلك السكير الكريه دون ان تتنكر له بقسوة وتقزز !» •• ولسوف يقول لها : « تعالي ! لقــد عفوت عنك مرة •• المرة الاولى •• ولسوف اسامحك واعفو عـــن خطيئاتك التالية لانك احببت بعنف » ولسوف يعفو عن « سونيتي » نعم سوف يعفو عنها انا اعرف انه سيعفو عنها •لقد احس قلبي بذلك منذ ان كنت عندها منذ حين ! •• لسوف يحاكم الجميع • نعم الجميع دون استثناء ولسوف يصفح عنهم جميعا : عن طيبهـــم وخبيثهم شرسهـم ولطيفهم •• وعندما ينتهي منهم جميعا ، لسوف يستدعينا نحن ايضا !

وسيقول لنا : « هيا اقتربوا انتم ايضا ، تعالوا ايها الخاطئـــون » ! وسوف نتقدم جميعا دون خجل وسيقول لنا : « ايها الخنـــازير ! ان صورتكم تشبه صورة الحيوان وانتم تحملون طابعه ! ولكـــن اقتربوا مع ذلك ! » ولسوف يهتف الهادئون العاقلون : « رباه .. كيف تتقبل هؤلاء ايضا » فيجيبهم : « يا معشر العقلاء الهادئين ، اذا كنت اتقبلهم فذلك لانهم جميعا لم يتوقعوا يوما ان يصبحوا من المنبوذين واهــل الجحيم ! » .. ونسوف يفتح لنا ذراعيه بعد ذلك فنرتمي بينهما ونبكي ونفهم كل شيء ! حتى كاترين ايفانوفنا نفسها ستفهــم ! ربـــاه .. ليأت ملكوتك !

استنفذ المسكين قواه وهو يلقي موعظته المؤلمة على مقعده تعبا منهوكا دون ان ينظر الى احد وكأنه نسي كل من حولــه واستغرق في بيداء التفكير ! احدثت اقواله تأثيرا خاصا في النفوس فران السكون عم خلال فترة من الزمن ولكنه سكون راحت تمطر بغـــده الشتائم على المتكلم وتغرقه الضحكات فمن قائل !

ـ احسنت في خطبتك !

الى آخر يعقب بقوله : ـ انه يهذي .. وثالث يصيح : ـ يا لك من موظف صغير حقير ! وهكذا ..

فرفع مارميلادوف رأسه فجأة واهاب بزميله قائلا :

ـ هيا لنخرج يا سيدي .. رافقني .. انني أقطن في دار «كوزل» في نهاية الباخة لقد حان الوقت فهيا الى حيث كاترين ايفانوفنا !

لم يكن راسكولنيكوف بأقل منه لهفة على الرحيل فقد كان يفكر منذ برهة في مساعدة مارميلادوف الذي برهن على ان لسانه اقوى من ساقيه اللذين ما كانا يعاونانه علي الوقوف مما جعل مهمة راسكولنيكوف عسيرة !

كانت المسافة التي يتحتم عليهما اجتيازها تتراوح بين مـائتين وثلاثمائة خطوة فكان كلما اقترب الثمل من المكـان المنشود كلما اكتسحت كيانه الرهبة والمهابة .. راح يقول لمرافقه بانفعال :

ـ لست اخشى كاترين ايفانوفنا في هذه اللحظة..لا ولا ان تجذب شعري وتقتلعه اذ ماذا يهمني ان تقتلع شعر رأسي ؟ بل انني اؤكد انه من الضروري ان تفعل ذلك . كلا ليس ذلك ما اخشاه في هذه اللحظة ولكنني اخاف من عينيها .. نعم عينيها ومن اللطخات الحمراء التي تزين خديها واخاف ايضا من تنفسهـا .. ترى هل شاهدت من قبل كيف يتنفس المصابون بذلـك المرض ؟ خصوصا عندما يستهدفون لمشاكسة او احتدام جدال ؟.. انني اخاف كل هذا واخـاف سماع صوت الاطفال وهم يبكون لانني لا أعرف ماذا سيكون حالهم اذا كانت سونيا لم تأتهم بما يأكلون .. اما الضرب فلست اخافه واعلم يا سيدي ان ذلك الضرب لا يؤلمني بل على العكس انه يهيء لي احيانا لونا مـن اللذة لا قدرة لي شخصيا على الاستغناء عنها ! انـه خير .. نعم من الخير لي ان تنفحني « علقة » ترفه بها عن نفسها .. ذلـك افضل ولا شك .. والآن ها هي الدار .. بيت « كوزل » ان صاحبها الماني غني مهنته صانع اقفال .. هيا قدني !

اجتاز الزميلان الباحة وراحا يتسلقان الطبقات الاربعة التي تفصلهما عن غرفة كاترين ايفانوفنا .. فكانوا كلما امعنـوا في الصعود ازداد الظلام حلكة ..

كانت الساعة تشرف على الحادية عشرة وعلى الرغم من أن الليـل في بترسبورغ لا يكون ليلا بالمعنى الحقيقي في مثل ذلك الوقت مـن العام ، الا ان ذلك لم يمنع العتمة من ان تخيم على أعلى السلم !

كان الباب الحائل اللون الذي يشرف على نهاية السلم من الاعـلى

مفتوحا ، وكانت هناك ذبالة تضيء غرفة حقيرة جدا لا يتجاوز طولها عشر خطوات ، وكان يمكن رؤية كل ما فيها من « بسطة » السلم فاذا بالفوضى تعمها ..

كان كل شيء فيها مهملا منثورا وعلى الأخص ألبسة الاطفال . وفي احدى الزوايا نشر دثار بال تملؤه الثقوب كان يخفي وراءه ولا شك سريرا . اما في الغرفة فلم تكن العين لتقع على كرسيين وديوان محطم يغطيه قماش من «المشمع» في حالة سيئة جدا ! وامام الديوان انتصبت طاولة مطبخ مصنوعة من خشب الصنوبر لم يكن يغطيها طلاء ولا غطاء ! وعلى ركنها كانت شمعة مضاءة تلفظ انفاسها في شمعدان من الحديد . كان مارميلادوف يشغل غرفة خاصة تشكل هذه ممشى لها وكان الباب المؤدي الى تينك الغرفتين ـ على ما في هذه الكلمة من استعارة جريئة ـ مواربا وكانت تنبعث من ورائه صرخات وصيحات.. كان هناك من يضحك ويقهقه كما هو حال الذين يلعبون الورق ويحتسون الشاي ويتسامرون! فكان يمكن التقاط بعض الكلمات دون ان يكون لها مؤدى واضح !

تعرف راسكولنيكوف فورا على كاترين ايفانوفنا . كانت امرأة شديدة النحول دقيقة القوام متوسطة الطول متناسقة التكوين . كانت تحتفظ بشعرها الكستنائي البديع ولكن خديها كانا أقرب الى لطختين لشدة احمرارهما . كانت تذرع غرفتها جيئة وذهابا ضامة يديها الى صدرها متصلبة الشفتين ، تتنفس تنفسا قصيرا متقطعا وكانت عيناها تلتمعان من الحمى لكن نظراتهما كانت حادة قاسية فكان الناظر اليها تحت ذلك الضوء المتذبذب الخافت يحس بما يشيعه ذلك الوجه المحموم بفعل السل من اسى في النفس . خمن راسكولنيكوف سنها فاعطاها ثلاثين ربيعا فكانت والحالة هذه لا تشكل مع مارميلادوف

زوجا متجانسا ..

لم تكن قد سمعت صوت خطى الوافدين ولم تكن قد رأتهما .. اذ كانت مستغرقة في خواطرها لا تسمع ولا ترى ! وكـــان جو الحجرة خانقا مع ذلك لم تكن النافذة مفتوحة وكانت تنبعث رائحـــة عفـن شديدة من السلالم مع ذلك لم يكن الباب المؤدي اليها مغلقا .. وكانت سحابة من دخان السجاير تكتـــح غرفتها من الغرفة المجـاورة فيشتد سعالها ومع ذلك لم تكن مغلقة ذلك الباب الذي كانت تنبعث مـــن ورائه تلك السحب ! وكانت صغرى الفتيات ولها من العمر ست سنين، نائمة على الارض بل قل منكفئة على الارض منطوية على نفسهـــا ورأسها متكىء على الديوان . أما الطفل ـ وكان اكبر من أخته بعـام واحد ـ فقد كان يرتجف في زاوية الغرفة وهو ينتحب .. لا شك انها كانت قد فرغت للتو من ضربه ! وأما البكر وهي في التاسعة من عمرها، طويلة القامة بالنسبة الى سنها ، رقيقة كعود الثقاب ، فكانت شبه عارية الا من قميص مهلهل ممزوق وعلى كتفيها العاريتين دثار مـــن الصوف ادخلت عليه الام تعديلات كثيرة لم تستطع برغمها ان تجعـــله يبلغ ركبتيها .. كانت واقفة في زاوية الغرفة تضم الى صدرها أخاهـــا الاصغر وتطوقه بساعدها العاري الهزيل الضامر كانت كأنها تهمس في اذنيه بكلام يمنعه من معاودة البكاء بينما كانت هي ترتعد هلعا وتتابع أمها بعينيها الداكنتين الكبيرتين اللتين كانتا تبدوان أكثر اتساعـا في محجريهما من ذلك الوجه الذي يكسوه الرعب العنيف .

لم يدخل مارميلادوف الى الغرفة بـــل جثا على ركبتيه ودفــع راسكولينكوف الى الامام . فلما ابصرت المرأة بذلك الغريب يدخـل غرفتها توقفت ساهمة امامه وقد انتشلها دخوله المفاجىء من شرودها.. وحاولت أن تفسر سبب وجوده فظنت أنه يقصد الغرفة المجـــاورة خصوصا وان غرفة مارميلادوف كانت تستعمل كمدخل لها . فلمـــا

بلغت من تفكيرها هذا الحد اتجهت نحو الباب الاخر لتفتحه لـه دون ان تعيره التفاتا . غير أن نظرها وقع فجأة على زوجها ورأته جاثيا على ركبتيه امام العتبة فندت عن صدرها صيحة غضبي وهتفت وقد أعماها الغضـب :

ـ آه .. ها قد رجعت .. أيها اللص .. أيها الوحش . أين المال ؟ ماذا في جيبك ؟ أرني ! ان هذا ليس ثوبك فأين ذلـك الثوب ؟ أيـن المـال ؟ تكلم ! .. وارتمت عليه تفتشه .. فأبعد مارميلادوف ذراعيه بسكون واستسلام ليساعدها على اتمام مهمتها . لم تجد في جيبه ولا « كوبيكا » واحدا !

صاحت به :

ـ ماذا عملت بالمال اذن ؟ آه يا ربي .. هل يمكن ان تكون قـد ثملت به كله ؟ لقد كان في الصندوقة اثنا عشر روبـلا قبل أن تسطو عليهمـا ..

وفجأة استبد بها الغيظ والغضب فأمسكت بشعره وجذبته بكل قواها الى الغرفة بينما كان ـ هو ـ يسهل عليها تلك المهمة في حدود طاقته مستجيبا لها محاولا اللحاق بها على ركبتيه وهو عـلى جثوه ! وبينما كانت زوجته تهزه من شعره بعنف وتضرب رأسه بأرض الغرفة ! كان هو يردد موجها الكلام لرفيقه :

ـ ان هذا يفيدني يا سيدي ! انه لا يؤلمني .. واستيقظت الصغيرة التي كانت نائمة على الارض وراحت تصرخ باكية معولة ولم يتمكـن الطفل الذي الى جانب أخته الكبرى من مقاومة خوفه اكثر من ذلـك فانخرط هو الاخر في بكاء مرير وازداد التصاقا باختـه التي كانت بدورها ترتعد من الرعب فكانت ترتجف كورقة في مهب ريح عاتية !

كل ذلك والمرأة ما فتئت تصيح يائسة :

ـ لقد انفقه كله على الشراب •• لقد شربه كله ! وهذا الثوب ليس ذاك الذي اشتريته له•• رباه لقد سقطنا من جديد بين انياب الجوع•• الجوع ! وراحت تشير بيدها الى أطفالها وهي تتلوى من الألم وتقول :

ـ آه من هذا الوجود المريع !

ثم زمجرت قائلة : ألا تستحي •• ألا تخجل ••؟ لم تكتف بما فعلت بل توجهت نحو راسكولنيكوف وصاحت به :

ـ لقد جئت من الحانة معه ؟ لقد سكرت معه ؟ كنتما تشربان معا •• أخرج من هنا •••

تهافت الشاب طالبا النجاة دون ان ينبس ببنت شفة وكان باب الغرفة الاخرى الذي كان مواربا قد فتح على مصراعيه وبان خلال الفتحة بعض الفضوليين الذين حلا لهم مشاهدة تلك التمثيلية المؤلمة ! وكانت الاعناق مشرئبة و « النظارة » متلهفون بين مدخن لفافة ومولع بغليون ! كانت اجسادهم ملفوفة في جلابيب نوم ممزقة بالية وكان بعضهم مرتديا البسة صيفية خفيفة اقرب الى التبذل وآخرون في ايديهم ورق اللعب ! وكان يزيد في تسليتهم قول مارميلادوف وهي تجذبه من شعره ان ذلك يفيده ولا يؤلمه ! ولقد تدافع اولئك المتطفلون حتى كادوا ان يبلغوا حجرة جيرانهم لولا ان اوقفتهم همهمة حانقة مغضبة ! تلك الهمهمة كانت تنبعث من صدر اميلي ليبيوشسل التي ظهرت على « المسرح » لتعيد الامور الى نصابها على طريقتها وهي تسقي المرأة المسكينة سيلا من الشتائم ملوحة لها للمرة المائة بوعيدها القاضي بتخلية الغرفة منذ الصباح !

استطاع راسكولنيكوف قبل خروجه ان يجمع في قبضته

الدريهمات القليلة التي تبقت لديه من « الروبل » الذي انفق بعضه في الحانة وان يضعها خلسة على حافة الكوة . فلما بلغ السلم ، ندم على ما فعل وود لو استعاد ما منح وراح يناجي نفسه قائلا :

« يا لها من حماقة تلك التي ارتكبتها في التو واللحظة ! ان لديهم « سونياهم » بينما انا في مسيس الحاجة الى المال . » . غير انه تذكر اقوال مارميلادوف حين قال : « ان سونيا بحاجة الى الادهان والى كل متطلبات النظافة » فأيقن انه لن يستعيد حتى ولو اتيح له ان يتسلل دون ان يعترضه احد ! لا لن يفعل ذلك .. ان وسائل النظافة غالية الثمن !

تابع سيره نحو غرفته وهو يغمغم : « ان سونيا لا تستطيع الكسب بسهولة ... ان ملاحقة الغني بقصد السيطرة عليه لا تخلو من متاعب واخطار ! نعم ... لولا دريهماتي لما كان باستطاعة افراد هذه الاسرة البائسة الا التطلع بلوعة وحرمان الى الطعام الذي لا يستطيعون نيله ! مسكينة سونيا... يا للمهنةالتي دفعوها اليها بتأثير الحاجة ! نعم... لقد ذرفوا دمعا سخينا في بادىء الامر لكنهم سرعان ما اعتادوا تلك التضحية وألفوها . نعم ... ان الانسان نذل حتى انه يعود نفسه على تقبل كل شيء !

ثم تابع تفكيره وقال يخاطب نفسه :

« هيا يا فتى ... لقد كنت قاسيا في حكمي . اذ لو لم يكن الانسان في حقيقته نذلا او بالاحرى لو لم تكن النذالة من صفات الانسانية لكان معنى ذلك ان كل ما في الوجود ليس الا اباطيل... نعم اراجيف خيالية لا حد لها ... ولا شك انها كذلك ! »

٣

استيقظ راسكولينكوف متأخرا بعد ان حفل نومـــه بالاحلام المزعجة ، فلم يفده نومه الطويل في استعادة قواه • كان مزاجه حادا مستطيرا وبدت الغرفة لناظريه بشعة كريهة • بدت اشبه بقفص طولـه ست خطوات ذي مظهر عريق بالبشاعة بوريقاته الباهتـــة التي تزين جدرانه ، يسبح الغبار الكثيف في ارجائها ، منخفضة جداً حتى انـه كان على طويل القامة ان يتحاشى ارتطام رأسه بسقفها ، اما الاثـاث فكان يتناسب معها : ثلاثة مقاعد متداعية قديمة ومنضـدة مدهونة « مجازا » في احد اركانها وقد تراكمت فوقها الكتب والدفـاتر التي يشهد الغبار الذي يعلوها انها لم تمس منذ امد بعيد !•• وكان هناك « اريكة » كبيرة تشغل المساحة القائمة بين منتصف الغرفة والجـدار مجللة بقماش هندي ممزق كان راسكولينكوف يستعملها بدلا مـن السرير ! وكثيرا ما كان ينام عليها بألبسته كلها دون ان يبسط فوقهـا غطاء ما ويلتحف معطفه القديم ، معطف التلمذة ! وكان يستعيض عـن الوسادة ــ لافتقاره الى واحدة ــ بكيس صغير حشر فيه كل مـا وصلت اليه يده من ملابس داخلية قذرة او نظيفة على قدر حاجته•• وكذلك كانت هناك منضدة صغيرة امام « السرير » !

كان من العسير على المرء الانطواء [illegible] هذا المصير!•• مع ذلك فان راسكولينكوف كان في حالة نفسية تجعله يرتضي تلـك الحقارة فكان منظر كوخه الزري يبعث في نفسه نوعا من السرور • كان قد الف العيش في عزلة تامة كالسلحفاة التي تلجـأ الى بيتهـا الطبيعي •• غير انه لم يكن راضيا عن الخادم ذات الوجه الذي يثـير في نفسه حقدا مريرا كلما اطلت ذات صباح لتراقب مـا يجري في غرفته • تلك هي عادة بعض المخبولين الذين يشورون بفعـل بعض

الاشياء دون بعضها الأخر ! وكانت صاحبة الدار قد انقطعت عن تقديم الطعام اليه منذ اكثر من خمسة عشر يوما . فلم يفكر ــ رغم ذلك الصوم الاضطراري ــ في وجوب النزول اليها ومناقشتها الاسباب ! وكانت « ناستاسيا » وحدها ــ وهي الطاهية والخادم الوحيدة في المنزل ــ راضية عن ذلك المستأجر لانها كفت نهائيا عن ترتيب سريره وتنظيف غرفته اللهم الا اذا صدف ان مرت من هناك مرة في الاسبوع وبيدها مكنستها .. وكانت هي التي ايقظته هذا الصباح ــ لدهشته ــ وهي تهيب به ان ينهض :

ــ هيا انهض ! كيف تنام الى هذا الوقت وقد تجاوزت الساعة التاسعة ؟ لقد اتيتك بالشاي فهلا ارتشفته ؟ سوف تموت من الجوع اذا بقيت على حالك !

فتح المستأجر عينيه وارتعد ! فقد عرف صوت ناستاسيا ! ولكنه تمالك اعصابه وقال بصوت خافت :

ــ أهي صاحبة الدار التي ارسلت الي هذا الشاي ؟

وضعت امامه آنية الشاي الخاصة بها والتي كانت فيها بقايا الشاي الذي تحدثت عنه ثم القت بجانبها بقطعتين صغيرتين من السكر المصفر وقالت : ــ آه .. صاحبة الدار !... ليكن !

تناهض الشاب وراح يبحث في جيوبه ــ وكان نائما بألبسته كاملة ــ ثم اخرج قطعة نقود صغيرة وقال :

ــ هاك يا ناستاسيا انني اذا اردت بقطعة صغيرة من الخبز ثم اذهبي الى اللحام واشتري لي بعضا من « النقانق » اجتهدي ان تكون رخيصة الثمن !

ــ سآتيك بالخبز حالا . اما « النقانق » فانني افضل عليها

حساء الملفوف الذي عندنا بعضه ، فلقد رفعت لك جانبا منـــه مساء امس ولكنك تأخرت في عودتك ! انه حساء لذيذ جدا ..

عادت اليه بعد قليل بالخبز والحساء فمضى يأكل بنهم بينمـــا جلست الى جانبه وراحت تثرثر . كانت من تلك النسوة القرويـات اللاتي يتمتعن بلسان لا يدركه الاعياء ! قالت تحدثه :

ـ تريد « براسكوفي بافلونا » ان تشكوك الى البوليس !

فأربد وجه راسكولينكوف واجاب مستفسرا :

ـ تشكوني الى البوليس ؟ ماذا يزعجها مني ؟

ـ انك لا تدفع لها ولا تريد اخلاء الغرفة وهذا ما يزعجها منك !

فهمهم بين اسنانه يقول

ـ يا للشيطان .. هذا ما ينقصبني في هذه الآونة ! ان ذلك يأتي في غير موضعـه ! .

ثم تابع بصـوت مرتفع يقول :

ـ يا لها من حمقاء ! سوف اقابلها اليوم وسأتحـدث معهـا في الامـر !

ـ قد تكون حمقاء كما تقول مثلي تماما .. ولكن انت الـذي تنعم بالذكاء الالمعي لم تبقى هكذا منزويا دون ان تمد انفـك الـى الخارج ؟ كنت من قبل ـ على حد قولك ـ تعطي دروسا للاطفال فلم لا تقوم الآن بأي عمل ؟

فأجابها بلهجة جافة دون ان يعي ما يقول

ـ انا اعمل شيئا ما ...

ـ مـاذا تعمل ؟

ـ عمــلا ...

ــ اي عمــــل ؟

فأجابها برزانة بعد صمت قصير قائلا :

ــ انني افكــــر !

كان مزاج ناستاسيا مرحا حتى انها اذا ابتهجت لشيء مهما بلغت تفاهته ، راحت تضحك بسكون ضحكة مكبوتة تهز جسمها كلــه وتجعلها تتلوى بعنف حتى ينتهي بها الحال غالبا الى قذف مــا في احشائها ! تلك كانت احدى ميزاتها ولقد كانت فريسة لتلك الميزة في تلك اللحظة عند سماعها جواب الشاب !

ولما استطاعت النطق قالت :

ــ هلا فكرت على الاقل .. في كثير من المال ؟

ــ لا يمكن اعطاء دروس اذا لم يكن لدى المرء احذية وعلى كل حال انني لا ابالي !

ــ لا عليــك !..

واسترسل بلهجة شرسة وكأنه ينافس افكاره الشخصية وقال :

ــ دروس ؟ لا يجني الانسان منها الا النزر القليل ..

ــ لعلك تريد اكتساب ثروة كاملة دفعة واحدة ..

فأجابها بلهجة مطمئنة بعد تفكير قصير قائلا :

ــ نعــم ثروة كاملــة ..

ــ مهلا .. انك تخيفني لانك تتــوق الى الــوثوب الخطر .. وعلى فكرة ، لقد وردت اليك رسالة في غيابك كدت انساها ..

ــ ماذا ؟ رسالة الي ؟ وممن ؟

ــ ممن ؟ لست ادري ! لقد أعطيت الساعي من جيبي الخاص ثلاثة « كوبيكات » فهلا اعدتها الي ؟

فهتف بها راسكو لينكوف قائلا وقد هزته المفاجأة :
ــ بحق السماء اذهبي وجيئيني بها ! يا الهي !

لم تمضِ دقيقة حتى كانت الرسالة بين يديه ، كان يتوقع ان تكـــن من امه التي تقطن مقاطعة « ر ... » وصدق ما توقعه ! فلما اخذهــا بين يديه شحب لونه .. فقد انقطعت الرسائل منذ أمد بعيد ، وكانــت افكاره تزيد ايلامه .. وابتهل الى الخادم بضراعة ان تذهب وتتركــه لوحدتـــــه :

ــ هاك « كوبيكاتك » الثلاثة يا ناستاسيا وانصرفي .. انصرفي بحق الرحمن .. بحق السماء عجلي بالانصراف !

كانت يده ترتعد والرسالة فيها ، ولم يكن يريد فضها بحضـــور الخادم . كان يشعر بحنين للبقاء « وحده » مع ذلك الكتاب ، فلمـــا ارتحلت ناستاسيا ، حمل الرسالة الى شفتيه وقبلها وراح يتمهل فــي معاينة العنوان الذي كانت تحمله ! .. لقد تعرف على كتابـــة امــه العزيزة ، ذلك الخط الدقيق المائل ، خط امه التي علمته مبـــادىء القراءة والكتابة .. واخيرا فض الغلاف فطالعته رسالة مطولة سطرت على ورقتين كبيرتين امتلأت صفحاتهما كلها بكتابة دقيقة متلاحقة .

عزيزي روديا : ها قد مضى شهران لم اتصل بك كتابة خلالهما ، ولقد تألمت لذلك وقاسيت من هذا الانقطاع حتى انني لم استطــع النوم الليلة الماضية لكثرة ما فكرت فيك . اعتقد انك تلـــومني على سكوتي الطويل القسري ! وانت تعلم كم احبك .. فأنت كل ما تبقى لنا : لدونيا ولي ، انت كل شيء بالنسبة الينا ، كل املنا وايماننــــا بالمستقبل ... لا تسل عن حالي حينما علمت انك تركت الجامعة منذ شهور بسبب ضيق ذات يدك ، وان دروسك انقطعت وكذلك مواردك !
كيف استطيع يا ولدي ان اساعدك وانا لا امتلك الا مائة وعشرين

روبلا فى العام هي كل جرايتي .. ان الخمسة عشر روبلا التـــي بعثت بها اليك منذ اربعة اشهر ، كنت اقترضتها ـ كماتعلم ـ مـن احد الباعة عندنا : فاسيلي ايفانوفيتش فاخروشين . انه رجل باسل وقد كان صديقا لابيك . بيدَ انني عندما فوضته بقبض جرايتي استيفـــاء لدينه ، لم اتمكن من الوفاء قبل اليوم ، مما جعلني خلال هذه المدة عاجزة عن امدادك باي عون . اما الان والحمد لله ، فانني اعتقد ان بمقدوري ان امدك ببعض الشيء ، وعلى العموم نستطيع اليوم ان نباهي باننا في حال يتحسن باطراد ، الامر الذي بادرت الى اطلاعك عليه .. فهل خمنت يا عزيزي روديا ما هو السبب ؟ ان اختك يا ولدي تقطن منذ شهر ونصف معي واننا نأمل ان لا نفترق بعد اليوم ابدا . حمـدا لله فقد انتهت آلامها ولسوف اطلعك على دقائق الامر بالترتيب لكي تدرك كيف وقع ذلك ، الامر الذي اخفيناه عنك حتى اليوم .

عندما كتبت لي منذ شهرين انه ترامى الى سمعك ان اختك دونيا موضع معاملة سيئة من قبل مستخدميها آل سفيدريكايلوف وانـــك تسألنا ايضاحا عن ذلك يفي بحاجتك الى الاطمئنان ، ما كنت اعرف كيف اجيبك ... ولو انني اخبرتك بالحقيقة كلها لهجرت المدينـــة ولقطعت الطريق مشيا على قدميك لتصل الينا . ذلك لانني اعـــرف عواطفك وافهم عقليتك ، فما كنت لتترك لختك عرضة للامتهـــان والاعتداء عليها حتى ابني شخصيا . كنت يائسة ولكن لم يكن بوسعي عمل شيء ! زد على ذلك انني ما كنت اعرف الحقيقة كلها ... وكان أسوأ ما فى الامر ان اختك « دونيا » لما عملت عندهم كمربية منـــذ عامين ، استلفت مائة روبل بشرط ان تحسم على دفعات من اجورهـــا الشهرية ، الامر الذي جعلها عاجزة عن التحرر من ربق مستخدميهـــا قبل وفاء السلفة ... وهذا المبلغ (واستطيع الآن ان اصارحك يـــا

عزيزي روديا) كانت استلفته بصورة خاصة لترسل اليك منه الستين روبلا التي تلقينها منا فى العام الماضي ••• وقد خدعناك كلتانا حينما اوهمناك انه مال ادخرته اختك من قبل ••• والان اطلعك على الحقيقة كلها لان الله من علينا واراد ان تختلف اوضاعنا كلها وتتحسن ولانني اريدك ان تدرك الى أي حد تحبك اختك دونيا واي قلب عطوف نادر المثيل تحمل بين ضلوعها ••• والقضية هي ان السيد سفيدريكايلوف كان يعاملها فى البداية بخشونة وصلف ••• فكان يعرضها على مائدة الطعام لمختلف انواع الهزء والمشاكسة المجوجة•• ولا اريد الاسترسال في شرح هذه التفاصيل المؤلمة كي لا اثيرك واحرك غضبك دون جدوى طالما ان هذه الامور قد انتهت الآن ولن تعود •••

موجز القول ، كان مركز دونيا اليما لدى آل سفيدريكايلوف رغم ما كانت تلاقيه من حسن المعاملة من زوجته « مارتا بيتروفنا » ومن كل سكان المنزل الاخرين ، لكن ماذا نتج عن ذلك ؟ تصور ان ذلك المأفون كان منذ امد بعيد يضمر ميلا نحو دونيا وانه كان يخفي كل ذلك تحت ستار من الغلظة والفظاظة والاحتقار ! ولعله كان يخجل من نفسه او انه استنكر ما يبيت لها من آمال محرمة وهو الطاعن فى السن ، رب الاسرة الكبيرة ••• ومن اجل ذلك كان ينقم على دونيا ويحقد عليها •• ولعله كان يقصد من وراء تلك القسوة والسخرية التي كان يعرضها لهما ان يجعل الباقين يحذون حذوه في معاملتها • غير انه لم يستطع الصمود والمثابرة على خطته ••• وبلغ منه الهوس ان راح يفاتح دونيا بصراحة بما فى نفسه ويعرض عليها عروضا دنيئة ممنيا اياها بشتى المكافآت والعطاءات ومؤكدا لها استعداده لهجر اسرته والفرار معها الى حيث ينعم بحبه الاثيم سواء أكان ذلك فى احدى ممتلكاته النائية ، او فى خارج البلاد ••• لك ان تتصور بعد هذه المقدمة فى أي ذعر وآية رهبة كانت تعيش اختك

المسكينة •• وما كان لها ان تفكر في ترك عملها ، ليس بسبب السلفة الواجبة التأدية فحسب ، ولكن لتجنيب مارتا بيتروفنا الالم الـذي سيحدثه لها علمها بالامر ••• وهي لو علمت به ، او شعرت بظـل من الشك فى نفسها فى هذا الصدد ، لاحدثت فى الاسرة مشاحنـات لا تؤدي الا الى اسوأ النهايات والاحتمـالات • اضف الـى ذلك الفضيحة التي كان يمكن ان تلحق بدونيا ، رغم اننا لم تتمكن مـن اجتناب الفضيحة كليا ••

كانت دونيا لا تستطيع الفرار من ذلك البيت الممقوت ، قبل ستة اسابيع على الاقل ، وذلك بنتيجة ظروف شتى ••• وانت تعـرف اختك ، وتعرف كم هي حكيمة عاقلة متينة الخلق ! وهكذا عولـت دونيا على الاحتمال ، مطمئنة الى شجاعتها التي لا تخونها فى مجابهة تلك الامور ، مهما كانت الظروف حرجة ، والملابسات دقيقة خطيرة ! وقررت الامتناع عن الكتابة الي حول هذا الموضوع ، كي لا تثـير الرعب فى نفسي • لذلك فان رسائلها التي كانت ترد الي تباعا ، لـم تكن تحمل أي تلميح حول هذا الموضوع ، فجاءت الخاتمة بشكـل فجائي غير متوقع ! ذلك ان « مارتا بيتروفنا » ـ بصدفـة عجيبـة ـ داهمت زوجها في البستان ، وهو يبتهل الى دونيا ، ويتوسل اليها••• ففهمت الموضوع على عكسه ، واتهمت دونيا بما كان ينبغي لها ان تتهم به زوجها • فقام بينهما فى ذلك البستان مشهد مريع ••• كانـت « مارتا بيتروفنا » ترفض الاستماع الى ايضاحات « دونيا » ، بـل انها سمحت لنفسها ان تضربها وان تصيح فى وجهها طيلة ساعة مـن الزمن ، وامرت اخيرا ان تعاد الى المدينة ـ عندنا ـ على عربة قرويـة عادية، ألقيت فيها حاجاتها دون نظام ولا ترتيب•••وتكدست في تلك العربة البستها « وبياضاتها » وكل ما حملته معها في ذهابها الى ذلـك البيت ••• وكانت السماء تمطر مطرا غزيرا ، واضطرت دونيا علـى

بما كانت عليه من تجريح وخزي ، ان تقطع سبعة عشر فرسخا برفقة الفلاح ، وفى عربة مكشوفة . فاحكم الان بنفسك على نوع الجواب الذي كان يمكنني ارساله اليك ، جوابا على كتابك الذي بعثت به الي منذ شهرين ؟ ... لقد كنت يائسة ، لا اكاد افقه شيئا مما يدور حولي، فلم اجرؤ على مكاشفتك بالحقيقة ، والا لتجرحت كرامتك ، ولاستثارك الغضب ، ولكنت اتعس المخلوقات .. خصوصا ما كنت لتستطيع الاتيان بأي امر ، الا زيادة موقفك سوءا وخطورة ! هذا مع العلم ان دونيا حذرتني من مفاتحتك بالموضوع ، فلم اجد في نفسي القدرة على تدبيج رسالة ، تحمل تفاصيل تافهة مغلوطة لا اعرف كيف اصوغها !

استمرت الافتراءات تروج هنا فى المدينة طيلة شهر كامل . وكنا هدفا مكشوفا لها ، وبلغت من شدتها اننا ـ دونيا وانا ـ ما عدنا نستطيع وطء ارض الكنيسة باقدامنا ، خشية السنة الناس الحداد ، ونظرات الاحتقار التي كنا نستهدف لها ، الهمسات التي كانت ترتفع فى استقبالنا ، وبلغ الحال حدا لم يعد بعضهم يخجل من ابداء آرائه امامنا وجاهيا دون خفر ولا حياء .. وادار معارفنا ظهورهم لنا ، وقلب لنا اصدقاؤنا ظهر المجن . حتى امتنع بعضهم عن توجيه التحية الينا ومخاطبتنا .. ثم بلغني من مصدر موثوق ان بعض المستخدمين والموظفين الصغار ، تآمروا بينهم ، وقرروا اهانتنا بشكل دنيء ، بأن يلطخوا باب مسكننا بالقطران ، حتى ان مالكي الدار راحوا يدعوننا الى اخلائها ... وكانت « مارتا بيتروفنا » وراء هذه التخرصات والافاعيل ، فقد راحت تنشر القصة كما فهمتها فى كل مكان تؤمه ، لتنال من دونيا وتحط من قيمتها .. وكانت معرفتها بالناس من مختلف الطبقات تسهل مهمتها ، خصوصا وانها ميالة بطبعها الى الثرثرة والتحدث عن شؤونها الداخلية ، الامر الذي كان يهددنا بانتشار تلك القصة ، ليس فى مدينتنا فحسب ، بل فى المقاطعة كلها ، وبلغ من حزني

ان وقعت فريسة المرض ، على عكس دونيا التي اظهرت جلدا عجيبا ..

ليتك رأيتها وشهدت كيف كانت تحتمل كل هذه الافتراءات المرذولة ، وتشجعني على الاحتمال وتعزيني بالمصاب لتخفف وطأه فى نفسي . انها ملك ! وقد رحمنا الله وغمرنا باحسانه اذ انتهت آلامنا.. ذلك ان السيد سفيدريكايلوف قرر الاعتراف بذنبه ، والاقلاع عن خطئه .. ولعله اشفق على دونيا مما حل بها بسببه ، فشرح « لمارتا بتروفنا » الامر بحذافيره ، وقدم اليها الادلة التي تنادي ببراءة دونيا الكلية وتدعمها .. واذكر منها بصورة خاصة ، رسالة كانت دونيا قد وجهتها اليه قبل ان تفاجئهما مارتا بيتروفنا فى الحديقة ، كانت تطلب اليه فيها ان يكف عن ملاحقته لها ، وتعتذر له فيها عن ملاقاته فى الموعد الذي رجاها ان توافيه فيه .. — وقد بقيت الرسالة بعد انسحاب دونيا بين يدي السيد سفيدريكايلوف — وتعتب عليه فيها سلوكه المشين حيال زوجته مارتا بيتروفنا . وتذكره بانه متزوج ورب عائلة ، وان تصرفه سوف يجلب التعاسة والشقاء للاسرة كلها . وتدعوه الى الكف عن مضايقة فتاة مسكينة عزلاء ، لا تملك عن نفسها دفاعا ... كل ذلك بلهجة عنيفة شديدة حاسمة .

خلاصة القول يا عزيزي روديا ، كانت تلك الرسالة مؤثرة ونبيلة ، حتى انني لم اتمالك نفسي عن الانتحاب عندما قرأتها . ولا استطيع اليوم ان اعيد تلاوتها دون ان تملأ الدموع عيني .. وجاءت شهادة الخدم مصداقا لصحة ما جاء فى رسالة دونيا ، مؤيدة لها . اولئك الخدم الذين ظهر انهم كانوا يعرفون اكثر مما قدر السيد سفيلدريكايلوف نفسه ، كما يحدث دائما فى مثل هذه الحالات .. وقد ذهلت « مارتا بيتروفنا » للنبأ ، فكان صدمة اليمة لها ، زادت شدتها عن الصدمة الاولى — كما اعترفت بنفسها بعدئذ — .. ولم يبق لديها اي شك فى

براءة دونيا .. وهكذا لم تكد شمس الصباح تشرق ـ وكان اليوم احدا ـ حتى هرعت الى الكنيسة تبتهل الى العذراء شديدة القدسية ان تساعدها على احتمال هذه التجربة العنيفة ، والقيام بالواجب المترتب عليها . ثم جاءت تزورنا بعد ذلك مباشرة ، دون ان تتوقف في الطريق ، فقصت علينا الخبر بحذافيره ، وبكت بمرارة واندفعت ـ تحت تأثير ندمها وشعورها بالاثم ـ الى دونيا تعانقها ، وتطلب اليها الصفح عنها . ثم غادرتنا وطافت فى انحاء المدينة كلها ، فلم تترك احدا من معارفها الا وازجت دونيا امامه مديحا حارا ، وسكبت سيلا من الدمع وهي تشيد بنقاء عواطفها ، ونبل اخلاقها .. ولم تكتف بذلك بل راحت ـ زيادة في تبرير موقف دونيا وسعيا وراء رد اعتبارها السليب اليها ـ راحت تتلو رسالتها بصوت عال امام الناس ، تلك الرسالة التيحدثتك عنها، والتيوجهتها دونيا الىالسيد سفيدريكايلوف .. بل وسمحت لمن اراد ان ينسخ عنها صورة ليحتفظ بها ، ويطلع عليها من يشاء (وهو تصرف لا اعتقد انه فى محله) .. وبهذه الطريقة لبثت « مارتا » عدة ايام تطوف المدينة ، ساعية لاصلاح ما افسدت . فلم تترك احدا من معارفها الا وحدثته بالنبأ الجديد ، حتى ان بعض هؤلاء راح يبذها فى نشر الخبر والتعقيب عليه !.. وكانت زيارة مارتا بيتروفنا متوقعة لكل مكان ، فكان يعرف سلفا انها ستقرأ الرسالة في يوم كذا ، حتى ان الذين سبق لهم سماع ما جاء فيها ، كانوا يقصدون حيث تكون ، ليستمعوا من جديد الى تلك التلاوة العتيدة !

انني اعتقدت ان مارتا بيتروفنا بالغت كثيرا فى امثال هذه التصرفات ولكنها كانت ترضي ضميرها وتحتكم لعقليتنا ، وكانت النتيجة الطبيعية لهذا التصرف ان عاد الى دونيا اعتبارها ، وتحررت نهائيا من الوصمة التي كانت تهدد حياتنا .. وقد تلقت دونيا عروضا كثيرة للتدريس في عدة دور ، الا انها رفضت تلك العروض ، واستمدنا مرة

ثانية مكانتنا بين الناس الذين راحوا يعربون لدونيا عن مودتهم واسفهم .. وكان لهذا الحدث اثر فى تسهيل التحسن الذي طرأ على موقفنا ، اذ تقدم خطيب يطلب يد دونيا فوافقت عليه ، وانا بدوري بادرت الى اخبارك .. اذ رغم ان القضية قد بت فيها دون اخذ موافقتك فاننا ـ دونيا وانا ـ ندرك تماما انك لن تسرها فى نفسك ، خصوصا متى عرفت اننا ما كنا لنستطيع ارجاء البت فيها ، وانك ما كنت لتستطيع الحكم على الموضوع بدقة ، وانت حيث انت الآن .. واليك تفصيل القضية كما وقعت :

«بيير بيتروفيتش لوجين» المستشار القضائي، يمت بقرابه بعيدة الى مارتا بيتروفنا ، التي لعبت دورا فائقا فى هذه المناسبة . فهو الذي بدأ يعرب لقريبته عن رغبته فى التعرف الينا ، وقد استقبلناه بالطبع على احسن ما يكون الاستقبال ، وقدمنا له القهوة .. وفى اليوم التالي بالذات بعث الينا رسالة عرض فيها بأسلوب مهذب رغبته ، والتمس جوابا سريعا وحاسما .. وبيير هذا ، رجل اعمال جم المشاغل تعتبر الثواني ثمينة فى حياته .. ولسوف ينتقل الى بيترسبورج ! فلما اطلعنا على رغبته ، فوجئنا بها ، كما لا شك تتصور ذلك . لانه كان عرضا فجائيا غير منتظر .. فأمضينا كلتانا سحابة يومنا نمحص المسألة ، وتناقشها على كل الوجوه . صحيح ان سن بيير هذا يبلغ الخامسة والاربعين ، الا ان مظهره مرض جدا ، فيه جاذبية للنساء ، وهو الى جانب ذلك ذو مركز ممتاز ، وحال مرموق رغم ما يبدو على محياه من كسوف وترفع . ولكن ذلك قد لا يعدو المظهر ، مجرد مفعول النظرة الاولى ليس الا ، ولسوف تلقاه في بيتروسبورج ، ولن يتأخر ذلك ، فآمل ان لا تحكم عليه باندفاع ودون روية ، كعادتك يا عزيزي ، اذا لمست في مظهره ما يستوقف الانتباه للوهلة الاولى ! اقول

لك لمجرد القول ، رغم وثوقي من انه سينتزع اعجابك ولانه ، لكـــي نحكم على رجل من اي نوع كان ونتوصل الى معرفة سريرته ، ينبغي ان نتصرف حياله بحكمة واحتراس بالغين . اذا اردنا ان لا نقـــع في شطط يصعب تصحيحه بعدئذ وازالة آثاره . اما فيما يتعلق ببيـــير بيتروفيتش ، فلدينا اكثر من دلالة على انه من خيرة الرجال ، واوفرهم احتراما !.. وقد صرح لنا في زيارته الاولى انه رجل ايجابي حقـــا ، ولكنه ازاء عديد من النقاط ، يؤمن «بمبادىء الاجيال الحديثة» حسب تعبيره الخاص . وانه عدو التسرع فى الحكم على الاشياء .. ولقـــد حدثنا في زيارته تلك بأشياء كثيرة ، لانه ــ كما يبدو ــ معجب بنفسه بعض الشيء . يحب ان ينصت الناس الى حديثه ، مما لا يجدر اعتباره عيبا الا اذا شئنا ان نفرط في الحكم !... انني لم افهم شيئا كثيرا من كل ما قال،غير ان دونيا شرحت لي انه على الرغم من ان ثقافته الاساسية لم تكن عالية ، الا انه ذكي تبدو عليه الطيبة والنبل ... انك تعـرف عقلية اختك يا روديا . انها شابه ذات تفكير منطقي قويم ، مثابـــرة شريفة النفس رغم قلبها الحساس المتأجج كما لاحظت عليها ذلـك . طبيعي ان ، لا دونيا ولا بيير ، ارتبط احدهما بالاخر بغرام مسبق . لكن دونيا ــ الى جانب كونها فتاة ذكية ــ شابة نبيلة كملك السماء ، تعتبر ان من واجبها بناء سعادة زوجها الذي عليه بدوره ان يفكر بمثل ذلك ، الامر الذي لا نجد لدينا اي دافع للشك فيه رغم السرعة التـي رافقت البت فى هذه القضية ! انه على العموم من الرجال الاذكيـــاء النابهين ، فهو يدرك اذن ان سعادته العائلية ستكون اكثر توطيدا كلما كانت دونيا محفوفة بالسعادة والهناء . اما فيما يتعلق ببعض التبايـن في الامزجة وتوافه الميل ، والذي يرجع في الغالب الى تباين فى الآراء ــ وهو الامر الذي لا يمكن اجتنابه حتى في اكثر الاسر تفاهمـــا وسعادة ــ فان دونيا تكفلت في علاجه على طريقتها . انها تؤكد لي ، بأن

ليس في الامر ما يتعلق ويشغل البال ، وانها ستتغاضى عن كثير من الامور شريطة ان تعم العدالة ، ويسود علاقاتهما التجرد والنزاهة .

ان المظاهر كثيرا ما تخدع يا ولدي ! فقد بدا لي هذا الرجل لاول وهلة غضوبا بشيء من الوقاحة ، غير انني تأكدت من ان هذا الشعور يرجع الى صراحته الشديدة .. وقد صرح في زيارته الثانية لنا ، عقب ابلاغه موافقتنا ، انه قبل ان يصادف دونيا ويتعرف اليها كان مقررا ان لا يتخذ لنفسه زوجة الا فتاة شريفة دون بائنة ، تذوقت معنى الحرمان والفاقة .. وفسر لنا وجهة نظره هذه قائلا : ان الرجل لا يجب ان يكون مدينا بشيء لزوجته ، ومن الخير ان تنظر المرأة الى زوجها نظرتها الى محسن كريم . هذا مع العلم انه عبر عن رأيه ذاك بشكل الطف مما كتبته لك ، غير انني نسيت عباراته التي تفوه بها ، واكتفيت بأن نقلت اليك المعنى ! كما انه لم يقل ذلك القول متعمدا مترويا ، بل ان تلك العبارة افلتت من فمه خلال حمى النقاش والحديث ، حتى انه بعدما ان قال ما قال عاد يصلح ما تفوه به ، ويزيل ما قد يكون علق في نفوسنا من آثاره ! ولبثت اعتبر ذلك القول لونا من الاهانة ، وفاتحت دونيا بعد ذلك بما خمنت ، فأجابتني بشيء من التبرم « ان الكلام شيء والافعال شيء آخر » وهو قول على العموم لا يخرج عن الحقيقة !

امضت دونيا ليلتها الاولى ساهرة .. تلك الليلة التي سبقت قرار القبول .. كانت تظنني نائمة . لذلك فقد نهضت من فراشها ، وراحت تذرع غرفتها جيئة وذهابا ، ثم جثت على الارض وراحت تصلي بحرارة وقتا طويلا ، امام « الايقونة » وفي الصباح ، انتهت الى قرارها بالموافقة على الزواج !

قلت لك في متن هذه الرسالة ان بيير بيتروفيتش سيسافر الى

بيترسبورج ، وان اعمالا هامة تقتضيه ذلك السفر ، وانه سيفتتح فيها مكتبا للمحاماة فهو يزاول هذه المهنة منذ زمن بعيد ، وقد ربح مؤخرا قضية هامة . على ذلك ، تستطيع اعتباره يا عزيزي روديا ، ذا منفعة بالنسبة اليك ، وقد اتفق رأينا ــ دونيا وانا ــ على انك تستطيع منذ اليوم ان تبني مستقبلك الذي اصبح مؤمنا نهائيا .. آه .. ليت ذلك يتحقق بالفعل .. انه سيكون فعلا تجاحا منقطع النظير ، او قل رضوانا من الله لا اكثر ولا اقل .. حتى ان دونيا لا تنفك تفكر في ذلك !... ولقد الحنا الى بيير بيتروفيتش بذلك ، فكان جوابه متحفظا ولكنه صرح بأنه يفضل بالطبع ان يدفع اتعابا لواحد من افراد الاسرة طالما انه لن يستطيع الاستغناء عن امين سر له « سكرتير » ، شريطة ان يبرهن ذلك القريب على كفاءته ، فيشغل مركزه بجدارة (ولست عاجزا عن ذلك ابدا !) عبر عن شكوكه في ان تكون دراساته في الجامعة لا تسمح لك بمزاولة العمل في مكتبه ، وتوقفت المسألة عند هذا الحد.

غير ان دونيا التي لا يشغلها امر اكثر من هذا ، ستعود الى البحث فيه من جديد... لقد وضعت منذ ايام مشروعا مستعجلا يتعلق بمستقبلك: هي تجزم بانك تستطيع ان تصبح بعد قليل مساعدا لبيير بيتروفيتش ، بل شريكا له في اعماله القانونية ، خصوصا وانك طالب في كلية الحقوق! انني شخصيا من هذا الرأي ، لذا تراني اسبح في هذه الامال ، واتيه في خضم هذه المرئيات معتبرة كل ذلك حقيقة واقعة ! وعلى الرغم من تحفظ بيير بيتروفيتش الحالي ، وهو تحفظ واضح السبب لانه لم يتعرف اليك بعد ، فان دونيا متأكدة تماما من انها ستبلغ الهدف بفضل نفوذها الذي تفكر في استعماله على زوجها المقبل .. نعم انها واثقة من ذلك !

اننا ولا شك نمتنع عن التحدث عن آمالنا امام بيتروفيتش ،

خصوصا عن رغبتنا في ان نراك يوما شريكا له ، لان بيير هذا رجل واقعي ولعله اذا شهد وعرف ما نضمر عزا ذلك الى اغراقنا في الخيال والاوهام . هذا عدا عن اننا ـ دونيا وانا ـ لم نحدثه قط عن املنا في ان يقدم الينا المال اللازم ، طيلة وجودك في الجامعة لمتابعة دروسك، ونحن واثقتان من اننا في غير حاجة الى التحدث عن هذا الأمر ، الذي سيكون بديهيا في المستقبل ، والذي لا شك سيبدأ من جانبه ، بعد ان يهمك بعض المواعظ ، لانه لن يستطيع رفض هذا الرجاء الذي تتقدم به دونيا اليه كزوج ! عدا عن انك ستكون مساعده الايمن في اعماله، وبذلك تخرج القضية عن نطاق الاحسان والمساعدة وتكون مجرد دفع اجر انت تستحقه لقاء عملك . تلك هي مشاريع دونيا التي تضمرها لك، وانا متضامنة معها في ذلك مؤيدة لها !

كذلك لم نتحدث في هذا الامر لانني كنت اهدف الى جعلك معه على قدم المساواة ، بعد ان تتقابلا للمرة الاولى ! ذلك ان دونيا كانت تتحدث اليه عنك بلهجة كلها حماس وتأييد ، فاذا به يجيبها لكي يحكم على رجل ما ينبغي ان يراه عن قرب ، وان يحتك به . لذلك فهو يحتفظ برأيه فيما يتعلق بك الى اليوم الذي سيتعرف عليك فيه .

سأطلعك كذلك على امر يا عزيزي روديا . انه ليس رأي بيير بيتروفيتش بالطبع ولكنه ـ ولنقل ـ هذيان امرأة عجوز ! ذلك انني بسبب اعتبارات معينة ، افكر في البقاء حيث انا ، بعد زواج اختك دونيا ، بدلا من ان اشاطرهما السكن . انني واثقة من انه سيكون له من نفسه ما يحفزه على مطالبتي بعدم الافتراق عن ابنتي ، وسأرفض بالطبع طلبه ... وهو وان كان لم يحدثني بعد بشيء ، ولكنه واضح انه سيكون كذلك ! وقد لاحظت اكثر من مرة في هذه الحياة ، ان الاصهار لا يضمرون خيرا لحمواتهم ، لذلك فانني الى جانب رغبتي

في عدم ازعاجهما في عشهما ، افكر جديا بالاحتفاظ بحريتي المطلقة واستقلالي التام !... ولن اعدم قطعة من الخبز أتبلغ بهـا ، وانا ام لولدين مثل دونيا ومثلك !- ولسوف اقطن بالقرب منكما كليكما .

واخيرا سأصل بك يا روديا الى النهاية الطيبة التي احتفظت لك بها في هده الرسالة : ألا فاعلم يا عزيزي روديا اننا سوف نجتمع ثلاثتنا قريبا ، ولسوف تتعانق بحرارة بعد فراق دام ثلاثة اعوام . ذلك انه تقرر ـ مسبقا ـ أن نذهب ـ دونيا وانا ـ الى بيترسبورج .. اما متى سيكون ذلك ؟ فلست ادري ! انما ارجح ان يكون ذلك خلال ثمانية ايام . وهو متوقف على الاستعدادات التي سيتخذها بيير بيتروفيتش والزمن الذي ستتطلبه . غير انه سيخبرنا في حينه لنوافيه الى بيترسبورج ، لانه يتعجل زواجه ويهدف الى الانتهاء منه خلال الشهر او على ابعد حد ، في وقت جد قريب : اي بعد عيد « انتقال العذراء » !

آه ... بأية سعادة سوف اضمك الى صدري ! ودونيا ... انها تحترق شوقا الى رؤيتك ... لقد قالت ذات مرة مازحة : انها لم تتزوج بيير بيتروفيتش الا لكي تنتقل الى بيترسبورج وتراك ! انها ملك كريم ! لقد اخبرتني بأنها لن تضيف شيئا الى رسالتي اليك هذه المرة ، رجتني ان اعلمك بأن لديها اشياء كثيرة سوف ترويها لك بنفسها ، اشياء تبلغ من الكثرة حدا يجعلها عاجزة عن الامساك بالقلم وتسطير ... والتسلسل . لانها تعرف ان الاسطر القليلة ـ مهما بلغ عددها ـ ، لن تستطيع ايضاح ما يعتلج في نفسها . لان الاسطر توقظ الحنين في النفس لا اكثر ... لسوف نلتقي قريبا يا ولدي غير انني عازمة على ان ارسل اليك في الايام القريبة ، كل ما استطيع ارساله من مال . اذ ان اعتباري المالي قد ارتفع في كل مكان

منذ إن عرف الناس ، ان دونيا ستتزوج مـن بيير بيتروفيتش • انـا اعرف ان « اتاناس ايفانوفيتش » سيوافق على تسليفي خمسة وسبعين روبلا على جرايتي السنوية ، مما سيجعلني قادرة على ان ارسل اليـك منها خمسة وعشرين او ثلاثين روبلا • ولولا خوفي من نفقات الطريق وما قد يطرأ علينا، لارسلت اليك اكثر من هذا المبلغ • انني احتاط لهذا رغم ان بيير بيتروفيتش عرض علينا ان يتحمل جزءا من النفقات الناجمة عن هذه الرحلة ، فيطلب الى واحد من معارفه ان يقوم بنقل متاعنا • غير اننا يجب ان ندفع قيمة تذاكر سفرنا حتى بيترسبورج • وليس من المعقول ان نحل في المدينة دون ان يكون معنا مال يكفينا في ايامنـا الاولى على الاقل • هذا مع العلم ان دونيا وأنا ، دققنا في كل صغيرة وكبيرة ، واتخذنا لها الحيطة • وبذلك فلن يكلفنا غاليا • اذ لا يفصلنا عن محطة السكة الحديدية اكثر من تسعين فرسخا ، وقد اتفقنا مع احد الفلاحين على ايصالنا اليها ، سنسافر في الدرجة الثالثة بكـل اطمئنان ورضى ، وبذلك سأنجح في ارسال ثلاثين روبـلا اليك وليس خمسة وعشريـن •

اعتقد ان ما كتبته حتى الان يكفي، فقد ملأت ورقتين كبيرتين لم اترك فيهما مكانا خاليا • لقد انهيت لك قصتنا كما وقعت ، والله يعرف كـم وقع لنا من حوادث !

والان يا عزيزي روديا، اقبلك على البعد بانتظار تلاقينا المقبل، واحمل اليك قبلات دونيا التي كلفتني بها ، وليرضى عنك الله ولتحل عليـك بركتي كـأم •

احبب اختك دونيا يا روديا ، احببها بقدر ما تحبك • واعلم انهـا تحبك حبا عميقا لا حدود له ، تحبك اكثر مما تحب نفسها ! انها ملـك كما قلت لك • وأنت يا عزيزي روديا ، انت كل شيء بالنسبة الينا ، انت

املنا وعزاؤنا في المستقبل • ارجو الله ان تكون سعيـــدا فنكـبون كذلك سعداء •••

هل تصلي دائما كما كنت تفعل يا روديا العزيز ؟ وهل تؤمن ابـدا بالقدرة والعناية الإلهية المقدسة ؟ انني اخاف ان تكون الزندقـة التي بدأت تسري بشدة اليوم ، قد وجدت طريقها الى نفسك ، اذا كان ذلك قد حدث ، فسأصلي من اجل هدايتك يا ولدي • واذكـر يا ولـــدي الحبيب كيف كنت تتمتم صلواتك لما ان كنت طفلا وكان ابوك حيـا • كنت تجلس على ركبتي ، وكنا جميعا سعداء • فالى اللقاء يا ولـدي ، اضمك بعنف بين ذراعي وأرسل اليك قبلاتي •

محبتك حتى القبر
بولشيري راسكولنيكوف

كانت العبرات تغسل وجنات راسكو لنيكوف منذ ان قرأ الكلمات الاولى • غير انه ما ان فرغ من قراءة الرسالة كلها ، حتى شحب وجهه واكتسحت جسده رعشة هزت كيانه ، بينما انفرجت شفتاه عن ابتسامة باهتة كلها مرارة ! ترك رأسه يسقط علـى الوسادة القـذرة المحشوة بالالبسة ، وراح يفكر • كان وجيب قلبه يصم آذانه ، وكانت افكاره توقد نيران الحمى في جسده • شعر انه سيختنق في هــذه الغرفـــة الصفراء التي تشبه الخزانة او الصندوق ، بينما تاهت نظراتـــه في الفضاء ••• ولم يلبث ان اختطف قبعته وخرج دون ان يتهيب هذه المرة من لقاء صاحبة الدار على السلم ! نعم لقد نسي هذه الحيطة تماما ••• سار في اتجاه (ايل سان بازيل) جزيرة القديس باسيل ، مارا بالشارع (ف •••) كما لو كانت هناك اعمال هامة مستعجلـــة تنتظره • راح كعادته يناجي نفسه ويتحدث اليها بصوت مرتفع احيانا ، دون ان يلاحظ ما حوله ، او يبالي بمن يصطدم بهم ، شأن السكير المدمن •

٤

كانت رسالة امه تعذبه ••• فقد ادرك منذ البدايـة الاساس او الجوهر الذي قامت عليه خطة أمه واخته ، فوصل الى قرار حـاسم • قرار نهائي لا رجعة فيه : « لن يحدث هذا الزواج وانا علـى قيـد الحياة ••• اما السيد لوجين فالى جهنم ! »

نعم كانت التضحية واضحة تقذي العيون ••• فراح يتمتم بيـن اسنانه وعلى وجهه ابتسامة من نجح في مسعاه •

ـ لا يا امي ، لا يا دونيا ، لن تخدعاني ••• يا للعـذر الـذي تتذرعان به عن عدم استشاري في الامر ، والذي دفعكما الى البت فيه بدوني • آه ••• لم يكن ينقصني الا هذا •• انهما تظنان ان لا امـل بعد ذلك في فسخ الخطوبة ••• سنرى هل هناك امكـان ام لا ••• كم هو عجيب ذلك القول : « انه رجل عملي جـدا هـذا الـ : بيير بيتروفيتش ، جم المشاغل حتى انه لا يستطيع الا ان يتزوج بسرعـة البرق ! » •• كلا يا دونيا ••• انا ارى بوضوح واعرف « كل » مـا تزمعين قوله لي • انـا اعرف ما كنت تفكرين فيه تلك الليلة عندنا كنت تذرعين غرفتك بقلق •• انا اعرف ماذا طلبت الى الله في صلواتك لعذراء كازان التي تزين صورتها غرفة امي الصغيرة ! ان الصعود الـى غولغوتا (١) صعب شائك هه •• هكذا اذن قررت نهائيا ••• هـل يعجبك يا اختي آفدونيا رومانوفنا ان تتزوجي رجل اعمال ايجابي يملك ثروة (ولنقل انه يملك ثروة ، لان ذلك اكثر ايجابية واشد تأثيرا) ، ويشغل عملين ويشاطر الاجيال الحديثة مبادئهـا (كما كتبت امي) ، حسن المظهر كما لاحظت ذلك بنفسك ! ان هذا « المظهر » هو الباقة !

---

(١) غولغوتا : Golgotha جبل بالقرب من اورشليم صلب عليـه المسيح ـ المترجم ـ

ودونيا ، انها ستتزوج بهذا المظهر ... رائع ... رائع !

لم المحت امي في رسالتها الى « الاجيال الجديدة » ؟ انه امر يثير الفضول . هل أرادت وصف عقلية الشخص، او ان لها اهدافا ابعد من ذلك ؟ كأن تسترضيني مثلا لحساب السيد لوجين ؟ آه يا للماكرات ... يجب معرفة المدى الذي بلغت اليه الصراحة التي تبادلتاها تلك الليلة وذلك النهار والايام التي تلته .. انه امر جدير بالاهتمام ! هل نطقتا « بالكلمات » التي كتبتها لي كلها ، ام ان كلا منهما خمنت ما في ذهن الاخرى . لا شك ان ذلك هو نصيب الجزء الاوفى من هذه القصة . ان ذلك واضح في الرسالة

بدا الرجل « باردا » بعض الشيء حيال امي ، فراحت الساذجة المسكينة تطلع دونيا على ملاحظاتها ، فانزعجت هذه وخاطبتها في « شيء من التذمر » ... لا شك انها ستتذمر ! من ذا الذي لا يتذمر اذا كان الامر منتهيا وفي غير حاجة الى سؤال او جواب ؟ عندما يكون القرار النهائي متخذا دونما حاجة الى نقاش ؟.. ولم كتبت لي كذلك : « احب دونيا يا رودي لانها تحبك اكثر من نفسها » . او ليس ذلك بسبب تبكيت الضمير الذي كان يعتلج في اعماقها ، بسبب تضحية ابنتها في سبيل ابنها ؟ ... « انت املنا وذخرنا للمستقبل ، انت كل شيء بالنسبة الينا ... » ! آه يا أمي !

احس بغضب عنيف يملأ صدره ، حتى انه ود لو قابل السيد لوجين، اذن لقتله ! واضاف يحدث نفسه وهو يتابع زوبعة افكاره :

ــ هه ... بالطبع ، يجب التصرف ببطء وحذر لمعرفة اي شخص وسبر غوره ، غير ان السيد لوجين كالضياء نفسه ، في غير حاجة الى درس وسبر ! فهو قبل كل شيء « رجل اعمال ومظهره حسن » ... تصور انه تحمل اعباء نقل « عفشهما » على نفقته ! .. فكيف لا يكون

طيبا بعد كل هذا ؟ اما هما ـ خطيبته وامها ـ فستستخدمان قرويا وستقطعان الطريق الى المحطة في عربة مغطاة بقماش خلق ، وانا ادرى بالمشقة في مثل هذه الرحلات . لكن ماذا يهم ؟ ليست المسافة الا تسعين فرسخا فقط ! !

ثم « سوف ننتقل بهدوء في عربة من عربات الدرجة الثالثة » مسافة الف فرسخ ! لا شك ان الواجب يقضي على الانسان ان يتصرف بحسب امكانياته . ولكن ما قولك يا سيد لوجين ؟ ان الموضوع يتعلق بخطيبتك! ثم انه لا يمكنك ان تجهل حاجة امها واضطرارها الى الاستلاف على جرايتها لتقوم بتلك الرحلة ! لا شك انك فهمت ذلك بعقليتك التجارية ، وخمنت ان في هذه العملية شخصين لا يمكن الا ان يتساويا من حيث الشروط والواجبات . واذن فعلى احدهما ان يقدم الخبز وعلى الاخر ان يقدم الملح اما التبغ (على حد قول المثل) فهو علاوة « على البيعة » ! وهكذا ايها الرجل العملي ، لقد تصرفت بما يضمن مصالحك لان نفقات شحن « العفش » ستكون اقل تكليفا من اجرة الانتقال ولعلك تنقل « العفش » مجانا ... فهل غفلتا عن هذا ام تعمدتا اغفاله ؟ والعجيب انهما سعيدتان ... كيف يغفل المرء عن الادراك ان هذه الباكورات ليست الا ازهارا ، وان الثمار ستأتي بعدها ... نعم كيف ؟.. صحيح إن البخل ليس هو كل ما يثير الحفيظة في هذا الموضوع ، حتى يأتي معه القبيح ويعقبه التصرف ! ان مثل هذا التصرف ينبىء بكامل البرنامج عندما يتم الزواج . فلم اذن تنحدر امي الى مثل هذا الجنون ! كيف ستصل الى بيترسبورج ، بثلاثة روبلات في جيبها او كما تقول هذه المرأة العجوز « ورقتين صغيرتين » . هه ... على اي شيء تعتمد في عيشها في بيترسبورج ؟ لقد تأكدت ـ من بعض الدلالات ـ ان بقاءها مع ابنتها في بيت واحد بعد الزواج مستحيل ،

حتى ولو كان في الايام الاولى ! لا شك ان ذلك الرجل النبيل كان قد اغفل عامدا بضع كلمات ، حتى يفهم قصده • مع ذلك فان امي تريد ان تستغفلني ، وتجعلني اعتقد انها هي التي سترفض ! ماذا تنتظر ؟ وعلى اي شيء تعتمد ؟ على مائة وعشرين روبلا جرايتها السنوية التي يجب انقاصها بما يسدد القرض لصاحبه : آثاناس ايفانوفيتش ؟ انها تقضي الشتاء كله وهي تحيك الدثارات الصوفية والقفازات ، وتتعب بذلك عينيها ! ولكن ذلك لا يأتيها باكثر من عشرين روبلا في العام ، تضاف الى المائة والعشرين التي هي من حقها ••• فهي اذن تعتمد على كرم السيد لوجين ! ••

« سوف يعرض علي بنفسه ، سوف يرجوني قبول ما يعرض »• لها ان تبتجح ! ذلك شأن اصحاب النفوس النبيلة الطاهرة • انه ليروق لهم ان يفرقوا حتى اللحظة الاخيرة ريش الطيوز القذرة عن ريش الطواويس كما يقول المثل ، انهم لا يرون الا الخير ولا شيء الا الخير، ومهما بلغ من احتمالهم للشر وتعرضهم له ، فانهم لا ينطقون الكلمة التي يجب ان تقال في هذا الصدد ••• ان مجرد التفكير في الشر يقلق مثل تلك النفوس الساذجة ، نعم ، انهم يحجبون اعينهم بأيديهم امام الحقائق حتى تصفعهم الصورة الحقيقية وتصطدم بانوفهم ••

كم اود ان اعرف اذا كان هذا السيد لوجين يحمل أوسمة أم لا ! انني أراهن أنه يدلي من عروته شريط القديسة آن ، وانه يضيف اليه الصليب عندما يدعى الى وليمة يقيمها بعض الرجالات الرسميين او التجار •• فليس هناك من خطر ان ينسى ذلك فى حفلة زفافه ! ولكن ليذهب الى الجحيم •••

يا الهي ! ان امي خلقت هكذا ، لكن دونيا ؟ عزيزتي دونيا ••• أنا اعرفك جيدا • لقد كنت فى العشرين من عمري لما فارقتك آخر مرة !

كنت اعرف عقليتك . فقد كان لدي من الوقت ما يكفي لهذه المعرفة .. ها أن أمنا الصغيرة تكتب لي وتقول : ان دونيا « صبورة جدا » .. أنا أعرف عنك ذلك . أعرفه منذ عامين ونصف ومنذ عامين ونصف لم آكف مرة عن التفكير في هذا الصبر ، وبصورة أدق ، في هذه الطاقة الكبيرة التي تمتلكينها ، الطاقة على الاحتمال والصبر! كيف لا وقد صبرت على مثل سفيدريكايلوف وكل الملابسات التي لازمته ... انها طاقة جبارة هائلة ! واليوم تعتقدين أنت وأمي ان لا عليك اذا صابرت واحتملت « لوجين » الذي يبدي اغتباطه لمصاهرة نساء فقيرات ويدلي برأيه حول هذا الموضوع فى المقابلة الاولى !.. حسنا .. لنفترض ان « ذلك قد أفلت منه » رغم أنه ذلك الانسان الرزين المفكر الذي لا يمكن أن يغفل عن مثل هذه الاقوال فيدعها تسبق ارادته وتعاند رغبته في كتمانها! ولكن كيف فات دونيا هذا ؟ كيف تستطيع ان تعيش مع زوج هذا رأيه ؟ أجدى لها أن تأكل خبزا يابسا وتتجرع قطرات من الماء ، من أن تتورط وتبيع روحها ! كيف تستغني عن حريتها من أجل قضية لها علاقة بالترف . نعم لن تفعل ذلك ولو كان فى سبيل كل الـ : «شليسويغ (١) ــ هولستن» فكيف من اجل هذا اللوجين ! كلا .. ان دونيا التي عرفتها ليست هذه التي أراها اليوم ... ولا يمكن ان تكون قد تغيرت عما كانت عليه... فماذا اقول ؟

لا شك أن البقاء لدى آل سفيدريكايلوف محزن أليم ، كما أنه مؤلم كذلك ان يتجول المرء من مقاطعة الى اخرى كل حياته لقاء مائتي روبل في العام ليعمل في تربية الاطفال وادارة البيوت . لكنني اعرف ان اختي تفضل ان تعامل معاملة الزنجي بالنسبة الى صاحب مزارع المطاط او معاملة « ليتواني » بالنسبة الى الالمانيين ، على أن تفسد روحهـا

---

(١) كلمتان : الاولى لمقاطعة دانيمركية والثانية لمقاطعة بروسية ضمتا معا وادخلتا في عداد الاراضي البروسية تحت هذا الاسم . ـ المترجم ـ

واحساسها بالارتباط مع رجل لا تميل اليه ابدا وليس بينها وبينه أي توافق أو امتزاج ، مدفوعة أبدا بغنم شخصي . حتى ولو كان السيد لوجين مصنوعا من سبيكة من الذهب او منحوتا في قطعة من الماس، فان دونيا ما كانت لترضى أن تكون المحظية « السرية » الشرعية للسيد لوجين . فلم اذن وافقت الان ؟ ما هذا ... آه ... أي سر غامض ؟ ان الامر واضح جدا : فهي ما كانت لترتضي ذلك من أجل نفسها أو من اجل رفاهها حتى ولو كان فى ذلك انقاذا لها من الموت ! فهي لم تكن لتبيع نفسها هكذا..لكن اذا كان الامر من أجل شخص آخر، انها في هذه الحالة تبيع نفسها..نعم انها تبيع نفسها ! اذا كان الشخص الذي تضحي من اجله يأتي في منزلة أرفع من منزلة نفسها ! اي اذا كانت تحبه حب عبادة ، وهنا ينجلي السر ! انها تبيع نفسها من اجل امها واخيها ! انها تفرط في كل شيء الا في هذين ! نعم .. اننا نحاول في بعض المناسبات قتل عواطفنا ، فنحمل حريتنا الى السوق نعرضها ، حريتنا وسعادتنا وراحتنا حتى وضميرنا .. نعم كل شيء ! لتهلك حياتنا اذا كان في هلاكها اسعاد المخلوقات التي نحبها ونرجو لها السعادة ! بل اننا نمضي الى أبعد من هذا ، فنبتدع ما يحلنا من ذمتنا ، ونستعير حكمة اليسوعيين لنعتقد خلال وقت ما ، اننا قمنا بواجبنا ، ونقنع انفسنا بان ما كان ، ان هو الا أحسن ما يمكن أن يكون ، وأنه طالما أن النتيجة ستكون حسنة ، فان الوسائل الى بلوغ هذه النتيجة تجد ما يبررها . نعم نحن هكذا .. والقضية فى منتهى البساطة والوضوح . من الواضح ان روديون رومانوفيتش راسكولينكوف ــ اي انا ــ هو الذي يأتي في الصف الاول من هذه القضية ، وهو محور التضحية ! كيف لا ؟ ينبغي دعم سعادة هذا « الراسكولينكوف » وضمان حريته ومثابرته على دروسه في الجامعة وتأمين عمل شريف له في مكتب مرموق يكون شريكا فيه فيصبح غنيا .. ولم لا ؟ سوف يتذوق لذائذ الشهرة وطعم الظفر حتى ولو كان في نهاية ايامه ! أما الام فهي ليست بذات موضوع

هنا ... المهم هو ابنها روديا « رودياها » الابن المدلل ، الابن البكر ! كيف لا تضحي من أجل ولد بكر « كهذا » بفتاة ـ كدونيا ـ ؟ آه ايتها الاخوات العزيزات الظالمات .. أعتقد ان الاستعداد للوصول الى نهاية تشبه تلك التي تردت فيها سونيا ليس بعيدا اذا كان في سبيل اسعاد روديا ! نعم .. سونيا .. مارميلادوف ، سونيا الخالدة التي ستبقى أزلية ما بقي العالم ...

يا الله .. هل فكرتما في التضحية التي أنتما بصددها ؟ هل قمتما بهذه التضحية اذن ؟ هل قارنتما بين قواكما ومصالحكما ؟... هل وجدتما ذلك معقولا ؟ أتدرين يا عزيزتي دونيا ان مصير سونيا ليس أحط من مصيرك في عيشك مع لوجين ؟

ان امي تقول « ان المسألة ليست مسألة حب متبادل مسبق » . لكن كيف يمكن أن يقوم هنا حب أو مجرد ميل ، طالما ان الازدراء والاحتقار والتوتر هي كل ما يبدو الى الآن ! أولا يساوي هذا مصير تلك الفتاة التي دفعت الى البغاء واضطرت الى « الاحتفاظ بالنظافة » .. هل هناك فارق بين المصيرين ؟ انا لا أجد فارقا .. انا افهم معنى «النظافة» ان « نظافة » « لوجين » تعادل « نظافه » سونيا . لعلها اكثر سوءا واشد حقارة واكبر مقتا .. نعم انها اكثر من ذلك ؛ لانك انت يا دونيا ، تملكين بعض الرفاهية ، بينما الامر بالنسبة الى سونيا هو اجتناب الموت جوعا .. ان هذه « النظافة » يا دونيا ، هذه النظافة تكلف غاليا .. وغدا ، لما ينهار الثقل ساحقا قواكما ، لن يكون الندم ممكنا .. لن يتبقى لكما الا الدموع والاحزان .. والالام واللعنات ! دموع ساكنة تذرفانها بهدوء ، لانكما لستما « مارتا بيتروفنا » ... وانت يا امي ماذا سيحل بك ؟ انت منذ الان قلقة حزينة معذبة ! فماذا يكون حالك عندما تبصرين بوضوح ... وانا .. نعم انا .. من

ظننتماني ؟ انا لا اريد تضحيتك يا دونيا ، كذلك لا اريد تضحيتك يـا أمي الصغيرة ! ان ذلك لن يكون وانا على قيد الحياة .. نعم لن يكون .. لن احتمل هذا ولن اتقبل به !

ثاب راسكولينكوف الى نفسه بعد طول استغراق ، فتوقف برهة كأنه يعيد النظر فيما قال .. وراح يخاطب نفسه معنفا :

ـ لن يكون ؟ .. ماذا تفعل انت لتمنع ذلك ؟ هل تمنعها عن ذلك ؟ وبأي حق من فضلك ؟ ماذا تستطيع ان تعوضهما به او أن تعدهمـا بتحقيقه لقاء هذا الحق الذي تريد ممارسته ؟ أأن تكرس لهما مصيرك ومستقبلك « عندما تنهي دراساتك وتجد وظيفة تشغلها » !؟ ان هذه النغمة معروفة فضلا عن أنها تنبيء بالمستقبل .. نعم المستقبل . بينما نحن نعيش في الحاضر . فماذا أعددت لهذا الحاضر ؟ انك قانـــع بالعيش على فتات مائدتهما .. وهذا المال الذي انفقته وستنفقه ، أو ليس من القروض التي تتداركانها لك ؟ أليس ما استطاعتا اقتطاعه مـن المائة روبل التي تتقاضيانها فى العام ؟ أليس كذلك مما ستقترضه أمـك بفضل تعارفها بآل سفيدريكايلوف ؟ كيف تحميهمـــا مـــن آل سفيدريكايلوف ومن هذا الـ : اتاناس ايفانوفيتش فاخروشين ايهـا المليونير المنتظر ؟ هل تظن نفسك من الآلهة حتى تتصرف بمقدراتهما ؟ لسوف تجد أمك وقتا كافيا خلال السنوات العشرة المقبلة لتفقـــد ابصارها لكثرة ما تنهك عينيها بحياكة « الشيلان » والقفازات ، بينما تكون الشابة قد فقدته لكثرة ما تذرف من دموع .. واختك ؟ تصور قليلا ماذا سيحدث لاختك خلال عشر سنين فهل فهمت ؟..

وهكذا كان الشاب يتعذب ويتألم بهذه الاسئلة والمحاكمات ، ويثير كوامن غضبه وكأنه يجد متعة في ذلك ... انما الجدير بالذكر أن تلك الاسئلة لم تكن جديدة تماما بالنسبة اليه ، اذ لم يكن لديه شيء غـير

منتظر .. بل أنه كان يشعر بها منذ زمن طويل ، كانت هذه القضيـة ماثلة امام عينيه ، تنمو وتترعرع حتى اتشحت منذ حين بوشاح المعضلة المخيفة ، المعضلة الموحشة المروعة التي تحرق دماغه وقلبه دون هوادة ، متطلبة جوابا حاسما كان يؤمن أنه لن يكون ! وجاءت رسالة أمه فكان لها في نفسه وقع الصاعقة .. نعم ان الوقت اليوم ليس وقت الشكوى والتحسر ومعالجة المسألة سلبيا ، اذ انه نبت لديه مواقع « آ + ب » ان المسألة صعبة الحل ، فكان يجب والحالة هذه الشروع في امـر فوري وبأسرع ما يمكن . كان ينبغي له أن يتخذ قرارا مهما كلفه الامر ، بالغا ما بلغ من خطوره ؟

كان يتساءل محنقا : « هل أضع حدا لحياتي ؟ هل اتقبل الوقائـع واحتملها ، خانقا في نفسي كل شعور بالنقمة والثورة والتمرد .. هـل أتنازل عن حقي في الحياة : حقي في العمل ، حقي في الحب ؟ .. »

تذكر فجأة السؤال الذي طرحه مارميلادوف مساء امس حين قال :

ـ « هل تفهم يا سيدي ، هل تفهم معنى جملة : « لم يعد يعرف أين يذهب والى أين يقصد ؟ » هل تفهم معنى هذا ؟ يجب أن يكون لكل انسان جهة يذهب اليها !.. »

ارتعدت فرائصه فجأة وعادت الفكرة التي كان يهدهدها في خيالـه امس ، تمثل امام عينيه . لم يرتعد لان الفكرة القديمة عادت الـى الظهور ، كان يعرف سلفا انها ستخامره ، كان يحس بها انها تلاحقـه وتشق لنفسها طريقا لتصل الى الصف الاول من معروضات فكره ، كان ينتظر أوبتها ... ثم ان الفكرة لم تكن كتلك التي كان يشعر بها امس او منذ شهر .. لان تلك كانت أشبه بالخيال ، الخيال المجرد . أمـا فكرة اليوم ، فكانت مختلفة كل الاختلاف ، انها اكثر من مجرد حلم ، انها تبدو بشكل جديد مجهول منه .. كان يفهم سبب هذا التبـدل

ومؤداه ..

اندفع الدم الى رأسه وغشيت عينيه سحابة ، فبدا كل شيء قاتما .. راح يتلفت حوله متلهفا باحثا عن شيء .. مقعد مثلا . لانه كان يشعر برغبة عنيفة فى الجلوس .. كان يسير حينذاك في شارع « لك » ... فأبصر بمقعد على بعد مائة خطوة من مكان وقوفه ! اندفع الى حيث كان المقعد بكل ما فى ساقيه من قوة . لكن حادثا وقع له فى الطريق استلفت انتباهه وأخره عن غايته .

كانت أبصاره عالقة بالمقعد الذي يقصد اليه ، فاذا بامرأة تسير على بعد عشرين خطوة أمامه . لم يعرها اي اهتمام فى البداية ، كما كان شأنه في كل ما يحيط به ، اذا كان مشغول الفكر مستغرقا في خواطره ... وكثيرا ما وقع له أن عاد الى غرفته دون أن يعلم بأي الشوارع مر ، وكيف وصل الى حيث كان ... كان يسير هكذا عفويا دون تقدير ولا تدبر .. غير أن هذه المرأة التي كانت تمشي أمامه ، لم تكن تخلو من شيء شاذ يستوقف الانتباه للوهلة الاولى ، شيء بدأ يحتكر تدريجيا كل اهتمامه ، حتى نسي كل شيء الا التحديق فيه والتطلع اليه ! أراد اكتشاف هذا السر الذي يجعل تلك المرأة حافلة بالشذوذ الغريب ، كانت تسير في ذلك الجو الحار الخانق ، عارية الرأس دون مظلة وقفازات ، وكانت تطوح ذراعيها بأسلوب مضحك . كانت تلبس ثوبا من الحرير الرخيص ، غريب التكوين ، يبدو كأنه لا يجد مستقرا على جسد لابسته ويكاد يختلف عنه لولا رباط خفيف يثبته فى مكانه . ثوب ممزق ابتداء من التقاء الجزع بالساقين ، تتدلى منه قطعة انفصلت عن مجموعه وراحت تتأرجح كلما تحركت صاحبته ... كانت تلف عنقها العاري « بلفحة » صغيرة لا تكاد تستره . لم يكن هذا وحده يستوقف النظر ، بل المرأة نفسها . اذ كانت تسير بخطى غير متزنة

تتعثر في مشيتها وتتمايل يمينـــا وشمـــالا • مما ايقظ فضول راسكولينكوف، فأدركها في اللحظة التي بلغت فيها المقعد، وتهالكت على جانبه ، ملقية رأسها على المسند مغمضة عينيها اللتين انهكهما ولا شك التعب •• كانت نظرة واحدة اليها تكفي ليعرف الناظر أنها مخمـــورة تماما ••• فبدا المشهد لعينيه غريبا شاذا حتى أنه ود لو كان مخطئا ••

كان يرى أمامه فتاة ذات وجه صغير يدل على سنها المبكرة ، فهي لم تكن تبلغ السادسة عشرة من عمرها ، دقيقة التكوين تحيط برأسها ثروة من الشعر الذهبي الاشقر ، جميلة الوجه منتفخته ! كـــان يبدو عليها أنها لا تعي ما حولها •• فقد عقدت ساقيها الواحدة فوق الاخرى فظهر منهما أكثر ما يجمل ظهوره عادة ، مما يدل على انها لم تكن تشعر بوجودها في الشارع •

لم يجلس راسكولينكوف لا ، ولم يمض في طريقه كذلك ، بل وقف يتأمل الفتاة دون أن يصل فى قراره الى رأي حاسم •• كان ذلك الشارع مقفرا معظم الوقت ، أما فى تلك الساعة (الواحدة بعـــد الظهر) وفي مثل تلك الحرارة الخانقة ، فان مرور الناس فيه يكـــون غريبا حقا • مع ذلك فقد كان هناك سيد يقف على مسافة خمس عشرة خطوة ، منتحيا جانبا في ممشى بين اشجار الشارع ، يبدو عليه انـــه ينتظر بدوره ان تسنح له فرصة للاقتراب من الفتاة المخمورة ، تنفيذا لرغبات معينة! ولعله شاهدها هو الآخر فلاحقها، ولكن راسكولينكوف عرقل مسعاه بظهوره • فكان ذاك يلقـــي عليـــه نظرات حـــاقدة دون أن يشعر بذلك ، وينتظر بفارغ الصبر أن يمضي ذلك المتطفـــل حتى يحل محله • كان الامر واضحا لا يحتاج الى تمحيص • فهـــذا السيد في الثلاثين من عمره متين الجسم ممتلىء الجسد مزدهـــر الوجه ، ذو شفتين ورديتين يزينهما شارب صغير ، يرتدي ملابسا تدل

على أناقة كبيرة . اذن ؟ لقد أصبحت الغاية معروفة !

شعر راسكولينكوف بغضب جامح . وود بجدع الانف لو يوجه اهانة الى ذلك الديك الرومي .. فاقترب منه وقد ضم قبضتيه انفعالا وصاح به وهو يكشر عن أسنانه التي غطاها الزبد !

ــ أنت يا سفيدريكايلوف .. ماذا تبحث هنا ؟

فقطب السيد حاجبيه لدى سماعه الاسم الذي أطلقه راسكولينكوف استعارة عليه ، وقال بلهجة خطيرة وترفع مرموق !

ــ ماذا تريد أن تقول ؟

ــ ابرح هذا المكان فورا .. هذا ما أردت أن أقوله !

ــ كيف تجرأ على تلفظ بهذا الكلام أيتها الحشرة ؟.. وهز سوطه بيده ! فلم يمهله راسكولينكوف وارتمى عليه دون ان يفكر بان خصمه الضخم يساوي اثنين من حجمه ! وفي تلك اللحظة ، شعر بيد تقبض عليه بشدة من الخلف . واذا برجل من رجال البوليس يتدخل في الامر قائلا :

ــ أيها السادة ، المرجو تجنب المشادة فى مكان عام ...

ولما شاهد راسكولينكوف صاح به :

ــ من أنت يا هذا ؟ وماذا تريد ؟..

نظر راسكو ليبنكوف بجرأة الى رجل البوليس . كان له سالفان أشيبان يضفيان على وجهه النبيل ذي التقاطيع الدالة على النباهة والذكاء ، لونا من الوسامة ! قال :

ــ انني أريدك أنت بالذات !

ثم أمسك بذراعه وأردف :

ــ انا طالب علم سابق واسمي راسكولينكوف اذا كان يعنيك معرفته .. واستدار نحو « الديك الرومي » وقال :

— وانت ، تعال معي ، سأريك شيئا .. ومشى نحو المقعد الـــذي تخاذلت عليه الفتاة يرافقه الشرطي وأردف :

— أنظر ، انها مخمورة تماما ، لقد رأينها تسير على غير هـــدى في الشارع - ومن يدري من أين خرجت ومن هي ! غير انه من الواضــح انها ليست محترفة . انها على الارجح فتاة مسكينة ، ائتمر بهـــا حتى أغريت على الشرب فثملت .. ولعل هذه هي المرة الاولى التي تتذوق الخمرة فيها ... لقد أريد بها شر فنصب لها هذا الشرك الذي تردت فيه ! لعلك تفهم يا سيدي ما أعني .. لقد ألقي بها الى الشارع بعد أن نال منها الانذال ما يشتهون ...أنظر الى ثوبها الممزق وكيف لبسته أو بالاحرى كيف أنزلت فيه .. من الجلي أنها لم تلبسه بنفسها ، انهـــا ايد غير مجربة تلك التي ألبستها هذا الثوب .. أنها أيدي الرجال .. والان الق نظرة على هذا السيد السمين الذي كدت اتشاجر معـــه منذ قليل .. انني لا أعرفه بل إنني رأيته اليوم للمرة الاولى .. لقـــــد شاهدها هذا السيد النبيل وهي على حالها هذا من الثمل وفقـــــد الحواس ، وقد رأيتها لا تعي ما تعمل ولا تستطيع التمييز بين الخـــير والشر ، فاراد أن يقترب منها ليفاجئها في هذه الحال ويقودها الى أي مكان ... ثق انني لست مخطئا فيما أقول .. لقد شهدته بنفســي يرقبها ويحصي حركاتها ويتبعها . فكان حضوري عـــائقا غير منتظر . وهو ينتظر أن أبرح المكان لينفذ مأربه . انظر كيف ابتعد بعـــض الشيء وراح يتظاهر بلف « سيجارة » ... فكيف السبيل لانتزاع هذه الفتاة من براثنه ؟ كيف السبيل لاعادتها الى ذويها ؟

أدرك الشرطي على الفور ماذا هناك وراح يفكر . كانت نوايـــاه حيال الرجل السمين غير خافية . انما كانت هناك عقبة من نوع آخر .. تلك هي الفتاة المخمورة . انحنى عليها يتفحصها عن قرب ، وبـــدت

على وجهه آيات الشفقة والحنان ودمدم قائلا :

ـ يا للطفلة المسكينة ! لا زالت طفلة تماما .. لقد خدعوهــا ولا شك .. هذا واضح ! هل تسمعين يا آنسه .. أين تقطنين ؟

وفتحت الصغيرة عينيها المتعبتين وقد اصطبغتا بلون الدم ، وحدجت سائليها بنظرة بلهاء ، ثم حركت ذراعها ملوحة وكأنها تحاول طردهما .

بحث راسكو لنيكوف في جيبه واخرج عشرين كوبيكا قدمهـا للشرطي وقال له : أرجو أن تستدعي عربة وأن ترافقها الى منزلها اذا كنت تعرف عنوانها ! ولكن كيف السبيل لمعرفة العنوان ؟

اما الشرطي فقد عاد ينادي الفتاة بعد ان أودع المال في جيبه :

ـ يا آنسة ، يا آنسة ، سوف أقودك بنفسي فالى أين تذهبين ؟ أين

تمتمت الفتاة وهي تلوح بذراعها قائلة :

ـ اغرب عن وجهي أيها « الكلاب » ... دعني بسلام .

بدت امارات الالم على وجه الشرطي وراحت تتنازعه عوامـل مختلفة بين اشفاق وانتصار للفضيلة المنتهكة ، واستنكارا للنعت الذي اطلقته عليه . وقال مسترسلا :

ـ كم هو مخجل ما انت فيه يا آنستي ...

ثم خاطب راسكولنيكوف مرة ثانية وهو يتفحصه من رأسه وحتى اخمص قدميـه :

ـ هنا الصعوبة الحقيقية ... نعم هنا العقبة ... انها لا تعي شيئا . فهل لقيتها بعيدا عن هنا ؟

ـ لقد قلت لك انها كانت تسير امامي تائهة شاردة اللب وهي

تتمايل وتترنح ، ولم تكد تصل الى هذا المقعد حتى تهاوت عليه !

ــ يا الهي كم هو مخجل هذا الذي يجري في هذه الايام . فتاة كهذه ، بل طفلة لم تشب عن الطوق تثمل ... لقد غرر بها حتما ليس هناك شك ابدا . ان ثوبها ممزق كله ... آه من اولئك الفجار الذين يسابقون الوقت ويمضون الى اهدافهم من اقصر الطرق !.. لعلها من عائلة كريمة اصيبت بالفاقة والعوز . فالمدينة تحفل بهذه العـــائلات البائسات اليوم ... ان الناظر اليها يخيل اليه انها آنسة فاضلة ...

صمت اليها الشرطي برهة وعاد الى المخمورة يحاول اعادتها الى صوابها ... لعل له هو الآخر بنات « يفضـــلن ان يعتبرن آنســات فاضلات » يتبعن الاساليب السائدة بين الفتيات ، المقتبسة عن ابتكارات مصطنعة لا تمت الى حسن التربية في شيء ...

بادر راسكولنيكوف يقول :

ــ المهم ان لا تدعها فريسة لهذا السافل ، فهو قمين بتدنيسها من جديد ! ذلك ما يريد وليس من العسير تبيانــه ... الا ترى انـــه لا ينصرف ... الفاجر !

كان يتكلم بصوت مرتفع وهو يشير الى السيد ... وسمعه هذا فكاد أن يغضب من جديد .. غير انه تمالك واكتفــى بأن القى علــى الطالب المفلس نظرة تنطوي على الازدراء . واخيرا استــدار علـــى عقبيه ، وراح يمشي مبتعدا ، ثم توقف من جديد بعــد قطـــع عشر خطـــوات ..

قال الشرطي بلهجة حالمة :

ــ ان لا نتركها له امر ميسور ، لو انها ذكرت لنا اين تقطن .. وعاد يهزها ويصيح : يا آنسة ، يا آنسة !

فتحت الفتاة عينيها وبدت كأنما استعادت بعض حواسهـا ، ونظرت بامعان الى الشرطي ورفيقه ، ثم نهضت وسارت في الاتجاه الذي جاءت منه . ودمدمت وهي تلوح بيدها شأن من يطرد انسانا يضايقه : « المغفلون ! ماذا يريدون من ملاحقتي » وراحت نوسع الخطى وهي تتعثر وتترنح . اما الرجل الانيق السمين، فقد راح يتبعها من جديد محافظا على المسافة التي بينهما ، دون ان يغادر المشى بين الاشجار !

اثارت هذه الفعلة حفيظة الشرطي ذي الشاربين الكبيرين : فقال لراسكولنيكوف بلهجة العزم والتصميم :

ـ لا تبتئس ... لن ادعها له ! وتبع الفتاة ومطاردها ... وقبل ان يبتعد عن الفتى اردف يقول : كم انتشر الفسق والفساد في هذه الايام ...! اما راسكولنيكوف : فقد كان تلك اللحظة كمن وخزته ابرة نفذت خلال جسده . شعر برد فعل عكسي تجاوب صداه في نفسه فهتف ينادي الشرطي ، ولما استدار هذا نحوه مستجيبا لندائه قال له :

ـ دعك من هذا ... لم تحشر نفسك فيه ؟ دع الرجل يتبعها ، دعه يبحث عن تسليته ! ماذا يهمك منه !

فاتسعت حدقتا الشرطي وظن انه حيال مخبول ذاهب العقل ، فلم يعد ولم ينفض يده من المهمة التي آلى على نفسه اتمامها ، بل اكتفى بان لوح بيده ومضى وهو بين مصدق ومكذب يتبع الرجل الانيق والفتاة . وما ان اصبح راسكولنيكوف وحيدا حتى خاطب نفسه بقوله :

ـ لقد حمل معه العشرين « كوبيكا » التي كنت املكها .

يا للشيطان ... لسوف يجعل الآخر يدفع له بعض المال ليترك لــه الفتاة ! وستكون تلك خاتمة القصة .. يا الله ! هل لمثلي ان ينصب نفسه حاميا للغير ? هل لي الحق بالتدخل ? مــاذا يهمني اذا افترس الناس بعضهم بعضا ? ثـم كيـف سمحت لنفسي باعطــاء العشرين « كوبيكا » التي كانت معي ? هل هي تخصني فعلا ?

شعر ازاء هذه الافكار والاسئلة ، بحمل ثقيل يهبط على صدره يكاد يكتم انفاسه ! جلس على ذلك المقعد الوحيد وتاهت افكـــاره في سماء الخيال ... لقد كان من العسير بالنسبة اليه ان يفكر في اي شيء ... كان يتمنى لو فقد الوعي وخسر الاحساس ، حتى اذا مـا استفاق ، كان كل شيء قد اضحى منسيا ، فيعود الى حيـــاة جديدة لا افكار محزنة فيها ولا تفكير ... القى نظرة الى حيث كانت الفتــاة جالسة ولم يتمالك نفسه ان قال :

ـــ يا للفتاة المسكينة ، سوف تعود الى وعيها وستبكي ، ثم تطلع امها على كل شيء ... ولسوف تضربها امهـــا اول الامر ، لسوف تجلدها بشدة وقسوة واذلال . بل لعلها ستطردها مـن البيت ! واذا افترضنا جدلا انها لن تطردها ، فانها لن تعدم واحدة مثـل داريـــا فرانتزوفنا تشتم رائحة الفريسة وتحوم حولها . ولسوف تبدأ الفتاة بالتنقل هنا وهناك ، وبعدئذ سيكون المستشفى (والحال ابدا كذلك بالنسبة للخاطئات اللاتي يعشن في كنف امهات شريفات يفضلــن التخلص من عارهن بصمت) ولن تخرج منه حتى تعود اليه ! وهكــذا فانها لن تبلغ التاسعة عشرة من عمرها ، حتى تصبح سقيمة عليلة وتكون قد انتهت ... النهاية نفسها ... لقد شهدت حالات مشابهة ! ولكن ماذا يهم ? يا للشيطان ... يبدو ان هناك نسبة مئوية ينبغي ان تدفـع في مكان ما ... الى الجحيم ، نعـم ذلك ضروري لانعـــاش الاخرين

والابقاء عليهم . نعم ... نسبة مئـــوية ... يا لـــه من تعبيـــر جميل ... كلمات منمقة مطمئنة ذات طابع علمي ... اذ من ذا الذي يرهب هذه الكلمة : نسبة مئوية ! اما لو كانت كلمة اخرى ... لكان الحال اقل طمأنينة ... ماذا مثلا لو ان دونيا ادخلت في هذه النسبة على شكل من الاشكال؟ النسبة الواجبة الدفع اليوم او في المستقبل؟..

وفجأة ثاب الى رشده وتذكر انه خرج من غرفته لسبب ما فهتف:

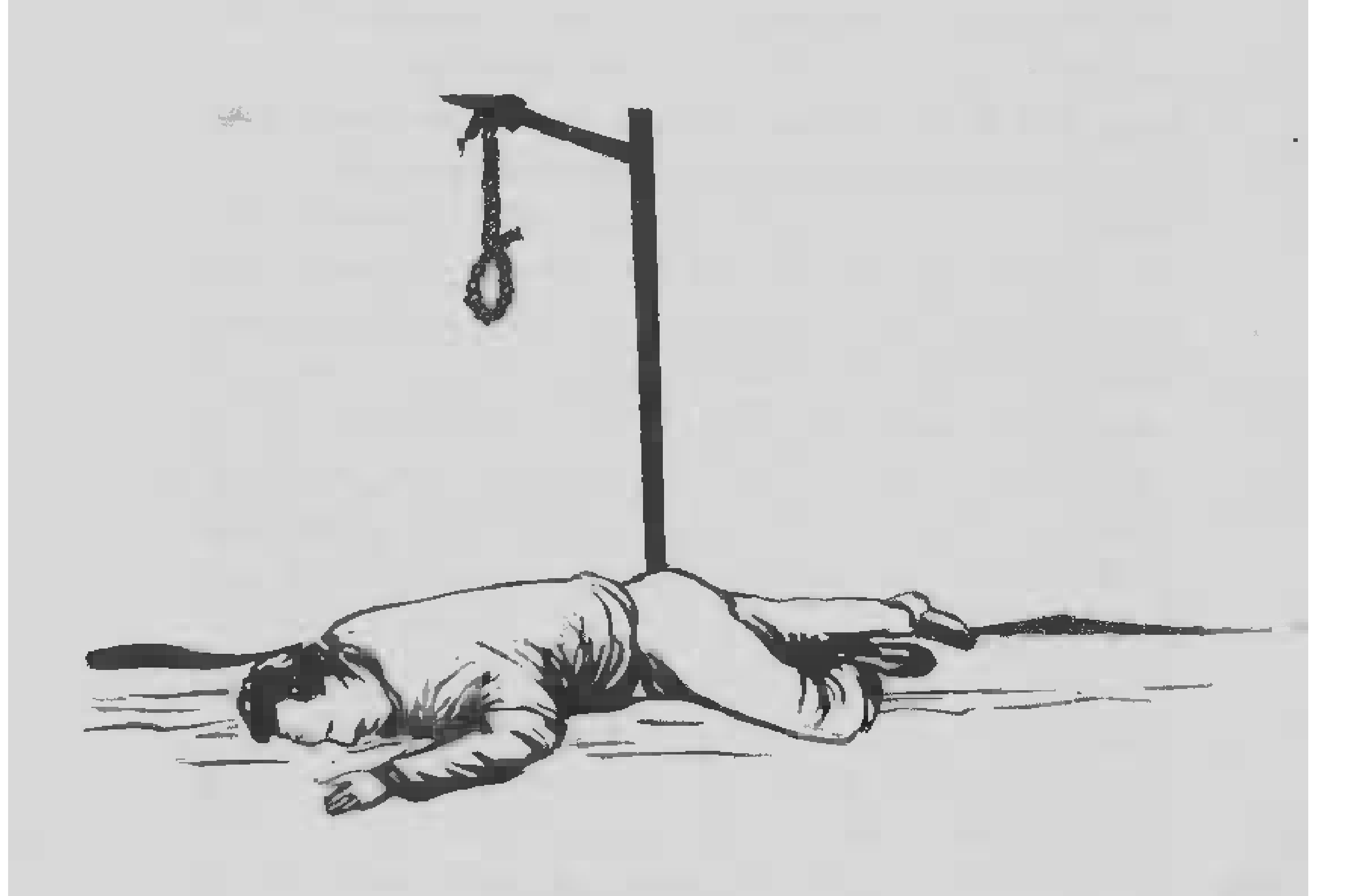
ـ رباه ... الى اين امضي ؟ كان هناك سبب وجيه دفعني الى الخروج من غرفتي ! نعم ... نعم ... لقد خرجت مباشرة بعد قراءة الرسالة ... آه لقد تذكرت ، كنت اقصد ايل سان بازيل ... نعـم كنت اريد الذهاب عند رازوميخين ! ولكن لماذا اذهب الى هنـــاك ؟ كيف طرأت لي فكرة الذهاب الى رازوميخين فجأة ؟ غريب ...

ادهشه تصرفه ... لقد كان رازوميخين احد اصدقائه القـدماء في الجامعة ! ومن الغريب انه لما كان يتابع دروسه في الجامعة ، لـم يكن يختلط بزملائه ويرتبط بهم بصداقات ، حتى انهم جميعا تنكروا له وتغافلوا عن وجوده . فكان لا يزور احدا ولا يسره ان يـستقبـل احدا ... لا يشترك في اجتماعات الطلبة ولا في مناظراتهم ، عازفـا عن لهوهم ومجونهم ... وكان منصرفا الى العمل منكبا على الدراسة، فاستطاع بذلك اكتساب عطف زملائه . لكنه لم يكن محبوبا مـــن احد ! كان فقيرا معدما مشتطا في كبريائه عزوفا عن الناس ... كان يبدو ابدا وكأنه يتدبر امرا فى سريرته ! كان بعض زملائـــه يعتقـدون ان له اسلوبا كريها بالنظر اليهم ، حتى لكأنهم اطفال ، ولكأنه متفوق عليهم بالذكاء والمعرفة وادراك الامور ، وكان يعتبرهـم دونـه ايمانا ومعتقـــدا .

اما مع رازوميخين ، فقد كان الامر مختلفا ، اذ كـان اكثر ميلا

اليه ، اكثر صراحة معه واشد تعلقا به من كل الزملاء الآخرين ... ولم يكن من الممكن معاملة رازوميخين خلاف ذلك . فهـــو شاب يتفجر لطفا وايناسا ، بسيطا نقي السريرة طيبا حتى السذاجة ... وكان ذلك المظهر الساذج يخفي وراءه تعمقا في الامور وكرامـة موفورة ... فكان محبوبا من اقرانـه جميعا وخصوصا اولئـــك الــذين عرفوه واختبروه . نعم ... لقد كان بسيطا بل وساذجا احيانا ، ولكنه لــم يكن قط احمقا ... كان ذا مظهر جذاب بقامته المديدة ونحول وجهه ، ولحيته المهملة وشعره الاسود ... كان يظهر احيانا على حقيقته.جبارا عربيدا ... حتى انه ذات مرة ، بينما كان خارجا مع اصدقائه الـى المدينة ، تغلب بضربة واحدة على نقيب في الجيش ، يبلغ طوله ستـة اقدام تقريبا ... وكان يـستطيع ان يشرب بشكل مريع ، كما كـــان يستطيع الامتناع عن الشراب وعدم الاقتراب منه . كـان كذلـــك يسترسل احيانا في تصرفات مشبوهة ولكنه كان يعرف دائمـا كيف يتخلص من نتائجها وينأى بنفسه عن مضاعفاتها ، وكانت هنـاك ميزة اخرى تضاف الى مزايا رازوميخين الكثيرة : ذلك انه ما كان يستسلم امام اية خيبة أمل تصيبه ، ولا يتراجع اذا ركبه النحس ! كان يستطيع ان يعيش في حجر وان يحتمل آلام الجوع ولذعات البرد وآلامــه ، دون ان يتذمر . لانه كان فقيرا يعول نفسه بنفسه ويبحث عن المصادر التي تغذيه بايراد مناسب ، ويزاول كل الاعمال ... كـــان يعرف ان هناك عددا لا يحصى من الحيل التي يمكن اللجوء اليها في العمـــل ــ طبعا ــ ... ولقد امضى ذات مرة شتاء كاملا دون ان تدخل النار حجرته . مع ذلك ، فقد كان يؤكد ان ذلك افضل ، لان الانسان ينـام بهدوء وهناء اذا كان يشعر بالبرد ! لقد كان في ذلك الوقت خـارج الجامعة .. نعم لقد ترك الدرس ، ولكن لفترة قصيرة كما كان يقول . كان يعمل جاهدا للتغلب على الظروف القاسية وتيسير الدراسة ، ولم

يكن راسكو لنيكوف قد زاره منذ اربعة اشهر • وكان رازوميخين يجهل عنوانه بدوره ! ولقد لمحه ذات مرة منذ شهرين مضيا ، لكنه ادار وجهه حتى لا تقع عينه عليه • بل انه انتقل الى الرصيف المقابل كي ينجو من المقابلة ••• ولقد لاحظ رازوميخين ذلك ، غير انه تابع طريقه دون ان يزعج « صديقه » •••



٥

فكر راسكولنيكوف في امره وهو على حاله ذاك ، وراح يخاطب نفسه قائلا :

ـ بالامس عزمت على زيارة رازوميخين . كنت اريده على ان يجد لي عملا على طريقته ... عملا افيد منه : تدريس مثلا ... اي عمل . اما الان ، كيف يمكن ان افيد منه ؟ لنفرض انه اوجد لي من ادرسهم ، وانه تقاسم معي آخر « كوبيك » يملكه ـ هذا اذا كان يملك شيئا ـ ليشتري لي احذية وملابس اظهر بها ، فماذا يكون ؟ هل هذا ما انشده بالفعل ؟ الحقيقة ان زيارتي لرازوميخين ضرب من الحماقة ...

كان عزمه على زيارة رازوميخين يقلقه ويغمر روحه بعذاب مستمر ... بدا كأنه كان يعرف السبب الحقيقي لهذا العزم ... كان يقلب اوجه الرأي في هذه المسألة العادية ، ليجعلها تبدو ذات طابع خاص سيء ، فيفرغ ما في جعبته من لوم وعتاب على نفسه منددا زاجرا ... كان يتساءل : « هل صحيح انني فكرت باصلاح كل شيء بمساعدة رازوميخين ؟... » كان يفكر ويفكر ... ويضغط على جبهته بيده ، حتى واتته فكرة ... فكرة مفاجئة غريبة كانت محصلة تردده العميق العنيف . ناجى نفسه يناقشها بهدوء كمن اتخذ قرارا نهائيا :

ـ هه ... سأذهب الى رازوميخين ... سأذهب الى رازوميخين ولا شك ... ولكن ليس الآن . سأذهب اليه صباح اليوم التالي « للعملية » ، بعد ان تكون قد انتهت بنجاح ، لاعيد معه بناء كل شيء على قواعد جديدة ! ثم استدرك بعد ان ثاب الى نفسه وقال : « وبعد

ذلك ؟ هل حقيقة سيكون « ذلك » حسنا لا غبار عليه ؟ هل يعقـــبل ان يكون كذلك ؟ »

غادر المقعد الذي جلس عليه ، بل انتزع نفسه عنــــه انتزاعا ، ومضى بخطى حثيثة، وكأنه يهرب من شيء يتابعه ٠ تاقت نفسه للعودة الى بيته ٠٠٠ الى حيث بدأ ٠٠٠ ولكن هذه الفكرة اثارت في اعماقه الاشمئزاز ٠ فهناك ٠٠ في ذلك الحجر المرتفع المنزوي ٠٠ اختمــرت تلك « العملية » في ذهنه منذ نيف وشهر ٠٠٠ اذن لا ينبغي ان يعــود الى هناك ٠٠ ومضى دون ان تكون له وجهة يقصدها ٠

انقلب اضطرابه العصبي الى نوع من الحمى ٠٠ الى نوع مـــن المرض ، فراح يرتجف وكأن البرد يهرأ جسده . رغم ذاك الحر الذي يشبه نار الاتون الملتهبة ٠٠ تسلط بمجهود جبار على اعصابه . وأجبر حواسه على الانتباه ، وعينيه على التطلع فيما حوله بتدقيق ودقـــة ، علّه يجد في المحيط الذي يمخر فيه ، مادة ترفه عن نفسه وتسليــه ٠ لكنه لم يوفق في هذا ايضا ٠٠ كان يعود من جديد الــى احلامـــه وتخيلاته ٠٠ كان جسده وحده يعيش على الارض ، اما روحه وعقله، ففي مجاهل لا يعرف لها قرارا ٠٠٠ عادت القشعريرة تكتسح جسمــه وتهزه ٠٠ فنظر حوله ليجد انه نسي ما كان يفكر فيــه ، ونسي ايــن يمضي ٠٠٠ وهكذا اجتاز جزيرة « سان بازيل » كلها ، فبلــغ نهــر « بيفا الصغير » ، واخترق الجسر ثم استدار في طريق الجزر ٠ تلطف الجو بعض الشيء بفعل المياه والنباتات الطفيلية التي تكسو المكـــان ، فكان لهذا التبدل في الجو اثره في تهدئة اعصاب الشاب بعض الشيء ٠ وارتحت عيناه لهذا المشهد بعد ان انهكهما الغبار ٠٠٠ غبار الشوارع وذرات الجير ٠٠ ارهقهما منظر الابنية الكبيرة الضخمــة وهـــي تسد امامهما المنافذ ٠ وصل الى حيث لا غبار ولا عفن ولا اختنـــــاق ٠٠٠

ولا ... ولا حالات ! غير ان هذه الراحة التي تشعر بها فترة وجيــزة ، فقدت بعد قليل بهجتها ، وانقلبت ثقيلة الوطء تنهك قواه . كـــان يتوقف احيانا امام « فيلا » ضائعة بين الخضرة ، ليستطلع خلال الحاجز الخارجي ، الى الشرفات وعليها نساء جميلات بكامل زينتهن . واطفال هانئون ، بعضهم يلعب في الحديقة وينادي الاخرين ... كانت الازهار تجذب انتباهه بصوره خاصة ... انها مخلوقات صامتة ...! وبـــين الحين والحين ، كانت تطالعه مناظر الترف والنعيم ، بين عربات انيقـة وفرسان من الجنسين ، فكان يتابعهم النظر بفضول . ثم ينسى وجودهم حتى قبل ان يختفوا عن ناظريه ...! توقف مرة ليعد ما يملك من مال . فوجد ان ثروته تبلغ ثلاثين « كوبيكا » ، وتذكر انه اعطى رجل البوليس عشرين « كوبيكا » ، واعطى ثلاثة لناستاسيا من اجل الرسالة ، فيكون اذن ، قد منح آل مارمبلادوف مساء البارحة حوالي سبعة وعشريـن روبلا وخمسين « كوبيكا » كانت كل المبلغ الذي كان يملكه هـــو- ثلاثون روبلا وقد اعطاها كلها لآل مارميلادوف . كانت دريهماته على كفه يحصيها . لكنه نسي لم اخرجها من جيبه وقام بعملية الاحصاء ... لا شك انه كان يحس سببا وجيها دفعه لفعل ذلـك . لكنه نسيـه ! وصدف ان مر امام دكان شواء ، فهاجت نفسه وتاقت الى الطعــام . فدخل المطعم وتناول فيه كأسا من الخمر (العرق) واكل شطيرة محشوة باللحم المبهر ... لم يكن قد شرب الخمر منذ امد طويل . لذلك فقد اثر القدح الصغير في اعصابه ، رغم انه مجرد قدح صغير ! فغــدت خطاه متثاقلة وطاب له ان ينام . لذلك عاد في طريق مسكنه ، لكنه لم يكد يبلغ جزيرة « بيتروفســكي » حتى توقف منهوك القــوى ... فتنكب الطريق ودخل بين الادغال ، يرتمي علـــى الحشائش حيث استغرق من فوره في نوم عميق .

يلاحظ ان احلام المرء في الحالات المرضية ، تمتاز غالبا برونـق

عادي والوان صارخة وتشابه عجيب مع الواقع • لكـن تسلسلهـا واخراجها يبلغان من الواقعه ومن دقة التفاصيل مبلغا ، يجعلها تبدو بلوحه فنان عبقري • حتى ان الحالم نفسه لو استطاع رسمها في يقظته . لنافس فيها الفنانين الموهوبين امثال بوشكين وتورجينيف • انما الاحلام التي من هذا النوع : احلام مؤلمة تترك في نفس المرء ذكرى باقية . وتحدث على نفسيته اثرا غير حسي تزيد في تحطيم اعصابه وتزعزع ثقته • كذلك كان الحـال بالنسبة للحلم الذي تخيـله راسكولنيكوف •••

حلم في طفولته هناك ••• في مدينتهم الصغيرة ••• عندما كان في السابعه من عمره •• ! وفي يوم كان يتجول مساء مع ابيه في ضواحي المدينة ، في جو مشبع بالغبار ، والحرارة شديدة الارتفاع ، والامكنة هي هي التي انطبعت صورتها في ذهنه ••• بل ان الذكرى ما كانت لتوضح معالمها كما اوضحها الحلم • كانت المدينة الصغيـرة قائمة في منطقة مكشوفة وكأنها الكف ••• لم يكن يحيط بها مرتفع واحد ولا شجره واحدة ••• وفي الافق البعيد ، كانت نقطـة سوداء صغيرة : تفضح وجود حرش صغير ••• وعلى بعد خطـوات مـن آخر بستان من بساتين المدينة ، كانت هناك حانة ••• كبيرة كـانت تترك في نفسه اثرا سيئا ، بل تخيفه كلما كان يمر بالقرب منها وهـو يتنزه مع ابيه • كان فيها ابدا جمع غفير من الناس يتبادلون الشتـائم والصراخ : ويضحكون ويغنون اغنيات بذيئة ، وكثيرا مـا كـانوا يتضاربون ! وحول تلك الحانة كان عدد من السكارى بوجوههـم البشعة تفوح منهم رائحة كريهة • فاذا صادفهم ، كان يلتصق بأبيـه وهو يرتعد ••! وعلى مقربة من الحانة كانت هناك الطريق ، طريـق مختصرة مغطاة بالغبار ••• غبار اسود ، تنعطف على بعد ثلاثمائـة خطوة على شكل مرفق ، ثم تدور حول المقبرة ••• وفي وسط المقبرة

تقوم الكنيسة ، وهي مبنية من الحجارة ، ذات قبة خضراء ، كان يذهب اليها مرة او مرتين في العام ، اثناء القداس الذي كانوا يقيمونه على روح جدته المتوفاة منذ زمن بعيد يسبق ميلاده ! كان يحمل في تلك المناسبة قطعة من الحلوى « كاتو » موضوعة في صحن ابيض ، وملفوفة في منديل . كانت تلك الحلوى تصنع من السكر وعلى سطحها صليب من حبات الزبيب المغموسة في الارز ..

كان يحب تلك الكنيسة بصورها القديمة التي كانت غالبا دون اطارات ، ويحب الكاهن ذا الرأس المرتجفة ... كان الى جانب ضريح جدته الذي تغطيه قطعة كبيرة من البلاط ، ضريح صغير يرقد فيه اخوه الاصغر الذي توفي في شهره السادس ، فكان لا يعرفه كذلك ولا يحتفظ له في ذاكرته بأية صورة . كل ما في الامر انهم قالوا له بأن ذلك هو ضريح اخيه . فكان كلما زار المقبرة رسم على صدره علامة الصليب بخشوع ورفع قبعته عن رأسه ثم انحنى ليقبل الضريح البارد !

كان يحلم في تلك اللحظة بأنه مع ابيه يسيران في الطريق الى المقبرة فيمران امام الحانة ... فيقبض على يد ابيه بشدة وينظر الى تلك الناحية ـ ناحية الحانة ـ برعب ظاهر ، فيجذب انتباهه امر غريب! كانت تدور فيها حفلة داعرة حقيقية : نساء « بورجوازيات » في البسة ايام الآحاد ونساء من العوام مع رجالهن وانواع مختلفة من المخلوقات التي تعيش في الاوساط المظلمة ... الطبقة السفلى ... كانوا كلهم سكارى بين نساء ورجال يرقصون وينشدون الاغاني ... وكان امام باب الحانة عربة غريبة الشكل ... ضخمة من ذلك النوع الذي تجرها خيول قوية متينة وتستعمل لنقل البضائع وزكائب الخمر ... كان يحب رؤية تلك الخيول الجبارة ذات الذوائب الطويلة والسيقان

المتينة ، تمشي براحة ، بايقاع متزن وهي تجر وراءها اثقالا كأنها الجبال دون ان يبدو عليها التعب وكأن احمالها ترفه عنها بدلا من أن تنهكها !

والغريب ان تلك العربة لم تكن تقطرها الخيول الجبارة القوية • بل كانت مقطورة الى « كديش » أعجف من ذلك النوع من الجياد التي يرثى لحالها ، والتي كثيرا ما شاهد مثلها ، وهي تجهد في جر حمولة من الخشب أو القش على الطرق المخربة حيث تعرز العجلات الى محاورها في الاتربة والحفر ، والفلاحون يسوطونها بوحشية وقسوة على ظهورها وأحيانا على وجوهها وعيونها حتى أنه كان يشعر بوقع السياط على جسده هو اشفاقا منه عليها فيكاد ينفجر من البكاء لولا ان تسارع أمه الى ابعاده عن النافذة موفرة عليه متابعة هذا المشهد الكئيب المفجع !

وفجأة ارتفع ضجيج كبير : فقد خرج من الحانة عدد من الفلاحين « الموجيك » الاقوياء وهم يغنون ويتضاحكون ويرقصون « البلالايكا » وهم على اسوأ حال من الثمل ، يرتدون قمصانا حمراء وزرقاء و « جواكيتهم » على اكتافهم • صاح احدهم :

ـ اصعدوا ••• اصعدوا جميعكم سوف أنقلكم جميعا فاصعدوا••

كان المتكلم فتى ضخم العنق منتفخ الوجه بلون اشقر مشبع بالحمرة •

ـ ايستطيع « كديش » كهذا أن يحملنا ؟••

ـ اسمع يا ميكوكا •• لا شك انك مجنون •• من ذا الذي يفكر في ربط فرس هزيل كهذا الى عربة هائلة كهذه العربة ؟

ـ لعمري •• هذا حيوان تكدست على ظهره أعباء عشرين سنة وتزيد ••

تلك كانت الملاحظات والآراء التي تطايرت من الافواه اثر الدعوة الغريبة التي تقدم بها ذلك الفتى الى أولئك السكارى ... غير أنها ملاحظات لم تزعزعه عن رأيه فهتف وهو يقفز الى العربة ويمسك بمقاود الحصان الهزيل :

ـ اجلسوا جميعا ... لسوف أحملكم كلكم .. لقد أعرت حصاننا الاشعل الى « ما تغيثي » وقد ذهب به منذ لحظات . وهذه الفرس ملكي أيها الاصدقاء .. انها كرب وأسى بالنسبة الي . واني أفكر أحيانا في أن اقتلها لانها لا تساوي الشوفان الذي تلتهمه .. هيا اصعدوا ولسوف أجعلها تمشي خببا ..

اخذ السوط في يده وراح يهزه وكأنه يتلذذ سلفا بما سيذيقه الحيوان المسكين من ضرب موجع أليم .

وصاح بعضهم يقول : ـ فلتصعدوا اذن .. ألم تسمعوه يقول أنه سيجعلها تطير خببا ..؟

وآخر يقول . ـ انها لم تخب منذ عشر سنين على الاقل .

وثالث : ـ بل ستخب ... لا تشفقوا عليها أيها الاصدقاء ، ليضربها كل منكم بسوطه .. ليستعد كل منكم .. هيا .. انهالوا عليها بالضرب ..

راحوا يصعدون الى العربة .. عربة ميكولكا وهم يضحكون ويتبادلون السباب .. وجلس ستة اشخاص فيها بانتظار الاخرين ، لان المكان كان يتسع للكثيرين ، وحملوا معهم امرأة ضخمة ذات خدين بارزين مصبوغين . كانت ترتدي « صدارة » من القماش الهندي الاحمر وتحشر قدميها في حذائين عاليين ثقيلين .. وكانت تكسر بندقا بين أسنانها وتضحك بين حين وآخر .. كذلك كان الجميع يضحكون

... وكيف لا يضحكون وهذا الحطام الذي على شكل فرس مدعو للسير خببا بهذا الحمل الثقيل !

أخذ غلامان كانا فى عداد الراكبين سوطا ليساعدا به ميكولكا في مهمته القاسية .. مهمة جلد الحيوان .. وارتفعت الصيحات تحث الدابة على السير . واستصرخت هذه قواها ، لكنها لم تستطع أن تخب بل بالكاد استطاعت التقدم خطوة واحدة . كانت تضرب الارض، وهي تكاد آن تخرج من جلدها من ألم السياط الثلاثة التي كانت تلهب ظهرها وتنهال عليها كالبرد بينما تضاعف ضحك الركب وصخبهم ! وغضب ميكولكا وعبر عن غضبه بلسعات أشد قوة كما لو كان يعني ما يقول من أن الفرس ستخب . واندفعت من بين الجماعة التي بقيت على الرصيف فتاة صغيرة بدت معجبة بالمنظر . صاحت مستعطفة .

ـ دعوني اركب يا أصدقائي !

فأجابها ميكولكا ملء حنجرته :

ـ هيا اصعدي . اصعدوا جميعا ، سوف افودكم الى منازلكم وسترون كيف سأثير حماس هذه الفرس . وراح يضرب ويضرب ويبحث عن أدوات جديدة ليستعملها فى هذه المهمة .

صاح الفتى :

ـ أبي أبي ، أبي ماذا يعمل هؤلاء ؟ أبي انهم يضربون الحصان الصغير المسكين ! فيجيبه أبوه :

ـ هيا بنا ، هيا بنا ، انهم سكارى قادرون على ارتكاب حماقة . دع هؤلاء المأفونين ، تعال لا تنظر اليهم ! وأراد أن يبعده عن المكان !

غير ان الفتى تملص من يد أبيه فاقدا أعصابه وهرع الى الحصان الصغير الذي كاد أن ينفق من الالم : فيستجمع أنفاسه وقواه ويعاود

الجر دون جدوى • وكان الركاب يصيحون :

ــ اضرب ، اضرب الى أن ينفق ، وعلى كل حال لن يتأخر ذلك ••
بينما صاح عجوز من النظارة مستنكرا هذا المشهد :

ــ أولست مسيحيا انت ؟ آجب بلا او نعم أيها الوحش !
واضاف آخر :

ــ هل رأيتم قبل الان حصانا صغيرا كهذا يجر حملا بهذه الضخامة ؟
وثالث موجها حديثه لميكولكا :

ــ أيها القذر •• ويجيب ميكولكا غير آبه بالاعتراضات :

ــ فيم تتداخلون ؟ انه حصاني أصنع به ما أشاء • ليصعد من يريد ، لسوف أجعله يسير خببا •

وفجأة انفجرت ضحكة هائلة طغت على صوت ميكولكا : ذلك أن الفرس لم تعد تحتمل الضرب الذي ينهال عليها ولم تكن تستطيع السير بحملها ؛ وكنتيجة طبيعية لغضبة الحيوان راحت تستعمل قائمتيها الخلفيتين دلالة على احتجاجها العنيف • حتى أن المحتجين أنفسهم لم يتمالكوا من الضحك • وهرع فتيان من « الشلة » فأمسكا بسوطين وراحا يلهبان الحيوان بالضرب الوجيع كل من جانب • وكان ميكولكا يشجعهما بقوله :

ــ اضربا ، اضربا على الانف والعينين والوجه •

ويصيح آخر من ركاب العربة : غنوا يا اصدقائي • نعم لنغن ، وسرعان ما رفعوا العقائر باغنية قذرة مبتذلة على أنغام الصفير وحركات الارجل في ضبط الايقاع بينما ظلت المرأة الضخمة تكسر بندقاتها بين أسنانها وكأن ما يجري لا يعنيها في قليل أو كثير •

ركض الفتى اذاً نحو الحصان واندفع الى الامام وهو يشاهـــد أولئك القساة يضربونه على عينيه وملء وجه وراح يبكي • كان قلبه يتفطر حزنا ودموعه تنهمر بغزارة ••• أحس بالسوط يلمس جانـــب وجهه حينما كان أحد الضاربين يرفعه بيده لينهال به أداء لمهمته • غـير أنه لم يشعر بالألم •• كان يصيح ويتلوى ويستصرخ عواطـــف الموجودين ويندفع نحو الرجل العجوز ذي اللحية المدببة الشائبـــة مستنجدا ، فيقابله هذا بهزات من رأسه شأن من اصدر حكمه وانتهى • وتحاول امرأة امساكه من يده لتخلصه من ذلك الجمع الحاشد ، فيفلت منها ويعود قرب الفرس •• الفرس التي كانت في تلك اللحظة علـــى آخر رمق •

لم يكف ميكولكا عن الصراخ والغضب ، كان ينعت الدابة المسكينة بما يحضره من كلمات • ولما لم تستجب له ألقى السوط مـن يـده واحتضن مقعدا كبيرا كان داخل العربة رفعه بيديه الى الاعلى بجهـد بالغ وانهال به بضربة عاتية شرسة على ظهر الفرس المسكينة وهـو يصيح معترضا على الاحتجاجات التي ارتفعت من حوله ويقول :

ـ انها ملكي ، ملكي !••

وصدر عن ارتطام المقعد صوت مكتوم بينما تعالت بين النظـارة أصوات تقول :

ـ اجلدوها • لم لا تجلدون ؟ لماذا توقفتم ؟•• فيرفع ميكولكـــا المقعد ثانية الى أعلى ويهبط به من جديد على ظهر الحيـــوان التعس الذي سقط على مؤخرته ثم نهض كالمجنون واستجمع آخر ما تبقـى له من قوى وجذب ، جذب دون أن يستطيع التقدم • والسياط الست والمقعد الضخم ترتفع وتهبط دون شفقة بقوة ووحشية وبشكل رتيب ، وميكولكا يكاد يجن غيظا لانه لم يجد طريقة يقتل بها الحيـــوان

بضربة واحدة . أما المتفرجون فقد قنعوا بابداء الملاحظات . فيصيح قائـــل :

ــ كم هو جلود هذا الحيوان ! وآخر :

ــ لن يعيش طويلا ، فقد دنت نهايته ! وثالث يزمجر :

ــ ان ضربة فأس واحدة هي وحدها قادرة على وضع حد لكل هذا.

لم يكتفِ ميكولكا بكل ذلك ، وهو الذي أعماه الغضب .. ألقى فجأة بالمقعد جانبا ، وانحنى يفتش في عربته عن سلاح جديد ثم انتصب وفي يده عتلة من الحديد وصاح ملء حنجرته بحذر المجتمعين حول الدابة مما سيكون ، وانهال على ظهر الحصان بضربة صاعقة حشد فيها كل قوته فترنح الحيوان وسقط وهو يحاول جر العربة ، ولما أصابتـه الضربة الثانية هوى على الارض وكأنه جر من قوائمه ...

لم يشفق ميكولكا ولم يهز المشهد عواطفه ، بل قفز من العربـــة كالمجنون وهو يصيح : لنجهز عليها .. لنجهز عليها . وراح النـــاس يختطفون ما تقع عليه أيديهم : سوط ، عصا ، مقعد ، أي شيء وينهالون به على الفرس المحتضرة بينما كان ميكولكا واقفا قرب رأسها يهـوي عليه بعتلته دون اشفاق حتى أن الحيوان المسكين اختلج أخيرا ومـد عنقه الى اقصاه ثم زفر زفرة عميقة ونفق . وصاح صائح :

ــ لقد نفقت . وآخر :

ــ لم لم تخب ؟

وهتف ميكولكا وعتلته في يده وقد اختلط الدم ببياض عينيه :

ــ انها ملكي ! وبدا كأنه يأسف اذ لا يرى شيئا يضرب به . وتعالت اصوات بين النظارة محتجة تقول :

ــ لقد وضح الان انك لست مسيحيا . نعم لقد وضح !..

أما الطفل الصغير فلم يكن يعي ما حوله . أطلق صيحة مريعة وشق

لنفسه طريقا بين الجمع متجها نحو « الكديش » وجثا بالقرب منه وراح يعانق رأسه الميت المثخن بالجراح ويقبل عينيه وشفتيه وفجأة تغلب عليه الغضب فارتمى على مبكولكا مطبقا قبضتيه ، وفي تلك اللحظة أدركه أبوه الذي كان يحاول عبثا ايجاده بين الحشد والامساك به وصاح :

ـ لنذهب ، لنذهب ، لنعد الى البيت ..

كان الطفل يبكي وجسمه يهتز ، شعر بان شيئا ما يقطع عليه تنفسه ويلجم لسانه فجهد حتى صاح من صدر كليم :

ـ أبي ! لم .. لم قتلوا هذا الحصان البريء المسكين ؟ فأجابه أبوه :

ـ انهم سكارى يا ولدي يتسلون . ثم هل يعنينا هذا ؟ تعال يا ولدي نرحل . وطوقه ابوه بذراعيه ، ولبث يعاني ثقلا شديدا على صدره .. كابوسا مريعا ، يحاول التخلص منه واسترداد انفاسه المبهورة . وبلغ من ضيق صدره ان كاد يختنق . فأطلق صيحة مدوية واستفاق ...

استفاق راسكولينكوف فوجد ان العرق يتصبب على جسده ، وقد ابتل به شعره . واستوى جالسا والرعب ماثل في عينيه وقال وهو يزحف نحو شجرة قريبة ليستند الى ساقها . كان يتنفس تنفسا عميقا . هتف :

« حمدا لله . انه ليس اكثر من حلم !.. ولكن ألا يجوز ان يكون هذا بداية حمى ؟ حلم مخبف »

كان يشعر ان جسمه محطم وان روحه تعيش في ظلام وخيبة . فأسند مرفقيه على ركبتيه وأخذ رأسه بين يديه وراح يفكر ويناجي نفسه على طريقته :

ـ رباه ! هل هذا يمكن ؟ هل أستطيع ان آخذ فأسا بيدي فأضرب به الرأس واجعل الدماغ يتناثر ؟ هل يمكن ان اسبح في الدماء الحارة اللزجة ؟ هل استطيع تحطيم القفل والسرقة ؟ سوف أرتعد ، سوف ارتعد وانا مغطى بالدم .. رباه ! بضربات فأس .. هل ذلك ممكن ؟

كان يرتعد كالورقة الجافة امام الريح العاتية وهو يحدث نفسه . عاد من جديد يستغرق في ذهوله المعهود ! ناجى نفسه قائلا :

ـ رباه ! ماذا حل بي ! كنت أعرف سلفا أنني لن احتمل ذلك . والبارحة لما قمت بتلك التجربة . نعم البارحة فهمت تماما انني لن احتمل هذا ، فلم شككت في الامر حتى الان . والبارحة تماما وانا اهبط السلم قلت لنفسي ان ذلك مريع وقذر .. انه انحطاط .. رباه ! لم استطع النوم وهذه الفكرة وحدها تثير حفيظتي وتشل حركتي خوفا . كلا لن استطيع .. لن استطيع .. ولنفرض جدلا ان كل حساباتي وتخميناتي لا تترك مجالا للشك وان كل ما قررته خلال هذا الشهر واضح وضوح الشمس ، دقيق كعلم الحساب فانني ـ رباه ـ لن استطيع التصميم . كلا .. ابدا .. لن استطيع اتخاذ قرار نهائي . فكيف ؟ كيف انني حتى الان ..

وقف ذاهلا ونظر حوله دهشا لوجوده حيث كان ثم اتجه نحو الجسر « ت » .. شاحب الوجه ، ملتهب العينين . منحل الاطراف ، يهده التعب .. خيل اليه ان تنفسه كان اخف من المعتاد ، وشعر أنه تحرر من عبء ثقيل كان يسحقه زمنا طويلا وأن روحه انتعشت بعد طول غم ، فهتف ضارعا : « رباه ! هب لي من لدنك طريق الصواب حتى اقلع عن حلمي الملعون ... »

اجتاز الجسر ونظر بسكون وهدوء الى نهر « نيفا » وغروب الشمس يضفي عليه لون النار ، والشمس محمرة عند الافق . لم

يشعر قط بضعفه رغم التعب الذي كان ينهكه حتى ليظن ان العلة التي كانت في قلبه تعكر صفو حياته قد برئت وشفيت . حرا .. حرا ، كان الان حرا .. لقد نجا من السحر ، من الاغراء ، من الآلام ... من الوسواس المرعب ، وغدا عندما يستعرض هذا الوقت بكل ما حصل فيه وما وقع له في هذه الايام دقيقة فدقيقة ، ثانية فثانية ، نقطة فنقطة سيحس في اعماقه احساسا خرافيا ممتعا ! وعلى الرغم من ان تلك الحال لم تكن شديدة الغرابة الا انه كان يجد فيها شيئا من نفسه وكأنه يكتشف ويتصور مقدراته ومصيره .

كان يجهل الاسباب التي تدفعه الى التجول في الشوارع متخذا طريقا مطولة للعودة الى غرفته وهو الذي كان على آخر رمق يسحقه التعب ، والالم . كان يستطيع اللجوء الى طريق اقصر تعيده بسرعه الى حيث يستريح ، ومع ذلك فهو يذهب الى حيث لم تكن تدعوه حاجة الى الذهاب ، عاد عن طريق « شارع العلف » دون أن يفسر لنفسه الاسباب . صحيح ؟.. لقد حصل له أن عاد الى غرفته مرات دون ان يعرف كيف وصل وأي سبيل سلك . نعم لقد وقع ذلك اكثر من عشر مرات ! أما لم وقعت تلك المقابلة الهامة الحاسمة وغير المنتظرة في ذلك المكان بالذات الذي لم يكن لديه من سبب يدعوه الى ارتياده ، وفي تلك اللحظة الحاسمة من حياته حيث ما كان يمكنه وهو على حاله تلك وفي ظروفه التي عاش فيها ان يتجنب التأثر بها واخضاع مصيره لها ، فذلك ما كان يتساءل عنه دائما ! واخيرا عده شركا هيأته الاقدار ليقع فيه :

كانت الساعة تشرف على العاشرة حينما اخترق السوق . وكان الباعة المتجولون واصحاب المخازن يغلقون دكاكينهم او يجمعون بضاعتهم المعروضة ويحزمونها ليعودوا بها الى دورهم وقد انقطع سيل الزبائن ، وهنا وهناك بالقرب من دكاكين الشواء ومداخل البؤر ، وفي

الساحات القذرة النتنة التي تحيط منازل « شارع العلف » كان الصعاليك والسوقة وحثالة المصانع يعجبهم المكان، وكان راسكولينكوف يميل الى هذه الامكنة والازقة المحيطة بها فيرددها لما يخرج تائها دونما هدف يقصده لانه ما كان يستهدف هنا لاي نوع من النقد المزري وهو فى تلك الاسمال البالية . كان يمكن ان يتنزه المرء هنا دونما خشية من فضيحة او زرية ! وعلى زاوية زقاق « لث » كان بائع وزوجه يبيعان ، منفصلين ، خيوطا ، واشرطة ، ومناديل قطنية ، و « خرداوات » كانا يستعدان لمغادرة المكان والعودة الى مسكنهما ويتلكآن قليلا في الثرثرة مع شخص يعرفانه . اما ذلك الشخص فكان اليزابيت ايفانوفنا او بالاختصار اليزابيت كما كان يسميها الناس وهي الاخت الاصغر لاليونا ايفانوفنا تلك العجوز المرابية ارملة معاون في الكلية والتي كان راسكولينكوف قد رهن امس ساعته عندها حينما كان يقوم « بتجربته » . كان عارفا بوجود هذه الـ « اليزابيت » منذ زمن بعيد وكانت هي بدورها تعرفه بعض الشيء . كان يعرف انها فتاة خرقاء خجول مرحة العقلية حمقاء بعض الشيء في الخامسة والثلاثين من عمرها تعاملها اختها الكبرى معاملة الرقيق . كانت تشتغل من اجلها ليلا نهارا وتضطرب تحت وطء نظراتها وتحتمل منها كل اهانة حتى الضرب . كانت تلك اللحظة تحمل ربطة في يدها وتقف مترددة امام البائع وزوجته تصغي اليهما بانتباه وهما يرويان لها امرا بحماس ظاهر . ولما شاهدها راسكولينكوف احس بشيء غامض يشبه الذهول يستحوز عليه رغم ان تلك المقابلة لم تكن تحمل بالنسبة اليه شيئا مهما . وسمع البائع يقول متمما حديثه :

ـ لك ان تقرري يا اليزابيت ايفانوفنا فالامر منوط بك . عودي غدا في السابعة وسيكونوا جاهزين .

فأجابت اليزابيت ساهمة بصوت واهن وكأنها تحجم عن اتخاذ قرار : غدا ؟

فقالت زوجة البائع وهي امرأة عطوف في عينيها اشفاق :

ـ آه •• آه كم تخيفك العجوز اليونا ايفانوفنا ! لعمري ان المرء ليعتقدك طفلة اذا استمع اليك • رغم انها ليست اختك بالمعنى المفهوم• ان هي الا اخت بالعهد ومع ذلك انظري كيف تعاملك •

وقاطعها زوجها قائلا :

ـ نعم لمرة واحدة اغفلي عن اخبار اليونا ايفانوفنا • اتبعي نصحيتي: تعالي الينا دون ان تستأذنيها فالمسألة مهمة ولسوف تقتنع اختك بعدئذ بذلك •

ـ ومتى ينبغي ان احضر ؟

ـ حوالي الساعة السابعة غدا • ولسوف يأتون بدورهم ، ولسوف تحكمين بنفسك •

واضافت الزوجة : ـ ولسوف يقدمون لك الشاي ••

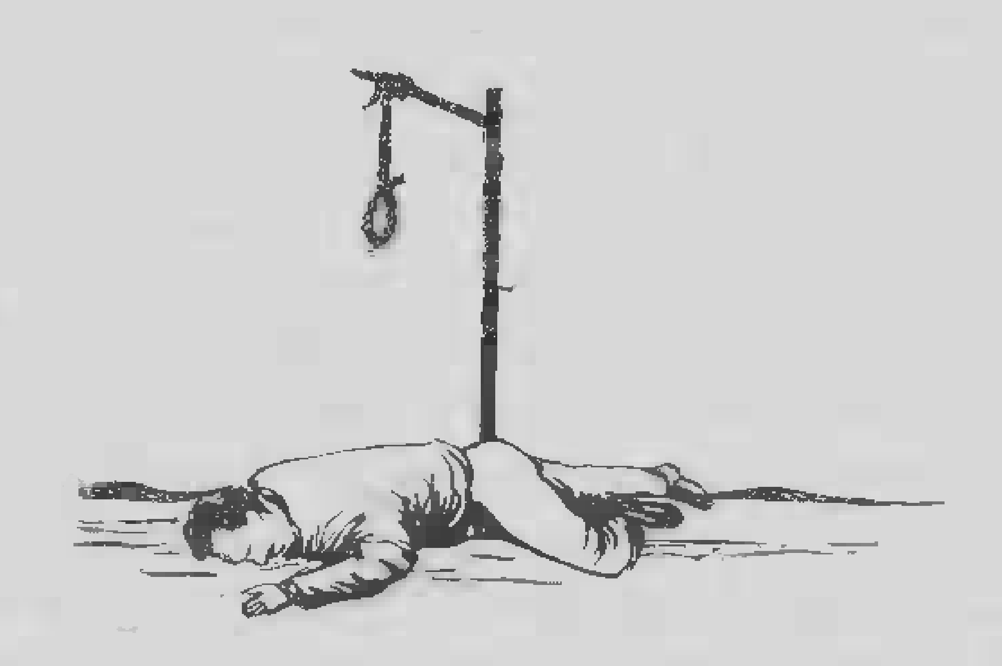
فأجابت اليزابيت دون ان تخرج عن شرودها :

ـ حسنا سأحضر ••• ثم تأهبت للانصراف •

كان راسكولينكوف قد تجاوزهم في تلك اللحظة فلم يسمع من حديثهم اكثر مما سمع ••• وقد تعمد ان يبطىء الخطى دون ان يشعرهم بذلك ساعيا الى سماع ما يستطيعه من تلك المحاورة • وكان الذهول الذي احس به في البداية قد انقلب تدريجيا الى رعب فقشعريرة باردة اكتسحت كيانه • لقد عرف شيئا عن طريق الصدفة المحضة ••• شيئا هاما في « مشروعه » لقد عرف ان اليزابيت الاخت الوحيدة للعجوز المرابية ستكون غائبة عن المنزل ـ منزل اختها ـ غدا في الساعة السابعة ••• أي ان العجوز ستكون وحيدة في تلك الساعة ••

كان يفصله عن غرفته عدد قليل من الخطى فلما دخل مسكنه كـان كمن حكم عليه بالموت • لم يكن يستطيع المناقشة ولا البحث في شيء ولكنه شعر من صميم كيانه انه فقد من جديد حرية الفكـــر والارادة وانه فقدهما نهائيا •

لا شك انه اذا كان قد انتظر سنوات طويلة اللحظة الحاسمة لتحقيق « مشروعه » فذلك لانه لم يكن ليستطيع الاعتماد على مثل هـــذه الصدفة السعيدة التي عرضت له اليوم وفي تلك اللحظة بالذات • نعم لا شك انه ما كان يستطيع معرفة الوقت الذي تكون فيه العجـــوز منفردة دون ان يستقصي ذلك ويتحقق منه بطرح اسئلة خطيرة هنـا وهناك قد تجعل المسؤولين يذكرونه عند التحقيــق وهكذا فقد تقـرر ان يكون غدا في ساعة معينة ، الموعد الذي تكون فيه عجـوز معينة وحيدة في دارها وان يكون هناك فتى يقصد اغتيالها • نعم كان ذلـك مقررا من الإزل •



٦

كان مقدرا ان يلم راسكولنيكوف بالسبب الذي دعا البائع وزوجه الى دعوة اليزابيت ، ان يعرف انه بسيط عادي . فقد كانت هناك عائلة كريمة اخنى عليها الدهر تريد بيع حاجات من البسة واثواب نسائية ، ولما كانت تلك العائلة تخجل من عرض تلك الحاجات في السوق فقد راحت تبحث عن مشترية . وكانت اليزابيت تهتم بمثل هذه الامور ولها زبائن كثر لانها كانت معروفة بنزاهتها واسعارها المعقولة وعزوفها عن المساومة . كانت قليلة الكلام كثيرة اللطف رقيقة المعشر شديدة الحذر .

غدا راسكولينكوف في ايامه تلك خياليا متطيرا وقد خلف ذلك التطير في نفسه آثارا لا تمحى حتى انه كان يميل الى الاعتقاد ــ وهو في صدد هذه القضية ــ ان هناك تسابقا غربا وغامضا في الاحداث ، تسابقا شاذا ترافقه سلسلة من المؤثرات والمصادقات : ففي الشتاء السابق كان احد اصدقائه الطلاب المدعو « بوكوريف » ذاهبا الى « خاركوف » فأعطاه عنوان آليونا ايفانوفنا في سياق حديث عابر . واعلمه انه يستطيع ان يجد لديها ما يقترضه اذا دعته الحاجة وكان لديه رهينة يقدمها .

ومضت ايام طويلة قبل ان يتذكر راسكولينكوف ذلك العنوان ، لانه كان يعطي دروسا مأجورة يتخلص بريعها من ضائقاته المالية . فلما تزايدت متطلباته لم يكن لديه الا حاجتان تصلحان لتكونا رهنا ترتضيه العجوز : الساعة القديمة المصنوعة من الفضة التي ورثها عن ابيه والخاتم الذهبي المزين بثلاثة احجار حمراء كانت اخته قد اعطته له على سبيل الذكرى لما ان افترقا اول مرة . فقرر ان يضحي بالخاتم بادىء ذي بدء فيقدمه للمرابية . ولما ذهب اليها شعر نحوها بكراهية عميقه قبل ان يعرف عنها شيئا . ولما اعطته « الورقتين

النقدينين » عرج في طريق عودته الى البيت على حانة موبوءة وطلب لنفسه قدحا من الشاي ثم جلس يفكر • فنبتت في رأسه فكرة غريبة ما لبثت ان سيطرت على تفكيره •

كان الى مائدة قريبة منه طالب لا يذكر انه رآه او عرفه من قبل• وكان الطالب يجلس مع ضابط يحتسيان الشاي بعد ان فرغا من شوط « بليار » • سمع راسكولينكوف الطالب يحدث الضابط عن مرابية عجوز ، ارملة مساعد في الكلية ، اسمها آليونا ايفانوفنا ويعطيه عنوانها فكان ذلك في حد ذاته نوعا من الغرابة في نظره • فهو قد وصل توا من لدنها وها انهم هنا يتحدثون عنها ! انها الصدفة ولا شك ولكنه وقع تحت تأثير شعور معين ! وكأن الطالب اراد دعم ذلك الشعور وتنميته في نفسه . فراح يروي تفاصيل دقيقة كثيرة تتعلق بتلك الـ « اليونا ايفانوفنا » • كان يقول :

ــ انها مدهشة ••• يمكن للمرء ان يجد لديها دائما ما يقترضه ••• فهي غنية كأحد اليهود تستطيع اقراض خمسة الاف روبل دفعة واحدة ولا تتنازل عن روبل واحد تقرضه لقاء رهن • ولقد غمرت عددا كبيرا من اصدقائي بحسن صنيعها غير انها عنيدة قاسية كالجمل !

وهكذا راح يقص على زميله ما يعرفه من صفات للمرأة فقرر انها خبيثة جشعة وان تأخر يوم واحد عن اجل الدفع الممنوح من قبلها يكفي لضياع الرهينة التي في يدها ، وانها تعطي ربع قيمة الشيء المرهون وتستوفي فائدة تتراوح بين خمسة وسبعة في المائة عن الشهر الواحد • ولم يغفل ذلك الطالب اية معلومات عن المرابية : فذكر في سياق حديثه ان لها اختا تدعى اليزابيت وانها صغيرة نسبيا ومستكينة لدرجة ان العجوز تضربها لأتفه الاسباب وتسيطر عليها سيطرة تامة

رغم ان طول هذه الـ « اليزابيت » لا ينقص عن ستة اقدام ، وهـذا وجه الغرابة في الموضوع كما كان يقول !

وهنا انتقل موضوع الحديث وتركز حول اخبار اليزابيت فكان الطالب يتحدث عنها بغبطة ملحوظة دون ان يكف عن الضحك حتى ان الضابط الذي استمع اليه حتى تلك اللحظة بشغف واهتمام ، رجـاه ان يبعث بتلك الـ « اليزابيت » اليه لتغسل له ثيابه الداخلية • لم تفت راسكولنيكوف كلمة واحدة من ذلك الحـديث • حتى انه تأكد مـن احاطته علما بكل ما يتعلق بتلك العجوز دفعة واحدة : فاليزابيت هي الاخت الصغرى ولكن من ام اخرى ، ولها من العمر خمسة وثلاثون عاما تعمل ليل نهار لحساب اختها وتشغل في بيتها مركـز الطاهيـة والغسالة الى جانب اشغال الحياكة التي كانت تقوم بها كلما سمح لها الوقت ، وانها كانت ترهق نفسها بالعمل والخدمة وتعطي اختها كـل ربحها دون ان تجرأ على تقبل عمل ما او عقد صفقة ما الا باذن العجوز وموافقتها • وكانت المرابية قد كتبت وصيتهـا التي حرمت فيهـا اليزابيت من كل شيء باستثناء بعض الاثاث • ولم تكن اليزابيت تجهل ذلك • كانت تعرف ان اختها العجوز قـد وهبت ديرا في مقاطعـة « س •••• » كل مالها ، التماسا لراحة روحها عند الموت •

لم تكن اليزابيت تمت الى بيئة راقية رغم انحدارها مـن اسرة عاشت في المدينة • كانت طويلة القامة ، هزيلة التكوين ذات قدميـن كبيرتين ملتويتين ، تنقل دائما احذية مشوهة ، وتميل الى النظافـة المفرطة • وكان ما يزيد في دهشة الطالب واستغرابه ان اليزابيت تلـك كانت دائما حبلى • حتى ان الضابط لم يتمالك ان قال معقبا :

ـ انك هنا تعطي صورة لوحش مخيف •

ـ يجوز ••• انها نحاسية اللون وكأنها جندي في لباس امرأة.

ولكن لا يمكن ان تنحدر الى مرتبة الوحش ٠ ان لها سماتا غاية في الطيبة وعينين جميلتين ٠ وهي هادئة ووديعة ترتضي كل شيء حتى يمكن القول ان ابتسامتها جذابة ٠٠

فقال الضابط متسائلا وهو يضحك :

ـ هل يمكن ان تروق لك ؟

ـ لمجرد غرابتها فقط ٠ اما تلك العجوز اللعينة : فأقسم انني ما كنت لاشعر باي تبكيت في ضميري لو قتلتها وسلبتها مالها ٠٠٠

ضحك الضابط لقول صديقه ٠ غير ان راسكولنيكوف ارتعد له : لقد كان غريبا ان يسمع ذلك ٠ غريبا ان يسمع فكرته على لسان غيره !

قال الطالب بحماس مخاطبا زميله :

ـ سوف اطرح عليك سؤالا جديا لو سمحت وبالطبع انني اقول ذلك على سبيل المزاح فحسب ٠ قارن بين عجوز خرقاء حمقاء خبيثة غليظة الفؤاد مريضة غير ذات فائدة لاحد ، لا تعرف من حياتها لم تعيش ، وستموت غدا ميتة طبيعية ٠٠ هل تفهم ، هل تفهم ؟

فقاطعه الضابط قائلا بعد ان اصغى اليه باهتمام وراقبه بنظرة منفعلة :

لا شك انني افهم ٠

واسترسل الطالب يقول :

ـ نعم قارن بين عجوز كالتي وصفتها وبين قوى فتية نشيطة تضيع هباء لافتقارها الى السند والدعم ، قوى تضيع بالالوف وفي كل مكان ٠٠٠ مئات بل الوف من الاعمال الممتازة والمشاريع التي يمكن تحقيقها وتنفيذها باموال تلك العجوز الموهوبة لدير ٠٠٠ مئات بل ألوف من المخلوقات يمكن تسييرها في الطريق القويمة وعشرات

من الاسر يمكن انقاذها من المجاعه والانحلال والدمـــار والتفكـك وتجنيبها مستشفيات الامراض السارية بتلك الاموال . فلتقتـل اذاً وليؤخذ مالها وليكرس بعدئذ لنفع الانسانية . فهل تعتقد ان جريمة تافهةكهذه لا تساوي ألوف الحسنات التي تقابلها . فكر ان حياة واحد تنقذ ألوفا من الدمار والانحلال والفساد ... مئات من الارواح تنقذ لقاء روح تزهق . الا ترى في ذلك عملية حسابية واضحة ؟ ثم ما وزن حياة عجوز خبيثة كهذه في الميزان العام ... عجـوز سخيفة بليـدة معلولة ؟ انها لا تساوي ذرة بل جرثوما بل واقول ان حياتها ابخس من ذلك ثمنا . لان هذه العجوز ضارة بالانسانية . انهـا تبتز وتحتكـر المستقبل بثمن الحاضر ، انها وحش ضار ... اتدري انهـا مؤخرا عضت اصبع اليزابيت في ساعة غضبها فكادت ان تقطعه لولا قليل ؟

فقال الضابط :

ــ لا شك انها غير جديرة بالحياة . ولكن هي الطبيعة !

ــ آه ... آه يا صديقي . الطبيعة ؟ الطبيعة ؟ يمكن تبديلهـا وتسييرها والا اوشكنا على الغرق في خضم من المعتقدات الفاسدة . لو تركنا الطبيعة وشأنها لما لمع رجل كبير . يقولـون : « الواجب ! الضمير » وأنا لا اعارض ولا استنكر الواجب والضمير لكنني اطلب بل اطالب بايضاح معنى هذه الكلمات ! حسنـا . سأطرح عليـك سؤالا آخر :

ــ كلا ! بل دع لي انا فرصة السؤال :

ــ انت الآن في الدفاع كلامي كالخطيب المفوه ولكن قل لي هل تتعهد بقتل هذه العجوز « بنفسك » ؟

ــ بالطبع لا . انني اتحدث من وجهـة نظر العدالـة وذلـك لا يعني انني اقصد نفسي بالذات في هذه اللحظة .

ــ حسنا . اذا اردت رأيي قلت لك انه طالما لا تحزم امرك علـى

تنفيذ ما تقول فلا يمكن ان تتعلق المسألة بالعدالة ... هيا نلعب شوطا آخر ...

كان راسكولنيكوف فريسة اضطراب عنيف لان تلك النظريات لم تكن غريبة عنه . انها نظريات وآراء شباب سمعها غالبا ، وهم يتداولونها على اشكال مختلفة وبصدد مواضيع مختلفة . ولكن لم جمعت الصدفة تلك الاراء وادخرتها حتى تلك اللحظة ليسمعها راسكولنيكوف؟ او على الاصح كيف انتقلت افكاره بحذافيرها الى رأس سواه في اللحظة التي نبتت فيها في راسه وراحت تزدهر ؟ كيف يفكر هو في العجوز ثم لا يلبث حتى يسمع حديثا يدور حولها ؟ انها صدفة غريبة . وقد لبث ذلك الحديث الذي دار في تلك الحانة يؤثر تأثيرا كبيرا على الاحداث التي وقعت بعد ذلك حتى انه ليقال ان هناك علاقة او ارتباطا او تقريرا يصدر عن القدر ..

❋ ❋ ❋

عندما عاد راسكولنيكوف من « سوق العلف » استلقى على « سريره » ولبث ساعة لا يريم ولا يتحرك . وكان الظلام قد ارخى سدوله في ذلك الحين ولم يكن لديه شمعة يوقدها بل ان فكرة ايقادها ــ لو وجدت ــ لم تكن لتخطر على باله . لم يذكر ابدا خلال المدة الاخيرة انه استطاع التفكير في شيء ... واخيرا عادت اليه قشعريرة الحمى التي شعر بها مؤخرا فوجد ان خير ما يفعله هو النوم . فاغمض عينيه واستغرق في نوم عميق .

نام اكثر من عادته ولم يتخلل نومه احلام ، حتى ان ناستاسيا التي دخلت غرفته في العاشرة صباحا وجدت صعوبة في ايقاظه . كانت تحمل اليه الشاي والخبز . الشاي الذي كانت قدمته له من قبل في

انائهيـا الخاص .

هتفت باحتقـار :

ـ رباه كم ينام انه لا يحسن الا النوم .

نهض باجهاد وهو يشعر بألم في رأسه ، فراح يتمشى في غرفته ثم لم يلبث ان سقط على السرير من جديد . صاحت ناستاسيا :

ـ اتعاود النوم ؟ هل انت مريض ؟..

ولما لم يجب ، اردفت :

ـ الاتريد ان تحتسي قدحا من الشاي ؟

فأجابها بضعف وهو يغمض عينيه ويستقبل الجدار بوجهه : ـ فيما بعـد ..

انحنت ناستاسيا فوقه وهي تقول :

ـ لعمري قد يكون مريضا ... ثم دارت على عقبيها وخرجت ، ولم تعد اليه الا في الساعة الثانية وكانت تحمل الحساء . كان لا يزال نائما كما تركته والشاي لم يمس ، فراحت تهزه بغضب وتقول :

ـ ما بك لا تنفك تنام ؟ هل انت مريض ؟ اجب بنعم او لا !

لكنها لم تتلق جوابا كذلك . فنظرت اليه باستنكار وقالت :

ـ من الخير لك ان تقوم بجولة في الشارع ، قد يفيدك الهواء الطلق ... ماذا لو جلست قليلا !

جلس الشاب في « سريره » واطرق برأسه محدقا في خواطره . ولم يرد على قوله : فيما بعـد ... ارتحلي .. واشار بيده نحو الباب . فوقفت برهة تتأمله بنظرة اشفاق ثم خرجت .

لبث متطرقا بضع دقائق ثم رفع رأسه ونظر باستغراق الى الشاي والحساء واخيرا انتزع قطعة من الخبز وامسك بالملعقة وبدأ يأكل... ابتلع لقيمات دون شهية وبشكل آلي . فسكن الالم في رأسه ولمـا

انتهى من طعامه تمدد على « السرير » ولكنه لم ينم • بل لبث ساكنا مستلقيا على صدره دافنا وجهه في « الوسادة » • كان يفكر ويفكر وكانت احلامه غريبة • كان يتصور نفسه هناك في افريقيا . في مصر بالقرب من بعض الواحات . ويرى ان القافلة تستريح والجمال تنام هائئة ، واشجار البلح نامية على شكل دائرة محيطة • وكان الجميع يتناولون الطعام اما هو فكان يشرب من غدير جار مزمجر قريب من هناك • ولقد شعر ان ذلك الماء انعشه ••• انه ماء ازرق صاف بسيل فوق حصى ملونة وفي مجرى من الرمال التي تعكس اشعاعا ذهبيا •

وفجأة سمع دقات ساعة بوضوح فانتفض ورفع رأسه ونظر من النافذة وبعد ان خمن الوقت غادر « سريره » كما لو انتزعته ايد خفية • شعر باشراق عقلي فسار متلصلصا نحو الباب يواريه بهدوء ويصغي • فلم يسمع اية ضجة على السلم كما لو ان كل من في البيت كانوا نياما • راح يعتب على نفسه استغراقه في النوم كل هذا الوقت دون ان يتخذ العدة لما هو في سبيله • واعتبر هذا الاهمال منه عملا شنيعا شاذا • فقد ادركه الوقت والساعة اشرفت على السادسة ، وهنا شعر بوجيب قلبه يتجاوب في الحجرة ، واستولت عليه عجلة خارقة صاخبة مضطربة طردت الذهول والنعاس اللذين كانا مستوليين عليه • كانت الاستعدادات اللازمة بسيطة غير معقدة • فاستنجد بكل قواه ليدبر الامر ويبلغ به مبلغ الكمال فلا ينسى شيئا ولا يغفل امرا وشعر بضربات قلبه تكاد تخنقه فصمد وقاوم واخرج من « وسادته » رزمة من الثياب انتقى منها قميصا قذرا خلقا نزع منه « سريدة » بعرض بوصة واحدة وطول ثمانية بوصات اراد ان يصنع منها عقدة سيالة « انشوطة » يثبتها في معطفه ، الامر الذي لن يستغرق منه الا دقائق معدودات • نزع معطفه الصيفي الواسع المصنوع من قماش قطني متين (وهو اللباس الخارجي الوحيد الذي كان يملكه) ، وبدأ يخيط في داخله

تحت الابط طرفي « السريدتين » ، كانت يداه ترتعدان خلال تلك العملية ولكنه انجزها بدقة لا تفضحها العين ، ثم ارتدى المعطف ...

كان قد هيأ الابرة منذ زمن بعيد وكذلك الخيط كان محتفظا به في قمطر المائدة ملفوفا في ورقة باعتناء . اما « الانشوطة » فكانت من تصميمه : ادخرها للفاس اذ انه يستحيل عليه الخروج الى الشارع والفأس في يده ، اما اخفاؤها تحت المعطف فيستوجب استعمال اليد او الذراع لتثبيتها . ولكن بمثل هذه « الانشوطة » ليس عليه الا ان يدخل الجزء الاعلى منها فيها ويتركها متدلية دون ان يخشى سقوطها ؟ وستبقى تحت ابطه طيلة الرحلة ولن يقتضيه الامر الا ادخال يده اليسرى في جيب معطفه والامساك بالمقبض ليمنعها من التأرجح . ولما كان معطفه عريضا حتى لكأنه غرارة كبيرة ، فان الناظر اليه لن يستطيع ان يحدس انه يسند بيده شيئا . وهكذا نبتت فكرة « الانشوطة » في رأسه منذ نيف وخمسة عشر يوما ..

أنهى عمليته ومد يده الى الفراغ الواقع بين « الديوان » وحافة الجدار من الجهة اليسرى وعبث برهة بأصابعه باحثا ثم اخرج « الرهينة » التي ادخرها لهذه المناسبة .لم تكن شيئا ثمينا بالمعنى المفهوم . كانت عبارة عن قطعتين من الخشب المجلو المصنوع على شكل علبة السجائر وقد غطاهما بقطعة من الحديد الابيض (تنك) عثر عليها خلال احدى نزهاته ، ثم لفهما بعناية في رفة بيضاء ناصعة نظيفة جدا الصقها من اطرافها حتى ليتعذر نزعها بسهولة . كان قصده من ذلك لفت انتباه العجوز وقتا كافيا وآشغالها زمنا بنزع الغلاف بانتظار اللحظة الحاسمة . وقد عمد الى قطعة الحديد ليزيد في وزن العلبة الموهومة حتى لا تدرك العجوز خدعته للوهلة الاولى ... وهي خطة مدروسة بعناية ومعدة بحذق .

سمع فجأة صوتا من ساحة الدار يهتف :

ــ لقد اعلنت الساعة السادسة منذ طويل ••• فكان لهذا القول رد فعل عنيف في نفسه : « السادسة منذ زمن طويل ؟ رباه ! »

اندفع نحو الباب واصاخ السمع ثم اخذ قبعته ونزل الدرجات الثلاثين بحذر القط وحرصه وتوقف برهة : عليه تنفيذ الجزء الاهم من تلك الاستعدادات : سرقة الفأس من المطبخ •

اما لم استعمال الفأس بالذات ؟ فذلك ما لا يعرفه ! لان الفكرة واتته من قبل فتبناها وتقبلها دون نقاش •••

يجدر ابراز نقطة هامة في قرار راسكولينكوف : ذلك انه كلما اتخذت خطته صبغة نهائية كلما ازدادت في عينه رهبة ووحشية لدرجة ان الصراع الاليم الذي كان ينشب في اعماقه كلما ناقش تلك الفكرة كان يجعله ابعد ما يكون عن تنفيذ عزمه • حتى انه في تلك اللحظة ، رغم جمعه كل ما يلزم لتلك « العملية » وتدقيقه في كل التفاصيل حتى التافه منها، كان لا يزال يعتقد انما سيقدم عليه ضرب من المستحيل••• نوع من الاغراق في الوحشية • مع ذلك كان يشعر ان التراجع متعذر في تلك اللحظة !

لم يكن الحصول على الفأس يقلق باله من قبل نظرا لسهولته : فناستاسيا : غالبا ما تكون غائبة عن البيت مساء لانها تزور الجيران حينا او تكون في السوق احيانا تاركة باب المطبخ مفتوحا ••• ذلك الباب الذي كان علة قلق راسكولينكوف وخوفه كلما اراد التسلل من البيت • فلم يكن اسهل عليه من ان يتسلل الى المطبخ بهدوء فيأخذ الفأس ليعيدها بعد ساعة على الاكثر عندما يكون كل شيء قد انتهى• بيد انه كان يخشى بعض الثغرات في هذه الخطة كأن ترجع ناستاسيا قبل الوقت فيتعذر عليه اعادة الفأس ويضطر للانتظار حتى تسنح

فرصة اخرى ، يجوز ان تكتشف خلالها ضياع الفأس فتبحث عنها صارخة مزمجرة وبذلك يتولد الشك او على الاقل يسبب نمو الشك. لكن الوقت ما كان يسمح له بالتريث امام هذه العقبة التافهة ، لان تفكيره كان منصرفا الى الناحية الاهم من الموضوع تاركا توافه التفصيل الى ما بعد عندما يكون قد انتهى من عمله .

رغم هذا فانه ظل يشعر باستحالة تنفيذ « العمل » . تذكر على سبيل المثال حاله مساء البارحة — لما ان اقنع نفسه بوجوب اجراء تجربة تقتصر على زيارة المكان دون ان يرافقها اي عمل — وكيف ثارت خواطره واضطربت افكاره وتخاذلت سا قاه رغم ما كان يقنع به نفسه من اقوال ومن ان لا ضير من اجراء التجربة طالما انها تتعلق بحلم وليس بحقيقة . بيد انه حلل النتيجة الادبية لتلك المسألة تحليلا دقيقا فكان تفسيره وافتاؤه من الدقة وحسن السبك لدرجة لم يشعر معها في وجدانه بأي اعتراض . لم يكن يريد التساهل مع نفسه في هذا الموضوع بل كان يبحث بعناد عن اعتراضات وانتقادات تنفه قراره . لكن نهار امس الغني بحوادثه المفاجئة الحاسمة سرى بنفسه آليا فكان كمن يقسر على اتباع الطريق ترغمه قوة قاهرة لا قبل له بمقاومتها ... كمن اطبقت على ثوبه عجلة جبارة وراحت تدور وتجذبه اليها بشدة وتصميم .

فكر من قبل — قبل ان يضع خطته — في الاسباب التي تجعل كل جريمة سريعة الاكتشاف ، وفي الدوافع التي تتيح للمحققين العثور بسهولة على آثار تدين القتلة وخرج بنتائج مثيرة : كان السبب الرئيسي — على رأيه — هو الاستحالة الطبيعية لاخفاء الجريمة في صدر المجرم نفسه . لان المجرمين من اي نوع كانوا يشعرون عند تنفيذ جريمتهم وبعدها بقليل ، بضعف في ارادتهم وفي احكامهم ،

وكان راسكولينكوف مؤمنا بان ذلك الخور يستحوذ على الانسان كما يتسلط عليه المرض وينمو فيه باطراد حتى انه يبلغ الذروة قبل الاقدام على تنفيذ الجريمة بقليل ؛ ويظل على هذه الحال اثناء ارتكابها ويبقى اثره زمنا ما بعد ذلك بحسب الاشخاص ودرجة مقاومتهم ثم لا يلبث ان يزول شأن كل الامراض • بقي ان يعلم هل المرض يرافق الجريمة أبدا أم ان الجريمة ذاتها هي بحسب طبيعتها ممتزجة بنوع من المرض ••• ذلك ما لم يتوصل الى حله حتى تلك اللحظة !

ظن راسكولينكوف ــ حينما بلغ من تحليله هذا الحد ــ ان أمره سيختلف بعض الشيء عما استنتج وان مثل ذلك الانقلاب الروحي لن يحدث في نفسه • وظن ان قواه الفكرية وارادته لن تتخليا عنه خلال مراحل « مشروعه » لسبب بسيط : هو ان ما هو بسبيله (ليس جريمة) • وليس لنا ان نفسر الاسباب التي اوصلته الى هذه النظرية الاخلاقية ، لكننا نكتفي بالقول ان الصعوبات العملية ذات الصبغة المادية البحتة ما كانت تلعب في ذهنه الا دورا ثانويا • كان يقنع نفسه بقوله : « ــ يكفي ان اراقب ارادتي ووجداني واسيطر عليهما حتى اتغلب في اللحظة الحاسمة على الصعوبات التي قد تعترض مشروعي » •

لكن اللحظة الحاسمة كانت تتأخر باستمرار حتى بات يشك في المبادىء التي اوجدها والاستنتاجات التي استخلصها من مناقشاته • والان بعد ان حان الوقت فان الحوادث اتخذت صبغة جديدة غير منتظرة ، واول عقبة صادفته كانت عندما بلغ نهاية السلم قرب الباب الذي كان ابدا مفتوحا اذ انه بينما كان يلقي عليه نظرة جانبية ليتأكد من غياب ناستاسيا وصاحبة الدار او على الاقل غياب الاولى ووجود الثانية في غرفة مغلقة داخل الشقة ، ليتسنى له اخذ الفأس دون ان

يراه احد ، رأى لدهشته البالغة ، أن ناستاسيا كانت هناك مشغولة بنشر بياضات على الحبال فاستمر في سيره وكأنه لم يرها • لكنها ابصرت به بل انها راحت تتابعه بنظرها حتى تجاوز نطاق الرؤية المتاح لها في مكانها وهكذا اخفق في اهم جزء من خطته • وراح يعتب على نفسه وقد عصفت بين جوانحه غضبة حيوانية ويقول :

ـ « من اين جئت بتلك الفكرة السخيفة ، فكرة غياب ناستاسيا عن المطبخ في اللحظة الحاسمة ولم ، لم اعتبرتها امرا واقعيا رغم ما يعتورها من اخطاء سخيفة ؟ »

وقف امام الباب الخارجي للبناء تتنازعه عوامل شتى : فهو لا يستطيع الخروج الى الشارع هكذا دون هدف لان في ذلك ايلاما له ، ولا يريد العودة الى غرفته فالايلام اشد ! راح يدمدم حانقا : « لقد اضعت فرصة جوهرية واضعتها الى الابد ! » وفجأة التمعت عيناه ببريق خاطف وارتعش كيانه فرحا : شاهد في غرفة حارس البناء شيئا يلتمع ، شيئا عرف فيه ضالته التي اخفق في الحصول عليها من المطبخ : فأسا كامنة بين قطعتين من الخشب ، تحت مقعد الحارس ! ولما كان الباب مفتوحا فقد حدس ان يكون الحارس خارج الغرفة غير بعيد عنها ••• لم ينتظر اكثر من ذلك واقترب من الكوخ وهو ينادي بصوت مختنق حتى اذا تأكد من غيابه دخل الكوخ وانتزع الفأس فأودعها المكان الذي اعده لها تحت معطفه وخرج دون ان يراه احد •

قال يحدث نفسه : الحقيقة ان الشيطان يتدخل عندما يخفق الذكاء ••• وارتسمت على وجهه ابتسامة غريبة : لقد خدمه الحظ وشجعته تلك الخدمة ايما تشجيع •

سار في الشارع ببطء خشية ايقاظ الشكوك وجهد في ان

يتحاشى النظر الى الوجوه زيادة في الحيطة والحذر . تذكر فجـأة قبعته الشاذة فهتف غاضبا : « رباه ! كيف فاتني استبدالها بمـا كنت املكه من نقود البارحة ؟ » وافلتت شفتاه سبة بذيئة . وبينما هو في طريقه لمح ساعة جدار في دكان مر بالقرب منها فاذا بهـا تشير الى السابعة وعشر دقائق فكان ينبغي اذاً ان يحث الخطى خصوصا وانـه معتزم بلوغ المكان من الطريق الجانبية . والغريب انـه في المرات السابقة ، مرات التجربه ، كان يشعر برعب واضطراب . اما الآن فلم يكن يحس بشيء من ذلك بل ويمكن القول ان شعورا بالارتياح كان يغمره . كانت افكاره متجهة وجهات لا علاقة لها بما بصدده . كـان يقول وهو يسير بالقرب من حديقة « يوسوبوف » انه من المستحسن لو عمد الى اقامة نوافير كثيرة لتلطف الجو في مثل هذه الامكنـة العامة ، ثم لاحظ انه لو عمد الى توسيع « البستان الصيفـي » حتى « ساحة مارس » ودمج في حديقة « باليه ميشيل » فان ذلك سيكون تجديدا جميلا نافعا « لسان بترسبورغ » وهنا اثار انتباهـه سؤال عرض له فجأة : لم يفضل الناس في المدن الكبيرة ــ سواء بدافـع الحاجة او بدافع الذوق ــ السكنى في الاحياء التي لا تتخللها نوافير ولا حدائق والتي ليس فيها الا الوحل والعفن والروائـح القـذرة ؟ وتذكر نزهته في « شارع العلف » والاسباب التي دفعته اليها فلـم يتمالك ان تمتم : « يا لي من احمق ! يجدر بي ان لا افكر في هذا .. اعتقد ان اولئك الذين يساقون الى ساحة النطع يستمعون لاخر مرة بالمناظر التي تحيط بهم وهم في طريقهم الى الموت » .

ومضت هذه الفكرة في رأسه برهة لكنه سرعان ما اطفأهـا اذ كان قد بلغ الدار التي يقصدها واصبح الباب قبالته . تناهى الـى سمعه صوت ساعة بعيدة تدق دقة واحدة فهمهم : « هل يمكـن ان تكون النصف بعد السابعة ؟ مستحيل ان هذه الساعة مغلوطة » .

خدمه الحظ مرة اخرى عندما هم باجتياز عتبة المكان حتى ليظن ان القضية جاءت عمدا • فقد مرت في تلك اللحظة عربة كبيرة محملة بالقش راحت تجتاز المدخل الرئيسي للدار وبذلك حجبت دخوله فلم يشعر به احد حتى ان العربة لم تكد تبلغ الباحة الا وكان قد بلغ السلم الايمن وارتقاه • وتناهت الى سمعه اصوات مزمجرة آتية من جانب العربة • وفتحت نوافذ كثيرة مطلة على الباحة غير ان الابواب المطلة على السلالم لبثت مغلقة •

راح يصعد قاصدا الطبقة الرابعة حيث تقيم العجوز وقد وضع يده على قلبه ليمنعه من الوثوب • وتحسس الفأس التي الى جانبه واطمأن الى وجودها للمرة الاخيرة ••• سره خلو المكان في تلك اللحظة ••• صحيح ان في الطبقة الثانية مسكنا غير مأهول وان بعض العمال يقومون باصلاحات فيه ، غير ان ذلك لم يثبط من عزيمته • تجاوزهم دون ان ينظر اليه احد وراح يحدث نفسه قائلا : « لا شك انه كان من الاصلح عدم وجودهم ولكن لا بأس على كل حال فهناك طبقتان اخريان » •

بلغ الطبقة الرابعة ووقف امام الباب ونظر الى المسكن الخالي المقابل لمسكن العجوز • تذكر ان في الطابق الثالث مسكنا يقوم ولا شك تحت مسكنها مباشرة وهو خال بالمثل وراودته فكرة عابرة لحظة واحدة : « اوليس من الخير ان اعود ؟ » غير انه لم ينتظر الجواب بل راح يسترق السمع لصق باب العجوز فلم يسمع حركة • كان السكون يخيم على السلالم بالمثل فألقى نظرة اخيرة حوله وتأهب مستعدا وهو يرفع من جديد مقبض الفأس تحت معطفه ويتساءل : « أو لست شاحبا بعض الشيء ؟ ان العجوز حذرة جدا فهلا يجدر بي أن اتريث برهة ريثما استرد روعي ؟ » •

لكن ضربات قلبه لم تخف ، بل عـلى العكس كانت تزداد باطراد فلم يأبه لها وامسك بحبل الجرس فجذبه ثم عاد يقرعه بعـد نصـف دقيقة بأشد من المرة السابقة دون ان يتلقى جوابا ! شعر ان لا فـائدة من القرع بالحاح لانها ستثير ريبة العجوز بدلا من ان توحي اليهـا الاطمئنان ••• ولا شك انها في الداخل وحيدة كما يعرف سلفا وهذا هو سبب التلكؤ الذي يبدو عليها ••• نعم ••• لقد كان يعرف بعضا من عادات آليونا ايفانوفنا ••

اصغى من جديد الى الباب فسمع فجأة احتكاك يد على مزلاج الباب من الداخل وحفيفا خافتا كالذي يتخلف عن مرور شخص قرب الجدار •• وسواء اكتسبت حواسه ارها خاصا ام ان الحركة كـانت واضحة مسموعة ، فانه لم يتمالك ان ارتعد وهو يفكر ان وراء هـذا البا ب يقف شخص ينصت مثله الى ما قد يدور في الممشى ••• ولعله مثله ، قد الصق اذنه على الباب ••• فراح يتحرك في مكانـــه مثيرا ضجة معقولة ليجنب الشخص المترقب وراء الباب كل خوف وحذر ، ثم عاد يقرع للمرة الثالثة بهدوء دون ان تظهر عليه بوادر نفاذ الصبر••• وظلت هذه اللحظة ماثلة في خاطره ، حتى انه لبث يذكرها امدا طويلا•• ادهشه الاستعداد الذي ابداه والحيل التي تذرع بها على الرغم مــن انه ـ خلال فترات متقطعة ـ كان يشعر بانعدام الاحساس وكأنــه بارح جسده •

وفجأة ، سمع صوت المزلاج وهو يرفع •••

٧

ووُرب الباب بهدوء كالمرات السابقة وبدت العينان الحادتان الحذرتان تلتمعان وسط الظلام. وفي تلك اللحظة فقد راسكولنيكوف هدوءه وكاد ان يفسد خطته كلها بالخطيئة التي ارتكبها: ذلك انه خشي ان يدفع الحذر بالعجوز الى اغلاق الباب في وجهه ، ولم يلاحظ ان وجهها كان يعكس احساسها بالاطمئنان ، فامسك الباب وجذبه نحوه بشدة حتى ان العجوز التي كانت تمسك به بحذر وعنف معا اندفعت معه الى المشى . ولما رأى انها تتصدى له لتمنعه من الدخول تقدم نحوها وفي عينيه نظرة وحشية اخافت العجوز ، فتراجعت خطوة الى الوراء وارادت ان تقول شيئا غير ان لسانها لم يسعفها بالنطق .

ابتدرها بلهجة سعى ان يجعلها طبيعية :

ـ مساء الخير يا اليونا ايفانوفنا ... لقد جئتك بالرهينة التي وعدتك بها ... ولكن لنمض الى هناك حيث النور ... وراح يدفعها امامه بعنف وهو يدخل الغرفة دون ان تدعوه الى الدخول . وعادت العجوز تقف في سبيله وقد استعادت القدرة على النطق وصاحت :

ـ يا الهي ! ماذا تريد ؟ ومن انت ؟ ماذا تبغي ؟

فمد لها راسكولنيكوف يده بالعلبة الوهمية وقال :

ـ هيا يا أليونا ايفانوفنا . أنا من معارفك القدماء انا راسكولنيكوف ، وهذه هي الرهينة التي حدثتك عنها مؤخرا .

تناولت العجوز العلبة ومضت تتفحصها ثم لم تلبث ان عادت تنتصب امامه وتنظر في عينيه محدقة ... كانت تتأمله باتنباه وريبة وقد مضت دقيقة خيل لراسكولنيكوف خلالها ان عيني العجوز تلتمع

بسخرية مرة كما لو انها خمنت كل شيء ، فشعر بضعف شامل وبنوع من الخوف حتى ان تحديق العجوز لو استمر نصف دقيقة اخرى للاذ بأذيال الفرار .

بذل مجهودا جبارا للتغلب على ضعفه وقال بلهجة خبيثة :

ـ ماذا دهاك حتى تنظري الي بهذا الشكل ؟ الا تعرفينني ؟ هذه العلبة التي حدثتك عنها فاما ان تأخذيها واما ان تعيديها الي لأتصل بأناس آخرين .

فاه بتلك العبارات عفويا حتى ان العجوز اطمأنت للهجته بعض الشيء ووجدت في قوله ما يشجعها فقالت وهي تنظر الى الرهينة :

ـ لكن يا صديقي لم تصرفت هكذا منذ قليل ؟ ثم اشارت الى العلبة واضافت : ما هذا ؟

ـ علبة سجائر فضية . ماذا دهاك ؟ لقد حدثتك عنها من قبل .

فمدت يدها وهي تقول :

ـ كم انت شاحب ! ويداك ترتجفان ! هل انت مريض ؟

فأجابها بصوت مرتجف :

ـ كيف لا يشحب من لا يجد ما يأكل ؟ انني مصاب بالحمى ...

وخذلته قواه من جديد . غير ان العجوز اقتنعت بالجواب وتناولت الرهينة وعادت تسأل وهي تزن البضاعة في يدها وتنظر بحدة الى راسكولنيكوف :

ـ ما هذا ؟

ـ انه الشيء ... علبة السجاير .. علبة فضية ، عاينيها .

ـ هم !... لا تبدو انها من الفضة ثم انها ملفوفة بعناية .

وراحت تسعى لازالة الغلاف فاقتربت من النافذة حيث النور اقوى بعض الشيء لانها تحتفظ بنوافذها مغلقة دائما رغم الحرارة

الخانقة ، وتركته لحظات وقد ادارت له ظهرهـــا ... ففك ازرار معطفه وخلص الفأس من العقدة السيالـة « الانشوطـــة » دون ان يخرجها من تحت ابطه واسندها بيده اليمنى تحت معطفه . شعر بضعف هائل يكتسح ذراعيه وبحركاته تتثاقل وكأن اطرافه قدت من رصاص وخاف ان تسقط الفأس من يده ! وفجأة احس بدوار . تناهى الـى سمعه صوت العجوز وهي تقول :

ـ يا لها من فكرة سقيمة تلك التي قضت بحزم هذه العلبـة في مثل هذا الغلاف ... فكان لهذه الجملة وقع السحر في نفسه . كان الوقت يدركه وعما قليل ستكتشف المرأة الخدعة وعندئـذ يضيـــع كل شيء .

اخرج الفأس من مكانها ورفعها بكلتا ذراعيه دون ان ينتبه الى حركته وتركها تسقط آليا ودون عنف على رأس العجوز ، فقد كانت قواه خائرة . لكنه سرعان ما استرد قواه بعد الضربة الاولى . وكانت العجوز كعادتها عارية الرأس وشعراتها البيضاء القليلة مضمخة بالأدهان كالعادة مجدولة على شكل ذنب فأر وملفوفة عـلى مشـــط صغير في مؤخرة رأسها .

أصابتها الضربة الاولى في قمة رأسها وساعده عـلى ذلـك قصر قامتها . وكانت الرهينة لا تزال في احدى يديها . ثم انهال عليها بكل قواه بضربة ثانية وثالثة مستهدفا الرأس فتفجر الدم وكأنه سفح مـن اناء ، وتهاوى جسمها على الارض فتراجع الـى الوراء ليتفـــادي الاصطدام بها ... كانت قد فارقت الحياة وقد اتسعت حدقتـــاها وكأنهما على وشك الخروج من محجريهما بينما راح وجهها وجبينهـا يختلجان ويتقلصان من تشنجات النزع الأخير .

وضع الفأس على الارض قرب القتيل وراح يبحث في جيوبهـا محاذرا تلويث يديه بالدماء التي كانت تتدفق من رأسها . بدأ بالجيب

اليمنى حيث رآها تضع المفاتيح في المرة الاخيرة • كان محتفظا بصفاء ذهنه لا يشعر بأي خدر أو دوار باستثناء رعدة خفيفة في يديه وكـان يقظا حذرا فلم يتسخ ثوبه • عثر بالمفاتيح التي كانت تجمعها رزمـة واحدة وتربطها حلقة من الفولاذ وهرع الى الغرفة الداخلية التي كان يحجب الستار بابها •

كانت غرفة صغيرة جدا يقوم في صدرها دولاب من الزجـاج يغص « بالإيقونات » والى الجدار المقابل سرير نظيف جدا وعليه غطاء مـن الحرير المبطن بالقطن مصنوع بعناية ودقة • وبالقرب مـن الحـاجز الخشبي الذي يفصل بين الغرفتين قامت الخزانة • والغريب انه لم يكد يدخل المفتاح في القفل ويسمع الصرير حتى اعترته رعدة اكتـسحت كيانه واحس برغبة ملحة بالفرار لكن تلك الرغبة لم تدم اكثر من لحظة واحدة اذ لم يكن من السهل التراجع بعد ان وصل الى تلك المرحلة • تملكته فكرة جديدة مقلقة: «ألا يمكن أن تكون العجوز لا زالت على قيد الحياة أو أن تكون الحياة قد عادت اليها ؟ فترك المفاتيح والخزانة وعاد الى قرب الجثة وامسك بالفأس مرة اخرى ورفعها بين يديه لكنه لـم يضرب •

ذلك لأن وفاة العجوز كانت أمرا محققا • انحنى فوقها يتفحصها عـن قرب فرأى ان جمجمتها محطمة وان الجزء الاعلى منها قد انتزع مـن مكانه وود لو لمسه بيده ولكنه تماسك • شاهد بركة من الدم تجمعت على الأرض ووقع بصره فجأة على شريط من الحرير يطوق عنق القتيل فجذبه ولكنه امتنع عليه • كان الشريط غارقا بالدم فحاول رفعه ولكن عائقا كان يحول دونه • تملكه نفاذ صبر غريب وود لو استعمل الفأس مجددا ليقطع الشريط بضربة واحدة ولكنه لم يجرأ على ذلك • وبعد عناء وجهد دقيقين لوث خلالهما اصابعه والفـأس بـالدم توصـل الى استخلاص الشريط من الجثة • كان يتدلى منه كيس وصليبان احدهما

من خشب السرو والاخر من النحاس وبينهما صورة مـــن « الصيني » أما في الكيس فكانت حافظة نقود منتفخة من جلد الوعـــل ذات قفـــل صغير من الفولاذ • وضع راسكولنيكوف الحافظة في جيبه دون ان يعاين ما فيها والقى الصليبين فوق المرأة وحمل معه الفأس وعاد الـــى غرفة النوم من جديد •

راح يعمل بعجلة محمومة : ويجرب المفاتيح عبثا ولم يكن سبب ذلك ارتعاد يديه ، لانه كان يميز اشكال المفاتيح واحجامهـــا ويدرك تماما ان هذه مثلا لا ينطبق على فتحة القفل وفجأة تذكر ذلك المفتاح الطويل ذي الأسنان المشرشرة وقدر أنه لا يمـــكن ان يـــكون لهذه الخزانة (وهو تقدير سبق له ان توصل اليه من قبل) بل انه مفتـــاح صندوق حديدي ما حيث يمكن ان تكون فيه كل ثروة العجـــوز • وعلى هذا فقد ترك الخزانة وراح يبحث تحت السرير معتمدا على ان العجائز اعتدن دائما اخفاء صناديقهن في مثل ذلك المكان •

لم يخطىء الظن فقد شاهد صندوقا ذا غطاء محـــدودب مكسو بقماش « الماروكان » الأحمر ومزين بالمسامير الحديدية ، ولمـــا أدخل المفتاح في القفل فتحه بسهولة • وقع بصره بادىء ذي بدء على غطاء ابيض يخفي فراء أرنب تزينه أشرطة وبطانة حمراء وثوب مـــن الحرير ثم حرملة « شال » • أما ما تبقى فلم يكن أكثر مـــن خرق لا قيمة لها ولا شكل ، فراح يزيل الدم العالق بيديه مستعملا بطانة الفراء الحمراء وهو يحدث نفسه قائلا :

ــ انها حمراء والدم أحمر ولا شك أنه لن يظهر عليها •••

• فحفزه ذلك على متابعة البحث متأكدا أن أليونا ايفانوفنا تحتفظ بين هذه الخرق « بالرهائن » التي تحصل عليها لقاء ما تسلفه من مال •

بل لعلما يراه الآن لا يعدو الرهائن التيعجز أصحابها عندفعما استلفوه عليها من نقود فأصبحت ملكا للعجوز • رأى مجموعة غريبة من أقراط وأساور ودبابيس ثمينة بعضها لا زال في علبه المخملية والبعض الآخر ملفوفا بعناية بأوراق الصحف ، فأودع تلك الاشياء جيبه دون تردد•• ولم يستحسن فتح العلب كلها وفض اللفافات خشية ان يستغرق ذلك من الوقت ما هو في مسيس الحاجة اليه •

وفجأة سمع صوت خطوات في الغرفة التي سجت فيها جثـــة القتيل ، فتوقف وقد عقل الرعب القاتل حركاته فشلها ••• وانقطـع الصوت حتى أنه عزا ما سمعه الى اضطراب أعصابه وتخيلاته السقيمة المريضة • غير انه سرعانما سمع صرخة خافتة اشبه بزمجرة مكتومه•• وران سكون مريع دام دقيقة او دقيقتين••• كان خلالها مقعيا بالقرب من الصندوق يحاول عبثا استعادة هدوئه وتنفسه الرتيب •• وفجـأة انتفض بعنف واخذ الفأس بيده ثم هرع الى الغرفة التي ترك فيهـــا القتيـــل !

كانت « اليزابيت » واقفة في وسط الغرفة وهي تحمل حزمة كبيرة ، وكانتتنظر بذهول وتبلد الى اختها الميتة وقد شحب وجهها حتى غدا كقطعة من القماش القذر ••• بدا عليها انها عاجزة عن الصراخ فلمـا رأته مندفعا نحوها ارتعدت كالورقة التي تتقاذفها الرياح ، وقد اعترتها قشعريرة متقطعة وعلا وجهها تشنج دوري رتيب ! رفعت ذراعيهـــا وراحت تتراجع ببطء أمامه باحثة عن زاوية تلتصق فيها وهي تحـدق فيوجهه خرساء مكتومة الانفاس • اندفع نحوها رافعا فأسه فتقلصت شفتا المرأة المسكينة تقلصا أليما شأن بعض الاطفال عندما يفاجـأون بشيء يخيفهم ويحاولون الصراخ مستنجدين • كانت تلك التعسة من السذاجة بحيث انها لم ترفع ذراعها لتحمي وجهها كما ينتظر غريزيا في

موقف كالذي وجدت فيه . بل ان حركتها كانت من الضعف والحيرة حتى ان يدها لم ترتفع الى مستوى الكتف وهكذا اصابتها ضربة الفأس ملء رأسها ، وكان يستعملها هذه المرة من جزئها الحاد المدبب، فشطرت رأسها شطرا وتهاوت البائسة في مكانها بينما تناول راسكولنيكوف الحزمه التي كانت بين يديها والقى بها جانبا وعاد الى غرفة النوم من جديد .

بدأ الرعب يستحوذ على نفسه اكثر فأكثر وخصوصا بعد جريمته الثانية التي لم يكن قد مهد لها او ادخلها في حسابه وشعر برغبة ملحة في مغادرة المكان وكأنه أدرك تلك اللحظة دقة موقفه وحرجه وأنه على الرغم من توقعه مثل تلك المصاعب والعقبات فانه لم يكن حتى ذلك الحين الا في المرحلة الاولى وليس يدري كم من موانع جديدة ستنصب في طريقه قبل ان يعود سالما الى غرفته ، بل كم جريمة اخرى سوف يضطر الى ارتكابها واقتراف وحشيات ابشع فأبشع صيانة لسلامته ؟.. لو انه توقع كل ذلك لكان حريا به أن يتراجع . ودّ الآن لو يوقع بنفسه ليس من الخوف بل من الاشمئزاز وبشاعة ما اقدم عليه .

راح ذلك الاشمئزاز يتزايد في نفسه دقيقة فدقيقة حتى هم بالابتعاد عن غرفة النوم والصندوق وسيطر على عقله شرود جديد أشبه بالتخيل . بلغ به الأمر أن نسي نفسه أو على الأصح نسي الفكرة الرئيسية التي جاء من اجلها ليهتم بتفاصيل ثانوية تافهة . من ذلك انه لاحظ في المطبخ دلوا مملوءا بالماء مثبتا فوق مقعد خاص فقرر ان يغسل يديه والفأس لأنها كانت مغطاة بالدم . واندفع الى حيث كان الدلو فغمر فيه حديد الفأس وانتزع قطعة من الصابون كانت في علبة على حافة النافذة وراح يغسل يديه داخل الدلو بالذات ولما انتهى أخرج الفأس وأمضى ثلاث دقائق وهو يزيل ما علق بمقبضها من نقاط

الدم حتى انه استعمل الصابون لهذه الغاية ثم جفف يديه والفأس بقطعة من الثياب كانت منشورة على حبل في المطبخ ، اقترب بعد ذلك من النافذة ليتسنى له معاينة مقبض الفأس بوضوح ولما تأكد من خلوها من الآثار أقلقه أن يكون المقبض رطبا وآخيرا أعادها الى مكانها من « الأنشوطة » وألقى نظرة أخيرة على معطفه وسرواله وحذائه فرأى للوهلة الأولى نقاطا صغيرة على حذاءيه فبلل خرقة ومسحهما • وخيل اليه انه لم يعاين كل شيء وان هناك بعض التفاصيل غابت عن عينيه المدققتين فوقف برهة في وسط الغرفة يتأمل موقفه وظن لحظة انه بات اقرب الى الجنون لانه يفتقر في تلك اللحظة الى الوعي الكافي للتحليل والتفكير والاستنتاج وزمجر يقول : « رباه ! ينبغي أن أفر ، أفر » ! غادر غرفة النوم محاولا الخروج وهناك لقي ما صعقه صعقا ـ وهو أدق تعبير يطلق على ما شعر به في تلك اللحظة ـ فوقف متسمرا في مكانه لا يصدق عينيه : رأى الباب ، الباب الخارجي الذي يؤدي الى حيث الجثتين ويطل على الممشى الخارجي ، ذلك الباب الذي قرعه منذ قليل ، الذي نفذ منه الى هذا المسكن ، رآه مواربا !•• ومعنى ذلك انه كان خلال كل هذا الوقت غير مغلق بالمفتاح ولا بالمزلاج واذن فان العجوز كانت قد تركته مفتوحا من باب الحذر والتعقل وبذلك أتيح لاليزابيت ان تدخل اذ لا شك انها لم تنفذ خلال الجدران •

بادر الى الباب فأغلقه ودفع المزلاج وراءه ووقف لحظة يفكر : وليس الأمر مجرد اغلاق الباب ، انما المهم هو الخروج • فعاد يفتح الباب ويصيخ السمع • تناهى الى اذنيه صوتان صاخبان يعربدان بسباب وشتائم فتساءل عمن يكون صاحبهما ، وانتظر بفارغ الصبر ان تخفت أصواتهما ويرتحلا ، وأخيرا وبعد لأي هدأت الأصوات ، وبينما كان يستعد للخروج سمع في الطابق الأسفل صوت باب يفتح

وزمجرة على السلم فخمن ان شخصا ما يهبط الى الاسفل وهو يدمدم لحنا وتساءل مرة أخرى قائلا :

ـ ما بالهم يحدثون مثل هذا الصخب ؟

أغلق الباب من جديد وعاد ينتظر حتى خيم السكون وهدأت الاصوات . وما كاد يضع قدمه على الدرجة الاولى حتى تناهى الى سمعه صوت خطى بعيدة آتية من أسفل السلم وشعر أن تلك الخطوات تتجه الى حيث هو بالذات أو بالاحرى الى حيث كان . اما كيف خمن ذلك ؟ وما هي الميزات التي تفردت بها تلك الخطى حتى توصل الى ذلك الاستنتاج ؟ ليس يدري ! كانت خطوات ثقيلة متزنة بطيئة وكانت في تلك اللحظة قد بلغت الطبقة الأولى من البيت وبدأ وقعها يتجاوب مرتفعا باطراد . أحس كأن صاحب الخطى يلتقط انفاسه المبهورة بصعوبة ، فلبث يتابع تلك الخطوات بسمعه حتى بلغت الطابق الثالث ولم يبقَ لوصولها اليه الا زمن يسير بينما لبث هو جامدا في مكانه عاجزا عن تحريك اطرافه .

بدأ القادم يرقى الى الطبقة الرابعة عندما استرد راسكو لنيكوف حواسه ونجح اخيرا في العودة الى المسكن الذي غادره فأغلق الباب وراءه ثم دفع المزلاج ببطء وهدوء محاذرا احداث أي صوت . كانت حركته غريزية فحسب فلما فرغ منها قبع وراء الباب كاتما انفاسه وجعل يصغي بكل حواسه .

بلغ القادم الباب ولم يعد يفصله عنه الا ذلك الحاجز الخشبي وشعر بأنه يصيخ السمع بدوره وأنه يتنفس بصعوبة وتصوره راسكولنيكوف ضخم الجثة طويل القامة ! قرع الزائر الجرس وانتظر برهة ثم عاود الكرة ولم يلبث ان استولت عليه غضبة مفاجئة فراح يهز الباب نافذ الصبر . وكان راسكولنيكوف يراقب المزلاج وهو يهتز في مكانه

وخيل اليه أنه سيتداعى آخر الامر تحت وطأة الهزات العنيفة وخطر له أن يمسك المزلاج بيده ويدعمه ولكنه خشي ان يفطن « الآخر » الى ذلك فطاش صوابه وبدأ الدوار في رأسه وظن أنه ضائع لا محالة • وفجأة سمع القادم يزمجر •

ــ ماذا جرى ؟ هل استغرقتا في النوم أم أن أحدا قتلهما ؟ يا للجيفتين! هيه ! أليونا ايفانوفنا ايتها الساحرة العجوز ! اليزابيث ايفانوفنا يا ذات الجمال الرائع ! افتحا •• آه يا ملعونتان ! هل يعقل أن تكونا نائمتين ؟

ومن جديد عاد يقرع الجرس بالحاح في ثورة غضبه حتى كاد ان يقطع الحبل وبدا كأنه ليس غريبا عن المرأتين وأنه يشغل مركزا هاما عندهما • وفي تلك اللحظة ارتفعت اصوات خطوات اخرى سريعة خفيفة •• كان قادم آخر يقترب من المكان، قادم لم يسمع راسكولنيكوف صوت خطاه أول الامر وسمع الحديث التالي يدور بين المجهولين : سمع القادم الجديد يقول :

ــ لا يعقل ان لا يكون أحد في البيت [illegible] • •

كان الصوت رنانا مرحا حتى ان راسكو لنيوف قدر ان صاحبه لا يعدو أن يكون شابا في مطلع العمر • وأجاب الصوت الآخر :

ــ الشيطان وحده يعرف ! لولا قليل لاقتلعت القفل منذ لحظات ، ولكن كيف عرفتني أنت ؟

ــ كيف هذا ؟ ألم أهزمك امس الاول في « كامبرينوس » ثلاثة اشواط متعاقبة بالـ « بليارد » ؟

ــ آه •• آه •••

ــ غريب أن لا يكون في المنزل أحد ، بل أستطيع القول أنه غايه في

الغرابة ! أين يمكن أن تكون العجوز في هذه اللحظة ؟ عندي ما أقوله لها ؟

— وأنا كذلك يا صديقي عندي ما أقوله لها ..

— اذن ما العمل ؟ لم يبقَ الا أن ننسحب . ولكنني لا أفهم مع ذلك لم تحدد تلك الساحرة موعدافي هذه الساعة ثم تتخلف عنه ، والادهى من ذلك انني جئت من بعيد ، يا للشيطان ! لست افهم أين مضت . فهي لا تتحرك كل العام من بيتها ، تلك الساحرة . انها مريضة تشكو ألما في ساقيها مع ذلك فهي ليست في مسكنها .

— ماذا لو سألنا حارس البناء ؟

— أين ذهبت ومتى تعود !

— هم !.. يا للشيطان ! نسأل ،... نسأل .. ولكن بما انها لم تعتد الذهاب الى أي مكان فكيف نسأل ؟..

وجذب مقبض الباب من جديد وتابع :

— الى الشيطان لا بد وان نذهب خائبين .

— انتظر ... أنظر . ألا ترى كيف أن الباب قد تحرك لما جذبته ؟

— حسنا .. وماذا بعد ؟

— هذا يعني أنه غير مغلق بالمفتاح ، بل بالمزلاج .. ألا تسمع « صلصلة » المزلاج ؟

— حسنا .. وماذا بعد ؟

— أولا تفهم ؟ معنى ذلك أن واحدة منهما في البيت : فلو أن كلتيهما خارجتان لأغلقتا الباب بالمفتاح من الخارج وليس بالمزلاج من الداخل . انتبه ... هل سمعت الصوت الذي يحدثه المزلاج ؟ اذاً .. لكي يستطيع المرء أن يدفع المزلاج ينبغي أن يكون في الداخل هل أدركت ذلك؟

أرى أنهما هنا لكنهما لا تفتحان ؟!

فصاح كوخ مأخوذا :

ـ يه !.. لا شك أنهما هنا ...

وعاد يهز الباب بعنف بينما هتف الشاب يقول :

ـ انتظر . لا تجذب الباب هكذا ... ان في الامر ما يريب .. فلقد قرعت الجرس وهززت الباب بعنف وهما لا تفتحان واذن فهما مغمى عليهما أو ..

ـ ماذا ؟

ـ هيا لنأتِ بالحارس وليوقظهما بنفسه .

ـ حسنا ...

وراح الاثنان يهبطان السلم وفجأة هتف الشاب :

ـ انتظر .. قف أنت هنا قليلا وأنا سآتي بالحارس !

ـ ولِمَ أبقى ؟

ـ من يدري ؟

ـ ليكن !

وهتف الشاب متحمسا قبل أن يهبط السلم :

ـ أرأيت ؟.. انني أستعد لأكون قاضي تحقيق ! مما لا شك فيه ... نعم مما لا شك فيه ان في الأمر سرا مريبا .

بقي كوخ في مكانه وحيدا وجذب مرة أخرى حبل الجرس فارتفع صوته مجلجلا ثم أخذ يهز الباب ولكن بهدوء وكأنه مستغرق في خواطره . كان يدير المقبض يمينا ويسارا ليتأكد تماما من أن الباب غير مغلق بالمفتاح ثم نفخ كالثور الهائج وانحنى على ثقب الباب ينظر خلاله . لكن المفتاح كان فيه من الداخل وهذا ما حال دون ما اعتزم عليه .

أما راسكولنيكوف فكان واقفا دون حراك يضغط على فأسه ذاهلا • كان مستعدا لمقاومتهما والقضاء عليهما عندما يعودان وقد واتته فكرة مناداتهما وذلك للقضاء عليهما ، بل لشتمهما والسخرية منهما •

ومر الوقت دقيقة دقيقة ولم يعد الشاب مما جعل « كوخ » يتململ قلقا وأخيرا هتف يقول :

ـ يا للشيطان ! ماذا بعد ؟ لم انتظر ؟

وترك مكانه ومضى يهبط السلم مسرعا حتى اختفى وقع قدميه الثقيلتين وبحركة غريزية ، فتح راسكو لنيكوف الباب ثم أغلقه على أحسن ما استطاع وهبط السلم بدوره مندفعا فبلغ الطبقة الثانية حينما تناهى الى سمعه صخب وضجيج ينبعثان من الاسفل ، وحار في ايجاد مخبأ يلوذ به وكاد أن يعود ادراجه لولا أن سمع فجأة صوتا يصيح :

آه •• أيها الوحش القذر ! أوقفوه !

وأعقب ذلك هبوط سريع على السلم في الطبقة السفلى وصوت يصيح بجنون :

ـ ميتكا •• ميتكا •• ميتكا • ميتكا ليأخذك الشيطان

واعقبت الصرخات زمجرة مريعة استمرت حتى بلغت الساحة الخارجية ثم عاد السكون ، وفي نفس الوقت انبعث عدد من الرجال يتحدثون بأصوات مرتفعة وراحوا يصعدون بضجيج وصخب • قدر راسكولنيكوف أن يكون القادمون ثلاثة أو أربعة وغمغم « لقد أتوا !! » وبيأس واستبسال اتجه نحوهم وهو يقول لنفسه : ليكن ما يكون ! فأنا ضائع سواء أوقفوني أو تركوني ، أمر لأنهم سيذكرونني حتما !

لم يبقَ بينه وبين القادمين الا طبقة واحدة وفجأة لاح له الخلاص ••• رأى على مقربة منه الى اليمين مسكنا خاليا تماما وقد ترك بابه مفتوحا عرف فيه المسكن الذي يقوم العمال بترميمه وأدرك

أن أولئك العمال هم الذين خرجوا منذ قليل يتحدثون بأصوات مرتفعة وبدا له كأنهم تعمدوا ترك الباب مفتوحا ليتيحوا له مجال الاختفاء • وكان أرض المسكن ملطخا بالجير وفي وسط الغرفة صفيحة والى جانبها فرشاة كبيرة ووعاء فيه اصباغ • وبسرعة البرق انسل راسكولنيكوف الى الداخل والتصق بالجدار • ولم يكد يتوارى حتى وصل القادمون الى مكانه واستمروا يصعدون الى الاعلى وهم يتحدثون • وانتظر بضع ثوان ثم هبط مسرعا فلم يجد احدا في طريقه حتى بلغ الباب الرئيسي فنفذ منه الى الشارع •

كان يعرف انهم في تلك اللحظة قد بلغوا مسكن العجوز وانهم ذهلوا أمام الباب المفتوح الذي كان منذ لحظات متعصيا عليهم ورآهم بعين الخيال يتأملون الجثتين خلال دقيقة وأنهم توصلوا أخيرا الى الادراك بأن المجرم كان منذ قليل وراء هذا الباب المغلق وأنه نجح بوسيلة ما في الاختفاء والفرار تحت انوفهم • ولعلهم اهتدوا كذلك الى انه توقف لحظة في المسكن الخالي حينما كانوا يصعدون الى الطبقة الرابعة ••• لكنه ما كان يجرأ على حث خطاه رغم انه كان على بعد مائة خطوة من المنعطف الاول • كان يتساءل : « ماذا لو تسللت خلال احد المداخل واختفيت تحت واحد من هذه السلالم في بيت من هذه البيوت المجهولة ؟ » كلا ! سوف يؤذيني ذلك • اذن هل القي بفأسي في مكان ما ؟ هل استقل عربة ؟ كلا ! يا للتعاسة ! الويل الويل !

وأخيرا مر بزقاق فأنعطف فيه وهو يكاد أن يموت من الذعر• كان حاله يوحي بالشك وينطق به • لكن الازدحام كان شديدا فضاع فيه كما تضيع الذرة في صحراء من الرمل • وبلغ من انفعاله واضطرابه انه كان يسير على قدميه بمعجزة • وكان العرق يغمر وجهه ويتصبب على عنقه حتى أنه سمع بعضهم يهتف به حينما بلغ مدخل القنال :

يبدو لي أنك جلّد جم المقاومة !

وراح يهدأ اضطرابه كلما اوغل في السير ولمـــا بلغ الرصيف روع اذ رأى عددا قليلا من الناس هناك وخشي أن تكون مـلاحظته أسهل بين هذا العدد القليل وود لو رجع الى ذلك الزقاق المزدحم • واخيرا بذل مجهودا خارقا وقام بدورة وصل بعدها الى منزله عن طريق آخر •

لم تكن أفكاره هادئة تماما حينما تخطى مدخل البيت لذلك فـانه لم يتذكر الفأس الا عندما بلغ السلم وعندئذ فقط تذكر ان عليه اعادتها الى مكانها بسرية تامة • ولم يستطع اقناع نفسه بجواز التملص منهـا كيفما اتفق دونما حاجة الى اعادتها الى مكانها لان فكرة استبقائها زمنا آخر بانتظار القائها في باحة منزل مجهـول عندما تسنـح الفرصة لم تكن تعجبه •

وهنا تدخل القدر ايضا لانه رأى باب كوخ الحارس مغلقـــا فاتجه نحوه دون تفكير ولا تدبر ودفع الباب برعونة حتى ان الحارس لو كان في مكانه وسأله عما يريد لما زاد على ان يقدم لـه الفأس دون ان يتفوه بحرف واحـــد • لكن الصـــدف أرادت أن تضيـف الى ملابساتها العجيبة فعلا جديدا فلم يكن الحارس في كـوخه • وهكذا اتاحت له ان يعيد الفأس الى مكانها بين قطعتي الخشب كما وجدهـا بل واكثر من ذلك : استطاع ان يبلغ غرفته دون ان يقابل احـدا لان باب المطبخ « العتيد » كان مغلقا ••• هكـذا استلقى راسكولنيكوف بكامل ثيابه على « السرير » لا لينام بل ليستغرق في ذهول عميـــق حتى انه لو دخل بعضهم غرفتـــه لانتفض وانتصب واقفا وهـــو يصيح ويرتعد •

كانت صور وخيالات وافكار مبعثرة مشوهة تحتدم وتصطخب في رأسه لم يوفق في تمييز شيء منها ولم يستطع الأخذ بواحدة منها رغم الجهد العنيف الذي كان يبذله •

القســم الثاني

١

لبث مستلقيا وقتا طويلا •• وكان يبدو احيانا متنبهـا يدرك ان الليل قد اقبل وان قسما منه قد لف في حساب الزمن ، لكنه ما كـان يفكر في النهوض •• وأخيرا بدا له أن النور يعم الغرفة وان النهـار قد اقبل ، فلبث فيذهوله مستلقيا على « السرير » ووجهه الى الاسفل، بينما صكت اذنيه زمجرات مريعة صادرة من الشارع ••• كانت تلك الزمجرات مألوفة لديه من قبل لانها أصوات السكارى الذين يخرجون من الحانات صاخبين ••• فخمن ان الساعة قد جـاوزت الثانيـة صباحا ••• وقفز فجأة من « السرير » وكأن يدا انتزعته منـه وهتف: « كيف الساعة الثانية ؟•• » وجلس مستغربا وسرعان مـا عادت بـه الذاكرة الى الوراء فوعى كل شيء •

خيل اليه في اللحظات الاولى انه فقد العقل ، فسرت في جسده عربدة باردة من أثر الحمى التي بدأت تنهش عقـله وجسمه كمـا كانت تفعل به من قبل ••• واصطكت اسنانه حتى لكأنها تتحطم في فمه••• نهض الى الباب يفتحه ويصغي بانتباه فلم يسمع حركة ولا حساً ••• وكل من في البيت مستغرق في النوم • سرح طرفه في غرفته وعـاد ينظر الى نفسه واستغرب كيف أغفل اغلاق بـاب غرفته مـن الداخـل بالمزلاج عندما آب منجولته ••• وكيف سمح لنفسه بالارتماء بكامل ثيابه على « الديوان » دون ان يخلع حتى قبعته ! نظر الى القبعة فاذا بها قد انحدرت عن رأسه لتستقر على الارض حيث كانت « وسادته » وتمتم على عادته القديمة : « لو أن أحدا دخل غرفتي ماذا كان حري به ان يظن ؟ سيقول انني ثمل ولكن ••• » •

هرع الى النافذة وراح يتفحص ثيابه بدقة على الضوء القـوي

الذي كان يتدفق خلالها . لكنه سرعان ما استخف الطريقة التي يسلكها ... فنزع ثيابه وهو يرتجف ليقوم بالفحص اللازم . لم يترك ثنية الا وبحث خلالها ، ولا طية الا وسواها وبحث فيها وأعاد الفحص مثنى وثلاثا .. دون أن يجد لطخة واحدة باستثناء بضع نقاط تجمعت اسفل كم سرواله ، فأخذ سكينا كبيرا من النوع الذي يطوى وقطع ذلك الجزء من الثوب وهكذا بدا كأن كل شيء قد اختفى ...

تذكر فجأة حافظة النقود والاشياء الاخرى التي اخذها من صندوق العجوز والتي كانت في تلك اللحظة تملأ جيوبه ! لم يكن قد فكر في اخراجها والتخلص منها بل انه لم يفكر منذ قليل وهو يتحرى ثيابه ! كيف ذلك ؟ هل هذا معقول ؟ وبلمحة خاطفة ، بادر الى انتزاعها من جيوبه والقائها على المائدة ثم قلب بطانة جيوبه خشية ان يبقى فيها شيء لم يعثر عليه وحمل ما تراكم لديه منها الى زاوية من الغرفة ... وفي تلك الزاوية من الجدار ، كانت بعض القطع من سجاد الزينة معلقة وقد بليت وحال لونها حتى بات وجودها لونا من الوان البؤس الذي تفيض به الغرفة ، فحشر تلك الاشياء في ثغرة وراءها تحت الورق الباهت الذي يزين الجدار وتمتم : «هكذا... لن ترى ولن تعرف ... وسألحق المحفظة بها » .

شعر براحة بال وعاد يتأمل المكان الذي اخفى فيه مسروقاته ولم يلبث ان هتف : « يا الهي ... ماذا فعلت ؟ هل يسمى هذا مخبأ ... أهكذا يخبىء المرء ما يريد ؟ » ... والحقيقة انه لم يكن قد فكر في غير المال النقدي لذلك لم يكلف نفسه عناء البحث المسبق عن المخبأ المناسب ، واسترسل يدمدم :

— « لكن الآن ... نعم الآن ؟ هل لي أن أغتبط بهذه النتيجة ؟ هل هكذا تخفى الاشياء ؟ لا شك انني فقدت العقل ! » ..

ولما أعياه التفكير ، عاد الى السرير مرة ثانية يجلس عليه وعادت القشعريرة القاسية تهز جسده ... وبحركة آلية ، جذب اليه معطفه القديم الذي كان ملقى على « كرسي » هناك وتدثر به ، واستحوذ عليه الذهول فراح في بحران عميق وهو بين النوم واليقظة وفقدان الحس ! لكن ذلك لم يدم طويلا اذ لم تمضِ دقائق معدودة حتى انتفض من جديد وانحنى بارتياح يفحص ثيابه ، وزمجر خلال اسنانه المطبقة يقول :

ـ « كيف أسمح لنفسي بالنوم وأنا لم أنتهِ من عمل شيء ؟ لا شك انني لم انتهِ من شيء ... نعم لا شك ! وكيف ازعم ذلك وانا لم ارفع « الإنشوطة » من مكانها من المعطف » .

انتزع « الانشوطة » ومزقها قطعا صغيرة واودع القطع وسادته وهو يتمتم : « كيف غفلت عن هذا الاثر ؟ أما هذه القطع الممزقة من القماش فانها لن تثير الان اية شبهة ، او على الاقل هذا مايبدو لي ... نعم كذلك يبدو لي » . ووقف في وسط الغرفة وهو يجيل حوله نظرات محمومة واجفة فلم يترك الارض ولا الجدران الا وتفحصها بدقة ليتأكد من انه لم ينسَ شيئا .

كان شعوره بأن كل شيء بدأ يخونه حتى الذاكرة ، يؤلمه اشد الالم ويزيد في تعذيبه ، فدمدم مروعا : « ماذا ... هل يعقل ان يبدأ ذلك ؟ هل يعقل ان يكون العقاب قد بدأ يدب ليعمل عمله ؟ ويلاه ... ها هو ! .. ها هو ! .. انه هو . » كانت القطع الممزقة التي فصلها عن سرواله والتي كانت آثار الدماء عالقة فيها ، ملقاة باهمال على الارض عرضة لانظار اي داخل متطفل ! لذلك لم يتمالك ان هتف وهو فريسة القلق القاتل : « ماذا جرى لي ؟ .. ماذا حصل لي ؟ » .

خطرت له فكرة غريبة في تلك اللحظة: لعل تلك الثياب كلها ملوثة

بالدماء دون أن يلاحظ ــ هو ــ ذلك ، أم لعله لم يتمكن من العثــور عليها نظرا لحواسه الضعيفة الفانية وتفكيره السقيم القاتم ! وفجــأة تذكر ان حافظة النقود ملوثة هي الاخرى بالدم • فناجى نفسه قائــلا : « ••• وعلى ذلك فان الدم ينبغي ان يكون قد علق في جيبي كذلك لان الدماء لم تكن قد جفت عليها حينما اودعتها جيبي ! » •• وقرن القول بالفعل فقلب بطانة جيبه واذا عليها آثار واضحـــة من الدم فهتــف : « اذن ••• لم يهجرني التفكير السليم تماما •• لا زلت امتلــك قواي العقلية وحرية تفكيري والا لما توصلت الى هذه الاستنتاجــات ! » • ونذت عن صدره زفرة فرح وغبطة وراح يتذوق هذا الانتصار المبيــن ويحدث نفسه بقوله : « لم يكن ما شعرت به من قبل الا الضعف الذي تحدثه الحمى ••• كان لحظة ذهول فحسب » • ونــزع بطــانة الجيب الايسر كلها ! وفي تلك اللحظة نفذ شعاع من الشمس خلال النــافذة وسقط على حذائه الايسر ••• كانت بعض الآثار تبدو على مقدمـــة الحذاء ••• فغمغم : « ان مقدمة حذائي كلها مغموسة بالدم » ••• اي أنه في لحظة شرود ، وطأ بقدمه بر[illegible]جر بانفعال يقول: « ما العمل الان ؟ كيف اتخلص من هذا الان ؟ كيف اتخلص من هــذا الجزء من نعل الحذاء ومن بطانة الجيب ومن قطع السروال الملوثة ؟ » •

جمع تلك الاشياء كلها وحملها في يده ووقف منتصبــا في وسط الغرفة يجيل الطرف حوله مستطلعا منقبا وراح يتساءل : أفي المدفأة ؟ ولكنهم سيبحثون فيها قبل كل شيء ! أأحرقها ، ولكن كيف ؟ وبأي شيء وأنا لا أمتلك ثقابا ! كلا ••• الافضل أن ألقيها بعيدا ! » • وعاد الى « الديوان » وجلس عليه واسترســل يقــول : « ولكن الان ••• فورا ••• ودون تأخير ! » لكن رأسه سقطت مجددا على الوسادة يثقلها المرض والتعب والانهاك ومن جــديد أحس بالرعدة المتجمدة الأليمة تجتاح جسده المتداعي ••• ومن جديد جذب معطفه اليه يتدثر بــه •

واستمر وقتا طويلا فريسة فكرة واحدة تضرب على اعصابه باستمرار والحاح فكرة التخلص من تلك الاثار بأسرع ما يمكن ... كانت تتجسد امام ناظربه وفي خياله وتحدثه قائلة: « فورا ... فورا ... ».

حاول مرارا ان ينهض من « السرير » ولكنه كان يخفق في كل مرة. وسمع فجأة قرعا عنيفا على الباب وصوتا مزمجرا يقول :

ـ افتح ... هل انت ميت ؟ نعم أم لا ؟ أنت لا تحسن الا النوم.. انه ينام اياما كاملة كالكلب ! هيا افتح ... لقد تجاوزت الساعة العاشرة !

كان المتحدث ناستاسيا المخيفة ... ناستاسيا فحسب ! وسمع صوتا آخر يقول ـ لعله لبس في غرفته !

فانتفض راسكولنيكوف وقال يخاطب نفسه : « اللعنة .... هذا صوت الحارس ! ترى ماذا يريد ؟ شعر أن قلبه يكاد أن يبلغ فمه .... وقالت الخادم مزمجرة تجيب على تعليق الحارس :

ـ ومن الذي اغلق الباب بالمزلاج اذن ؟ أرأيت هذا ؟ انه يحبس نفسه الان ! هل يخشى ان يخطفه احد ! هيا افتح ... استيقظ ايها « اللوار » (١) .. استيقظ .

خاطب راسكولنيكوف نفسه قائلا : « ماذا يريدون ؟ لماذا الحارس ؟ لقد اكتشف كل شيء ! هل اقاوم ام افتح ؟.. ليذهبوا الى ... »

ونهض قليلا وانحنى نحو الباب فرفع المزلاج ... كانت غرفته من الضيق بحيث تسمح له أن يعمل ذلك دون أن يبارح مكانه ! ورأى أمامه الحارس وناستاسيا منتصبي القامة !

---

(١) ـ اللوار حيوان قارض ، يختفي طيلة الشتاء ويقتات بالبلوط يضرب به المثل لمن ينامون نوما عميقا .. المترجم

تفحصته ناستاسيا بنظرة غريبة ، أما هو فقد نظر الى الحارس نظرة ملؤها التحدي واليأس ! فمد هذا يده اليه وفيها ورقة سمراء مطوية ومختومة بالشمع الاحمر ! وقال وهو يسلمها اليه :

ـ انها دعوه جاءت من الدائرة !

ـ أية دائرة؟

ـ من دائرة الشرطة ! انهم يطلبونك ... الا ترى انها من دائرة البوليس !

ـ لست أدري ! انهم يدعونك فأذهب اليهم !.. ونظر اليه بأهتمام وألقى نظرة شاملة على المكان ثم انصرف .

قالت ناستاسيا دون ان تفارقه بنظرها :

ـ الست منحرف المزاج ؟ ان آثار الحمى بادية عليك منذ البارحة!

فلم يتحرك ولم يجب ، لكنه فض الدعوة التي سلمها اليه الحارس دون ان يلقي نظره على ما فيها بينما اردفت ناستاسيا وقد لانت لهجتها بعض الشيء وظهرت امارات الشفقة على وجهها : ـ حسنا ... لا تنهض ... واذا كنت مريضا فلا تذهب الى دائرة الشرطة فليس في الأمر ما يستدعي العجلة .. ما هذا الذي في يديك ؟

نظر الى حيث اشارت فرأى قطعة السروال الملوثة والجزء الذي انتزعه من « نعل » حذائه و ... بطانة الجيب الملوثة ! كان لا زال محتفظا بها في يده وقد نام وهي في يده لم يفلتها ! لم يفعل شيئا ... بل ضغط بشدة على تلك الاشياء في يده وارتمى على فراشه وهو بين الموت والحياة ... كانت الحمى تنهش جسده ومقاومته تضعف باستمرار . بينما استرسلت ناستاسيا تقول :

ـ أرأيت الى هذه الخرق والتفاهات يجمعها وكأنها كنز ثمين !

والأدهى من ذلك أنه ينام وهو ممسك بها ! وانفجرت في ضحكتها المكتومة وراح جسمها يهتز ويرتعد ويتلوى على الاثر !

اخفى راسكولنيكوف تلك « التفاهات » تحت معطفه بسرعة شأن البخيل الذي يدافع عن ثروته وحدجها بنظرة نفاذة ••• شعر وهو في شبه غيبوبة ان الامر ليس خطيرا كما توهم لانه لا يعقل ان يعامل امرؤ يراد توقيفه وسوقه بهذا الشكل ! وسمع ناستاسيا تخاطبه وكأن صوتها صادر عن مكان سحيق !

ـ ألا ترغب في قدح من الشاي ؟ سوف آتيك بقدح اذ لا زال بعضه في الاناء !

فدمدم دون ان يعي :

ـ كلا ••• سأذهب ••• أريد أن أذهب الى هناك • الى الدائرة فورا••• وهم بالوقوف • فخرجت دون ان تضيف كلمة واحدة •

هرع الى النافذة يعاين قطعة « النعل » والخرق الملوثة وقال : « انها ملطخة ولا شك ، ولكنها غير واضحة المعالم والفضل يعود الى الاحتكاك والطين اللذين جعلا اللون حائلا ••• وهكذا فان « ناستاسيا » لم تميزها عن بعد ! حمدا لله » ثم ادنى « الدعوة » من عينيه وراح يقرأ ••• لبث يقرأ ويتمعن برهة طويلة حتى فهم • كانت دعوة عادية جدا من مكتب مدير شرطة الحي « قوميسير » يطلب اليه فيها المثول في القسم في التاسعة والنصف من ذلك النهار !

أخذ يسأل نفسه قائلا : « ما معنى هذه الدعوة ؟ أنا شخصيا لا تربطني علاقات مع رجال الشرطة ••• ثم لماذا اليوم بالذات ؟ »

هم ان يجثو على ركبتيه مبتهلا الى الله ان يلهمه الرشد والسكينة من ذلك القلق المميت الذي استولى عليه ••• وتلاعبت على شفتيه

ابتسامة لم يكن مبعثها الرغبة في الصلاة بل الدوافع التي سولتها له . ارتدى ملابسه على عجل وهو يتمتم : « اذا خسرت نفسي فسحقا ... نعم لا يهمني ان اضيع ولا يمكن الا ان البس في قدمي هذا الحـذاء ولسوف تضمحل كل الاثار عندما يزداد اتساخا ! » لكنه لم يكد يدخل قدمه فيها حتى سحبها باشمئزاز وهلع . بيد انه فكر انه لا يملك زوجا آخر، فعاد يضحك وهو يتمتم: « لن يحصل شيء .. ها قد لبسته في قدمي... وفرغت منه » ! شعر ان ساقيه لا تحتملان فدمدم مستنتجا : « انـه الخوف » . واعقب وهو يشعر برأسه تدور بمعالم الاشياء تغيب عـن ناظريه : « انها خدعة ! انهم يتذرعون بالمكر ليستدرجوني ثم ينـالون مني نيلا وضيعا » . وتمالك نفسه بجهد خارق واتجه نحو السلم يهبطه وهو يقول : « المزعج في الامر انني في حالة هذيان او مـا يقربهـا ... وقد افلت بعض الحماقات عفوا » .

فكر وهو في طريقه الى السلم بالمسروقات التي خبأهـا في تـلك الثغرة من الجدار فغمغم : « لعلهم ينتهزون فرصة غيابي للقيام بتفتيش دقيق في حجرتي » . غير انه هز كتفيه دلالة على اليـأس والاستـلام للمصير وتابع طريقه وهو يقول : « ليفعلوا ما يبتغـون علني اتخلص من آلامي ! » .

كانت الحرارة في الطريق لا تحتمل كالعادة لان السماء شحت في تلك الايام الثلاثة الماضية فلم تهطل قطرة واحدة من المطر ... وعـاد منظر الجير والآجر والقرميد يصافح عينيه ويحدث في نفسه ذلك الاثر المقبض حتى أنه شعر بالدوار ... كذلك نفذت الى انفه رائحة العفـن وأبخرة الحانات القذرة وعاد يصطدم بالسكارى في كل خطـوة وحول كـل منعطف ! وهكذا عادت اليه اعراض الحمى كعادته كلما خرج في نهار شديد النور قوي الحرارة .

وصل الى المنعطف الذي سلكه أمس في ذهابه والقى نظرة قلقة نحو ذلك « البيت » ثم حول ابصاره وجهة اخرى • وغمغم يتساءل بوجل : « اتراني اعترف اذا سألوني في دائرة الشرطة ؟ » •

كانت دائرة البوليس على بعد ربع « فيرست » (١) من محل اقامته في الطبقة الثالثة من بناء حديث جدا • وقد اتيح لراسكولنيكوف ان يزور دائرة البوليس في مركزها السابق قبل ان تنقل الى المركز الجديد ••• أما هذا المركز فلم تكن لديه أية فكرة عنه •

اجتاز المدخل العام فاذا بسلم الى يمينه كان يهبط عليه في تلك اللحظة واحد من « الموجيك » وبيده كتاب • فغمغم : « لعله الحاجب وعلى هذا فان المكتب هنا » • صعد السلم شاردا دون ان يحاول الاستفسار عن وجهته من احد •

قال يخاطب نفسه : « سوف ادخل واركع على ركبتي واعترف بكل شيء ! » •

كان السلم ضيقا وشديد الميل مليئا بالماء القذر تفضي عليه مطابخ المساكن كلها التي تعمر بها « أدوار » البناء الثلاث وتبقى أبوابها مفتوحة طيلة النهار فتنتشر منها روائح مزعجة • وكان الحجاب لا يفتأون يصعدون ويهبطون وسجلاتهم تحت آباطهم ورجال الشرطة يعج بهم المكان بالاضافة الى قدر كبير من الاشخاص من الجنسين وكل ينتظر دوره ، وكانت الحرارة خانقة في الداخل يزيد في ضغطها رائحة الزيت التي كانت تنتشر من الغرف حديثة الطلاء حتى ليحس المرء بالغثيان • انتظر راسكولنيكوف لحظة وآثر بعدئذ الانتقال الى الغرفة المجاورة • كانت غرف البناء كلها صغيرة منخفضة ••• شعر بلهفة

---

(١) فيرست : ١٠٦٧ مترا .   المترجم

لا تقاوم تدفعه الى استباق الزمن وبلوغ غرفة المدير ليطمئن الى السبب الذي دعي من اجله • فلما دخل الغرفة الثانية شاهد نفرا من الكتبـــة منكبين على دفاترهم • ولم تكن ملابسهم افضل من ملابسه سألـــه احدهم قائـــلا :

ـ ما هي حاجتك ؟

ابرز راسكولنيكوف تذكرة الدعوة فلما قرأها الكاتب قال له :

ـ انت طالب علم ؟

فأجاب : ـ نعم طالب علم سابق •

تفحصه الكاتب بنظرة لا تنطوي على شيء من الضجر او الحقد •

كان رجلا اشعث الرأس بشع المنظر ذا نظرة ثابتة متحجرة ، اشار بيده الى الغرفة الاخيرة في المشى وقال :

ـ اتصل بأمين السر هناك •

اتجه راسكولنيكوف نحو الغرفة الرابعة والاخيـرة ، وكـانت ضيقة تعج بالمراجعين • كان الحاضرون افضل حالا ممن شاهدهم حتى تلك اللحظة في تلك الدار وكان بينهم سيدتان احداهما ترتدي ملابس الحداد متجهة بوجهها نحو احد الكتاب تملي عليه اقوالها • اما الاخرى ـ وكانت ضخمة الجسم ذات وجه زاهي اللون تشوهه لطخات من اثر مرض جلدي ، مفرطة الزينة تتدلى على صدرها حلية « بروش » تشبه الاناء ـ فانها كانت تجلس منفردة وكأنهـا تنتظر دورهـا • قـدم راسكولنيكوف الرقعة لأمين السر فنظر اليها نظـرة سريعة ثـم قـال باقتضـاب : ـ انتظر ••• وراح يتابع الاهتمـام بالسيـدة ذات الملابس السوداء •

تنفس راسكولنيكوف الصعداء وهو يتمتم : « لا شك ان الامر

لا علاقة له بقصة البارحة ! » واستعاد شجاعته وروعه وصفاء ذهنه وحضور بديهيته • وتمتم محدثا نفسه : « ان أية حماقة، بل ان أية خطيئة مهما بلغت تفاهتها تقضي علي ••• هم ! •• من المؤسف ان لا يكون هنا شيء من الهواء ••• اكاد اختنق والدوار يعاودني ••• » •

شعر في أعماقه بانقلاب مريع •• كان يخشى أن يفقد سيطرته على نفسه ! كان يحاول التمسك بشذرات افكار قلقة تضيق بها رأسه ولكنه يخفق ! وكان اهتمامه متجها الى « امين السر » ••• كان يحاول ان يستخلص شيئا اعتمادا على مظهره ، شيئا يستهدي به ويرتكز اليه •

كان امين السر شابا في الثانية والعشرين من عمره ، ذا وجه اسمر يبدو اكبر سنا من حقيقته ، مرتديا ثيابه على احدث طراز وبشيء من الأناقة ، ذا شعر مموج مضمخ مفروق في الوسط حتى مؤخرة الرأس، يلمع في أصابعه عدد من الخواتم وله يدان نظيفتان دقيقتان ، وتتدلى من جيب صدارته سلسلة ذهبية • سمعه يتبادل مع احد الاجانب وكان يجلس بالقرب منه حديثا باللغة الافرنسية ولاحظ انه يتكلم بطلاقة! وفجأة قال امين السر موجها حديثه للسيدة البدينة :

ـ هلا جلست يا لويز ايفانوفنا !

فجلست وسط حفيف ثوبها الحريري ذي اللون الصارخ بعد ان كانت واقفة لا تحاول الاقتراب من الكرسي القريب منها • وانتشرت ذيول الثوب الموشاة بالدانتيلا في شبه دائرة كبيرة وصلت الى منتصف الغرفة بينما تضوع عنه شذى عطر نفاذ • بدت السيدة مرتبكة بعض الشيء لاشغالها هذا الفراغ الكبير بثوبها الازرق السماوي وعبرت الابتسامة الباهتة التي ارتسمت على شفتيها تعبيرا واضحا عما يعتلج في نفسها من انفعالات ••• وفي تلك اللحظة انتهت السيدة ذات الثياب السوداء من عملها ونهضت تهم بالخروج فاذا بجلبة ترتفع وضابط

في هيئته ما يوحي بالشجاعة يدخل الغرفة وهو يمشي محركا كتفيه بحركة وتيرة تتناسق مع خطاه • القى الداخل قبعته المزينة بالاشرطة على المكتب وجلس على أريكة • نهضت السيدة البدينة باحترام حينما شاهدت الضابط وانحنت امامه انحناءة عميقة محيية فلم يكترث لها ولم يعرها التفاتة ولم تجرأ هي بدورها على الجلوس في حضرته فظلت واقفة • كان ذلك الضابط معاون رئيس القسم ذا شاربين كبيرين اشهبين يبرزان افقيا على جانبي وجهه وتقاطيع دقيقة تعبر عن شيء من الخشونة والتكبر • نظر الى راسكولنيكوف باحتقار ، وكان على حق اذا حكم على المظهر لان راسكولنيكوف كان زري الملابس الى جانب الارتباك والخجل اللذين لاحا عليه فكان مظهره الخارجي لا يتلاءم مع المستوى في تلك الغرفة • وشاء سوء حظ راسكولنيكوف ان ينظر بجرأة في عيني ذلك الضابط الذي شعر بنوع من الاهانة لتلك النظرة وادهشه وجود صعلوك في تلك الغرفة لا يفكر في غض بصره امام نظرته الصاعقة فصرخ يقول :

— ماذا تريد يا هذا ؟

فأجابه راسكولنيكوف بشكل ما :

— لقد استدعيت بناء على طلب •

وبادر أمين السر الى القول متخلصا من أوراقه :

— انه هنا بصدد المطالبة بالمال : « انه الطالب » !

ثم دفع نحو راسكولنيكوف دفترا واشار الى فقرة فيه وقال :

— اقرأ هذا !!

خفق قلب راسكولنيكوف فرحا وشعر براحة هائلة عميقة تفيض على نفسه • المال ؟ واي مال ؟ اذاً ليست الدعوة بصدد « ذاك » •

كان هذا محور تفكير راسكولنيكوف • شعر بأن الخمل الذي

كان يوقره قد ازيح عن كاهله . صاح به الضابط الذي استشاط غضبا دونما سبب وجيه :

ــ واية ساعة حددت لكم يا صاحب المعالي ؟ يطلب اليك ان تحضر في التاسعة وها نحن في العاشرة والربع .

لم يتمالك راسكولنيكوف نفسه فقد شعر بدوره بغضب مفاجيء يكتسحه ، غضب لم يترك مجالا لأية رغبة أخرى فصاح بصوت مرتفع:

ــ لم تعطِ الي « الرقعة » الا منذ ربع ساعة فقط . وانه لمجهود مني أن احضر أنا المريض المحموم .

ــ لا تصرخ هكذا !

ــ انا لا اصرخ! انا اتكلم بهدوء اما انت ، فأنت الذي تصرخ... وأنا طالب ولا اسمح لأحد أن يصرخ في وجهي .

ــ اخرس ، انك في محكمة وتلك سماجة يا حضرة السيد .

ــ وكذلك انت في محكمة مع ذلك فانك تصيح في وجهي وتدخن لفافتك واذا فأنت تحتقرنا جميعا .

شعر راسكولنيكوف بسرور بالغ وهو يتفوه بتلك الكلمات وكان امين السر ينظر اليهما باسما . اما الضابط فقد زاد غليانه حتى انه لبث برهة مشدوها ولما أسعفه النطق هتف بصوت غير طبيعي .

ــ هذا ليس شأنك . تفضل بالادلاء بافادتك التي تطلب منك . اره يا « الكسندر غريغوريفيتش » ! شكايات ضدك . انت لا تدفع ديونك مع ذلك فأنت تصيح وتحتج ...

ثم التفت الى امين السر وقال :

ــ ما موضوع الشكوى ضده ؟..

فأجاب امين السر مخاطبا راسكولنيكوف :

ــ انه مال يطلب منك ان تدفعه سدادا لسفتجة وبناء على الطلب .

فلك اما ان تدفع مع النفقات والغرامة الى آخره ، واما ان تصرح خطيا عن التاريخ الذي تستطيع الدفع فيه وبذات الوقت تتعهد بعدم مغادرة العاصمة وعدم بيع أو اخفاء شيء من ممتلكاتك قبل التسديد. أما الدائن فانه مخير بل ومجاز في ان يبيع ما تملك وان يتصرف ضدك وفقا للانظمة المرعية .

ـ ولكنني لست مدينا لأحد .

ـ ذلك ليس من شأننا . لدينا سفتجة موقعة بمبلغ مائة وخمسة عشر روبلا قدمتها السيدة « زارنيستين » ارملة احد مساعدي الكلية وقد رفعت الارملة « زارنيستين » تلك السفتجة الى المستشار الحقوقي « تشيباروف » وهكذا استدعيناك لضبط اقوالك .

ـ ولكنها صاحبة مسكني ؟

ـ وماذا يهم ان يكون صاحبة مسكنك ؟..

كان امين السر يتأمله وعلى وجهه ابتسامة مشفقة عطوف وقد التمعت في عينيه نظرة انتصار وكأنه يقول : « هذا غر وقد ارتج عليه » . ظل راسكولنيكوف واقفا يقرأ ويسمع ويجيب احيانا ، كل ذلك بشكل آلي . فهو لم يستطع الصمود لرد الفعل الذي حدث في نفسه : « هل كان يجدر استدعاؤه واقلاقه من اجل هذه التفاهة ؟ . سفتجة ... هل تستحق مثل هذه العناية » . كان يشعر شعورا غريبا بأنه افلت من خطر مريع وانه انقذ عنقه من القطع . وكان هذا كل ما يمثل في خاطره . نعم .. لقد نجا دون ان يعمد الى توقد ذهنه واللجوء الى تدابيره واحتياطاته التي صممها ودون ان تطرح عليه اية اسئلة . لكنه في تلك اللحظة انتزع من خواطره بفعل ارعاد الضابط وصياحه . كان في هذه المرة ـ وهو لا زال يعاني من آثار تحدي راسكولنيكوف له ـ يبحث عن ناحية أخرى يفثأ غضبه فيها ولم يجد غير « المرأة البدينة

المتبرجة » التي كانت لا تزال تنظر اليه بابتسامة بلهاء منذ ان احتقرها عند دخوله .

صاح بها يقول :

ـ آه .. هذا انت ! انت ايتها الـ ... الـ .. ماذا حصل عندك في الليلة الفائتة ? هه ? لقد عدت مجددا وصمة في جبين الحي الذي تقطنين فيه وعدت الى اثارة عراك في الشارع ? اذا خصام جديد وثمل ، ولسوف ارسلك الى اصلاحية ولقد انذرتك من قبل ... انذرتك عشر مرات وافهمتك انني لن احتمل المرة الحادية عشرة وها انت ذي قد عدت ايتها « الفاعلة التاركة »

كادت الورقة التي في يد راسكولنيكوف ان تسقط على الارض من الدهشة فنظر الى السيدة البدينة [illegible]ـة التي تلقاها دون ان تريم وادرك فورا اي نوع من النساء هي وبدت القصة له مسلية بعض الشيء فاصغى وفي نفسه رغبة في الضحك ... والانفجار مقهقها . فلقد كانت اعصابه كلها تهتز استجابة لهذه الرغبة. وكان امين السر يحاول تهدئة الضابط « اليابتروفيتش » وهو يعرف سلفا ـ لخبرته الطويلة به ـ ان تدخله لن يجدي وان من العبث وضع حد لغضبة الملازم اذ انفجر مرجل ذلك الغضب . اما السيدة المتبرجة فقد بدأت ترتجف عندما بدأ الضابط الملازم يبرق ويرعد ولكنه ـ لعظيم دهشته واستغرابه ـ وجد انها كانت تهدأ ويكسو وجهها الاطمئنان كلما ازدادت شتائم الضابط الملازم وسبابه قحة وعنفا . بل انها ابتسمت له ابتسامة جذابة ولم تزل تنحني أمامه منتظرة بفارغ صبر دورها في الكلام . ولما أراد الضابط ان يتنفس ليتابع حملته انتهزتها فرصة مواتية لتقاطعه بقولها :

ـ يا سيدي الرئيس (لاحظ كلمة الرئيس) لم يحدث عندي

لا عراك ولا معارك ولا فضيحة • كل ما في الامر نوع من الثمــل وسأحدثك كيف وقع ذلك يا سيدي الرئيس ! انها ليست خطيئتي••• ان منزلي محترم يا سيدي الرئيس !.والرواد يتصرفون تصرفا نبيــلا يا سيدي الرئيس ! ولم يحدث ابدا ابدا ان وافقت على حــدوث فضيحة ••• وقد جاءني ذلك الرجل ثملا يترنح وطلب ثلاث زجاجات ثم رفع ساقيه في الهواء وراح يعزف بهما على « البيان » فهل هــذا تصرف نبيل في منزل شريف ؟ لقد اعطب « بياني » فقلت له ان تصرفه لا يروق لي وعندئذ اخذ زجاجة وراح يضرب الموجودين بها علــى أقفيتهم ، فناديت الحارس « فورنيك » فجاء وضرب الرجل « كارل » فخدش احدى عينيه وكذلك خدش عينا لهنــريت وصفعني خمساً • وازاء هذا التصرف غير اللبق وخصوصا في منزل محترم كمنزلي لــم اتمالك ان استنجدت يا سيدي الرئيس ؟ فمضى الرجل الى النــافذة المطلة على القنال وراح يزمجر كالخنزير الصغير حتى خجلت منــه اذ كيف تجوز الزمجرة كالخنزير أمــام النافــذة ؟ في •• في •• في ••! جذبه كارل من معطفه ليرغمه على مغادرة النافذة وهنا ـ والحــق يقال ـ مزق له ثوبه وعندئذ راح يصرخ ويحتج مطــالبا بعطل وضرر قدره خمسة عشر روبلا قيمة « فراكه » الممزق وأنا لم أدفع له يا سيدي الرئيس الا خمسة روبلات ثمنا لذلك الثوب ، كل هذا جرى في منزل محترم احدث فيه هذه الفضيحة • وقد هددني بانه سيكتب ضدكــم هجاء كبيرا وينشره في الصحف مدعيا انه على اتصال بها جميعها •

ـ هيه ! •• اذا فهو كاتب ؟

ـ نعم يا سيدي انه انسان خشن وجريء فوق ذلك لانه لــم يخش وهو في منزل شريف ••

ـ هيا هيا هيا •• كفاني ما سمعت لقد قلت لك وكررت•••

وهنا تدخل امين السر من جديد وهتف بالضابط «اليا بتروفيتش» معاتبا فنظر هذا اليه نظرة سريعة قابلها امين السر بايماءة من رأسه وتابع :

ـ حسنا ... فيما يتعلق بك يا لويز ايفانوفنا المحترمة فاليك كلمتي الاخيرة وللمرة الاخيرة : اذا حدث ان وقعت فضيحة جديدة في بيتك المحترم فلسوف اصعدك بنفسي الى « سلة السلطة » (١) كما يقال باللغة الفصيحة . فهل سمعت ؟ اذا انه اديب كاتب ذلك الذي قبل في « منزل محترم » خمسة روبلات لقاء ذيل « فراكه » .. مرحى لاولئك الكتبة ...

والقى على راسكولنيكوف نظرة احتقار واردف :

ـ اول امس في حانة ، وقعت حادثة مع واحد من اولئك الادباء فقد تناول الطعام ورفض الدفع وهدد صاحب المطعم بهجوه في الصحف . وكان آخر على باخرة منذ ثمانية ايام فسب وشتم بكل الكلمات عائلة من ارفع العائلات واعرقها شرفا : زوج وابنة مستشار في الدولة وكذلك طرد واحد منهم منذ ايام من دكان حلوي . هكذا هم هؤلاء الادباء الكتاب الطلاب ... بوه !

وعاد الى السده يصيح بها :

ـ اما انت فارحلي من هنا وسأراقبك بعين لا تغفل فحذار حذار ! هل سمعت ؟

حبث لويز ايفانوفنا وانحنت للحاضرين جميعهم بحركة رشيقة ! ثم اتجهت نحو الباب وهي تتراجع وتنحني تحاول الخروج . غير انها اصطدمت صدمة عنيفة بضابط ذي وجه مشرق وضاء يزين وجهه

---

(١) يقصد عربة السجن . المترجم

سالفان اشفران ... كان ذلك الضابط هو « نيكـوديم فوميتش » بالذات رئيس القسم « قوميسير » . فبادرت لويز ايفانوفنا الى الانحناء امامه حتى كادت ان تلمس الارض ثم غادرت الغرفة . اما الضـابط فقد راح يقول بصوت ناعم لطيف يحمل معنى الود موجها حديثه الى مساعده اليابتروفيتش :

ــ لقد اثارك مجددا يا عزيزي اليا بتروفيتش ! نعـم كنت ثائرا وقد سمعت من السلم . فأجابه اليابتروفيتش وهو ينتقل من طاولـة الى اخرى حاملا اوراقه معه ومحركا كتفيه على عادته :

ــ ما العمل ؟ انظر هذا : ان حضرة السيد كاتب ، طـالب او بالاحرى طالب سابق غير انه لا يسدد ديونه ، ويوقع على سفاتـج ويرفض اخلاء المسكن فتنهال علينا شكايات مستمرة ضده واذا بـه يحتج لانني ادخن لفافتي في حضرته ومع ذلك تمعن فيه : هذا هو في اروع بهائه !

غير ان نيكوديم فومينش قال مقاطعا :

ــ ان الفقر ليس عيبا يا صديقي لكننا نعلم انك من البـارود لا تحتمل الاذية .

ثم خاطب راسكولنيكوف قائلا :

اري انك اثرت حفيظته ولم تسيطر على اعصابك وقد اخطـأت يا صاح لان اليابتروفيتش من زبدة الرجال وخيرتهم اؤكد ذلـك .. الا انه ناري المزاج كالبارود يشتعل ويثور ثم يخمد ولا يبقى مـن ثورته شيء ! ان له قلبا من ذهب وقد اطلق عليـه في الفرقـة لقب « الملازم البارود » .

هتف اليابتروفيتش وقد سره ثناء رئيسه وارضى غروره :

ـ ويا لها من « فرقة » تلك ...

شعر راسكولنيكوف باغراء ليقول شيئا جميلا مناسبا فوجد نفسه يقول بصوت واضح :

ـ العفو يا سيدي الرئيس ... لكن ضع نفسك مكاني ! مع ذلك فأنا على استعداد للاعتذار اليه اذا كنت قد غمطته حقه من الاعتبار . أنا طالب فقير مريض أنوء بالفاقة (وقد استعمل عامدا كلمة انوء) نعم ... انا طالب سابق لانني اليوم لا املك وسائل المعيشة اللازمة للاستمرار في الدراسة . لكن أمي وأختي اللتين تسكنان مقاطعة «ايكس» .. سترسلان الي مالا قريبا ولسوف أدفع. أما صاحبة المسكن الذي اقطنه فهي سيدة نبيلة ازعجها ان اخسر دراستي وان انقطع عن دفع ما علي منذ ستة اشهر فامتنعت خلال هذه المدة عن تقديم الطعام الي ولست أفهم سبب هذه المعاملة ! وها هي ذي تصر الان على أن ادفع لها مستعينة بهذه السفتجة ، فاحكم بنفسك .

وتدخل أمين السر من جديد ليقول :

ـ لكن هذا ليس من شأننا ..

لكن راسكولنيكوف تابع حديثه دون ان يعبأ بملاحظة امين السر :

عفوا ، عفوا ، أنا من رأيك . ولكن دعوني من جانبي اشرح لكم: انني اقطن عند السيدة « زارنيستين » منذ ثلاث سنوات وهو الوقت الذي مضى علي هنا منذ ان تركت المقاطعة التي جئت منها . وفي البداية ... اقصد في بادىء الامر ... ـ ينبغي ان اعترف ـ بانني بدوري وعدتها بان اتزوج من ابنتها . كان وعدا شفهيا فحسب لان الفتاة كانت تعجبني رغم انني لم اكن اعشقها وبكلمة واحدة اقول انه الشباب ! هذا ما دعا صاحبة المسكن ان تقرضني بسخاء وكنت اعيش حياة وديعة مسلية ...

كان راسكولنيكوف يتحدث غير مبال بأمين السر • كان يخاطب نيكوديم فوميتش وحده ولقد اراد حينا ان يشرك الملازم اليابتروفيتش في الحديث غير ان هذا تشاغل بفحص اوراقه معرضا عنه باحتقار • ولما بلغ هذا الحد من كلامه قاطعه اليا بتروفيتش بجفاء قائلا :

ــ لم نكن نطلب منك هذه التفاصيل الخاصة أيها السيد وليس لدينا الوقت للاستماع اليك •

فأوقفه راسكولنيكوف باشارة من يده وتابع قصته بحماس رغم ما شعر به فجأة من صعوبة في الاستمرار •••

ــ لكن لو سمحت ، ينبغي ان اطلعكم على سير الامور بالترتيب رغم عدم نفع التفاصيل واهتمامكم بها • منذ عام توفيت تلك الفتاة متأثرة « بالتيفوس » ولبثت انا مستأجرا عند السيدة التي احتلت منذ ذلك الحين الشقة التي تقطنها الان وقالت لي بتودد ان لها ملء الثقة بي لكنها ترجوني أن أوقع لها تلك الورقة اوردت فيها حسب تقديرها مجموع الدين الذي لها بذمتي واردفت ــ بعد ان وقعت بناء على طلبها ــ بأنها ستستمر على أقراضي في الوقت الذي أشاء وانه يستحيل ــ نعم هذه هي الكلمة التي استعملتها ــ يستحيل ان تستثمر توقيعي على تلك الورقة بل انها تترك لي الحق في ان ادفع متى اشاء ••• والان وقد اضعت دروسي وغدوت لا املك ما اتبلغ به تأتي هي وتشكوني فماذا نطلق على هذا ؟

فقال له اليابتروفيتش بلهجة حاسمة مهينة :

ــ ان كل هذه التفاصيل الدقيقة الشخصية لا تهمنا ايها السيد اننا نطلب منك ان توقع على التصريح والتعهد فحسب • اما وانك كنت عاشقا او غير عاشق الى آخر تلك الملابسات المؤسية فليس

لنــا الا ...

فقاطعه تيكوديم فوميتش مغمغما وهو يجلس وراء مكتبه وكأنه خجل من تصرف مساعده :

ــ هيه ! انت تقسو قليلا .

وقال امين السر مخاطبا راسكولنيكوف :

ــ اكتب ! ..

فسأل هذا بلهجة خشنة :

ــ وماذا اكتب ؟

ــ سوف املي عليك .

لاحظ راسكولنكوف أن أمين السر يعامله بمزيد من الاحتقار والاشمئزاز بعد اعترافه ذاك ولكنه كان يشعر في اعماقه باستهتار لما قد يتخذه غيره ضده من الاجراءات ويستخلصه من الاستنتاجات . وقد طرأ عليه ذلك التحول في خلال لحظة خاطفة حتى انه لو فكر قبل أن ينطق بما نطق لاستنكر على نفسه تصرفها ولأدهشه اشراكهم في عواطفه ودخائله ... تلك العواطف التي لا يدري من اين جاء بها . كان يشعر في تلك اللحظة انه لو استبدل من في الغرفة من رجال الشرطة بأصدقاء اعزاء على نفسه لما وجد في مقدوره ان يتلفظ بكلمة انسانية واحدة يعرب بها عن احساساته حيالهم ... لقد غدا قلبه فارغا تماما وعاوده الاحساس القاتم بالوحدة .. الوحدة العميقة القاسية التي تنخر كيانه . لم يكن مرد ذلك الانقلاب النفسي دناءة الاعترافات العاطفية التي اوردها على مسامع اليابتروفيتش او الانتصار البشع الذي سجله ذلك الملازم عليه ، فقد شعر بأن دناءته وغرائزه والضباط والالمان والسفاتج والدوائر وكل ما هناك لا يمكن ان يثير اهتمامه في شيء حتى انه كان ما كان ليطرف بعينه استغرابا او استنكارا لو

سمع انهم يحكمون عليه باحراقه حيا، بل انه ما كان ليلقي بالا الى ذلك الحكم لو صدر . كان ما يشعر به جديدا كل الجدة ، عاملا خفيا لم يسبق له أن شعر بمثله من قبل . عاملا لم يفهمه بل شعر به فقط وأحس بتأثيره . انه يدعوه بل يستصرخ احساساته بان لا ينبغي له ان يخاطب هؤلاء الناس ، هؤلاء الموظفين من الشرطة ليس في مشاكله وعواطفه كما فعل منذ حين فحسب بل في اي شيء حتى انه لو استبدل هؤلاء الموظفون باقرب واعز اقربائه ، باخوانه واخواته ، لما وجد في نفسه دافعا الى مخاطبتهم .

وبينما كان فريسة لهذا الشعور المؤلم الذي لم يعهد بمثله كان امين السر يملي عليه صيغة الاعتراف المعمول به في مثل تلك الحالات « لا استطيع الدفع واعد بالتسديد بتاريخ كذا . لن ابرح هذه المدينة ولن ابيع او امنح ما امتلك الخ .. » ولاحظ امين السر بفضول ان القلم قد سقط من يد راسكولنيكوف فهتف به :

— ارى انك لن تستطيع الكتابة ! فهل انت مريض ؟
— نعم ان بي دوارا ... استمر
— هذا كل شيء ، وقع بامضائك

وسحب امين السر الورقة الموقعة وانصرف الى اعمال اخرى بينما اعاد راسكولنيكوف القلم ولكن بدلا من ان ينصرف اسند مرفقيه الى الطاولة وضغط رأسه بين يديه . كان يشعر كأن مسمارا قد غرس في جمجمته واحس برغبة غريبة تدفعه الى القيام فورا والاقتراب من نيكوديم فوميتش والاعتراف له بالتفاصيل الدقيقة ، بما عمل البارحة ، ثم مرافقته حتى مسكنه ليطلعه على الاشياء التي اخفاها في تلك الثغرة وراء السجادة المهلهلة . كان الاغراء عنيفا حتى انه نهض من مكانه لينفذ ما جال في خاطره . وحدث نفسه خلال

ذلك الذهول العظيم : « اولا يجدر بي ان امعن النظر دقيقة اخرى ؟ ولكن كلا ! من الافضل ان اعمل دون ان افكر فأزيح هذا العبء الثقيل ! » وتسمر في مكانه برهة :

كان نيكوديم فوميتش يتحدث بحرارة الى اليابتروفيتش وبلغت مسامع راسكولنيكوف العبارات التالية :

ـ ذلك لا يمكن ان يحدث ، سوف نطلق سراحهما معا لان القضية معقدة متناقضة ولك أن تحكم بنفسك • لم يستدعيان البواب لو انهما فعلا ذلك ؟ ألكي يشيان بنفسيهما ام اغراقا في الخداع ؟ كلا ، ذلك لا يمكن ان يكون مكرا ! ثم ان ذلك الطالب « بيسترياكوف » شوهد من قبل امرأة وبوابين قرب المدخل الرئيسي في اللحظة التي وصل بها وكان برفقة ثلاثة من اصدقائه ودعهم عند الباب طالبا اليهم الانتظار • ولقد استفسر عن العنوان بحضور اصدقائه فهل كان يعمل ذلك لو انه جاء ينفذ تلك الفعلة ؟ اما « كوخ » ذاك فقد امضى نصف ساعة عند بائع حلي في الشارع قبل ان يصعد الى مسكن العجوز وكانت الساعة الثامنة الا ربعا تماما حين خرج من لدن الجوهري متجها اليهما فاحكم الان •

ـ لكن اسمح لي ، كيف يمكن ان تتناقض عبارأتهما بهذا الشكل ؟ فهما يؤكدان انهما قرعا الباب فوجداه مغلقا ثم بعد ثلاث دقائق عادا مع الحارس فوجدا الباب مفتوحا •

ـ لا شك ان هنا نقطة السر ! فالقاتل بالتأكيد كان مختفيا داخل المسكن مغلقا على نفسه الباب بالمزلاج لولا حماقة « كوخ » الذي انصرف من مكانه ليستدعي الحارس لاكتشفه حتما • استطاع القاتل خلال هذه الفترة ان يهبط السلم وان يتسلل تحت انوفهم على شكل من الاشكال ثم ان « كوخ » كان يقول ملوحا بيديه الاثنتين : لو أنني

لبثت هناك لتخرج الي فجأة ولتقتلني بفأسه •

ـ مع ذلك لم يشاهد القاتل أحد !

ـ وكيف يشاهدونه والبناء سفينة نوح حقيقية ؟••

كانت هذه الملاحظة صادرة عن امين السر الذي كان يصغي الى حديثهما بانتباه • واسترسل نيكوديم فوميتش بحرارة :

ـ ان القضية واضحة ، واضحة !

غير ان اليابتروفيتش اصر على قوله :

ـ كلا ! ان القضية ليست واضحة ابدا •

رفع راسكولنيكوف قبعته واتجه نحو الباب ولكنه لم يبلغه ••• وعندما استرد وعيه رأى نفسه جالسا على « كرسي » والى جانبيه شخصان يمسكان به ليمنعاه من السقوط وفي يد أحدهما كأس فيها ماء اصفر اللون بينما كان نيكوديم فوميتش واقفا امامه ينظر اليه بحدة • فنهض من مكانه وابتدره نيكوديم فوميتش بلهجة خشنة :

ـ ما بالك ؟ أأنت مريض ؟

واعقب امين السر قائلا وهو يعود الى اوراقه :

ـ كان لا يكاد يضبط اعصابه حينما كان يكتب الاقرار حتى ان القلم كان يتحرك في يده بصعوبة •

وهتف اليابتروفيتش من مكانه وهو يرتب اوراقه :

ـ أأنت مريض منذ بعيد ؟

فغمغم راسكولنيكوف :

ـ منذ امس •

ـ لكنك لم تكن امس في مسكنك • هل خرجت منه ؟

ـ نعم لقد خرجت •

ـ وانت مريض ؟

ـ نعم وانا مريض ••

ـ وكم كانت الساعة ؟
ـ حوالي الثامنة مساء •
واين ذهبت واسمح لي بسؤالك
ـ الى الشارع •
ـ يا لها من اجابة قصيرة وواضحة •

كان راسكولنيكوف شاحبا لا حياة فيه وكان يجيب باقتضاب وبصوت مضطرب دون ان يغضي بطرفه او ان يشيح بعينيه السوداوين الملتهبتين امام نظرة اليابتروفيتش الذي قال بلهجة غريبة :

ـ لا ••• بأس ••• عليك •!

واراد نيكوديم فوميتش ان يضيف شيئا غير ان امين السر نظر اليه نظرة حافلة بشتى المعاني فصمت وسكت الباقون مما ادهش راسكولنيكوف خصوصا عندما سمع اليابتروفيتش يقول :

ـ هيا لا بأس لن نستبقيك اكثر من ذلك •

انسحب راسكولنيكوف واستطاع وهو في طريقه الى الباب ان يسمع احتدام الحديث بين الضابطين وامين السر وبلغه صوت نيكوديم فوميتش يطرح بعض الاسئلة ولما بلغ الشارع استعاد هدوءه فهتف قائلا :

« تفتيش ! تفتيش ! ، لسوف يفتشون مسكني ، اولئك الاشقياء انهم يشتبهون بأمري » وعاد الرعب يستحوذ عليه من رأسه حتى اخمص قدميه •

٣/

كان يتساءل : « ماذا ؟ يكون لو ان التفتيش قد وقع بالفعل ؟ سوف اراهم حتما في غرفتي الان »

لكنه بلغ غرفته فلم يجد فيها احدا حتى ناستاسيا نفسها لم تكن قد مست شيئا . هتف :

ـ رباه ! كيف تركت كل هذه الاشياء في مخبئها ؟

هرع الى المخبأ فأدخل يده وراء السجادة المعلقة واخرجها حاملة المسروقات ثم حشرها في جيبه وهو يعدها : ثمانية ، بينها علبتان صغيرتان تحويان اقراطا للاذن او شيئا من هذا القبيل لم يحاول التدقيق فيه ، ثم اربع علب اخرى مغطاة بقماش « الماروكان » وسلسلة ملفوفة في ورقة انتزعت من صحيفة يومية واشياء اخرى مشابهة ولعلها اوسمة ذهبية ملفوفة كذلك بورق الصحف . وزع هذه الاشياء على جيوب معطفه والجيب الوحيد الذي بقي له في سرواله ساعيا ان لا يظهر لها حجم واضح ثم اضاف اليها حافظة النقود وخرج من غرفته تاركا بابها مفتوحا على مصراعيه .

سار بخطى حثيثة متزنة رغم ضعفه وشعر بصفاء في ذهنه : كان يخشى تسللا ، ويخاف ان يداهم او ان يفتح تحقيق معه خلال نصف ساعة او ربع ساعة وعلى ذلك فان عليه ان يخفي الادلة الجرمية . نعم ، يجب ان ينتهي من كل هذا طالما انه يحتفظ ببعض القوة وصفاء الذهن ! ولكن الى اين يذهب ؟..

كانت هذه النقطة مبحوثة من قبل ومقررة : « سألقي بهذه الاشياء في القنال ولسوف تمضي هذه الادلة الثبوتية الى الماء حاملة معها المسألة كلها » تلك كانت فكرته في الليلة السابقة عندما كان

في ذهوله وهذيانه يهتف خلال لحظات الاشراق التي كانت تتخللهما : « ينبغي الخلاص من هذا بالسرعة الكلية » وبدت له القضية الان اسهل مما كانت عليه بالامس .

امضى ربع ساعة وربما اكثر وهو يذرع ضفة قنال « كاترين » ويعاين السلالم التي تهبط الى المرافىء المنخفضة كلما لقي واحدا منها . لكنه لم يفكر في تنفيذ مشروعه خلال ذلك الوقت لانه كان يلتقي تارة بزورق واخرى بنسوة يغسلن الملابس ، او كان يصادفه مراكب مثبتة الى الرصيف ، وكانت الارصفة تعج بالناس والمكان مكشوفا يصعب فيه اجتناب نظرات الفضوليين . سيكون غريبا ان ينحدر انسان عمدا وان يتوقف ليلقي باشياء الى الماء ... ثم هل يعقل ان تغوص تلك العلب المصنوعة من القماش في الماء ؟ واذا طفت ـ وهذا ما سيحدث ـ فلسوف يراها كل الناس . بل ان كل من صادفهم حتى الان كانوا يمعنون النظر فيه كما لو لم يكن لديهم ما يشغلهم الا هذا . خاطب نفسه قائلا : اليس هذا بفعل الوهم ؟ اهو حقيقة ؟

واخيرا خطرت له فكرة جديدة : ان يلقي بتلك الاشياء في مكان ما من « النيفا » ! فهناك سيكون الازدحام اقل ولن يلاحظ فعلته احد وستكون العملية اسهل لانها بعيدة عن مكان الحادث . ادهشه ان يكون قد امضى اكثر من نصف ساعة فريسة للقلق والاضطراب وهو يطوف في تلك الامكنة الخطيرة : كيف يضيع مثل هذا الوقت الثمين محاولا تنفيذ مشروع جنوني بدا له خلال فترة ذهوله وهذيانه امس ؟ لا شك انه اصبح ساهما شديد النسيان وهو يشعر بذلك .

توجه نحو نهر « النيفا » مجتازا شارع « ف » ... وفي الطريق خطرت له فكرة اخرى : « لماذا في « النيفا » ؟ لم التي بهذه الاشياء

الى الماء ؟ او ليس من الاصوب ان امضي الى اي مكان آخر بعيدا عن هنا ولنقل الجزر مثلا ؟ لسوف ابحث هناك عن مكان قصي منعزل في حرش مثلا او تحت شجرة ، وسأدفن كل هذه الاشياء بعد ان اميز الشجرة التي اخفي كنزي تحتها ؟ » وعلى الرغم من ايمانه بان حالته لا تسمح له بالحكم على الاشياء حكما مدروسا قويا ، الا ان تلك الفكرة بدت له قوية ومعقولة .

بيدَ انه لم يبلغ الجزر . ذلك انه بينما كان ينطلق من شارع (ف) ... نحو الميدان ، لمح الى اليسار ساحة محاطة بجدار من كل جهاتها ، والى يمينها مباشرة بعد باب مدخلها الرئيسي ، يرتفع جدار من الحجر المجرد لبناء ذي اربع طبقات . اما في الجانب الايسر قبالة ذلك الجدار اعتبارا من المدخل الرئيسي ، فقد قام حاجز من الخشب بطول عشرين خطوة ينعطف فجأة . كان المكان قاحلا وقد القيت فيه اشياء كثيرة مهملة : وفي صدر الساحة برزت زاوية مرآب مشيد من الحجر المتسخ ، وخمن راسكولنيكوف ان هناك في مكان ما من تلك الفسحة تقوم دكان حداد أو صانع أقفال أو عجلات بدلالة الغبار الاسود الذي ينجم عن الفحم والتي كانت الارض مغطاة به ، فهتف يقول فجأة : « هذا هو المكان المناسب حيث ينبغي ان القي فيه بما معي وانصرف» .

لم يشاهد احدا هناك ، فتخطى المدخل ولاحظ بالقرب من الباب ميزابا كالذي يشاهد مثله في أبنية المصانع والمعامل . وفي أعلى الميزاب غرست لوحة كتب عليها بالحكك : « ممنوع الوقوف هنا » . قدر راسكولنيكوف انه لن يتبادر الى ذهن اي مخلوق انه جاء الى هنا . فخاطب نفسه قائلا : « سوف اتخلص من هذه الاشياء دفعة واحدة هنا وسأمضي بعد ذلك »

القى نظرة اخيرة على ما حوله وهو يغيب يده في جيبه ، فلاحظ

قرب الجدار الخارجي بين الباب والميزاب ، حجرا كبيرا يزن عشرين رطلا على اقل تقدير ، مسندا الى الجدار بمحاذاة الشارع • وكـان الرصيف يأتي مباشرة وراء الجدار ، فتناهى الى اذنيه وقع خطوات • غير انه لم يرَ احدا ، وتأكد من ان احدا لن يستطيع رؤيته من الخارج إلا اذا تخطى الباب ، وهذا محتمل ، لذلك فان السرعة واجبة •

انحنى على الحجر يحتضنه من أعلاه بكلتي يديه • واستنجد بكل قواه حتى ازاحه من مكانه فاذا به يخفي حفرة غير عميقة القى فيها بما في جيوبه ووضع الحافظة فوقها دون ان تمتلىء واعـاد الحجر الى مكانه بعد ان سوى الارض حوله ومحا كل الاثار التي قد تشي بمـا فعل ، ثم القى نظرة اخيرة ليتأكد من حسن صنيعه ، فرأى ان الحجر لا يكاد يبدو عليه تبدل مركزه ، وتأكد انه من المستحيل تخمين ما فعل•

خرج من الساحة واتجه نحو الميدان وهو يشعر بمثل ذلك الفرح الطاغي الذي استولى عليه منذ حين [illegible] الشرطـة • هتـف يناجي نفسه « لقد دفنت الادلة الجرمية فمن •• من ذا الذي يخطر له ان يبحث عنها تحت ذلك الحجر ؟ انه في مكانه منذ ان بنيت تلـك الدار وسيبقى طويلا حيث هو • ولو افترضنا ان تلـك الاشياء سوف تكتشف فمن ذا الذي يفكر في انا ؟ نعم لقد انتهى كل شيء ولم تبقَ هنالك أدلة » وراح يضحك وقد تذكر فيما بعد أنـه ضحك بعصبية ضحكة طويلة مكتومة ، وانه لبث يضحك طوال الوقت الذي استغرقه في اجتياز الميدان • ولما بلغ الى شارع « ك » ••• حيث التقـى اول امس بتلك الفتاة المخمورة ، بتر ضحكته بل انها تلاشت وحل محلهـا تفكير من نوع آخر • خيل اليه فجأة انه يشعر بدافـع عنيف للمـرور قرب ذلك المقعد الذي كان يجلس عليه لما انصرفت الفتاة ، وخشي ان يقابل رجل البوليس ذا الشاربين الكبيرين الذي اعطاه ذلك اليـوم

عشرين « كوبيكا » • وزمجر : الى الشيطان •

راح يمشي وهو يتلفت ساهما ذات اليمين وذات الشمال وتركزت افكاره كلها في نقطة رئيسية او على الاقل خيل اليه انها رئيسية • رأى نفسه في تلك اللحظة وحيدا امام تلك الفكرة الرئيسية، وحيدا لاول مرة منذ شهرين ، قال يحدث نفسه : « ليحمل الشيطان كل هذا • طالما انني بلغت هذا الحد فلابقّ حيث انا وليحمل الشيطان الحياة الجديدة ، رباه كم هو سخيف كل هذا !•• كم كذبت وتوسلت اليوم ! كم تصرفت بدناءة امام ذلك البغيض اليا بتروفيتش ! لكن ماذا يهم ؟ لست ابالي بهم لا ابالي بالتذلل الذي بدا علي امامهم • ليس هذا ما يشغلني • طبعا ليس هذا » •

توقف فجأة وقفز امام عينيه سؤال جديد كل الجدة ، غير منتظر ومع ذلك بسيط غاية في البساطة ، حيره واربكه :

« لو ان كل ما وقع وحدث كان بدافع حقيقي وليس بسخف وغباء ، لو انه كان لديك هدف واضح مسطر محدود ، فكيف لم تلق حتى الان نظرة واحدة على ما بداخل الحافظة ، كيف تجهل ما عادت به عليك فعلتك ؟ كيف سببت لنفسك كل هذه الالام وارتكبت تلك الفعلة البغيضة الشديدة النذالة ولاي سبب ؟ كيف تبادر الى ذهنك منذ قليل ان تلقي بتلك الحافظة والحلي الى الماء وانت لم تكد تمعن النظر فيها ؟ ما معنى هذا اذا ؟ »

هذه هي النقطة الرئيسية التي تركز فيها السؤال المحير الاليم • كان يعرف سلفا انه حق وان السؤال لا يحمل شيئا جديدا يجهله : قرر التخلص من تلك الاشياء في الليلة الفائتة بالقائها الى الماء وكان يود لو نفذ ذلك دون تردد ولا امهال • ولكن كيف اذا وجب عمل ذلك ــ وانه لواجب ــ كيف اذن فعل ما فعل ؟•

كان يعرف كل هذه الاشياء ويتذكرها ، ان تلك الفكرة ـ فكرة التخلص من هذه الاشياء ـ راودته في ذات اللحظة التي كانت يده تمتد فيها الى صندوق العجوز القتيل تفتشه ؟ ..

ناجى نفسه بقوله : « ان السبب في كل ذلك هو المرض ، انني اعذب نفسي واكثر من ايلامها ولست ادري ماذا اعمل ... كذلك كنت أمس وأمس الاول وكل الوقت الذي كنت أتعذب فيه ... أما عندما اشفى ، فسأتخلص من هذه الالام ! لكن ماذا يحصل لو انني لم اشف ؟ رباه كم ارزح تحت كل هذه الاعباء ! »

كان يمشي دون توقف وكان مشوقا الى الترفيه عن نفسه بأي شكل كان ، لكنه ما كان يدري كيف السبيل الى ذلك . كان هناك شعور غامض يشق طريقه الى رأسه ، شعور بالاشمئزاز نحو كل ما يحيطه وكل ما يصادفه في طريقه . شعور عميق وحشي حقود . كان المارة يبدون امامه بشعين بوجوههم وتصرفاتهم وحركاتهم يثيرون اشمئزازه . حتى لو ان احدا خاطبه لبصق في وجهه او لعضه باسنانه .

توقف فجأة عندما اشرف على رصيف نهر « النيفا » الصغير في جزيرة « سان بازيل » بالقرب من الجسر واذا به يحدث نفسه بقوله : « هنا يقطن في هذه الدار ... لكن ما معنى هذا ؟ ها قد جئت الى حيث يقطن «رازوميخين» رغما عني ... ان قصة امس تتكرر اليوم .. ان هذا غريب . اتراني جئت متعمدا ام هكذا صدفة ؟ مع ذلك لا بأس لقد كنت اقول منذ ثلاثة ايام انني سأزوره بعد « الصفقة » والان وقد تمت فسأذهب اليه . ام هل تراني لا استطيع زيارة احد ! »

صعد الى الطبقة الخامسة حيث يقطن (رازوميخين) وكان هذا في غرفته مشغولا بالكتابة فجاء يفتح له الباب بنفسه والتقى الصديقان اللذان لم يلتقيا منذ أربعة شهور . كان رازوميخين مرتديا معطفا منزليا

باليا تماما وقد وضع قدميه العاريتين في حذاء خفيـف وترك شعره مشعثا : كانت لحيته مهملة ووجهه غير مغسول • ارتسمت آيـات الدهشة على ذلك الوجه وهتف وهو يصعد صاحبه بنظرة مـن رأسه حتى قدميـه :

ـ كيف ! هذا انت ؟••

ثم اطلق صفيرا من شفتيه وهتف :

ـ كيف حدث ان وقعت فيمثل هذا العوز ؟ لعمري ان «اناقتك» تفوق « اناقتي » •

وراح ينظر الى اسمال راسكولنيكوف ويقول :

ـ ولكن هلا جلست ؟ انك تبدو تعبا •

تهالك راسكولنيكوف على « ديوان » تركي مغطى بقماش مشمع يفوق بالقدم ذلك الذي في حجرته بينما اقترب رازوميخين منـه وهو يقول :

ـ اتدري انك مريض جدا ؟

راح يجس نبضه • فانتزع راسكولنيكوف يده منه بحركـة عنيفة وصاح :

ـ لا تتعب نفسك • لقد جئت ••• اليك السبب ••• لم يعد عندي دروس ••• فأردت •• مع ذلك لست في حاجة الى دروس •

هتفت رازوميخين وهو يحدق في وجهه :

ـ لكن ••• ماذا دهاك ؟ انك تهذي !••

استوى راسكولنيكوف واقفا ! لم يكن قد فكر ـ عندما صعد الى مسكن رازوميخين ـ في انه سيقابله وجها لوجه • اما وقد وقعت التجربة الان ، فقد شعر بانه لا يستطيع بعد هذه اللحظة ان يلتقي باي كان ، وان لقاء الناس يؤلمه ويزعجه • وثارت في نفسه غضبـة عنيفة

وكاد ان يختنق من الانفعال لمجرد دخوله بيت رازوميخين ! وفجأة قال:

ــ الوداع ... وقصد الى الباب .

ــ لكن ابقَ ... ويحك ابقَ ... يا لك من شاذ !

فأجاب راسكولنيكوف وهو يخلص يده من يد صديقه :

ــ ليس بي ما يغريني بالبقاء !

ــ اذا ؟ لم جئت ... هل انت مجنون ؟.. هيا .. انك بذلك توجه الي نوعا من الاهانة ! لن ادعك تخرج هكذا ...

ــ حسنا ... ! لقد جئت اليك لانني لا اعرف احدا يستطيع مساعدتي سواك . هذا أولا .. ولانك أحسن من الباقين دون استثناء واقصد اكثرهم ذكاء وانك تستطيع ان تحكم .. اقصد ...! ولكنني الان لست في حاجة الى شيء . لقد اكتشفت ذلك فجأة فهل تسمع ؟ لا شيء مطلقا : لا خدمات ولا تودد من احد ! انا وحيد ويكفيني هذا فدعني هادئا ...

ــ لكن تريث ! تريث دقيقة ! يا لك من مغفل ! نعم هذا رأيي ولن تستطيع ابداله . استمع الي قليلا : ليست لدي دروس ولا يهمني ذلك . انما لدي في « سوق البراغيث » كتبي يدعى « خيروفيموف » وهو يساوي اكثر من درس ! ولن ابدله لقاء خمسة دروس تعطى الى عند التجار ! انه يهيء وينشر كتبا في العلوم الطبيعية يتخاطفها الناس كما يتخاطفون الخبز ! والعنوان وحده مسألة قائمة في حد ذاتها ! انت تدعي دائما بأنني سخيف . ولكنني اؤكد لك ان هناك من هم اشد مني سخفا ... ان الناشر الذي اتعامل معه قد تبع « موضة » هذا الوقت وهو شخصيا لا يعرف ال « آ » من ال « ب » وانا اشجعه في مسعاه بالطبع . خذ مثلا هاتين الورقتين الى جانب عدد من الابحاث الالمانية . انها في رأيي لون من الهذر السخيف : انهم يبحثون هنا عما اذا كانت المرأة مخلوقا انسانيا ام لا ! وبالطبع انهم يدللون اخيرا

« وبكل فخر » على انها انسان ككل انسان ! .. ان خيروفيموف يهيء هذه الابحاث لنشر « المسألة النسائية » التي هي حديث الساعة؟ وانا الذي أترجم له وهو بدوره سيضخم هذه الوريقات حتى يضاعفها ويجعلها ستا، وعندئذ سنطلق عليها عنوانا مثيرا سيحتل نصف الصفحة الاولى وسنبيع النسخة الواحدة بخمسين « كوبيكا » ! ولسوف تكون رابحة . انني اتقاضى ستة روبلات لقاء كل صفحة ترجمة وقد دفع لي ستة روبلات مقدما ... وعندما نفرغ من هذا العمل سوف نترجم موضوعا آخر يتعلق بالحوت . وقد لاحظنا في الجزء الثاني من « الاعترافات » (١) مجموعة من الاقاصيص والروايات ولسوف نترجمها كذلك رغم انها لون من الازعاج المحسوس ! وقد صرح بعضهم لخيروفيموف ان « روسو » يشبه في عقليته واتجاه « راديستشيف » ! وانا بالطبع لا اناقشه ولا اناقضه وليذهب الى الشيطان .

هيا ... هل تريد ان تترجم الورقة الثانية التي تبحث في : « هل المرأة مخلوق انساني ؟ » إذا راق لك ذلك فخذها على الفور وخذ بعض الاقلام والورق وكل هذا على حساب « السيد » واقبل مني هذه الروبلات الثلاثة ! وبما انني تقاضيت سلفة لترجمة الورقتين الاولى والثانية ، فيكون نصيبك ثلاثة روبلات لترجمة الورقة الثانية ومتى فرغت منها فستتقاضى ثلاثة روبلات اخرى . آه . ارجوك لا تتصور انها خدمة اقدمها لك بل على العكس . لقد ادركت عندما رأيتك تدخل انك ستكون ذا نفع عميم لي ، فأنا اولا سيء الحظ وثانيا ضعيف في اللغة الالمانية لدرجة انني اخترع اختراعا بين الحين والحين ويعزيني ان ما اضيفه من عندي خير من المكتوب في الوريقة ! لكن من يدري ؟

---

(١) كونفيسيون : مجلة فرنسية Confessions مثيرة المترجم

قد يكون ما « اخترعه » اسوأ مما اقدر بل قد يكون سيئا للغايـة • والان هل تقبل ؟ نعم ام لا ؟

اخذ راسكولنيكوف اوراق الموضوع الالمانـي وخرج دون ان يفوه بكلمة و « رازوميخين » ينظر اليه حائرا لتصرفه • ولما بلغ زاوية الشارع الاول ، عاد فجأة من حيث اتى ، وصعد الى مسكن رازوميخين فوضع الاوراق والروبلات الثلاثة ثم خرج بصمت كالمرة السابقة !

صاح رازوميخين وقد بان عليه الغضب :

ــ ما هذا انها الحمى « الساخنة » ولا شك • هل تمثـل دورا ؟ انك تفقدني صوابي • يا للشيطان ! لِمَ عدت ؟

فتمتم راسكولنيكوف وهو يهبط السلم :

ــ لست في حاجة الى ••• ترجمات ••

ــ اذاً ماذا تبغي ؟

فلم يجبه راسكولنيكوف بل استمر يهبط بصمت •••

ــ اسمع !•• اين تقطن ؟

ولما لم يتلقَ جوابا هتف معقبا :

ــ حسنا ••• اذهب الى الشيطان !

حينما بلغ راسكولنيكوف جسر « نيكولا » اتيح له مرة اخرى ان يستعيد شعوره • كان ذلك اثر حادث مزعج وقع له • ذلـــك ان سائقا كان يقود عربة خاصة لسعه بسوطه لسعة قوية جعلته يقفز قفزة كبيرة نقلته حتى حاجز الجسر ! لقد نبهه الرجل ثلاثا دون جدوى فعمد الى هذا التنبيه العملي ، لانه كـان يسيـر في منتصف الجسر حيث لا ينبغي ان تكون العجلات والبهائم • صرف على اسنانه حانقا متألمـا بينما تعالت حوله الضحكات والسخريات •

ــ لقد احسن صنعا •••

ــ لا بد وانه نشال مأفون !

ــ يا للخبيث ! انه يتصنع الثمل ويرمي بنفسه بين قوائم الخيول ليطالب بتعويضات !

ــ انها تجارة مثل غيرها !

وبينما هو بالقرب من الحاجز يصغي الى تلك الاقوال الساخرة ويتابع العربة بنظرة حانقة مخبولة ، اذ شعر بيد تلمس يده فيها نقودا • ورأى سيدة متقدمة في السن قليلا قدر انها من طبقة التجار ، ملتفة بحرملة والى جانبها فتاة تحمل مظلة خضراء لا شك انها ابنتها • كانت السيدة تقول له :

ــ « اقبل مني هذا الاحسان باسم المسيح ! » •

فأخذ المال وتابعت السيدتان سيرهما • تأكد لديه ان مظهره الخارجي اوحى لهما بانه واحد من اولئك المتسولين او محترفي التسول الذين يعمدون الى حيل لاستدرار شفقة الناس ••• وها هو يملك عشرين كوبيكا والفضل في ذلك يعود الى تلك الضربة التي نالته من سوط سائق العربة ، تلك الضربة التي حركت الشفقة في نفس السيدة •

اطبق يده بشدة على النقود التي فيها وسار بضع خطوات ثم استدار في مواجهة النهر باتجاه القصر • كانت السماء صافية لا سحاب فيها والمياه زرقاء غير كدرة وهو امر نادر بالنسبة الى نهر « نيفا »••• وكانت قبة « الكاتدرائية » ــ وهي لا تبدو واضحة المعالم اكثر من تلك البقعة فوق الجسر ــ تلتمع وتتألق في هذا الجو الصافي الرائق حتى ليستطيع الناظر اليها تعداد كل خطوطها وزخرفتها • شعر راسكولنيكوف بهدوء في نفسه ناسيا الالم الذي خلفته لسعة السوط وراح ينظر الى تلك الاماكن التي كانت مألوفة لديه بشكل خاص • كيف لا وهو الذي وقف مئات المرات حيث هو ــ حينما كان يرجع من الجامعة في طريقه الى البيت ــ يتأمل تلك المناظر البهيجة البديعة

يغمره شعور غريب • كان ذلك المشهد يثير في نفسه فكرة جامدة غير مفهومة اذ كان يخيل اليه ان كل هذه الابهة ومظاهر العظمة كـانت محرومة من النشاط او على الاصح من الروح ! وكانت تلك الفكـرة تدهشه فهي غامضة حزينة لم يجد لها تعليلا • اما الان فقد بدا لـه ان تلك الاسئلة التي كان يبحث عن اجوبة لها وذلك الشعور الغريب الذي كان يعتوره قد اصبحت جميعها واضحة الخطوط • وبدت له غرابـة الصدف في وقوفه في تلك اللحظة بالذات في ذلك المكان بالـذات ناظرا الى تلك المناظر بالذات التي كان يتأملها من قبل لما ان كـان في الجامعة وكأنه يرجو ان يشعر بمثل الشعور الذي كان يحس به من قبل • بدا له كل ذلك مضحكا وانتهى بأن احس بقوة [illegible] تعتصر قلبه فيقطر الما • ادرك ان ماضيه وافكـاره [illegible] احساساته ووجهات نظره التي كان يحس بها من قبل ، مفروشة تحت قدميه بل غارقة في جرف سحيق ليس له قرار • والى ذلـك الجرف السحيق انحدرت روعة المناظر التي بدت لعينيه ثم تبعها هابطـا ••• شعر كأنه حلق الى ارتفاعات سامقة حتى اختفت كل المعـالم عـن ناظريه ! وتحركت يده حركة آلية فأحس بالنقود التي فيها ، تأملها برهة ثم طوح بها الى الماء ! وعندئذ دار على عقبيه وعاد الى البيت وهـو يشعر بانه في تلك اللحظة قد قطع آخر رباط يصله بالعالم الحي !

بلغ مسكنه مساء بعد ان انقضت ست ساعات منذ ان بارحـه ! اما كيف واي سبيل سلك فانه ما كان ليستطيع الجزم في معرفتـه ! خلع ملابسه وارتعد كالحصان الحرون ثم استلقى علـى « الديوان » متدثرا وغط في نوم عميق !

استيقظ فجأة في الظلام الدامس اثر صرخة مريعة صكت سمعه• صرخة لم يكن قد رأى او سمع بمثلها من قبل ، صرخة رافقتها زمجرة ونحيب وضربات ولعنات فظيعة لم يعهد مثلها من قبل • لم يفكـر او

يتصور وجود مثـل هذه الوحشية والضراوة ، فـروع وانتصب في « سريره » جالسا شاعرا بعذاب متزايد ينزل به ثانية فثانية . لكـن الضربات والنحيب والشتائم كانت تتزايد تدريجيا ، ويا لشدة ذهولـه واستغرابه حينما تعرف وسط ذلك الضجيج على صـوت صاحبـة مسكنه . كانت تزمجر وتزأر بصوت حاد متقطع سريع حتى انه اخفق في فهم بعض ما تقوله . غير انه خمن انها تتوسل وتستعطف لكي يكف اولئك الذين يضربونها عن عدوانهم . وكان الصوت آتيا من السلـم فسمع راسكولنيكوف هدير صوت المعتدي ، كان صوته يفيض غضبا وقد استحال الى صرخات مبحوحة حتى تعذر عليه فهم شيء من حديثه اللاهث المختنق . وفجأة اقشعر جسم راسكولنيكوف : لقـد تعرف على صوت الوحش الضارب ... كان اليا بتروفيتش : « ترى مـاذا يفعل اليا بتروفيتش هنا ولم يضرب صاحبة الدار ؟ من الواضح انـه كان يركلها بقدميه ويضرب رأسها على درجات السلم ..! كان يمكـن تخمين ذلك من بكاء المرأة وصوت الضربات فماذا حدث يا ترى هـل انقلبت الاوضاع في العالم ؟ »

هرع السكان الى السلم وارتفعت اصواتهم مستنكرة ثم ارتفع صوت اقدام صاعدة وابواب تصفق وخطى متلاحقة .. « ترى لِمَ كل هذا ؟ لم ؟ كيف يمكن ان يحدث امر كهذا ؟ »

كان راسكولنيكوف وهو يطرح على نفسه مثل هذه الاسئلـة يعتقد مخلصا انه قد جن لولا انه كان يسمع بجلاء كل هذا الضجيج . وفجأة خيل اليه انهم آتون الى غرفته فغمغم يحدث نفسه :

« رباه انهم صاعدون ! اذا كل هذا بسبب مسألة البارحـة »

واراد ان يغلق الباب بالمزلاج لكن يده لم تطعه وشعر بعقم هذه المحاولة وبألم يعذب روحه ويسحق عظامه . انقضى الوقت بطيئا قاتلا ومضت دقائق دون ان يحدث شيء وهدأت الاصوات بالتدريـج وتناهى الى

سمعه صوت صاحبة الدار تزمجر وتنتحب وصوت اليا بتروفيتش يهدد ويشتم ثم اختفت الاصوات نهائيا وران السكون فتمتم قائلا : ربـاه ! هل ذهبوا حقيقة ؟ لا شك في ذلك وها ان صاحبة الدار تـذهب الى شقتها باكية منتحبة ! ها انها تغلق باب الشقة بعنف وصخب والنـاس ينفرقون ويخلون السلم ليدخل كل منهم الى مسكنه ، وهم يتناقشون ويتنادون بصيحات مرتفعة او يتحادثون بما يشبه الدمدمة • كـــان يبدو انهم عديدون كما لو ان كل الـسكـــان قد هرعـــوا الى مكان الحادث • فلبث يتساءل عبثا عن السبب •

خارت قوى راسكولنيكوف اخيرا وتهاوى من جديد ولكـــن النوم ابى ان يداعب عيونه فبقي نصف ساعة ممددا فريسة الالم ، الم عنيف لا يحتمل والشعور بالرعب لم يحس بمثله من قبل ، وفجأة انبثق نور في حجرته ورأى ناستاسيا داخلة تحمل شمعة موقدة في احـدى يديها وآنية حساء في الاخرى • نظرت اليه بانتباه ولما رأته مستيقظا وضعت « الشمعدان » على الطاولة وراحت ترتب الاشياء التي تحملها: الخبز والملح والطبق والملعقة وهي تقول :

ــ انه لم يأكل شيئا منذ امس ، مع ذلك فقد راح يجر اسمالـه طوال النهار وهو مصاب بهذه الحمى العنيفة •

ــ ناستاسيا ••• لِمَ ضربوا السيدة ؟

فنظرت اليه بدهشة وقالت :

ــ من الذي ضرب السيدة ؟

ــ منذ حين ، منذ نصف ساعة • ايليا بيتروفيتش ، مساعد رئيس الشرطة ••• على السلم • لِمَ عاملها بهذه الخشونة ؟ بل ولم جـــاء الى هنـــا ؟

حدقت ناستاسيا في وجهه طويلا وقطبت حاجبيها ولزمت الصمت • شعرت بنوع من الارتباك بل ومن الخـوف • بينمـــا استمـــر

راسكولنيكوف يقول بصوت ضعيف خائر :

ـ ناستاسيا لِمَ لا تتكلمين ؟

فتمتمت وكأنها تحدث نفسها :

ـ هذا هـو الدم .

فشحب لونه وتقهقر حتى التصق بالجدار وهتف :

ـ الدم ؟... اي دم ؟...

نظرت اليه ناستاسيا بصمت وأخيرا قالت بصوت ثابت وبلهجـة جـدية :

ـ لم يضرب السيدة احد .

فنظر اليها وهو يكاد يختنق وقال :

ـ لقد سمعت بنفسي .. لم اكن نائما .. كنت جالسا .. لقـد سمعت طويلا . ان مساعد مدير الشرطة كان هنا على السلم ... وكل السكان قد هرعوا وغادروا مساكنهم .

ـ لم يأتِ احد انما هو الدم يصرخ فيك ... اذ انه عندما لا يجد مخرجا يهاجم الكبد ويجعلك تتصور مثل هذه الاوهام . والان سوف تأكل ، أليس كذلك ؟...

لم يجب وظلت ناستاسيا بالقرب منه صامتة تحدق في وجهـه متفحصـة .

ـ ناستاسيا .. اريد ان اشرب ...

غادرت الحجرة وعادت اليه بعد دقيقتين تحمل ماء في ابريـق من الفخار الابيض لكنه لم يذكر ما وقع له بعد ذلك . تذكر فقط انـه ابتلع جرعة من الماء البارد وصب محتويات الابريق علـى صـدره ثم فقد الوعي .

٣

استمر مريضا زمنا طويلا لكنه لم يفقد خلاله حاسة التفكير تماما فكانت حاله منقسمة بين هذيان الحمى والشرود الذهني • تذكر فيما بعد انه كان يحس احيانا بجمع غفير من الناس التفوا حوله يريدون انتزاعه وحمله الى مكان ما وهم يتناقشون بصدده ويتشاجرون واحيانا اخرى يجد نفسه وحيدا في غرفته وقد بارحها الناس لانهم خافوا منه ، فكانوا من حين الى آخر يواربون الباب قليلا لينظروا اليه ويهددوه او يستهزئوا به مستثيرين غضبه • وتذكر كذلك ان ناستاسيا كثيرا ما كانت تجلس قرب سريره كما لاحظ رجلا غريبا لم يستطع معرفته ولا تحديد مهمة يشاطرها زياراتها الامر الذي احزنه حتى ان الدموع كادت ان تطفر من عينيه •

كان يخيل اليه احيانا انه امضى اكثر من شهر في سريره ، واحيانا اخرى ان كل شيء قد تم في بحر يوم واحد • لكن « ذلك الشيء » نعم ذلك الشيء ، كان قد نسيه تماما ؛ وان كان يشعر في قرارة نفسه انه افتقد امرا لا يجد في نفسه القدرة على استعادته ، فكان يتألم ويتعذب ويزفر ويثور لمجرد تفكيره في هذا العجز ثم يذهل ويغيب عن الوعي • واذا استفاق بعدئذ كان ينهض محاولا الفرار والابتعاد عن السرير فيشعر بأيد تعيده اليه بالقوة فيعود الى غيبوبته •

أمضى زمنا طويلا على هذا المنوال ؛ ولما صحا ذات يوم — وكان ذلك في الساعة العاشرة ، والطقس والشمس تغمر الجدار الأيمن باشعاع ضوئي بديع فتنير الزاوية القريبة من الباب — راى ناستاسيا جالسة بالقرب من سريره مع رجل لم يكن يعرفه كان يرقبه بفضول ، وصاحبة المسكن تنظر اليه خلال الباب الموارب • كان ذلك الغريب شابا مرتديا قفطانا ، ذا لحية صغيرة مدببة يشبه الجباة في مظهره • تتناهض

راسكولنيكوف وسأل مشيرا الى الشاب :

من هذا يا ناستاسيا ؟

ــ هيه ؟ لقد عاد الى وعيه ...

ــ شعرت صاحبة الدار ان المريض قد استعاد قواه فأغلقت الباب الموارب واختفت فورا لانها كانت امرأة شديدة الخجل ترهب المناقشات والاستفسارات . كان لها اربعون عاما وكانت سمينة منتفخة ذات عينين سوداوين يعلوهما حاجبان بلونهما ، طيبة في كل شيء : بكسلها وكرمها ، مضيافة ، مفرطة في الخجل ؟

عاد راسكولنيكوف يستفسر موجها حديثه الى الغريب مباشرة :

ــ من ... أنت ..؟

وفي تلك اللحظة فتح الباب ودخل رازوميخين وهو يحني قامته قليلا بسبب طولها ، هتف وهو باسم :

ــ يا له من كوخ ! ان رأسي يصطدم ابدا بالسقف ومع ذلك فهم يطلقون عليه اسم مسكن ... اذاً يا اخي فقد عدت الى وعيك... لقد علمت بذلك تو...

قالت ناستاسيا :

ــ لقد استعاد صوابه توا ...

وقال الغريب الذي يشبه الجباة في هيئته بصوت مجلجل وهو يبتسم :

ــ لقد عاد اليه وعيه .

تذكر راسكولنيكوف ان سؤاله الذي وجهه الى ذلك الغريب لم يحظَ بجواب بعد ! وشعر رازوميخين برغبة صديقه فسأل :

ــ ولكن انت ... من انت ؟ فأنا مثلا اسمي رازوميخين وانا طالب مفضال مهذب وهذا صديقي . اما انت فمن تكون ؟

ـ انا مستخدم لدى التاجر « شيلوبايف » وقد جئت هنا لحاجة •

فقال رازوميخين :

ـ حسنا ، تفضل بالجلوس على هذا « الكرسي » • واستوى بنفسه جالسا على المقعد الاخر بجانب المائدة • وخاطب راسكولنيكوف بقوله :

ـ يا صديقي العجوز ، أحسنت صنعا اذ استعدت حواسك• فمنذ اربعة ايام ـ كما قيل لي ـ لم تأكل ولم تشرب شيئا باستثناء ما كان يصب في فمك من قطرات الشاي بواسطة الملعقة • ولقد اتيتك مرتين بـ « زوسيموف » • انت تذكر زوسيموف ؟ لقد عاينك بدقة وصرح ان الامر ليس خطيرا وان حالك تشبه بكل بساطة حال الذي تلقى ضربة من مطرقة • اي ـ كما اكد ـ انك تشكو من ضعف عصبي نتيجة لسوء التغذية • اما المرض نفسه فبسيط يمكن الشفاء منه بسهولة • ان زوسيموف حجة لا يبارى وهو يعود عددا من المرضى الخطرين • ثم استدار نحو المستخدم وقال :

ـ لا احب استبقاءك كثيرا ••• فتفضل اذا اردت باطلاعنا على سبب زيارتك • لاحظ يا روديا ان هذه هي المرة الثانية التي يبعث صاحب ذلك المخزن برسل من لدنه • ففي المرة الاولى كان واحدا غير هذا ، فمن الذي جاء في المرة الاولى ؟

فأجاب المستخدم :

ـ لعلك تقصد الذي جاء منذ ثلاثة ايام • انه مستخدم مثلي واسمه : الكسيس سيميونوفيتش •

ـ ان لسانه على الاقل اطول من لسانك فما رأيك ؟

ـ نعم انه رجل اكثر كفاءة مني •

ـ ليس لنا الا ان نهنئك ... هيا استمر .

ـ حسنا . هذه هي الحكاية : ان لدينا حوالة من والدتك ارسلت بواسطة المدعو آتاناس ايفانوفيتش فاكروشين الذي اعتقد انك سمعت عنه . وانني مكلف بان اقدم لك مبلغا قدره خمسة وثلاثون روبلا هي ما اخذه سيمون سيميونوفيتش من امك واعتقد انك مطلع على مجرى الامور .

كان هذا الكلام موجها الى راسكولنيكوف جوابا على سؤال صديقه فتمتم هذا بصوت حالم :

ـ آه ... فاكروشين . نعم اذكر .

هتف رازوميخين قائلا :

ـ هل تسمع ؟ انه يعرف التاجر فاكروشين . وكيف لا يعرفه ؟ ثم انني الاحظ انك انت الاخر ذو لسان طويل ... هيا لا تبتئس . انه لذيذ دائما ان يستمع الانسان الى محاضرات حكيمة ! استمر ...

ـ حسنا . بالضبط انهذا الـ «فاكروشين اتاناس ايفانوفيتش» هو الذي توسط في المرة الاولى بناء على رجاء والدتك في ارسال نقود اليك ولم يحجم هذه المرة بالمثل عن ابلاغ سيميون سيميونوفيتش بوجوب دفع خمسة وثلاثين روبلا اليك بانتظار ما هو احسن .

هتف رازوميخين :

ـ لعمري ان هذا الـ « بانتظار ما هو احسن » هي اجمل ما خرج من فمك ولقد نطقها بسهولة لا يماثلها في الجمال الا قولك « بناء على رجاء والدتك » والان ماذا تعتقد هل هو مالك قواه ؟ نعم او لا ؟

ـ بالنسبة الي انه ككل اولئك الذين يوقعون لدينا عند القبض .

ـ اذا سوف يحسن التوقيع « الشخبرة » هل معك الدفتر ؟

ـ الدفتر ؟ ها هو ذا •

ـ هاته • هيا يا روديا انهض قليلا • سوف اسندك بينما ستكتب لهنا : راسكو لنيكوف • خذ القلم بيدك يا صديقي • اننا في شديد الحاجة الى المال •

هتف راسكولنيكوف وهو يدفع القلم بعيدا :

ـ لا حاجة بي الى المال •

ـ اذا ماذا يلزمك ؟

ـ لن اوقع هذا الايصال •

ـ لكن يجب ان تعطي ايصالا •

ـ لست في حاجة الى النقود •

ـ لست في حاجة الى النقود ؟ اسمع يا صديقي انت تكذب وانا شاهد على ذلك ! ثم استدار الى المستخدم وقال : لا تبتئس • انه يهزر • ثم ان هذا مألوفا لديه في حال اليقظة الكاملة وانت رجل عاقل • لسوف نسير يده ليستطيع التوقيع فهيا بنا نتعاون •

ـ على كل حال انني استطيع العودة مرة اخرى •

ـ كلا ! كلا ! لم تزعج نفسك ؟ انت رجل معقول ••• هيا يا روديا لا تؤخر هذا الزائر • الا ترى ؟ انه ينتظر •••

امسك بيد راسكولنيكوف ليساعده على التوقيع • فهتف هذا قائلا :

ـ دعني سوف اوقع بنفسي • ثم اخذ القلم وكتب اسمه في الدفتر فسلمه المستخدم المال وانسحب •

ـ مرحى ! الا تأكل الان يا صديقي ؟

فأجاب راسكولنيكوف :

ـ بلى •

سأل رازوميخين الخادمَ قائلا :

ـ هل لديكم حساء ؟

فأجابت ناستاسيا وقد حضرت المناقشة من أولها :

ـ نعم لدينا من بقايا البارحة •

ـ هل هو حساء بالارز والبطاطا ؟

ـ نعم بالارز والبطاطا •

ـ كنت اخشى ان لا يكون كذلك ••• الينا بالحساء واعطنا شاياً •

كان راسكولنيكوف يرقب ما يجري بدهشة عميقة ورهبة متلبدة وقد استصوب الصمت وانتظار ما سيحدث • قال مخاطبا نفسه : « يخيل الي انني لست واهما بل ان هذا يبدو واقعيا » •

استغرقت مهمة ناستاسيا دقيقتين عادت بعدهما بالحساء والشاي• كانت تحمل ملعقتين وطبقين وما يلزم مائدة الطعام من ملح وبهار وخردل مما لم ير راسكولنيكوف ترتيبا مثله من قبل ، بل انها كانت تحمل ايضا غطاء مائدة نظيف •

قال رازوميخين :

ـ يحسن بـ « براسكوفي بافلوفنا » ان ترسل الينا قدحين من الجعة وسنشربهما باستمتاع يا ناستاسيا •

فغمغمت الخادم :

ـ لعمري انك تعنى بنفسك ••• ومضت تنفذ الامر •

استمر راسكولنيكوف يحدق فيما حوله بذهوله المعهود لكنه لم يخل هذه المرة من اهتمام ملموس • بينما جلس رازوميخين الى جانبه على « الديوان » وراح يرفع رأسه بحركة غير حاذقة فأسندها ذراعه ثم بدأت يده اليمنى بعد ذلك تسعى بين اناء الحساء وفم

راسكولنيكوف مرات وهو يستوقف الملعقة أمام فمه كل مرة لينفخ عليها خشية أن يكون الحساء ساخنا فينزعج المريض • وكان الحساء باردا تقريبا ، غير ان ذلك لم يمنع راسكولنيكوف من التهام ملء ملعقة وتكرار ذلك مرات • وفجأة توقف رازوميخين عن اداء مهمته وصرح بانه يجب استشارة زوسيموف الآن !

دخلت ناستاسيا في تلك اللحظة حاملة زجاجتين من الجعة وضعتهما على الطاولة فسأل رازوميخين راسكولنيكوف قائلا :

ــ أترغب في شرب قليل من الشاي ؟

ــ نعم •

فصاح بناستاسيا قائلا :

ــ اجري فورا وائتني بالشاي يا ناستاسيا • انني أعتقد اننا نستطيع الاستغناء عن رأي كلية الطب بصدد الشاي •• آه ! ها هي الجعة ايضا •

جلس رازوميخن على كرسيه وراح يفتك باللحم فتكا ذريعا وكأنه لم يقرب الطعام منذ ثلاثة ايام • وكان يحدث راسكولنيكوف على قدر ما يسمح به فمه الممتلىء ويقول :

ــ يا صديقي العجوز روديا انني أطعم منذ ثلاثه أيام على حساب السيدة باشانكا وهي تعني بي خاصة ! انني لا ارى مانعا من مصارحتك بانني لا احتج ولا اعترض على عنايتها بي • ولكن ها هي ناستاسيا وقد جاءت بالشاي انها تحسن التدبير • حسنا هل ترغبين في قدح من الجعة يا ناستاسيا ؟

ــ يا لك من ماكر ممازح !

ــ اذا من الشاي •

ــ اما هذا فنعم •

ـ حسنا قدمي لنفسك • بل انتظري سأقوم أنا على خدمتك • اجلسي الى المائدة •

وقام فورا بواجب رب الدار كأحسن ما يكون، فملأ القدح الأول ثم قدحا ثانيا وترك طعامه وعاد يجلس على الديوان قرب صديقه • وللمرة الثانية مد ذراعه اليسرى الى رأس راسكولنيكوف يرفعها ثم راح يسقيه الشاي بالملعقة وهو ينفخ عليها لتبرد ، وكأنه بذلك يساهم في شفاء المريض مساهمة فعلية •

أما راسكولنيكوف فكان صامتا لا يبدي مقاومة رغم شعوره بقدرته على الحركة واستعمال يديه بما يكفي للامساك بملعقة وقدح بل لعله كان يستطيع المشي ، لكنه عمد بمكر حيواني الى اخفاء طاقته وقواه متصنعا البله والذهول مراقبا بنفس الوقت ما يحدث ومفكرا بامعان فيما يرى • وبعد ان جرع محتويات الملعقة العاشرة ، حرر رأسه من ذراع صديقه ودفع الملعقه بطيش ثم ترك رأسه تهوي على « الوسادة » وشعر بأنها وسادة حقيقية يكسوها غطاء نظيف بميل ضاعف في حيرته •

تمتم رازوميخين وهو يعود الى مجلسه الاول فيأكل ويشرب الجمة :

ـ ينبغي أن ترسل باشانكا اليوم أيضا مربى التوت لنهيىء شرابا للمريض •

فسألت ناستاسيا وهي تمسك قدحا بأصابعها الخمس وتمتص الشاي على قطعة السكر التي في فمها :

ـ ومن اين تأتي بالتوت ؟

ـ انه شائع وموجود في كل البقاليات يا عزيزتي • الا ترى يا روديا ؟ لقد وقعت هنا حكاية لم تطلع على تفاصيلها بعد : عندما

فررت كالنشال في ذلك اليوم من مسكني دون ان تطلعني على عنوانك، غضبت غضبا شديدا وقررت انابحث عنك لاؤدبك. فشرعت اطاردك منذ ذلك اليوم وانا ابحث هنا وهناك ناسيا انك تقطن هنا . خصوصا واني ما كنت استطيع ان اذكر هذا لانني ما كنت اعرفه . اما مسكنك الاسبق فكنت اعرف انه في « الزوايا الخمس » « خارلاموف » . بحثت طويلا عن هذا « الخارلاموف » وظهر لي فيما بعد ان اسمه هو « بوخ » وليس خارلاموف ولكن الاخطاء شائعة في اسماء الاعلام فاستأت استياء بليغا وعدت في اليوم التالي الى مكتب الاستعلامات . تصور انني خلال دقيقتين فقط استطعت ان أحصل على عنوانك لان أسمك كان مسجلا هناك .

ـ مسجل ؟

ـ وكيف ! مع ذلك لم يستطيعوا في ذلك المكتب ان يلموا بعنوان الجنرال كوبيليف ليعطوه الى شخص كان يسأل عنه بحضوري ... لا اود اضاعة الوقت بالتفاصيل لذلك اقول بكلمة واحدة انني وصلت الى هنا واحطت علما بكل ما يتعلق بك . نعم بكل شيء يا صديقي . أنا أعرف كل شيء وناستاسيا تشهد على ذلك وقد تعرفت الى نيكوديم فوميتش . كذلك رأيت ايليتا بيتروفيتش واتصلت بالحارس « فورنيك » وبالسيد ساميوتوف الكسندر عريغوريفيتش أمين سر قسم شرطة الحي وأخيرا تعرفت الى باشانكا، وهي فضلا عن ذلك ، الباقة العطرة في هذه المجموعة ، وناستاسيا لا تجهل ذلك .

فغمغمت ناستاسيا وهي تضحك ساخرة :

ـ لقد عرفت كيف تفتنها .

ـ هيه !.. يا ناستاسيا نيكيفوروفنا ! الا تصمتين ؟

فانفجرت ناستاسيا ضاحكة وهتفت :

ـ ايها الحيوان . لكني بيتروفنا وليس نيكيفوروفنا .

ـ أخذنا علما بذلك . والآن يا صديقي أردت قبل كل شيء ان أدخل الكهرباء الى هنا لكي أبدل دفعة واحدة الافكار والآراء الخاطئة المتكاثفة ، لكن باشانكا انتصرت ثق يا صديقي انني ما كنت أعتقد انها بمثل ... بمثل هذا الكرم . هيه . ماذا تقول ؟

كان راسكولنيكوف صامتا لا يريم رغم انه لم يغفل لحظة واحدة عن ملاحقة رازوميخين بنظرة ثقيلة ثابتة . واستمر رازوميخين قائلا :

ـ لا اود اضاعة الوقت بمحاضرات تافهة . لذلك اقول : انها انسان كأحسن ما يكون ومن كل وجهات النظر .

كان يبدو على رازوميخين ان صمت راسكولنيكوف لم يزعجه في شيء وانه يكتفي بما كانت تثيره ناستاسيا من ملاحظات على حديثه الذي بدا وكأنه يدخل على نفسها لونا من السرور الغامض .

هتفت هذه من جديد :

ـ يا لك من حيوان !

بينما استرسل هو وكأنه لم يسمع :

ـ المؤلم يا صديقي انك لم تدرك كيف تتصرف منذ البداية . لم يكن ينبغي لك ان تعاملها هكذا ! ان ذلك ـ ماذا اقول ـ انه ... انها عقلية غريبة بيد اننا سنبحث في هذا فيما بعد .

صمت قليلا ثم اردف قائلا :

ـ خذ مثلا هذه الناحية الدقيقة : كيف جعلت الحال يصل بها الى درجة امساك الطعام عنك ؟ واكثر من ذلك ايضا تلك السفتجة!.. يخيل الي انك كنت فاقد الرشد عندما وقعت عليها ، بينما كان مشروع زواجك من الفتاة ناتالي ايبكورفنا لا زال ماثلا ! أرأيت كيف اني ملم بكل شيء ؟ انني ارى هنا حبلا حساسا وانا حمار فاعذرني ! ولكن

بما اننا نتكلم عن الحماقات فماذا تظن ؟ الا ترى ان براسكوفي بافلوفنا ابعد من ان تكون حيوانا كما يلوح للمرء للوهلة الاولى ؟

غمغم راسكو لنيكوف وهو لا يدري ايهما افضل : ان يسكت صاحبه ام ان يدعه يستمر :

ــ نعـم •

فهتف رازوميخين وقد بدا عليه السرور لسماعه صوت صديقه يجيبه :

ــ أليس كذلك ؟ لكنها ليست ذكية جدا • هم ؟ لقد قلت لك ان تلك عقلية غريبة وانا من جانبي يا صديقي لا استطيع فهم شيء : فهي تشرف على الاربعين من عمرها ولا تعترف الا بست وثلاثين ولها كل الحق • ثم اقسم لك بأن حكمي افتراضي بحت لا يعتمد الا على علم « الميتافيزيك » : ان ما يحدث بيننا هو بالنسبة الي مسألة جبر لذلك فلست افهم شيئا ، وكل شيء معقد ! فهي ــ لما رأت انك انقطعت عن الجامعة وخسرت الدروس والالبسة ، وانها بعد وفاة ابنتها لم تعد تستطيع اعتبارك فردا من الاسرة ــ شعرت فجأة بالرهبة ، اما فانك بدلا من أن تستمر في حياتك كما كانت عليه في الماضي ، انقلبت فجأة • ففكرت في طردك وقد امضت زمنا طويلا تفكر في ذلك المشروع ولكنها كانت تخاف على مالها خصوصا وانك اكدت لها بان امك ستدفع •

غمغم راسكولنيكوف بصوت مرتفع واضح قائلا :

ــ لقد كنت شديد النذالة حينما قلت ذلك • لقد اصبحت امي اشبه بالمتسولات وكنت انا اكذب لكي اغريها على قبولي في المسكن واطعامي •

ــ لقد احسنت صنعا في هذا • انما المزعج انها استعانت بالسيد

تشيباروف وهو رجل اعمال ومستشار في المحكمة العليا . ولولاه لما جرؤت « باشانكا » على تدبير شيء ضدك وهي تلك الامرأة الخجول. لكن ذلك المستشار لم يكن خجولا مثلها فكان أول ما سعى الى معرفته هو : هل من أمل في آن تحصل صاحبة المسكن على مالها ، فجاءه الجواب : نعم لان امه رغم انها لا تملك الا جراية قدرها مائة وعشرون روبلا في السنة فانها ستستغني عن الطعام لتكفل ابنها روديا وان اخته على استعداد لبيع نفسها كالرقيق اذا اقتضى الامر لتساعد اخاها . وهكذا قرر ملاحقتك . لكن ... ماذا بك ؟ اراك قد اضطربت ! هل ادركت الان انني افهمك تماما ؟ انه لم يكن عبثا ذلك الحديث الذي افضيت به الى باشانكا عندما كانت تعدك واحدا من الاسرة وقد استقيت هذه المعلومات من حديثك ذاك ... وسأقص عليك الان ماذا وقع بالضبط .. حدث انه بينما كان الرجل النبيل الحساس الذي هو انت يدلي باعترافاته كان رجل الاعمال يستعد ليفوز بحصة الاسد وهذا هو السبب الذي من اجله اعطت باشانكا السفتجة برسم القبض الى تشيباروف هذا وهو بدوره طالب بالحاح ان يسدد المبلغ فلما اطلعت على سير الامور اردت ارضاء لضميري ان ادلي بدلوي وهكذا اصبحت انعم بتفاهم تام مع باشانكا واوقفت بل وقتلت المؤامرة في مهدها مؤكدا لها انك ستدفع دونما حاجة الى هذا التدبير . هل فهمت ما اعني يا صديقي ؟ لقد كفلتك فاستدعينا تشيباروف هذا والقينا اليه روبلات ثم استعدنا منه السفتجة التي لي الشرف بأن اقدمها اليك. والان فان كلمتك هي وحدها موضع الاعتبار . خذ ، هذه هي السفتجة وقد مزقتها كما ترى بما يناسب المقام .

وضع رازوميخين الورقة الممزقة على الطاولة فنظر اليها راسكولنيكوف وفجأة استدار نحو الجدار دون ان يهمس بكلمة حتى أن رازوميخين نفسه شعر بصدمة في كرامته ، قال :

ـ ارى يا صديقي انني ارتكبت هنا نوعا من الحماقة كما يبدو • بينما كنت اعتقد انني اسري عنك بثرثرتي فاذا بي على العكس اثير سخطـك •

قال راسكولنيكوف بعد صمت دون ان يستدير :

ـ اهو انت الذي لم اعرفك في بحراني ؟

ـ نعم وحضوري كان يسبب لك نوبات وخصوصـا في المرة التي اصطحبت معي فيها زاميوتوف •

ـ زاميوتوف ؟ امين سر قسم الشرطة ؟ لماذا ؟

واستدار فجأة بينما تعلقت ابصاره بوجه رازوميخين :

ـ لكن ماذا دهاك ؟ لم تثور ؟ كان يرغب في التعرف اليك وهو نفسه الذي [illegible] ذلك لاننا تحدثنا انا وهو طويلا عنك • ولولاه لما عرفت كل هذه الامور • انه غلام شجاع ، غريب من نوعه ، سريـع الفهم، [illegible] الأصدقاء ، نلتقي كـل يوم تقريبا حتى انني غادرت مسكني ذاك وجئت اسكن هذا الحي ولقد ذهبنا مرتين عنـد لويز • أتذكر لويز ؟•• لويز ايفانوفنا •

ـ هل كنت اهذي ؟

ـ وكيف ؟؟ كنت لا تملك نفسك •

ـ ماذا قلت ؟

ـ ماذا بعد ؟ ماذا قلت ؟ أي ما يقوله رجل يهذي معروف والآن لندع هذا ولنهتم بما هو اجدى• ثم نهض واخذ قبعته واراد الانصراف•

ـ سألتك ماذا قلت ؟

ـ لعمري اذا كنت تصر ! هل أنت خائف من أن تكون كشفت سرا لا تخش : انك لم تبح بشيء عن اميرتك • لكنك تحدثت كثيرا عـن كلب « البولدوج » وعن اقراط للاذن وسلاسل للساعات وعن جزيرة

« كريستوفسكي » ثم عن حـارس معين • وقد بحثت أيضا عن نيكوديم فوميتش وايليا بيتروفتش مساعده ، وأظهرت اهتمامـا كليـا بطرفة حذائك فكنت أبدا تطلبه بأنين قـائلا : « أعطوني قطعة النعل » حتى أن زاميوتوف نفسه بحث عنها في كل مكـان ثم اعطـاك تلك القذارة بنفسه بعد أن حملها بيديه النظيفتين البيضاوتين المعطرتين المزينتين بالخواتم وعندئذ فقط خمدت حدتك ولبثت أربعـا وعشرين سـاعة قابضا على تلك القذارة بيديك مطبقا عليها حتى تعذر سحبها منـك ولعلها لا زالت في مكان ما تحت غطائك • كذلك كنت تطلب باصرار قطع سروالك وكنت تبكي وأنت تطالب بها ، ورحنا نتساءل عـن نـوع تلك القطع التي تتحدث عنها ، انما لم نفهم غايتك • على كل حـال انتهى هذا الان والاهم انك تملك في هذه اللحظة خمسة وثلاثين روبلا سأحتفظ بعشرة منها وسترى بعد ساعتين ما سأكون قد عملت بهـا وخلال هذا الوقت سوف استشير زوسيموف الذي هو لا شك هنـا منذ زمن طويل خصوصا وان الساعة الان قد جاوزت الحادية عشرة• أما أنت يا ناستاسيا فعليك بزيارته دائما خلال غيبتي ولتهتمي بشأنـه فتسقيه كلما طلب وتقدمي اليه ما يريد ، وسأذهب الى باشانكا لاتحدث اليها بما ينبغي ان يكون فالى اللقاء •

خرج رازوميخين بينما راحت ناستاسيا تقول :

ـ انه يناديها باشانكا يا له ، من مهرج !

ثم نهضت واصاخت السمع ولم تستطع مقاومة فضولها فاندفعت تهبط السلم في اثره لتنصت الى الحديث الذي سيدور بينه وبـين سيدتها التي كانت ولا شك مفتونة به •

لم تكد ناستاسيا تخرج بدورها حتى القى المريض غطاءه فجـأة وقفز كالمجنون مبارحا السرير • لكن ما هي تلك المهمة ؟ هـا هـوذا

قد نسيها ! فراح يتمتم : « يا الهي ! وددت لو عرفت شيئا، شيئا واحدا: هل يعرفون كل شيء او لا يعرفون شيئا ؟ لعلهم يعرفون ويتصنعون الجهل بالامر لتشويش افكاري خلال مرضي ثم الانقضاض علي فجأة واطلاعي على انهم يعرفون كل شيء منذ حين ، وان سلوكهم ما كان الا على سبيل الخدعة ... فما العمل الان وانا الذي نسيت ما كنت اعتقد انني اعرفه منذ نصف دقيقة ؟ ».

كان واقفا في وسط الحجرة يدور بانظاره حوله وهو فريسة هياج عصبي اليم . مضى الى الباب ففتحه وانصت فلم يجد من يسترق السمع . وفي لحظة من صفاء الذهن اندفع الى الزاوية التي تحجب السجادة المهلهلة الثغرة التي فيها ففحصها بعناية ثم ادخل يده في الثغرة منقبا وسرعان ما ادرك انه لم يكن يفكر في هذا بالضبط . تذكر انه يسعى وراء قطع سرواله الممزقة وبطانة جيبه التي انتزعها والتي القاها مع قطع السروال في مكان لم يعد يذكره . ولما فتح باب المدفأة وبحث بين الرماد وجدها هناك فتأكد انهم لم يبلغوا في البحث تلك المرحلة . بقيت قطعة النعل المتخلفة عن حذائه ! ارتمى على السرير يبحث عنها فوجدها . كانت خلقة متأثرة من الاحتكاك قذرة . ان زاميوتوف لا يمكن ان يكون قد لاحظ عليها شيئا .. غمغم محدثا نفسه : « هيه زاميوتوف ! مكتب البوليس ! لكن لم استدعوني الى المكتب ؟ واين رقعة الدعوة ؟ ؟ به ! لا شك انني اخلط بين الامور فقد كان الاستدعاء امس البعيد وليس اليوم وكنت افحص طرف حذائي اما الان فقد كنت مريضا . فلم اذا جاء زاميوتوف ؟ ماذا في الامر ؟ هل يصور لي الخيال كل هذا ام انه حقيقة ؟ لا شك انه حقيقة؟ آه . لقد تذكرت : ينبغي ان افر . افر باسرع وقت . افر تماما ! لكن الى اين ؟ واين ملابسي ؟ اين الحذيتي ؟ ها لقد اخذوها واخفوها . فهمت ، ها هو معطفي لقد افلت من انتباههم وها هو المال على الطاولة

وها هي المفتجة . حمدا لله . سأحمل المال واذهب ، وسأستأجر مسكنا آخر . لن يجدونني بعد ذلك . لكن اين ذلك المكتب ؟ مكتب الاستعلامات . انهم سيكتشفونني كما اكتشفني رازوميخين .. الافضل أن أفر تماما . بعيدا الى أمريكا . وأن أسخر منهم . وينبغي أن أحمل معي المفتجة الممزقة . لعلها تنفعني هناك . وماذا احمل ايضا ؟.. انهم يظنونني مريضا ولا يصدقون انني قادر على المشي... ها ها ها... لقد قرأت في عيونهم انهم يعرفون كل شيء فليس لي اذن الا ان اهبط السلم . لكن ما العمل اذا كان البيت مخفورا ورأيتني وجها لوجه مع رجال البوليس ؟ ما هذا الذي هنا ؟ اهو شاي ! آه لقد بقي شيء من الجعة . نصف زجاجة منعشة » ...

افرغ ما في الزجاجة فملأ كأسا كبيرة تجرعها دفعة واحدة بتلذذ وكأنه يطفىء النار المستعرة في صدره . ولم تمض دقيقة واحدة حتى اثرت الجعة في رأسه واعترته رعشة لذيذة نوعا .. فاستلقى وجذب الغطاء على نفسه وعادت افكاره تزدحم محمومة معقدة حتى استولى عليه النعاس فدفن رأسه بغبطة في الوسادة النظيفة ، والتف بالغطاء الانيق الذي استعاض به عن معطفه الممزق واستغرق في نوم عميق هادئ..

استفاق على صوت شخص يدخل غرفته ففتح عينيه ليرى رازوميخين واقفا على العتبة مترددا في الدخول . نهض راسكولنيكوف فجأة بقوة وراح ينظر في عيني صديقه وكأنه يحاول تذكر شيء معين فهتف رازوميخين قائلا :

ـ كم لك مستيقظ ؟ حسنا . ها أنذا اذن . سوف أقدم لنعلك علما بنفقاتي والتفت نحو السلم وصاح :

ـ ناستاسيا ! الي بالرزمة .

يسأل راسكولنيكوف وهو يلقي حوله نظرة قلقة :

ـ كم الساعـــة ؟

ـ لقد نمت زمنا يقرب من ست ساعات ... لقـــد تمت ست ساعات طويلة وقد اقبل الليل ...

ـ رباه ! كيف استطعت النوم ؟

ـ وماذا بعد ؟ نم كما تشاء ! من ذا الذي يوقظك ؟ اتكون على موعد مع احــد ؟...

ان لدينا من الوقت ما يكفي . وانا انتظر يقظتك منذ ثــلاث ساعات . وقد جئت مــتطلعا مرتين . فكنت في كلتيهما نائما . وذهبت مرتين الى دار زوسيموف فلم اجده كذلك . لكن سوف يحضر . وقد اضطررت للتغيب قليلا لاعمالي الصغيرة الخاصة لانني كما اعلمتــك ابدلت مسكني اليوم مع عمي . الا تعرف ان لي عما الان ؟ لكــن الى الشيطان . هذا لا يهم . لنعد الى العمل . وها نحن ... فكيف تشعر الان ايهــا العجوز ؟

ـ انا على خير حال . لم اعد مريضا يا رازوميخين . هل امضيت زمنا طويلا هنا ؟

ـ طبعا طالما انني اخبرتك بانني انتظرك منذ ثلاث ساعات ...

ـ كلا ! اعني قبل ذلك ؟

ـ اقصد منذ كم من الوقت جئت هنا ؟

ـ غريب . لقد حدثتك بذلك البارحة مطولا . الا تذكر ؟

مضى راسكولنيكوف يفكر . كان يبدو له ان ما حدث لا يمكن ان يعدو الحلم . فلم يكن يذكر شيئا . لذلك عاد ينظر الى رازوميخين مستفسرا فقال هذا :

ـ هم ... لقد نسيت اذا ... لقد بدا لي منذ حين انك لم تكن مالكا فوالك تماما واعتقد ان النوم قد افادك وارى ان وجهك يبـــدو

مشرقا • فمرحى اذاً • لسوف تعمل ولسوف تذكر كل شيء اللحظة • والآن انظر يا عزيزي انظر •

وراح يزيل رباط الحزمة التي بدا مهتما بها • وقال :

ــ انظر يا صديقي لقد كنت شديد الاهتمام بهذه الناحية • لأنني أود أن تعود رجلا ! حسنا لنبدأ من الأعلى : أترى هذه القبعة « كاسكيت » انها رغم جمالها لم تكلفني مبلغا كبيرا فاسمح لي ان اضعها على رأسك لتجربتها •

فدفعه راسكولنيكوف بشيء من العنف وقال :

ــ ليس الآن • فيما بعد •

ــ اما هذا فلا ! يا صديقي روديا • لا تلح ! سيكون « فيما بعد » متأخرا ! ولن أنام الليل لانني اشتريت هذه الاشياء دون معرفة مقاساتك والآن • ارني ••• هاه •• انها مطابقة تماما كما لو كان رأسك معي ! اتدري ان غطاء الرأس هو القطعة المهمة في مجموع الملابس ؟ ان صديقي تولستياكوف يضطر الى رفع قبعته البالية اذا وجد بين جمع من الناس بينما يكون الجمع محتفظين بقبعاتهم فيشكره الجميع ظنا منهم انه شديد الاحترام ولا يعلمون انه يخجل من ابقاء قبعته الزرية على رأسه •

والتفت الى ناستاسيا وقال وهو يضع قبعة راسكولنيكوف العتيقة الى جانب الجديدة التي اشتراها :

ــ انظري يا ناستاسيا الى هاتين القبعتين الموجودتين هنا ، انه يطلق على هذه اسم قبعة • ولعلها تسمية مجازية • ولكن هل تعرفان كم دفعت ثمنا لهذه القبعة الجديدة ؟

قال الخادم :

ــ عشرين كوبيكا على الاقل

عشرون ؟ ويحك ، انعشرون كوبيكا اليوم لا تشتريك أنت فكيف تشتري قبعة !

لقد دفعت ثمانين كوبيكا ثمنا لها وما ذلك الا لانها مستعملة بعض الشيء... انما بشرط أن يعطوك بدلا عنها في العام المقبل ، قبعة دون مقابل ! والان لنقم بجولة في الاماكن « الواطئة » كما كنا نقول في الجامعة ، اعلمك قبل كل شيء انني فخور بهذه السراويل (ونشر امامه سروالا كان في الربطة) لن تجد فيها ثقبا ولا لطخة وهي بلون « الصدارة » وهذه من متطلبات العصر ، ولا عيب فيها غير ان تكون انت الشخص الثاني الذي يلبسها ، لكن لا تنسى ان الاشياء المستعملة احسن من الاشياء الجديدة لانها تكون اكثر مرونة وانسجاما ... اسمع يا روديا انني اعتقد ان الانسان الذي يريد دعم مركزه في الاوساط الاجتماعية مرغم على ملاحظة متطلبات الفصول ولما كنا في فصل الصيف فقد اشتريت لك البسة صيفية ، وفي الخريف سوف يلزمك ثوب من قماش يبعث الدفء لتستطيع نزع هذه الملابس وانا واثق انها بانتظار الخريف ستصبح اسمالا بالية بفضل اهمالك ، والان كم تعتقد انني دفعت ثمنا لهذا ؟ مع العلم ان شرط الاستبدال مجانا في السنة المقبلة قائم ابدا ؟.. روبلين وخمسة وعشرين كوبيكا ! ان فيديايف ـ وهو الذي اشتريت من مخزنه هذه الثياب ـ يتعامل دائما مع زبائنه على أساس استبدال العتيق بجديد مجانا ، ومعنى ذلك انك ستدفع مرة واحدة فقط ، والان لننتقل الى الاحذية كيف تراها ! صحيح انها تبدو مستعملة لكنها ستخدمك شهرين كاملين وهي فوق ذلك بضاعة اجنبية كان يحتذيهما احد كبار الموظفين في السفارة البريطانية وقد باعهما منذ اسبوع ولم يكن قد استعملهما اكثر من اسبوع ايضا وكان الدافع على البيع الحاجة الى المال ، والثمن روبل واحد وخمسين كوبيكا ، فهل تراني اجدت ؟

قالت ناستاسيا ملاحظة :

ـ لعلها لا تطابق حجم قدميه .

هتفت رازوميخين وكأنه اهين في كرامته وقال وهو يخرج من جيبه حذاء راسكولنيكوف القديم البالي :

ـ لا تطابق حجم قدميه ؟ اذا ما تسمين هذا (وأشار الى الحذاء العتيق) أنا احتاط لكل شيء . لقد عاينوا وراعوا قياس هذه القاذورة التي كانت حذاء، وبذلك أبرمت الصفقة بدقة تامة ثم التفت الى راسكولنيكوف وقال مردفا :

ـ اما فيما يتعلق بالالبسة الداخلية فلقد اتفقت حول موضوعها مع صاحبة مسكنك وها هي ذي ثلاثة قمصان من القماش مع ربطات عنق مناسبة . والان لنجمع النفقات : ثمانون كوبيكا للقبعة ، روبلان وخمسة وعشرون للثوب فيكون المجموع ثلاثة روبلات وخمسة كوبيكات ، روبل وخمسون كوبيكا للاحذية لانها في حالة جيدة فيصبح المجموع اربعة روبلات وخمسة وخمسون كوبيكا اما الالبسة الداخلية فقد اشتريتها بالجملة بخمسة روبلات فيبلغ المجموع تسعة روبلات وخمسة وخمسون كوبيكا وتفضل بقبول الخمسة والاربعين كوبيكا الباقية ... ها انت الان يا روديا قد عدت جديداء اما معطفك فهو مناسب في الوقت الحاضر ويستطيع الاحتمال بعض الزمن . خصوصا وانه يحمل علامة « شارمر » وقد تركت لك امر العناية بالجوارب والاشياء الباقية وتستطيع انتقاءها كيف شئت . يبقى لديك خمسة وعشرون روبلا دون ان تنزعج من اجل باشانكا او ان تفكر في أجرة السكن لانني كما قلت لك جعلت لك حسابا جاريا غير محدود . والان اسمح لي بأن ارجوك باستبدال هذا القميص الذي ترتديه ولن ادهش اذا ما ثبت ان مرضك كله مختبىء فيه .

كان راسكولنيكوف يسمع هذا الحديث بامتعاض وقد بدت على وجهه دلائل الاشمئزاز وكأن شراء تلك الملابس اساء اليه فقال وهو يلوح بيده :

ــ دعني لا اريد الان •

فهتف رازوميخين •

ــ هذا لن يكون ايها العجوز ! أتعتقد انني اتلفت حذائي بالمشي لأتلقى هذا الجواب ؟ هيا يا ناستاسيا الشجاعة ساعديني ولسوف نتغلب على مقاومته وسنجعله يبدل ثيابه • وقد فعل !••

ارتمى راسكولنيكوف بعدئذ مستلقيا وهو صامت يفكر منتظرا خروجهما • وسأل بمرارة وانظاره نحو الجدار :

ــ بأي مال اشتريت هذه الحاجيات !

بأي مال ؟ اسمع هذا الهزر ! بمالك ! لقد جاء موظف منذ قليل يحمله اليك ! الا تذكر ان امك ارسلته بواسطة فاكروشين ؟

ــ نعم لقد بدأت اذكر الان •

نطق راسكولنيكوف بتلك العبارة وهو ينتفض متألما• بينما كان رازوميخين يرقبه بشيء من القلق • وفي تلك اللحظة فتح الباب ودخل رجل طويل القامة عريض المنكبين كان يبدو انه يعرف راسكولنيكوف معرفة سطحية فهتف رازوميخين بالقادم قائلا بلهجة مرحة :

ــ زوسيموف ها أنت ذا أخيرا •

كان « زوسيموف » طويل القامة ضخم الجثة ذا وجــه ممتلىء شاحب نظيف جدا وشعر اشقر مائل الى البياض منتصب على رأسه يضع على عينيه نظارات انيقة ويلمع في اصبعه خاتم ذهبي ، في السابعة والعشرين من عمره يرتدي معطفا من الجوخ الخفيف أودع فيه الخياط عنايته وفنه ، وسراويل صيفية فاتحة اللون حتى ليحكـم الانسان للوهلة الاولى انه شديد العناية بهندامه ومظهره . كان قميصه ناصع البياض وصدارته مزينة بسلسلة ذهبية تهبط حتى أسفل بطنه يبـدو متثاقل الخطى ثقيل الظل رغم المجهود الذي يبديه ليظهر بمظهـر المرح وكانت العناية التي يحيط بها نفسه واضحة في كل خطوة وكل لحظة حتى ان كل معارفه كانوا يشعرون بانه انسان ثقيل ولكنهم يتفقون مع ذلك بانه خبير في مهنته .

هتف رازوميخين :

ـ يا عزيزي ! لقد ذهبت مرتين الى منزلك فلم اجدك ... ها ان المريض قد استعاد حواسه .

فسأل زوسيموف مغمغما !

ـ ارى ذلك .. والان كيف حالك يا راسكولنيكوف ؟

ومضى دون ان ينتظر جوابـا فجلس علـى طرف « السرير » باسترخاء واهمال . قال رازوميخين :

ـ انه لا يزال ينظر بمنظار اسود الى الاشياء ولقد اضطررنا منذ لحظة على ان نبدل له ثيابه بالقوة فكاد ان يبكي .

ـ كان يجب ارجاء ذلك الى ما بعد طالما انه لم يرق لو ... ارني نبضك اما زال رأسك يؤلمك ؟ هم ؟...

اجاب راسكولنيكوف بلهجة يشوبها الغضب وقد نهض فجـــأة ولمعت عيناه ببريق خاطف :

ـ انا في حالة جيدة ••• تماما •• وتهاوى مـن جديد على الوسادة مستديرا نحو الجدار •

كان « زوسيموف » يرقبه باهتمام فقال :

ـ حسنا جدا • انه يتقدم ••• هل تناول طعاما ؟

فراح رازوميخين يعدد له انواع الطعام التي تناولـــه المريض ويسأله عن الالوان التي يجب تقديمها اليه في المستقبل • فقال :

ـ فليطعم ما يشاء ••• حساء ••• شاي باستثناء البصل والقثاء ولحم البقر ••• واقطعوا عنه الدواء وسأعوده لاراه •

قال رازوميخين بلهجة الواثق :

ـ سوف اجعله يتنزه مساء غـد وسنمضـــي الى حديقـــة « يوسوبوف » ثم الى « الباليه دوكريستال » •

ـ حسنا لن اعوده غدا ولن تضيره جولة صغيـرة وسنرى بعد ذلك •••

ـ مما يؤسف له انني اليوم اقيم حفلة على بعد خطوتيـن مـن هنا ••• كم وددت لو استطاع ان يشاركني فيها حتى ولو كان مستلقيا على سريره ! هل تأتي انت يا زوسيموف ؟ لا تنس انك وعدتني !

ـ طبعا لكنني سأكون متأخرا قليلا • ماذا ستقدم ؟

ـ لا شي اكثر من شاي وعرق وبعض السمك ثم الحلوى ايضا • هذا كل ما هناك لان الحفل مقتصر على الاصدقاء •

ـ ومن هـم ضيوفك ؟

ـ اشخاص من الحي • كلهـم حديثو المعرفة بي باستثناء عـم عجوز لي ارتبطت به مؤخرا باسباب معينة لانه جاء الى « بيترسبورغ »

امس فقط . اننا لا نلتقي اكثر من مرة كل خمس سنوات .

ـ لقد كاد أن يتلف حياته كلها في احدى المقاطعات كرئيس لمركز البريد وهو الان يتقاضى راتبا تقاعديا وله من العمر خمسة وستون عاما وهو معجب بي وسيكون في الحفلة قاضي التحقيق المختص بالحي « بورفير سيميونوفيتش » وهو رجل قانوني هل تعرفه ؟

ـ أهو من اقربائك ايضا ؟

ـ قريب بعيد جدا . لكن لم امتعضت قليلا ؟ ألأنك اختلفت معه ذات يوم تكاد الان ان تلتهمني بنظرتك الغاضبة ؟

ـ انا لا اعلق اي اهتمام عليه .

ـ ذلك اجدى اذن . وسيكون بين الموجودين طلاب واستاذ وموظف وموسيقي ثم الضابط « زاميوتوف »

ـ قل لي اذا امرت ما هي العلاقة التي تربطك او تربطه (واشار بأصبعه نحو راسكولنيكوف) بواحد مثل « زاميوتوف » ؟

ـ اوه ! يا لك من رجل منغص تهتم بالاسئلة المتعلقة ... انك تعتمد في حياتك على مثل هذه النظريات وكأنك جبلت عليها . وبذلك لا يجرؤ المرء على ان يستغرق في السرور معك ! اما بالنسبة الي فانني ابحث قبل كل شيء عن الرجل الطيب . تلك هي نظريتي . وزاميوتوف رجل طيب جدا .

ـ نعم ! ويأكل من المعالف ...

غضب رازوميخين وصاح فجأة :

ـ ليكن ! لا يهمني ذلك . هل امتدح نفسه امامك بمثل هذا القول؟ ان ما يهمني فيههو انه رجل طيب. ولو اضطر الانسان للتدقيق في كل الناس لاخفق ـ ولاعجبه ـ في العثور على شخص ممتاز واحد . انا اراهن ان المدقق المتعمق لا يدفع ثمنا لشخصي بصلة واحدة

ولو اضيف الي شخصك !

ـ هذا قليل ! انا ادفع بصلتين ...

ـ اما انا فواحدة فقط . قد يكون زاميوتوف خبيثا او سفيها ، غير انني استطيع دائما ايجاد الفرصة التي تمكنني من جذب شعره . ذا ينبغي ان يعمد المرء مع مثله الى المداراة واللطف وليس الى العنف، لانه يصعب اصلاح المرء بالشدة والتنكر له ، خصوصا اذا كان خبيثا . ينبغي أن يكون الانسان شديد الدهاء مع الخبيثين . وأنت أيها التقدمي الاحمق ، انك لا تفهم شيئا من هذا . انت نحترم الطبيعة البشريه ففط ، بل وتنتقد نفسك أيضا . مع ذلك لا بأس من أن أخبرك بأن بيننا نوعا من العمل .

ـ يسرني ان اعرف ذلك العمل ...

ـ انها لا زالت قضية الدهان ... اقصد دهان البيوت . لكننا سنجد طريقة لانقاذه من ورطته واعتقد ان لا خطر عليه الان فقد وضحت القضية وكل ما نعمله الان ان هو الا ضرب عصفورين بحجر واحد .

ـ اي دهان بيوت تعني ؟

ـ كيف ؟ ألم أخبرك بالامر ؟ كلا؟ حسنا . أعتقد انني سردت لك البداية فقط ! .. انت تعرف حكاية العجوز المرابية ارملة الموظف ... حسنا . ان احد الدهانين متهم بالقضية الان .

ـ آه .. نعم . نعم . لقد سمعت شيئا عن تلك الجريمة . وهي قضية استلفتت انتباهي الى حد ما وقد قرأت ما نشرته الصحف ... استمر ...

كانت ناستاسيا واقفة قرب الباب تتابع الحديث باهتمام فقالت موجهة حديثها الى راسكولنيكوف :

ـ لقد قتلوا اليزابيت ايضا ...

فغمغم راسكولنيكوف بصوت مختنق :

ـ اليزابيت ؟

ـ نعم اليزابيت . بائعة الثياب القديمة . انت تعرفها جيدا . لقد كانت تتردد علينا وقد رتقت ذات مرة قميصك .

ادار راسكولنيكوف وجهه نحو الجدار وراح يتأمل زهرة بيضاء منقوشة على سجادة الجدار الصفراء القذرة الممزقة ويعد بتلاتها والخطوط التي تحيط بها .

شعر ان اعضاءه قد تصلبت وكأنها لم تعد قطعة من جسمه فلم يحاول القيام بأية حركة بينما انظاره معلقة بالزهرة البيضاء . ونظر زوسيموف بامتعاض واضح الى ناستاسيا وقد ازعجه قولها وقال موجها حديثه الى رازوميخين :

ـ حسنا ، وماذا وقع لذلك الدهان ؟..

ادركت ناستاسيا انه يطلب اليها السكون فزفرت وصمتت بينما أجاب رازوميخين بلهجة المتفاخر :

ـ ان ذلك المسكين قد اتهم بالجريمة .

ـ هل اقيمت ضده الدلائل ؟ ما هي البراهين ؟

ـ مجرد شبهات وظنون . غير ان ما اخذ عليه لا يمكن ان يكون مهما . ما كان هذا ينبغي شرحه . انها ظنون كتلك التي احاطت بالاخرين : ككوخ وبيسترياكوف ، اللذين اوقفا في حينه . أما كيف وقع ذلك فان الانسان ليخجل من ذكره ... ومن المنتظر ان يزورني « بيسترياكوف » اليوم ! وعلى فكرة يا روديا انت تعرف هذه القضية . فهي وقعت قبل مرضك أعني قبل أن يغمى عليك في مركز البوليس حينما كانوا يتحدثون عنها هناك !

نظر زوسيموف الى راسكولنيكوف بفضول لكن هذا لم يطرف.

ــ اتدري يا رازوميخين بأنك تبدو مولعا في التدخل في كــل الامــور ؟؟..

ــ المهم ان استطيع تخليص الدهان المسكين من ورطته .

فاه بذلك وهو يهوي بيده على المائدة التي كــانت بجانبه وقــد استبد به الحماس وصمت قليلا ثم اردف :

ــ انه ليس عارا ان يخطىء المرء ... بل ان الخطأ مفيد لأنــه يوصل الانسان الى الحقيقة ! لذلك فأنا لا انقم على البوليس خطأه بل ان ما يزعجني في الموضوع هو استمساكهم بالخطأ . وانا اميــل الى يورفير رغم ذلك . والان لننظر في الاســبـاب التي جعلت رجــال البوليس يسلكون طريقــا خاطئــا : أنهم يعتمدون على تناقض يدعون وقوعه في اقوال كوخ وبيسترياكوف . فهما قررا انهما شاهدا الباب مغلقا اول الامر ثم لما عادا ومعهما الحارس وجداه مفتوحا . لذلــك فقد وجب ان يتهما بالجريمة فتأمل هذا المنطق !

ــ هيا ... هيا . لا تندفع ! لم يكن لديهم غير ما عملوا . وعلى فكرة كوخ أعتقد انني أعرف عنه شيئا ... انه كان يشتري من العجوز الرهائن التي يعجز أصحابها عن تسديد ما استلفوه عليها .

ــ نعم انه لص ! وهو يشتري ايضا السندات المالية ! انه فارس أعمــال ! ليحمله الشيطان ! أنا يزعجني هــذا أتفهم ! ان الوتيرة التي يسيرون عليها هي كل ما يثير اعصابي ... « الروتين » مع ما فيه من سخف وتضليل ... انني اعتقد ان في مقدورهم في هذه القضية على الاقل ان يتخلوا قليلا عن اساليبهم البالية وان يتبعوا نهجا جديــدا خاصا غير عادي . يدعون ان لديهم « حقائق » اما ما يسمونه بالوقائع « الثابتة » ليست كل شيء في سياق التحقيق . بل ان نصف الحــل

يتوقف على الطريقة التي يفهمون بها تلك الوقائع !

ـ يبدو انك تفهمها خيرا منهم !

ـ طبعا ... طبعا ... اسمع هذه المعجزة التي يتذرعون بها : في صبيحة اليوم التالي للجريمة ، كانوا يستجوبون كوخ وبيسترياكوف رغم انهما اوردا ادلة لا تقبل الجدل ، تدعم اقوالهما وتبين تصرفاتهما في ذلك اليوم المشؤوم . فوقع حادث غير منتظر . اذ تقدم شخص يدعى « دوخكين » ـ وهو فلاح يدير حانة تقع مقابل البناء الذي وقعت فيه الجريمة ـ وقدم للرئيس علبة حلي تحتوي على قرط للاذن وادلى بالاقوال التالية :

قال : « انه اول امس مساء ، بعد الساعة الثانية ، ـ لاحظ التاريخ والوقت ـ جاءه العامل الدهان نيكولا ، وهو من رواد حانته، يحمل علبة صغيرة فيها قرط من الذهب بأحجار لامعة صغيرة ورجاه أن يسلفه روبلين عليها . ولما سأله من أين له هذه الحلية ؟ أجابه بأنه عثر عليها على الرصيف ! فاقتنع بجوابه واعطاه روبلا واحدا لانه قدر انه اذا رفض تسليفه اي مبلغ فانه سيمضي الى سواه . وعلى ذلك فان من الافضل والحالة هذه ان يقرضه بعض المال خصوصا وانه سينفقه في حانته . وهكذا احتفظ بالحلية الذهبية وأعطاه الروبل وهو عازم على ابلاغ رجال الشرطة اذا اتضح انها كانت مسروقة ! » .

لا شك انت ترى ان تلك الحكاية تجعلك تنام وانت واقف على قدميك ! لان « دوخين » كاذب في روايته وانا اعرفه فهو اذا كان قد « لطش » من نيكولا حلية تساوي قيمتها ثلاثين روبلا لقاء روبل واحد فليس ذلك ليخبر رجال الشرطة فيما بعد كما صرح ! ولم تقف قصته عند هذا الحد بل انه تابع يقول :

« إن هذا الفلاح « نيكولا ديماتيكس » معروف من قبلي ..

فهو من مقاطعة « ريازان » التابعة لناحية « زارائيسك » وانا شخصيا من هناك ولذلك اعرفه منذ ان كان طفلا • فهو يحب الشراب رغم انه ليس مدمنا • وانا اعرف انه يشتغل مع زميله « دميتري » الذي هو كذلك من بلدته • وقد شهدته يجرع كأسين متتاليين يدفع ثمنها من الروبل الذي اقترضه مني ثم يطبق على ما بقي له منه ويمضي • ولم يكن « دميتري » معه في تلك اللحظة • وفي اليوم التالي سمعنا ان آليونا ايفانوفنا واختها اليزابيت قد قتلتا بضربات فأس • وكنت اعرف العجوز واختها فغمرني شك مفاجيء حول مصدر الحلية التي اتاني بها « نيكولا » وذهبت لارى حيث يشتغل مع « دميتري » في ذلك البناء ورحت اسأل بدهاء وحذر لأعرف شيئا عن مصدر الحلية وكان أول سؤال وجهته هو :

ـ هل نيكولا هنا ؟

فأجابني دميتري ان نيكولا يحتفل اليوم بالشراب لانه عاد مساء امس عند الشفق ثملا مترنحا ولم يلبث معي اكثر من عشر دقائق في الدار ثم خرج من جديد ولم أره بعد ذلك فصممت على انهاء العمل وحدي •

ولما كان المسكن الذي يدهنون جدرانه في الطابق الاول وكان يفضي الى السلم الذي يقود الى حيث تقطن الضحيتان فقد احتفظت بهذه الملاحظة لنفسي عازما على الافادة منها في ربط الحوادث واستقصيت المعلومات من الجريمة وعدت الى داري فريسة للشكوك وفي صباح اليوم التالي شاهدت « نيكولا » داخلا حانتي وقد خف ثمله وبدا انه لم يأكل بعد شيئا وقدرت انه يستطيع فهم الحديث الذي سأوجهه اليه فلما جلس على مقعد وحيدا ـ ولم يكن في الحانة الا رجل آخر غريب مدمن كان نائما في تلك اللحظة على مقعده باستثناء

الفلاحين اللذين يقومان بالخدمة ــ اقتربت منه ودار بيننا الحديث التالي : قلت :

ــ هل رأيت دميتري ؟

ــ كلا لم اره !!

ــ ولم تذهب الى حيث يشتغل ؟

ــ لم اذهب منذ اول امس .

ــ ولكن اين نمت ليلتك هذه ؟

ــ في حي « الرمال » عند آل كولومنا .

ــ ومن اين جئت بذلك القرط امس ؟

فأجاب دون ان ينظر الي :

ــ عثرت عليه على الرصيف .

ــ هل سمعت ان في ذلك المساء بالذات وفي تلك الساعة ايضا وقع كذا وكذا على السلم الذي تشتغل في مسكن يطل عليه ؟

ــ كلا ! لا اعرف شيئا .

فلما قصصت عليه ما وقع كان يصغي الي وهو شاحب اللون متسع الحدقتين ، وغدا اقرب الى لون الحكك ورأيته يأخذ قبعته ويحاول النهوض فعملت على استبقائه وقلت :

ــ انتظر يا نيكولا . الا تشرب قدحا ؟ ثم غمزت الى احد الفلاحين مشيرا الى الباب ليقف عنده وتركت بدوري الخوان الذي كنت اقف وراءه . وفجأة نهض نيكولا دون ان نستطيع اللحاق به وركض نحو الباب وخرج مندفعا ثم اختفى عند منعطف الطريق !.. فازدادت شكوكي وتأكد لي انه هو القاتل ! » .

فقال زوسيموف بصوت خافت :

ــ ذلك واضح .

ــ انتظر واسمع النهاية : غني عن الذكر ان رجال الشرطة راحوا

على قدم وساق يبحثون عن نيكولا وانهم اوقفوا دوخكين وفتشوا منزله وحانته وكذلك فتشوا مسكن دميتري فجعلوا عاليه سافلـه ولم ينج منهم آل كولومنا واستطاعوا أمس الاول القبض على نيكولا وسوقه الى السجن • وجدوه على ما يبدو في « خان » بالقرب من مكان نسيته ويبدو انه لما بلغ ذلك « الخان » نزع صليبه الفضي من عنقه وطلب استبداله بقدح من العرق شربه • ولم تمض على وجوده بضع دقائق حتى شاهدت امرأة ـ كانت تقصد الاصطبل لتحلب البقرات ـ نطاق نيكولا معقودا الى عمود في السقف على شكل عقدة سيالة ورأته يصعد على مقعد محطم ويحاول ادخال العقدة فاستطاعت ان تطلق صيحات مذعورة هرع على اثرها عدد من الناس ولما قيل له :

ـ اذاً هذا ما كنت تريد عمله ؟

اجاب :

ـ خذوني الى دائرة البوليس لسوف اعترف بكل شيء •

وهكذا اقتادوه بموكب يليق به الى دائرة البوليس التي طلب ان يأخذوه اليها وهي التي في هذا الحي • وهناك راحوا يستجوبونه فعرفوا اسمه الكامل وان له من العمر اثنين وعشرين عاما فسألوه :

ـ هل شهدت احدا على السلم خلال الساعة كذا وكذا بينما كنت تشتغل مع دميتري •

فأجاب :

ـ يجوز • لقد مر عدد من الناس • لكننا لم ننتبه اليهم •

س : هل سمعتما حركة ما او ضجيجا ؟

ج : لم نسمع شيئا يلفت النظر •

س : لكن انت يا نيكولا هل قتلت وسلبت في ذلك اليوم وفي

ساعة كذا تلك العجوز واختها ؟

ج : لا علم لي بشيء من ذلك بل وما كنت اظن ان هذا سيقع وقد سمعت القصة من آتاناس يا فليتش للمرة الاولى • وكان ذلك في الحانة •

س : ومن اين جئت بذلك القرط الذهبي ؟

ج : لقد وجدته ملقي على الرصيف •

س : لِمَ لم تذهب في اليوم التالي الى عملك كالمعتاد ؟

ج : لانني كنت اسكر •

س : واين كنت تسكر ؟

ج : في امكنة كذا وكذا •

س : ولم فررت من لدن دوخكين ؟

ج : لانني كنت خائفا •

س : ومم كنت خائفا ؟

ج : كنت خائفا من المحاكمة •

س : ولم تخاف منها طالما انك لست مجرما ؟؟ ••• »

وهكذا يا زوسيموف سواء صدقت ام لم تصدق ، القي عليه هذا السؤال السطحي وبهذه العبارات بالذات • فما رأيك ؟

ــ ليس سخيفا اذا كانت القرائن موجودة واضحة •

ــ انا لا اتحدث الان عن الادلة بل عن السؤال • عن الطريقة التي يفهم بها هؤلاء الناس واجباتهم ! الى الشيطان كل هذا ! لقد اعتصروه بالاسئلة عصرا حتى اعترف وقال : « كلا لم اجد الحلية على الرصيف بل وجدت العلبة في المسكن الذي نشتغل فيه أنا ودميتري »

ولما سألوه : وكيف حدث ذلك اجاب :

ــ كنا دميتري وانا قد اشتغلنا طوال اليوم وكانت الساعة

الثامنة حين هممنا بالانصراف واذا بدميتري يأخذ فرشاة مغموسة بالدهان فيلطخ وجهي به على سبيل المزاح ويفر • فتبعته غاضبا وانا اصرخ كالوحش الجريح ولم اكد ابلغ الباحة حتى اصطدمت بالبواب الذي كان يرافقه بعض السادة ولا اذكر عددهم • وهنا راح البواب يسمعني حماقات حتى جاء البواب الثاني هارعا وخرجت زوجة الاول من كوخها وراحت تدعم زوجها وتساعده في سبابه وكذلك كان هناك رجل وبرفقته سيدة كانا ينتظران في تلك اللحظة على الباب الخارجي فراحا يوبخاني ايضا لا لشي الا لاننا دميتري وانا احدثنا ضجيجا وسببنا في تأخيرهما عن متابعة السير • والحقيقة انني كنت في تلك اللحظة قابضا على فروه رأس دميتري طارحا اياه ارضا منهالا عليه بالضرب وكان دميتري بالمثل قابضا على شعري يضرب وجهي ويركلني بساقيه دون ان نكون حانقين بل كانت القضية مجرد مزاح فقط • وتخلص مني دميتري وانطلق الى الشارع فهرعت وراءه لكنني لم أبلغه فعدت الى المسكن الذي كنا نشتغل فيه لأخذ أدواتي التي تركتها هناك عند لحاقي بدميتري ولارتب العدة • وعندئذ شاهدت في الممشى قرب الباب بمحاذاة الجدار علبة صغيرة تعثرت بها قدمي فلما انحنيت عليها متفحصا رأيت شيئا ملفوفا في ورقة بعناية واذا هو قرط ذهبي » •

صاح راسكولنيكوف فجأة وهو يلقي نظرة وجلة شاردة مضطربة الى رازوميخين وينتاهض على يديه بمجهود عنيف :

ــ وراء الباب ؟ كانت وراء الباب ؟ وراء الباب ؟

فأجاب رازوميخين وهو ينهض عن مقعده بدوره :

ــ نعم ! وماذا في ذلك ؟ ما بك ؟ ماذا اصابك ؟

فأجاب راسكولنيكوف بصوت خافت لم يبلغ مسامعه وهو

يتهاوى على الوسادة مستديرا الى الجدار :

ـ لا شـيء

ران السكوت عليهم جميعا لحظة طويلة حتى قطعه رازوميخين محدثا زوسيموف بعد ان القى عليه نظرة استفهام :

ـ لقد عاد يهذي ولا شك ، انه يحلم !

فهز زوسيموف رأسه نفيا وقال :

ـ تابع حديثك ، لا تلق بالا اليه ، ماذا بعد ؟

ـ ماذا بعد ؟ ان الامر واضح ! لم يكد نيكولا يرى الحلية ، حتى كل شيء : العمل ودميتري ، وهرع الى دوخيكن يقدم له الحلية لقاء روبل يستلفه كما اسلفت . لكنه اكتفى بالادعاء بانه لقيها على الرصيف وراح بعدئذ يحتفل بحظه « السعيد » . اما فيما يتعلق بالجريمة فهو لا زال متمسكا باقواله من انه لم يسمع عنها مطلقا الا في اليوم الثالث لوقوعها ، ولما اعيد استجوابه عن سبب اختفائه طيلة ذلك الوقت كان يجيب : ـ كنت خائفا .

وسئل عن سبب عزمه على الانتحار فقال :

ـ كنت اردد في نفسي شيئا .

ـ ما هو ذلك الشيء ؟

ـ هو انني سأحاكم ... » وهكذا تعود الاسئلة التي لا تنتهي. والان ما هي استنتاجاتك مما سمعت ؟

ـ وماذا تريدني ان استنتج ؟ هناك قرائن لا يمكن التغاضي عنها مهما بلغت تفاهتها : هناك امر واقع ! لا اعتقد انك تريد ان يطلق سراح ذلـك الدهان .

ـ كلا ! لكنهم البسوه تلك الجريمة مقتنعين بصدق فراستهم .

ـ انك تنفعل وتثور . ولكن ذلك القرط ؟ انك ولا شك توافق

معي على ان ذلك القرط الذي وقع في يده ذلك اليوم بالذات وتلك الساعة بالذات والذي هو واحد من مجموعة من الحلي اختفت كلها من صندوق العجوز ، انك توافقني على ان وجود القرط مع نيكولا امر مثير وان التحقيق في هذا الموضوع عادي جدا بل واجب .

هتف رازوميخين حانقا :

ـ كيف بلغ اليه القرط ؟ غريب الا ترى في هذه الاقوال ـ وانت الطبيب الذي تهتم قبل كل شيء بالطبيعة الانسانية ولك من عملك ما يتيح لك ذلك بسهولة ـ صورة عن طبيعة نيكولا ؟ ألا تلمس بوضوح ان كل ما صرح به خلال استجوابه كان الحقيقة الناصعة المطلقة ؟ ثق ان القرط قد بلغ اليه بالطريقة التي اوردها : تعثرت قدمه بالعلبة فأخذها .

ـ الحقيقة الناصعة المطلقة ؟ مع ذلك الم يعترف بانه كذب في المرة الاولى ؟

ـ اصغ الي بأنتباه : ان البواب و « كوخ » و « بيسترياكوف » والبواب الاخر وزوجة البواب الاول والبائعة التي كانت في الكوخ والمستشار القضائي « كريوكوف » الذي كان يترجل في تلك اللحظة من عربته ويجتاز عتبة المدخل مع سيدة ، كل هؤلاء واعني ثمانية او عشرة شهود يصرحون بصوت واحد أن « نيكولا » كان ملقيا « دميتري » الى الارض ومرتميا عليه يعاركه ويضربه بينما الاخر يجذب شعره ويركله بشدة ، وانهما كانا مستقلين امام الباب يعرقلان المرور وانهما استهدفا لسباب واستنكار من كل الجهات بينما ظلا « كطفلين » ـ كما قال الشهود تماما ـ يتعاركان ويتضاربان ويتضاحكان ويتلاحقان كالاطفال الذين يلعبون في الشارع . فهل سمعت هذا ؟ والان انتبه الى هذه الملاحظة : كل هذا بينما وفي الطبقة الرابعة جثتان

لا زالتا دافئتين لامرأتين يتهم في قتلهما وسلبهما نيكولا بالـذات ، فلو ارتكب امرا كهذا الا يقوم امامنا سؤال بسيط وهو : كيف كانت تلك الضحكات والصيحات وذلك العبث الصبياني امام الباب الرئيسي لذلك البناء تصدر عنه ؟ وهل تتفق مع الفأس والدم والحيلة والوحشية والمكر البادية على الجريمة نفسها ؟ كيف يقتل امرؤ منذ خمس دقائق على الاكثر ثم يمضي تاركا وراءه جثتين ساخنتين مهشمتي الـرأس وهو يعلم ان الناس سوف يكتشفون الأمر بين لحظة وأخـرى ! وبدلا من التواري والاختفاء يلعب مع شريكه في الجريمة ـ ولا بـد ان يكون دميتري شريكه على اساس ذلك الافتراض ـ كالطفل الـذي لا يحمل وزرا على ضميره ويجتذب بذلك أنظار عشرة مـن الشـهود ليتحققوا من شخصيته ويجمعوا على رؤيته •

ـ لا شك ان ذلك غريب انه غير معقول بالطبع ، لكن •••

ـ لا يوجد « لكن » ايها العزيز ••• فاذا كان القرط الذهبي الذي وجد في تلك الساعة وفي ذلك اليوم في جـزيرة نيكـولا يشكل قرينة جدية استنادا الى اقوال المتهم التي اعتبرت « موضع النقـد والاعتراض » فانه ينبغي الأخذ بعين الاعتبار الوقائع المؤيدة والتي تقول « انه من العبث نقض الاقوال » مع ذلك هل ينتظر من القضاء عندنا ، وهو على ما نعهد به من اتجاه ، هل يمكن لهذا القضاء ان يعتبر الدليل الذي يقوم على استحالة نفسانية « بسيكولوجية » وعلى «الاستعداد الفكري » ، هل يمكن ان يعتبره امرا مسلما به تنهار امامه الوقائـع المادية مهما كان نوعها ؟ كلا ! لا اعتقد ان رجلا سيشـنق لمجرد عثورهم معه على حلية تخص امرأة قتيلا • خصوصا وانه ما كان ليعرض تلك الحلية لو انه كان الفاعل وهنا القضية الرئيسية في الموضوع وهـذا هو سبب حماسي فهل تفهم ؟

ـ نعم ، ارى انك متحمس . انتظر لحظة ، لقد سها عني سؤال اريد طرحه عليك : ماذا يثبت ان ذلك القرط جاء من صندوق العجوز ؟

بان الانزعاج على وجه رازوميخين وقال بشيء من الامتعاض :

ـ لقد برهن على ذلك ، لان « كوخ » الذي تعرف على القرط دل على صاحبه الذي استلف من العجوز وأكد صدق قوله .

ليكن ، بقي سؤال : ألم يشاهد أحد نيكولا في الوقت الذي كان فيه كوخ وبيسترياكوف يصعدان السلم ؟ وهل لا يمكن التدليل على ذلك بطريقة ما ؟

فأجاب رازوميخين بأسف :

ـ المؤسف ان احدا لم يره حتى ولا كوخ وبيسترياكوف . فهما لم يلاحظا العمال عندما صعدا الى مسكن العجوز رغم ان شهادتهما لم تعد الان ذات موضوع . لقد قالا : « شهدنا باب مسكن مفتوحا ولا شك ان اعمالا وترميمات كانت تجري فيه ! فلم نعر ذلك التفاتا ولسنا متأكدين تماما ما اذا كان العمال موجودين فيه في تلك اللحظة ام لا » .

ـ هم ! وعلى ذلك فان كل ما يمكن الاستشهاد به لاظهار براءته هو ذلك العراك وتلك الضحكات التي كان يرددها وهو يصارع دميتري . ليكن ، انه دليل قوي ولكن اسمح لي من جديد أن أطرح عليك سؤالا :

ـ كيف تفسر الامر بنفسك ؟ اقصد كيف تفسر وجود القرط في المسكن الخالي اذا كان ما قاله نيكولا بصدد عثوره عليه صحيحا ؟

ـ كيف افسر ؟ وما الذي يدعو للتفسير هنا ؟ ان الامر واضح .

او على الاقل ان الطريق التي ينبغي على التحقيق ان يسير عليها واضحة تماما • بل ويوضحها القرط نفسه : لقد ترك القاتل الحقيقي ذلك القرط يسقط منه • فقد كان في مسكن القتيل عندما قرع « كوخ وبيسترياكوف » الباب وكان قد اوصده من الداخل • وارتكب « كوخ » حماقة بمغادرته مكانه مما اتاح للقاتل فرصة التسلل من المسكن والهبوط على السلم خصوصا وانه لم يكن امامه طريق اخر للفرار • وعلى السلم اضطر ان يحتجب عن انظار كوخ وبيستر ياكوف والبواب بالاختفاء في المسكن الخالي الذي كان دميتري ونيكولا قد تركاه منذ حين • ولا شك انه توارى وراء الباب عندما كان البواب والزائرون يصعدون الى الطبقة الرابعة وعندئذ نزل بهدوء في اللحظة التي كان دميتري ونيكولا يتتابعان في الشارع والباب العمومي خاليا بعيدا عن الرقابة • ولا شك ان ذلك القرط قد سقط منه حينما كان متواريا وراء الباب دون ان ينتبه له لانه كان منصرفا الى نواحي اخرى • تلك هي القضية كلها •

ــ لعمري يا عزيزي انه تصور بارع ومناقشة وجيهة •

ــ ولكن لِمَ اذا ؟ لِمَ اذاً ؟

ــ لان ذلك كله مرتب ببراعة ودهاء حتى ليظن انه قصة مسرحية موضوعة •

كان رازوميخين على وشك الرد على تلك الملاحظة حينما فتح الباب ودخل انسان جديد لم يكن يعرفه احد من الثلاثة الموجودين في الغرفة •

كان الداخل رجلاً متصنعا في حركاته ، متعجرفا لا يمكن تحديد سنه على الضبط ذا سحنة متحفظة صارمة ... وقف على العتبة وسرح طرفه فيما حوله وبدت على وجهه امارات الدهشة العميقةالمهينة وتمتم:

في اية بؤرة ارى نفسي ؟

كان يتلفظ بتلك الكلمات بنوع من المقترن بالخوف والغضب وراح يتأمل « الجحر » المنخفض الضيق الذي يأوي اليه راسكولنيكوف ، ثم استدار دون ان تتبدل نظرة القلق والترفع المرتسمة في عينه ، ونظر الى راسكولنيكوف وهو مسجى دون حراك على ذلك الديوان الحقير وهو شبه عار من الثياب ، أشعث الشعر ، قذر الوجه طويل اللحية ... وانتقل بعدئذ الى معاينة وجه « رازوميخين » المهمل الشعر واللحية الذي راح يحملق فيه بدوره بفضول مثير دون ان يتحرك من مكانه ، وران السكون دقيقة اعقبه تبدل في المشهد : ذلك ان الغريب شعر من حرارة اللقاء الذي استقبل به في ذلك « الجحر » انه لن يتقدم قيد انملة في الغاية التي ينشدها اذا استمر على اسلوبه المترفع الشامخ المبالغ فيه ، لذلك فقد عدل خطته بما يتناسب و « المقام » وقال بلهجة مهذبة خالية من التصلب ، موجها حديثه الى زوسيموف وهو يتمهل في نطق الكلمات :

ــ روديون رامونوفيتش راسكولنيكوف ، سيد ، كان طالبا أو على الاصح طالبا سابقا ؟

وتحرك زوسيموف ببطء وكاد ان يجيب لولا ان تدخل رازوميخين فجأة ــ وهو الذي لم يوجه الغريب اليه الحديث ــ

ــ خذ ، انه مستلق على « الديوان » ولكن انت ماذا

« ينبغي لك » ؟

وازاء عبارة « ماذا ينبغي لك » التي تدل على رفع الكلفة بين المتكلمين كاد السيد ذي المظهر المتكلف ان يفقد وقاره ويستدير نحو المتحدث الزري الهيئة لولا أن تمالك نفسه آخر الأمر فاستمر يوجه الحديث الى زوسيموف الذي قال وهو يشير الى المريض

ـ هذا راسكولنيكوف !

ثم تثاءب فاغرا فاه حتى ظهرت آخر اضراسه وبحث في جيب « صدارته » عن ساعته المحدودبة فأخرجها وفتح غلافها ثم اعادها الى جيبه بعد ان نظر اليها وعاد يتثاءب بأشد مما كان يفعل من قبل .

أما راسكولنيكوف فكان خلال هذا الوقت لا يزال مستلقيا في مكانه دون ان ينطق بحرف واحد . كانت نظراته معلقة بوجه الغريب رغم خلوها من اي معنى ! كان قد تخلى منذ حين عن النظر الى تلك الزهرة البيضاء على السجادة المهلهلة البالية فبدا وجهه شديد الشحوب تفضح امارات وجهه عذابا داخليا اليما حتى ليخيل للناظر اليه انه اخرج توا من غرفه العمليات حيث اجريت له عملية جراحية استنفذت الجانب الاكبر من دمه . غير ان الوافد الجديد بدأ تدريجيا يثير انتباهه ثم دهشته وأخيرا حذره بل خوفه . فلما نطق « زوسيموف » بعبارة : هذا راسكولنيكوف ، نهض فجأة كمن يجذبه « رفاص » وجلس على الديوان وقال بصوت خافت متقطع مليء بالتحدي :

ـ نعم انا راسكولنيكوف ! ماذا تريد ؟

ـ انا بيير بيتروفيتش لوجين واميل الى الاعتقاد بان اسمي ليس مجهولا تماما !

غير ان راسكولنيكوف الذي كان ينتظر امرا مختلفا كل الاختلاف عما وقع ، نظر اليه ـ دون أن يجيب ـ نظـرة ملؤهـا التبلد والشرود وكأنه لم يسمع بهذا الاسم الا للمرة الاولى ... فاعقب بيير بيتروفيتش بشيء من القلق :

ـ كيف ؟ هل يعقل انك لم تتلقَ حتى الان اي نبأ ؟ !

فكان جواب راسكولنيكوف ... كل جوابه ، ان عـاد الى الاستفتاء بتمهل جاعلا يديه اسفل رأسه ومحدقا في السقف ! فبـدا على وجه « لوجين » شيء من الانزعاج والحزن بينما كان زوسيموف ورازوميخين يتأملانه بفضول متزايد حتى اشتدت حيرتـه وبـدت واضحة ! غمغم قائلا :

ـ كنت اعتقد واتوقع ان تكون الرسالة التي وضعت في البريد منذ عشرة ايام بل خمسة عشر يوما قد ...

فقاطعه رازوميخين فجأة بقوله :

ـ اسمع ! لم تبقَ واقفا هكذا بالقرب من الباب ؟ اذا كان لديك شيئا تفسره فاجلس ! ... وانت يا ناستاسيا انك تقفين هكذا علـى العتبة الضيقة ! تنحّي يا فتاة ودعي السيد يدخل ! تقدم ... هـذا مقعد لك « فتسلل » لتصل اليه !

وازاح مقعدا فأبعده عن المائدة تاركا فراغا بين المائدة وركبتيـه وانتظر وهو في ذلك الوضع القـلق أن « يتـسلـل » الزائر في ذلـك الفراغ القليل ليجلس على المقعد ! كان الموقف من الدقة بحيث تعذر عليه ان يرفض العرض فبادر الى المقعد وهو ينسل في ذلك المر الضيق ويتعثر حتى اذا ما بلغ المقعد جلس عليه بعد ان القى نظرة مستريبـة على رازوميخين الذي قال بصوت اشبه بالنباح :

ـ لِمَ تقلق ؟ ان روديا مريـض منذ خمسة أيـام وقد كـان يهذي خلال ثلاثة أيام كاملة ، أما الان فقد استعاد وعيـه بل وأكل بشهيـه . وهذا هو طبيب يعوده وانا صديق روديا وطالب سابق كذلك ، وانـا اقوم الان بدور المربية بالنسبة اليه فلا تلقَ بالا الينا ولا يزعجـك وجودنا بل استمر وتحدث بما لديك !

فقال الزائر محدثا زوسيموف دائما :

ـ اشكركم ! ولكن الا اضجر مريضك بحضوري وحديثي ؟

ـ على العكس بل انك قد تسليه وترفه عنه ! وعاد يتثـاءب من جديـد !

كان رازوميخين يتحدث بلهجة مؤنسة صريحة محببـة حتى ان بيير بيتروفيتش أبدل أخيرا سلوكه وشعر بارتياح اليـه بعـد انقباض. ولعل ما اكده ذلك « الصعلوك » من ان هو الاخر طالب سابق، احدث اثرا طيبا في نفس الضيف لذلك فقد استمع اليه حين قال :

ـ آه ... لقد استعاد شعوره وامتلك حواسه منذ صباح هذا اليـوم !

فقـال الضيف :

ـ ان امك ...

وافلتت حنجرة رازوميخين صوتا « هم ! » صدر عنها بصخب حتى ان لوجين لم يتماسك ان نظر اليه متفحصا مستفسرا فقال هذا :

ـ ان ذلك صدر عني بشكل لا ارادي فاستمر !

فهز كتفيه وقال متابعا :

ـ ان والدتك كانت قد بدأت في كتابة رسالة اليك عندمـا كنت اقيم معها في المدينة هناك ، فلما وصلت الى هنا ، تعمدت التريث كـل

هذه الايام لاتاكد من انك خلالها ستكون قد اطلعت على كل شيء•• وها انني لدهشتي البالغة •••

فقاطعه راسكولنيكوف فجأة وبلهجة مفعمة بروح التحدي :

ـ انا اعرف •• اعرف ! انك انت « المقبل » ! انا اعرف ذلــك وهــذا يكفي !

شعر بيير بيتروفيتش بالمهانة لهذا الجواب فصمت وحار في معرفــة أسبابه فاستغرق في الصمت دقيقة طويلة •

كان راسكولنيكوف ـ الذي استدار نحو الزائر قليــلا ليجيب على سؤاله ـ قد عاد فجأة يتفحصه بعينيه بفضول بين كما لو انــه لم يتح له ذلك في المرة الاولى او ان شيئا جديدا في شخصية الضيف قد اثار انتباهه • لذلك فقد رفع رأسه عن الوسادة ليتسنى له القيام بمهمة التأمل والتفحص • والواقع ان مظهر بيير بيتروفيتش العاث لـم يكن فيه ما يؤخذ عليه او يستوجب اطلاق كلمة « المقبل » التي نعتــه بها راسكولنيكوف خلال تصرفه البعيد عن التهــذيب • كــان يبدو أن بيتروفيتش لم يدع أيامه في العاصمة تمضي دون أن يستفيد منهــا في تجميل نفسه واصلاح شكله بانتظار خطيبته ، الامر الذي لم يكــن غريبا بل على العكس منطقيا ومنتظرا • ولعله « هو » اعتقــد ان مظهره غير مبالغ فيه لولا ان موقفه « كخطيب » على وشك الــزواج جعله هدفا للنقد والتفحص • كانت ثيابه تبدو حديثة العهد بايــدي الخياط وقد انسجمت وبدت كاملة رغم انها لم تكن جديدة كل الجدة فلم تكن والحالة هذه لتغني أو لتفضح الهدف الذي يرمي اليه صاحبهـا ، لكن القبعة الانيقة المستديرة الجديدة كل الجدة كانت تفضح تلــك الغاية ، اذ كان ممسكا بها في يده بعناية ملحوظة وقد وضع فيها زوجا من القفازات بدا انه يستعملها للزينة لانها من ذلك النوع الذي يكتفى

بحمله دون تغبيب اليدين فيه . اما الثوب فكانت الالوان الزاهية تغلب عليه وتجعل لابسه يبدو أصغر سنا مما هو عليه . « فالسترة » كانت ذات لون رمادي فاتح والسراويل الصيفية زاهية وكذلك « صدارته » . اما القميص فكان ثمينا وقد تدلت منه ربطة من « الباتيست » الفاخر . كانت تلك الالبسة تبدو متفقة مع بيتروفيتش وقامته ، اذ كان وجهه نضرا رغم سنواته الخمسة والاربعين يعطي صاحبه سنا اصغر وقد زينه سالفان كستناويان طويلان يتكاثفان عند أسفل الفكين ويبرزان ذقنا نظيفة محلوقة بعناية . وكان شعره مرجلا ومجعدا بعناية ليس فيه ما يبعث على النقد على عكس ما يلاحظ عند ذوي الشعر المجعد عادة وكان يكسبه شكل العروس الالماني الصميم. أما اذا كان هناك شيء مزعج يؤذي البصر في ذلك الوجه الصارم الذي لا يخلو من جمال وخطورة فانه شيء آخر لا علاقة له بالقسمات. ولما انتهى راسكولنيكوف من معاينة وجه السيد لوجين هوى برأسه على الوسادة من جديد بعد أن ارتسمت على شفتيه ابتسامة مريرة . لم يتراجع السيد لوجين ازاء هذا التصرف المهين ، بل تمالك نفسه عازما على التغاضي عن ذلك الشذوذ فقال يبدد السكون الذي غمر الحجرة :

ـ انني شديد الاسف اذ أراك على هذه الحال ولو انني علمت انك مريض لجئت قبل الان ولكنك تدرك أن متطلبات العمل تشغل المرء : فلدي الان قضية مهمة جدا اراني مضطرا بصفتي محاميا الى عرضها على مجلس الشيوخ . هذا بصرف النظر عن المشاغل الكثيرة التي تدركها وانني انتظر اسرتك واقصد والدتك واختك بين لحظة واخري ...

ابدى راسكولنيكوف حركة تشير الى انه يريد قول شيء لان

وجهه عبر عن انفعال معين فصمت بيير بيتروفيتش تاركا لـه الفرصـة للكلام ولما لم يتكلم اردف معقبا :

ـ ... من آن الى اخر . ولقد بحثت لهما عن مسكن .

فقال راسكولنيكوف بصوت ضعيف :

ـ ايـــن ؟

ـ غير بعيد من هنا ، في دار « باكاليف » .

فقاطعه رازوميخين قائلا :

ـ انه في شارع « آسانسيون » « شـارع الصعود » ان طقتين منه مأجورتان لتاجر أسمه ايوستين ... لقد ذهبت الى هنـاك .

ـ نعم . وقد اخلاهما التاجر .

ـ انما المزعج فيهما والذي يثير الاشمئزاز ان حجراتـه قذرة كريهة تشبه الاكواخ وغير متناسقه وقد وقعت فيه امور غريبـة . والشيطان وحده يعرف من يسكن فيها . وقـد ذهبت ذات مرة الى هناك اثر مغامرة مريبة والميزة الوحيدة هي ان الاجور فيه رخيصـة .

ـ بالطبع . انني لم استطع الحصول على هذه المعلومات بسبب حداثة عهدي في المدينة غير أني استأجرت فيه غرفتين نظيفتين جدا . خصوصا وان اشغالهما المكان لن يدوم طويلا لانني وجدت مسكنا... اقصد مسكننا المقبل يا راسكولنيكوف ، والاستعدادات تجري الان فيه لترميمه وادخال التجـديد عليه . فـانني أقطن في الوقت الحاضر على شكل ما في غرفة مؤثثة على بعد خطوتين من هنا عنـد السيـدة « ليبيويشسل » في مسكن صديق شاب ، اسمه اندريه سيميونوفيتش ليبيزياتنيكوف وهو الذي دلني على بيت باكاليف .

نطق لوجين العبارات تبريرا للملاحظـات التي ساقها رازوميخين

في تعريفه بالمسكن الذي أعده لأم راسكولنيكوف وأخته ، وشعر بامتعاض لتدخل ذلك الشاب الماجن المستهتر • أما راسكولنيكوف لدى سماعه اسم صديق خطيب اخته غمغم وكأنه تذكر شيئا :

ــ ليبيزيا تنيكوف ؟

ــ نعم ، اندريه سيميونوفيتش ليبيزياتنيكوف وهو موظف في احدى الوزارات • فهل تعرفه ؟

فأجاب راسكولنيكوف :

ــ نعم ••• لا ••• !

ــ عفوا خيل الي من سؤالك انك تعرفه • لقد كنت ذات يوم وصيا عليه وهو شاب لطيف جدا ومنطلق في الحياة الاجتماعية ثم انني احب معاشرة الشباب لان المرء يتعلم منهم اشياء جديدة •

وانتظر بيير بيتروفيتش موافقة الموجودين على ملاحظته الاخيرة فراح يجيل الطرف بينهم • سألهم راسكولنيكوف :

ــ ما هو الدافع على ما تقول ؟

ــ انه من أكثر الدوافع أهمية • فأنا مثلا لم أزر بيترسبورج منذ أكثر من عشر سنين لذلك فان كل التبديلات التي حصلت والتجديدات التي ادخلت وتلك الفكر النيرة الجديدة ، كل ذلك لم يبلغ المقاطعات الاخرى حتى الآن وفي رأيي ان الانسان الذي يريد أن يتعلم وان يساير العصر يجب عليه الاحتكاك بالجيل الجديد وانه ليسرني أن أعترف بهذه الحقيقة •

بدا السرور على وجه بيير بيتروفيتش للسؤال الذي القاه عليه راسكولنيكوف وظن انه وفق لارضائه بالجواب • غير ان هذا عاد يقول :

ـ لا زلت اسأل عن الدافع والعلاقة الموجبة له •

ـ ان سؤالك غير محدود فاذا لم اكن مخطئا استطيع القول انني اكتشف وجهات نظر اكثر وضوحا بل واتجاهات دقيقة وتفاهم عملي اوسع •

فقال زوسيموف :

اما رازوميخين فصاح مكذبا :

ـ أنت تكذب ! لا يوجد هنا تفاهم عملي لأن مثل هذا التفاهم يكتسب بصعوبة ولا يسقط عفوا من السماء • اننا منذ مائتي عام تقريبا فقدنا عادة الاعمال • والافكار التي تروج في الشوارع والرغبة في العمل الصالح موجودة حقيقة ولكنها ما زالت في طور التكوين ، صحيح ان الانسان ليصادف بعض النبل رغم ان نظرية « اذا لم ار لا اكون قد اخذت » تعتبر قاعدة بين النشالين واللصوص ولكن لا يوجد تفاهم عملي في كل الاحيان لان هذه « المعرفة » لا تسير عارية القدمين بل يلزم لها زوج من الاحذية وانت تفهم ما اعني •

فأجاب بيير بيتروفيتش بسرور و[illegible] :

ـ اذا لست من رأيك ابدا ، نعم لا انكر وجود بعض الفوضى والتطرف في الآراء انما ينبغي للمرء أن يكون عادلا ••• ان هذا التطرف يشهد بأن القضية [illegible] وأن الظروف الخارجية ليست تماما كما ينبغي أن تكون • فاذا كنا لا نعمل الا قليلا فذلك لاننا لم نجد بعد الوقت الكافي وانا طبعا اتكلم عن الوسائل • انني اعتقد شخصيا بأن هناك بعض ما يمكن أن يقال عنه بأنه صنع أو « كان » : ذلك ان الافكار الجديدة النافعة قد انتشرت كما انتشرت بعض المؤلفات الجديدة النافعة فحلت محل الاحلام والخيالات التي كنا نعيش فيها ونضج الأدب وتبخر عدد كبير من الاعتقادات السقيمة

المضرة وبالاختصار فقد انفصلنا نهائيا عن الماضي وباعتقادي ان ذلك ليس بالشيء القليل !

فغمغم راسكولنيكوف قائلا :

ــ استمر ... تبجح ... استمر في تبجحك ،

فقال بيير بيتروفيتش الذي لم يسمع قول راسكولنيكوف :

ــ مـاذا قلت ؟

غير أن راسكولنيكوف لم يجب . وبـادر زوسيموف متدخلا يقـول :

ــ ان ما قلته لعين الصواب .

فاسترسل بيير بيتروفيتش بعد ان القى نظرة ودية على زوسيموف :

ــ أليس كذلك ؟

ثم استدار الى رازوميخين واردف بلهجة انتصار :

ــ وانت نفسك ! الا توافقني على ان هناك خطوات الى الامام او كما يقـال « مجهـودا » حتى ولو اقتصر ذلك على العلم والحقائق الاقتصادية ؟

فأجاب رازوميخين :

ــ انها افكار مكررة مبتذلة !

ــ كلا ! انها ليست اشياء مبتذلة . خذ مثلا : لقد قيل لي حتى اليوم : « احبب مستقبلك » فأجبته : فماذا نجم عن ذلك ؟ لقـد نجم عنه حتى الان انني مزقت معطفي الى جزئين فاصبحنا كلانا عاريين عملا بالمثل القائل : « عندما يطارد المرء ارانب معا لا يصطاد واحدا منها » . أما العلم فانه يقول : « احبب نفسك قبل الاخرين لان العالم

كله مرتكز على النفعية الشخصية فعندمـــا لا تحب الا تمسـك فقط تقوم بأعمالك كما ينبغي ويبقى معطفك كامـلا » والاقتصاد السياسي يضيف انه كلما اكثر المرء من ابتكار اعمال خاصة في المجتمع او بمعنى اوضح : كلما ازدادت المعاطف الكاملة ، كلما كانت المنشآت اقـوى والأعمال العامة أكثر ترتيبا ونظـاما . اذن عندمـا اقتني ممتلكـات شخصية تماما فانني اقتنيتها في نفس الوقت للجميع وينتج عن ذلـك ان يفوز مستقبلي باكثر من معطف ممزق وليس ذلك بفضل السعـــة الخاصة الشخصية انما بنتيجة المجهود العام . فالفكرة اذا سهلة ولكنها وللاسف استغرقت زمنا طويلا حتى وصلت رغم ما يبدو عليهـا مـن انها لا تستوجب لفهمها وهضمها ذكاء خاصا ...

ـ عفوا ... انه ينقصني الذكاء انا ايضا لذلك افضل ان تتوقف عند هذا الحد . وقد كان لي هدف عند ما بدأت هذه المناقشة وبالتالي الثرثرة التي تبعث على الغثيان . ان كل هذه الافكـــار المبتذلـــة الموضوعية تثير اشمئزازي منذ ثلاث سنين حتى انني اخجل ليس فقط من التحدث عنها بل ومن سماع الاخرين يتحدثون فيها . ولا شـك انك استصوبت اطلاعنا على مدى معرفتك وانا لا الومك على ذلـك بل اجد لك العذر . انما الغاية كانت محاولة معرفه من تكون لان في هذه الايام الاخيرة اغري عدد كبير من فرسان المال والاعمال بهـــذه الفكرة ـ ولا شك انك تعلم ـ حتى انهم افسدوا كل ما مدوا اليـه أيديهم لاستثماره فدنسوا بذلك كل شيء ! وفي هذا الكفاية ...

احتج السيد لوجين وقال مستنكرا وهو يتصنع الاصابة بجرح في كرامتـه :

ـ سيدي لعلك لا تريد التلميح بأنني ...

فقاطعه رازوميخين بلهجة حاسمة :

ـ آه .. العفو .. العفو !.. هل يمكن ان اكون فكرت في هذا ؟ هيا كفى !...

وهكذا شعر بيير بيتروفيتش ان من الخير له ان يتقبل هذا الرد على علاته وأن يعمل على مغادرة الغرفة فقال محدثا راسكولنيكوف :

آمل ان يصبح التعارف الذي تم بيننا الان اكثر توثقا في المستقبل بعد ان تكون قد ابللت من مرضك وانني اتمنى لك صحة جيدة لتكون متمتعا بقواك استعدادا للمناسبة التي لا تجهلها .

ولما لم يلتفت راسكولنيكوف اليه هم بالنهوض بينما كان زوسيموف يتحدث الى رازوميخين وكأن بيير بيتروفيتش غير موجود في الغرفة :

ـ اعتقد جازما ان واحدا من زبائن العجوز قد قتلها .

فأجاب رازوميخين موافقا .

ـ لا شك ! صحيح ان بورفير لا يصرح بآرائه غير انه يستجوب كل من اودع العجوز رهينة .

فقال راسكولنيكوف بصوت مرتفع :

ـ يستجوبهم ؟

ـ نعم وماذا في ذلك ؟

ـ لا شيء .

واستتلى زوسيموف مستفسرا :

ـ ولكن كيف يعرفهم ؟

قد ازدادت بين الاوساط الدنيا ، كما وان السلب والحرائق تكاثرت على الاوراق التي لفت فيها رهائنهم . وهناك اشخاص جاؤوا من تلقاء انفسهم حينما بلغهم النبأ .

ـ على هذا فان الذي قام بهذا العمل يكون ولا شك عديم التجربة سافلا ! يا لها من عملية !

ـ انا واثق انه ليس كما تقول وان هذه هي النقطة التي تخدعكم جميعا ! انني اعتقد ، رغم ما انا عليه من جهل وقلة تجربة ، بانه ليس من الحاذقين ولا من العريقين في الاجرام وان هذه الجريمة هي اولى جرائمه . فلو انه كان مجرما عريقا ماهرا لكانت هذه النتائج غير قابلة للتصديق . اما وان المجرم غير خبير ، فاننا نستنتج ان الصدفة وحدها هي التي اخرجته من ورطته ، والصدف شديدة التأثير في الحياة ! فكر بانه لم يكن قد تصور وجود عوائق ثم لاحظ كيف اتم الامر : لقد اخذ اشياء تتراوح قيمتها بين عشرين وثلاثين روبلا حشا بها جيوبه بينما كان في الدرج العلوي من الخزانة علبة صغيرة تحوي على الف وخمسمائة روبل من النقد الفضي باستثناء الاوراق النقدية. فهو اذا لم يحسن الا القتل واخفق في السرقة ، ومن ذلك يستدل على انه مبتدىء فقد اعصابه ثم انسحب ، اي ان الامر تم بمحض الصدفة وليس بناء على تصميم وحساب دقيق !

قال بيير بيتروفيش مخاطبا زوسيموف بقصد الاشتراك في الحديث :

ـ انكم تتحدثون على ما اعتقد عن مقتل العجوز ارملة الموظف. اليس كذلك ؟

طرح هذا السؤال وهو واقف وقبعته وقفازاته في يده وكأنه اراد قبل ان يبارح الحجرة ان يلقي ببضع كلمات حكيمة ليخلف وراءه اثرا طيبا بعد ان تغلب فيه الغرور على العقل .. فأجابه :

ـ نعم هل سمعت عنها شيئا ؟

ــ كيف لا ؟ لقد سمعت من الجيران .
ــ هل تعرف التفاصيل ؟

ــ لا اعتقد . انما يثير اهتمامي في هذه القضية ما يعتريها من ملابسات وما سيعقب عنها من نتائج وكذلك المعضلة التي تتمثل في الجريمة نفسها . انني الاحظ ان الجرائم في السنوات الخمس الاخيرة قد ازدادت بين الاوساط الدنيا ، كما وان السلب والحرائق تكاثرت في كل مكان واصبحت تقع دون انقطاع ، ومما يزيدني دهشة ان الاجرام بين الطبقات العليا أخذ يزداد بنسبة مماثلة حتى لكأنه يسير مع ما يحدث في الاوساط الدنيا على خطين متوازيين . فهنا مثلا طالب سابق يداهم عربة بريد على الطريق العام ، وهناك اشخاص من النيرين الواعين البارزين في الهيئة الاجتماعية يزوورون الاوراق النقدية . وقد اوقفوا في موسكو مؤخرا عصابة من المزورين كانوا يعملون في يانصيب القرض الاخير . حتى ان واحدا من المتهمين الرئيسيين يحتل كرسي التاريخ العام في الجامعة ، وفي امكنة اخرى اغتيل احد امناء سر سفاراتنا في الخارج لسلبه ما معه من نقود ولاسباب اخرى اكثر سرية . فاذا كانت هذه المرابية قد قتلت بيد واحد من الطبقة العليا ــ لانني اعتقد ان ابناء الطبقة الفقيرة لا يمتلكون اشياء ذهبية يرهنونها لديها ــ فكيف نفسر هذا الفساد الجامح الذي يسيطر من جزء كبير من محيطنا المثقف ؟

اجاب زوسيموف :
ــ اعتقد ان للانقلابات الاقتصادية تأثيرا كبيرا .

وقال رازوميخين معقبا :
ــ كيف تفسرها ؟ الواقع انها تفسر تماما بانعدام التفاهم العملي ... ذلك الانعدام المزمن .

ــ ماذا تريد ان تقول ؟

ــ حسنا ، ماذا اجاب في موسكو استاذك الجامعي عندما سئل عن سبب اصداره نقدا مزورا ؟ اعتقد انه قال : « ان الناس كلهم يتهافتون على الثروة والغنى بكل الوسائل وانني أنا كذلك أردت أن اثري بسرعة. » انا لا اذكر كلماته على الضبط لكن فكرة الثراء العاجل بأقل التكاليف واقل العناء هي التي تذرع بها . فقد درجت العادة بل اقول لقد اعتاد الناس حتى اليوم على لون من الحياة يقتصر على الكفاف بل أن بعضهم يعيش عالة على غيره . فلما دقت الساعة اظهر كل منهم ما يستطيع عمله وما يختزنه من امكانيات ...

ــ ولكن هناك دائما الاخلاق ؟.. القوانين ! و ...

وهنا فقط تدخل راسكولنيكوف بشكل غير منتظر وقال :

ــ ولكن ماذا يزعجك ؟ ان ذلك الا نظريتك في حالة التطبيق !

ــ كيف نظريتي ؟

ــ اشرح نتائج ما تحدثت عنه منذ حين كمبدأ وناقشه تجد انه ينجم عنه جواز قتل الناس .

فهتف لوجين :

ــ رحماك يا رب !

بينما قال زوسيموف :

ــ كلا ان الأمر ليس كذلك .

اما راسكولنيكوف فقد كان شاحبا وقد راحت شفته العليا ترتعش وهو يتنفس بصعوبة زائدة بينما تابع لوجين بلهجة متعالية قائلا :

ــ ان هناك حدودا لكل شيء ، فالفكرة الاقتصادية ليست دعوة للقتل حتى أنه لو افترض فقط ...

فقاطعه راسكولنيكوف بصوت يهزه الغضب ويشوبه لـون من السرور الاثيـم :

ــ أصحيح انك قلت لخطيـبتك في اللحظـة التي أعربت لـك عن قبولها بك انك سعيد لانها فقيرة وانه من الافضل والاصوب ان يتزوج المرء امرأة لا تملك نقيرا ليحتفظ الزوج لنفسه بالغلبة والتفوق ؟ أي انك بذلك تستطيع دائما التغني بفضلك عليها ؟

فصاح لوجين بصوت مضطرب وقد اعماه الغضب :

ــ سيدي ••• سيدي •• انت تشوه فكرتي • ولكن اسمح لي ان اقول بان الشائعات التي تناهت اليك ليس لها ظل من الحقيقة وانني اخمن ان •• بكلمة واحدة ان هذا السهم ••• بكلمة واحدة انهـا امك • والى جانب ذلك فقد بدت لي رغم صفاتها الممتازة العقليـة مبالغة وخيالية في أفكارها • رغم ذلك فانني ما كنت انتظر أو أظن ان باستطاعتها النظر الى قولي ذاك خلال منظار كهذا •

فزمجر راسكولنيكوف وهو يتناهض بمجهود عنيف وفي عينيه نظرة متوعدة وقال :

ــ هل تعلم ؟ هل تعلم ؟

ــ مـاذا ؟ مـاذا ؟

كان في عيني لوجين وهو ينطق بهذه الكلمة معنى الاستنكار والتحدي وانتظر الجواب وهو واقف وران الصمت •

فاجابه راسكولنيكوف :

ــ اعلم انه اذا وجدت في نفسك مرة اخرى الجرأة على التلفظ بكلمة واحدة تمس بأمي فانني اسفل السلم ورأسك في المقدمة !

وهتف رازوميخين :

ــ مـاذا دهـاك ؟

بينما كان لوجين ممتقع الوجه يعض شفته حنقا ويقول :

ـ اذا هكذا ، اسمع يا سيد ـ وتمالك نفسه برهة رغم ان الغضب كان يخنق صوته ـ اسمع : منذ حين لما دخلت لاحظت استقبالك البارد فجلست عمدا لأعرف الى أي مدى تبلغ بك القحة. وقد كنت مستعدا للصفح عن كثير مما يصدر عن مريض وقريب بنفس الوقت اما الان فانني لن اصفح ابدا •

فصرخ راسكولنيكوف محنقا :

ـ انا لست مريضا •

ـ ذلك اسوأ •

ـ اذهب الى الشيطان •

لكن لوجين كان قد خرج دون ان ينتظر هذا الوداع وقد خرج « بتسللا » بين الطاولة والمقعد كما دخل بينما كان رازوميخين قد تراجع قليلا ليسمح له قبل رحيله بمصافحة زوسيمون الذي كان يشير اليه بترك المريض دون اثارة ، وهكذا انسحب لوجين رافعا بعناية قبعته الى ارتفاع كتفه في اللحظة التي كان ينحني فيها ليجتاز عتبة الغرفة وقد بدا عليه انه محنق جدا •

قال رازوميخين وقد بدا الارتباك على وجهه :

ـ كيف تصرفت على هذا الشكل ؟

فاجابه راسكولنيكوف صارخا :

ـ دعوني ، دعوني جميعا ••• اخرجوا ايها السفاحون انا لا اخاف منكم •• انا لا اخاف احدا •• احدا •• اخرجوا من هنا ••• اريد ان ابقى وحيدا ! وحيدا ! وحيدا ! •

فقال زوسيموف وهو يشير برأسه الى رازوميخين :

ـ هيا بنا !

ـ لكن ... هل يمكن ان ندعه هكذا .

فكرر زوسيموف بالحاح :

ـ هيا بنا ..!

ولم ينتظر بل خرج وبقي رازوميخين برهة يفكر ثم ركض يتبعه . وبينما كان زوسيموف يهبط السلم قال لرازوميخين :

ـ لو اننا نخرج نزولا عند رغبته لبلغ به الامر اسوأ من ذلك اذ ينبغي ان لا نثيره .

ـ لكن ماذا دهاه ؟

ـ ينبغي ان يتلقى نبأ سارا . هذا كل ما يلزمه . منذ لحظة كان متمالكا قواه ولعلك لاحظت ان في رأسه فكرة معينة تعذبه وهذا ما اخشاه . نعم انني اخشى ذلك .

ـ يبدو ان هذا السيد بيير بيتروفيتش سيتزوج اخت راسكولنيكوف كما استنتجت من الحديث الذي دار بينهما وان روديا قد اطلع قبل مرضه على هذا الامر بواسطة رسالة .

ـ نعم . وهو الشيطان الذي أتى به ولا شك في هذه اللحظة. اخشى ان يكون قد افسد كل شيء . لكن الم تلاحظ انه لم يكن يبالي بشيء باستثناء امر واحد كان يخرجه من ذهوله وهو هذه الجريمة ؟

ـ نعم ! نعم ! لقد لاحظت ذلك بوضوح ! انه يهتم بهذه الجريمة ويفكر فيها واعتقد ان السبب راجع الى انه في ذات اليوم الذي مرض فيه رهبوه قليلا في دائرة البوليس وقد اغمي عليه هناك .

ـ سوف تقص علي ذلك بالتفصيل هذا المساء . وسأقول لك بعدئذ شيئا . انه ليثير اهتمامي كثيرا ولسوف أعود لاستعلم عنه بعد ساعة . على كل حال لن يحدث ارتفاع في الحرارة .

ـ اشكرك وخلال هذا الوقت سأنتظرك عند باشانكا وسأراقبه بواسطة ناستاسيا •

القى راسكولنيكوف نظرة ملتهبة تفيض بالانزعاج على الخادم التي بقيت في الغرفة • وادركت هذه انه يرغب اليهـا ان ترحـل فقالت تسألـه :

ـ هل تأخذ جرعة من الشاي الان ؟

ـ كلا ! دعيني الان اريد ان انام •••

وبحركة تشنجية ، استدار الـى الجـدار بينمـا انسحبت ناستاسيا من الحجرة •



٦

لم تكد تخرج ناستاسيا من الحجرة حتى نهض واقفا وهرع الى الباب يدفع المزلاج وراءه ثم عاد الى الرزمة التي اتى بها رازوميخين ففتحها وراح يرتدي الملابس التي كانت فيها . كان هادئا جدا حتى ليخيل الى الناظر اليه انه لم يكن منذ لحظات فريسة هذيان ورعب قاتلين لم يبارحاه طيلة الايام الاخيرة . شعر في تلك اللحظة بهدوء وراحة بال عجيبين فكانت حركاته دقيقة وثابتة وكأنه اتخذ فجأة قرارا حاسما . كان يدمدم « اليوم بالذات ... » وهو يعرف انه ضعيف . لكن قوة روحية جبارة كانت تجعله في صحو فكري تمام وتعطيه قوة وثقة .. كان يرجو ان يستطيع الصمود خوف السقوط !

ارتدى الملابس الجديدة التي اتاه بها صديقه وحدق برهة في المال الموضوع على الطاولة وهو يفكر ثم اودعه جيبه ! كان يملك خمسة وعشرين روبلا الى جانب « الكوبيكات » التي بقيت له من قيمة الملابس التي اشتراها رازوميخين . رفع المزلاج بهدوء وخرج من الحجرة وراح يهبط السلم حتى اذا ما بلغ باب المطبخ « العتيد » الذي كان ابدا مفتوحا ألقى عليه نظرة سريعة . كانت ناستاسيا واقفة هناك محنية الظهر في « سماور » سيدتها فلم تسمع صوت خطاه خصوصا وان فكرة فراره لم تكن لتخالج رأس احد وهكذا لم تمضِ دقيقة ثانية حتى كان في الشارع .

كانت الساعة الثامنة مساء والشمس على وشك المغيب والجو خانق كأمس تماما . لكنه راح يتنفس بشوق ولهفة وكأنه كان محروما من الهواء ، راح يتنفس ذلك الهواء العامر بالغبار والمرض الذي ترزح تحت وطئتها أجواء المدينة الكبرى. شعر بدوار خفيف في رأسه لكن لونا من الحيوية الوحشية تجاوبت في اعماقه فالتمعت بها عيناه الملتهبتين وظهرت واضحة على وجهه الناحل الهضيم . كان لا يعرف أين يتجه بل انه لم يفكر في ذلك مطلقا . كان كل ما يهمه في تلك اللحظة

هو تنفيذ الرغبة التي تصطخب في رأسه : « الفرار والانتهاء » اليوم بالذات ودفعة واحدة ... فورا والا فانه لن يعود الى مسكنه لانــه « ما كان يريد أن يحيا على ذلك المنــوال ! » . لــكن كيف « ينتهي » وباية وسيلة ؟ ذلك ما لم يكن لديه اية فكرة عنه بل انه ما كان يفكــر في ذلك ابدا ! كانت تلك الفكرة تعذبه لذلك فقد كان يبعدها دائمــا كلما خطرت له . انما كان يحس بان الامور ينبغي لها ان تنتهي علــى شكل من الاشكال ، مهما وقع ! كان يردد ذلك بيأس وتأكيد وثقة !

تبع الطريق التي كان يتبعها في نزهاته السابقة مدفوعا بحكــم العادة واتجه نحو « سوق العلف » ! وقبــل أن يصــل الى الســوق ، شاهد على الرصيف امام دكان بائع عاديات ، شابا اسود الشعر يعزف على آلة موسيقية تنبعث منها الحانا عاطفية شجية ترافقه فتاة صغيــرة في الخامسة عشرة من عمرها مرتدية ثيابا رشيقة : « تنورة » مــن قماش رخيص و « شال » خفيف ، وفي يديها زوج من القفازات وعلى رأسها قبعة كبيرة من القش تزينها ريشة بلون اللهب تبدو في مجموعها خلقة بالية . كانت تغني امام الدكان بصوت متصدع يشبــه صرير المدأب ، منتظرة احسانه الذي لا يتجاوز « الكوبيكين » بحال فتوقف راسكولنيكوف ينصت الى غنائها منضما الى مستمعين او ثلاثــة مستمعين كانوا هناك ثم اخرج من جيبه قطعة من ذات الخمسة كوبيكات اودعها راحة الفتاة ... وفجأة قطعت هذه غناءها ــ وكانت قد بلغت طبقة مرتفعة جدا شديدة الحساسية مفعمة بالعاطفة ــ وهتفت بالعازف قائلة : « كفى ! » . ثم مضت ترافقه بخطى متمايلــة لتقف امــام الدكان التاليــة !

سأل راسكولنيكوف فجأة احد المارة واقفا بالقرب منه ينصت الى المغنية المنسولة وعليه سمات المتسكعين :

ــ اتحب اغاني الشارع ؟

فبوغت الرجل لهذا السؤال بينما استرسل راسكولنيكوف يقول وكأن الأمر لا يتعلق الا بأغاني الشوارع وأثرها في النفوس :

ـ اما انا فأحبها ! انني احب الاستماع الى الغناء على نغم هـذه الآلة الموسيقية التي يحملها هذا الموسيقي المتجول خصوصا في ليـالي الخريف المعتمة الرطبة الباردة حيث تكون وجوه المارة مخضرة مريضة. كما أزداد حبا للاستماع بهذا الغناء عندما تتساقط الثـلوج دون أن يصحبها زفيف الرياح فتلتمع مشاعل النور خلال الثلج . أتـرى هـل تتمثل الصورة التي اصفها ؟ .

غمغم السيد مذعورا وقد ازعجه السؤال والمظهر الغريب الـذي كان راسكولنيكوف يبدو فيه وقال :

ـ لست ادري ... عذرا ... ثم انسحب الى الجـانب الاخر مـن الشارع .

استمر راسكولنيكوف ماشيا دون ان يلتفت حوله حتى وصـل الى زاوية « شارع العلف » حيث كان البائع وزوجته يتحدثان مـع اليزابيت منذ أيـام . لكنه لم يشهدها في تلك اللحظة . توقف بـرهة في المكان الذي كان البائع وزوجه يقفان فيـه ذلك اليـوم وراح ينظر حوله فاذا بفتى يلبس قميصا احمر يتثاءب امام دكان تاجر حبـوب فسألـــه :

ـ أتعرف الرجل الذي يقف هنا وزوجـه ويتعاطيـان بيـع الحاجيات المستعملة انه « بورجوازي » أليس كذلك ؟

فأجاب الفتى وهو يحدج راسكولنيكوف بنظرة استغراب :

ـ ان الوسط التجاري يضم عددا كبيرا من الاشخاص .

ـ مـاذا يسمونـه ؟

ـ ينـادونه باسمـه !

ـ لكن انت ! الست من زارائيك ؟ من اية مقاطعة انت ؟

فعاد الفتى ينظر الى راسكولنيكوف باستغراب وقال :

ـ انني حيث اقيم يا صاحب السعادة نطلق على المنطقـــة اسم أقليم وليس مقاطعة ! وأخي يقيم فيه أما أنا فقد بارحتـه منذ زمن ولا اعرف عن اخباره شيئا فارجو سعادتكم ان تتفضلوا بقبول عذري !

ـ أهي دكان شواء هذه التي في اعلى ؟

ـ بل انها حانة وفيها منضدة « بليارد » وقد يرى الانسان فيها بعض « الاميرات » .

اتجه راسكولنيكوف نحو القسم الاخر من الساحة فشاهـــد بالقرب من منعطف هناك جماعة من « الموجيك » كبيرة العدد ، فراح يحشر نفسه بين الصفوف يتفحص الوجوه . كان يشعر بدافع يحبب اليه تبادل الحديث مع الناس. لكن اولئك« الموجيك » ما كانوا يلقون بالا اليه بل كانوا مجتمعين جماعات جماعات يتداولون في اعمالهـم . توقف برهة ثم قرر المضـي نحو شارع « ف ... » مخلفـــا وراءه « سوق العلف » مارا بزقاق جانبي .

كان ذلك الاتجاه مألوفا لديه فهو يعرف تماما ذلك الزقاق الذي يجتازه ينعطف في نهايته ويؤدي الى شارع الحدائق ... وكان يشعر في الايام الاخيرة برغبة تجتذبه الى تلك الامكنة كلما امتلكه الاشمئزاز « ليزيد في اشمئزازه » كما كان يقول !

أما في تلك اللحظة فقد كان خالي الذهن تماما . كان هناك بنـاء كبير يحتوي على عدد كبير من الحـانات والمطاعم ودكاكين الشواء ، وكان بعض النسوة يخرجن بين الحين والحين يغمرهن الهناء وهن في ابهى زينة يرفلن في الثياب الغالية . كن يجتمعن في امكنة معينة على الرصيف جماعات جماعات قرب مداخل بيوتات مرحة تشغـــل بعض

الاقبية ! وكان يتصاعد من واحد من تلك الامكنة صخب لطيف كان يعم وينتشر في الشارع كله وكانت اصوات القيثارة تعلو ترافقها انغام غناء جميل والجو منعم بالبهجة والمرح • شاهد هناك عددا من النسوة يتهافتن على المدخل مسرعات حتى ان بعضهن كن جالسات على درجات السلم واقفات على الرصيف يتحدثن ••• وعلى مقربة منهن كان جندي ثمل واضعا سيجارته في فمه يمشي مترنحا بخطوات متمايلة وهو يصرخ شاتما وكأنه خرج من مكان ثم نسي طريق العودة اليه • وفي الزاوية الاخرى كان صعلوك يتبادل السباب القبيحة مع آخر من طرازه بينما كان رجل مستلقيا على أرض الشارع فاقد الرشد من شدة الثمل •

توقف راسكولنيكوف امام الجمع الاكبر من النساء وكن يتحدثن باصوات مرتفعة وهن مرتديات اثوابا من الحرير الهندي الفاخر وفي اقدامهن احذية من جلد الماعز وكلهن عاريات الرؤوس ! كان لبعضهن اكثر من اربعين عاما واخريات لا يتجاوزن السابعة عشرة لكنهن كن منتفخات العيون !

كان الغناء والصخب المنبعثان من ذلك المكان يجذبان لغير ما سبب واضح انتباه راسكولنيكوف • انحنى على المدخل وهو في مكانه على الرصيف وراح يصغي حالما متجها الى صوت يغني :

ان عملاقي الجميل الصغير
لا يضربني لغير ما سبب !

وكان هناك وسط الضحكات والصيحات المرحة ، وقع خطى موزون كذلك الذي يصدر عن الراقصين والراقصات على الحلبة عندما يرقصون على ايقاع لحن مثير ••• وكان صوت المغني لا يزال يردد تلك الاغنية وراسكولنيكوف يحس في قرارة نفسه برغبة عنيفة

لسماعها وكأنها كانت غايته التي يسعى وراءها ! تمتم يخاطب نفسه : « ماذا لو دخلت ؟ انهم يصخبون ويضحكون وهم سكارى فلم لا احذو حذوهم واثمل كخنزير ! »

سمع صوت سيدة يقول له :

ـ ألا تدخل يا سيدي العزيز ؟

كان الصوت موسيقيا عذبا وكانت المتكلمة شابة فتية تفـــوق صويحباتها جمالا .. فصعدها بنظرة متفرسة وهتف مجيبا :

ـ آه ما اجملـك !

ابتسمت الفتاة وقد أطربها الاطراء وقالت :

ـ وانت شاب جميـل !

وهتفت سيدة بصوت كريه معقبة :

ـ جميل ؟ انه لا يملك الا العظام والجلد كمـــن خرج مـــن المستشفى اليوم ولعله صحيـح !

وتدخل احد الفلاحين « الموجيك » وقال وهو يقترب :

ـ يبدو انهن من بنات « الجنرالات » رغم ذلك فانهن لا يترفعن عن حشر انوفهن في هذه البؤر !

وقـالت الفتـاة :

ـ هيا ادخل طالما انت هنا !

ـ سأدخل يا جميلتي !

وهبط الدرجات الى مدخل المرقص بينما هتفت الفتاة بصـــوت يتجلى فيه الخجل :

ـ اسمع ! سأكون سعيدة يا سيدي اللطيف في قضاء بضـــع ساعات معك لكنني الان اشعر بشيء من الارتباك في حضرتك فلـو اعطيتني يا فارسي الجميل ستة كوبيكات لشربت كأسا في صحتك .

مد راسكولنيكوف يده الى جيبه واخرجها حاملة خمسة عشر كوبيكا اعطاها للفتاة فقالت :

ــ يا لك من رجل طيب !

ــ ما اسمك

انني ادعى دوكليدا :

وهتفت واحدة من النسوة قائلة :

ــ يا له من اسلوب زري ! كيف تتسولين يا دوكليدا بهذا الشكل ؟ انه ليملؤني خجلا مميتا .

رفع راسكولنيكوف عينيه بفضول وحدج المتكلمة بنظرة صارمة. كانت سيدة في الثلاثين من عمرها ذات وجه مشوه بالجدري تشوبه بقع زرقاء وشفتها العليا منتفخة . كان يبدو عليها الهدوء والجد وهي تتلفظ بتلك العبارة .

ابتعد راسكولنيكوف ومضى يفكر في موقفه وتصرفه ويغمغم :

ــ اين قرأت يا ترى ان احد المحكومين بالاعدام قال قبل تنفيذ الحكم فيه : « واذا اتيح لي ان اعيش في مكان ما على قمة صخرة دون أن يكون أمامي أكثر من قدمين من المجال الحيوي الذي يفصلني عن الهاوية او على نتوء وسط محيط خضم وظلمات إبدية تهددني العواصف العاتية حتى انه يستحيل العيش الا في مساحة لا تزيد على قدم مربعة واحدة ، ولو أن الحياة كانت مع ذلك ألف عام أو أبدية لا تنتهي فانني لافضل ان اعيش بتلك الشروط القاسية على ان أموت فورا ! الحياة ! ولا شيء الا الحياة ! الحياة وعلى اية صورة كانت ! الحياة وحسب ! ؟ » انها حقيقة هائلة يا الهي ! ان الانسان نذل ، ونذل ايضا ذلك الذي يصمه بالنذالة من اجل هذا .

بلغ في مسيره باليه ده كريستال وراح يحدث نفسه قائلا :

ـ هيه ! قصر البلور ! منذ حين كان رازوميخين يحدثني عنه • ولكن ماذا كنت اريد ؟ نعم ، صحيح ، القراءة ! لقد قال زوسيموف انه قرأ التفصيلات في الصحف •

دخل مشربا وسأل :

ـ هل لديكم صحف ؟ وسرح طرفه فيما حوله : كان المشرب انيقا جدا متسعا مؤلفا من خمس غرف تكاد تكون خالية من الزبائن وكان في أحد الاركان ثلاثة رجال يحتسون الشاي وفي غرفة ثانية اربعة أشخاص جالسين الى مائدة يحتسون « الشامبانيا » خيل الى راسكولنيكوف ان احدهم هو زاميوتوف لكنه لم يكن متأكدا نظرا لبعد المسافة مع ذلك فقد تمتم يشجع نفسه :

ـ وماذا يهمني أن يكون ؟

سأله النادل :

ـ أتريد عرقا ؟

ـ كلا ! بل كأسا من الشاي • ثم ائتني بالصحف القديمة • الصحف التي صدرت منذ خمسة ايام وسأعطيك مكافأة صغيرة •

ـ ليكن ! ها هي ذي صحف اليوم ! أتريد كذلك قدحا من العرق •

رفض راسكولنيكوف العرض واكتفى بالشاي والصحف وراح يبحث بينها هذه صحيفة : « ايزلر •• الازنيك •• الازنيك •• ايزلر •• بارتو •• ماسيمو •• الازتيك ، ايزلر ، يا لجهنم ! آه هذه اخيرا اخيرا الاخبار المتفرقة : امرأة سقطت من اعلى السلم ••• تاجر اختنق بسبب الادمان على تعاطي الكحول ، حريق في « شارع الرمال » ••• حريق في حي بيترسبورغ ••• حريق آخر في حي بيتروسبورغ ايضا ••• ايزلر ، ايزلر ، ايزلر ، ايزلر ••• ماسيمو ••• واخيرا ••• آه :

وجد ما كان يبحث عنه فراح يقرأ بينما كانت السطور تتراقص امام عينيه واستطاع ان يقرأ الشرح حتى النهاية ثم اخذ يبحث كالمحموم عن الاخبار الاخيرة في العدد التالي . كانت حركاته توحي بالسرعة التي تنلهف إليها نفسه . وبينما هو يتصفح الصحف شعر بشخص يجلس بجانبه الى المائدة فلما نظر اليه وجد انه زاميوتوف بلحمه ودمه وبمظهره المعهود : الخواتم الذهبية ، والسلاسل والشعر الاسود المجعد المضمخ المفروق من الوسط و « صدارته » الانيقة و « الرودنجوت » المتناسق ! ..

كان وديعا او على الاقل باسما بشيء كثير من الوداعة . ملتمع العينين من تأثير « الشامبانيا » هتف وكأنه دهش للقاء صديق قديم :

ـ كيف ؟ انت هنا ؟ لقد اكد لي رازوميخين البارحة ايضا انك فاقد الوعي ! غريب ! أتدري قد زرتك مرة في حجرتك ؟

كان راسكولنيكوف متأكدا من أن زاميوتوف سيتصل به . لذلك فقد ترك الصحف واستدار نحوه وعلى ثغره ابتسامة هادئة تحمل معنى من معاني التبرم وقال :

ـ لقد أبلغت انك زرتني وانك حملت الي قطعة حذائي . ولعلك لا تدري ان رازوميخين كلف بك منذ ان ترافقتما للذهاب الى سكن لويز ايفانوفنا التي كنت تسعى للدفاع عنها ذلك اليوم . لقد كنت تغمز بعينك الى « الملازم البارود » دون ان يفهم غايتك . هل تذكر ؟ كان الامر واضحا ومفهوما تماما ! أليس كذلك ؟

ـ يا له من مسل !

ـ « البارود » ؟

ـ كلا بل صديقك رازوميخين .

ـ لكنك يا سيد زاميوتوف تعيش عيشة مرحة ولا يفوتك ارتياد مثل هذه الامكنة كثيرة النفقات ، وعلى فكرة ، من الذي دفع عنك ثمن الشامبانيا منذ حين ،

ـ انني اتمتع بالخيرات الكافية فلم تعتقد ان هناك من يدفع عني ثمن الشراب ؟

ـ اذن فهو يقدم اليك بدون مقابل ! انك تستغل كل شيء ثم ضحك واردف :

ـ لا بأس عليك ايها الفتى الشجاع ! لا بأس ، انا لم اقل ذلك لاثير حفيظتك انه لمجرد « الدعابة فقط » كما كان يقول الدهان عندما كان يتحف ميتكا اي « دميتري » بالكلمات ، اتذكر ذلك ؟ انها حادثة العجوز ،

ـ لكن انت كيف عرفت هذا ؟

ـ قد اكون عارفا باكثر مما تظن ،

ـ يا لك من رجل تتصنع الغموض ! لا شك انك لا زلت مريضا ، لقد اخطأت بالخروج من غرفتك ،

ـ هل ابدو لك غريبا غامضا ؟

ـ نعم ! ماذا كنت تبحث في الصحف ؟

ـ في الصحف ؟

ـ توجد حوادث حريق كثيرة ،

ـ كلا ! انا لا اهتم بحوادث الحريق !

نظر الى زاميوتوف نظرة غامضة وعادت الابتسامة الهازئة تقلص شفتيه ، ثم اضاف وهو يغمز له بعينه :

ـ كلا ! ليست الحرائق هي التي تهمني ، لكن اعترف ايها الشاب الشجاع بانك تتمزق شوقا لمعرفة ما كنت اقرأ ،

ـ أبدا ! لم افكر في هذا مطلقا • ولقد سألتـــك ذلك لمجرد السؤال • ثم هل يحق لي ان اطرح عليك مثل هذا السؤال ؟ هـــل لا زلت ذلك الـ •••

ـ اسمع انت رجل مثقف متعلم • هم ؟
ـ انني ادرس لنيل الشهادة الثانية في المعهد •
نطق زاميوتوف بهذا الجواب في شيء من البلاهة •
ـ آه الشهادة الثانية • وانفجر راسكولنيكوف ضاحكا ضحكة مجنونة وهتف معقبا :

ـ الشهادة الثانية ومع ذلك لا يخلو من الخواتم والابهة والشعر المعنى بـــه • يا لك من « شحرور » جميل !
ذهل زاميوتوف وشعر بشيء من المهانة فتراجع قليـــلا وقـــد سيطرت عليه دهشة بالغة وقال بصوت صارم :

ـ كم انت غريب ! اراهن على انك لا زلت تهذي !
ـ انا ؟ اهذي ؟ انت واهم ايها « الشحرور » الجميـــل •• اذا فأنا أبدو شاذا ، هذه هي الكلمة التي يجب أن تقولها •
ـ شـــاذا •
ـ الخلاصة انك تريد معرفة ما كنت [illegible] هـــذا العدد الكبير من الصحف التي طلبتها • انها [illegible] الا علـــى الشك • أليس كذلك ؟
ـ حسنا ! لنقل ذلك •
وهذا ما يجعل اذنيك تنتصبان ؟
ـ ينتصب ؟ ماذا ؟ كيف ؟
ـ سأقول لك ذلك مستقبلا • اما الان يا عزيزي العزيز : اصرح او بالاحرى « اعترف » • كلا ليست هذه الكلمة الفنية ايضا لنقـــل

« افيد » وانت تسجل ! تلك العبارة الصحيحة وعلى هذا « افيد » انني قرأت او انني شعرت بفضول للقراءة بل انني كنت ابحث وانني وجدت ... وانني جئت خصيصا من اجل ذلك ... كنت ابحث عن التفاصيل المتعلقة بمقتل العجوز ارملة الموظف !

واقترب بوجهه حتى كاد ان يلمس وجه زاميوتوف وهو لا يفتأ ينظر اليه تلك النظرة المجنونة ، اما زاميوتوف فقد راح يحدق في وجهه بدوره دون ان يتحرك او ان يبتعد بوجهه عنه وبدا كل ذلك غريبا في نظره ودام الصمت بينهما دقيقه طويلة لم يفتآ خلالها يتبادلان النظر ، وفجأة هتف زاميوتوف وقد نفذ صبره وأعياه السكوت :

ـ حسنا وماذا يجديني ان تكون قرأت ؟ ماذا في ذلك ؟

فأردف راسكولنيكوف بصوته الهامس دون ان يتأثر بجواب زاميوتوف :

ـ ذلك لانني مهتم بهذه العجوز التي بسببها اغمي علي وانا في دائرة الشرطة عندما سمعتكم تتحدثون عنها . فهل فهمت الان ؟

ـ وماذا بعد ؟ ماذا تريد بكلمة « هل فهمت » ؟

كان صوت زاميوتوف قد بدأ يتسم بطابع الغضب . أما راسكولنيكوف فكان وجهه جامدا صارما وفجأة انفجر ضاحكا ضحكة عصبية . وفي لمحة خاطفة تذكر بوضوح وجلاء الشعور الذي أحس به عندما كان واقفا وراء ذلك الباب والفأس في يده والرتاج يهتز والزائران يصيحان ويحاولان فتح الباب وهما يشتمان . تذكر كيف احس برغبته في شتمهما واهانتهما بل وفي اخراج لسانه لهما استهزاء ، والرغبة التي استولت عليه بالضحك ... الضحك ... المقهقه الساخر . كانت ضحكته في تلك اللحظة صورة عن تلك التي كان يرغب في اطلاقها لما كان وراء ذلك الباب . ولم يتمالك

زاميوتوف نفسه فهتف :

ـ اما ان تكون مجنونا واما ...

ثم توقف عن متابعة الجملة وقد خطرت له فكرة ملأت رأسه :

ـ واما ماذا ؟ واما ...هيا .. قل ..

فأجاب زاميوتوف غاضبا :

ـ لا شيء ان كل هذا سخيف . ثم صمتا كلاهما . وعاد راسكولنيكوف بعد تلك الضحكة المدوية ساهما مغموما وانحنى على المائدة جاعلا رأسه على يده وبدا كأنه نسي زاميوتوف فران الصمت فترة طويلة قطعه هذا قائلا :

ـ لم لا تشرب الشاي ؟ لقد برد .

ـ هم ؟ ماذا ؟ الشاي ؟ ليكن !

رفع راسكولنيكوف القدح الى شفتيه وتناول قطعة من الخبز وبعد ان القى على زاميوتوف نظرة بدا كأنه عاد الى الحقيقة واستعاد هدوءه فعاد الى وجهه ذلك التعبير الساخر ومضى يجرع الشاي .

قال زاميوتوف :

ـ ان الانحطاط الذي من هذا النوع اخذ يتزايد هذه الايام وقد قرأت مؤخرا في « غازيت وموسكو » ان كل عصابة المزورين قد القي عليها القبض في موسكو . لقد كان أفرادها من علية الناس وكانوا يزورون الاوراق النقدية .

ـ آه وقع ذلك منذ زمن قديم وقد قرأت الحادثة منذ اكثر من شهر في الصحف وفي رأيك اذا ان هؤلاء الناس هم لصوص محتالون أليس كذلك ؟

ـ كيف ؟ أليسوا اذا محتالين ؟

ـ هم ؟ بل انهم اطفال مبتدئون وليسوا محتالين . تصور ان

خمسين شخصا يجتمعون لعمل من هذا النوع ! هل هذا منطقي ؟ ان ثلاثة اشخاص في قضية مثل هذه القضية لعدد كبير لان طبيعة العملية تقتضي ان يكون كل منهم واثقا وامينا على مستقبله من نفسه. فكيف اذا يأمن الا يسترسل في الثرثرة بفعل الشراب ؟ ان كلمة واحدة تكفي عندئذ لاشعال النار في البارود . انهم مبتدئون لانهم عهدوا الى اشخاص غير مأمونين بتصريف الاوراق المزورة النقدية المزورة فهل يعقل أن يكلف الانسان أول من يصادفه بمثل هذه المهمة ؟ هيا ! لنفرض ان هؤلاء المبتدئين قد نجحوا وان كل واحد منهم قد توصل الى تصريف مليون روبل ثم بعد ؟ هل سيستمر على ذلك مدى الحياة ؟ كلا ! ومع ذلك فان مستقبل كل واحد منهم مربوط بالاخرين . ان الانتحار افضل من هذه النتيجة ! والاغرب من ذلك ان هؤلاء المزورين لم يستطيعوا ابدال ورقة واحدة لان اول واحد منهم عندما استبدل الخمسة الاف روبل كان يرتعد خوفا . حتى انه عد الاربعة الاف الاولى فقط اما الالف الخامسة فقد تقبلها دون عد متلهفا على الانسحاب وساعيا فقط الى حشرها في جيوبه وبذلك أيقظ الشبهات والشكوك فأفتضحت القضية بسبب ذلك السخيف . فهل هذا مقبول ؟

فقال زاميتوف :

ــ اما ان تكون يداه قد ارتجفتا فهو لعمري صحيح وهو يشاهد كثيرا . هناك حالات يعجز المرء عن ضبط شعوره فيها .

ــ ماذا تفهم من ذلك ؟

ــ بل قل لي انت هل كنت تستطيع السيطرة على اعصابك ؟ لو انني كنت في هذا الموقف لما استطعت ذلك ! كيف يخاطر المرء مستهدفا لكل تلك النتائج من أجل مائة روبل وأن يتقدم بورقته المزورة الى المصرف . تصور الى المصرف ليستبدلها ! كلا ! لو كنت في ذلك الموقف

لاضعت رشدي . وانت . اما كنت تشعر بمثل ذلك الشعور؟

شعر راسكولنيكوف من جديد برغبة عاتبة تدفعه الى السخرية من محدثه واحس بقشعريرة باردة تكتسح ظهره . غير انه تمالك نفسه وقال :

ـ ما كنت لاتصرف على هذا النمط ! لو كنت في ذلك الموقف وكان علي ان ابدل ورقة مزورة لتصرفت على النحو التالي : كنت اعد الالف الاولى اكثر من مرة وانا اعاين العلامات المميزة فيها ثم كنت ابدأ بالإلف الثانية فأعدها بعناية واسحب من وسط الرزمة ورقة من ذات العشرة روبلات لاعاينها على نور الشمس لاتأكد من انها ليست مزورة. ولكنت أقول معتذرا عن سلوكي : « انني لا أثق بعد أن أضاعت احدى قريباتي خمسة وعشرين روبلا كانت عملة زائفة ولم تنته اليها » ولكنت لفقت قصة كاملة حول هذا الموضوع . وعندما ابلغ الالف الثالثة كنت اهتف : « انتظر لقد اخطأت في عد المائة السابعة من الرزمة واعتقد اني وقعت بمثل هذا الخطأ في الالف الثانية » وعندئذ كنت اترك الألف الثالثة لاعود الى الثانية فأعد المائة السابعة منها وكنت اسحب اول ورقة منها تقع في يدي فأعاينها ثم اعيدها اليه قائلا : « ارجو ان تبدل لي هذه ! حتى اجعل امين الصندوق يسبح في عرق غرير ويحار كيف يتخلص مني . وبالطبع كنت آخر الامر ساذهب بعد أن أفتح الباب واستدير اليه لاعتذر ، ثم انسحب ! » هكذا كنت اتصرف لو كنت في ذلك الوضع .

قال زاميوتوف وهو يضحك :

ـ ها ها ... يا له من امر بغيض ! لكن ليست سوى اقوال . اما عند التنفيذ فثق انه كان حريا بك ان تصطدم بعثرة ! دعني اقول لك رأيي : « ان أي سفاح ، وليس أنت وأنا ، لا يمكن أن يضبط

اعصابه • خذ مثلاحادثة قريبة : لقد قتلت العجوز في حينا ويبدو ان القاتل وحش مخيف ارتكب جريمته في وضح النهار واستطاع الافلات بمعجزة مع ذلك فقد ارتعدت يداه حتى انه لم يحسن السرقة ولم يستطع الاستمرار حتى النهاية : ان الوقائع تدل عليه » •

بدا راسكولنيكوف مزعوجا بهذا القول وصاح وهو ينظر الى زاميوتوف نظرة خبيثة :

ــ تدل عليه : اذا حاولوا القبض عليه ان استطعتم • طاردوه •

ــ لا تخف سوف يقبض عليه •

ــ من ؟ أنتم ؟ انتم الذين ستلقون القبض عليه ؟ هم ! لكم ان تخدعوا انفسكم ان شئتم ! ان ما يهمكم هو ان تعرفوا ما اذا كان القاتل ينفق الان من المال الذي سرقه أم لا • وعندئذ تقولون لانفسكم « كان فلان من قبل بائسا فكيف ينفق الان عن سعة ؟ لا بد وأن يكون القاتل ! » وعلى ذلك فان اي طفل يستطيع ان يخدعكم اذا شاء •

فأجاب زاميوتوف :

ــ الواقع ان كل المجرمين يتصرفون على هذا الشكل • اما من حيث القتل فانهم ينجزونه بمهارة ثم يقعون في ايدينا عند دخولهم أي مشرب ولا شك ان الشرطة تقبض عليهم عندما يبعثرون المال الذي سرقوه ! لا يمكن ان يكونوا جميعا دهاة مثلك ! من الواضح انك لو كنت انت لما ذهبت الى حانة ابدا •

قطب راسكولنيكوف حاجبيه وحدق في وجه زاميوتوف ثم سأل بوجه متجهم :

ــ يبدو انك تتوق لمعرفة الاسلوب الذي كنت اتبعه في مثل هذه الحال •

فاجاب زاميوتوف بلهجة خطيرة وصوت ثابت حتى ليخيل للناظر اليه

ان وجهه اتسم كذلك بميسم الخطورة المتزايدة :

ـ اني اود ذلك حقا •

ـ وهل تعلق عليه اهمية كبرى ؟

ـ جـــدا •

ـ ودنا راسكولنيكوف بوجهه ثانية من وجه زاميوتوف وراح يحدق فيه ويتكلم بهمس جعل الاخر يشعر برعدة تسري في اوصاله • قـــال :

ـ « كنت استولي على المال والحلي ثم اخرج من المكـان ودون ان اضيع دقيقة واحدة او ان اضرب في الارض باحثا ، كنت اقصـد مكانا منعزلا كبستان يحيط به سور او اي شيء من هذا القبيل بعـد ان اكون متأكدا من وجود حجر ضخم يزن ثلاثين رطلا مثلا في زاوية ما او قرب الجدار في ذلك البستان او الباحة ، حجر يكون ملقى هناك منذ ان شيدت الدار او الجدران ، كنت أرفع ذلك الحجر الذي ينبغي ان تكون تحته حفرة صغيرة وأودع الحلي والمال في تلك الحفرة ثـم اطمرها واعيد الحجر الى مكانه بعد ان اسوي الارض دفعا لكل تغيير يحدث وانصرف ! وكنت سأنتظر عاما او عامين او ربما ثلاثة اعـوام ممتنعا عن الاقتراب من تلك الاشياء وبعدئذ تستطيـع ان تبحث لان العصفور يكون بذلك قد طار •

صاح زاميوتوف بصوت قريب من الهمس.وهو يبتعد فجأة عن راسكولنيكـوف :

ـ أنت مجنـون •

كانت عينا راسكولنيكوف تلتمعان ووجهه شاحبا مخيفا وشفته العليا ترقص بعنف وكان منحنيا انحناءة شديدة نحو زاميوتوف وهو يحرك شفتيه دون ان يصدر عنهما صوت ما • وهكذا انقضت نصفه

دقيقة وهو يعقل ما يعمل لكنه لا يستطيع الكف عن ذلك العمل • كانت الكلمة الرهيبة ـ كما كان الرتاج ، رتاج ذلك الباب من قبل ـ على وشك الافلات من شفتيه ، كانت تحاول الخروج • لكنه استطاع اخيرا ان يحولها بالشكل التالي حين قال :

ـ هذا لو كنت انا الذي قتلت العجوز واليزابيت !

أما زاميوتوف فكان ينظر اليه نظرة مروعة وقد شحب وجهه حتى حاكى لون غطاء المائدة بينما كان شبح ابتسامة يلوح على شفتيه • قال بصوت لا يكاد يسمع :

ـ لكن هل هذا ممكن ؟

فألقى عليه راسكولنيكوف نظرة شيطانية وقال بصوت بارد هادىء بعد ان استعاد نشاطه الذهني :

ـ اعترف ، اعترف بانك ظننت انني القاتل • نعم • أليس كذلك ؟

فبادر زاميوتوف الى القول :

ـ ابدا • بل انني الان ابعد الناس عن الظن او الشك •

ـ ها قد ضبطتك الان ! لقد اقتنص « الشحرور » ! انك اذا ظننت ذلك من قبل طالما انك تقول : « انك الان ابعد الناس عن الشك »

فصاح زاميوتوف وقد بدا عليه الانزعاج لهذه الهفوة :

ـ اطلاقا ••• ابدا ••• انك انت الذي روعتني حتى جعلتني اتلفظ بهذه الكلمات •

ـ اذا انك لم تكن تشك في امري ! لكن عن اي شيء اذا كنت تتحدث لما غادرت ـ أنا ـ دائرة البوليس ؟ ولم راح « الملازم البارود » يستجوبني بعد ان استفقت من اغمائي ؟

نهض واقفا وصاح بالنذل قائلا :

ـ ما هو حسابك ؟

ــ ثلاثون كوبيكا بمجموعه ...

ــ حسبنا اليك عشرين كوبيكا مكافأة . ثم التفت الى زاميوتوف وقال وهو يمد له يدا مرتجفة ملأى بالاوراق المالية :

ــ أترى كم عندي من النقود ؟ ان بينها اوراقا حمراء وزرقاء حمراء وزرقاء مجموعها خمسة وعشرون روبلا . فمن اين اتتني ؟ ثم ثوبي الجديد ؟ من اين جاء ؟ انت تعرف مع ذلك انني لا املك دانقا ! انني أراهن على انك قد استنطقت صاحبة الدار التي اسكنها . هيا ! هذا يكفي . لقد تحدثنا كثيرا فالى اللقاء وبسرور .

خرج يهزه شعور غريب ، لون من « الهيستريا » الممزوجة باللذة العميقة كان وجهه مربدا شديد الهزال متشنجا كأنه أصيب بنوبة حادة وازداد اعياؤه شدة فقد شعر عقب هذه الصدمة الاولى ان قواه التي عادت اليه مثارة جدا قد وهنت فجأة بانتهاء الصدمة واصبحت اشد ما تكون خورا .. ولما اصبح زاميوتوف وحده لبث جالسا في مكانه فترة غارقا في التفكير . ذلك ان راسكولنيكوف ــ دون ان يعي ــ قلب له نظرياته رأسا على عقب وجعله يتخذ قرارا نهائيا ويقول متمتما: « ان ايليا بيترفيتش وحش سمج » .

ما كاد راسكولنيكوف يفتح الباب المؤدي الى الشارع حتى التقى برازوميخين داخلا . فتوقف كل منهما على بعد خطوة من الاخر واخذا يتبادلان النظر . بدا على رازوميخين الذهول وأعقبه غضب عنيف اشتعل في وجهه والتمعت عيناه ببريق متوعد وصاح ملء فيه :

ــ انت هنا اذا ! ويحك لقد فررت من السرير ! ايها الخبيث . لقد جعلتني ابحث عنك تحت السرير وفي غرفة الغلال حتى انني كدت ان اضرب ناستاسيا لاهمالها . ثم اين اجدك ! روديا ما معنى هذا ؟ قل لي الحقيقة ! اعترف . هل تسمح ؟

اجاب راسكولنيكوف بهدوء :

ـ ما معنى ذلك انكم تزعجونني ازعاجا مميتا واريد ان اكـون وحيـدا ...

ـ وحيدا ! وانت الذي لا تستطيع السير ؟ ووجهك اشد شحوبا من قطعة القماش ؟ وصدرك يستطيع التنفس ؟ ايها الغبي ! ماذا فعلت في « قصر البلور » ؟ اعترف فورا .

غير ان راسكولنيكوف حاول الابتعاد وهو يقول :

ـ دعني امر ...

جن جنون رازوميخين واطبق على كتف راسكولنيكـوف بعنف وصـاح :

ـ ادعك ؟ ادعك ؟ انت تجرأ على قول « دعني امر » بعد ما فعلتـه حتى الان ؟ اتعرف ماذا سأفعل بك فورا ؟ سوف اضعك تحت ابطـي واربطك كحزمة محترمة ثم احملك الى مسكنك وسأغلـق عليـك البـاب بالمفتاح .

قال راسكولنيكوف بهدوء وبصوت ساكن :

ـ اسمع يا رازوميخين . الا ترى انني عازف عن خدماتـك ؟ اي شي اشد صعوبة على المرء من صنع المعروف مع من لا يبالي بـه مطلقا ! مع من يزعجه ان يعمل من اجله ذلك المعروف ، هيا لماذا جئت تعنى بي منذ بدء مرضي ؟ ما يدريك انه كان يسعدني أن أموت ! ألم افهمك ، فيه الكفاية اليوم ؟ انك تؤلمني وتزعجني وتعذبني ؟ ثق بان ذلك يؤخر شفائي . لانه يجعلني في حال دائم مـن الثورة والغضب . فدعني اذا بربك . باي حق تستوقفني عنـوة ؟ الا ترى انني محتفظ بكل قواي الفكرية وانا اتحدث معك ؟ كيف استطيع ان احصل منك على وعد بانك لن تفرض وجودك علي وانك ستكف عن العناية بي ؟ أنا

عاق • ليكن ! أنا مخلوق خشن ، سمج ، فظ ، ولكن بربكم ، بربكم دعوني هادئا ، دعوني ، دعوني •

كان يتكلم بصوت هادىء وهو يخمن سلفا نوع السم الذي كان ينشره بأقواله ولم ينته من حديثه الا وقد بلغ به الحال مبلغا من الضعف كاد ان يكتم انفاسه تماما كما وقع له من قبل مع لوجين • اما رازوميخين فقد فكر لحظة ثم افلت ذراع راسكولنيكوف وهو يقول بصوت حالم :

ــ حسنا • اذهب الى الشيطان •

وفجأة انتابه غضب عنيف فصاح :

ــ انتظر ، اسمع : اصرح لك : بانكم جميعا ــ انت ومن هم على مذهبك ــ ثرثارون مساكين ادعياء حقيرون حتى انكم اذا اصبتم بألم تصرفتم تصرف الدجاجة التي وضعت بيضة للتو ! انكم تسرقون الكتاب الاجانب حتى في هذه الامور لانكم لا تملكون في انفسكم شيئا من الحياة الخاصة المستقلة • ان لحمكم ابيض كلحم الحوت وما يجري في عروقكم ان هو الا حليب وليس بدم ! انا لا اصدق احدا منكم لان همكم الاول في كل المناسبات هو تحاشي الظهور بمظهر الرجال ! اسمع قبل ان [illegible] ما اقول حتى النهاية • انت تعرف ان لدي الليلة اصدقاء [illegible] سمر اقيمها بمناسبة انتقالي للمنزل الجديد ولعلهم وصلوا الان الى داري وقد تركت عمي هناك ليستقبلهم • فاذا كنت لست سخيفا عريقا في السخف ، او ترجمة للغة اجنبية ما ، فان من الافضل لك ان تقضي امسيتك عندي بدلا من ان تتشرد هكذا في الشوارع • اسمع يا روديا ! أنا أعرف انك ذكي وذكاؤك لا يمنع ان تكون لطيفا وعليه اذا لم تكن سخيفا فخير ما تعمله ان تأتي الى مسكني الليلة ولسوف اجد لك مقعدا مريحا جدا بحل

وسأضعك في سرير فاخر اذا اقتضى الامر وسيكون هناك عدد من الاصدقاء على ذلك يرفه عنك ! وسيحضر زوسيموف كذلك. فهل تحضر ؟

ـ كلا .

فصاح رازوميخين وقد نفذ صبره :

ـ انك مخطىء بذلك ! وما يدريك ؟ لا يمكن للمرء ان يعرف ما سيكون ؟ لقد وقع لي شخصيا أن كنت أبصق في وجه بعضهم ثم أسارع للاتصال بمن بصقت في وجهه . انك تصاب بالخجل ولكنك بذلك تعود الى حظيره بني الانسان . لذلك لا تنسى يا روديا عنواني: دار بوتشينكوف ، الطبقة الثالثة .

ـ يخيل الي يا سيد رازوميخين انك على استعداد لتحمل كل اهانة في سبيل خدمة شخص ومساعدته .

ـ انا ؟ مجنون ! لا تنسى منزل بوتشينكوف رقم (٤٧) دار الموظف بابو خكين .

ـ لن احضر يا رازوميخين .

ـ بل اراهن على انك ستحضر . والا فانك تتنكر لنفسك .

وبينما كان راسكولنيكوف يهم بمغادرة المكان دون ان يجيب وقعت عينا رازوميخين على زاميوتوف فهتف :

ـ هيه ! ان زاميوتوف هنا .

ـ نعم .

ـ هل رآك ؟

ـ لقد رآني .

ـ وتحدث معك ؟

ـ وتحدث معي .

ـ عن اي شيء ؟ هيا لتذهب الى الشيطان . لا تقل اذا كـان لا يرضيك ... تذكر منزل بوتشينكوف رقم(٤٧) مسكن بابوخكين.

خرج راسكولنيكوف الى الشارع فبلـغ شارع « البساتيـن » ودار حوله . وكان رازوميخين يتابعه بنظرات قلقة . ثم لوح بيديـه دلالة على عدم الاكتراث ودخل المشرب . غير انه توقف على السلـم مفكرا وغمغم :

ـ « ليحملني الشيطان » ! انه كان يتكلم دون وعي . لكنه كان يبدو مالكا قواه . كم انا سخيف . الا يتكلم المجانين بلهجة مماثلة للهجـة العقلاء ؟ ان زوسيموف نفسه يشك في ذلك على ما يبدو .

ثم ضرب جبهته بيده وقال :

ـ ولكن ... كيف ادعه وحيدا في هذه اللحظة ؟ لا يبعـد ان يلقي بنفسه الى النهر ليغرق ! لا شك انني ارتكب خطيئة حين تركته يذهب . وعاد ادراجه يلحق براسكولنيكوف . لكن هذا كان قـد اختفى . فلما اعياه البحث عاد الى « قصر البلور » ليـستفسر مـن زاميوتوف عما وقع له معه .

اتجه راسكولنيكوف نحو جسر «ايكس» ... ووقف في منتصفه مستندا الى الحاجز وراح ينظر الى الافق البعيد . شعر بعد مبارحته لرازوميخين انه شديد الضعف وانه استنفذ كل قواه حتى استطـاع بلوغ هذا المكان . حس بحاجته الى الراحة . الى النوم في الشارع وأخذ يرمق متأملا دون وعي اشعاع الشمس الاحمر الاخير الذي يلتمع عـلى صفحة المـاء والبيوت الغارقة في العتمة الداهمة . وهناك على الشاطيء الايسر كان اشعاع الشمس الغاربة ينعكس على زجاج نـافذة اعلى منزل فيجعلها تبدو ملتهبة وكأنها قطعة من الجحيم . وكانت المياه

في القنال تبدأ قاتمة اللون فبدا على وجهه اهتمـــام خاص بالماء واخـيرا شعر بحلقات حمراء تدور امام عينيه وخيل اليه ان المنازل والمـــارة والرصيف وكل من عليه ومن حوله بدأوا يدورون وكأنهم يرقصـــون ثم انتفض فجأة وكأنه تخلص بصعوبة ومجهود من الاغماء الذي كـاد ان يدهمه وشعر بشخص يقترب منه ويقف الى يمينه • كانت سيـدة طويلة القامة تحجب رأسها بشال ولها وجه اصفر هزيل تلتمـــع في محجريها العميقتين عينان حمـــراوان • كـانت تحـدق فيه دون ان تراه لانها كانت في حالة لا تسمح لها بتمييز الاشخاص • اقتربت تلـــك الامرأة من الحاجز فجأة ووضعت مرفقها عليه ثم طوحت بساقها اليمنى اولا واعقبتها باليسرى والقت بنفسها الى الماء فانبعث من الماء الكدر صدى ارتطام جسدها فيه وسرعان ما ابتلعت المياه الفريسة لتلفظها بعد قليل وتجتذبها مع التيار ورأسها وساقاها مغموران وبدا ثوبها منتفخا وكأنه فراش صغير • انبعثت في تلك اللحظة عشرات الاصوات صائحة :

« امرأة تختنق ، امـــرأة تختنــــــق » وتهـــافت الناس فحشر راسكولنيكوف نفسه بينهم وسمع احدهم يقول :

ـ رباه انها آفروسينيوشكا !

وصاح بعضهـــم :

ـ الينا بزورق ••• بزورق •••

وفي تلك اللحظة كـــان أحد الرقباء هبط السلـــم المؤدي الى شاطيء القنال ونزع معطفه وحذاءه ثم ارتمى في الماء ولحـــق بالامرأة الغارقة فأمسك على ثوبها بيده اليمنى بينما تعلق باليسرى بالحبل الذي القاه اليه زميل له • وهكذا اخرجت اليائسة المنتحرة من القناة والقيت على ارض الرصيف لتجرى لها الاسعافات • ولم يمض قليـــــل حتى استعادت رشدها ففتحت عينيها وتناهضت ثم جلست واخذت تزيـــل

عن ثيابها ما علق بها من الطمي بحركة لا ارادية دون أن تنبس بكلمة وتهافت الناس حولها وهتفت امرأة تقول :

ـ لقد ركبها الف شيطان ! نعم الف شيطان .

وراحت المتحدثة تفسر ما حدث بقولها :

ـ لقد حاولت في المرة الاولى شنق نفسها لولا ان انقذت في آخر لحظة . انها جارتنا ونحن نقطن في المنزل الثاني قريبا من هنا على هذه الناصية . وقد خرجت لشراء بعض الحاجيات من البقالية وطلبت من الخادم مراقبتها . ومع ذلك فقد وقع المحذور .

لم يلبث المجتمعون ان انصرفوا وبقي « الرقيبان » يعنيان بالبائسة وكان بعضهم قد الح الى وجوب سوقها الى ادارة الشرطة .

راح راسكولنيكوف ينظر الى هذا الصخب باحساس غريب من اللامبالاة والجود . وشعر بالغثيان وتمتم يحدث نفسه قائلا :

ـ كلا ؟ انه بغيض ! الماء ؟ انه لا يستحق العناية . خصوصا وانه لن يحدث شيء فلم الانتظار ؟ ولكن على فكرة ، لماذا بارح زاميوتوف عمله في دائرة الشرطة رغم ان الدوام يستمر حتى الساعة التاسعة ؟

أدار ظهره الى الحاجز بعد أن كانت فكرة الانتحار تراوده وألقى نظرة حوله ثم خاطب نفسه وكأنه اتخذ قرارا حاسما :

ـ هيا بنا ! لم لا ؟

ثم غادر الجسر واتجه نحو دائرة الشرطة بقلب جامد لا احساس فيه . كان يمقت التفكير في تلك اللحظة حتى ليخال ان قلقه قد غادره وان تلك الانتفاضة التي خلقت فيه بعض النشاط فأخرجته من حجرته « لينهي كل شيء » قد حل محلها فتور ووهن كاملان . استمر يحدث نفسه بقوله :

ـ حسنا . ان ذلك ايضا يعتبر مخرجا . ثم انني اريد الانتهاء

لذلك فسأنتهي أليس ذلك بالمخرج المناسب ؟ ماذا يهم ! سيكون لي ذلك ، لأنسى كل هذا . انني احيانا اترك الحماقات تعصف في رأسي.

كان عليه كي يصل الى دائرة البوليس ان يسير بخط مستقيم ثم ينعطف الى اليسار عند بلوغه الشارع الثاني . لكنه قبل ان يصل الى المنعطف الأول توقف برهة وراح يفكر ثم ما لبث ان سار في زقاق وانعطف بعد ان قطع شارعين ثم توقف دون ان يشعر بما يعمل ولعله اراد بتوقفه استجماع آرائه واكتساب الوقت ! كان يمشي مطرقا ببصره الى الارض . وفجأة شعر كأنما يهمس بعضهم في اذنه . ولما رفع رأسه وجد انه قد بلغ باب ذلك « البناء » ووقف تماما امام الباب ! كان يتحاشى منذ تلك « الليلة العتيدة » المرور بذلك المكان غير ان رغبة لا تقاوم يصعب تفسيرها استبدت به فدخل البناء بعد ان اجتاز المدخل ثم انحرف الى السلم الاول الى اليمين وراح يصعد الدرجات المعروفة والتي تقود الى الطبقة الرابعة . كان الظلام حالكا والسلم ضيقا يصعب سلوكه فكان راسكولنيكوف يتوقف على كل « بسطة » وينظر حوله بفضول . شاهد على « بسطة » الطبقة الاولى عارضة جديدة لم تكن موجودة من قبل بينما كان مسكن الطبقة الثانية مجددا تماما وقد طلي بابه الموصد بالدهان فاستنتج انه قد اجر واشغل وان نيكولا وديمتري قد فرغا من العمل فيه . ولما بلغ الطبقة الرابعة حدث نفسه قائلا : « هنا » !

شعر بتردد ولون من الخوف : كان باب المسكن مفتوحا على مصراعيه وكانت أصوات تنبعث من الداخل فتأكد من وجود

اشخاص فيه ، الامر الذي لم يكن يتوقعه : لم يتردد طويلا بل دخل المسكن بقدم ثابتة •

كان بعض العمال يرممونه ويجددون ما تلف منه فأذهله ذلك لانه ـ على ما يبدو ـ كان يتوقع ان يراه على حاله الذي تركه عليه آخر مرة بل لعله كان ينتظر أن تكون الجنان مسجاتين في مكانهما المعهود فاذا به تطالعه الان غرفة ذات جدران عارية خالية من الاثاث فبدا له المشهد غريبا • تقدم نحو النافذة فجلس على حافتها •

كان في المسكن عاملان يشتغلان • احدهما اكبر سنا من الاخر وكلاهما لم يتجاوز طور الشباب • كانا يلصقان على الجدران اوراقا بيضاء مزينة بازهار البنفسج وهما ينزعان الاوراق الصفراء القذرة الممزقة التي كانت تكسوها من قبل • شعر راسكولنيكوف بغضب عنيف يستولي عليه وراح ينظر الى تلك الاوراق الجديدة نظرة عدائية وكأنه يأسف لكل تلك التغييرات المحدثة •

وكان العاملان على وشك الانتهاء من عملهما فكانا يرتبان معداتهما ويتاهبان لمغادرة البناء • لذلك لم يزعجهما دخول راسكولنيكوف بل استمرا يتحدثان • كان احدهما يقول :

ـ جاءت تزورني صباح ذات يوم تتصنع عطف الكبير على الصغير وكان الوقت مبكرا جدا وهي في ابهى زينتها فسألتها : ماذا بك؟ لم تظهرين هكذا ؟ فأجابت :

ـ يا « تيت فاسيليتش » أريد ان اكون اعتبارا من اليوم لك وحدك ! •• ولكي اصفها لك اكتفي بالقول : انها تشبه « جورنال » الموضة تماما ! فأجابه الاخر :

ـ « جورنالات الموضة » ! انها كما تعلم عبارة عن صور ملونة تصل كل يوم سبت بالبريد من الخارج• انها تصلح لتعليم النساء كيفية

ارتداء الملابس وصنعها وكذلك الرجال • انها رسوم فالرجال يصورون فيها وعليهم أجمل الثياب أما فيما يتعلق « بجنـاح » النسـاء فحدث! انهم يصورونها بشكل جذاب جميل اولئك الماكرون حتى انك لو اردت التضحية بكل ما تملك لما امكنك دفع اثمان ما هو مصور فيها •

فصاح الفتى الاصغر سنا وقد اعجبه الحديث :

ـ ما هو الشيء الذي لا تراه في ذلك « الشيء » أنه حاوٍ على كـل شيء •

ـ نعم وحتى الاشياء « الاخرى » ، لا تخلو منها •

نهض راسكولنيكوف ومضى الى غرفة النوم التي كانت تضـم صندوق العجوز والخزانة • فبدت له الغرفة صغيرة الحجم وهـي فارغة ولم يكن العاملان قد نزعا بعد ما كان على جدرانها مـن اوراق وكانت هناك اثار في احد اركانها تخلفت عن دولاب « الايقونات » • نظر حوله وعاد الى النافذة • فحدجه اكبر العاملين سنا بنظرة وسأله :

ـ ماذا تبحث هنا ؟

لم يجب راسكولنيكوف بل نهض واقفا ومضى الى المدخـل حيث حبل الجرس فأطبق بيده عليه وجذبه فدوى صوت الجرس ••• الصوت « اياه » الذي سمعه ، صوت « التنك » • كرر القرع ثانيـة وثالثة ، وعادت الى مخيلته • صورة تلك اللحظـة الرهيبة التي قضاها في هذا المكان فكان يرتعد كلما دوى صوت الجرس ويشعر بلـون مـن السرور !

ـ لكن ماذا تريد ؟ من انت ؟

عاد راسكولنيكوف الى الغرفة الداخلية وهو يقول :

ـ انا ابحث عن مسكن اقطنه وقد جئت اعاين هذا !

ـ لا يزور الناس المساكن الخالية ليلا ! ثم انه كان عليـك ان

تصحب معك البــواب !

سأل راسكولنيكوف وهو يتجاهل ملاحظة العامل :

ــ لقد نظفوا الارض كما يبدو • هل سيدهنونها ؟ الا توجـــد آثار دمـــاء ؟

ــ ايـــة دماء ؟

ــ لكن العجوز واختها قتلتا وكانت هنا بحيرة من الدم ؟

بان الانزعاج على وجه العامل وهتف :

ــ اي نوع من الناس انت ؟

ــ انـــا ؟

ــ نعــــم !

ــ أتريد ان تعرف اي نوع من الرجال انا ؟ لنذهب الى دائـــرة الشرطة وسأعلمك هنـــاك !

نظر العاملان الى بعضهما بخوف فقال الاكبر سنا :

ــ هيا ••• لقد ازف وقت رحيلنا بل اننا قد تأخرنـــا • هيـــا يا « آليوشا » لنذهب وينبغي ان نغلق الباب •

فقال راسكولنيكوف بلا مبالاة :

ــ حسنا لنذهب •

وخرج اولا وراح يهبط السلم ببطء فلما بلغ الباب الخـــارجي هتف مناديا البواب !

ــ هه ! « دفورفيك » !

كان عدد من الاشخاص بينهم البوابان واحدى الفلاحات واحـــد الصناع بثوب منزلي ، واقفين أمام البـــاب يتأمـــلون المـــارة • قصد راسكولنيكوف اليهم فسأله احد البوابين :

ــ ماذا تريـــد ؟

ـ هل كنت في دائرة البوليس ؟

ـ لقد جئت للتو من هناك • ماذا تريد ؟

ـ هل هم هناك حتى الان ؟

ـ نعم انهم هنـاك •

ـ وهل مساعد رئيس البوليس هناك ايضا !

ـ لقد كان هناك منذ لحظات • ماذا تريد ؟

لم يجب راسكولنيكوف بل لبث واقفا بين الجماعة ساهم الفكر بينما قال اكبر العاملين سنا :

ـ لقد جاء يتفقد المسكن الذي نشتغل فيه !

ـ اي مسكن ؟

ـ ذلك الذي نشتغل فيه وكان يسأل : لم غسلوا الدم ؟ لقـد وقعت جريمة قتل هنا وقد جئت استأجر هذا المسكن ! ثـم راح يقرع الجرس حتى كاد ان يقطع حبل الجرس • ثم طلب الينا ان نذهب معه الى دائرة البوليس ليتحدث بكل شيء !

شعر البواب بشيء من القلق وراح يصعد راسكولنيكوف ببصره وقد قطب حاجبيه ثم قال وقد اكتسب صوته طابع التهديد :

ـ مـــن انت ؟

ـ أنا روديون رومانيتش راسكولنيكوف ، طالب سابـق وأقطن في دار « سشيل » بالقرب من هنا في الزقاق المجاور رقم ١٤ • اسألوا البواب انه يعرفني !

نطق راسكولنيكوف بتلك الاقوال وهو شارد الذهن ينظر الى الشارع الذي بدأت الظلمة تكتسحه نظرات ساهمة بلهاء •

ـ وماذا جئت تعمل في هذا المسكن ؟

ـ اردت ان اراه !

ـ وماذا فيه حتى تهتم برؤيته ؟
وهنا تدخل الصانع ذي الثوب المنزلي وقال :
ـ ماذا لو استقناه الى مركز البوليس ؟
نظر اليه راسكولنيكوف نظرة متعالية وتأمله برهة باهتمام ثم قال بهدوء :

ـ هيا بنا !
بينما عاد الرجل يقول مؤكدا :
ـ ينبغي ان نذهب به الى هناك طالما انه جاء « لهذا السبب » ينبغي ان تكون في رأسه فكرة ما !

بينما غمغم العامل :
ـ الله يعلم اذا كان ثملا ام لا ؟
وعاد البواب يسأل وقد علا وجهه الغضب :
ـ ماذا تريد على الضبط ؟ لماذا جئت تزعجنا ؟
فاجاب راسكولنيكوف بسخرية :
ـ انك ترتعد خوفا من الذهاب الى دائرة البوليس !
ـ ولم ارتعد من الخوف ؟ لم جئت تزعجنا ؟
وصاحت القروية :
ـ انه نشال حقير !

بينما قال البواب الاخر وكان رجلا ضخم الجثة يحمل في يده حلقة مفاتيح كبيرة :
ـ انه متسكع حتما فلم تتناقش معه ؟ هيا غادرنا ... « انقلع » !
وامسك بكتف راسكولنيكوف ثم دفعه الى الشارع فكاد ان يسقط على الارض لكنه تحامل على نفسه ونظر بامعان الى اولئك الذين كانوا مجتمعين وابتعد !

قال العامل بدهشة :

ــ انه مخلوق غريب !

فاجابت القرويــة :

ــ صحيح ! لقد اصبح « العالم » في هذه الايام شديد الغرابة.

وقــال الصــانع :

ــ كان يجب سوقه الى « القسم » •

فأجاب البواب الضخم :

ــ وما فائدة ذلك ؟ انه متسكع نشال كما بدا لنا فلو اخذنــاه لسقط في الفخ ولما استطاع الخروج •••

راح راسكولنيكوف يناجي نفسه قائلا : « أأذهب أم لا أذهب ؟ » وكان واقفا على الرصيف عند المنعطف ينظر حوله وكأنه ينتظر الجواب من احد • غير ان الجواب ظل معلقا ! كان كل شيء ميتا لا يحس ولا يشعر بآلامه وعذابه ! كان كــل شيء ميتا بالنسبة اليــه فقط ! وفجأة لاح على بعد مائتي خطوة من مكانه ، جمهرة من الناس ، يزداد عددها في ذلك الظلام الوافد وسمع صرخات وصيحات واصــوات متنافرة وفي وسط الجمهرة وقفت عربة يشع منها ضوء بــاهت • أثار انتباه راسكولنيكوف فانعطف يمينا وراح يحث خطاه متجها نحــو المتجمهرين •

كان يبدو عليه أنــه يريد الاتصــال بــأي كــان لأنه كــان اتخذ قراره النهائي : لسوف يذهب الى مركز البوليس بعد لحظات فلــم لا يملأ عينيه من المشاهد « المبهجة » حتى ذلك الحين !

٧

كانت عربة انيقة واقعة وسط الشارع وقد شد اليها حصانان اشملان حرونان ... وكانت العربة خالية والسائق واقفا بجانبها وقد تخلى عن مكانه ... وكان بعضهم ممسكا بمقاود الحصانين بينما تجمع نفر من الناس حولها فراحت شرذمة من رجال البوليس تمنعهم من الاقتراب !... وكان أحد رجال الشرطة ممسكا بمصباح في يده يلقي ضوءه على شيء ملقى على الرصيف قرب العجلات ، وبدا السائق مرتبكا قلقا اذ كان يهتف بين حين واخر :

ــ يا للتعاسة ! رباه يا للتعاسة !

شق راسكولنيكوف طريقا لنفسه وسط الازدحام حتى استطاع ان يبلغ مكانا استطاع فيه معرفة سبب هذا الحشد الصاخب المضطرب، كان على الارض ، رجل ملقى على الرصيف فاقد الصواب والدم يغمر كل جسمه وقد سحقته العجلات منذ حين . كانت ثيابه بالية قديمة ولكنها تدل رغم ذلك على ان صاحبها « سيد » او انه كان « سيد » وليس صعلوكا وكان الدم يتفجر من جمجمته ووجهه المهشمين حتى اختلطت معالمهما . كان الحادث مؤلما وكان مقدرا لضحيته الموت !

عاد السائق يصيح ذاهلا :

ــ رباه ! كيف يمكنني معرفة ماذا سيحدث ؟ فلو ان خيولي كانت تسير هدبا او انني لم احذره صائحا بكل قواي لكان الامر ممكنا . لكني كنت اسير ببطء وتمهل وبسرعة عادية تماما وقد شهد الناس كلهم ذلك هل أصدق ويكذب الآخرون ؟ لكن الرجل الثمل يرى « الدنيا » مشوشة في وضح النهار ! لقد رأيته يجتاز الشارع مترنما حتى انه كاد ان يستلقي في منتصف الطريق ، فهتفت به محذرا ثلاث

مرات وخففت سرعة الجياد لكنه جاء يصطدم بهم بخط مستقيم ! انني اعتقد انه تعمد ذلك ، والجوادان فتيان نشيطان فكانت صيحـاتي المحذرة تزيد في هياجهما وهكذا وقع الحادث المؤلم .

صاح شاهد عيان بين المتجمهرين يقول :

ـ انه يقول الحق !

ـ لعمري ان ما قاله هو الصدق ! لقد صرخ ينبهه ثلاث مرات متتاليـة !

ـ ثلاث مرات ، ثلاث مرات ، كلنا سمعنا ذلك !

وكان يبدو على السائق انه غير وجل لما حدث فقد كانت اعصابه هادئة باستثناء تلك العبارات التي لاتخلو من قلق والتي كان يرددها بين الحين والاخر مشفقا على مصير الضحية ، وقد بدا ان العربة تخص بعض الاغنياء وان صاحبها ينتظر قدومها في مكـان معين وكان رجال الشرطة مدركين تلك الحقيقة وقد أعاروها كل اهتمامهم . فلم يبقَ عليهم الا نقل المدهوس الى مركز البوليس ثم الى المستشفى دون أن يعرف اسمه . وكان راسكولنيكوف قد تسلل خلال ذلك الوقـت حتى بات في عداد اقرب الناس الى الضحية وفجأة اضاء مصباح الشرطي وجـه التعس فعرفه وهتف وهو يزيح النـاس عـن طريقه ليصل الـى الصف الاول :

ـ أنا أعرفه ... أنا أعرفه ! انه موظف متقـاعد ، المستشـار مارميلادوف وهو يقطن بالقرب من هنا في دار كوزل ! علي بطبيب وانا ادفع الاتعـاب !

واخرج نقوده من جيبه وعرضها على انظار رجل البوليس وهـو في اعلى درجات الانفعال والاضطراب .

وسر رجال الشرطة لمعرفـة اسم الضحية أما راسكولنيكوف فقد

اعلن عن اسمه وعنوانه مجهداً نفسه كما لو كان الرجل اخاه الاكبر ساعيا الى نقله بسرعة الى داره وهو فاقد الوعي . وكان يهتف :

ـ انه يقطن هناك على بعد ثلاثة منازل من هنا وصاحب منزله الماني غني : « كوزل » . لقد كان ثملا حتما وكان قاصدا مسكنه . انا اعرفه ... انه مدمن وله عائلة كبيرة العدد : زوجة واولاد بين بنين وبنات . كم يلزم من الوقت لنقله الى المستشفى ؟ سأدفع للطبيب سأدفع ! يجب أن يلقى العناية الكافية والا فأنه سيموت قبل ان يبلغ المستشفى .

انتهز فرصة مواتية فدس في يد احد رجال الشرطة قطعة من النقود ولما كانت تلك الاجراءات قانونية وليس فيها ما يستوجب اللوم فقد ووفق على نقل الجريح الى منزله . وهكذا سمح لبعض المتحمسين ان يساهموا في حمله وكان بناء « كوزل » على بعد ثلاثين خطوة من مكان الحادث فراحت الجماعة تشق طريقها اليه يتبعها راسكولنيكوف وهو رافع رأس الجريح بعناية دون ان يغفل عن القيام بدور الدليل .

ـ من هنا ... اصعدوا هذا السلم ... ينبغي ان يبقى رأسه مرفوعا ... هكذا حسنا سأدفع وسأشكركم لجميلكم !

كانت زوجة « مارميلادوف » على جري عادتها كلما اتيحت لها فترة راحة تذرع غرفتها جيئة وذهابا من النافذة الى المدفأة ومن المدفأة الى النافذة وذراعاها معقودتان على صدرها وهي تحدث نفسها كلما سنحت لها الفرصة وتخلصت من نوبات السعال . وكانت منذ حين قد اصبحت تبحث مع ابنتها البكر بوليا احاديث تزداد عمقا مع الزمن . وعلى الرغم من سن الفتاة المبكرة وعدم فهمها عديدا من الاشياء فانها بدأت تفهم تماما ما تريده أمها منها . لذلك فقد كانت تصغي الى أحاديثها بعناية فائقة ، وتتابعها بعينيها الكبيرتين اللتين تشعان ذكاءا

ساعية الى فهم كل كلمة تتلفظ بها امها مراد الشكل تلميح اذا خانها التصريح !

وفي تلك الاثناء ، كانت بوليا تخلع ثياب اخيها قبل ان تودعه سريره فقد كان ذلك الصغير مريضا طيلة ذلك النهار . وكان في تلك اللحظة جالسا بهدوء على مقعد منتصب الجذع منتظرا ان يخلع عنه قميصه الذي سيغسل أثناء الليل . وكانت قدماه متجهتين نحو الباب وعلى جانبه جورباه احداهما الى يمينه والثانية الى يساره . كان يصغي الى حديث امه متسع العينين منتفخ الخدين ككل الاطفال الصغار الذين تنزع عنهم امهاتهم ثيابهم قبل النوم ، اما الفتاة الاخرى فكانت ترتدي أسمالا ممزقة تماما وكانت تقف قرب الستارة منتظرة دورها . كان الباب المؤدي الى السلم مفتوحا لان ذلك كان الوسيلة الوحيدة للتخلص من دخان اللفائف الذي ينبعث من الغرف الاخرى ويسبب لكاترين سعالا قويا طويلا يتداعى له صدرها المريض . وكانت كاترين ايفانوفنا قد اصبحت منذ اسبوع اكثر نحولا من السابق وازدادت البقع الحمراء ظهورا على خديها .

كانت تقول لابنتها بوليا وهي تروح وتجيء في الغرفة :

ـ لن تصدقي بل ولن تستطيعي التصور كم كانت حياتنا سعيدة ومرموقة لما كنا لدى « بابا » أما هذا المدمن فقد سبب لنا تعاسة لحقت بكم اكثر من سواكم لقد كان « بابا » يحمل لقبا يعادل رتبة «كولونيل» لقبا يشبه حاكم مقاطعة فلم يكن باقيا عليه الا ان يخطو خطوة اخرى حتى يصبح حاكما حقيقيا حتى ان الناس كانوا يهرعون الى دارنا ويقولون ! « اننا نعتبرك يا ايفان ميخائيليتش حاكما لنا ! » وعندما كنت ... (وهنا انتابتها موجة سعال حادة فراحت تعاني منها حتى مرت بسلام وقالت متبرمة : ان هذه لعنة ايامي ! ») ... عندما كنت

في آخر حفلة راقصة اقيمت لدى ماريشال الاشراف لمحتني الاميرة « بيزيسميلني » وهي التي باركتني فيما بعد عندما تزوجت أباك يا بوليا، قالت لي : « ألست أنت تلك الشابة التي رقصت « بالشال » عند تخرجها من المدرسة ؟ » ...

وقطعت كاترين ايفانوفنا حديثها وقالت ملاحظة :

ـ ... ينبغي ان ترتقي هذا الخرق ... فلو اخذت ابرة وقمت بتجربة كما علمتك امس ! انك اذا اهملتيه الان ازداد اتساعا غدا ... وعادت تسعل سعالا عنيفا ثم رجعت بافكارها الى حديثها الاول واردفت :

ـ وقد أم العاصمة أحد الامراء وهو الامير ستشيكولزكي وكان قد رقص معي مرة رقصة « مازوركا » فأراد في اليوم التالي ان يتقدم الي بعروضه لكنني افهمته بأجمل العبارات واكثرها نعومة بان قلبي ملك رجل آخر منذ بعيد ! اما ذلك « الاخر » فكان اباك يا بوليا ! وقد غضب ابوك حتى احمر عنقه لما سمع النبأ ...

وتغيرت لهجتها قليلا وهي تقول لابنتها الكبرى :

ـ هيا ... هل أنت مستعدة ؟ اذاً أعطني القميص والجوارب ... هيا أنت يا « ليدا » ـ البنت الاصغر ـ لعمري سوف تنامين هذه الليلة دون قميص ... ضعي جواربك جانبا سأغسلها أيضا ... رباه هذا الرجل ... صعلوك الرجال ... انه لن يعود الليلة كما يبدو ... السكير ؟ ان قميصه لم يتبدل منذ زمن ثم انه مزقها ايضا ... وددت لو عاد ليخلعها حتى اغسل كل هذه الثياب دفعة واحدة ... انني لا استطيع ان اغسل ليلتين متتاليتين ! رباه ! (وعاد اليها السعال على أشد ما يكون) ... ما هذا ؟...

كان هذا السؤال الاخير مبعثه الازدحام الذي شهدته فجأة في

المبشى امام باب غرفتها ، ثم ما لبثت ان رأت جماعة يدخلون الغرفة يحملهم ! هتفت :

ــ ماذا حدث ؟ ماذا تحملون ؟ يا اله السماء !

سأل احد رجال الشرطة الذي كان يتقدم الحشد :

ــ اين نضعه ؟ وراح يتلفت حوله باحثا ... بينما دخلت الجماعة التي تحمل الجثة ، جثة مارميلادوف وهي تقطر دما ...

هتفت راسكولنيكوف بلهجة المروع الحزين :

ــ ضعوه هنا على هذا الديوان ! ترفقوا بالله .

وصاح بعضهم :

ــ لقد دهس في الشارع ، وكان ثملا ...

تسمرت كاترين ايفانوفنا في مكانها برهة وشحب لونهـا حتى حاكى وجوه الاموات وراحت تتنفس بصعوبة بالغة . اما ليدا الصغيرة فقد صرخت صرخة مكتومة وهرعت الى اختها الكبرى بوليا تحيطها بساعديهاالصغيرتين مخفية رأسهاوهي ترتجف واقترب راسكولنيكوف من كاترين ايفانوفنا وقال :

ــ ناشدتك الله ان تهدئي ! الا يصعقنك الامر ! لقد كان يجتاز الشارع حينما دهمته عربة . لكن اطمئني فلسوف يعود الى وعيه ... لقد عنيت بنقله الى هنا وقد جئت معه قبل هـذه المرة تذكـري ... لسوف يستعيد قواه وسأدفع النفقات !

هتفت كاترين ايفانوفنا يائسة :

ــ كنت اتوقع شيئا كهذا واندفعت نحو زوجها تعنى به !

لاحظ راسكولنيكوف ان تلك المرأة لم تكن من اولئك النسوة اللواتي يفقدن الوعي ازاء المصائب . رآها ترفع رأس زوجها وتضـع تحتهـا وسادة ــ الأمر الذي لم يخطر على بال أحد ــ وتحـاول نزع

ثيابه ! كانت تعمل دون ان تفقد جأشها او تضيع الوقت بالالتفـات والتحسر حتى ليقال انها نسيت نفسها في تلك اللحظة كان كل همهـا محصورا في زوجها التعس فكانت تعمل وقد عضت على شفتها السفلى لتمنع الصرخات التي تحاول الافلات من فمها . اما راسكولنيكـوف فقد استطاع انتداب احدهم للاتيان بطبيب ! ويشاء الحظ ان يكـون في البنـاء ذاتـه طبيب عجـوز يقطـن في الطبقـة السفـلى ... فراح بانتظار وصوله يقوم بالاستعدادات المبدئيـة ثم قـال يطمئن كاترين ايفانوفنا :

ـ لقد أرسلت استدعي طبيبا ... سـأدفع أجوره ! هل لـديك بعض الماء ؟ .. حسنا .. اعطني كذلك فوطة .. منديـلا ، اي شيء ، اسرعي... لست ادري بعد اذا كانت جراحة خطيرة ... لكنه لـم يمت ... تأكدي من ذلك ... سنرى ما سيقوله الطبيب !

هرعت كاترين ايفانوفنا الى النافذة وكان هنـاك على كرسـي تحطمت قاعدته وعاء من الفخار مملوء بالماء استعدادا للمهمة التي كانت ستقوم بها في تلك الليلة : غسيل الثياب ! كانت المهمة واجبـة الاداء ليلا تقوم بها كاترين ايفانوفنا بالذات أكثر من مرتين كـل أسبوع لأن الثياب التي تلبسها هي وابناؤها حتى وزوجها هي كل مـا يمتلكـون فكان من الضروي اذا غسلها كل ما اتسخت ... واختيار الليل لتلك المهمة حتى تجف صباحا ويرتديها اصحابها ! ولما كانت كاترين ايفانوفنا شديدة الميل للنظافة فأنها كانت تقوم بذلك العمل المرهق ليـلا بعد نهار طويل من السعي والعمل الشاق . وكانت تلك الاعمال ترهق قواهـا وتدنيها بخطى سريعة من نهايتها المرتقبة فكانت تحتملها في سبيل الابقاء على نظافة افراد الاسرة !

عزمت على حمل الاناء الكبير استجابة لرغبة راسكولنيكوف فكادت ان تنوء بثقله ، غمس راسكولنيكوف في الماء قطعة قماش وجدها وراح يغسل وجه التمس ليزيل عنه آثار الدماء ... كانت المهمة شاقة عسيرة والدماء لا تنقطع وكانت كاترين ايفانوفنا تقف على مقربة منه تتنفس بصعوبة وتضغط صدرها بيديها ... كانت اشد حاجة الى الاسعاف والعلاج بدورها ! وفجأة هتفت :

ـ بوليا ... اركضي الى حيث نقيم سونيا ... فاذا لم تجديها فاتركي لها خبرا كي تحضر سريعا حال وصولها ! قولي « لها » ان اباها قد دهسته عربة وان عليها ان تحضر الى هنا فوزا ... اسرعي ... خذي هذا المنديل واستري به جسدك على قدر المستطاع !

وصاح أخوها الصغير ببراءة بلغته المتعثره :

ـ « لوحي مثل التيل » (روحي مثل الطير الطائر !)

كان ذلك الغلام لا يزال جالسا على كرسيه وقد عبر عن عواطفه بتلك العبارة الساذجة ثم عاد الى سكوته وجموده وراح ينظر محدقا في اصابع قدميه الممتدتين !

وخلال هذا الوقت ، اكتظت الغرفة بالناس حتى ان تفاحة اذا القيت فوقهم ما كانت لتجد سبيلها الى الارض . اما رجال الشرطة فقد انسحبوا باستثناء واحد منهم فقد ظل هناك ليمنع تدفق المتجمهرين الى الغرفة . غير ان هذا التدبير لم يمنع اشتداد الزحام حتى ليقال ان كل المقيمين في ذلك البناء قد حضروا في تلك اللحظة مستطلعين . وقفوا بادىء ذي بدء امام المدخل في المشى غير انهم لم يلبثوا حتى داهموا الحجرة الحقيرة ... فصرخت كاترين ايفانوفنا غاضبة :

ـ دعوه على الاقل يموت بسلام ! انتم تعتبرون المسألة مشهدا ينبغي التملي منه وقد احتفظ بعضكم بلفافاتهم في « مناقيرهم »

(.... نوبة سعال ...) لم يبقَ عليكم الا ان تدخلوا الى هنـــا دون تنزعوا قبعاتكم ... هه .... هذا واحد قبعته علـى رأسه ! هيـــا اخرجوا ... لتحترموا الموت على الاقل .

عادت نوبة السعال تخنق صوت المسكينة بينما لبث «المتفرجون» حيث هم لم يؤثر فيهم « استقبال » السيدة لهم . صحيح انهم كـانوا يرهبون بعض الشيء كاترين ايفانوفنا فانهم بسبب تلك الرهبة تراجعوا قليلا عن مدخل الغرفة لكنهم كانوا يشعرون جميعا بذلك الاحساس الغريب: احساس بالسرور للنكبة التي تصيب بعض الناس، ذلك السرور العجيب الذي يغمر قلوب أقرب الناس الى المنكوب والذي لا تخلو منه نفس بشرية مهما بلغ اخلاصها وشعور الاسف والاسى الذي يعتلج فيهـا ! وعلت اصوات من الجانب الاخر للباب تتحدث عن المستشفى وانه ليس من اللائق اقلاق السكان وتعكير صفو بناء كامل لغير مـا سبب ! وبلغت تلك العبارات مسامع كاترين ايفانوفنا فهتفت محتدمة :

ـ ماذا ؟ أليس من اللائق ان يموت المرء !

وهرعت الى الباب لتصب جام غضبها على المتجمهرين حينمـــا اصطدمت فجأة بالسيدة « ليبيويشسل » صاحبة البناء التي بلغها النبأ فجاءت تعيد النظام الى نصابه . كانت تلك المرأة المانية مشاكسة محبة للعراك . هتفت بلغتها المحطمة وهي تضرب كفا بكف :

ـ آه يا الهي ! ان « زوجك » كان ثملا فـدهس تحت حـوافر الخيل ! فالى المستشفى ينبغي أن يذهب ! أنا صاحبة البناء !

صاحت كاترين ايفانوفنا بلهجة الاحتقار تقول :

ـ آميلي لودفيكوفنا ... ارجو ان تفكري قبل الكلام !

كانت لهجة كاترين ايفانوفنا مشوبة دائما بالاحتقار عندما تتحدث

الى صاحبة البناء وقد نجحت باستعمالها تلك اللهجة على جعلها تقف غالبا عند حدودها فلا تحاول فرض سلطتها الخرقـاء عليهـا . وكانت صاحبة البناء تكره ان يناديها انسان باسم اميلي لودفيكوفنا بينمـا كانت تلك التسمية تبهج كاترين ايفانوفنا التي لم يكن في يدهـا اي سلاح ينال من تلك المتغطرسة الا ذلك الاسم ! قالت صاحبة البناء :

ـ قلت لك ان اسمي ليس آميـلي لودفيكوفنـا وانمـا اميلي ايفـانوفنا !

ـ انت لست اميلي ايفانوفنا بل اميلي لودفيكوفنا . وبما انني لست من المتقربين اليك مثل السيد ليبيزياتنيكوف الذي اسمعـه يضحك الآن وراء الباب (والحقيقة ان هناك ضحكة علت في تلك اللحظة وراء الباب اثر هذا الحوار ضحكة من يتوقع أن تعـود الأمرأتان الى « تجاذب الشعر » !) اقول لما كنت لست من المتقربين منك فسأستمر على تسميتك بهذا الاسم رغم انني لا اعرف سبب مقتك لـه ... انك ترين بنفسك ما اصاب « سيميون زاخاروفيتش » انه على وشك الموت فأرجوك ان تغلقي الباب وتمنعي هؤلاء المتطفلين من الدخول.. اعملي على ان يموت بسلام ! والا فانني اقسم لك بانني سأشكوك غدا تماما الى الحاكم العام . ان الامير يعرفني منذ طفولتي وهـو يذكر سيميون زاخاروفيتش وكان يغمره دائما بعنايته ! كل النـاس يعرفون ان زوجي كان ينعم بعدد كبير من الاصدقاء الذين يستطيعون حمايته لكنه هو نفسه بكبريائه وصونا لكرامته لما بلغت به الحـال ان اصبح عبدا لتلك العادة المشؤومة ! خذي مثلا هذا السيد ـ واشارت الى راسكولنيكوف ـ انه تطوع لمساعدتنا من تلقاء نفسه وهو غني وكثير المعارف وكان سيميون زاخاروفيتش يعرفه منذ طفولتـه ... هل اقتنعت الآن يا آميلي لودفيكوفنا !

كانت كاترين ايفانوفنا تلقي هذا « الخطاب » بطلاقة متزايدة ، غير ان السعال فوّت عليها غرضها في الاستمرار ... وفي تلك اللحظة عاد المحتضر الى صوابه واطلق غمغمة فهرعت اليه فاذا به قد فتح عينيه اللتين لم يكن للحياة ظل فيهما ورفعهما الى راسكولنيكوف الذي كان واقفا بجانبه . كان يتنفس بصعوبة شديدة تنفسا متقطعا صادرا من اعماق صدره ولما لم يتعرف على راسكولنيكوف بان في نظرته القلق بينما كانت كاترين ايفانوفنا تنظر اليه بحزن عميق لا يخلو من صرامة والدموع تنهمر من عينيها ! صاحت يائسة :

ــ رباه ! ان صدره مهشم ... يا للدم الغزير ... ان الدم يتدفق منه ! ينبغي ان نخلع عنه ثيابه الداخلية ! قليلا يا سيميون زاخاروفيتش اذا كنت تستطيع !

عرفها مارميلادوف وغمغم بصوت خافت ضعيف :

ــ قسيس !

انسحبت كاترين ايفانوفنا الى النافذة وضغطت جبهتها على اطارها الخشبي وهتفت في يأس مرير :

ــ ايتها الحياة المضاعفة اللعنة !

وعاد المحتضر يدمدم بعد لحظة سكون :

ــ قسيس !

فصاحت به كاترين ايفانوفنا :

ــ هلا تنتهي من هذا الكلام ! ..

فأطاع وصمت وفي عينيه نظرة قلقة خجلى راح يصعدها بها فعادت الى جانبه وامسكت بيده فهدأ قليلا غير ان عينيه صادفتا ابنته المفضلة « ليدي » التي كانت ترتجف مقرورة في احد الاركان وكأنها فريسة للحمى تنظر اليه بعيني الطفل الساذج. وقد ادهشته

المفاجأة ! غمغم يريد النطق ولكن لم يصدر عن شفتيه الا صوت أجش:
ـ آ ... آ ...
كان يحاول الكلام ولكنه لا يستطيع فهتف بلوعة :
ـ ماذا بعـيـد ؟
وعاد نظره الساهم يتعلق بابنته وغمغم باذلا جهدا جبارا :
ـ عارية الاقدام ... عارية الاقدام !...
فاجابت كاترين ايفانوفنا بلهجة غاضبة :
ـ اصمت ! انت أدرى من غيرك بسبب بقائها عارية القدمين !
وهتف راسكولنيكوف متنفسا الصعداء :
ـ حمدا لله ! لقد جاء الطبيب !

دخل الطبيب وكان عجوزا المانيا دقيق الجسم بادي الوساوس ، ينظر حوله بحذر وحرص . اقترب من المريض وجس نبضه ثم عاين رأسه بعناية ورفع القميص الملوث بالدم بمساعدة كاترين ايفانوفنا عن صدره . كان صدره محطما ببشاعة وقد سحق سحقا ومزق تمزيقا وكان عدد من أضلاعه قد تحطم وبدت لطخة كبيرة زرقاء مائلة للصفرة مترجرجة هي علامة خلفتها حوافر الجياد ! قطب الطبيب جبينه بينما كان رجل البوليس يقص عليه كيف وقع الحادث وكيف انتشلوه بعد ان التف ثوبه على محور الدولاب فجره معه مسافة ثلاثين خطوة ولم يلبث ان قال بصوت منخفض موجها حديثه الى راسكولنيكوف :

ـ ان ما يدهشني هو استعادته الرشد بعد كل هذا !
ـ ما رأيك يا سيدي ؟
ـ سوف يموت توا !
ـ اليس من امل نقاذه ؟
ـ اي امل ! انه يجود بآخر انفاسه ! ثم ان جراح رأسه خطيرة

كذلك هم ! نستطيع مثلا ان نقوم بعملية فصد مثـلا لكنني واثق من عدم جدواها . سوف يموت حتما خلال دقائق قليلة !

ـ لنجرب مع ذلك عملية الفصد !

ـ ليكن ! لكنني اعلمك سلفا بعدم جدواها !

وارتفع صوت خطوات في تلك اللحظة بينما راح المجتمعـون يفسحون المجال لدخول القادم ، وظهر على الباب قسيس عجوز ابيض الشعر يحمل قطعة « المناولة (١) » رمز جسد المسيح . كان احد رجال البوليس قد اصطحبه من الشارع فترك له الطبيب مكانه بعد ان تبادل معه نظرة فارغة . وراح راسكولنيكوف يرجو الطبيب بالبقاء فتـرة أخرى فهز هذا كتفيه وانتظر .

انسحب « النظارة » كلهم ولم يستغرق الاعتراف وقتا طويلا بل انه كان من المشكوك فيه ان المحتضر قد فهم شيئا مذكورا اذ لم يكن يستطيع النطق الا بصوت متقطع غير مفهوم . اما كاترين ايفانوفنـا فقد حملت ابنتها « ليدي » وابنها الطفل وجثت معهمـا في احـد الاركان . كانت الطفلة لا تزال ترتعد والطفل عاري الجسد جاثيـا على ركبتيه على الارض العاريه يرفع يده اليمنى مقلدا امه وراسمـا اشارة الصليب . وكانوا جميعا يسجدون فتصطدم جبـاههم بالارض وكان الطفل يجد بهذه الحركة ما يسره ! وكانت كاترين ايفـانوفنا تذرف دمعا سخيا مسترسلة في صلاة حارة راحت تستر عري طفلهـا وطفلتها بشال وجدته في دولاب قريب دون ان تنقطع عن الصـلاة . وخلال تلك اللحظة عاد الفضوليون يفتحون الباب المؤدي الى الغرفتين الاخريين اللتين تسكنهما جماعة من الفقراء! وبلغ من تزايد عددهم ان امتلأ

---

(١) Saints Espèces ظاهرة الخمرة والخبـز اللذين تحـولا الى ((جسد السيد المسيح)) بحسب التعاليم الكاثوليكية . المترجم

بهم المشى وقد بدا ان سكان البناء كله قد اجتمعوا هناك • وكان يضيء المكان نور ضعيف خافت •

عادت بوليا ـ وقد كانت تستدعي اختها الكبرى ـ عادت بعد ان شقت لنفسها الطريق بصعوبة وسط الزحام • كانت شديدة التعب نظرا للسرعة التي انجزت بها مهمتها فازالت الشال الذي كانت تستر به جسمها وبحثت بعينيها عن امها حتى وجدتها فاتجهت نحوها وقالت :

ـ سوف تحضر فورا ••• لقد صادفتها في الشارع !

فدعتها الأم الى الركوع والصلاة • وبعد برهة راحت فتاة شابة تسلل بخجل بين المتجمهرين فكان لظهورها في تلك الغرفة المفعمة بمظاهر البؤس دهشة بالغة • صحيح انها لم تكن شديدة الاناقة كما يقتضي بذلك الوسط الذي تعيش فيه : وسط الرذيلة ، لكنها كانت اذا ـ قورنت ـ بتلك الاطمار والاسمال المهلهلة التي تبدو في كل مكان ••

توقفت سونيا عند المدخل قليلا دون ان تجرأ على تخطيه • كانت تنظر بعينين ساهمتين لا تبدو فيهما مخايل الادراك • نسيت ثوبها الحريري ذي اللون الصارخ الذي اشترته مستعملا والذي كان طوله يسترسل وراءها منتفخا حتى ليملأ مدخل الباب ، واحذيتها البيضاء ومظلتها التي لا نفع لوجودها في ذلك الليل وتلك القبعة المضحكة الكبيرة المصنوعة من القش المزينة بريشة بلون اللب التي كانت تظلل وجها نحيلا شاحبا مروعا وفما مفتوحا وعينين اتسعتا من الرعب !

كانت سونيا في الثامنة عشرة من عمرها قصيرة القامة هزيلة الجسم تمتاز بجمال الشقراوات ذوات العيون الزرق التي كانت منهن وكانت تنظر محدقة في الفراش الذي اسجي ابوها عليه وفي القسيس الواقف بالقرب منه • كانت هي الاخرى منهوكة لكثرة ما جرت •••

لم تلبث أن علت همهمة بين المحتشدين وبلغ اذن سونيا بعضا مما يقولون فاطرقت برأسها واجتازت المدخل متجمعة شجاعتها ودخلت الغرفة دون ان تقترب من المحتضر . وانتهى الاعتراف و « التناول » فعادت كاترين ايفانوفنا الى قرب زوجها . فاراد القسيس قبل أن يخرج أن يلقي بكلمات من الزاد الديني على سبيل تعزية كاترين ايفانوفنا . غير ان هذه قاطعته باحتداد وهي تشير الى أطفالها الصغار وقالت بجفاء :

ـ وهؤلاء ؟ ماذا سأعمل بهم ؟

فقال القس :

ـ ان الله رحيم ... فتأملي بعون العلي الاعلى ...

ـ اه اه ... انه رحيم ولكن ليس بالنسبة الينا !

ـ سيدتي ! هذه خطيئة قاتلة !

فصرخت كاترين ايفانوفنا وهي تشير الى المحتضر :

ـ وهذا ... أليس خطيئة ؟

ـ لعل اولئك الذين تسببوا بهذا البلاء غير عامدين يعوضون لك شيئا عن فقدانك معيلك !

فصاحت كاترين ايفانوفنا بصوت خشن وهي تلوح بيدها :

ـ انك لم تفهم قصدي ! لم يعطونني تعويضا ؟ انه هو الذي القى بنفسه الى العجلات ... هو السكير ! نعم ... معيلي ! انه لم يسبب لي الا الآلام والعناء ... لقد كان يحول كل شيء الى شراب ... كان يعرينا ليشرب ! كان ينفق في الحانة المال اللازم لاعالته اطفالنا واعالتنا ! وها هو يموت ! فحمدا لله لقد تخلصنا !

ـ من الواجب يا سيدتي ان تغفري في مثل هذه اللحظة امام الموت ! ان مثل هذه المشاعر التي تبدينها تعتبر خطيئة ، خطيئة كبرى !

استمرت كاترين ايفانوفنا تعنى بالمريض فتسقيه وتمسح العرق المتصبب على جسده والدم المتدفق من جراحه الذي كان يغسل وجهه او تسوى الوسائد تحت رأسه ثم تتحدث مع القس خلال هذه الاعمال فلما سمعت عبارته الاخيرة قفزت من مكانها واتجهت نحـــوه وفي عينيها بريق الغضب وقــالت :

ـ آه يا ابي ! انها ليست الا كلمات ! الغفران ! لو لـم تدهسه العربة اليوم لعاد الى البيت مخمورا . ولما كان لا يملـك الا القميص المتسخ القذر الذي يلبسه فان علي ان اغسل طوال الليل لتجف الملابس صباحا بينما هو « يشخر » ناعما بالنوم ! كان علي ان اغسل قميصه مع قمصان الاطفال والبستهم وكنت سأجفف تلك الملابس امام النافذة لانهض عند الفجر واعمل على رتق هذا واصلاح ذاك . كذلك امضي الليالي ... فماذا ينفع الكلام عن الغفران ؟ مع ذلك لقد غفرت !!

وقطع حديثها سعال فظيع ولما هدأت ازمة السعـــال بصقت في منديلها ودفعته أمام عيني القس بينما ظلت يدهــا اليسرى قابضة عــلى صدرها تضغط عليه بشدة . كان المنديل ملوثا بالدماء !! امــا الراهب فقد احنى رأسه وسكت !

كان مارميلادوف خلال احتضاره يرفع بصره عن وجه كاتريـــن ايفانوفنا التي عادت من جديد تنحني عليه مواسية مخففة . كان يبدو انه يريد التحدث بشيء فكان يبذل جهدا كبيرا ويحرك لسانه فيصدر عن شفتيه كلام غير مفهوم . فهمت كاترين ايفانوفنا انه كــان يطلب اليها الصفح فهتفت بصوت لا يقبل الجدل .

ـ اصمت ... لا فائدة ! لقد ادركت ماذا تريد ان تقول .

فصمت المريض المحتضر ولكنه في تلك اللحظة وقع بصره عـلى الباب حيث كانت تقف سونيا ! كان حتى تلك اللحظة لم يلتفت الى ذلك

الركن لذلك فلم يكن قد رآها .

وكانت الفتاة لا تزال واقفة حيث هي . فغمغم بصوت مختنق وهو يشير بعينيه الى حيث وقفت سونيا وقد بان الذعر في نظراته وهو يحاول النهوض !

ـ من هذه ؟ من هذه ؟...

فصاحت كاترين ايفانوفنا :

ـ ابقَ مستلقيا ... استلقِ مكانك !

لكنه بذلجهدا خارقا وتوصل الى الاعتماد على ذراعهوالتناهض قليلا وظل لحظات يحدق في وجه ابنته بنظرة غريبة ثابتة كما لو كان لا يعرفها خصوصا وانه لم يكن قد شاهدها من قبل في مثل تلك الملابس . وفجأة بدا على وجهه انه فهم وعرف ، أما هي فقد اعتراها الخجل والوهن وهي في ملابسها اللامعة البهيجة اللون . كان تنتظر باشفاق بالغ وحنان ان يحل دورها لوداع أبيها المحتضر . وانبعثت من صدر مارميلادوف أنة عميقة وعلا وجهه ألم شديد وهتف بأعجوبة :

ـ سونيا ... ابنتي ... اغفري لي !

واراد ان يمد لها يده لكنه تخاذل وهوى على « الديوان » واحدثت تلك الحركة الفجائية هزة كان من تأثيرها ان تدحرج المسكين على الارض منكفئا على وجهه . وهرع المجتمعون فاحتملوه وأعادوه الى الفراش ، لكنه كان قد مات !

اطلقت سونيا صرخة ضعيفة وارتمت على ابيها وراحت تضمه الى صدرها بحنان فكانت آخر لحظاته بين ذراعيها . بينما راحت كاترين ايفانوفنا تقول :

ـ لقد انتهى هو ! ولكن ما العمل الان ؟ كيف سأواريه التراب ؟ واطفالي كيف سأطعمهم غدا ؟

فاقترب راسكولنيكوف وقال :

ـ ايا كاترين ايفانوفنا ، لقد قص عليَّ المرحـوم في الاسبـوع المنصرم تفصيلات عن حياته . ثقي انه كان يتحدث عنك باحترام بالغ. وقد علمت منذ ذلك المساء كم كان متفانيا في حبكم وكم كان يحبك انت يا كاترين ايفانوفنا رغم عادته التعيسة ولقد امسينا اصدقاء منذ تلك الليلة . فاسمحي لي الان أن أساهم ... أن أقدم واجباتي الاخيرة نحو صديق راحل . هذه عشرون روبلا واعتقد اذا كان الامر لن يزعجك ... انني .. سأمر .. سأمر غدا حتما فالوداع !

وخرج من الحجرة بخطى مسرعة وهو يشق لنفسه طريقا حتى وصل الى السلم . وهنا اصطدم بـ نيكوديم فوميتش الذي بلغه الحادث فاراد ان يقوم بالتحقيق بنفسه . وكان راسكولنيكوف منذ حادثة البوليس لم يلتقِ به غير ان نيكوديم فوميتش عرفه للوهلة الاولى ! فهتف :

ـ ماذا ؟ اهذا انت ؟

فاجاب راسكولنيكوف :

ـ لقد مات وقد جاء الطبيب والقس وانتهى الامر ! لا تعذب المرأة المسكينة فهي مصدورة . طيب خاطرها اذا امكن ... وانت ـ بعد كل هذا ـ رجل طيب .

نطق بتلك الجملة الاخيرة بلهجة ساخرة وهو ينظر في عيني رئيس البوليس ! فقال هذا ملاحظا !

ـ لكن كم انت ملطخ بالدماء ؟

فاجاب هذا بلهجة غريبة :

ـ نعم لقد اتسخت ! انني مغطى بالدماء !

ثم تابع طريقه وراح يهبط السلم بحركات محمومة غير مبال

بحاله وقد امتلأت نفسه باحساس استمد منه قوة غامضة ... ان ذلك الاحساس يمكن ان يكون مشابها لذلك الذي يعتمر عادة في نفس المحكوم عليه بالاعدام الذي يبلغه فجأة نبأ العفو عنه ! وقد التقى عند منتصف السلم بالقس الذي كان عائدا الى واجباته . فتنحى راسكولنيكوف ليفسح له مجال تخطيه وتبادل معه تحية صامتة . ولم يلبث أن سمع وراءه صوت خطوات متلاحقة سريعة ، فالتفت مسرعا ليجد الصغيرة بوليا تركض على آثاره تصيح :

ـ اصغ ! اصغ !

توقف منتظرا وصول الطفلة التي وقفت تلهث تفصلها عنه درجة واحدة من درجات السلم ، وكان ضوء خافت شاحب يتسلل من الباحة الى حيث وقفا . راح راسكولنيكوف يتأمل وجه الطفلة النحيل فكانت تبتسم له وهي تنظر في وجهه بمرح بريء ساذج . جاءت على ما يبدو لتنجز مهمة كانت ولا بد تحدث في نفسه اثرا بليغا .

قالت الفتاة اللاهثة بصوت مختنق :

ـ اسمع يا سيد ! ما اسمك واين تقطن ؟

فوضع راسكولنيكوف ذراعيه على كتفي الطفلة وراح يتأملها معجبا بها دون ان يدرك السبب وقال :

ـ من ارسلك ؟

فاجابت الفتاة وهي تبتسم ابتسامة ملائكية :

ـ اختي الكبيرة سونيا .

ـ كنت اعرف انها هي التي ارسلتك !

ـ لقد ارسلتني امي ايضا . اذ عندما طلبت الي اختي ان اتبعك قالت امي وهي تقترب منا ! اسرعي يا بوليا !

ـ هل تحبين اختك سونيا كثيرا ؟

فقالت الطفلة بصوت يشوبه انفعال ملحوظ وقد اصبحت ابتساماتها ذات طابع جدي :

ـ احبها اكثر من كل شيء في الحياة !

ـ وانا هل ستحبينني ؟

فقربت الفتاة وجهها البريء من وجهه ومدت له شفتيها المكتنزتين بقبلة ساذجة ثم ضمته بذراعيها الناحلين بشدة بينما اسندت رأسها الى كتف راسكولنيكوف وراحت تبكي بهدوء وهي تضغط وجهها على كتفه ضغطا متزايدا ! وراحت تغمغم :

ـ يا لأبي المسكين !

ثم رفعت رأسها بعد برهة وراحت تمسح دموعها بظهر يدها واضافت :

ـ يا للبلاء الذي وقع اليوم !

كانت تتحدث بتلك اللهجة الخاصة التي يعمد اليها الاطفال لما يرغبون في تقليد « الكبار » فقال راسكولنيكوف :

ـ هل كان ابوك يحبك ؟

فأجابت بتلك اللهجة الجدية دون ان تبتسم تماما كما يتحدث الكبار :

ـ انه كان يحب اختي الصغرى « ليدي » اكثر منا جميعا • كان يحبها لانها صغيرة ولانها مريضة فكان يأتيها بالهدايا ، أما نحن فكان يعلمنا القراءة وكان يعلمني « القواعد » و « الديانة » وكانت ماما لا تقول شيئا لكننا كنا نعرف انها مسرورة لذلك وبابا الصغير كان يعرف ذلك بالمثل • ان امي تريد ان تعلمني الفرنسية لان الوقت قد ازف بالنسبة الي لابدأ ثقافتي !

ـ وهل تعرفين الصلاة ؟

ـ طبعا ... كيف لا ؟ اعرف الصلاة منذ بعيد ، وبما أنني لست صغيرة فأنني أصلي لوحدي . أما لوكيا وليدي فهمـا يصليان بصوت عال مع امي ويستظهرون « احبيك يا ماري » وصلاة اخرى : « رباه بارك اختنا سونيا » وثالثة : « رباه اصفح عن ابينا الاخر وباركه»... لان ابانا الاول قد مات وكان هذا ابونا الثاني لذلك فنحن نصلي كذلك من اجل الاول !

ـ يا بوليا الصغيرة ، ان اسمي هو روديون فصلي احيانا مـن اجلي وقولي « من اجل روديون المسكين » وليس اكثر !

فعادت الطفلة تقول بحماس وهي تعانقه بشدة بذراعيها وتضحك بحبـور :

ـ سأصلي من اجلك طوال عمري !

أعطاها راسكولنيكوف اسمه وعنوانه ووعد بزيارتهم غـدا دون تأخير فعادت الطفلة متحمسة قريرة العين ، ولما بلغ الشارع كـانت الساعة قد تجاوزت العاشرة ثم لم تمض خمس دقائق حتى كان واقفـا على الجسر في المكان الذي القت به العجوز بنفسها الى الماء بالذات ! غمغم منتصرا :

ـ كفى ! كفى !... الى الوراء ايها السراب ، الى الوراء ايتهـا المخاوف الخرقاء ! الى الوراء ايتها الخيالات ! ان الحيـاة موجـودة ! ألست حيا في هذه اللحظة ؟ ان حياتي لم تمت بموت العجـوز ... لقد اصبحت ـ هي ـ في العالم الآخر ، يكفيك ايتهـا العجوز ! دعي الاخرين بسلام ! لقـد اكتسبت الان العقل والنـور ! الارادة ! القوة !... ولسوف نرى ! الا نحن الاثنين الآن ! ألم أقرر الابقاء على حياتي في فراغ مساحته قدمان ؟

سكت برهة ثم اردف بلهجة متعالية كما لو ان قوة خفيـة كانت

تتحـــداه :

ـ انني الان ضعيف جداً لكنني اعتقد بأن الارتباك قد انقضى! كنت اعرف انه سوف يذهب عني منذ ان خرجت هذه الليلـة مـــن حجرتي • وعلى فكرة : ان بيت بوتشينكوف على قيد خطوتين مـــن هنا واني ما كنت لاتردد عن الذهاب الى منزل رازوميخين لما ان كان يقطن بعيدا من هنا ••• فليربح رهانه ! ليضحك قليلا وليهزأ مني ! ان القوة ضرورية وبدونها لا يصل المرء الى اي شيء ! ولا يمكن اكتساب القوة الا بالقوة ! ذلك ما يجهله الناس !

كان يحدث نفسه بكبرياء وثقة ! ولم يلبث ان اجتـــاز الجسر بخطى حثيثة • كانت الكبرياء والثقة تنميان في نفسه باطراد دقيقـــة فدقيقة حتى ان كل دقيقة كانت كفيلة بأن تجعل منه انسانـــا آخر ! كان يجهل السبب الذي أدخل هذا التبديل الكلي عـــلى نفسه ؟ كان يـــرى انه يستطيع ان يعيش وان الحياة لا زالت ممكنة بالنسبة اليـــه ـ شأن الغريق الذي يتعلق بالقشة مؤملا بالنجاة ـ كان يرى ان حياته لم تمت بموت العجوز ! فهل كان يتوق الى اتخاذ مثل هذا القرار ؟ يجـــوز ولكنه لم يفكر في ذلك !

تابع يقول بعد قليـــل :

ـ ومع ذلك لقد طلبت الى الطفلة ان تصلي من اجلي ! هه ! انها الصدفة وحدها ! ولما تذكر تلك الطفلة ابتسم رغم ارادته وشعر بصفاء ذهن عميـــق !

عثر على منزل رازوميخين بسهولة في بناء « بوتشنكـــوف » اذ كان السكان هناك يعرفون جميعهم المستأجر الجديد وتطوع البواب بأرشاده الى المسكن وكانت الضجة تنبعث فتبلغ منتصف السلم مما يدل على ان النقاش كان حامي الوطيس بين عدد كبير من الاشخاص •

وكان المفضي الى « بسطة » السلم مفتوحا علـى مصراعيه فكـانت الاصوات تسمع بوضوح كلما زاد المرء دنوا .

كانت غرفة رازوميخين واسعة كبيرة اجتمع فيها عـدد مـن الاشخاص يناهز الخمسة عشر. فلما بلغ راسكولنيكوف المدخل توقف قليلا وراح يراقب خادمنين منصرفتين الى « سماورين » كبيرين وعدد من الزجاجات والاطباق المملوءة بالحلوى والمقبلات ! كانت تلـك الاواني كلها مقدمة من قبل صاحبـة البناء امعانا منهـا في اكـرام النزيل الجديد ...

استقدم راسكولنيكوف رازوميخين فأقبل هذا مسرعا . كـان يبدو عليه انه اسرف في الشراب وانه ـ على الرغم من شهرته في مقاومة تأثيرات الشراب ـ كـان في تلك اللحظة واقعا تحت تأثيره ! قـال له راسكولنيكوف موجزا :

ـ اسمع ! لقد جئت لاقول لك انك ربحت الرهـان وان المرء لا يعرف في الحقيقة ما سيقع له . اما الدخول فلن استطيعـه لانني ضعيف جدا واكاد ان اسقط على الارض لذلك اقول لك مرحبـا والى اللقاء بآن واحد زرني غدا .

ـ سوف اقودك بنفسي بعد اعترافك بانك ضعيف خائر القوى !

ـ وضيوفك ؟ من هو هذا الرجل ذو الشعر الاجعد الـذي ينظر نحونـا ؟

ـ من ؟ ذاك ؟ علمه عند الشيطان ! لعله صديق لعمي او لعله دعى نفسه بنفسه . هيا سأترك عمي مع الضيوف ... انه رجل ثميـن جـدا ... ويؤسفني الا تستطيـع التعرف اليه اليوم . ثـم ليأخذهم الشيطان جميعا لقد لبثت حتي الآن أعنى بهم ويلزمني الان بعض الهواء!

لقد جئت في خينك لانني كنت سأتعارك معهم بعد دقيقتين ! انهم لا ينطقون الا بالحماقات لن تستطيع ان تتصور مدى قدرة كل منهم على حشو رؤوس سامعيه بالأكاذيب ! بل أعتقد انك تستطيع ان تتصور ذلك لاننا جميعا نكذب احيانا • وبما اننا نكذب نحن فليكذبوا هم أيضا ! خصوصا وأننا نكذب « بعدئذ » !••• اجلس قليلا سأستدعي لك زوسيموف !

هرع زوسيموف الى راسكولنيكوف بنوع من اللهفة تفضح ما في نفسه من الفضول الخاص غير ان وجهه ما لبث ان عاد طبيعيا مشرقا • وبعد ان فحصه قال له :

ـ ينبغي ان تنام فورا ••• ومن الانسب ان تأخذ شيئا هذا المساء ، شيئا هيأته منذ قليل ••• « برشامة » •

فقال راسكولنيكوف :

ـ اعطني اثنتين اذا كانتا لازمتين !

وشرب المريض العلاج على الفور بينما قال زوسيموف لرازوميخين :

ـ من الخير ان تصحبه الى حجرته • وسنري ماذا يكون غدا اما اليوم فالامر مشجع لا بأس به • لقد حدث تغيير كلي ! كلما عاش الانسان كلما ازداد علما ! •••

قال رازوميخين لصديقه وهما يخرجان :

أتدري ماذا قال زوسيموف عندما استدعيته منذ حين ؟ لسوف اقوله لك بحذافيره لانهم كلهم سخفاء ! كان زوسيموف يوصيني بالتحدث اليك خلال الطريق لاطلق لسانك واحمل له كل ما تنطق به من عبارات لانه يعتقد ••• انه يعتقد انك مجنون او علي الاقل انك

على وشك الجنون ! فهل تتصور هذا ؟ اولا انني اعتقد انك اكثر ذكاء منه بثلاث مرات على الاقل ! وثانيا اذا لم تكن مجنونا فليس عليك الا ان تستهزىء بالنزوات التي تعصف في رأسه . ثالثا : ان هذه « الكتلة من اللحم » مختص بالتشريح والجراحة وهو مأفون بالامراض العقلية حتى ان الحديث الذي دار بينك وبين زاميوتوف قد قلبه رأسا على عقب !

ــ هل قص عليك زاميوتوف الحديث كله ؟

ــ كله ! وقد احسن صنعا فقد فهمت كل الاسباب والدوافع في القضية وكذلك فهم زاميوتوف .. والخلاصة يا روديا ... الواقع هو انني في هذه اللحظة ثمل بعض الشيء لكن لا بأس ! الواقع هو ان الفكرة ... انت تفهم ! ان تلك الفكرة كانت مغروسة في نفوسهم ... اتفهم ؟ اي ان احدا ما كان ليجرأ على التصريح بها علانية لان الحماقه فيها شديدة جدا وخصوصا منذ ان اوقفوا ذلك الدهان ... فقد تبخر ذلك كفقاعة الصابون وتبدد نهائيا . لكن لم هم على مثل هذه الحماقة جميعهم ؟ لقد اغلظت القول قليلا لزاميوتوف ــ وهذا بيننا ايها الصديق أرجو أن لا تتظاهر بمعرفته ــ ! فقد لاحظت ان زاسيموف سريع التأثر والانفعال وقد دار بيننا الحديث الذي نوهت به لك عند لويز ! والان فقد وضح كل شيء ... ان السبب الرئيسي في هذه الظنون كان ايليا بيتروفيتش ! فقد التقط الكرة « على الطاير » كما يقولون اثر اغمائك في دائرة البوليس ثم عاد وخجل من نفسه بعد ذلك لتفكيره في ذلك الافتراض ، هذا ما علمته !

كان راسكولنيكوف يصغي بشوق لان رازوميخين كان متأثرا بالشراب فراح يفضح ما في نفسه ، فقال مؤيدا اتجاه صديقه :

ـ لقد اغمي علي ذلك اليوم لانني كدت ان اختنق بتأثير الحرارة ورائحة الدهـان !

ـ انهم يجدون حتى الآن صعوبة في تفسير تلك البادرة ! والحقيقة انها لم تكن رائحة الدهان وحدها هي السبب ! كانت الحرارة مرتفعة لديك منذ أكثر من شهر كما أكد زوسيموف • آه لو علمت كم أصبح هذا الخبيث زاميتوف متصاغرا الان •• تصور انه قال لي في معرض الحديث عنك • « انني لا ابلغ نقطة في بحره ! » انه لا يقدم شعـورا طيبا تختلج به نفسه لكن الدرس ، نعم الذي القيتـه عليه اليـوم في « قصر الكريستال » كان غاية في الكمال ! لقد اخفتـه بادىء ذي بدء ، أترى هذا ؟ لقد جعلته يرتعش ويرتعد في البداية ! فكر انـك جعلته من جديد يؤمن بنظريته الاولى تلك النظرية الخـرقاء البشعـه ثم فاجأته دون مقـدمات « بضربة من قدمك في انفه » وأنت تقـول « خذ هذه ايها العجوز ! » انها كانت ضربة معلم ! سحقته وافنتـه ! لقد وجد اخيرا من يستطيع ان يساجله ويتحداه ! كم آسف لانني لم اكن هناك ! كان ينتظرك عندي بقلق وتلهف ! وبورفـير نفسه بشوق زائد للتعرف اليك !

ـ آه ••• هذا أيضا ؟•• لكن لم يعتبروني مجنونا ؟

ـ ليس كالمجنون تماما ••• أعتقد يا صديقي بانني تحدثت أكثر مما ينبغي ان ما اذهله منذ حين هو ان ذلك الامر وحده يهمك ! والان فقد عرف سبب اهتمامك بعد ان اوضحت كل الملابسات • آه كـم كان ذلك يقلقك وبما ان القضية كانت مرتبطة بعد ذلك بمرضك ••• انا ثمل قليلا يا عزيزي ••• لكن أترى ••• يا للشيطان •• ان له رأيه! وانا اكرر عليك بأن الامراض العقلية تشغل اهتمامه الكلي وليس عليك انت الا ان تهزأ بكل هذا!•••

ـ اسمع يا رازوميخين ! سأحدثك بصراحة ! لقد جئت توا من دار ميت انه موظف مات وقد اعطيت اسرته كل ما املك وعلاوة على ذلك فقد تانقتني مخلوقة ... والخلاصة ان هنالك مخلوقا آخر ... فتاة تضع ريشة بلون اللهب ... لكنني اهذي ... انا شديد الضعف .. دعني استند اليك ! أليس هذا هو السلم ؟ !

فسأل رازوميخين منزعجا :

ـ ما بك ؟ ماذا بك ؟

ـ ان رأسي تدور قليلا ... لكن هذا ليس كل ما في الامر ! المسألة هي انني حزين « حزين جدا كامرأة ... حقيقة ... انظر ما هذا ... انظر ! انظر » !

ـ مـــاذا ؟

ـ ألا ترى ؟ هناك ضوء في غرفتي يظهر خلال الخصاص !

كانا قد بلغا في تلك اللحظة الى « البسطة » التي تسبق المشى الذي يقود الى غرفة راسكولنيكوف قرب باب شقة صاحبة البناء وكان يمكن لهما ان يشاهدا من مكانهما النور الذي كان يشع من غرفته . فغمغم رازوميخين :

ـ غريب ! لعلها ناستاسيا !

ـ انها لا تحضر الى غرفتي في مثل هذه الساعة ! وفوق ذلك انها لا شك نائمة منذ زمن ! لكن ... سيان عندي ... الوداع !

ـ ماذا تقول ؟ سارافقك ، سندخل كلانا !

ـ انا اعرف اننا سندخل معا ولكنني اريد ان اصافحك هنا وان افترق عنك هنا .. هيا اعطني يدك .. الوداع !

ـ ما بك يا روديا ؟

ـ لا شيء .. هيا ستكون شاهدا بنفسك !

راحا يصعدان السلم ورازوميخين يتخيل ان زوسيموف على حق فيما ذهب اليه ! واعتقد انه « ازعجه بثرثرته » ولما بلغا باب الحجرة تناهى الى سمعهما صوت حديث آتٍ من داخلها فصاح رازوميخين :

ـ من هنا ؟

دفع راسكولنيكوف الباب اولا ففتحه على مصراعيه وتوقف على العتبة وقد سحرته المفاجأة .

كانت امه واخته جالستين في حجرته على « الديوان » المعهود ينتظرانه منذ ساعة ونصف . كانتا قد امضتا كل ذلك الوقت في الانتظار وطرح الاسئلة على نستاسيا التي راحت بدورها تسرد عليهما كل ما عرفته عن راسكولنيكوف ! كانتا يسألانها .

ـ لم لم يكن ينتظرنا ؟ هل كان يفكر فينا أقل من تفكره في أي شيء آخر رغم ما بلغه ذلك اليوم عن مجيئهما ؟

فتعود ناستاسيا لتقص عليهما طرفا من معلوماتها التي جمعتها بفضل الصدف فاذا فرغت بدت المرأتان وقد اذهلهما الخوف واستولى عليهما الهلع خصوصا بعد ان عرفتا نبأ فراره اليوم من غرفته دون ان يعرف احد عن وجهته شيئا . فكانتا تهتفان بين الحين والاخر :

ـ رباه ! ماذا وقع له ؟ !

بكتا طويلا حزنا والما وقد اصيبتا بجرح بليغ في عواطفهما فلما وقف على الباب في تلك اللحظة انبعثت من حناجر النسوة الثلاث صرخات رغم تفاوت الاسباب الموجبة !. واندفعت الام والاخت نحو « الامل » الوحيد لكنه لبث جامدا في مكانه وكأنه جثة لا روح فيها . لقد صعقته فكرة مفاجئة شديدة الوقع حتى ان ذراعه اصبحت عاجزة

عن الحركة . كانت امه واخته تعتصرانه الى صدريهما وتقبلانه بنهم وشغف ، تبكيان وتضحكان . معا ... فتقدم خطوة الى الامام ثم ترنح وسقط على الارض فاقدا الصواب !

تصاعدت الصيحات ونداءات النجدة والزمجرات ! واندفع رازوميخين ـ الذي كان واقفا على المدخل ـ فأخذ المريض بين ذراعيه القويتين ومدده على السرير . وفجأة فتح هذا عينيه بينما قال رازوميخين مطمئنا الام والاخت !

ـ لا تبتئسا ... لا تخشيا ... انه اغماء بسيط ... انها حماقة ! لقد صرح الطبيب منذ قليل ان حاله قد تحسن كثيرا وانه استعاد قواه تماما !... اعطوني قدح ماء ! هاه .. ها قد عاد الى وعيه .. نعم لقد استرد الرشد !

واخذ بيد دونيا بقسوة كادت تحطم معصمها وراح يدعوها الى الانحناء لترى بنفسها ان اخاها قد « عاد اليه صوابه » . وقد شعرت الام والاخت بفضل رازوميخين عليهما فنظرتا اليه نظرات كلها شكر وامتنان وكأنه رسول القدرة الالهية ! كانتا قد علمتا من قبل بواسطة ناستاسيا بمبلغ عناية هذا الفتى بروديا خلال مرضه ..

ـ « ذلك الرجل المبدع ! » كذلك راحت بولشيري الكسروفنا راسكولينكوف تطلق على رازوميخين خلال حديثها الودي مع ابنتها دونيا .

القسم الثالث

- ٧ -

استوى راسكولنيكوف جالسا على الديوان واشار بيده الى رازوميخين ليكف عن الاسترسال في تعزية امه واخته والتخفيف عنهما بذلك السيل من العبارات التي ما انفك يوجهها اليهما ومد الى كل منهما يدا اطبق بها على يديهما وراح خلال دقيقة كاملة ينظر اليهما بسكون ويتأملهما دوريا .

روعت الام من نظرة ابنها لانها قرأت فيها ذلك الاحساس المقبض الباعث على أشد الألم ، احساسا يرافقه شيء ثابت ، شيء أقرب الى الجنون ، فراحت تبكي بحرقة بينما كانت الاخت افدوتيا رومانوفنا شاحبة ترتعد يدها في يد أخيها .

قال راسكولنيكوف بصوت متقطع هامس وهو ينظر الى رازوميخين :

ـ عودا الى مسكنكما والى الغد ! غدا كل شيء ... هل وصلتما منذ زمن طويل ؟

فاجابت بولشيري الكسندروفنا :

ـ هذا المساء ... لقد حصل تأخير اعاق القطار ؛ لكن يا روديا، لن اتركك الان مهما كان السبب ... سأمضي الليلة هنا ... الى جانبك !

فلوح راسكولنيكوف بيده بغضب وقال :
ـ لا تعذبيني !
وهتف رازوميخين :

ـ سأبقى بالقرب منه ، لن اتركه دقيقة واحـــدة وليحمـــل الشيطان ضيوفي ! ليصخبوا وليشتموا ما راق لهم ان عمي هنـــاك برأس الحفـــل !

فقالت بولشيري الكسندروفنا وهي تضغط على يديه بامتنان :

ـ كيف استطيع ان اشكرك ؟

غير ان راسكولنيكوف قاطعها قائلا بشيء من الانفعال :

ـ لا اريـــد ... لا اريد .. لا تزعجوا انفسكـــم .. كفـــى ! اخرجوا !.. لن استطيع الاحتمال اكثر من ذلك .

غمغمت دونيا مروعة :

ـ هيا بنا يا امي الصغيرة ! لنخرج من الحجرة الآن على الاقل ! اننا نقضي عليه اذا بقينا ، ذلك واضح !

فقالت بولشيري الكسندروفنا باكية :

ـ لكن هل لن يتاح لي ان القي عليه نظرة اطول بعد فواق ثلاث سنـــوات ؟

عاد راسكولنيكوف يقول :

ـ انتظروا ... انكما تقاطعانني بينما الافكار تتزاحـــم في رأسي ... هل رأيتما لوجين ؟

فأجابت بولشيري الكسندروفنا بصوت لم يخل من مسحـــة من الخجـــل !

ـ كلا يا روديا . لكنه يعرف اننا وصلنا ... لقد علمنا يا روديـــا ان بيير بيتروفيتش قد تفضل بزيارتك اليوم !

ـ نعم ! لقد غمرني بهذا الفضل ! دونيا ... لقد صرحت للوجين منذ بضع ساعات بانني سألقي به الى اسفل السلم وطردته شر طردة !

هتفت بولشيري الكسندروفنا مرتاعة :

ـ روديا ... ماذا تقول ؟ هل حقيقة .. هل تقول جديا ؟..

ثم توقفت عن متابعة الحديث بعد ان القت نظرة الى دونيا !

كانت آفدوتيا رومانوفنا تنظر الى اخيها محدقة في وجهه تنتظر نتيجة كلامه ! فقد علمت هي كما علمت امها كذلك من ناستاسيا بعضا مما دار بين راسكولنيكوف ولوجين بقدر ما سمحت به معلومات هذه الاخيرة فكانتا غير مصدقتين وامضتا الوقت متلهفتين لسماع التفاصيل وهما تشعران بانفعال عنيف .

تابع راسكولنيكوف حديثه بجهد واضح قائلا :

ـ دونيا ! لا اريد هذا الزواج ! ولهذا عليك ان تنتهي من لوجين غدا ولننس اسمه نهائيا بعد ذلك !

هتفت بولشيري الكسندروفنا :

ـ ربـــاه !

بينما قالت افدونيا رومانوفنا بصوت منفعل :

ـ أخي ! فكر فيما تقول ...

بيد انها تمالكت نفسها بعدئذ واسترسلت بصوت حان تقول :

ـ انك لست في وضع مناسب الان ... انك متعب !

ـ تعتقدين بانني اهذي أليس كذلك ؟ اعلمي انك مخطئة !... انك تتزوجين لوجين من اجلي ... « بسببي أنا » وأنا لا أقبـــل هذه التضحية الرهيبة ... لذلك فلسوف تكتبين اليه غدا تعلمينه بفســـخ الخطوبة ... سوف تقرأين لي تلك الرسالة صباحـــا وسينتهـــي كـــل شيء !

صاحت الفتاة وقد شعرت بجرح في كرامتها .

ـ لا استطيع عمل ذلك ! ثم باي حق !

غير ان امها استدارت نحوها مقاطعة وقد بان الرعب في عيونها :

ـ دونيا ، انت ايضا تنفعلين ! آه ... لنذهب ذلك اجدى !

وهتف رازوميخين قائلا بصوت المخمور :

ـ انه يهذي والا لما كان سمح لنفسه ... غدا ستنتهي هـــذه الازمة ... اما اليوم ... ففي الحقيقة انه طرده تماما كما قال ! ولا شك ان الاخر انزعج لهذا التصرف . لقد كان « يخطب » هنا وينشر معلوماته مع ذلك فقد مضى وذنبه بين ساقيه !

فصاحت بولشيري الكسندروفنا :

ـ اذا ... انه صحيح تماما ...

بينما هتفت دونيا بصوت يذوب حنانا :

ـ الى الغد يا اخي ... هيا يا أماه ... الوداع يا روديا !

فكرر هذا قائلا بجهد عنيف :

ـ أتسمعين يا اختاه ! انا لا اهذي ... ان هذا الزواج فضيحة ورذيلـة ! واذا كنت نذلا انا فلا ينبغي لك على الاقل ان تكونيه ... يكفي نذل واحد ! لكن مهما بلغت نذالتي فانني ساكف عن اعتبـارك أختا لي ... واما أنا واما لوجين ... انسحبي !

فزمجر رازوميخين :

ـ لكنك فقدت صوابك أيها الظالم !

لم يجب راسكولنيكوف ولعله لم يكن يملك القوة على الجواب واستلقى على « الديوان » مستديرا نحو الجدار منهوك القـــوى ! وراحت افدونيا رومانوفنا تتطلع الى رازوميخين بفضول وعيناهـــا السوداوان تلتمعان حتى ان رازوميخين نفسه ارتعد تحت وطأة تلـك النظرة أما بولشيري الكسندروفنا فقــد كـانت شديدة الاضطـراب.

فغمغمت تهمس الى رازوميخين قائلة بيأس :

ـ لن استطيع مبارحة المكان لاي سبب في الدنيا ! سأبقى هنا في اي مكان ... اصحب دونيا !

فأجابها بهمس كذلك وقد فقد السيطرة على أعصابه :

ـ نعم ... بينما تفسدين انت الامر كله ! لنخرج على الاقل من الحجرة ...

اضيئي سبيلنا يا ناستاسيا ... ولما أصبحوا على السلم اضاف قائلا بصوت منخفض :

ـ اقسم لك انه كاد منذ حين ان يضربني ويضرب الطبيب فهل تفهمين معنى هذا ؟ الطبيب بالذات ! وقد خرج هذا لكي لا يسبب له انفعالا عنيفا . فلما خرجنا استطاع ـ هو ـ ان يرتدي ثيابه وان يتسلل بينما كنت في شقة صاحبة الدار أراقب ... والان ، لسوف يتسلل هاربا من جديد اذا اثرتماه ولعله سيحاول ان ينزل بنفسه مصيبة !

ـ آه ... ماذا تقول ؟

ـ طبعا ... ثم لا تنسي ان ادفونيا رومانوفنا لا يمكنها أن تبقى وحيدة في بيت من ذلك النوع ! فكرا قليلا في المكان الذي نزلتما فيه ! هل لم يكن ذلك « القذر » مستطيعا حقيقة ان يجد لكما مكنا أفضل ... على كل حال انكما ، تعرفان بانني ثمل قليلا ولهذا السبب تلفظت بكلمات نابية فلا تلقيا بالا اليها !

فقالت بولشيري الكسندروفنا بالحاح :

ـ سأذهب الى صاحبة المسكن .اتوسل اليها ان تعطيني انا ودونيا زاوية نمضي فيها ليلتنا هذه . لا أستطيع تركه على هذه

الحال ... لا استطيع ...

كانوا قد بلغوا شقة صاحب البناء وكانت ناستاسيا تنير لهم الدرجة التالية .. وكان رازوميخين منفعلا جدا ... فقد كان منذ نصف ساعة ، _ عندما كان يصحب راسكولنيكوف _ يثرثر كثيرا كما شعر بذلك بنفسه لكنه كان مع ذلك يشعر بطلاقة وبصفاء ذهن رغم كمية الكحول الهائلة التي استهلكها . اما الان فقد كان يشعر بانه غارق في لون من الذهول وكأن ابخرة الكحول راحت تصعد إلى رأسه محدثة تأثيرا مضاعفا . كان واقفا بين السيدتين مطبقا على يد كل منهما ساعيا لاقناعهما بشتى الوسائل والحجج بلغة مدهشة فكان _ بعد كل كلمة _ يضغط على يديهما بعنف لعله راجع الى رغبته في مضاعفة اقناعهما او التأثير علبهما . وكان بين الحين والاخر يكاد ان يفترس افدوتيا رومانوفنا بنظراته دون أن يشعر بأي حرج . وكانت السيدتان تخلصان يديهما آحيانا لشدة تألمهما من اطباق تلك القبضة القوية الجبارة على اصابعهما لكنه سرعان ما كان يستعيدهما ليضغط عليهما بشدة اكثر من ذي قبل . ولو انهما طلبتا اليه في تلك اللحظة ان يلقي بنفسه من اعلى السلم ورأسه الى الامام لفعل على الفور دون ان تطرف له عين !

كانت بولشيري الكسندروفنا شديدة القلق على ابنها لكنه لم يفتها برغم ذلك ان تلاحظ ان ذلك « الفتى » يقوم باعمال مستهجنة ويضغط على يديها بقوة تشعرها بالالم ، غير انها لبثت تتغاضى عن هفواته البسيطة تلك ولا تنفك تعتبره « الملاك » الحارس !

اما افدوتيا رومانوفنا فعلى الرغم من انها لم تكن ذات عقلية منطوية وجلة ، فانها كانت مندهشة لتصرف ذلك الشاب بل وخائفة منه كلما التمعت نظرات صديق اخيها هذا لتقف على وجهها ! ولولا

الثقة العمياء التي زرعتها ناستاسيا في نفسها عندما تحدثث عنه وعن خدماته لأخيها ، لفرت مذعورة تجذب معهـا أمها لتنجو منه ! وكانت تعرف انه يتعذر عليها في تلك اللحظة الافلات منه • غير انه لـم تمض عشر دقائق حتى وجدت الفتاة نفسهـا مطمئنة تمامـا الى هـذا « الرجل الرهيب » •

كان رازوميخين يمتاز بموهبة فذة في تعريف نفسه واظهارها على حقيقتها منذ اللحظة الاولى وفي اي موقف كان ، فكان يقوم بذلـك التعريف بشكل يجعل الاخرين يدركون فورا نوع الرجل الـذي يتعاملون معه • لذلك فقد راح يقول محاولا اقنـاع بولشيري الكسندروفنـا :

ـ محال ان تتصلي بصاحبة البناء انها ستكون حماقـة كبرى ! صحيح انك امه ، وانك ام مثالية لكنك اذا بقيت فلسوف تستثيرين غضبه والله يعلم ما سيحدث اسمعي ••• سأحدثك عمـا سأعمـل : « ستبقى ناستاسيا في الوقت الحاضر بالقرب منه بينما سأصحبكما الى مسكنكما لانه من غير اللائق ان تبدوا وحدكما في الطريق هنـا في بيترسبورج ••• هيا ••• ثم عندما ارجع من مسكنكما « سأقفز » الى هنا وأعدكما بأنني سأبلغكما خلال ربع ساعة بالجديد من أنبـائه • سأقول لكما كيف حاله وهو نائم أو مستيقظ الخ ••• وبعدئذ ••• استمعا ••• بعدئذ سأعود فورا الى منزلي لان لدي بعض المدعوين وكلهم مخمورون وسأصحب زوسيموف ـ وهو الطبيب الـذي عني به ـ وهو الان في منزلي وهو ليس ثملا انه لم يثمل قط لانه لا يشرب! سأعود به الى روديا ومن هناك سنحضر الى مسكنكمـا ! أي انكما ستتلقيان خلال ساعة واحدة أخبارا عنه وستتلقياها مني أولا ثـم من طبيب ، الامر الذي يختلف تماما عن رأيي الشخصي • وانني أقسم لكما

ان احملكما اليه فورا اذا كانت حالته سيئة • اما اذا كانت حالته مرضية فلسوف تنامان ! وسأقضي الليل كله هنا في الممشى ولن اجعله يشعر بوجودي وسأجعل زوسيموف ينام عند صاحبة البناء ليكون في متناول يدي اذا احتجت اليه ! فمن يكون اكثر نفعـا بالنسبة اليـه في هـذه اللحظة : انت ام الطبيب ؟ من رأيي انه الطبيب ! اذا ••• عـودا الى مسكنكما ••• أما البقاء لدى صاحبة البناء فهو مستحيل•• ولن يكون كذلك بالنسبة الي اما انتما فلا ••• وهي لن تقبل ايواءكما لانها ••• لانها بلهاء ••• وهي غيور تغار من افدونيا رومانوفنا اذا شئـت معرفة ذلك ومنك أيضا ••• ولكن من افدونيا رومانوفنا بشكل مؤكد • انها مخلوق جامح عنيد كأشد ما يكون الانسان عنادا ••• على كل حـال انني سخيف انا الاخر ••• فلندع كل هذا تعاليا ••• هل تثقان بي ؟ قولا هل تثقان بي ؟ نعم ام لا ؟

فقالت افدونيا رومانوفنا :

ـ لنذهب يا اماه ، لسوف يتصرف كما وعد ••• لا تنسي انـه أعاد أخي الى الحياة من قبل واذا قبل الطبيب حقيقة فليقض ليلة هنا فاننا لن نأمل خيرا من هذا •••

هتف رازوميخين منفعلا من الحماس :

ـ هكذا ••• انت •• انت تفهمين [illegible] لنـذهب ناستاسيا أصعدي الى أعلى فورا والبثي بالقرب منه مع الضوء ••• سأعود في غضون ربع ساعة !

لم تمانع بولشيري الكيسندروفنا رغم انها لم تقتنع تماما وهكذا احاط رازوميخين كلا من رفيقتيه بذراعه وراح يجرهما هابطا بهمـا • بينما كانت الأم تتساءل قلقة :

ـ لقد كان مدبرا وخدوما حقا ولكن هل هو في حال « تساعده

على الاستمساك بوعوده ؟ لو حكمنا على المظهر ! ... »

وفجأة عاد رازوميخين يقول وكأنه قرأ افكار الام القلقة :

ــ اني أفهم ما في نفسك ! انك تفكرين بأنني أبدو ثملا ...

كان يمشي بخطى سريعة واسعة حتى ان السيدتين كانتا تلاقيان صعوبة في مجاراته في المشي . غير انه لم يلاحظ ذلك بل راح يتابع حديثه قائلا :

ــ نعم .. انها حماقة ! اقصد انني ثمل كالخنزير ... لكن ليس بفعل الكحول ! نعم ليست الكحول التى اسكرتني ... انني منذ ان رأيتكما « ضرب » ذلك على رأسي . لكن هبا لا تباليا بأقوالي ... انني اهذي ... فأنا لست جديرا بكما ... بل انني في احط درجات الجدارة بالنسبة اليكما !.. لكنني بعد ان اوصلكما الى مسكنكما سأذهب فورا الى « القنال » وسأصب على رأسي دلوين كبيرين من الماء فيذهب كل هذا ! آه لو عرفتما كلاكما كم أحبكما ... لا تضحكا ولا تغضبا مني ! اغضبا من كل الناس الا مني انا ... فأنا صديقه وبالتالي صديقكما .. انني اريد ان اكون صديقكما ... لقد شعرت بذلك شعورا مسبقا ... شعرت به في العام الفائت خلال زمن ما ... كلا ... لم اشعر بشيء شعورا مسبقا ... لقد هبطتما الي من السماء! من المؤكد انني لن انام هذه الليلة مطلقا ... ان هذا « الزوسيموف » كان يخشى منذ قليل ان يكون روديا مجنونا ... ولهذا السبب لا ينبغي اغضابه !

فصرخت الام :

ــ ماذا تقول ؟

وهتفت افدونيا رومانوفنا وقد عصف بها القلق :

ــ هل يعقل ان يكون الطبيب نفسه قد قال ذلك ؟

ـ نعم لقد قاله ! ولكنه ليس صحيحا مطلقا • لقد اعطيناه دواء ••• مسحوقا ••• وقد رأيته وفي هذه الاثناء جئتما ! آه كان من الافضل لو لم تصلا اليوم لقد أحسنتما صنعا بمغادرته ولسوف يطمئنكما زوسيموف في غضون ساعة واحدة • انه ليس ثملا مثلي • وكذلك لن أكون ثملا بعد ساعة • ولكن لم حشرت أنفي بكل هذه الشدة ؟ لانهم اجتذبوني بمناقشاتهم ! يا للاوغاد ! وانا الذي كنت قد اقسمت على عدم الدخول في مناقشات ! نعم كانوا يسردون على بعضهم الاكاذيب ولو قليل لرحت ضربتهم ••• وقد تركت عمي هناك كرئيس ! هل تصدقان ؟ انهم جميعا عديمي الشخصية تماما ! انهم جميعا كالاطفال هدفهم ان يكونوا هم « انفسهم » وان لا يشبهوا واقعهم على اضيق نطاق ممكن ! هذا ما يعتبرونه اقصى درجات « المجهود » وهكذا راح كل منهم يهذي على هواه •••

فقالت بولشيري الكسندروفنا وهي تقاطعه بخجل :

ـ اسمع ! •••

لكن تلك الملاحظة أضاعت انفعاله فهتف بصوت عال :

ـ هم ! ماذا ؟ فيم تفكرين ؟ أتعتقدين انني انفعل واثور لانهم يقصون على بعضهم اقوالا سخيفة فارغة ؟ ابدا ••• بل انني احب ان يفعلوا ذلك • ان السخافات الكاذبة هي كل ميزة الانسان على بقية الحيوانات ! لان الانسان يصل الى الحقيقة عن طريق الكذب • فاذا كنت انسانا فذلك لانني اكذب • لم يحدث ان اكتشفت حقيقة واحدة دون أن تكون قد سبقت بالكذب أربع عشرة مرة ! بل مائة واربع عشرة مرة ! وليس في ذلك بالذات ما يشرف لاننا لا نعرف ان نكذب حسب ذكائنا وعقليتنا ! الصقي لي كذبات شريطة ان تكون صادرة عنك تماما فاقبلك ! لان الكذب حسب طابع الانسان واسلوبه اجمل من الحقيقة

التي ينفخها فم اجنبي في رؤوسنا ! لاننا في الحالة الأولى نكـون رجالا أما في الحالة الثانية فنكون ببغاوات فحسـب • ان الحقيقـة لا تختفي بل الحياة هي التي تختفي ! ولقد رأينا وشاهدنا كيف يمكن طمن الحياة ! اين نحن الان ؟ كلنا دون استثناء ! اين نحن جميعا فيـما يتعلق بالعلوم والثقافة والفكر والعقلية الابداعية والمثل العليا والرغبات التجريبية ، والمنطق والتجربة وكل شيء آخر ••• اننـا لا زلنا نتبـع الدروس الاعدادية في المدرسة الابتدائيـة ! اننا نستـأنس ونعجب بالمعارف التي تملأ بها افواهنا ممضوغة خالصة ! أليس كذلك ؟ أليس ماأقوله حقيقـة ؟

كان يصيح منفعلا وهو يضغط بشدة على يدي السيدتين حتى ان بولشيري الكسندروفنا المسكينة قالت بحيرة :

ــ آه رباه ••• لا ادري !

بينما قالت افدونيا رومانوفنا بلهجة جدية :

ــ نعم انه لكذلك على الرغم من انني لا اوافقك على كل النقاط دون استثناء !

وفجأة صرخت من الالم لشدة ما كان رازوميخين يضغط على يدها وهو يقول في ذهوله :

ــ نعم ؟ تقولين نعم ؟ لكنك انت ••• انت ••• انت نبـع الصلاح ! نبع النقاء والعقل والكمال ••• اعطني يدك اعطنيهـا ••• وانت اعطني يدك كذلك ! اريد ان اقبل هاتين اليدين هنا وانا راكـع على ركبتي وفي هذه اللحظة !

ثم جثا في منتصف الرصيف الذي كان لحسن الحظ خاليا من الناس في تلك اللحظة •

صرخت بولشيري الكسندروفنا بانزعاج !

ـ ماذا تعمل ؟ ارجوك دع هذا !

وازدفت دونيا التي تضحك ولكن دون انزعاج :

ـ انهض ... انهض !

ـ لن انهض بأي ثمن الا اذا اعطيتماني يديكما ... هكذا ... تماما . والآن كفى ... لنذهب ؟ أنا سمج تعس غير جدير بكما وثمل ! انني احمر خجلا اذ انني لست جديرا بان احبكما . اما ان انحني امامكما خاضعا فانه واجب علي الا اذا كنت وحشيا حقيقيا . ولذا فقد ركعت وانحنيت ! هذا هو مسكنكما وبسبب هذا وحده ، أعترف بأن روديا كان على صواب تماما حينما طرد صاحبكما بيير بيتروفيتش كيف سمح لنفسه أن يجعلكما تسكنان في منزل كهذا ؟ انها فضيحة ! أتعرفان اي نوع من الناس يأوون الى هنا ؟ مع ذلك فأنت خطيبته ! لانك خطيبته أليس كذلك ؟ اذن سأصرح لك رغم ذلك بان زوجك المقبل ليس الا « قذرا » !

فقالت بولشيري الكسندروفنا محتجة :

ـ اسمع يا سيد رازوميخين ... انك تنسى نفسك ...

فتمالك رازوميخين نفسه وقال :

ـ نعم نعم ... انك على حق ! لقد نسيت نفسي ولكنكما لن تلوماني على ما قلته منذ حين لانني تحدثت اليكما بكل صراحة وليس لانني ... هم ... انها كانت تكون نذالة ، وبالاختصار ليس لانني ... هم ... ليكن .. لن يكون ذلك ولن أقوله لانني لا اجرؤ ، لكنه منذ حين ... لما دخل الى حجرة روديا فهمنا للوهلة الأولى ان هذا الرجل ليس من عالمنا ، ليس لانه دخل علينا برأس خرجت توا من بين يدي الحلاق وليس لانه بادر الى نشر ما يعرف من معلومات

بل لانه جاسوس بكل معنى الكلمة ... لانه مدقق ولانه يهـودي ومشعوذ دعي ، ذلك واضح عليه ، وانتما تعتقدان انه ذكي ، لكنـه حيوان ، هيا هل حقيقة يمكن ان يكون « صفقة » جديرة بكمـا ؟ آه رباه ، انظري يا سيدتي ... ان الاصدقاء المدعوين عندي سكـارى لكنهم شرفاء ، ولقد تحدثنا بكل الترهات والسخـافات لانني أنا أيضا أحسن التحدث بهذه الاشياء ، لسوف نتوصل يوما الى معرفة الحقيقة لاننا في الطريق القويم ، الامر الذي لا يبدو على بيير بيتروفيتش لانه لا يتبع الطريق القويم ... انني أحب أولئك الذين دعوتهم الليلة الى داري رغم اننا تناقشنا بحدة واغلظت لهم القـول بعد ذلـك ... وزاميوتوف نفسه الذي احبه دون ان اميل اليه لانه حيوان فضولي ، حتى ذلك الوحش زاميوتوف فانني احبه لانه نزيـه شريف يعرف مهنته .. لكن كفاني كلاما وقد صفح عن كل شيء قيـل .. أليس صحيحا انكما صفحتما عما قلت ؟ هيا ... لنمش ...

كانوا قد بلغوا المسكن المعد للسيدتين وراحوا يرقون السلم وهو يثرثر . ولما بلغوا أمام باب أحد المساكن هتف :

ـ هنا... في رقم ثلاثة وقعت فضيحة ! .. لقد جئت من قبـل الى هذا المكان وانا اعرفه حق المعرفة .. اين تنزلان ؟ .. في المسكن الثامن ؟ حسنا ! اغلقا عليكما الباب بالمفتاح ولا تدعا احدا يدخـل عليكما ليلا ... سأعود في غضون ربع ساعـة لاحمل لكما الانباء الجديدة ... وبعد نصف ساعـة على الاكثر سأعود مرة ثانيـة مع زوسيموف .. سوف تريان ! الوداع .. ينبغي ان اغادركما !

ولما اصبحتا وحيدتين هتفت بولشيري الكسندروفنا بقلق واضح :

ـ يا الهي يا دونيا ... ماذا سيحدث ؟

فأجابت دونيا وهي تنزع قبعتها ورداءها :

ـ لا تقلقي يا اماه ! ان الله نفسه قيض لنا هذا السيد • ثقي بانه يمكن الاعتماد عليه رغم انه ثمل ! وكل ما قاله وعمله من اجل اخي•••

ـ آه يا دونيا ! الله يعلم اذا كان سيعود ! كيف قبلت مغادرة روديا ! رباه ! وانني ما كنت انتظر ان اراه على هذا الشكل ••• لقد بدا مخيفا ••• وكأنه غير راض عن مشاهدتنا •••

وانهمرت دموع المسكينة على خديها !

ـ كلا ! ان الامر ليس كما تتوهمين يا اماه ! انك لم تمعني النظر لانك كنت تبكين ! لقد زعزعه مرض خطير وهذا هو السبب في كل ما حدث !

ـ آه ذلك المرض ! ان في الامر شيئا •• رباه كيف تحدث معك يا دونيا !

كانت الام تنطق بالعبارة الاخيرة وهي تحاول قراءة أفكار ابنتها في عينيها وقد سرت بعض السرور لان دونيا كانت تدافع عن أخيها مما يدل على انها صفحت عما صدر عنه ! واردفت معقبة وهي تحاول بحث الموضوع الى النهاية :

ـ انا واثقة من انه سيبدل رأيه غدا ••

فقاطعتها افدوتيا رومانوفنا بقولها :

ـ بل انني واثقة من انه غدا سيقول ما قاله اليوم ••

قطعت بهذه الجملة على بولشيري الكسندروفنا طريق الخوض في الموضوع الذي كانت تتهيب من الخوض فيه ثم اتجهت نحوها فعانقتها بقوة وعادت تجلس على مقعد منتظرة بقلق عودة رازوميخين! وكانت الام ترقب ابنتها بصمت وقد عقدت ذراعيها منتظرة الاخبار الجديدة • ولم تلبث هذه ان نهضت واقفة وراحت تذرع الغرفة جيئة

وذهابا مستغرقة في أفكارها • تلك كانت عادتها كلما كانت تتردد في اتخاذ قرار معين وكانت أمها في مثل تلك الظروف تتجنب ازعاجها وقطع حبل تفكيرها •

كان رازوميخين ولا شك مضحكا في نزوته الطارئة التي أستبدت به فراح يعبر عنها وهو في حالة السكر ••• تلك النزوة التي أحس بها حيال أفدونيا رومانوفنا • لكن من يتأمل في تلك الفتاة وخصوصا في تلك اللحظة وهي عاقدة ذراعيها تتجول حزينة ساهمة في فراغ حجرتها يجد له العذر حتى ولو لم يكن ثملا • كانت افدونيا شخصية جذابة حسنة التكوين طويلة القوام متينة البنيـة واثقة من نفسها كما كان يبدو من كل حركة من حركاتها الامر الذي كان يزيدها رقة ووداعة • كانت تشبه اخاها في تقاطيع وجهها لكن ذلك ما كان ليمنع ان تكون ذات جمال خارق • كان شعرها كستنائيا كشعر اخيها مع اختلاف طفيف ، وعيناها سوداوان لامعتان مطبوعتان بالكبرياء تنبعث منهما في كثير من الاحيان رقة خارقة ، وكانت شاحبة بغير مرض يعكس وجهها آيات العافية والاشراق • وكان فمها صغيرا وشفتها السفلى بلون احمر صارخ تبرز قليلا مع بروز ذقنها ، وكان ذلك « البروز » الطفيف العيب الوحيد في ذلك الوجه البديع • لكنه كان يضفي عليه لونا من الصرامة والترفع ••• وكانت امارات وجهها تدل على الرزانة والتفكير اكثر منها على البشاشة لكن الضحكة التي كانت ترتسم على ذلك الفم الجميل كانت غاية في الجمال لانه فم يليق به الابتسام فاذا ضحكت كانت ضحكة هادئـة مرحة طافحة بالحيوية ! فكان منتظرا اذا ان يفقد رازوميخين المتقد حيوية ، الشديد الاخلاص ، رازوميخين البسيط ، النبيل القوي قوة الابطال القدماء • الذي كان ثملا والذي لم يسبق له ان رأى مثل هذا الجمال ، كان منتظرا ان يفقد رجل كهذا عقله ! ثم ان الصدفة شاءت وكأن ذلك

كان بحسب خطة مرسومة ـ ان تريه دونيا في الوقت الذي كـانت فيه تطفح بالحب والفرح للقيا أخيها ولقد وجدها بعد ذلك مرتجفة الشفاه ثائرة لكرامتها ازاء اهانات اخيها فلم يبدل ذلك من الامر شيئا •

وكان صادقا عندما قال ـ بينما كـانوا يهبطـون مـن حجـرة راسكولنيكوف ـ ان صاحبة منزل ذلك الاخـير براسكوفي ايفانوفنا ستغار ليس فقط من افدوتيا رومانوفنا بل كذلك من بولشيري الكسندروفنا نفسها • اذ ان هذه رغم انها كانت قد تجاوزت الثالثة والاربعين مـن عمرها الا انها كانت تبدو اصغر سنا كما هو الحال عند النساء اللاتي يحتفظن حتى ارذل العمر بصفاء ذهنهـن وباحساساتهـن وحرارة اجسادهن الطاهرة ! طبعا ••• ان المرأة لا يمكنهـا ان تحافظ على جمالها حتى سن الشيخوخة اذا لم تكن محافظة على ذلك المبدأ الوحيد •

كان شعرها قد اصبح قليلا يغزوه اللون الابيض وقـد ارتسمت على اطراف عينيها تجعدات خفيفة وضمر خداهـا ونحـلا تحت وطأة الاحزان والالام اما فيما عدا ذلك فان وجهها لبث جميلا • انه صورة دونيا مضافا اليها عشرون عاما باستثناء بروز الشفة السفلى الـذي لم يكن موجودا فيها •

كانت بولشيري الكسندروفنا سيدة حساسة الى حد ما خجـول شديد التـامح حتى في حالات النيل من معتقداتها وآرائهـا ، لكنها كانت ابدا تعرف الحد الذي يجعل شرفها او واجبها او معتقداتها الخاصة التي تؤمـن بها بشدة في منجـاة من كل اجتراء مهما كانت الظروف والمنـاسبات •

لم تنقض عشرون دقيقة على ذهاب رازوميخيـن حتى سمعتـا طرقتين خفيفتين على بابهما ••• ولما فتحتا الباب وجدتا انه قد عـاد ، ابتدرها قائلا بعجلة :

ـ لن ادخل لان لا وقت لدي . انه ينام كأسعد السعداء . نوما هادئا وديعا وان شاء الله سينام على هذه الصورة طيلة عشر ساعات ! ان ناستاسيا بالقرب منه وقد افهمتها بان لا تبارحه حتى عودتي سأذهب الان لاقود زوسيموف وسيحدثكما بنفسه عند عودته وبعد ذلك سوف تستلقيان لتأخذا قسطكما من الراحة لانكما مرهقتين بالتعب . انه باد عليكما !

ثم غادرهما مسرعا بينما هتفت بولشيري الكسندروفنا بحبور :

يا له من فتى نبيل ! حاذق !

فأجابت افدونيا رومانوفنا بشيء من اللهفة وهي تعود الى تجوالها وسط الغرفة :

ـ يبدو عليه انه من طينة ممتازة !

لم تمض ساعة على مجيء رازوميخين حتى علت اصوات خطوات في المشى وقرع الباب من جديد . كانت السيدتان تنتظران لانهما بدأتا تثقان بوعود رازوميخين وقد وجدتاه في هذه المرة قد نجح في اصطحاب زوسيموف معه وبدا ان هذا الاخير قد وافق بكل طيبة خاطر على ترك الحفلة ليعود راسكولنيكوف لكنه لم يحضر الى مسكن السيدتين بمثل هذه السهولة لولا الحاح رازوميخين وخشية الطبيب منه وهو على تلك الحال . على انه سرعان ما بدا الارتياح على وجهه بعد ان لمس بنفسه مبلغ اللهفة التي اعتلجت في نفس السيدتين الفاضلتين وهما بانتظاره . وقد امضى لديهما عشر دقائق بالضبط استطاع خلالها ان يقنع بولشيري الكسندروفنا ويطيب خاطرها . كانت كلماته تشهد بحسن حال المريض لكنها لم تكن خالية من بعض الحيطة متسمة بطابع الاهمية الواجب اخفاؤها على اقوال طبيب في السابعة والعشرين من عمره يسأل في حالة خطيرة . لم يلفظ خلال حديثه اية كلمة خارجة

عن الموضوع ولم يبدِ أية رغبة في تدعيم علاقات شخصيـة وثيقة مع السيدتين وعلى الرغم من انه لاحظ عند دخوله حسن افدونيا رومانوفنا الباهر فقد عمل فورا على ان لا يلقى اية عناية اليها لذلك فانه راح يوجه الحديث ــ كل الوقت الذي استغرقتـه الزيـارة ــ الى بولشيـري الكسندروفنا وحدهـا • وكان ذلـك التصرف يشعره بارتيـاح داخلي بالغ •

صرح ــ بأن المريض كان ــ في تلك الاثناء بحالة مرضية وان ما يعانيه ــ حسب تشخيصه للمرض ــ ليس فقط من العوامل المرضيـة المادية التي رافقت جسده خلال الاشهر الاخيرة بل ايضا بسبب عقلي خاص يمكن ايجازه بالقلق الذي ينجم عن افكار معينة • ولما لاحظ ان افدونيا رومانوفنا كانت تستمع اليه باهتمام خاص راح يشرح بتبسط نظريته • ولما سألته بولشيري الكسندروفنا بصوتها القلق الخجول عما اذا كان ولدها يعاني من حالة معينة من حالات الجنون اجـاب بضحكة هادئة صريحة بان ذلك يعتبر مبالغا فيه وان المريض تسيطر عليه فكرة خاصة ثابتة تسبب له نوعا من الجنون المتصل بسبب واحد حتى انه راح يدرس هذا الفرع المهم من الطب دراسة خـاصة واضاف بـانه ينبغي الا يغفل عن ان المريض كان حتى ذلك اليـوم في بحران من الذهول وان وصول اسرته سيخلق في نفسه قوة ويجلب له تسريـة تسبب شفاءه شريطة ان يجنب اضطرابات جديدة مـن نوع معيـن • ثم نهض بعد ذلك وحيا بشكل جمع بين الخطورة والدعـة ثـم خرج معربا عن سروره بتلك الزيارة ترافقه الدعوات الصالحة التي غمرتـه بها السيدتان اعترافا منهما بجميله وقبل ان يغادرهـا قـال رازوميخين وهو يتأبط ذراع زوسيموف •

ــ لسوف نتحدث غدا حديثا اطول • اما الان فيجب ان ننام دون

تأخير ولسوف امر بكما باكرا لاقدم لكما تقريرا جديدا •

وفي الطريق قال زوسيموف بلهجة بعيدة عن الاطراء الرخيص :

ـ يا لها من فتاة ساحرة تلك الـ « آفدونيا رومانوفنا » •

فزمجر رازوميخين بانفعال وقبض على عنق زوسيموف بشدة وقال :

ـ ساحرة ؟ تقول ساحرة ؟ لو سمحت لنفسك مرة اخرى ان تعيد هذا القول مرة اخرى ••• أتفهم ؟ أتفهم ؟ وراح يهزه بقوة وانفعال فهتف زوسيموف يحاول التخلص من يده :

ـ دعني ايها الشيطان الثمل !

ولما تخلص منه راح يحدق في عينيه برهة ثم انفجر ضاحكا ضحكة جنونية ذلك ان رازوميخين كان لا يزال واقفا امامه منفرج الذراعين غارقا في افكاره السوداء وفجأة ادرك حماقة عمله فقال بلهجة كئيبة :

ـ انني حمار بالتأكيد• ولكنك أنت أيضا تبدو حمارا •••

ـ لعمري ! كلا يا صديقي أنا لست حمارا لانني لا أحلم بالحماقات !

وراحا يمشيان دون ان ينفوها بكلمة حتى بلغا مدخل منزل راسكولنيكوف وعندئذ قطع رازوميخين الصمت وقال :

ـ انك رجل ممتاز ولكنك ـ اضافة الى خطيئاتك الكثيرة ـ زير نساء بل ومن أكثرهم نذالة • انك تفكر في قرارة نفسك «بقذارة» تهدهدها وتنميها لانك لا تستطيع ان ترفض لنفسك رغبة وانني ادعو هذا التصرف بالقذارة لانه اصدق وصف له • لقد بلغت من التخنث وحب الجنس مبلغا لا افهم بعده كيف تستطيع على الرغم منه ان تكون طبيبا ممتازا مخلصا • ان كلمة طبيب تسطر بالقلم فتبدو مستلقية على

الورق لكنها تنهض ليلا لتعود مريضا ••• وارى انـك بعـد ثلاثة سنوات لن تنهض مطلقا لعيادة مريض • على كل حال انالامر ليس هذا لقد أردت أن أقول : سوف تمضي ليلتـك في مسكن صـاحبة البناء ولقد أقنعتها بعد لأي بقبول ايوائك • وبذلك يتاح لـك فرصة جديدة لعقد صداقات أمن ! أليس هذا ما تفكر فيه ؟ كلا يا صديقي لا يوجد ظل من هذا • أليس كذلك ؟

ــ لكنني لم أفكر مطلقا في ذلك •

ــ ستجد هنا يا صديقي تظاهرا بالحشمة ورصانه وخجلا وتعففا مصطنعا ترافقه تنهدات وحسرات ولوعة ! انقذني منها أتوسل اليك! استحلفك بكل شياطين العالم • انها مضياف بشكل عجيب وانك لتؤدي لي خدمة جلى لن انساها لك •

ازداد اغراق زوسموف بالضحك وقال :

ــ حسنا انك لست ثملا ! •• لكن ماذا اعمل ؟ !

ــ ثق انك لست في حاجة الى اعطائها شيئا كثيرا من نفسـك ، يكفي أن تقذف في وجهها ببعض الكلمات، أية كلمات تخطر ببالك، يكفي أن تجلس بالقرب منها وأن تتحدث ! ثم لا تنسى انك طبيب• فابدأ مثلا بان تصف لها علاجا معينا واقسم لك على انك لن تندم • ان لديها معزفـا صغيرا وانت تعرف انني اغني قليلا وقد غنيت لها اغنية روسية تاريخية تلك التي مطلعها : « انني ابكي بدموع حارة •• » ثم انها تعبد الاغاني التاريخية ولقد بدأنا من هذه النقطة • اما انت فانك عـازف بـارع ، أستاذ شبيه « روبستين » هيا ثق بانك لن تندم •

ــ لكن ألا تكون قد وعدتها بعض الوعود ؟ وعدا خطيا مثـلا ؟ ألم تعدها بالزواج منك ؟

ــ كلا ! ابدا ، لا شيء مطلقا من كل ذلك • انها ليست كمـا

تظن . لقد ظن تشيباروف ...

ـ في هذه الحالة عليك ان تتركها .

ـ ولكن ليس من سبيل الى تركها هكذا .

ـ ولم لا ؟

ـ لانه ليس من سبيل ، هذا كل ما في الامر . ان فيها يا عزيزي لونا من الجاذبية .

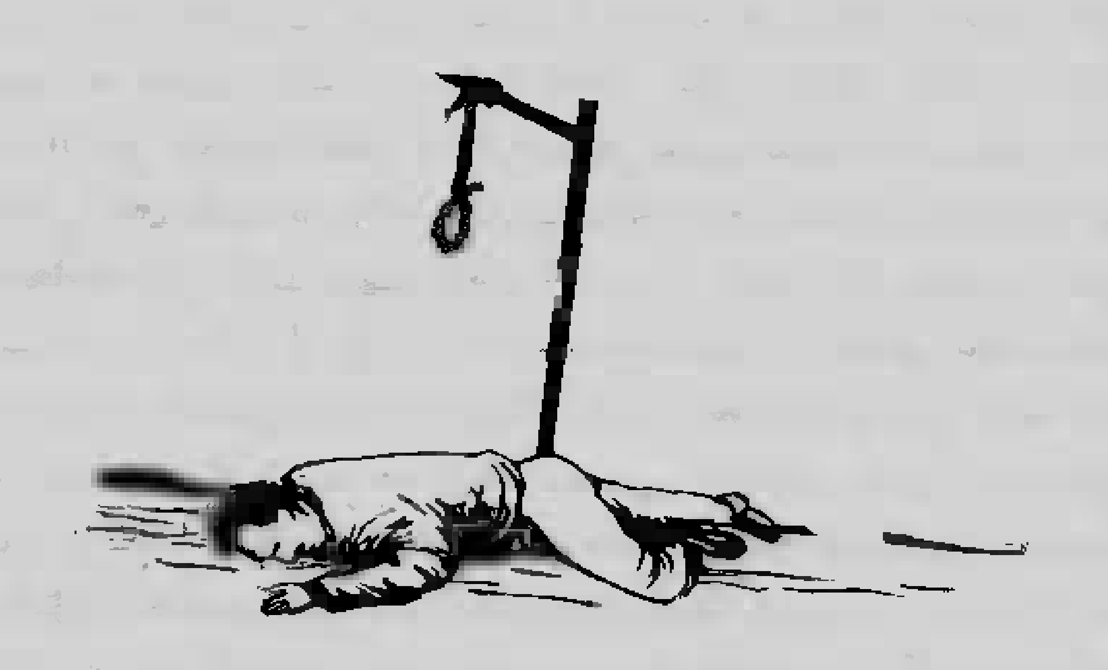
ـ اذا لم استهويتها ؟

ـ انني لم اقصد استهواءها . بل لعلني وقعت فريسة لها بحماقة اما هي فلا فرق لديها ان اكون انا او ان تكون انت طالما انها تستطيع ان تنعم برفيق بالقرب منها . لست ادري كيف اشرح لك ذلك يا صديقي ! على فكره انت قوي في الرياضيات ولا زلت مهتما بهذا العلم في الوقت الحاضر . فابدأ اذا شئت بتعليمها قواعد الحساب المتممة . انا لا امزح اؤكد لك بان سيان لديها ولسوف تراها تتأملك وتتأوه بحسرة . خذ مثلا انني استبقيتها يومين متتاليين في « مخدع » الأمراء البروسيين ! لانني كنت مرغما على التحدث بأي شيء . أتدري ماذا كانت تعمل خلال هذا الوقت ؟ لقد كانت تذوب وتتحسر ! انما تجنب التحدث اليها عن الحب لانها متعففة لدرجة التطرف . يكفي ان تبدو امامها بمظهر الذي لا يطيق الابتعاد عنها وسيكون في ذلك ما يكفي ! ان مسكنها حاو على شروط الراحة حتى لتظن انك في بيتك تماما : تقرأ او تجلس او تستلقي او تكتب بل وتستطيع ان تعانقها اذا شئت على ان تبدأ بحكمة .

ـ ولكن ماذا اعمل بها ؟

ـ الحقيقة انني لا اعرف كيف افسر لك الموضوع لكنك سترى بنفسك انكما صنعتما الواحد للاخر . وقد كنت فكرت فيك من قبل

لانني اعرف انك تحب الانتهاء من علاقتك بانتهاء زيارتك ولا يزعجك ان تكون هذه النتيجة متأخرة او متقدمة • وهنا يا عزيزي سينطبق مبدأ فراش الريش عليك ! ها ان مصيرك يناديك • ان نهاية العالم بالنسبة اليك ، المرساة ، مرفأ الأمان ، قواعد العالم واستقراره ! انك ستجد الطيور المحمرة والافاويه و « السماور » مساء والخدمة وانت في السرير • ستكون كالميت رغم انك حي ! وبذلك ستضرب عصفورين بحجر ••• ! يا صديقي كم اثرثر ! لقد آن ان تنام اما انا فقد وقع لي من قبل ان امضيت الليل ساهرا لذلك فسأذهب لالقاء نظرة عليه فلا تبتئس ولا تقلق مما كنت اقول لقد كانت حماقات فحسب ! ولك ان أردت ان تصعد معي أو أن تصعد بعدي لتلقي نظرة عليه شريطة ان توقظني حالا اذا لاح لك انه يعاني من الهذيان او الحمى •



٢

استيقظ رازوميخين بعيد الساعة السابعة قلقا كئيبا فقد شعر ذلك الصباح باسباب عديدة تجعله يكتئب دون ان يدرك علة ذلك . لم يكن يتصور ابدا ان يستيقظ يوما على ذلك النحو ! تذكر يوم امس بكل تفاصيله وفهم انه قد وقع له فيه شيء غير طبيعي وانه احس بشعور كان يجهله حتى تلك اللحظة ، شعور لم يكن له مثيل من قبل. كذلك فقد تأكد لديه ان الحلم الذي التمع في خياله لم يكن ممكن التحقيق بل انه كان على أقصى درجة من الاستحالة حتى أن مجرد التفكير فيه كان يبعث الخجل في نفسه لذلك فقد اتجه بفكره وعقله الى الاعمال العادية التي يزاولها كل يوم لينسى ذلك الامس « مضاعف اللعنات » .

كانت تعذبه ذكريات امس وبصورة خاصة تلك الذكرى التي تتعلق بتصرفه حيال تينك السيدتين فاطلق على ذلك التصرف اسم « تصرف الرجل الخشن القذر » ولم تكن سبب تلك التسمية حالة السكر التي كان عليها بل لانه اهان بحماقة وعنف خطيب الفتاة امامها منتهزا الحاجة التي كانت فيها دون أن يعرف طبيعة العلاقات التي تربط بينها وبين ذلك الرجل . وقد سمح لنفسه ان يحكم عليه بذلك الشكل السريع الاحمق دون ان يسأله احد رأيه فهل يمكن لفتاة مثل آدفوتيا رومانوفنا ان تربط مصيرها بمصير رجل غير جدير لمجرد حب الكسب والربح ؟ لا شك انه ليس محروما من المواهب ! اما قضية المسكن المؤثث فأنه لم يكن ولا شك يعرف نوعه خصوصا وانه كان يبحث عن مسكن للسيدتين دون سابق معرفة فحكمه اذا كان بشعا اما حجته التي أراد أن يبرر بها تصرفه والتي تصب اللوم كله على الثمل

فانها تزيد موقفه بشاعة ولا شك . لان الحقيقة كلها كانت كامنة في الخمر هذه الحقيقة سطعت امامه في تلك اللحظة واضحة جلية لقد اوضحت الخمرة حقيقته وبمعنى ادق « عن قذارة قلبه الغليظ الحسود » .

هل يجوز له ان يفكر بمثل ذلك الحلم ، هو ، رازوميخين ؟ من هو اذا قورن بتلك الفتاة الشابة ؟ او لا يكون ذلك السكير العربيد المتبجح ؟ هل يمكن التفكير في ايجاد تقارب اكثر شذوذا ووقاحة من هذا ؟

كان رازوميخين يحمر خجلا ويأسا من تلك الفكرة . وتذكر فجأة انه عندما هبط امس مع السيدتين من حجرة راسكولنيكوف قال لهما ان صاحبة المسكن تحبه وتغار من افدونيا رومانوفنا ! فكان مجرد تفكيره بهذه العبارة يقضي عليه قضاء مبرما لذلك فقد راح يضرب بقبضته موقد المطبخ ضربات عنيفة حتى أدمى يديه وحطم قرميده . راح يغمغم وهو فريسة شعور بالخجل :

ـ طبعا . طبعا ليس من وسيلة لمحو هذه الحماقات ولا للتبرؤ منها وعلى ذلك فانه لم يبق لدي مجال للتفكير ... ولسوف امثل بين يديهما دون ان اتفوه بكلمة وسأتقبل كل شيء دون منة وبسكون ولن اعتذر بالطبع لان كل شيء قد ضاع !

مع ذلك فانه لما اخذ يرتدي ملابسه صرف جل عنايته اليها . لم يكن لديه اكثر من ثوب حتى ولو انه كان يملك ثوبا آخر لما ارتداه عامدا . مع ذلك فانه ازاء حالة ثوبه الراهنة لم يكن يستسيغ جرح شعور الاخرين بمظهره الزري خصوصا وان اولئك « الاخرين » كانوا في حاجة اليه وانهم دعوه من تلقاء انفسهم لزيارتهم لذلك فقد مر بالفرشاة على ثيابه بعناية اما القميص فكان غاية في النظافة لان

طبيعة رازوميخين كانت تأبى قذارة الجسد .

نهض ذلك الصباح وهو مرتبك واخذ يغسل شعره وعنقه ويديه بقطعة من الصابون انتزعها من ناستاسيا ولما مر بيده على لحيته واحس بها نامية تذكر ان براسكوفي بافلوفنا (صاحبة المنزل) تملك أمواس حلاقة ممتازة احتفظت بها منذ وفاة المرحوم زوجها زارنيستين وانه يستطيع استعمال واحد منها . غير أنه سرعان ما استبعد الفكرة بوحشية وهو يغمغم :

ـ ستبقى لحيتي كما هي لانهما ستفكران بانني ما أزلتها الا ..طبعا ذلك ما سوف تفكران فيه وعلى ذلك فلن ازيلها لاي سبب في الوجود ! خصوصا وانني انا ذلك القذر الخشن الذي تفوح مني رائحة الحانات ولنفترض ... ـ لانني في الواقع اعترف بنبلي كرجل ـ لنفترض ان ذلك النبل هو ما أتغنى به فأنه في الحقيقة ليس جديرا بمثل هذا التفاخر لان كل امرىء يجب ان يكون نبيلا بل يجب ان يكون اكثر من ذلك . ثم ... ألست انا كذلك مصابا بعدد من الخطيئات لا اقول الخطيئات القذرة ولكنها خطيئات وكفى . اذا لا يمكن ان اعاود البحث في الامال خصوصا وانني لا املك شيئا أضعه في الكفة الاخرى لأساوي به افدونيا رومانوفنا ... فيا للشيطان! ان الواقع هو انني سأبقى كما انا قذرا خنزيرا عربيدا ولن ابالي بل لسوف اتصرف تصرفا اسوأ ...

بمثل هذه الاقوال امضى رازوميخين الوقت حتى التقى بزوسيموف الذي كان قد امضى ليلته في مسكن ببراسكولنيكوف في بافلوفنا . لقد جاء هذا يلقي نظرة اخيرة على المريض فأنبأه بانه نائم كحيوان « اللوار » فأوصى زوسيموف ان يُترك في نومه ووعد ان يعود عند الساعة الحادية عشرة تقريبا واضاف :

ـ المهم ان اراه في حجرته عندما اعود ، انه مؤلم ان لا يكـون للطبيب حرية التصرف بالمريض لان شفاءه يصبح معجـزة ، فترى هل تعرف اذا كان عليه أن يذهب اليهما أو انهما ستأتيان اليـه ؟

فأجاب رازوميخين وقد فهم الغاية من هذا السؤال :

ـ لسوف تحضران على ما اظن لانهما ستتحدثان معه عن شؤونهم العائلية ولسوف انسحب انا اما انت فبوصفك طبيبا فان لك ولا شك حقوقا اكثر .

ـ انني لست طبيب الضمائر لذلـــك فسأحضر واتصرف لانني اكتفي بالعناية بالجسد .

قل رازوميخين متجهما :

ـ هناك قضية تزعجني : لقد ذكرت البارحة وانـا في حالـة الثمل ... لقد تحدثت بعدد كبير من الحماقات من بينهـا انك تخاف أن يكون راسكولنيكوف متجها نحو الجنون .

ـ لقد قلت ذلك ايضا للسيدتين مساء البارحة .

ـ انا اعرف انني ارتكبت حماقة كبيرة فاضربني اذا شئت ولكن قل لي هل هذه الفكرة ثابتة في ذهنك ؟

ـ فكرة ثابتة ؟ ويحك ! انك انت بنفسك صورته لي بصـورة المتشائم بل بصورة المهووس عندما استدعيتني لعيادتـه اول مرة . والبارحة عملنا على تعكير مزاجه بل لأقل انك انت الذي سبب ذلـك بأحاديثك وقصصك المتعلقة بذلك الدهـان الذي ألقي عليه القبض متهما بقتل العجوز ... يا له من موضوع مناسب للحديث مع شخص فقد الرشد بسبب مثله ... لو أنني كنت أعرف تماما ما وقـع لـه في دائرة البوليس في ذلك الحين وان احد السفلة وجه اليه اهانة الاشتباه به ... هم ... لما تلفظت البارحة بحديث كالذي سمعته . ان هؤلاء

المهووسين يجعلون من النقطة بحرا حتى ان كل الخيالات تبدو لهم حقائق وعلى قدر ما أذكر فقد أتضحت لي نصف القضيـة من الحديث الذي قصه علي زاميوتوف البارحة ... انني اذكر حالة احد المصابين بهذا المرض وهو رجل في الاربعين من عمره كان لا يستطيع احتمال السخرية التي كان يتفوه فيها طفل في الثامنة من عمره كان معـه على المائدة ، فذبحه ! ولدينا هنا تعس بأسمال باليـة ينهش المرض جسمه يصاب باهانة من قبل شرطي فظ ثم يصبح هدفا لشكوك مريعة . لذلك فأن هوسا من هذا النوع كـان مصدره كرامته المجروحة المهـدوزة وهذا هو ولا شك محور الالم . وعلى فكرة . انك على حـق في ان زاميوتوف شاب لطيف لكنه ، ماذا اقول ؟ لكنه اخطأ في التحـدث بمثل ذلك الحديث البارحة . انها ثرثرة مروعة .

ـ ولكن لمن تحدث بها ؟ أليس لي ولك ؟

ـ بل لبورفير ايضا .

ـ وماذا في الامر اذا تحدث به لبورفير ؟

ـ على فكرة هل لك بعض التأثير على الام والاخت؟ انني افضل ان تكونا متحفظتين في الحديث معه اليوم ؟

فاجاب رازوميخين بشيء من التردد :

ـ سيكون كل شيء على ما يرام .

ـ لست ادري ما الذي يحفظه ضد لوجين ، السيد ذي الغنى ! يبدو انه يروق فيعيني الفتاة. خصوصا وانهما لا تمتلكان نقيرا ام لا؟ أليس كذلك ؟

هتف رازوميخين بصوت غاضب منفعل :

ـ هل يهمك هذا الامر ؟ كيف اعرف اذا كانت تملكان نقيـرا ام لا ؟ سلهما اذا شئت معرفة ذلك ...

ـ كم تبدو سخيفا احيانا ! •• لا شك انك متألم في عواطفك •
الى اللقاء • أشكر عني براسكوفي بافلونا لحسن وفادتها ، لانني القيت عليها تحية الصباح من وراء باب حجرتها اذ انها كانت متحجبة فيها رغم انها كانت مستيقظة منذ الساعة السابعة لكنها لم « تتنازل » بالظهور !•••

كانت الساعة التاسعة تماما حين دخل رازوميخين بناء باكاليييف وكانت السيدتان بأنتظاره على أحر من الجمر فقد نهضنا قبل الساعة السابعة ولبثتا بانتظاره قلقتين • دخل عليهما مربد الوجه وحياهما بارتباك • الامر الذي جعله بعد لحظات يلوم نفسه ويتهمها بألف حماقة لانه ما كان ينتظر اللقاء الذي حصل : فقد هرعت اليه بولشيري الكسندروفنا وامسكت بيديه الاثنتين في يديها ولولا قليل لاكبت عليهما تقبلهما بينما نظر ـ هو ـ الى آفدوتيا رومانوفنا بخجل وخوف فرأى على ذلك الوجه المعتز علامات من الصداقة والاعتراف بالجميل والاحترام العميق حتى انه ذهل تماما وفوجيء بما لم يكن يتوقعه • كان ينتظر أن يكون هدفا لنظرات السخرية والاشمئزاز الواضحة والتي كان قد اعد نفسه لاحتمالها نظرا لشدة خجله ، غير ان مواضيع الحديث كانت كثيرة حتى انه نسي خجله وحنقه على نفسه وعاد على سجيته •

علمت بولشيري الكسندروفنا من رازوميخين بان ابنها لم ينهض من نومه بعد وان كل شيء كان على ما يرام • فاعربت عن ارتياحها للنبأ لانها كانت في حاجة قصوى ، حاجة ملحة للبحث مع رازوميخين حول هذا الموضوع • وفجأة اثيرت مسألة الافطار وعرف من ذلك ان تينك السيدتين قد انتظرتاه حتى تلك الساعة ليشاركهما الطعام ، ولما قرعت افدوتيا رومانوفنا الجرس مثل امامها خادم قذر

فأوصته بتحضير الشاي . وكما قدمه كان من القذارة بحيث يثير التقزز حتى ان السيدتين اشمأزتا منه واثار ذلك حفيظة رازوميخين فراح يحتج بشدة على تلك المعاملة في ذلك المسكن المؤثث غير انه لما تذكر لوجين صمت مكرها وشعر بأرتباك حتى أنه تنفس الصعداء حينما هاجمته بولشيري الكسندروفنا بسيل جارف من الاسئلة .

ـ لبث رازوميخين يتحدث ثلاثة ارباع الساعة مجيبا على اسئلة السيدة واستفساراتها ووفق ـ استنادا الى المعلومات التي يعرفها ـ في ان يسرد على امه واخته الوقائع الرئيسية المهمة التي تتعلق بحياة روديون منذ عام مضى . ثم انهى حديثه بسرد تفاصيل مرضه الاخير وغني عن الذكر انه اغفل عامدا عددا من الوقائع التي اعتبرها غير ذات موضوع ومنها حادثة دائرة البوليس واسباب الاستدعاء وما تم بعدئذ . وكانت السيدتان مصغيتين اليه باقبال وتلهف حتى انه عندما انتهى من حديثه اخطأ عندما ظن انهما قد اروى غليلهما لانه بدا عليهما ان استجوابهما له لما يبدأ بعد !

قالت بولشيري الكسندروفنا بلهفة :

ـ قل لي ... ماذا تفكر يا ... آه عفوا فلست لعرف اسمك حتى الآن !

ـ دميتري بروكوفيتش ؟

ـ حسنا يا دميتري بروكوفيتش اريد ان اعرف كيف ينظر الآن الى الامور بصورة عامة ؟ أقصد وأرجو أن تفهمني ما العمل لافسر لك السؤال او لاحسن تعبيري ماذا يحب وماذا يكره ؟ هل هو دائما سريع الغضب ؟ ما هي رغائبه بل اذا اردت القول ما هي احلامه اذا امكنني طرح مثل هذا السؤال . ما هو العامل الذي يؤثر عليه تأثيرا خاصا ؟ وباختصار اريد ان اعرف ..

فقاطعتها دونيا ملاحظة :

ـ آه يا امي الصغيرة ، كيف يمكن الجواب على هذه الاسئلة دفعة واحـدة ؟

ـ رباه ! ذلك لانني ما كنت انتظر ان اراه على هذه الصورة... كلا ابدا ما كنت انتظر ذلك يا دميتري بروكوفيتش .

فأجاب رازوميخين :

ـ ان ذلك طبيعي ولا شك ! انا شخصيا لم تعد لي ام بل عمة تأتي لزيارتي كل عام وفي كل مرة لا يتوصل الى معرفتي حتى ولا معرفة ظواهري ، مع ذلك فهو رجل ذكي . وأنت قد فارقت روديون منذ ثلاث سنوات وقد مرت خلالها مياه كثيرة تحت الجسور ! ماذا اقول لك ! انني أعرف روديون منذ ثمانية عشر شهرا . انه كئيب شرس متعجرف متكبر . ومنذ هذه الايام الاخيرة ـ ولعله من قبل أيضا ـ اصبح كثير الظنون كثير الهواجس . انه كبير النفس طيب القلب . انه لا يحب التصريح بعواطفه واحساساته بل قد يرتكب اية حماقة او أي عمل خبيث اذا كان ينجيه من الافضاء بمشاعره . مع ذلك فانه ليس دائما مهووسا لكنه بارد الطبع عديم الاحساس احيانا لدرجة التجرد عن انسانيته حتى ليقال ان في جسده عقليتين متناقضتين تظهران على التوالي فهو احيانا شديد الصمت والانطواء فترينه يبرم باي شيء يزعج خلوته رغم انه يكون خلال تلك الخلوة مستلقيا فقط ولا شيء غير ذلك ! وهو لا يميل للدعابة ليس بسبب افتقاره الى البديهة بل يبدو عليه ان وقته لا يتسع لمثل هذه « الحماقات » هو لا يصغي ابدا الى ما يقال له حتى النهاية . انه احيانا يعزف عن اشياء تبدو شديدة الاهمية بل وتثير اهتمام كل الناس . انه شديد الاعتداد بنفسه واعتقد انه على حق في ذلك الاعتداد . ثم ماذا بعد ؟.. اعتقد ان مجيئكما

سوف يكون ذا تأثير ايجابي يسهل شفاءه !

هتفت بولشيري الكسندروفنا التي كانت تشعر بايلام عنيف إثر تلك المعلومات التي راح رازوميخين يسردها على مسامعها :

ــ يا الهي ••• ان شاء الله سيشفيه وجودنا !

واخيرا وجد رازوميخين في نفسه الشجاعة لينظر بصراحة الى وجه افدونيا رومانوفنا • كان ينظر اليها خلال حديثه نظرات سريعة خاطفة ثم يرتد طرفه اليه • كانت تجلس حينا الى المائدة مصغية اليه بانتباه ثم تعود حينا آخر الى ذرع الغرفة على جري عادتها وهي عاقدة ذراعيها متقلصة الشفتين ، ملقية بين فينة وفينة سؤالا دون ان تتوقف او ان تنقطع عن التفكير كان من عادتها هي الاخرى ان تصغي الى ما يقال لها حتى النهاية ! •••

كانت مرتدية ثوبا خفيفا وقد عقدت حول عنقها منديلا ابيض من قماش شفاف • وقد اتيح لرازوميخين ان يلحظ ان تينك السيدتين تعيشان في فقر مدقع بدلالة عديد من الشواهد ! ولو ان افدونيا رومانوفنا كانت رافلة بثياب الملكات لما اقلقه ذلك او افزعه اما الان فقد داهم قلبه خوف حقيقي لعل سببه راجع الى أنها كانت مكتسبة ثيابا تدل على فقرها الشديد وانه قد فهم حقيقة حالها • لذلك فقد كان يخاف اتفه عباراته ويهاب اصغر حركاته الامر الذي زاده ارتباكا وهو الذي لم يكن واثقا من نفسه •

قالت افدونيا رومانوفنا باسمة :

ــ لقد اطلعتنا على عدد من التفاصيل المثيرة المتعلقة بعقلية اخي ولقد تحدثت بنزاهة • حسنا ••• كنت اظن انك حائر في فهمه !

ثم اضافت بعد شيء من التردد :

ــ اعتقد أنه ينبغي أن تكون حوله امرأة ما ! •••

ـ أنا لم أقل ذلك لكن ليس من المستبعد أن تكوني على صواب لو ...

ـ لو ماذا ؟

فأجاب رازوميخين بلهجة حاسمة :

ـ لولا انه لا يحب احدا ولعله لن يحب احدا ابدا .

ـ أيكون عاجزا عن الشعور بالحب ؟

فأجابها فجأة دون ترو :

ـ هل تعرفين يا افدونيا رومانوفنا انك تشبهين اخاك شبها مخيفا في كل شيء ؟ غير انه تذكر فجأة ما قاله عن اخيها واحمر وجهه واضطرب بينما لم تتمالك افدونيا رومانوفنا عن الضحك وهي تنظر اليه . وقالت بولشيري الكسندروفنا منزعجة بعض الشيء .

ـ قد تكونا كلاكما مخطئين في حق روديا . انا لا اتكلم عن الحاضر يا دونيا ... ان ما كتب بير بيتروفيتش في هذه الرسالة وما اعتبرنا ـ انت وانا ـ انه قد لا يكون حقيقيا لن تستطيع ان تتصوريا « دميتري بروكوفيتش » كم هو غريب او ماذا اقول : مفرط في الشطط ! انني لم استطع أبدا أن أطمئن الى عقليته منذ أن كان في الخامسة عشرة من عمره ولا زلت أعتقد أنه قادر على المغامره بما لا يخطر على بال اي آخر من الناس . لن اذهب بعيدا في البحث ... أتدري انه منذ ثمانية عشر شهرا سبب لي عذابا والما كادا ان يوديا لي عندما قرر الزواج من تلك الامرأة ما اسمها ؟... ابنة تلك الـ : زارنيمسين صاحبة البناء الذي يقطن فيه ؟

وسألته افدونيا رومانوفنا :

ـ هل لديك تفاصيل عن هذه القضية ؟

بينما تابعت بولشيري الكسندروفنا تقول :

ـ أتعتقد انه كان سيجد من دموعي وتوسلاتي ومرضي بل ولعل قولي حافزا يرجعه عن عزمه ؟ وان بؤسنا كان سيؤثر فيه ؟ كان قمينا بتخطي كل العقبات كأهدأ ما يكون المرء . لكن هل من الممكن ان يكون لا يحبنا ؟

فأجاب رازوميخين بتحفظ :

ـ لم يحدثني ابدا بشيء عن هذه القضية . غير انني سمعت نتفا من مدام زارنيستين نفسها التي تعبر كذلك ميالة للصمت وما علمته في الحقيقة من اعتبار الامر على شيء من الغرابة !

فسألتا معا :

ـ حسنا ... ماذا علمت ؟

ـ ان ما علمته ليس مهما . انا اعرف ان السيدة « زارنيستين » كانت غير راضية عن هذا الزواج الذي كان امرا مفروغا منه لولا ان موت الخطيبة وحده وقف دون تنفيذه ومن جهة اخرى كان يقال ان العروس المنتظرة لم تكن على شيء من الجمال بل انها كانت كما يؤكدون قبيحة وعليلة ومضحكة غريبة لكنها لم تكن عديمة المزايا محرومة من المواهب والا فان ذلك العزم يكون غير مفهوم خصوصا وانها لم تكن تملك بائنة رغم ان « زوريون » ليس ممن يعلقون اهمية على البائنة . اما كيف تم الاتفاق على ذلك الزواج فان من العسير الحكم عليه ...

فقالت « افدونيا رومانوفنا » ملاحظة :

ـ أنا قانعة بأن تلك الفتاه كانت ذات أهلية وميزان !

وأعقبت بولشيري الكسندروفنا مقررة :

ـ ليغفر لي الله . لكنني سررت لموتها دون ان اعرف أيهما كان سيكون اكثر ايلاما للاخر لو تم ذلك الزواج !

ثم راحت تسأل رازوميخين عن الحادث الذي وقع بين روديا ولوجين امس وكانت لا تفتأ تصوب الى دونيا نظرات خفية ولا تخلو من تحفظ الامر الذي ازعج هذه ازعاجا واضحا .

كان يبدو ان تلك الحادثة تشغل بالها اكثر من كل شيء حتى انها كانت ترعبها وتجعلها تقشعر لهولها . فعاد رازوميخين يسرد عليها القصة بحذافيرها ولكنه اضاف اليها رأيه الشخصي فاتهم راسكولنيكوف بصراحة بأنه أهان بيتروفيتش اهانة مبيتة ولم يلح كثيرا على تبرير فعلته بواقع المرض وقال :

ـ لقد هيأ الامر قبل ان يسقط فريسة المرض !

فقالت بولشيري الكسندروفنا بصوت خافت وقد أدهشها أن يعبر رازوميخين هذا عن رأيه حيال بيير بيتروفيتش بمثل تلك العبارات المتزنة التي يشوبها لون من الاحترام كما ادهش افدونيا رومانوفنا نفسها :

ـ وأنا اظن ذلك ايضا .

ثم اردفت دون ان تستطيع كتم دهشتها :

ـ ذلك اذا هو رأيك عن بيير بيتروفيتش !

فأجاب رازوميخين بلهجة قوية متحمسة :

ـ لا أستطيع أن أكون رأيا آخر عن الزوج المقبل لابنتك . الا انني لا اتحدث بمثل هذا الكلام عن تأدب رخيص بل لانني ... لان ... ماذا اقول ؟ ... يكفي ان افدونيا رومانوفنا قد وقع اختيارها على هذا الرجل ... اذا كنت قد حططت من قيمته امس فلانني كنت ثملا بشكل كريه وكنت كذلك فاقد العقل ... نعم كنت فاقد العقل ... كنت مجنونا تماما واليوم انا في خجل شديد !

واحمر وجهه خجلا وصمت وكذلك كان شأن افدونيا رومانوفنا

ولكنها لم تقطع حبل الصمت • فقد لبثت صامتة لا تنطق بكلمة واحدة منذ ان بحث في امر لوجين !

وكانت بولشيري الكسندروفنا في حالة من التردد الظاهر بعد ان فقدت سندها حيال قضية لوجين • واخيرا صرحت بعد تردد دون ان تنقطع عن ارسال نظرات مستفسرة الى ابنتها ، بأنها في تلك اللحظة مشغولة الفكر بحادثة هامة جدا وشرعت تقول :

ــ اصغ يا دميتري بروكوفيتش ••• سأكون صريحة تماما مع دميتري بروكوفيتش أليس كذلك يا دونيا ؟

فقالت افدوتيا رومانوفنا بلهجة القانعة :

ــ طبعا يا اماه !

فبادرت بولشيري الكسندروفنا تقول وكأن حملا ثقيلا سيزاح عن صدرها بعد اطلاع رازوميخين على احزانها :

ــ هذا هو موجز الامر : لقد تلقينا اليوم في ساعة مبكرة كلمة من بيير بيتروفيتش جوابا على اخطارنا اياه بوصولنا • اعلم انه كان عليه ان يحضر الى المحطة ليستقبلنا كما وعد • لكنه بدلا من حضوره بالذات ارسل لنا خادما ومعه عنوان هذا المسكن ليدلنا على الطريق اما هو ــ بيير بيتروفيتش ــ فقد ابلغنا على لسان الخادم انه سيزورنا اليوم صباحا • وبدلا من مجيئه ، وصلتنا كلمة منه هذا الصباح ••• خذ ••• من الافضل ان تقرأها بنفسك • ان فيها نقطة تشغل بالي كثيرا ولسوف ترى بنفسك تلك النقطة و ••• قل لي بصراحة يا دميتري بروكوفيتش ، انك تعرف عقلية روديا اكثر من اي كان وتستطيع على ذلك ان تسدينا النصح اكثر من اي كان • انني اخطرك بان دونيا قد اتخذت قراراتها منذ اللحظة الاولى لكنني لست ادري الى اي صف يجب ان انحاز وقد كنت انتظرك !

فض رازوميخين الرسالة المؤرخة في اليوم السابق وقرأ فيها ما يأتي :

« حضرة السيدة بولشيري الكسندروفنا العزيزة ، لي الشرف بان اعلم حضرتكم بانه على اثر موانع غير متوقعة ، استحال علي الذهاب للقياكم عند هبوطكم المدينة لذلك فقد أرسلت لهذه الغاية رجلا حاذقا وأراني كذلك محروما من شرف زيارتكم صباحا بسبب أعمال مستعجلة تستوجب وجودي في مجلس الشيوخ ولكي لا اقلق خلوتكم العائلية مع ابنكم وخلوة أفدونيا رومانوفنا مع أخيها . وسيكون لي غدا مساء في تمام الساعة الثامنة شرف زيارتكم والمثول لتقديم احترامي وتمنياتي لكم في مسكنكم . وبهذه المناسبة اسمح لنفسي أن أتوجه اليكم برجاء بل واقول برجاء حار وهو ان لا يكون روديون رومانوفيتش حاضرا اجتماعنا المشترك نظرا لانه اهانني بشكل خشن ودون مسببات خلال الزيارة التي قمت بها اليه اثناء مرضه وانه عندي – علاوة على ذلك – ما اتباحث به معكم حول موضوع معين ارغب معرفة تفسيركم الشخصي له . ولي الشرف بان اخطركم سلفا بانه اذا حصل – رغم طلبي – وقابلت روديون رومانوفيتش فأنني سأجد نفسي مضطرا للانسحاب فورا وسيكون لكم شأنكم ! انني اكتب هذا تلافيا لاحتمال وجوده لان روديون رومانوفيتش الذي كاد يبدو مريضا عند زيارتي له والذي استعاد صحته بعد ساعتين من ذلك ، يمكنه والحالة هذه – طالما انه خرج من حجرته – ان يأتي لزيارتكم . ولقد تأكد لي خروجه شخصيا فقد شهدته في مسكن أحد السكارى الذي دهسته خيول عربة فمات على اثر ذلك وقد اعطى ابنة ذلك الثمل – وهي فتاة مشهود لها بسوء الاخلاق في كل الاوساط – خمسة وعشرين روبلا بحجة دفع تكاليف المأتم الامر الذي ادهشني جدا لعلمي بما كابدتم من عناء حتى جمعتم ذلك المبلغ ... وعلى هذا ، ومع اعرابي عن ميلي

الخاص نحو المحترمة افدونيا رومانوفنا ، أرجوكم ان تتقبلوا توكيدات اخلاصي واحترامي العميق .

خادمكم المتواضع
« ب . لوجين »

ولما فرغ من تلاوتها سألته بولشيري الكسندروفنا وهي على وشك البكاء :

ـ ماذا اعمل الان يا دميتري بروكوفيتش ؟ ما العمل ؟ كيف استطيع ان اطلب الى روديا التخلف عن الحضور ؟ لقد كان البارحة يلح بقوة على فسخ الخطوبة وها انه يطلب الي اليوم ان لا استقبل ابني ! ولسوف يحضر عامدا اذا بلغه الامر ... فماذا سيحدث عندئذ؟

فاجاب رازوميخين بهدوء :

ـ اعملي بما قررته افدونيا رومانوفنا !

ـ رباه ! انها تقول ... الله اعلم بكل ما تقوله دون ان تفسر لي نواياها ... بحسب قولها انه اجدى ، كلا ليس انه اجدى بل انه ينبغي حتما ان يأتي روديا هذا المساء في الساعة الثامنة وان يلتقيا كلاهما !.. أما انا فلم ارغب في اطلاعه على هذه الرسالة ، كنت افضل ان استعمل اللباقة والاستعانة بك لمنعه عن الحضور . لانه سريع الغضب ... ثم انني لست افهم ماذا يعني بذلك «السكير الميت» ولا ادري عن اية فتاة يبحث ولا كيف اعطى تلك الفتاة كل ماله الذي ...

فأضافت أفدونيا رومانوفنا متممة :

ـ الذى سبب لك تدبيره منتهى العناء يا اماه !

فاجاب رازوميخين بصوت حالم !

ـ لم يكن البارحة متمالكا نفسه ! لو انك علمت « اللعبة » التي شرع فيها البارحة في احد المشارب رغم انه انتهى منهـــا على خير ما يرام ... هم ! ... لقد حدثني مساء البارحة بينما كنـــا عائدين الى داره عن ثمل ميت وعن فتاة ... لكنني لم افهم شيئا من حـديثه . والحقيقة انني كنت البارحة ...

ـ الأفضل يا أماه أن تذهبي بنفسك اليـــه ! وهنـــاك اؤكـد لك سنرى على الفور ماذا ينبغي ان نعمل .

ثم القت نظرة على ساعة ذهبية جميلة ذات ميناء لامع معلقة الى سلسلة دقيقه من الذهب من صنع « فينا » تحيط بعنقها ، وهتفت :

ـ رباه ! لقد آزف الوقت ... انها قد تجاوزت العاشرة .

قدر رازوميخين في سره ان تلك الساعة قد تكون « هديـــة الخطوبة » لانها كانت على تناقض فظيع مع الثياب والزينة !

وهتفت بولشيري الكسندروفنا بروع :

ـ آه ... لقد ازف الوقت ... لقد ازف الوقت ! سوف يظن اننا غاضبتان منذ امس ! اذا وجد اننا لم نصل بعد ! آه يا الهي !

كانت قد اخذت « لفحتها » الطويلة فألقتها على كتفيها ووضعت قبعتها على رأسها متعجلة بينما كانت دونيا تعد نفسها كذلك . كانت قفازاتها القديمة مثقوبة ولاحظ رازوميخين ذلك . غير ان الفقر البين الذي كان يبدو على ثيابها كان يعطيهما طابعا خاصا من الكرامة كمـــا يحدث غالبا لاولئك الذين يعرفون كيف يلبسون الثيـــاب الرخيصة . كان رازوميخين يشمل دونيا بنظرة اعجاب ويحس بالكبريـــــاء لمجرد تفكيره في مرافقة تلك الفتاة . كان يفكر : « ان هذه الملكـــــة التي

اضطرت الى رتق جوربها في سجنها لا تبدو اقل روعة وعظمة منها في اجمل ايام مجدها وتتويجها ! » .

هتفت بولشيري الكسندروفنا :

ــ رباه ... هل كان يخطر لي ببال ابدا ان اتهيب لقاء ولدي وعزيزي الاعز روديا كما اتهيب في هذه اللحظة ؟ انني خائفة يا دميتري بروكوفيتش !

فقالت الفتاة وهي تعانقها :

ــ لا تخشي شيئا يا أماه ! اتكلي عليه ! انني أثق به أنا !

فصاحت المسكينة ملتاعة :

ــ رباه وانا ايضا اثق به مع ذلك فانني لم انم الليل كله !

وخرج ثلاثتهم من المنزل ! وتابعت الام :

ــ اتعرفين يا دونيا انني ما كدت اغمض عيني هذا الصباح حتى حلمت فجأة « بمارت بيتروفنا » كانت مرتدية ثيابا بيضاء من رأسها الى قدميها وقد اقتربت مني واخذت بيدي وراحت تهز رأسها وهي ترمقني بنظرات صارمة كما لو كانت توجه الي لوما ... هل هو فأل خير ؟ آه يا الهي يا دميتري بروكوفيتش انك لا تعرف بعد ان « مارت بيتروفنا » قد ماتت !

ــ كلا ... لم اكن اعرف ذلك ! من هي مارت بيتروفنا ؟

ــ لقد ماتت فجأة ... وتصور ان ...

فقاطعتها دونيا قائلة :

ــ فيما بعد يا اماه ! انه لا يعرف من هي تلك الـ : مارت بيتروفنا !

ــ آه ! انك لا تعرفها ... كنت اظن انك على علم بسياق الامر .. اعذرني يا دميتري بروكوفيتش ان عقلي في هذين اليومين مضطرب تماما ! حقيقة انني اعتبرك ملكا سماويا أرسل لمساعدتنا !

ولهذا السبب عملت على ان تطلع على كل مشاكلنا ... انني اعتبرك كواحد من الاسرة فلا تنزعج اذا كنت أتكلم هكذا! • رباه ! ماذا أصاب يدك اليمنى ؟ انها مجروحة !

فاجاب رازوميخين وهو يشعر بالسعادة تغمره :

ـ نعم ... لقد تسببت لها بهذا الالم !

ـ انني اتحدث بصراحة اكثر من المعتاد حتى ان دونيا تنبهني أحيانا ... لكن يا الهي ... أي جحر هذا يقطن فيه ! هل مستيقظ الان ؟ وهذه الامرأة ، صاحبة مسكنه تعتبر ذلك حجرة ! اسمع ... انك تقول بانه لا يحب الافصاح عن مشاعره ولعلني أزعجه بضعفي وتلهفي. ألا تبين لي يا دميتري بروكوفيتش السبيل الذي اسلكه حياله ؟ كيف أعامله ؟ أنت تدري بأنني أسير كالضائعة !

ـ لا تكثري عليه بالاسئلة اذ رأيته يقطب حاجبيه! وعلى الاخص لا تسأليه كثيرا عن صحته ان ذلك يؤذيه !

ـ آه يا دميتري بروكوفيتش ! ان مر[illegible] جدا ! ها وقد وصلنا الى هذا السلم ... السل[illegible]

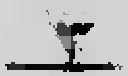
فقالت دونيا وهي تلاطف امها وفي عينيها بريق يضيء وجهها !

ـ أماه انك شاحبة ، هدئي نفسك يا عزيزتي ... انها لسعادة بالنسبة اليه ان يراك مع ذلك فانك تعذبين نفسك !

وقال رازوميخين :

ـ سأرى اولا اذا كان قد استيقظ !

راحت السيدتان تصعدان بهدوء ورازوميخين في المقدمة حتى اذا بلغوا الممشى الذي تطل عليه شقة صاحبة البناء لاحظنا ان بابها موارب وان عينين سوداوين لامعتين ترقبانهما في الظلام • فلما التقت النظرات ، اغلق الباب بعنف شديد حتى ان بولشيري الكسندروفنا كادت ان تلقي صيحة رعب !



هتف زوسيموف بمرح وهو يرى السيدتين :
ــ انه على ما يرام ... على ما يرام !

كان زوسيموف جالسا في المكان الذي جلس فيه أمس : على ركن الديوان ، بينما كان راسكولنيكوف جالسا على الركن الاخر قبالته، في كامل ثيابه وقد اغتسل ورجل شعره بعناية الامر الذي لم يشرع بمثله منذ زمن بعيد ! وامتلات الحجرة فجأة فاستطاعت ناستاسيا ان تتسلل في اثر السيدتين فلبثت هناك لتصغي الى الحديث. كان راسكولنيكوف في حالة حسنة اذا قورنت بحالته امس ــ لكنه كان شاحبا جدا تكسو وجهه مسحة من العبوس والشرود حتى يخيل الى من يراه لاول وهلة انه جريح عانى منذ حين ألما جسمانيا عنيفا . كان شعره منتصبا وشفتاه متقلصتين ونظراته ملتهبة . وبدا قليل الكلام عبوسا وكأنه يعتزم مرغما اداء دور أسند اليه ... وكان لون من الاكتئاب يرافق احيانا حركاته فلم يكن ينقصه في حالته تلك الا عصابة تحيط بذراعه أو رباط من « التافتا » على أصبعه ليتم له التشابه مع رجل مصاب « بدحاس » مؤلم جدا او بجرح في يدد او اي شيء من هذا القبيل .

أضاء وجهه العبوس الشاحب لحظة لدى دخول أمه واخته فأضاف ذلك الضياء على وجهه مسحة من الالم تركزت في الشرود الكئيب الذي كان يلاحظ بوضوح على محياه ! لكن البريق ما لبث أن خبا فورا وبقي الالم وحده حيث كان . ولاحظ زوسيموف الذي كان يسهر على مريضه باتنباه عظيم لا يستطيعه الا الطبيب الشاب ، ان لوناً من العزم الخفي الشاق ارتسم في عيني المريض لدى دخول أمه

واخته وكأنه مقدم على احتمال عذاب جديد ، بدلا من الابتهاج الذي كان ينبغي ان يشعر به عادة في مثل تلك الحال •

كذلك لاحظ اثناء الحديث الذي تبودل بين المريض وذويه ان كل كلمة كانت كفيلة باثارته ونكء جراحه • لكنه دهش بذات الوقت لرؤية مريضه مسيطرا على اعصابه ضابطا عواطفه بينما كان بالامس ــ وهو المريض بالهوس ــ على استعداد طيب للانفعال والغضب لاتفه كلمة !

قال راسكولنيكوف وهو يعانق امه واخته بود ــ الامر الذي تهللت له أسارير بولشيري الكسندروفنا ــ :

ــ نعم ••• انني اشعر الان بانني شفيت تقريبا وست اقول هذا « كأمس » •

ونظر الى رازوميخين وحياه بان ضغط على يده بحرارة قلبية !

شرع زوسيموف يقول وقد ارضاه وصول الزائرين لانه خلال الدقائق العشرة الفائتة استنفذ كل الموضوعات التي يمكنه ان يتحدث بها الى المريض :

ــ لقد دهشت بنفسي عندما وجدته على هذا الحال واذا استمر الامر كذلك اربعة ايام اخرى فسيعود تماما الى سابق عهده كما كان منذ شهر او اثنين او ثلاثه اشهر ايضا • لان هذا المرض الذي يعاني منه ، كان كامنا فيه منذ زمن بعيد !

ثم اضاف مبتسما ابتسامة متحفظه كما لو كان يخشى اثارة المريض :

ــ ألا توافقني على انك ساهمت في زيادة مرضك بخطئك ؟

فأجاب راسكولنيكوف ببرود :

— يجوز ان يكون كذلك !

وتابع زوسيموف حديثه فقال :

— اقول ذلك لان شفاءك حاليا بات الجانب الاوفى منه متوقفا على تصرفك الشخصي . وبما ان الحديث قد اصبح ممكنا معك الان فانني اود ان الفت نظرك الى ضرورة معاينة الاسباب المبدئية او على الاصح الاسباب الموجبة التي سببت حالتك المرضية وعندئذ ستشفى والا فان المرض سيكون باطراد وازدياد ! اما ما هي تلك الاسباب الاولية فذلك ما أجهله لكنك تعرفها تماما . ولا أشك — وأنت الذكي — في انك لاحظت نفسك ودرست حالتك . وانني اظن بان بداية مرضك تتفق مع خروجك من الجامعة لذلك لا يجب ان تظل دون عمل يشغلك وسيكون للعمل الذي يهدف الى غاية معينة موضوعة شأن بعيد في شفائك .

— نعم ... نعم ... انك على حق تماما .. ولسوف اعود بأسرع ما يمكن الى الجامعة وعندئذ يسير كل شيء على ما يرام تماما كما لو كان على عجلات ... !

كان زوسيموف يهدف من وراء القاء ذلك النصح الحكيم الى احداث بعض الاثر في نفس السيدتين . لذلك فانه دهش حينما لاحظ على وجه محدثه عندما رفع بصره اليه لونا من السخرية الواضحة لم يدم الا لحظة ! . اما بولشيري الكسندروفنا فقد راحت تشكر زوسيموف بصوره خاصه على زيارته التي قام بها الى مسكنهما مساء أمس ، فسأل راسكولنيكوف مكتئبا :

— هل ذهبت اليكما البارحة ؟ انكما اذا لم تناما رغم سفركما الطويل !

— آه يا روديا ... لقد وقع كل ذلك قبل الساعة الثانية وانتما

ـ دونيا وأنا ـ لا تنام قبل هذه الساعة من كل ليلة .

فأردف راسكولنيكوف وقد عاد فجأة الى عبوسه واطرق برأسه الـى الارض :

ـ وأنا أيضا لست أدري كيف أشكرك . لأننا اذا أسقطنا من حسابنا قضية الاجر ـ واسمح لي ان ألمح الى هذا ـ فانني لست ادري كيف استحق كل هذه العناية من جانبك ... في الحقيقة انني لا افهم بـل وانه ليؤلمني ان اجهل سبب هذه العناية لذلك تراني احدثك بصراحة !

فاجاب زوسيموف بابتسامة مغتصبة :

هيا ... لا تثر نفسك ! لك ان تفترض انك اول عميـل مـن عملائي ! ثم ان الطبيب لما يكون في بدء حياته العملية فانه « يدلل » زبائنه الاول وكأنهم ابناؤه بل انه قد يعجب احيانا باحدهم وانا كمـا تعلم لم تفسدني كثرة الزبائن !

ـ كذلك أتحدث عن هذا ـ واشار برأسه الى رازوميخيـن ـ رغم انه لم يلق مني الا المشاكل والسباب !

فهتف رازوميخين قائلا :

ـ لعمري انها حماقات جديدة ! ارى انك اليـوم ترزح تحت عبء الاحساسات العاطفية !

ولو ان رازوميخين كان اكثر دقة وحذقـا لعرف ان صديقه لم يكن ابدا تحت تأثير الاحاسيس العاطفية بل على العكس . غير ان هذه الملاحظة التي غابت عنه لم تفلت من « افدوتيا رومانوفنا » التي ترقب اخاهـا بقلـق !

اردف راسكولنيكوف وكأنه يستظهر درسا حفظه ذلك الصباح:

ـ انني لا اكاد اجرأ على التحدث عنك يا اماه ! لقد فهمت اليوم

مبلغ العذاب الذي سببته لك بانتظار عودتي •

ومد يده فجأة الى اخته بسكون دون ان ينطق بحرف واحد • وكانت ابتسامته في تلك اللحظة معبرة عن شعور مخلص • فبادرت دونيا الى يد اخيها الممدودة وضغطت عليها بحرارة وسرور واعتراف بالجميل • كانت تلك المرة الاولى التي توجه بها الى اخته بالحديث منذ تنافرهما امس • فطفح وجه الام بالسعادة وهي ترى ذلك الوفاق الصامت النهائي بين الاخت واخيها •

وهمس رازوميخين وهو يتحرك بعنف على مقعده وكله استعداد للاسترسال :

ـ آه ! هذا ما احبه فيه ! ان لديه من هذه الحركات المؤنسة ••• !

بينما كانت الام تناجي نفسها قائلة :

ـ ويا لها من حركة موفقة جميلة ! يا له من تصرف نبيل ! انه بذلك قد وضع بلباقة حدا لسوء التفاهم الذي نشب بينه وبين أخته بتلك اليد التي مدها اليها في هذه اللحظة ! ولقد نظر اليها محدقا ••• يا لهما من عينين جميلتين ••• بل كم ان وجهه جميل ! انه أفضل من دونيا في مجموع شخصه ! لكن يا الهي ••• يا له من ثوب ذلك الذي يرتديه ! انه بشع ••• ان اجير اتاناس ايفانوفيتش احسن ثيابا منه ! آه ••• كم اتوق الى الارتماء على عنقه وتقبيله والبكاء من الفرح ! لكنني أخاف ••• انه مختلف تماما عما عهدته ••• رباه ! مع ذلك فهو يتكلم بحنان لكنني خائفة ! رباه لم انا خائفة !

وفجأة هتفت تجيب على ملاحظة ابنها :

ـ آه يا روديا ! لا يمكن ان تتصور حالنا انا ودونيا ! كنا تعيستين ! أما الان وقد انتهى كل شيء وانتهى تماما وعدنا سعداء من جديد فانني استطيع ان احدثك بالخبر ! تصور اننا فور مبارحتنا

للحافلة هرعنا الى هنا لنعانقك فاذا بتلك المرأة تخبرنا ـ آه ... هذا أنت ... يا مرحبا يا ناستاسيا ـ اقول فاذا بهذه المرأة تخبرنا بانـك كنت مريضا بالحمى الساخنة وانك قد فررت من عناية الطبيب وانت في بحرانك وانهم يبحثون عنك في الشارع وفي كل مكان !.. لـن تستطيع تصور ما سبب لنا هذا الخبر ! لقد تصورت فورا موت الملازم الاول بوتانتشيكوف وهو من معارفنا القدماء ومـن اصدقاء أبيك. انك لا تذكره يا روديا ! ان ذلك الملازم المسكين كـان كذلك مصابـا بالحمى الساخنة وكان قد خرج الى الباحة حيث سقط في الجب ولـم ينتشل منه الا غداة اليوم التالي . لا شك اننا نبالغ في تصوير خطورة حالتك ! ولقد فكرنا في استدعاء بيير بيتروفيتش باسرع مـا يمكن لينجدنا لانك تعرف باننا وحيدتان ... وحيدتان تماما !..

لفظت الام هذه الاقوال بصوت منتحب ضعيف. غير انها تذكرت فجأة ان موضوع بيير بيتروفيتش كان موضوعـا خطرا لا يجـدر الاسترسال فيه رغم انهم كانوا « جميعا في تلك اللحظة بسعادة تامة » لذلك فقد توقفت فجأة عن متابعة حديثها . بينما غمغم راسكولنيكوف مجيبا وقد علا وجهه الشرود والذهول حتى ان دونيـا نظرت اليـه بحيرة بالغـة .

قـال :

ـ نعم ... نعم ... ان ذلك كله لا يدعـو للاسف ولا شك ! آه ! ماذا كنت اريد ان اقول كذلك ؟

وابدى مجهودا كبيرا لجمع شتات ذكرياته ثم اضاف :

ـ آه ... نعم ... ارجو يا اماه وانت يا دونيـا ان لا يذهب بكما الظن الى انني لم اكن مصمما على زيارتكما اليوم قبل الاخرين فتعتقدان بانني كنت انتظر مجيئكما اولا ..

فهتفت بولشيري الكسندروفنا دهشة :

ـ لكن يا روديا ! لم تقول ذلك ؟

بينما راحت دونيا تفكر وتناجي نفسها بقولها : « هل يعتقد انه مرغم على الاجابة على اسئلتنا ؟ انه يتصنع السلام ويطلب الصفح وكأنه يقوم بسخرة او يستذكر درسا •• » !

وعاد راسكولنيكوف يقول :

ـ انني لم اكد استيقظ حتى عزمت على الذهـــاب اليكما لكن موضوع الثياب اعاقني • لانني كنت قد نسيت ان اطلب الى ناستاسيا البارحة أن تغسل هذا الدم ••• ولقد غسلته اليوم ولما أكد انتهي من ارتداء ملابسي •

سألت بولشيري الكسندروفنا مذعورة :

ـ الدم ؟ اي دم ؟

ـ لا شيء يا اماه فلا تقلقي ! ان هذا الدم جاءني البارحة بينمـــا كنت اسير شارد الفكر وانا في بحراني اذ اصطدمت بشخص جريح•• انـــه موظف !

فقاطعه رازوميخين قائلا :

ـ في بحرانك ؟ ولكنك تتذكر كل شيء !

فاجابه راسكولنيكوف بصوت يتضح فيه القلق :

ـ صحيح انني اذكر كل شيء بأدق تفاصيله • ولكن لـــم عملت هذا ؟ لم ذهبت الى هناك ؟ لم قلت كذا ؟ انني لا استطيع تفسير السبب بوضـــــوح !

فتدخل زوسيموف وقال :

ـ ان هذه الحالة معروفة تماما • ان هذه التصرفات تنجز عادة

يشكل شخصي وببراعة مدهشة أما عن سببها وأما عن مبدئهـا فانه يبدو غريبا ويتوقف على عدد من الاحاسيس المرضية تشبه الحلم !

بينما كان راسكولنيكوف يحدث نفسه قائلا : « انني لمجدود اذ يعتبرونني مجنونا او على وشك الجنون » !

والمحت دونيا وهي تنظر الى الطبيب بشيء من الكآبة :

ـ ألا تكون الحال كذلك بالنسبة للاشخاص المالكين قواهـم وصحتهـم ؟

فأجابهـا :

ـ ان ملاحظتك لا تخلو من الدقة لاننا جميعا تقريبـا نكون غالبا مرضى بعقلنا مع الفارق الباقي بأن المرضى هم أشد مرضـا منا وهذا ما لا يمكن التغاضي عن ملاحظته في هذا الموضوع • ولا يمكن ايجاد رجل واحد موزون تماما الا بين عشرات او مئات الالوف من الرجال• مع ذلك ليس هذا الواحد موجودا دائما •

وازاء كلمة « منحرف العقل » التي تلفظ بها زوسيموف وهـو يثرثر في موضوعه المفضل ، ـ وقد أفلتت منه دون روية ـ اكفهرت الوجوه • وكان راسكولنيكوف جالسا وغارقا في تفكير عميق حتى ليبدو انه لا يلقي بالا الى ما حوله وقد علت شفتيه ابتسامـة غريبة باهتة • كان مستغرقا في مناجاة نفسه !

وهتف رازوميخين مبادرا :

ـ لقد قاطعتك في حديثك••• ماذا وقع لذلك الرجل المدهوس؟

فأجاب راسكولنيكوف وكأنه استفاق من حلم :

ـ ماذا ؟ آه نعم ! لقد ساعدت على نقله الى مسكنه ملوثت بالدم • وعلى فكرة يا اماه ! لقد عملت البارحة أمرا انني لم اكن مالكا لقواي العقلية ! لقد اعطيت البارحة كل المال الـذي

أرسلتيه الي الى زوجته لتنفق على دفنه • ان المرأة المسكينة قد ترملت وهي مصدورة ولها ثلاثة اولاد صغار جياع ولا شيء في منزلهم • ولها ايضا ابنة ••• لعلك انت بنفسك كنت ستعطين ذلك المال اليهم لو علمت بالامر ••• على كل حال لم يكن لي اي حق في ان اعمل ما عملت وانني اعترف بذلك خصوصا وانني اعرف مبلغ ما احتملت من عناء لتدبير ذلك المبلغ ! اذ انه لكي يساعد المرء آخر ينبغي قبل كل شيء أن يكون له الحق والا : « موتوا أيها الكلاب اذا كنتم غير راضين ! » (١)

ثم ابتسم واضاف :

ـ أليس كذلك يا دونيا ؟

فأجابت هذه بلهجة جدية :

ـ كلا انه ليس كذلك !

فتمتم وهو ينظر اليها بشيء من الضغينة تقريبا وقد ابتسم ابتسامه هادئه :

ـ باه ••• ها ها ! انت ايضا ••• لديك بعض النوايا •• كان يجب ان أتوقع ذلك •• حسنا ••• ان ذلك يرفع من شأنك وذلك افضل ••• وعلى هذا انك ستمضين في عزمك الى حد ما •• اذا لم تتخطيه فانت تعيسة واذا تخطيته لعلك تصبحين بالمثل تعيسة !

ثم ثار وقد اسف ان استسلم لانفعاله وعواطفه وقال بلهجة جافة مضطربـه :

ـ كنت اريد ان اقول فقط بانني اطلب صفحك يا اماه •••

فقالت الام تغمرها السعادة :

---

(١) ان هذا النص موجود باللغة الفرنسية في النص الروسي •

ـ دعك من هذا يا روديا أنا واثقة من أن كل ما تعمله ان هو الا افضل ما يعمل !

فأجابها وهو يبتسم ابتسامة باهتة :

ـ لا تكوني مطلقة الثقة بهذا الصدد !

وأعقب ذلك صمت ... كانت المحادثة كلها واضحة الهدف كذلك الحال في ذلك التفاهم الصامت وطلب الصفح . كان الموجودون يشعرون بان المحادثة لم تبلغ هدفها . وكان راسكولنيكوف يخاطب نفسه بقوله : « يعتقد انهم يخافونني حقيقة » وينظر الى امه واخته نظرات مختلسة . والحقيقة ان بولشيري .. الكسندروفنا كلما امعنت في الصمت كلما كانت تبدو أشد خوفا وهلعا وخطرت له فكرة فغمغم يناجي نفسه قائلا : « يمكن القول انني كنت احبهم غيابيا » !

صاحت بولشيري الكسندروفنا وهي تنهض من مكانها بانفعال :

ـ هل تعرف يا روديا ؟ لقد ماتت مارت بيتروفنا !

ـ اية مارت بيتروفنا ؟

ـ آه يا الهي مارت بيتروفنا السيدة سفيدريكايلوف ، لقد حدثتك عنها مطولا في رسالتي الاخيرة !

ـ آه ... آه ... نعم لقد تذكرت .. اذن لقد ماتت !

ثم اضاف بعد ان انتفض فجأة وكأنه استيقظ من غفلته :

ـ صحيح هل يعقل أن تكون ماتت ؟ مِمَ ماتت ؟

وشجع فضوله بولشيري الكسندروفنا فقالت مسترسلة :

ـ تصور انها ماتت ميتة مفاجئة ! تماما في ذلك اليوم الذي ارسلت لك فيه رسالتي الاخيرة ... تصور ذلك الرجل المخيف ، انه على ما يبدو كان سبب موتها !

يقال انه كان يضربها بوحشية !

فسأل اخته قائلا :

ـ هل كانا يعيشان هكذا ؟

ـ كلا على العكس كـان يظهر ازاءها بمظهر الصبـور المهـذب واحيانا كان كثير التسامح حيال عقلية زوجته . ولقد استمـر هـذا الحال سبع سنين لعله أخيرا فقد الصبر !

ـ انه اذن لم يكن مخيفا بهذه الصورة طالما ان الامر دام سبـع سنين ؟ يبدو يا دونيا انك تعذرينه !

ـ كلا انه شخص كريه بغيض حتى انني لا استطيـع أن أتصـور مخلوقا اكثر بغضا منه !

نطقت دونيا بهذه الجملة وهي مضطربة ولم تلبث أن قطبت حاجبيها واستغرقت في تفكير عميق ! بينما بادرت بولشيري الكسندروفنا تتمم حديثها قـائلة :

ـ لقد وقع لهما ذلك في صبيحة ذلك اليوم وبعـــده امرت ان تجهز عربتها لتذهب الى المدينة بعد الطعام كما كانت عادتها في مثـل تلك الاحوال . ثم تناولت طعامها بشهية زائدة كما قيل !

ـ شهية زائدة بعد « علقة » ساخنة !

انها عادة عندها ! وبعد ان انتهت من طعامها ذهبت فورا لتأخـذ حماما كي لا تؤخر رحلتها . انك تلاحظ انها كانت تعنى بنفسـها كثيرا بالاغتسال . ان لديهم نبعا من الماء البارد كانوا يغتسلون فيه يوميا . لكنها في ذلك اليوم لم تكد تدخـــل في الماء حتى صعقت بالسكتة القلبيـــة !

فقال زوسيموف :

ـ ان ذلك لا يدهش مطلقا !

ـ وهل ضربها بعنف ؟

فقالت دونيـــا :

ان هذا عديم الاهمية !

وفجأة قال راسكولنيكوف بعد ان تتحنح قليلا وبدا الانفعـال على صوتـــه :

ــ هم ! ... ما فائدة نقل مثل هذه الاقاصيص ؟...

فأجابته المسكينة ببساطة :

ــ ذلك لانني يا عزيزي ما كنت اعرفه عمّ اتحدث !

فقال بابتسامة عريضة :

ــ ماذا ؟ هل تخافون مني كلكم ؟ حتى انتم !

فقالت دونيا وهي تنظر في عينيه بصرامة :

ــ الواقع انه كذلك . ان امي كانت وهي تصعد السلم لا تفتأ ترسم اشارة الصليب لشدة رعبها !

فتقلص وجه الشاب كما لو كان فريسة للتشنجات العصبية بينما تمتمت بولشيري الكسندروفنا باضطراب :

ــ آه .. ماذا تقولين يا دونيا ؟ لا تغضب ارجوك يا روديـا ! لم قلت هذا يا دونيا ؟ آه يا روديا انني وأنا في القطـار في طريقي الى هنا كنت احدث نفسي باننا سنجد اشياء كثيرة نتحدث بها الى بعضنا عندما نلتقي . وكنت شديدة السعادة حتى انني لـم أشعر بمسافـة الطريق ... انني سعيدة الان أيضا ... ألست على حق يـا دونيا ... انني سعيدة يا روديا ومجرد رؤيتك تكفي لكي اكون سعيدة !

فغمغم مضطربا :

ــ كفى يا امـاه !

ودون ان ينظر اليها ضغط على يدها وقال :

ــ سيكون لنا الوقت لنتحدث !

لم يكد ينطق بهذه الكلمات حتى شحب لونـه واضطرب وشعر من جديد بذلك الاحساس المريع تلك البرودة القاتلة تكتسح نفسه . وقد شعر من جديد بانه نطق منذ حين بكذبة بشعة مخيفة ! ليس لانه لن يجد مستقبلا مجالا للتحدث بصراحه كما قال لانه لن يستطيع أبدا ان «يتكلم» عن أي شيء ومع أي كان! وكان لتأثير هذه الفكرة الاليمة أثر عنيفا حتى أنه كاد أن ينسى نفسه تماما، فنهض من مكانه ومضى نحو الباب دون ان ينظر الى احـد ! فهتف رازوميخيـن وهـو يقبض على ذراعـه :

ــ ماذا تعمـل ؟

فعاد الى مكانه وراح ينظر حوله بسكون ! كان الجميع ينظرون اليه مأخوذين ! هتف فجأة :

ــ آه ... انكم مملون جميعكم ... قولوا لي شيئا ! لم تلبثون هكذا ؟ هيا تحدثوا سوف نتحدث ... لقد اجتمعنا ومع ذلك فلا نقول شيئا ... هيا قولوا شيئا على الاقل ...

فقالت بولشيري الكسندروفنا وهـي ترسم اشـارة الصليب على صدرها :

ــ حمدا لله ؟ لقد ظننت أن ما حدث البارحة سيتكرر اليوم !

وسألت افدونيا رومانوفنا بشيء من التحفظ :

ــ ماذا بك يا روديـا ؟

فأجـاب :

ــ لا شيء ... لقد تذكرت حماقة ! ثم انفجر ضاحكا فجأة !

غمغم زوسيموف بعد ان نهض واقفا :

ــ حسنا اذا كانت حماقة فانهـا أفضـل لانني كنت على وشك الافتراض ... وعليـه ... انني يجب ان اذهب ولعلني اعـود

اذا وجدتـــك !

ثم حيا وخرج فقالت بولشيري الكسندروفنا ملاحظة :

ــ يا له من رجل ممتاز !

فأمن راسكولنيكوف على قولها فجأة بلهجة حماسية لم تكـن معهودة فيـه :

ــ نعم انه رجل كريم ممتاز مثقف مهذب ذكي ! لم اعد اذكـر اين قابلته قبل مرضي ... اعتقد بانني قابلته في مكان ما ...

ثم اشار الى رازوميخين واضاف وهو يوجـه الحـديث الى اختـه مبتسما :

ــ وهذا ايضا رجل ممتاز ! هل يروق لك يا دونيا ؟

فأجابت هـذه :

ــ جدا .

فاحمر وجه رازوميخين من الخجل وهتف وهو ينهض من مكانه بانفعـال :

ــ يواه ! .... يا لله ...

فضحكت بولشيري الكسنـدروفنا بهـدوء بينمـا انفجر راسكولنيكوف بضحكة صاخبة !

ــ الى اين تذهب يا رازوميخين ؟ ..

ــ انني مشغول انا الاخر !..

ــ بل انك غير مشغول فابق ! الان زوسيموف قد ذهب صـار ينبغي لك ان تذهب ؟ كلا لا تذهب ! لكن كم الساعـة الان ؟ أهـو الظهر ؟.. آه ما اجمل هذه الساعة يا دونيا ! لم انتم صامتـون ؟ انني وحدي اتكلم بينكم !

فقالت دونيا مشيرة الى الساعة :

ـ انها هديـة من مارت بيتروفنا !
واضافت بولشيري الكسندروفنا :
ـ انهـا ثمينة جـدا !
ـ آه ! آه ! انها اكبر حجما مما ينبغي ان تكون عليه ساعـة سيـدة !

فصرخت دونيا قائلة :
ـ انني احب هذا الشكل !
بينما راح رازوميخين يحدث نفسه وقد استبد به سرور لا يعرف لـه سببـا :
ـ « انها ليست اذن هدية من خطيبها ! »
وألح راسكولنيكوف قائلا :
ـ كنت اعتقد انها هدية من لوجين !
ـ كلا ... انه لم يقدم بعد أية هدية الى دونيا !

وقال لامه فجأة بصوت ينم عن الالم والعذاب حتى انها تأثرت للهجته تأثيرا كبيرا :
ـ آه أتذكرين يا اماه انني كنت عاشقا أنـا الاخر وانني كنت سأتـزوج !

فقالت بولشيري الكسندروفنا وهي تتبـادل نظرة مع دونيـا ورازوميخين :
ـ آه يا صديقي ! نعم اذكر !
ـ هم ! ... نعم لكن ماذا كنت اقص عليكم ؟ انني لا اذكر حتى هذا ... ثم استعاد لهجته الحالمة وتابع وهـو مطرق الرأس بعينيه المتـألمتين :
ـ كانت فتاة قريسة المرض تحب الاحسـان الى المعـوزين ولا

تفكر الا في الدير ! وذات يوم انخرطت في البكاء وهي تتحدث عن هذه الاشياء ! نعم . نعم ... انني اذكر ذلك انني اذكر تماما ... لقد كانت تميل في شكلها الى القباحة . ولست ادري حقيقة لم تعلقت بها في ذلك الحين واظن ان بسبب مرضها الدائم . حتى انني اعتقد بأنني كنت سأزداد حبا لها ولو انها كانت عرجاء أو محدودبة الظهر ... ثم ابتسم ابتسامة ساهمة وأردف :

ـ ان هذا يشبه هذيان الربيع ...

فقالت دونيا بانفعال :

كلا ... ان ذلك لم يكن يشبه هذيان الربيع فحسب ...

فنظر باتنباه الى اخته متضايقا .. لكنه لم يسمع كلماتها او انه لم يفهمها ... ثم نهض وهو في اعمق الشرود واقترب من امه فعانقها وعاد الى جلسته !

قالت بولشيري الكسندروفنا بحنان !

ـ انك لا زلت تحبها الى الان !

ـ من ؟ الان ؟ آه نعم ... انك تتحدثين عنها ! كلا ! كل شيء قد غدا الان في العالم الآخر بالنسبة الي ... انه شيء عريق في القدم! وكل ما يحيط بي يبدو وكأنه يقع في مكان آخر غير هذا المكان !

ونظر اليهم بانتباه شديد وقال مسترسلا :

ـ خذي مثلا ... انت ! انني انظر اليك كما لو كنت على بعد الف مرحلة ! لكن الشيطان يعرف لم تتحدث عن كل هذا ! ...

ثم اضاف بشيء من التحدي :

ـ لكن لم تسألينني ؟ ...

وصمت فجأة وراح يقرض أظافره بأسنانه وقد استغرق في تأملاته من جديد !

قالت بولشيري الكسندروفنا لتقطع الصمت الذي ران عليهم :

ـ يا له من مسكن لعين يا روديا ! قبر حقيقي ! أنا واثقة من ان نظيرك يدين بنصف مسبباته الى هذا المسكن !

فعاد يقول بشرود :

ـ مسكني ؟ آه نعم انه لذو اثر بعيد فيما تذكرين ! ولقد فكرت بذلك بنفسي لكنك لو تعلمين قد اعربت عن فكرة غريبة جدا يا اماه !

قال ذلك وهو يتصنع ضحكة غريبة . كاد لو لا قليل ان يشعر بان هذا الاجتماع وهاتين القريبتين يراهما بعد فراق ثلاث سنوات واللهجة البنوية التي تصطبغ بها هذه المحادثة لعدم وجود حديث عام يتلهون به ، كاد ان يشعر بأن هذا كله بات لا يحتمل . لكنه كان يعرف ان هناك امرا مستعجلا ينبغي ان ينتهي منه بشكل من الاشكال ! لقد فكر في الامر واتخذ اهبته منذ الصباح عندما استيقظ وقد ابتهج لان تلك « القضية » قد خطرت على باله فبدت وكأنها وسيلة صالحة للافلات من هذا الجو الثقيل !

قال مبتدئا حديثه بلهجة خافتة صارمة :

ـ اليك الامر الذي أفكر فيه يا دونيا ! بالطبع انني أعتذر اليك عما وقع البارحة لكنني اعتقد ان من واجبي ان اذكرك بانني لن ابدل خطة مسيري في صددها . فأما انا واما لوجين . انني قد اكون انسانا مكروها بغيضا لكنك لا ينبغي ان تكوني كذلك . يكفي انسان واحد من هذا القبيل ! فاذا تزوجت من لوجين فانني سأكف على الفور عن اعتبارك اختا لي !

هتفت بولشيري الكسندروفنا بصوت يائس كئيب :

ـ روديا ! روديا ! ها قد عدنا الى فصل البارحة بالذات ! لم تصف نفسك دائما بالشخص البغيض الكريه ؟ لا استطيع احتمال ذلك ...

البارحة ايضا تصرفت على هذا النحو ! ..

وقالت دونيا بلهجة ثابتة رصينة وصوت ليس اقل جفاء من صوت اخيها :

ـ اخي ! ان كل هذه مرده خطيئة من قبلك ! وقد فكرت في الامر البارحة واكتشفت موضع الخطأ ! ان كل ذلك مبعثه انك تعتقد ـ على ما يبدو لي ـ بانني اضحي بنفسي في سبيل شخص ما . والأمر عكس ذلك تماما فأنا أتزوج بكل بساطة لانني لا استطيع العيش وحيدة دون عناء كبير وانه من البديهي ان اكون اذا استطعت ان اكون بعد ذلك مفيدة لذوي لكن قراري لم يكن قائما على هذا السبب ومن اجله !

غمغم راسكولنيكوف يحدث نفسه : « انها تكذب ! يا للمتكبرة! انها لا تريد الاعتراف بانها تقوم بدور المحسنة في هذه القضية ! آه من العقليات المنحطة انها تحب كما لو كانت تكره ! كم اشمئز من هذه العقليات وامقتها ! »

واسترسلت دونيا تقول :

ـ وباختصار انني أتزوج بيير بينروفيتش لانني أفضل أخف الضررين !

وانا على استعداد لتنفيذ كل ما ينتظره مني بكل امانة لذلك فانني لا اخدعه !

لم تضحك ؟

كان وجه دونيا قد اصطبغ بلون الاقحوان وكانت عيناها تلتمعان من الغضب .

سأل راسكولنيكوف وهو يضحك ضحكة مسمومة :

ـ اذن ، ستنفذين كل شيء !

ـ الى حد ما ! ان الطريقة والاسلوب الذي تبعهما بيير بيتروفيتش لخطوبته دلتاني على ما يريد ! صحيح انه يقدر نفسه تقـديرا كبيرا لكنني اعتقد بانه سوف يقدرني كذلك ... لماذا تضحك ايضا ؟

ـ وانت لماذا تتلونين من جديد ؟ انت تكذبين يا اختـاه ، انك تكذبين حسب خطة مرسومة ولمجرد عناد نسائي ! انك ترتبين الاشياء أمامي على طريقتك . انك لن تستطيعي الميل الى لوجين . لقـد رأيته وتحدثت اليه وعلى ذلك فانك تبيعين نفسك لقاء بعض المـال واذن فانك تتصرفين تصرفا مرذولا وانه ليسعدني ان تكـوني على الاقـل لا زلت تحسنين الاحمرار من الخجل .

صاحت دونيا بانفعال غاضبة :

ـ ان هذا غير صحيح ، انني لا اكذب ! لن اتزوجـه قبل ان اقتنع بانه يقدرني ويتمسك بي . لن اتزوجه قبل ان اتأكد بجلاء بانني استطيع ان اميل اليه ولحسن الحظ لسوف استطيع قطع الشك باليقين اليوم بالذات . ان هذا الزواج ليس فضيحة كما تدعي ولكن لنفرض جدلا انك على صواب وانني كنت مصممة على ارتكاب مثل هذه الفضيحـة الا تكون قسوة من قبلك اذ تحدثني بهذا الشكل ؟ لـم تتطلب مني بطولة ، لعلك لا تستطيع القيام بمثلها ان هذا لاستبداد انـه لقـوة . وانني اذا كنت اسبب تعاسة لكائن ما فانني ساكون انا ذلك الكائن . انني لم اقتل انسانا بعد ... ما بك تنظر الي ؟ لماذا اشتـد شحوبـك الى هذا الحد ؟ روديا ماذا بك ؟ روديا عزيزي ؟ ..

صرخت بولشيري الكسندروفنا :

ـ رباه ! لقد دفعت به الى اقصى الاحتمال ... الى الاغماء .

ـ كلا كلا ... يا للحماقة ... انه لا شيء .. لقـد شعرت بدوار بسيط في رأسي انه ليس اغماء . انكـم لا تفكرون الا في

الاغماءات ••• هم ! نعم ••• ماذا كنت اريد ان اقول ؟ نعـم : كيف تستطيعين قطع الشك اليوم ومعرفة ما اذا كنت ستحبينه وكـان ••• سيحبك • أليس هذا ما كنت تتحدثين به ؟ لقد قلت على ما اظن اليوم ام تراني اسأت السمع ؟ •

فقالت دونيـا :

ــ اعطيه كتاب بيير بيتروفيتش يا اماه •

مدت بولشيري الكسندروفنا الرسالة الى ابنها بيـد مرتعشـة فأخذها بفضول زائد لكنه قبل ان يفضها حملق في وجه دونيا بدهشة وقال ببطء كمن خطرت بباله فكرة جديدة :

ــ غريب انني اتساءل لم انفعل ! لم كل هذا الاحتجاج ! تزوجي بمـن تشائين •

نطق بهذه الكلمات وكأنه يخاطب نفسه غير انه تفوه بها بصوت مرتفع حتى انه استمر لحظة طويلة ينظر الى اخته مرتبكا • واخيرا فض الرسالة وعلى وجهه مسحة من الدهشة والاستغراب وراح يقرأها بعناية ويعيد تلاوتها وكانت بولشيري الكسندروفنا في قلق مقيـم حتى ان جميع الحاضرين كانوا يتوقعون انفجارا مفاجئا • وبعد لحظة تأمـل شرع راسكولنيكوف يقول وهو يعيد الرسالة الى امه :

ــ انه مدهش ! انه محام وله عملاؤه وحديثه نفسه على شيء من التصنع مع ذلك فانه يكتب كالأميين !

فسرت همهمة عامة واستغراب لأن أحدا لم يكن يتوقـع هـذا منه • واعترض رازوميخين بلهجة حاسمة يقول :

ــ انهم جميعا يكتبون على هذا المنوال !

ــ هل قرأت الرسالـة ؟

ــ نعم !

فقالت بولشيري الكسندروفنا مفسرة وقد علا وجهها الخجل :

ـ لقد اطلعناه عليها يا روديا ••• لقد ••• سألنـــاه النصـح منذ قليـل ••

فقاطعها رازوميخين قائلا :

ـ انه انشاء قضائي ! هكـذا يحررون حتى الان المعامـــلات القضـــائية !

ـ نعم قضائي ! قضائي بالضبط • انشاء رجال القانون ! انه ليس انشاء الاميين تماما لكنه ليس كذلك انشاء ادبيا ، انـه كتابة رجـل اعمـــال !

فقالت افدونيا رومانوفنا ملاحظة قد آلمتها لهجة اخيها في الحديث:

ـ ان بيير بيتروفيتش لا يخفي انه تلقى ثقافة قليلة بل انه يفخر لانه شق طريقه لوحده •

ـ حسنا انه اذا كان فخورا فلا شك ان هناك ما يستحق الافتخار وانا لا اقول العكس ! لقد غضبت على ما يبدو يا اختـــاه لانني لم استخلص من هذه الرسالة كلها الا ملاحظة طائشة وتعتقـدين بانني اتعمد التحدث بهذه السخافات لايلامك الا فاعلمي بانه على العكس ! فقد بدت لي هذه الملاحظة المتعلقة بالاسلوب واعتقد ان هذه الملاحظة ليست غير ذات موضوع في وضعنا الحاضر • لان هنـاك العبـارة : « وسيكون لكم شأنكم » الواردة في هذا الكتاب والتي تعتبر غنيـة جدا بالمعاني والوضوح • ثم هناك التهديد بانسحابه فورا اذا انا جئت• ان هذا التهديد بالذهاب يعادل التهديد بهجركم فورا رغم انه هـــو الذي استدعاكما الى بيتروسبورج • فماذا تقولين ؟ هل لهذه العبارة المهينة الصادرة عن لوجين وقع مماثل لو انها صـدرت مثـلا عن هذا (واشار الى رازوميخين) أو عن زوسيموف او عن اي كان منا ؟

فاجابت دونيــا بانفعال ؟
ـ كلا . لقد فهمت تماما بان تلك العبارة انما صدرت عن حسن نية وسذاجه فحسب . ولعله سيد قلمه ! لقد كان تحليلك لاسلوبــه صحيحا بل وانني لم اكن اتوقع ...

ـ ان التعبير راجع الى الاسلوب لانه في الاسلوب القضــائي لا يستطاع التعبير بشكل آخر . ولعله كان اكثر خشونة مما اراد ان يكون . مع ذلك أظن انني سأخيب أملك قليلا : ان في هذه الرسالة تعبيرا آخر ، هجاء بحقي ، هجاء وضيعا ! لقد اعطيت البارحة مالا الى ارملة مسلولة رازحة تحت وقر الفاقة لنفقات الدفن وليس « بحجــة نفقات الدفن » واعطيته الى الارملة وليس « في يد الفتاة » التي قال عنها انها « ذات سلوك شائن معروف » . لقد رأيت تلك الفتاة البارحة لاول مرة ! انني ارى في كل هذا حاجة ملحة الى تشويه مركــــزي وغمري بالشوائب امامكما . كل هذا معبر عنــه بذلــك الاسلــوب القضائي أي انه يفضح بصراحة نواياه ويؤيد لونا من التهافت الساذج! انه رجل ذكي لكنه لا يكفي ان يكون المرء ذكيا ليتصرف بذكاء . ان ما أقول يرسم حقيقة الرجل ! ولا أعتقد انــه يقدرك كثيرا انني اقول لك ذلك في مصلحتك فقط لأنني أتمنى لك كل خير ! ..

لم تجب دونيا ، فقد كانت متخذة قرارها منذ الصباح ولا تنتظر الا حلول المساء . أما بولشيري الكسندروفنا فقد سألت ابنها بلهجــة زادت كآبتها . اللهجة « العملية » التي طغت على الحديث :
ـ اذن يا روديا ؟ ماذا قررت ؟

ـ ماذا تقصدين بكلمة « ماذا قررت » ! ؟
ـ انت ترى ان بيير بيتروفيتش يطلب ان لا تكون حاضرا عندنا هذا المساء وانه قال بانه سينسحب اذا جئت . وعلى هذا فهل ...

ستحضر ؟

ـ لا شك انه ليس لي ان اقرر مثل هذا الامر . ان القرار لكما في الدرجة الاولى فاذا كان مطلب بيير بيتروفيتش لا يسيء اليكمـا وبالدرجة الثانية لا يسيء الى دونيا فلكما شأنكما . وأنـا سأنصرف كما يروق لكمـا !

كانت لهجته مشوبـة بالجفـاء . لذلـك بـادرت بولشيري الكسندروفنا الى القول :

ـ لقد قررت دونيا وأنا أؤيدها تماما في قرارها ...

وقالت دونيـا :

ـ لقد قررت أن أرجوك بالحاح أن تكون حاضرا عندنـا هـذا المساء في الموعد المحدد من قبله . فهل ستحضر ؟

ـ سأحضر !

ثم استدارت الى رازوميخين وقالت :

ـ وانت ايضا . انني ارجوك ان تحضر الينـا في الساعـة الثامنة ... اماه انني ادعوه بالمثل !

فاضافت بولشيري الكسندروفنا :

ـ بديع ! يا دونيا . هيا ليكن كما قررت ! وسيكون في ذلـك راحة لي لانني لا احب الكذب والخداع . الخير لنا ان نقول الحقيقة كلها ... فاغضب اذا شئت الان يا بيير بيتروفيتش !

٤

في تلك اللحظة فتح الباب بهدوء ودخلت الحجرة فتاة راحت تجيل الطرف حولها بوجل . فالتفتوا جميعا نحوها بدهشة وفضول. لم يعرفها راسكولنيكوف اول الامر . كانت تلك الفتاة هي صوفي سيميونوفنا مارميلادوف . كان قد رآها أمس للمرة الاولى ولكن في لحظة ووسط وثياب معينة حتى انطبعت في خاطره صورة عنها تختلف عما رآها عليه في تلك اللحظة. فقد رأى أمامه فتاة مرتدية ثيابا متواضعة بل فقيرة تبدو صغيرة السن تماما وكأنها طفلة ذات حركات متحفظة مناسبة ووجه بشوش تبدو عليه امارات فزع خفيفة . كانت مرتدية ثوبا بسيطا صغيرا يصلح لكل المناسبات ، وقبعة فات وقتها وفي يديها ــ كالامس ــ مظلتها . ولما وجدت الغرفة مليئة بالناس زاد ارتباكها حتى بلغ مرتبة الخجل فاطرقت برأسها وحاولت كذلك ان تنسحب !

هتفت راسكولنيكوف والدهشة البالغة مرتسمة على وجهه :

ــ آه ... أهذا انت !

وفجأة ارتبك هو الاخر . راح يفكر في تلك اللحظة في ان امه واخته ــ بسبب رسالة لوجين ــ كانتا تعرفان وجود فتاة معينة « سمعتها الفاسدة مرموقة علنا » وقد كان منذ حين يحتج على افتراءات لوجين ويصرح بانه شاهد تلك الفتاة للمرة الاولى في ذلك المساء وها هي ذي قد وصلت الى مسكنه وحيدة ، وتذكر كذلك بانه لم يستنكر عبارة « ذات سلوك سيء مشهود » ! مرت كل هذه الافكار في رأسه كلمحة خاطفة وبشكل غامض . لكنه لما تأملها باتنباه وجد انها فتاة مسكينة مذعورة لدرجة شعر معها بالاشفاق عليها رآها تحاول

الانسحاب وشعر فجـأة بما يقلقه فهتف يقول بعد أن القى عليهـا نظرة اوقفتهـــا :

ـ لم اكن انتظرك مطلقا ... ارجو ان تتلطفي بالجلوس . انك تأتين ولا شك من جانب كاتيرين ايفانوفنا ... العفو ... ليس هنـا بل هنا ... اجلسي هنا .

كان رازوميخين عندما دخلت سونيا يشغل قرب الباب واحـدا من الكراسي الثلاثة الموجوده في حجره راسكولنيكوف وكان قد نهض ليفسح لها مجالا للدخول . فلما دعاها راسكولنيكوف الى الدخـول والجلوس اشار اليها اول الامر بالجلوس على « الديوان » حيث اعتاد زوسيموف ان يجلس ثم تذكر فجأة ان « الديوان » كان شيئا اليفـا بعيدا عن الكلفة خصوصا وانه يستخدمه بدلا من السرير ، فعاد وابدل رأيه واشار الى كرسي « رازوميخين » ودعاها الىالجلوس عليه بينما اشار الى رازوميخين بالجلوس في المكان الذي كان يحتله زوسيموف من قبل . فجلستحيث اشار مضطربة من الفزع ونظرت الى السيدتين بارتباك . كان يرى على وجهها بوضوح انهـا تستنكر وجودهـا الى جوارهما . ولما فكرت في هذه الناحية امتلكها جزع عنيف حتى انهـا نهضت فجأة وقالت بصوت مضطرب تحدث راسكولنيكوف مغمغمة :

ـ انا ... انني جئت من اجل دقيقة واحدة فاعذروني اذا كنت ازعجتكم . لقد جئت من قبل كاترين ايفانوفنا التي لم يكن لديها احد ترسله الي . لقد كلفتني كاترين ايفانوفنا بان ارجوك بالحاح للحضور غدا صباحا للمساهمة في الجناز الذي سيقام بعد اقامة القـداس في « سانت ميتروفان » ومن ثم ان تأتي الى دارنـا ... الى دارهـا لتنـاول قطعـة ...

انها تأمل ان توليها هذا الشرف وقـد كلفتني بان احمل اليك

هذه الاقوال !

وصمتت اخيرا بعد ان ازداد ارتباكها ، فنهض راسكولينكوف بدوره ووقف مضطربا كذلك لا يحير جوابا واخيرا اجاب :

ـ سأسعى بالطبع ... بالطبع ... أرجو أن تتفضلي بالجلوس ... ان لدي ما اقوله لك ، ارجوك ، قد تكونين على عجلة من امرك ، لذلك ارجو ان تجلسي وان تمنحيني دقيقتين .

وقدم اليها « كرسيا » فجلست وعادت من جديد تلقي نظراتها المفعمة بالخجل ، التائهة في التأمل على السيدتين وأخيرا خفضت بصرها فجأة ! أما راسكولنيكوف فقد غدا وجهه الشاحب أحمر اللون وقد التمعت عيناه ببريق مضيء ! بدا كأنه مضطرب تماما مبلبل الافكار . واخيرا قال بلهجة حازمة :

ـ اماه ! هذه صوفي سيميونوفنا مارميلادوف ابنة ذلك التعس مارميلادوف الذي دهس مساء أمس أمام عيني والذي حدثتك عنه !

فنظرت بولشيري الكسندروفنا الى سونيا ثم أغمضت عينيها قليلا ، لانها لم تستطع ان تمتنع عن الاتيان بهذه الحركة التي ترضي كبرياءها رغم النظرة الملحة المتحدية التي كان يسلطها « روديا » عليها . اما دونيا فقد صوبت عينيها الى وجه الفتاة المسكينة مباشرة وراحت تتأملها باستغراق وجد وعلى وجهها امارات الاستفهام . وحاولت سونيا ان ترفع عينيها الى السيدتين عند سماعها هذا التقديم لكن ذلك زادها حيرة واضطرابا .

واسترسل راسكولنيكوف موجها حديثه الى سونيا :

ـ وددت ان اسألك كيف مر هذا اليوم عندكم ؟ عسى انلا يكون قد حصل لكم اي ازعاج من قبل رجال الشرطة مثلا !

ـ كلا ... لقد انتهى الامر بسلام . خصوصا وان اسباب

الوفاة واضحة جدا لذلك فانهم لم يزعجونا غيـــر ان المستأجريــن غير راضــين !

ـ لماذا ؟

ـ لان الجثة باقية وقتا طويلا والطقس حار الان والرائحة ... حتى اننا اليوم في ساعة صلاة الغروب سننقلها الى المدفن بانتظـــار الغد في الكنيسة ! وقد رفضت كاترين ايفانوفنا بادىء الامر ولكنهــا بدأت ترى الان ان لا وسيلة غير هذه !

ـ اذن فان الدفن سيكون اليوم !

ـ انها ترجوك ان تشرفها لحضور الطقوس غدا ثم العــودة الى البيت لتناول الطعام الجنائزي !

-أتقدم طعاما ايضا ؟

ـ نعم . طعام خفيف . وقد كلفتني بان اشكرك جزيــل الشكر على المساعدة التي قدمتها لنا البارحة . ولولاك لما كنا نستطيع ايجــاد ما يسد نفقات الدفن .

وفجأة راح ذقنها وشفتاها ترتجف لكنها بذلت جهدا كبيرا حتى تمالكت روعها وهي لما تزل شاخصة بابصارها الى الارض !

راح راسكولنيكوف ينظر اليها أثناء الحديث بانتباه . كانت ذات وجه صغير بائس نحيل شاحب وقسمات غير متناسقة . كانت تقاطيع وجهها قريبة من شكل الزوايا في تدانيها بذلك الانف المدبب الصغير وذقنها البارزة . ولم يكن يمكن اطلاق لقب جميلة عليها ولكنها بالمقابل كانت ذات عينين زرقاوين صافيتين اذا انفعلتا فان وجهها يكتسب طابعا جميلا طيبا طهورا حتى ليشعر المرء بانجذابه اليها رغم ارادته . ثــم ان وجهها وكذلك شخصها كله ما كان محروما من بعض الميزات وكــانت على الرغم من بلوغها الثامنة عشرة تبدو طفلة أصغر سنــا من حقيقتهــا

حتى ان الطفولة كانت لتشاهد بوضوح خلال بعض حركاتها المضحكة !

هتف راسكولينكوف وهو يتابع الحديث بالحاح واهتمام :

ـ لكن كيف استطاعت كاترين ايفانوفنا ان تقوم بكل هذا رغم قلة الامكانيات التي في يدها ؟ كيف تقدم مع ذلك وجبة طعام خفيفة ؟

ـ ستكون الجنازة بسيطة وسيكون كل شيء بسيطا وعلى هذا الشكل لن يكلف كل هذا شيئا كثيرا . لقد عملنا حساباتنا منذ قليل أنا وكاترين ايفانوفنا وهي تتمسك كثيرا بهذه المسألة خصوصا وانه لا يمكن الاستغناء عن ذلك لانه نوع من العزاء بالنسبة اليها . انها هكذا ، وانت تعرفها !

ـ انني افهم ... انني افهم ! لا شك ! .. ماذا بك تنظرين هكذا الى غرفتي ؟ ان امي كانت تقول منذ قليل بانها تشبه القبر !

ـ لقد اعطيتنا البارحة كل ما تملك !

افلتت هذه العبارة من شفة الفتاة فجأة واطلقتها بصوت يشبه همسا مبحوحا سريعا وعادت تطرق برأسها الى الارض وعادت شفتاها وذقنها الى الارتجاف ... لقد شعرت منذ دخولها بالفقر الذي يخيم على مسكن راسكولينكوف وقد ادهشتها هذه البادرة لذلك فان تلك الكلمات انطلقت من فمها دون وعي فصمتت . بينما التمعت عينا دونيا ونظرات بولشيري الكسندروفنا الى سونيا نظرة باشة ! واخيرا قالت الام وهي تنهض :

ـ روديا ... لسوف نتناول الطعام معا حتما ... لنذهب يا دونيا أما أنت يا روديا فانك تحسن صنعا اذا قمت بجولة تستريح بعدها وتعال الى مسكننا باسرع ما يمكن ، اننا نخشى أن تتبعك !

فقال وهو ينهض بحركة متهافتة :

ـ نعم . نعم . سأذهب ! ثم عندي بعض العمل !

فهتف رازوميخين وهو ينظر الى راسكولنيكوف بدهشة :

ـ لكنكم لن تأكلوا كل واحد على حدة ! ماذا بـ ...

ـ سأحضر نعم بالطبع . اما انت فابقَ ! ابقَ دقيقة . انكما لستما بحاجة اليه الان اليس كذلك يا اماه ؟ ام لعلي احرمكما منه ؟

ـ آه كلا كلا ... وأنت يا دميتري بروكوفيتش سوف تحضر لتناول الطعام معنا ! ارجو ان تتفضل بالحضور !

والحقت دونيا تقول :

ـ تعال ارجوك !

فانحنى رازوميخين ووجهه طافح بالبشر ! وانقضت فتره شعر الموجودون خلالها بنوع من الارتباك الغريب فقالت الام تقطع الصمت :

ـ الوداع يا روديا بل الى اللقاء ! لا احب كلمة الوداع ! الوداع ناستاسيا ! يا الهي لقد قلت الوداع مرة اخرى !

همت بولشيري الكسندروفنا بان تحيي سونيا كذلك لكنها لم توفق لذلك فقد عجلت بالخروج من الحجرة وكانت سونيا تنتظر دورها للخروج فمرت أفدونيا رومانوفنا من أمامها على أثر أمها لكنها انحنت تحييها تحية مؤدبة ارتعدت لها سونيا وسلمت بدورها مذعورة مرتبكة بينما اكتست قسماتها بمسحة من الالم غمرتها كلها كما لو ان التفاتة افدونيا رومانوفنا وتأدبها قد أحدثا في نفسها تعذيبا أليما !

وخرج راسكولنيكوف الى الممشى وهو يقول :

ـ الوداع يا دونيا ... اعطني يدك !

فالتفتت دونيا نحوه وقالت بصوت عذب لم يخل من الاضطراب :

ـ لكني اعطيتها لك فهل نسيت ؟ لقد صافحتك !

ـ حسنا صافحيني مرة ثانية !

وضغط على اصابعها بشدة بين يديه بينما ابتسمت له واحمرت

خجلا ثم اسرعت تسحب يدها وهي تشعر بسعادة غامرة لا تعرف لها سببا ! وعاد راسكولينكوف ألى سونيا وقال لها بوجه مشرق :

ـ هيا ... هذا حسن ! ليرحم الله وليدع الله الاموات وليدع الاحياء يعيشون كذلك ؟ أليس كذلك ؟ انه لكذلك !

ودهشت سونيا للاشراقة المفاجئة التي سطعت على وجه راسكولينكوف فنظرت اليه لحظات صامتة وتذكر ـ هو ـ خلال هذا الصمت كل ما حدثه به المرحوم [illegible] هذه الفتاة بصورة مفاجئة !

لما بلغت بولشيري الكسندروفنا الشارع مع ابنتها هتفت :

ـ رباه يا دونيا ... انني الآن سعيدة جدا لاننا خرجنا حتى ليخيل الي ان حملا ثقيلا قد [illegible] هل كنت اظن البارحة وانا في القطار ان امرا كهذا سيسرني ؟

ـ اذكرك مرة اخرى يا اماه بانه لا يزال مريضا . هل يعقل أن لا تكوني قد لاحظت ذلك ؟ لعل الحزن لافتراقه عنا كل هذه المدة هو الذي أدى به الى المرض ! ينبغي أن يكون المرء متسامحا وانه ليستحق ان يصفح عن اشياء كثيرة تصدر عنه !

فأجابت بولشيري الكسندروفنا بلهجة غاضبة مقاطعة ابنتها :

ـ ولكنك انت لم تكوني متسامحة يا دونيا ! لعلك لا تعرفين يا دونيا بانني كنت انظر اليكما كليكما ! انك صورة عن اخيك تماما بل ولك مثل مزاجه انكما كلاكما سويداويان ، كلاكما شرسان سريعا التأثر والانفعال . شديدا الازدراء نبيلان ... كلاكما نعم ! لانه لا يمكن ان يكون أنانيا فماذا ترتئين يا دونيا ؟ ما رأيكما ؟ عندما أفكر انه سيكون عندي مساء يكف قلبي عن الضرب !

ـ لا تبتئسي يا أماه ولسوف يحدث ما يجب أن يحدث !

فقالت بولشيري الكسندروفنا برعونة وسذاجة :

ـ دونيا فكري قليلا في أي موقف نحـن ؟ ماذا سيحـدث اذا انسحب بيير بيتروفيتش ؟

فقالت دونيا بلهجة خافتة مشمئزة :

ـ سيكون عندئذ عديم الشرف !

وعادت بولشيري الكسندروفنا تقول متعجلة :

ـ لقد احسنا صنعا بخروجنا في هذه اللحظة ، ان عملا مستعجلا كان يستدعيه ! انه على الاقل سيتحرك قليلا وسيستنشق قليـلا من الهواء ... ان المرء ليختنق في حجرته لكثرة الحرارة ! لكـن ايـن يستنشق الانسان في هذه المدينة ؟ ان الشوارع تشبه غرفا محرومـة من نوافذ يا رباه ! يا لها من مدينة ! انتظري ! احذري .. آه حقيقة اننا مبلبلتا الخواطر ... انني اخاف كذلك من تلك الفتاة !

ـ اية فتاة يا اماه ؟

ـ لكن رباه ... من هذه الـ : صوفي سيميونوفنا ... تلك التي حضرت اليه منذ لحظات !

ـ لم تخافين منها ؟

ـ انني اشعر شعورا مسبقا يا دونيا ! الم تلاحظي ماذا حدث عند دخولهـا ؟

اكاد اعتقد ان النقطة الرئيسية كامنة فيها ! ولك ان تصـدقيني ام لا !

فهتفت دونيا مستنكرة :

ـ ابدا انك دائما تتبعين شعورك المسبق ! انه لا يعرفها الا منذ البـارحة ولم يستطـع التعرف عليهـا للوهـلة الاولى منـذ قليـل عندمـا دخلت !

ـ حسنا سترين ! انها تقلقني ، سترين ! كم روعت منها ! لقـد

كانت تنظر الي بتينك العينين حتى انني ما كنت أستطيع التمالك الا بصعوبة . هل تذكرين كيف قدمها الينا ؟ ان الامر يبدو غريبا ذلك لانه يقدمها لنا ــ لي ولك ــ بعد أن كتب الينا بيير بتروفيتش عنها ما كتب . وعلى هذا فانه يحبها ! او انها غالية عليه !

ــ ان المرء يكتب اشياء كثيرة . لقد كتب عنا نحن وحكي عنا الشيء الكثير ام تراك قد نسيت ؟ انني متأكدة من جانبي بانها فتاة مدهشة وان كل ما قيل عنها ان هو الا لغو !

ــ ليتقبل الله !

فاضافت دوتيا بلهجة حاسمة :

أما بيير بيتروفيتش فانه نمام مرذول !

فاحنت بولشيري الكسندروفنا رأسها وتوقف الحديث عند هذا الحد !

وفي الحجرة قال راسكولينكوف وهو يقود رازوميخين الى النافذة :

ــ سأخبرك عن الامر الذي أردت التحدث به اليك !

بينما بادرت صوفي سيميونوفنا تقول وهي تنحني محاولة الخروج :

ــ سأقول اذن لكاترين ايفانوفنا انك ستحضر !

ــ سنتكلم بعد قليل يا صوفي سيميونوفنا . ليس لدينا اسرار نخفيها . انك لا تزعجيننا احب ان اقول لك كلمتين اخريين ...

ثم استدار الى رازوميخين وقال :

ــ اليك القضية : انك تعرفه اليس كذلك ... ما اسمه ؟ بورفير بيتروفيتش .

فاجاب رازوميخين باهتمام بالغ :

ـ لا شك انه احد اقربائي . ماذا تريد منه ؟

ـ تلك القضية ... انت تعرفها ... اقصد الجريمـــة ! كنت تقول البارحة انه يحقق فيها الان !

فاجاب رازوميخين وهو يحملق بعينيه :

ـ نعم ... ماذا بعد ؟

ـ وانه استجوب الاشخاص الذين اودعوا لـدى تلك العجوز بعض الرهائن ... حسنا ... انني شخصيـا رهنت عندهـا بعض الحاجات . أشياء غير ذات قيمة في مجموعها : خاتم صغير قدمته الي أختي عندما غادرتهـا الى بيترسبورغ والسـاعة الفضيـة التي كانت لابي . ان هاتين الحاجتين لا تساويان اكثر من خمسة او ستة روبلات ولكنني اتمسك بهما لانهما ذكريات . فماذا ينبغي ان اعمل الان ؟ انا لا اريد ان تضيع هذه الاشياء وخصوصا الساعة . انني كنت ارتعـد منذ قليل خشية ان تسألني أمي عنها عندما تحدثنا عن ساعة دونيا . انها الاثر الوحيد الباقي لابي ولسوف تمرض امي ان هـي ضـاعت ! ان النساء دائما هكذا ... فعلمني ماذا أعمل ؟ أنـا أعرف انـه يجب ان اقدم افادة ولكن أليس من الاحسن ان نعلم بورفير شخصيا بذلـك ؟ هم ماذا تعتقد ؟ انني أحب أن أنهي هذه القضية بأسرع مـا يمكـن . ولسوف ترى ان امي ستفكر في سؤالي عن اخبار الساعـة قبـل موعد الطعـام !

فهتف رازوميخين وقد اضحى فريسة اضطراب غير طبيعي :

ـ لا لزوم للجـوء الى البوليس ان الذهـاب الى بورفـير هو الصواب . آه ! كم انا سعيد ! ثم لِمَ لا اكون سعيدا ؟ لنذهب فـورا انه على قيد خطوتين من هنا ولسوف نجده حتما .

ـ ليكن ... لنذهب .

ـ ولسوف يكون مسرورا جدا بالتعرف اليك ! لقد حدثته عنك كثيرا وفي مناسبات عديدة ، والبارحة كـان آخر حديث لنا ••• وعلى هذا فانك كنت تعرف العجوز ؟ ها ها ••• كم يرتبط الامر الان بشكل مدهش ! آه ! نعم ••• صوفي ايفانوفنا •••

فصحح راسكولينكوف قوله :

ـ بل صوفي سيميونوفنا ••• انه صديقي رازوميخين يا صوفي سيميونوفنا ! انه شاب ممتاز !

فقالت صوفي دون ان تنظر الى رازوميخين لشدة خجلها :

ـ اذاً كنتما ستخرجان •••

فقال راسكولينكوف :

ـ نعم لنذهب ! سآمر بدارك اليوم يا صوفي سيميونوفنـا فقط خبريني اين تقطنين •

لم يكن يبدو عليه الارتباك تماما لكنه كان يقول هذه الكلمـات بلهجة محمومة وهو يختلس النظر الى وجه الفتاة • فاعطتـه سونيـا عنوانها وهي تحمر من الخجل • ثم خرجوا ثلاثتهم معـا • سـأل رازوميخـين :

ـ ألا تغلق بابك بالمفتاح ؟

فاجاب راسكولينكوف :

ـ ابدا ••• مع العلم بانني منذ عامين وانا افكر ابـدا في شراء قفل ! سعداء هم الذين لا يملكون ما يخفونه بالمفتاح أليس كذلك ؟

كانت جملته الاخيرة هذه موجهة الى سونيا وكان وجهـه هاشا باشا ، ولما بلغوا الباب الخارجي توقفوا برهة • فقال راسكولينكوف مخاطبا بشكل يشعر منه بانه يريد ان يقول لها شيئا آخر :

ـ ستذهبين من اليمين أليس كذلك يا صوفي سيميونوفنا ؟ ولكن

كيف استطعت اكتشافي ؟

كان يحاول عبثا ان ينظر في عينيها الصافيتين الهادئتين ... فاجابت :

ــ ولكنك اعطيت عنوانك امس الى بوليا !

ــ بوليا ؟ آه نعم ! بوليا ... انها تلك الصغيرة ... انها اختك؟ وعلى هذا فقد اعطيتها عنواني !

ــ هل نسيت ذلك ؟

ــ كلا أنني أتذكر جيدا !

ــ ثم انني كنت قد سمعت ابي المرحوم يتحدث عنك ما كنت اعرف اسمك . وهو نفسه كان يجهله . والان فقد جئت ... وعند ما علمت اسمك البارحة ... سألت اليوم : هل يقطن هنا السيد راسكولينكوف ؟ لانني ما كنت اعرف انك انت كذلك تقطن في غرفة مؤثثة ! الوداع لسوف أقول ذلك لكاترين ايفانوفنا !

شعرت بسرور بالغ وهي تبتعد اخيرا ... فمضت مطرقة الرأس وهي تحث خطاها لتبلغ المنعطف القريب الذي يبعد عشرين خطوة عن مكان وقوفهما كي تختفي عن ابصارهما ولكي تصبح وحيدة ايضا ! وعندما تصل الى المنعطف ستسير مسرعة دون أن تبالي بأحد أو أن تنظر حولها ... ولسوف تفكر وتتذكر وتستعيد في ذهنها كل كلمة قيلت ! كل مناسبة ! انها لم تشعر من قبل ابدا بشعور من هذا القبيل ! لقد شعرت بعالم جديد يخلق فجأة في روحها بشكل غامض غير واضح . وتذكرت فجأة ان راسكولينكوف يود زيارتها هذا اليوم بالذات بل لعله يحضر توا . فراحت تغمغم مغمغمة القلب وكأنها تحاول تهدئة طفل صغير !

ــ رباه ... المهم ان لا يحضر اليوم ! رباه .. غرفتي .. تلك

الغرفة ! لسوف يراها ! آه يا رب !

لذلك ونظرا لحالة الاضطراب التي كانت تعانيها فانها لم تلاحظ طبعا ان سيدا لم تكن تعرفه ، راح يتبعها خطوة فخطوة . لقد رافقها دون أن تشعر منذ أن رآها تخرج من الباب العام عندما كان رازوميخين وراسكولينكوف واقفين معها يتبادلون بضع كلمات على الرصيف . وقد مر ذلك السيد في تلك اللحظة بهم وانتفض فجأة حينما سمع طرفا من حديث سونيا وكانت تقول : « لقد سألت : هل يقطن هنا السيد راسكولينكوف ! » فنظر بسرعة ولكن بانتباه الى الاشخاص الثلاثة وبصورة خاصة الى راسكولينكوف الذي كانت تتحدث سونيا اليه . ولم تدم نظرته تلك الا لحظة خاطفة وقد وقعت [illegible] السير . فلما ابتعد راح يهدىء من خطاه ويبطىء في سيره كما ولو كان ينتظر احدا . لقد كان ينتظر سونيا وقد شاهد الاشخاص الثلاثة يتبادلون كلمات الوداع ورأى سونيا تسير في اتجاهه لتعود الى منزلها . فهتف يغمغم محدثا نفسه : « هه ! اين تسكن اذن؟ لقد رأيت هذا الوجه من قبل في مكان ما » .

كان يحاول استنهاض ذاكرته لتسعفه بما نسيته . فلما وصل الى المنعطف مضى الى الجانب المقابل واستدار الى الخلف فرأى سونيا تتبعه في ذلك الطريق بالذات دون ان تلحظ شيئا . ولما تجاوزته راح في اعقابها سائرا على الرصيف المقابل دون ان يدعها تغيب عن ناظريه ، واستمر بعيدا عنها حتى قطعا خمسين خطوة تقريبا وعندئذ عاد الى الرصيف الاول حيث كانت تسير فلحق بها وسار وراءها مباشرة مخلفا بينهما مسافة خمس خطوات فقط .

كان رجلا في الخمسين من عمره ميالا الى الطول متين البنية مرتديا ثيابا انيقة ثمينة ومناسبة ، له مظهر « البورجوازي » المحترم !

وكان يحمل في يمناه عصا جميلة كان يقرع بها الرصيف مع كل خطوة. ويلبس قفازات جديدة ولا يبدو على مظهره ولون بشرته انه من بيترسبورغ • ولم يكن المشيب قد خط بعد سطورا طويلة على شعره الاشقر الكثيف • أما لحيته فكانت كثة ومشذبة ذات لون أشقر فاتح يشبه لون شعر الرأس ! وكانت له عينان زوقاوان ذات نظرة باردة ملحة حالمة وشفتان حمراوان • فكان بمجموعه رجلا محتفظا بشبابه احتفاظا مدهشا يبدو اصغر سنا من حقيقته •

اشرفت سونيا على القناة وكان الغريب على بعد متساو وعلى رصيف واحد ، فنظر اليها متأملا ولاحظ انها ساهمة مفكرة • فلما بلغ مسكنه دخلت سونيا من الباب العمومي فحذا حذوها وهو في دهشة من الامر • وبلغت سونيا الباحة فانعطفت الى اليمين حيث السلم الذي يؤدي الى مسكنها فغمغم السيد الغريب بكلمة تشعر بدهشته وراح يصعد السلم على اثرها فلما بلغت الطبقة الثالثة سارت في المشى وقرعت الباب التاسع وعليه لوحة نقش عليها هذا الاسم : كابرناؤوموف خياط ! دهش الغريب لتلك المصادفة العجيبة وراح يقرع بدوره الباب الثامن وكان البابان على بعد ست خطوات الواحد عن الاخر •

نظر اليها الغريب وقال مبتسما :

— انك تقطنين لدى كابرناؤوموف ؟ لقد خاط لي البارحة « صدارا » ! انني اقطن هنا بجانبك عند السيدة رسليش ، جرترود كارلوفنا ! ما ادهش الصدف !

فنظرت اليه سونيا بانتباه بينما راح يتابع حديثه قائلا بلهجة مرحة :

— اننا جاران • لقد حللت في بيترسبورغ منذ أمس

الاول ... هيا ... يسرني لقاؤك !

لم تجب سونيا كان بابها قد فتح فتسللت الى حجرتها وفقد شعرت بانها تخجل من شيء ما وترهب منه !

* * *

كان رازوميخين شديد الحماس وهو في طريقه مع راسكولينكوف الى مسكن بورفير ! وكان يهتف مكررا :

ــ يا صديقي العجوز ! ان ذلك عين الكمال ! انني سعيد ... انني سعيد !

وبينما كان راسكولينكوف يفكر في نفسه قائلا : « ما الذي يسعدك ؟ » كان صديقه مستمرا في حديثه يقول :

ــ كنت اجهل انك انت ايضا قد استلفت من تلك العجوز لقاء أشياء رهنتها آه ... هل ذهبت اليها أقصد متى ذهبت اليها لاخر مرة ؟

غمغم راسكولينكوف في سره يقول : يا لك من ساذج سخيف ! ثم توقف برهة وكأنه يفكر في سؤال صديقه وقال :

ــ متى ؟ لقد ذهبت اليها قبل موتها بثلاثة أيام على ما أعتقد ، ثم انني لا اريد ان استعيد هذه الاشياء الان لانني لا املك الا روبلا واحدا تبقى لي بسبب ذلك الهذيان الملعون الذي اصابني امس !

كان يتحدث عن تلك الاشياء بلهجة تعبر عن عناية خاصة بها ، وكذلك فقد نطق بكلمة « الهذيان » بلهجة شديدة الاغراء ! فبادر رازوميخين الى القول :

ــ هيا .. نعم .. نعم ، اذن هو السبب في انك .. لقد ادهشتني على الاكثر اقوالك اثناء هذيانك ... انك ما كنت تفتأ تتحدث عن

سلاسل وخواتم نعم نعم ! لقد وضح كل شيء الان !

راح راسكولنيكوف يناجي نفسه بقوله : « ان تلك الفكرة مغروسة اذن في عقولهم ! هذا الرجل مثلا ... انه على استعداد للتضحية بنفسه من اجلي وهو سعيد لانه وجد تفسيرا معقولا للسبب الذي دفعني الى التحدث عن الخواتم في الحلم ! ان الفكرة اذن قد رست في رؤوسهم جميعا ! » ثم سأل صديقه بصوت مرتفع :

ـ لكن هل نجده في مسكنه ؟

فاسرع رازوميخين يجيب :

ـ سوف نجده ... سوف نجده . انه شاب ممتاز يا صديقي وسترى ! انه اخرق بعض الشيء واقصد انه يسير مع الدنيا . ولكنني لم انعته بالاخرق من اجل هذا ... انه فتى ذكي بل انه شديد الذكاء ولكن لديه اتجاها خاصا في عقله . انه حذر ماجن ومتشكك ... يروق له ان يسخر ولكن ليس لدرجة « التهريج » واخيرا الاسلوب القديم وأقصد أسلوب الاعتماد على الواقع المادي ... لكنه يعرف عمله تماما بل انه ضليع فيه ... لقد حقق في العام الماضي في قضية قتل كانت كل الاثار فيها ضائعة . وهو يرغب في التعرف اليك بشوق زائد !

ـ ولم يرغب في ذلك الى هذا الحد ؟

ـ ليس ... لانه لكن الا ترى السبب ؟ انني في هذه الايام الاخيرة ـ بينما كنت مريضا ـ تحدثت اليه كثيرا عنك ولقد اصغى الي بانتباه ولما علم بانك طالب حقوق وانك لم تتمكن من متابعة دروسك لاسباب خارجة عن طاقتك قال : يا للاسف ! ومن ذلك استنتجت ... واقصد من كل الاشياء مجتمعة وليس من هذا فحسب . البارحة زاميوتوف ... افهمني يا روديا ... قد اكون ثرثرت البارحة

كثيرا عندما كنت ثملا وكنت أرافقك الى الدار ... لذلك فانني أخشى ان تكون مغاليا ...

ـ ماذا تريد ان تقول ؟ انهم يعتبرونني مجنونا ؟ ولكن قد يكون ذلك صحيحا !

واغتصب ضحكة صامتة .

ـ نعم ... نعم ! او بالاحرى لا .. بتواه ! علما ان كل ما قلته وما بعده كله كان سخيفا وبتأثير الشراب !

فصاح راسكولنيكوف يقول وقد هم ان يندفع من الغضب :

ـ لكن لم تعتذر ؟ ان كل ذلك يقتلني في النهاية !

ـ انني اعرف ... انني افهم ! ثق بانني افهم ، حتى انه من المخجل التحدث فيه !

ـ اذن طالما ان التحدث فيه مخجل فلنكف !

وصمت الصديقان وكان رازوميخين يفيض حماسة الامر الذي كان راسكولنيكوف يلاحظه باشمئزاز وكان كذلك مكتئبا مما سمعه للتو من رازوميخين عن بورفير ، فراح يناجي نفسه وهو يشعر بشحوب وبخفقان شديد في قلبه :

ـ ينبغي ان القي الرماد في عيني هذا ايضا ! ان ذلك طبيعي تماما ، ولكن « ان لا القي بشيء مطلقا » سيكون طبيعيا اكثر ... نعم ان ارغم نفسي على عدم القاء شيء في عينيه ! كلا ! لانني اذا ارغمت على ذلك فلن يكون الامر طبيعيا تماما حسنا سنرى كيف تسير الامور ... ترى هل احسن صنعا بالذهاب الى هناك ام لا ؟ ان الفراشة تطير من تلقاء نفسها نحو الشمعة ، انني اشعر باضطراب في قلبي وان ذلك لفأل سوء .

قال رازوميخين :

ـ انه في هذا المنزل الرمادي .

استمر راسكولينكوف في حديثه مع نفسه :

ـ « هنا امر حيوي جدا : هل يعرف بورفير بزيارتي الى منزل تلك الساحرة امس ام لا ... وعن سؤالي عن الدم ! ينبغي ان اعرف ذلك بلمحة خاطفة منذ البداية ، نعم حال دخولي والا ... فلسوف اعرف اذا كنت سأخسر نفسي ! »

وخاطب رازوميخين فجأة وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة :

ـ على فكرة . لقد لاحظت يا صديقي انك منذ هذا الصباح في اضطراب غير عادي فهل هذا صحيح !

فقال رازوميخين منكرا :

ـ اي اضطراب ؟

ـ هيا ... يا عزيزي ان ذلك لا يمكن حجبه ! لقد كنت منذ لحظات جالسا على مقعدك كما لم تفعل ابدا من قبل . كنت جالسا على حافة المقعد تماما وكنت تنتفض من ارتعادة تشنجية فلا يقر لك قرار وكنت تغضب حينا لتعود فجأة الى اتخاذ سحنة هادئة . كنت تحمر احيانا خصوصا لما دعوك الى تناول العشاء ... لقد احمر لونك حتى جذور شعرك !

ـ ان هذا غير صحيح ! انك تكذب ! لم تقول هذا ؟

ـ الحقيقة انك خجول كالتلميذ الصغير ! يا للشيطان ها انك تعود الى الاحمرار !

ـ يا لك من قذر بعد ذلك !

ـ لكن لِمَ كل هذا الخجل يا روميو ! انتظر ... لسوف اقوله في مكان ما اليوم ها ها ! لسوف اجعل ماما تضحك اليوم ، وشخصا آخر !

فصاح رازوميخين وقد خرج عن طوره وشعر ببرودة الرعب :

ـ اسمع ... اسمع ! انني أتحدث جديا الان ! ماذا سيحدث بعد ذلك ؟ يا للشيطان هل قدرت ؟ ماذا ستذكر لهما ... انا ؟ يا عزيزي ... اوف ... يا لك من قذر !

ـ آه لقد اصبحت كوردة في الربيع تماما . .. كم يليق بك هذا ... لو كنت تدري ! روميو بطول ستة اقدام ... حسنا لقد اغتسلت اليوم وقلمت أظافرك هم ؟ هذه الاشياء لم تشاهد فبك من قبل ! يا الهي العظيم ! وقد تطيبت ... اخفض رأسك قليلا !

ـ خنزير !

فانفجر راسكولينكوف ضاحكا بعنف كاد ان يفقده السيطرة على اعصابه . وهكذا تخطى عتبة مسكن بورفيربيتروفيتش وهو يضحك . وهذا ما اراده راسكولينكوف : لقد كان يمكن استماع ضحكته من داخل المسكن وقد امتد ذلك الجذل والحبور داخل المشي !

وغمغم رازوميخين وهو يقبض على كتف راسكولينكوف :

ـ ولا كلمة هنا والا كسرت لك « بوزك » !



٥

كان راسكولنيكوف قد دخل الشقة وعلى وجهه امارات من يبذل جهدا ليمتنع عن الانفجار من الضحك ، وجاء وراءه رازوميخين منقلب السحنة من الغضب ، أحمر كالورد ، كالابله المقنع . وكان وجهه وشكله يحملان طابعا يثير السخرية في تلك اللحظة ، ويفسر تفسيرا معقولا سبب تهلل رفيقه .

انحنى امام صاحب المسكن قبل ان يقدم اليه . ومد يده اليه مبذيا جهدا واضحا ليكبت عواطفه ويطرد عن نفسه ذلك المرح كي يستطيع على الاقل التلفظ بالكلمتين او الثلاث كلمات اللازمة في مثل هذه المقابلة . وكان صاحب البيت واقفا وسط الحجرة يفحص زائريه بنظره ... ولم يكد راسكولنيكوف يتخذ شكلا جديا ويغمغم ببضع كلمات حتى وقعت عيناه فجأة على رازوميخين ، وعندئذ لم يعد باستطاعته الثبات . وهكذا انطلقت الضحكة الحبيسة بقوة تبررها شدة الكبت الذي كانت تعانيه . وكان للغضب العنيف الذي استقبل به رازوميخين تلك الضحكة اثرا بعيدا في أعطاء ذلك المشهد طابع المرح الطبيعي الحقيقي . ولقد ساهم رازوميخين في ذلك ـ وكأنه كان متعمدا ـ فزمجر وهو يلوح بيده :

ـ آه .. الى الشيطان ..

وارتطمت يده بمائدة صغيرة كان عليها قدح من الشاي فطوحت بهما معا الى الارض ، واحدث هذا الارتطام فرقعة عالية . فهتف بورفير بيتروفيتش بلهجة وديعة :

ـ لكن لم تحطيم الكراسي ، ايها السادة ؟ انكم تسببون خسارة للدولة !

كان راسكولنيكوف يضحك ملء رئتيه ناسيا يده في يد صاحب الدار لكنه كان ينتظر الوقت الذي ينبغي له فيه ان يسحبها بسرعة وبشكل طبيعي للغاية . اما رازوميخين فقد اشتد جزعه اثر سقوط المائدة وتحطم القدح ، فراح يتأمل في اجزائه المتناثرة ثم انسحب مهزوما حانقا باتجاه النافذة حيث وقف مستديرا بوجهه اليها ينظر خلالها الى لا شيء وهو منقلب السحنة . وكان بورفير بيتروفيتش يضحك وهو يتلهف الى مزيد من الضحك ، ولكنه كان ينتظر تفسيرا لهذه الحالة . وفي ركن من الغرفة كان زاميوتوف يجلس على كرسي فلما دخل الزائران تناهض وانتظر فاغر الفم وقد حيره المشهد وجعله متحذرا يراقبه بفضول خاص . وكان لوجود زاميوتوف ـ وهو ما لم يكن يتوقعه ـ وقع مزعج في نفس راسكولنيكوف الذي فكر في نفسه قائلا : « وهذه مسألة ينبغي اخذها بعين الاعتبار ! » .

شرع راسكولنيكوف يفسر سبب هذا الموقف مبديا خجله :

ـ ارجو ان تعذرني .. فان رازوميخين ..

فقاطعه بورفير قائلا :

ـ العفو . لقد ادخلتما السرور على نفسي ! ولقد دخلتما بلطف زائد ...

ثم اشار الى رازوميخين وقال :

ـ هه ! هل يرفض حتى القاء التحية !

ـ عجيبا .. لست ادري لِمَ غضب مني . لقد قلت له في الطريق انه يشبه « روميو » ، ولقد اثبت له ذلك .. ولست اعتقد ان هناك شيئا آخر ! ..

فهتف رازوميخين محنقا دون ان يستدبر :

ـ خنزير !

فقال بورفير ضاحكا :

ــ ينبغي ان تكون لديه المبررات الكافية حتى يغضب من كلمة صغيرة بسيطة !

فصرخ رازوميخين :

ــ هاأنتذا «تتفذلك» : يا قاضي التحقيق ! هيا ليحملكم الشيطان !

ثم استدار وهو يضحك وقد غمر البشر وجهه واقترب نحو بورفير بيتروفيتش وكأن شيئا لم يحدث ومد اليه يده وقال :

ــ احييك بسرور ! والان الى العمل . هذا صديقي روديون رومانيتش راسكولنيكوف . اولا باعتباره سمع عنك كثيرا فقد اراد ان يتعرف بك ، ثم ان لديه عملا صغيرا يود انهاءه معك . هه ! زاميوتوف ! اية صدفة جاءت بك الى هنا ؟ انكما متعارفان اذن ؟ منذ متى وانتما على علاقات ...

وناجى راسكولنيكوف نفسه متسائلا : « ما معنى هذا ؟ » . اما زاميوتوف فكان مرتبكا قليلا لكنه تغلب اخيرا على ارتباكه وقال بلهجة وديعة :

ــ البارحة .. لقد تعارفنا عندك !

ــ اذن انها « العناية » التي هيأت كل شيء . لقد كان في الاسبوع الماضي يلح كثيرا ليقدم اليك يا بورفير ، لكنكما لم تعودا بحاجة الي لاجراء ذلك ! أين سجايرك ؟

كان بورفير بيتروفيتش في ثيابه المنزلية : معطف منزلي ، وقميص نظيف جدا ، وحذاء خفيف مثني الكعب ، وكان في الخامسة والثلاثين من عمره ، قامته فوق الوسط ، ممتلىء الجسد ، منتفخ الكرش قليلا ، حليق الشارب ، قصير السالفين ، قصير الشعر ، رأسه كبير مستدير ينتهي بنتوء غريب عند القفا ، منتفخ الوجه مدوره ، افطس الانف قليلا ، أصفر اللون كالمرضى ، ممتلئا حيوية ودعابة ، تقرأ على قسماته

سلامة النفس لولا عينيه السماوية اللون « كالماء الصافي » المغطاتين باهداب تكاد ان تكون بيضاء ، واللتين كانتا تطرفان باستمرار وكأنه يشير بهما اشارات معينة الى شخص ما • كانت نظرة عينيه تتناقض مع مجموع شخصيته التي كانت تختزن لونا من الانوثة تقريبا ، فكانت تلك النظرة تعطيه مظهرا جديا رزينا غير ذلك الذي يصافح العين للوهلة الاولى •

ولما علم بان الزائر يود انهاء قضيته معه رجاه بالحاح ان يجلس على الاريكة ، وجلس هو على الجانب الاخر منها مبديا اهتماما زائدا ومنتظرا ان يبدأ الضيف بعرض موضوع القضية • ولعل مثل هذا الاهتمام البالغ من قبل شخص مجهول يبدو مربكا وفي غير موضعه ، خصوصا اذا كان ما يود المرء عرضه تافها لا يستحق مثل هذا الاهتمام• غير ان راسكولنيكوف راح ببضع كلمات موجزة ومسبوكة يوضح قضيته بدقة وجلاء ادخلا على نفسه السرور ، واستطاع خلالها انيمعن النظر في بورفير • وكان بورفير بيتروفيتش بدوره لا يرفع بصره عن محدثه ، بينما كان رازوميخين جالسا قبالتهما امام المائدة الصغيرة اياها يتابع بصبر نافذ وانفعال موضوع القضية • فكانت ابصاره تتنقل على التناوب من وجه هذا الى وجه ذاك وبالعكس بشكل يتعدى الحد الطبيعي • حتى ان راسكولنيكوف لم يتمالك نفسه ان قال في سره : « سخيف ! » •

قال بورفير مجيبا بلهجة ممهدة :

ـ ينبغي ان تتقدم بافادتك الى الشرطة • ستقول انك بعد ان علمت بكذا وكذا ، واقصد جريمة القتل ، فانك ترغب بدورك باعلام قاضي التحقيق المولج بهذه القضية بان الاشياء كذا وكذا تخصك وانك تود استعادتها • او ••

فقال راسكولنيكوف يقول ، وهو يحاول جاهدا ان يبدو بمظهر شديد الخجل :

ـ الواقع انني في هذه اللحظة لست غنيا ، وحتى هذه الاشياء التافهة فانني لن استطيع .. اقصد .. اريد في الوقت الحاضر ان اثبت بان هذه تخصني ، لكنني عندما سأحصل على مال ...

فاجابه بورفير بيتروفيتش مبديا برودا آزاء التصريح المتعلق بالناحية المادية :

ـ لا بأس . ثم انك تستطيع ـ اذا كنت تريد ـ ان تكتب الي مباشرة بهذا المعنى : بعد ان علمت بكذا وكذا ، وباعتبار ان الاشياء كذا وكذا تخصني فارجو ..

سأل راسكولنيكوف بلهجة متهافتة مظهرا بذلك عنايته المجددة بالناحيه المالية :

ـ هل يمكن كتابة هذا الطلب على ورق عادي ؟

ـ آه .. على اي ورقة تريد !

ونظر بورفير بيتروفيتش اليه نظرة فيها سخرية واضحة ، وطرف بعينه كما لو كان يشير بذلك الى ان يفهم القصد المستتر ! ولعل راسكولنيكوف اخطأ في التصور لان تلك الحركة كانت سريعة كالبرق .. كان على استعداد ليقسم بان بورفير غمز له بعينه لسبب يعلمه الشيطان ! كان في الامر شيء ! فغمغم يخاطب نفسه : « انه يعرف ! » ومرت هذه الفكرة في خاطره بسرعة الصاعقة ! فاردف بشيء من الارتباك :

ـ اعذرني اذا ازعجتك بحماقات كهذه . ان هذه الاشياء تساوي خمسة روبلات في مجموعها ، لكنها غالية على نفسي بسبب الذكرى التي تحملها . وانني اعترف بانني روعت عندما علمت ..

فقال رازوميخين بلهجة لا تدع مجالا للشك في براءة نيته :

ـ هه ! .. انك من اجل هذا اذن ابديت تلك الدهشة لما تحدث اليك زوسيموف البارحة وهو يثرثر بان بورفير يستجوب اصحاب الاشياء المرهونة !

كانت الملاحظة شديدة الوقع على راسكولنيكوف فنظر الى رازوميخين نظرة تشتعل بالغضب ، لكنه تمالك اعصابه على الفور ورد مجيبا وقد سيطر على غضبه ببراعة :

ـ يا عزيزي ، اعتقد انك تسخر مني . انني اعترف باهتمامي الزائد بهذه الاشياء التي تبدو لعينيك « قذارات » . لكن لا محل في هذا لاعتباري انانيا مهووسا بالاشياء التافهة لان هذه الاشياء لا تبدو ابدا في نظري « قذارات » . لقد قلت منذ لحظة ان تلك الساعة الفضية التي لا تساوي اكثر من فلسين كانت الاثر الوحيد الذي بقي لي من أبي . اسخر مني كما تشاء ..

ثم خاطب بورفير معقبا :

ـ خصوصا وان امي قد وصلت ، وانها اذا علمت ـ وعاد هنا يخاطب رازوميخين يحاول ان يظهر صوته مضطربا ـ نعم اذا علمت بان تلك الساعة فقدت فانها ستنهار الى اقصى درجات اليأس . واقسم لك على هذا ! هكذا النساء !

فقال رازوميخين بحرارة :

ـ لكن الامر ليس كما تقول ! لقد ترجمت فكرتي ترجمة سيئة .. لقد اردت ان اقول العكس تماما .

وكان راسكولنيكوف يخاطب نفسه مغمغما بقلق : « هل بدوت طبيعيا ؟ هل كان ذلك موفقا ؟ الم ابالغ ؟ لماذا قلت هكذا النساء ! » .

سأله بورفير لسبب من الاسباب :

ـ وهكذا اذن فقد وصلت امك ؟

ـ نعم !

ـ ومتى كان ذلك ؟

ـ البارحة مساء !

صمت بورفير وبدا كأنه يرتب امرا ، ثم اضاف بلهجة هادئة باردة :

ـ ان اشياءك لا يمكن ان تضيع بأي حال • اضف الى ذلك انني كنت انتظرك منذ زمن طويل •

ومد يده بمنفضة السجاير الى رازوميخين الذي كان يلقي برماد سيجارته على السجادة دون اشفاق ! وبدا كأنه لم يتلفظ بشيء مهم بينما شعر راسكولنيكوف بانتفاضة •• غير ان بورفير لم يبد عليه انه ينظر اليه بسبب انشغاله بسيجارة رازوميخين •

هتف رازوميخين :

ـ ماذا ؟ كنت تنتظره ؟ انك اذن كنت تعرف بان له اشياء «هناك» •

وفجأة التفت بورفير بيتروفيتش الى راسكولنيكوف ، وقال :

ـ ان اشياءك كلها : الساعة والخاتم ، وجدت « عندها » ملفوفة في الورقة • وكان اسمك مكتوبا بوضوح عليها بالقلم ، وكذلك التاريخ الذي اودعت فيه تلك الاشياء لديها !

فتضاحك راسكولنيكوف بغباوة ، وقال وهو يجهد ان ينظر بثبات في عينيه :

ـ كيف تسنى لك ان تكون مدققا بهذا القدر ؟

لكنه لم يتمالك ان اردف معقبا :

ـ انني اذ ابدي مثل هذه الملاحظة فذلك لانني ولا شك كنت واحدا بين عدد كبير من الراهنين مما يجعل تذكرهم جميعا على شيء من الصعوبة • وأرى انك على العكس تتذكرهم جميعا في دقة

متناهية و ... و ...

وناجى نفسه بقوله : « حيوان ! رعديد ! لم اضفت هذا ! » .

اجاب بورفير بشيء من السخرية :

ــ ذلك لان كل الراهنين قد اصبحوا الان معروفين من قبلي حتى انك الوحيد الذي لم تتقدم بعد بطلب استرداد .

ــ لم اكن متمالكا صحتي تماما !

ــ نعم . لقد سمعتهم يقولون ذلك . بل وقد سمعت انك تعرضت لبعض المضايقات ، وانك تبدو الان ايضا شاحبا .

فقاطعه راسكولنيكوف بخشونة وغضب :

ــ انا لست شاحبا ابدا . على العكس انني على خير ما يرام ..

كان يعصف بين جنبيه غضب عنيف لم يكن يستطيع له ضبطا وكبتا . وكان يفكر في سره : « ان هذا الغضب سوف يجعلني ابتلع الطعم ! لكن ماذا بين ايديهم حتى يعذبونني على هذا النحو ؟ »

وعاد رازوميخين يقول :

ــ لست تماما على خير ما يرام . انها طريقة للكلام فحسب . لقد كان حتى امس غائبا عن وعيه تقريبا . هل تصدق يا بورفير أنه كان امس لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه فلم نكد ندير له ظهورنا ــ زوسيموف وانا ــ حتى ارتدى ملابسه وتسلل دون ضجة ولاصخب ومضى تائها لست ادري الى اين حتى منتصف الليل . وهذا ــ واكرر القول ــ في كامل الهذيان ! فهل تستطيع ان تتصور مثل هذا الامر ؟ انه امر يثير الفضول !

فقال بورفير ، وهو يهز رأسه بحركة نسوية :

ــ باه ! هل يكون قد عمل ذلك اثناء « الهذيان الكامل » !

فقال راسكولنيكوف ، وهو فريسة لغضب متزايد :

ـ ان هذا فظيع •• لا تصدق كلمة مما يقول ! ثم أنك لا تصدق شيئاً •

لكن بورفير لم يبدُ عليه انه اصغى الى تلك الكلمات الغريبة •

وعاد رازوميخين يقول بحماس فجائي :

ـ كيف اذن إستطعت الخروج لو لم تكن تهذي ؟ لم خرجت ؟وماذا كانت غايتك ؟ ولم خرجت متسللا ؟ هيا •• هل تزعم انك كنت حينئذ في كامل قواك ؟ انني استطيع الآن ان احدثك بصراحة بعد ان زال كل خطر !

فخاطب راسكولنيكوف بورفير وقد ارتسمت على فمه ابتسامة هازئة فيها تجد وقح :

ـ لقد قتلني الضجر البارحة ، ولقد فررت لافتش عن مسكن آخر استأجره كي لا يستطيع اكتشاف مكاني ، ولقد اخذت كل ما معي من نقود ، ولقد رآها السيد زاميوتوف ! هيا •• يا سيد زاميوتوف هل كنت متمالكا قواي البارحة ام انني كنت اهذي ؟ ان لك الان الكلمة الفصل في هذا الموضوع •

كان يود من صميم قلبه لو فتك في تلك اللحظة بزاميوتوف لان نظرته وسكوته كانا يسببان له ازعاجا كبيرا •

فاجاب زاميوتوف مصرحا بجفاء :

ـ رأيي انك كنت تتكلم باسلوب رصين ، بل وفي منتهى الحذق • مع ذلك فقد كنت سريع الغضب مفرطا فيه !

ورد بورفير بيتروفيتش بلهجة من يفحم خصمه بالرأي فقال :

ـ لقد ابلغني اليوم نيكوديم فوميتش انه صادفك البارحة في ساعة متأخرة جدا في مسكن موظف دهسته الجياد !

فهتف رازوميخين :

ـ حتى • ولو لم تكن الا قضية هذا الموظف لكانت كافية ! هيا ••
الم تتصرف كالمجانين في مسكن ذلك الموظف ؟ لقد اعطيت آخر ما معك الى ارملته لتقوم بدفع نفقات المأتم • فلو كنت تريد مساعدتها بتعقل لامكنك مثلا اعطاءها خمسة عشر او عشرين روبلا على الاكثر ، ولكنت احتفظت بثلاثة لنفسك • لكنك قذفت بكل روبلاتك الخمسة والعشرين!

ـ لعلني عثرت على كنز ما • فما يدريك انني استلمت لمثل هذا السخاء لهذا السبب ! خذ مثلا • إن السيد زاميوتوف لا يجهل انني عثرت على كنز !

ثم حاطب بورفير بيتروفيتش بشفتين مرتعدتين قائلا :

ـ ارجو ان تعذرنا لاننا اضعنا من وقتك نصف ساعة ونحن نحدثك باشياء على هذا القدر من التفاهة • اننا نزعجك أليس كذلك ؟

ـ عفوا أرجوك • بل العكس ! ليتك تعلم مبلغ ما تستأثر من اهتمامي ! انه لممتع ان يراقبك المرء وان يسمعك تتحدث • واعترف بأنني سررت جدا لانك قررت آخر الامر أن تتقدم بطلب استرداد !

قال رازوميخين :

ـ لكنك تستطيع على الاقل ان تقدم لنا الشاي ! ان حلقي جاف !

ـ فكرة رائعة ! ولسوف نشرب الشاي كذلك • لكن الا تتناول شيئا آخر قبل الشاي ؟

ـ هيا اذهب ! ••

وخرج بورفير بيتروفيتش ليأمر باعداد الشاي بينما كانت الافكار تتزاحم في رأس راسكولنيكوف وتصطخب ! لقد كان في حالة هياج وانفعال هائلين ! كان يخاطب نفسه قائلا : « الادهى في الموضوع أنهم لا يحاولون التستر او الخداع ولا يرتبكون مطلقا ! كيف يتحدث عني الى نيكوديم فوميتش وهو لا يعرفني ! ارى انهم لا يحاولون التستر

علي انهم ماضون في اثري كالكلاب ؟ أنهم يقذفون في وجهي بما في رؤوسهم بصراحة ! .. لكن ماذا دهاكم ! امضوا بصراحة مباشرة بدلا من اللعب معي لعبة القط والفأر ! انها قلة ادب ، يا بورفير بيتروفيتش . ولعلني استطيع كذلك ان لا اسمح لك بها ! لسوف انهض واصفعك بالحقيقة كلها والقيها في « بوزك » وسترى كم احتقرك ! »ثم تمالك بمجهود واسترسل : « ولكن ماذا يكون لو انها كانت محض تصورات من قبلي ؟ نعم مجرد سراب ! ماذا يحدث لو أنني كنت مخدوعا من الاول حتى الاخر وانني انفعل لافتقاري الى التجربة وحاجتي الى امكانية الاضطلاع بهذا الدور الكريه ؟ لعله قال كل ذلك دون سوء نية ! ان كل مواضيعهم ليس فيها شيء غير عادي ! لكن لا شك ان هناك شيئا وراء هذا ! نعم لا شك . نعم ! لم قال مثلا بكل بساطة «عندها» . لماذا اضاف زاميوتوف قائلا انني كنت اتحدث « بدقة » ؟ ثم لماذا يحدثني بتلك اللهجة ؟ نعم .. انها اللهجة ! ان رازوميخين كان حاضرا معي فلم اذن لا يشك في شيء ؟ انه لا يشك في شيء ذلك الأخرق !.. آه .. ها هي ذي الحمى من جديد .. هل غمز لي بورفير بعينه منذ لحظات ام لا ؟ لقد كان ذلك ولا شك فظيعا .. لم يغمز لي بعينه ؟ هل يريدون ارهاق اعصابي والدفع بي الى آخر درجات الاحتمال ؟ اما ان يكون وهما واما ان يكونوا عارفين كل شيء ! حتى زاميوتوف نفسه يبدو مهينا في تصرفه ! لكن هل هو مهين حقا ؟ لعله امضى الليل مفكرا ... كنت اعرف انه سيفكر ! انه هنا كما لو كان في منزله ! مع ذلك فهذه هي المرة الاولى التي يتقابلان فيها ! ان بورفير لا يعتبره كزائر . انه يدير له ظهره وهو جالس . انهما متفقان ! لقد اتفقا على « موضوعي » ! لا شك أنهما كانا يتحدثان عني عندما وصلت . لكن هل يعرفان أنني ذهبت الى ذلك المسكن مؤخرا ؟ آه .. سوف اعرف ذلك بسرعة . عندما قلت انني فررت لافتش عن مسكن جديد لم يعر

هذه الجملة التفاتا •• نعم ، لقد تصرفت ببراعة اذ حشرت قضية المسكن الجديد لان ذلك قد يفيدني في المستقبل •• ! في حالة هذيان •• فكر قليلا • هاهاها ! انه لا يجهل شيئا مما وقع امسية البارحه ، ثم يجهل وصول امي ! آه تلك الساحرة ! لقد كتبت التاريخ بالقلم ! انك تكذب! لن استسلم لان هذه ليست بعد ادلة •• انها سراب ، أهذا ما تسمونه « الوقائع » والادلة ؟ ان زيارة المسكن نفسها ليست دليلا • انها تفسر بالهذيان ، انني أعرف ماذا يجب ان اقول لهم •• لكن هل يعرفون بما تم في ذلك المسكن ؟ لن اذهب قبل ان اتأكد من الامر ، لكن لم جئت ؟ حسنا ••• ها انني على وشك الاسترسال في الغضب ، ان ذلك وحده يشكل دليلا • يوه ، كم انا سريع الغضب ، لكن لعل ذلك افضل ••• سابقى في دوري كالمريض ! •• لسوف يرهقني ••• ليجعلني افقد السيطرة على اعصابي •• لِمَ جئت ؟ »

مرت هذه الافكار في رأسه بسرعة البرق الخاطف •• وفي تلك اللحظة عاد بورفير بيتروفيتش بادي الانشراح وقال مخاطبا رازوميخين ببشاشة :

ـ يا عزيزي ••• لقد كان رأسي ••• بعد حفلتك امس ، ولا زلت حتى الان مبلبلا •

ـ طبعا لان الامر كان يستحق الاهتمام • ولقد تركتكم مساء امس في ادق المواقف ، من منكم انتصر أخيرا ؟

ـ شخصي الضعيف بالطبع • لقد ركبوا جميعهم اراءهم السخيفة وراحوا يركضون بها مسرعين •

فقال رازوميخين موجها حديثه الى راسكولنيكوف :

ـ تصور يا روديا انهم بدأوا النقاش حول هذه النقطة : « هل ثمة جرائم ام لا ؟ » لقد كانت فظيعة جدا تلك السخافات التي صدرت عنهم

في ذلك النقاش .

فقال راسكولنيكوف بصوت حالم :

ـ انها مع ذلك مسألة اجتماعية من اكثر المسائل شيوعا .

فاعترض بورفير قائلا :

ـ ان المسألة لم تكن محدودة على هذه الصورة

فابدى رازوميخين موافقته وقد استسلم للتحمس على عادته وقال :

ـ لم تكن تماما كما قلت ، صحيح . انتبه ، يا روديا ... اسمع واعطني رأيك انني ألح على سماع رأيك ، وقد كنت اغلي في جلدي البارحة بانتظار حضورك ، وقد اخطرتهم بانك ستحضر . ان وجهة نظرهم معروفة وهي : الجريمة هي استنكار ضد التنظيم الاجتماعي السيء . هذا فقط ولا عذر آخر يقبلونه .

فصاح بورفير بيتروفيتش :

ـ لقد كذبت !

وكان بادي التيقظ لأنني يضحك وهو يراقب رازوميخين ، الامر الذي زاد في اثارة هذا الاخير .

فقاطعه رازوميخين ، وهو يتقد كشعلة نار :

ـ اي عذر آخر غير مقبول ! .. انا لا اكذب ! لسوف اضع امام عينك كل كتبهم . انهم لا يعترفون الا على ان كل شيء يصدر عن « الوجود الفاسد الوسط » ولا شيء غير هذا ... تلك هي جملتهم المفضلة . ومن ذلك يستنتجون انه اذا عمد الى اعادة المجتمع فان الجرائم ستختفي ! خطوة واحدة فقط ... لانه ليس يبقى عندئذ ما يحتج الانسان عليه . ولسوف يجد الجميع أنفسهم عادلين بمثل لمح البصر ! اما الطبيعة فليس لها حساب ! ان الطبيعة نفسها القي بها الى الباب ! لانهم لا يتقبلونها ! انهم لا يعتقدون ان هذه الاشياء مردها الى

الانسانة التي تتطور حسب الامتداد التاريخي « بشكل عنيف حي » ، بحيث سيمكنها اخيرا من تشكيل مجتمع خاضع للقانون ، مجتمع طبيعي! بل انهم يؤمنون بالعكس ... يؤمنون بلون او نظام اجتماعي ينبعث من دماغ رياضي ، يستطيع بلهجة واحدة ان ينظم الجنس البشري كله وان يجعله عادلا وغير قابل للخطأ . وانه افضل من اي نظرية تطور حيوي وأفضل من كل النظريات التاريخية والحية . ومن أجل هذا تراهم بغريزتهم يكرهون التاريخ لانه : « ليس فيه الا تشويهات وحماقات » على حد قولهم ! ولهذا السبب ايضا يكرهون اعظم الكراهية التطور « الحيوي » للحياة : غذاء الروح « الحية » ! ان الروح الحية لهما متطلباتها ، ان الروح الحية لا تخضع بشكل آلي ، ان الروح الحية متشكلة بطبعها ، ان الروح الحية مبدعة فاذا ماتت فانه لا يمكن ان نصنع واحدة من المطاط وهي بالطبع لن تكون حية لتكون وديعة تخدم ولا تتمرد ! كل هذا لكي نصل الى حيث قادونا لنؤمن بعدد من القرميد مقسم الى مماشي وغرف يطلقون عليها اسم « الفالانستري (١) » . ان هذا المأوى جاهز عندهم ولم يبقَ الا الطبيعة التي لا تتفق واياه . فهي تريد الحياة : انها لم تنته بعد من سنة التطور الحيوي وترى أنه لم يحن الوقت بعد لتدفن ! ان من المستحيل ان يقوم المرء بقفزة فوق الطبيعة مستعينا بالمنطق فقط ، ان المنطق يكشف عن ثلاث نقاط بينما هناك الملايين ! فلنحذف اذن تلك الملايين من النقاط لنقصر على مسألة الرفاه وحدها .. انها اسهل الطرق لحل المعضلة ! انه امر عظيم الوضوح حتى ليغري المرء بالاستسلام اليه ! لن تكون هناك حاجة الى التفكير . طبعا ان الامر الرئيسي هو انه لم تعد هناك حاجة الى التفكير ! كل اسرار الطبيعة يمكن ان تحصر وتحشر في ورقتين مطبوعتين !

---

(١) مسكن الوحدة الاشتراكية !

فقال بورفير ضاحكا :

ـ هاها ! ... ها هو ذا قد انحل عقاله بالانفجار ! اقبضوا على ذراعه ! ... تصور يا راسكولنيكوف انه كان على هذه الحال امس وكان هذا الانفجار يقع في غرفة وحيدة تدوي فيها خمسة او ستة أصوات معاه والادهى، أنه كان قبل ذلك قد أغرقنا في الشراب فتصور الموقف الان ! كلا يا صديقي .. انك على خطأ . ان «الوسط» على جانب عظيم في الجرائم : انني اؤكد لك ذلك !

ـ وانا اعرف ايضا انه ذو تأثير كبير . لكن قل لي بربك : ذلك الرجل الذي في الاربعين من عمره والذي ينتهك عرض فتاة في العاشرة من عمرها . هل هو الوسط الذي جعله يميل الى ذلك ؟

فاجاب بورفير بلهجة جدية مدهشة :

ـ بالمعنى الصحيح للكلمة ، يجوز ان نقول انه الوسط . ان انتهاك عرض فتاة يمكن ان يفسر بوضوح تحت تأثير « الوسط » .

كاد رازوميخين ان يثور من الغضب فقال مزمجرا .

ـ حسنا ... اذا شئت سأثبت لك فورا انه اذا كانت اهدابك بيضاء فان ذلك سببه ان برج جرس « سان جان كليماك » يرتفع الى علو مائتين وثلاثين قدما . ولسوف اثبت لك ذلك بوضوح ودقة ، بسبيل وبشكل متحرر من المذاهب الدينية . لسوف استطيع ، فهل تقبل الرهان؟

ـ اقبل . انني في شوق الى معرفة الوسيلة التي ستستخدمها لتصل الى ذلك الاستنتاج .

فصرخ رازوميخين :

ـ هيا ... انك لا تحسن الا التلاعب بالالفاظ . يا للشيطان !

ثم قفز من مكانه وقام بحركة فيها معنى التحدي ، وقال :

ـ هل يستأهل التحدث معك كل هذا العناء ؟ انه يلجأ الى هذا بناء

على خطة مرسومة ! انك لا تعرفه بعد يا روديا . لقد كان البارحة يؤيدهم لا لشيء الا ليزيد في هياجهم وجنونهم . والله يعلم ما هي النقاط التي استخلصها البارحة . اما هم فقد كانوا يهتزون طربا لسماعه .. انه قادر على السخرية خمسة عشر يوما متتالية ! لقد اوهمنا في العام الماضي بان في نيته – لسبب ما – ان يدخل في سلك الكهنوت . ولقد استمر شهرين يسخر منا على هذا الشكل . وحديثا خطر بباله ان يوهمنا بانه سيتزوج وان كل شيء قد اعد للحفلة . حتى انه اوصى على ثوب جديد . ولقد رحنا نهنئه ولم يكن ينقصه الا ... الزوجة الموعودة . كان كل شيء سرابا .

– ان هذا غير صحيح ! لقد اوصيت على الثوب اولا . ولقد خطر لي ان اسخر منكم قليلا عندئذ والفكرة نبتت في رأسي من الثوب الجديد .

فسأل راسكولنيكوف باهمال :

– هل حقيقة انك محب للسخرية الى هذا الحد ؟

– هل كنت تعتقد انني لم اكن ساخرا ... حسنا انتظر . لسوف اصطادك أنت الاخر . هاهاها ... ! كلا ... لسوف اقول لك الحقيقة . وعلى فكرة فان كل هذه المسائل : الجريمة والوسط والفتيات الصغيرات ، لقد تذكرت في هذه اللحظة مقالا كتبته انت بعنوان « جريمة » او اي عنوان آخر مماثل ، لا اذكره ! ان هذا المقال اثار اهتمامي . ولقد كنت مجدودا اذ قرأته منذ شهرين في جريدة « الباروك بيريوديك » (الكلمة الدورية) .

– مقالي ؟ في هذه الجريدة ؟ آه صحيح . لقد كتبت مقالا منذ ستة اشهر عندما خرجت من الجامعة لكنني ارسلته الى « الباروك هيبدومادير » ... (الكلمة الاسبوعية) .

ـ حسنا ، ولكنه آل الى جريدة (الكلمة الدورية) .

ـ لكنهم لم ينشروها في ذلك الحين لان تلك الجريدة توقفت عن الصدور ...

ـ صحيح لقد توقفت عن الصدور ولكنها انضمت الى الجريدة الاخرى ، ولهذا السبب ظهر مقالك منذ شهرين في الجريدة الاخيرة. ألم تكن تدري بذلك !

كان راسكولنيكوف يجهل هذا التفصيل فاسترسل بورفيريتروفيتش:

ـ انك تستطيع استغلال مقالك ماديا ... يا للعقلية الغريبة التي عندك ! انك تعيش في وحدة عجيبة حتى انك لا تلاحظ الاشياء التي تهمك اهمية وثيقة .. ان هذه ملاحظة دقيقة !

فهتف رازوميخين :

ـ مرحى يا روديا ، وانا ايضا كنت اجهله .. لسوف اهرع اليوم بالذات الى مكتب القراءة لاطلب هذا المقال ! لقد مضى على ظهوره شهران ؟ اي تاريخ على الضبط ؟ حسنا هذا لا يهم ، لسوف ابحث ... تلك هي نكتة طيبة ! ولا يعترف بها !

ـ ولكن كيف استطعت أن تعرف بأن المقال لي ، وأنا لم اوقع عليه الا بالاحرف الاولى ؟

ـ مجرد الصدفة ! كان ذلك منذ ايام وقد عرفته بواسطة المدير الذي لي به بعض الصلة . لقد اجتذب مقالك كل اهتمامي .

ـ اذكر أنني كنت احلل فيه الحالة النفسية لقاتل خلال مراحل جريمته.

ـ وكيف ! لقد كنت تبرهن على ان ارتكاب الجريمة ترافقه دائما حالة مرضية ! انها وجهة نظر مبتكرة ، جديدة تماما ! لكن ليست هذه الناحية من المقال هي التي استلفتت انتباهي .. هنالك فكرة ما اوردتها في نهاية المقال لم تعن بايضاحها عناية جيدة لسوء الحظ ، بل اقتصرت

على التلميح اليها تلميحا غامضا • والخلاصة ــ اذا كنت تذكر ــ فانه بحسب فكرتك تلك فانه سيكون هناك بعض الاشخاص الذين يستطيعون اعني لا يستطيعون فحسب بل ان لهم كل الحق في ان يرتكبوا اي لون من الاعمال المخلة ومن الجرائم ، وان القانون بالنسبة اليهم لا وجود له !

ابتسم راسكولنيكوف لذلك التفسير الاختياري الغادر لفكرته ، بينما هتف رازوميخين بشيء من الخوف :

ــ كيف ؟ ماذا ؟ الحق في ارتكاب الجريمة ؟ لعلك تقول ان ذلك ايضا نتيجة « لتأثير الوسط » ؟

فقال بورفير بيتروفيتش :

ــ كلا كلا ليس ذلك تماما • المسألة هي انه في مقاله قسم الناس الى نوعين مخلوق « عادي » ومخلوق « غير عادي » • وفرض على « اولئك » ان يعيشوا مطيعين دون ان يعطيهم الحق في تجاوز القانون وخرقه لانهم كما ترى مخلوقات عادية ، اما الاخرون فان لهم الحق في ارتكاب الجرائم وخرق كل قانون لمجرد كونهم مخلوقات غير عاديين ! أليست هذه فكرتك ، ام تراني مخطئا ؟

فغمغم رازوميخين :

ــ كيف ذلك ؟ لا يعقل ان تكون كذلك !

بينما عاد راسكولنيكوف من جديد الى ضحكته الساخرة • فهم للوهلة الاولى الهدف الذي يقصده بورفير وعرف ما يريد أن ينتزع منه ! كان يذكر مقاله لذلك فقد قبل التحدي • فشرع يقول ببساطة واعتدال :

ــ ليس الامر كذلك تماما • غير انني أعترف على كل حال بأنك فسرت فكرتي بأمانة تقريبا ، بل لنقل انك فسرتها بأمانة تامة ! (لقد

كان يسره الاعتراف بأن تلك الفكرة فسرت بأمانة) • انما الفرق كل الفرق هو في أنني لا ألح أبدا على أن يكون الاشخاص غير العاديين مدعوين الى ارتكاب كل الاعمال المخلة وفي كل مناسبة كما فسرت الامر • لو كان ذلك صحيحا لحذفت المراقبة المقال ولمنعته ! لقد برهنت أو أبرزت ببساطة أن الرجل غير العادي ، ولنقل المتفوق ، له الحق ــ ولا أقصد الحق الرسمي ــ بل أنه له الحق شخصيا أن يسمح لوجدانه بتخطي ••• بعض العقبات ، وبصورة خاصة في الحالات التي يقتضيها تنفيذ فكرته التي يتوقف عليها انقاذ الجنس البشري كله •

انك تزعم أن مقالي كان ينقصه الوضوح وأنا على استعداد لتفسيره لك في حدود الممكن ! انني لا أخطىء اذا افترضت أن تلك هي رغبتك كما يبدو ! حسنا ••• انني رهن أوامرك : « أنا أرى أن اكتشاف كيبار (١) ونيوتن مثلا اذا قدر لها لسبب من الاسباب أن لا تتم الا بتضحية حياة رجل أو عشرة رجال أو أكثر من المائة رجل الذين أرادوا مثلا أن يحولوا دون ظهورها أو أن يعترضوا سبيلها ، فان لنيوتن عندئذ الحق ، بل أن من واجبه : أن يزيح هؤلاء العشرة أو المائة من الرجال ليهدي اكتشافاته الى البشرية ! غير أن ذلك لا يعني بالمقابل أن لنيوتن ــ بموجب هذا ــ الحق في أن يفتك بكل من يريد أو أن يسرق كل يوم في الاسواق ! ثم انني أذكر انني شرحت هذه الفكرة في مقالي بمايلي :

• ان كل ــ ولنسمهم ــ المنشئين ، البناة ، المشرعين لخير الانسانية ،

---

(١) فلكي الماني ولد عام ١٥٧١ وتوفي عام ١٦٣٠ ، اخرج عدة مؤلفات هامة اهمها « قوانين كيبلر » التي استطاع نيوتن بفضلها استنباط نظرية الجاذبية ــ المترجم ــ •

ابتداء من أقدم القدماء منهم من: ليكرك (١) Lycurgue وسولون (٢) Solon ونابوليون الخ ... كلهم كانوا قتلة رغم أنهم بدون ذلك ما كانوا ليستطيعوا ابداع قانون جديد . فقد عمدوا جميعهم الى فسخ القوانين القديمة التي كانت مقدسة من قبل المجتمع وموروثة عن الاقدمين. واضطروا لبلوغ غاياتهم أن يهدروا الدم فلم يتراجعوا عندما أصبح ذلك الدم - رغم أنه كان دم بريء أحيانا يسفح فداء للعقيدة السابقة - يسهل مهمتهم . وينبغي كذلك أن نلاحظ أن معظم هؤلاء المحسنين وبناة الانسانية كانوا وحوشا دمويين بصورة خاصة . ومن هنا نستنتج أنهم جميعا - ولا أقول الكبار منهم - كانوا مستعدين بطبيعتهم لأن يكونوا قتلة على شكل ما لمجرد أنهم كانوا أعلى من الوسط ، أي لمجرد أن أتوا بشيء جديد ! كان عسيرا عليهم أن يرتفعوا عن الوسط بغير هذا الاسلوب، ولم يكونوا ليرتضوا البقاء فيه وذلك نظرا لاستعدادهم الطبيعي. واني أرى أنه كان من واجبهم أن لا يبقوا في الوسط . والخلاصة انك ترى أنه لا يوجد شيء جديد جدا حتى الآن في كل هذا !

أما فيما يتعلق بتقسيمهم الى أشخاص عاديين وغير عاديين فانني أوافقك على أنها فكرة غير مدروسة تماما لكنني لم أذكر أرقاما دقيقة. وأنا لا أؤمن الا بوجهة نظري الرئيسية . وهي تقوم على أساس أن المخلوقات بحسب قوانين الطبيعة ينقسمون بصورة عامة الى قسمين : القسم الاول وهم المرؤوسون ، أولئك الذين لا يصلحون الا ليكونوا

---

(١) ليكرك : شخص اعتبر مشرع سبارطه ، طاف في بلاد كثيرة وعاد بتجاربه وملاحظاته فوضع قوانين وطنه . عاش - بحسب الاسطورة - في القرن التاسع قبل الميلاد . - المترجم - .

(٢) مشرع لثينا وواحد من حكماء اليونان السبع ٦٤٠ - ٥٥٨ قبل الميلاد . كان ذو فضل عميم على مواطنيه من الناحية التحريرية - المترجم -

« مادة » تصلح فقط للتزاوج واكثار النسل ، أما القسم الثاني ، فهو الموهوبون الذين أعطوا ميزة النطق في وسطهم « بكلمة من جريدة ». هناك ولا شك تقسيمات ثانوية عديدة جدا ، ولكن الخطوط الايضاحية لهذين القسمين حاسمة تماما . القسم الاول ، أي قسم « المادة »، يضم في عداده أولئك المحافظين بالفطرة ، المطيعين الخاضعين الذين يسرهم أن يحيوا في الطاعة ، فهم ــ على ما أرى ــ مدعوون الى الطاعة لأن ذلك هو مصيرهم الذي لا يجدون أية غضاضة فيه . أما القسم الثاني، المنشئون ، فانهم جميعا يخرقون القانون ؛ كلهم مدمرون أو أن لديهم استعدادا ليكونوا كذلك ، بحسب ميزاتهم واستعداداتهم . فجرائم هؤلاء الرجال هي ولا شك تابعة لآرائهم وأهدافهم ومتعددة الاشكال، غير أن معظمهم يتطلبون بواسطة وسائل متفرقة متعددة تهديم الحاضر بأسم شيء أفضل . فاذا اقتضى الأمر واحدا منهم أن يمر فوق جثة أو نهر من الدماء فانه ــ بحسب وجهة نظري ــ يقرر بكل راحة ضمير المرور فوق ذلك النهر من الدماء في سبيل فكرته وبموجبها فقط ــ ولاحظ هذا الشرط ــ .

لقد قلت في مقالي ان الرجال لهم الحق في أن يتسلوا على هذا الأساس وفي هذا الاتجاه . انك تذكر بأننا بدأنا بحثنا من نقطة قضائية (شرعية) . ثم انه ليس هناك من الاسباب ما يدعو الى كثير من الاستنفار ! لأن سواد الشعب ــ غالبا ــ لا يعترف لهؤلاء بهذا الحق بل انه يعذبهم ويقتلهم ــ على شكل من الأشكال ــ وهو في هذا يعمل استنادا الى حقه لأن السواد الاعظم من الشعب ، ولنقل « المجموعة »، تنجز بهذا العمل مهمتها كمجموعة محافظة رغم أن تلك المجموعة بالذات ترفع عادة في الاجيال المقبلة التماثيل لأولئك الذين عذبتهم وقتلتهم ، وتحرق البخور أمام تماثيلهم باكية (على شكل من الأشكال ايضا) .

رغم هذا كله فان القسم الأول هو القسم السيد ، سيد الحاضر دائما ، وأما القسم الثاني فانه سيد المستقبل ! فأولئك يحافظون على زيادة الكمية العددية في العالم ، وهؤلاء يحركون العالم ويوجهونه نحو الهدف . ولهؤلاء كل الحق في الحياة . وبكلمة موجزة فان لكل في نظرياتي حقا متساويا وستبقى الحرب سجالا أبدا ، حتى ايجاد أورشليم جديدة ! فهل تجد كلامي واضحا ؟

ــ هكذا اذن تؤمن بأورشليم جديدة !

فأجاب راسكولنيكوف بصوت حازم :

ــ انني أؤمن ...

كان راسكولنيكوف خلال الوقت الذي استغرقه شرح نظريته مطرقا بعينيه الى الارض شاخصا ببصره الى نقطة ما على السجادة .

ــ و ... هل تؤمن بالله ؟ اعذرني اذا سألتك هذا السؤال المتطفل ...

فكرر راسكولنيكوف قوله ، وهو يرفع عينيه الى بورفير :

ــ أؤمن !

ــ وهل تؤمن بقيام أليعازار ؟

ــ أنا ... انني أؤمن ! لم تطرح علي هذه الأسئلة !

ــ هل تؤمن بذلك حرفيا ؟

ــ حرفيا ...

ــ اسمح لي أن أعود اذن مجددا الى ما كنت تقوله ... انه لمجرد الفضول . ألا تجد أن هناك بعضا من السادة لا يرسلون دائما الى الموت والعذاب بل على العكس ...

ــ تقصد أنهم يشهدون نتيجة أعمالهم في حياتهم ؟ آه نعم لان بعضهم يبلغ هذا الظفر في حياته ! لكن في هذه الحالة ...

ـ انهم هم أنفسهم الذين يرسلون الآخرين الى الموت ؟

ـ عندما يقتضي الأمر ذلك فان غالبينهم تنهج على هذا الشكل • ان ملاحظتك لا تخلو من الدقة !

ـ أشكرك • لكن قل لي كيف يمكن التمييز بين الرجل العادي والرجل غير العادي ؟ هل يلدون وفي أجسادهم علامات مميزة ؟ أريد أن أقول انه ينبغي هنا بعض التحديد أو على الأقل علامات خارجية مميزة ! أرجو أن تعذر هذا الاهتمام الطبيعي في الموضوع لدى رجل عملي حسن القصد • لكن أردت أن أقول : هل ينبغي هنا أن يلبس مثلا لونا خاصا من الثياب أو أن يحمل طابعا خاصا مميزا ؟ لأنه ـ وأعتقد أنك توافقني ـ اذا بقي الامر مختلطا فان أي رجل عادي من هذه الفصيلة سوف يعتقد أنه يمت الى الفصيلة المفضلة ، وعندئذ لسوف يعمل « حذفا » و « ازاحة » في العوائق كما شرحت بجلاء وصفاء منذ قليل • وعندئذ •••

ـ صحيح ! أن هذا يحدث غالبا ! ان هذه الملاحظة أكثر دقة من الأولى •

ـ أشكرك •

ـ العفو ! لكن أرجو أن تلاحظ بأن الخطأ لايمكن وقوعه في هذه الحالة الا من فصيلة الرجال العاديين كما أسميتهم ، اذ أنهم على الرغم من انحرافهم النظري نحو الطاعه فان عددا منهم ـ بفعل ميل طبيعي لا تخلو منه حتى البقرة ـ قد يميل الى اعتبار نفسه من الرجال المتقدمين « الهدامين » ، ويستمرون في البحث عن « الكلمة الجديدة » • الامر الذي يؤدونه باخلاص عميق • وانه ليحدث بينهم غالبا ألا يلاحظوا أولئك الذين يمكن تسميتهم « بالمبدعين » فيحتقرونهم وكأنهم أشخاص متأخرون ذوو تفكير منحط • لكنني أرى أنه لن يكون في ذلك خطر

شديد ، فلا تبتئس لأنهم غالبا لا يقطعون شوطا بعيدا ! صحيح أنه يجوز في بعض الحالات أن يتعرضوا للجلد بسبب اندفاعهم ليعادوا الى أمكنتهم ، ولكن ليس أكثر من هذا خصوصا وأنهم ليسوا في حاجة الى من يتكفل بجلدهم . فهم على استعداد لاعطاء أنفسهم السوط لانهم اشخاص شديدو التمسك بالاخلاق والمثل ، حتى أن بعضهم يؤدي تلك « الخدمة » الى البعض الآخر هذا اذا لم يقم بها بنفسه . ثم انهم يحتملون عدا عن هذا عقوبات علنية عديدة تجعلهم متحفظين جذرين . والخلاصة لا أجد سببا لقلقك ... ذلك هو القانون .

ـ حسنا . لقد طمأنتني من هذه الناحية على الاقل . ولكن ثمة بلاء آخر . قل لي أرجوك : أهم عديدون أولئك الذين يحق لهم ذبح الآخرين ، أقصد أولئك « غير العاديين » ؟ انني بالطبع على استعداد للانحناء أمامهم ، لكنك لا تستطيع الا أن توافقني بأن كثرتهم تحدث رعبا في النفس وبرودة في الظهر .

فأجاب راسكولنيكوف بلهجة مماثلة :

ـ لا تكتئب من أجل هذا أيضا اذ أنه على العموم لا توجد كثرة من الرجال الذين لديهم « فكرة جديدة » أو الذين يستطيعون النطق بشيء « جديد » . انهم قلة بشكل غريب . انما هناك شيء واضح ، ذلك هو أن نظام ولادة الاشخاص في كل هذه الفصائل والاقسام ينبغي أن يكون موضحا بشكل دقيق لا يقبل الخطأ بواسطة قانون طبيعي . وهذا القانون ـ كما لا شك يعتقد ـ هو في الوقت الحاضر مجهول . لكنني أؤمن بوجوده وبأنه سيصبح معروفا في المستقبل ! ان على هذه الارض كتلة هائلة من الناس لم تخلق الا لتنجب للعالم رجلا واحدا يملك شيئا قليلا من الاستقلال . وهي ـ هذه الكتلة ـ تجهد نفسها في سبيل ذلك بحسب نظام تطوري غامض حتى الآن وبواسطة اشتباك

معين في الأصول والانواع . أما أولئك الرجال الذين هم على درجة عالية من الاستقلال فانهم لا يخلقون الا بمعدل واحد الى عشرة آلاف، والنسبة هنا فرضية . أما الأرفع مكانة من هؤلاء فواحد الى مائة ألف. والعباقرة موزعون بين ملايين من الرجال العاديين أما أولئك العباقرة العظام الذين هم تاج الجنس الانساني فانهم واحد الى ألف مليون بل ولعل العالم ينتهي قبل أن يولد واحد من هذا النوع . والخلاصة انني لم أنظر في تلك البوتقة التي يصنع فيها كل هؤلاء . لكن هناك ولا شك من هم على هذا الغرار . وينبغي أن يكون هناك قانون محدود وعندئذ لن يكون للصدفة وجود .

هتف رازوميخين :

ـ رباه ! لا شك أنكما تمزحان ! هل أنتما في سبيل الهزء على بعضكما ؟ هل تتحدث جديا ، يا روديا ؟

ران السكوت ورفع راسكولنيكوف الى صديقه وجها شاحبا حزينا ولم يجب ، والى جانب ذلك الوجه الهادىء المتألم بدا لرازوميخين أن لهجة بورفير كانت تحمل تحديا صريحا واستثارة غريبة و « قلة أدب » .

وعاد رازوميخين يقول :

ـ حسنا ، يا عزيزي . اذا كان هذا جديا فانك على حق ولا شك اذ تقول ان ليس في هذا شيء جديد ، وانه يشبه ما قرأناه وسمعناه ألف مرة . بيد أن الجديد كل الجدة في هذا الموضوع والذي لا يمكن أن يكون لسواك والذي أنظر اليه برهبة هو تقريرك بأنه من الحق اهراق الدم بكل « راحة ضمير » ، الأمر الذي تقرره ـ واسمح لي أن أقول ـ بكل تعصب . ان في ذلك على ما أعتقد الفكرة الرئيسية لمقالك : ذلك السماح بسفك الدم « بكل راحة ضمير » ... يبدو لي أكثر فظاعة

مما لو كان سماحا رسميا قانونيا .

فأجاب بورفير :

ــ صحيح تماما . انه أشد فظاعة .

وصرخ رازوميخين منفعلا هائجا :

ــ كلا لقد شططت كثيرا . سوف أقرأ ... لقد شططت كثيرا، لا يمكنك أن تفكر في هذا ... لسوف أقرأ المقال .

فأجاب راسكولنيكوف مهدئا صديقه :

ــ لايوجد شيء في المقال من هذا كله . ان ما فيه ليس الا مجرد تورية .

فقال بورفير على الفور :

ــ نعم ، نعم . أستطيع الآن تقريبا أن أرى بوضوح الطريقة التي تتصور بها جريمة ... أرجو أن تعذر الحاحي ، فانني أرهقك كثيرا ، وانني لجد آسف ... لكن أرى أنك منذ قليل طمأنتني كثيرا فيما يتعلق بالاختلاط الذي يمكن أن يقع بين الفئتين . لكن هناك مع ذلك بعض الحالات التي تقلقني خشية أن تخرج هي الأخرى الى الحيز العملي . لنفرض مثلا أن رجلا أو شابا تصور أنه ليكرك ــ مستقبلا بالطبع ــ وأنه راح فوراً يزيل العقبات التي تعترض سبيل القيام بمهمته فيحدث نفسه بقوله : « يجب علي أن أنجز مهمة شاقة طويلة وعليه يجب أن تزود هذه المهمة بالمال » . وعندئذ يأخذ في تدارك ذلك المال، وأنت ولا شك تتصور الآن بأي شكل ، فماذا تقول في ذلك ؟

لم يكد بورفير يبلغ هذه النقطة من حديثه حتى صدرت عن زاميوتوف وهو في زاويته حركة تلفت النظر، غير أن راسكولنيكوف لم يعن حتى بالالتفات اليه بل أجاب بلهجة هادئة :

ــ ينبغي أن أعترف بأن حالات كهذه قابلة الوقوع . ان السخفاء

والمغرورين هم غالبا الذين يبتلعون هذا الطعم وبصورة خاصة الفتيان الشبـاب .

ـ أرى أنك قد فهمت الأمر . وعندئذ ؟

فتضاحك راسكولنيكوف وقال :

ـ وعندئذ ؟ انها ليست خطيئتي . إن ذلك واقع وسيبقى دائما .

ثم أشار الى رازوميخين وقال :

ـ انظر الى هذا . لقد قال لي منذ قليل بأنني سمحت بأراقة الدم ولكن هل المجتمع غير محمي بالنفي والسجون و « الليمانات » وقضاة التحقيق حماية كافية ؟ لم الاكتئاب اذن ؟ « سيروا في أثر السارق » ..

ـ واذا قبضنا عليه ؟

ـ يكون قد استحقها عندئذ .

ـ انك منطقي على الأقل . ولكن ماذا بصدد وجدانه ؟

ـ وماذا يهمك من هذا ؟

ـ انه سؤال أملاه شعور انساني .

ـ على ذلك الذي يمتلك وجدانا أن يتعذب اذا كان يعترف بخطئه . انه عقاب اضافة الى عقاب الأشغال الشاقة .

فسأل رازوميخين ، وهو يقطب حاجبيه :

ـ لكن ... الرجال العباقرة . أولئك الذين أعطي لهم حق القتل لا ينبغي لهم أن يتألموا مطلقا حتى ولو أراقوا الدم . أليس كذلك ؟

ـ لم هذه الكلمة « لا ينبغي لهم » ؟ ليس هناك سماح ولا منع . ليتألم ذلك الذي يشفق على ضحيته ! ان الألم اجباري بالنسبة لضمير كبير وقلب عميق . ان على الرجال العظام ـ على ما يبدو ـ أن يتألموا على الأرض ألما شديدا .

نطق راسكولنيكوف بهذه العبارات الأخيرة وهو متناهم وبلهجة

فريدة لم تصدر عنه منذ بدء الحديث . ورفع عينيه ونظر الى محدثيه وعلى وجهه مسحة من الاستغراق ثم أخذ قبعته في يده . كان هادئا جدا بالنسبة للطريقة التي دخل بها أول مرة منذ قليل ، وكان يشعر بذلك شخصيا فنهض الحاضرون جميعا وقال بورفير بيتروفيتش بلهجة من يختتم حديثا :

ـ سواء شتمتني أم لم تشتمني ، وسواء غضبت أو لم تغضب فان ذلك كان أقوى من أن أستطيع كبته . وانني ـ اذا سمحت ـ لا زلت أحتفظ بسؤال صغير رغم أنني أضايقك : أحب أن أعرض فكرة صغيرة خشية أن أنساها .

فأجاب راسكولنيكوف بلهجة خطيرة ، وهو شاحب الوجه :

ـ حسنا ، قل فكرتك الصغيرة ...

ووقف أمام قاضي التحقيق وقفة المنتظر .

ـ حسنا ... الحقيقة أنني لست أدري كيف أعبر عن رأيي بالشكل الافضل ... انها فكرة قريبة من المجون ... فكرة « بسيكولوجية » ... أردت أن أقول : عندما كنت تدبج مقالك ، ألم يحدث مثلا أن اعتبرت نفسك رجلا غير طبيعي تحمل « كلمة جديدة » في المعنى الذي تفهمه ؟ ألم يحدث ذلك ولو لفترة وجيزة ؟

فأجاب راسكولنيكوف باحتقار :

ـ محتمل جدا .

ولم يتمالك رازوميخين نفسه آنئذ من اظهار انفعاله بالحركة ، بينما أضاف بورفير بيتروفيتش :

ـ لئن كان كذلك . ألا يمكن أن تكون ـ بسبب اصلاح بعض العثرات الشخصية أو التخلص من الارتباك أو مثلا لزيادة سرعة سير الانسانية الى الامام ـ أردت أن أقول ألم يحدث لك لهذه الاسباب أن

تكون قد قررت تخطي العقبة ؟ مثلا القتل والسرقة ؟

وفجأة غمز بعينه اليسرى وضحك ضحكة مكتومة كما وقع منه منذ قليل تماما . فرد راسكولنيكوف بلهجة احتقار متعالية وبتحد :

ـ لو أنني اجتزت العائق لما كنت أحدثك عن اجتيازي له بالطبع .

ـ طبعا كلا ! ان شيئا واحدا يثير اهتمامي في كل هذا ، وهو طريقة تفسير مقالك من وجهة نظر أوروبية بحتة .

راح راسكولنيكوف يخاطب نفسه بقولـه : « بدأ الآن الغاية واضحة تماما » . ثم أجاب بصوت مرتفع قائلا :

ـ اسمح لي أن ألفت نظرك الى أنني لا أعتقـد في نفسي أنني نابليون ، حتى ولا أي شخص من هذا الطراز . وعلى ذلك ، وبما أنني لست واحدا منهم ، فانني لا أستطيع اعطاءك جوابا مقنعا عن الطريقـة التي أسلكها .

فأجابه بورفير بلهجة أليفة جدا :

ـ هيا واسمح لي ! من منا في روسيا الآن لا يعتقد نفسه نابليونا ؟

كان في تلك الجملة شيء خاص واضح يمكن ادراكه من اللهجة التي قيلت بها ، خصوصا حينما قال زاميوتوف دون أن يبارح زاويته :

ـ أو ليس نابليونا « مـستقبلا » ذلك الذي ذبح في الاسبوع الماضي آليونا ايفانوفنا ؟

صمت راسكولنيكوف وحدق في وجه زاميوتوف بنظرة حازمة ثابتة بينما اشتد انفعال رازوميخين ... لقد بدأ هذا يلاحظ منذ لحظة قصيرة أن في الجو شيئا ، لذلك فقد أخذ يجيل فيمن حوله نظرة غاضبة وقد خامره الشك فيما ينوون . ومضت دقيقـة من سكون مخيف ابتدأ راسكولنيكوف بعدها يحاول الخروج .

هتف بورفير بوداعة وهو يمد يده بتودد عظيم

ــ أتذهب اذن ! لقد كنت سعيدا جدا جدا بالتعرف اليك . أما فيما يتعلق بطلب الاسترداد فلا تشكن في أنه لن يكون ذا نتيجة مرضية . فقط اكتب في المعنى الذي بينته لك ، أو من الافضل أن تأتي لزيارتي بنفسك يوما ما . ولنقل غدا مثلا . وسأكون هنا في الساعة الحادية عشرة . ولا شك أننا سنرتب كل هذا وسنتحدث .. وباعتبارك واحدا من الذين كانوا آخر من ذهبوا الى « هناك » ، فلعلك اذا تستطيع أن تحدثنا بشيء ...

كان بورفير يتحدث ببراءة الطفل ، لكن الغاية لم تفت على راسكولنيكوف ، فقال بجفاء :

ــ انك تريد استجوابي رسميا متخذا كل الاجراءات المرعية ؟

ــ لِمَ بالله ؟ أنا لا أرى داعيا لذلك في الوقت الحاضر . انك لم تحسن فهمي . ألا فاعلم أنني لا أترك فرصة تسنح لي تفلت مني . واني تحدثت حتى الآن مع جميع الذين أودعوا أشياء قيد الرهن . ولقد استطعت اقتطاف بعض الدلالات من أقوال بعضهم . وعلى ذلك فانك الاخير . وعلى فكرة لقد تذكرت . يا للرأس التي أحملها !

وانفجر ضاحكا بسرور عميق ، واستدار نحو رازوميخين ، وأضاف :

ــ انك تذكر ذلك الـ « نيكولاشكا » الذي صدعت أذني بشأنه . حسنا انني أعرف شخصيا بل انني متأكد (وهنا استدار الى راسكولنيكوف) أن هذا الفتى بريء . لكن ما العمل ؟ لقد اضطررنا الى ازعاج ميتكا أيضا . والآن هذا ما كنت أود أن أقوله: عندما صعدت السلم آنذاك .... اسمح لي ... ألم يكن ذلك حوالي الساعة الثامنة؟

ــ حوالي الساعة الثامنة !..

لكن راسكولنيكوف شعر فجأة باستياء من نفسه لأنه كان

يستطيع أن لا يجيب بتلك الاجابة .

ـ اذن عندما كنت تصعد السلم حوالي الساعة الثامنة ، ألم تر في الطبقة الثانية وفي مسكن مفتوح الباب ، أتذكر ؟ ألم ترَ عاملين أو على الأقل واحدا منهما ؟ لقد كانا في ذلك الحين يطليان الجدار ، فهل لاحظتهما ؟ ان هذا عظيم الاهمية بالنسبة اليهما !

فأجاب راسكولنيكوف بلهجة من يبحث في ذاكرته :

ـ عمال دهان ؟

كان يستجمع كل وجوده ويتألم عظيم الألم وهو يحاول أن يكتشف مكان الفخ المنصوب في هذا السؤال . وفجأة افتضح الشرك فعرفه واسترسل يجيب :

ـ كلا ! انني لم أرَ أحدا كما أنني لم ألاحظ وجود مسكن مفتوح الباب . لكنني شاهدت في الطبقة الرابعة موظفا يخلي مسكنه . كان مسكنه قبالة مسكن آليونا ايفانوفنا . نعم انني أذكر ذلك بشكل واضح جدا ، لان بعض الجنود كانوا ينقلون الأثاث واضطروني الى الالتصاق بالجدار كي يتاح لهم المرور . أما العمال الذين تتحدث عنهم فانني لا أذكر وجودهم . وأعتقد أنه لم يكن هناك مسكن مفتوح أبدا ، كلا ! لم يكن ...

وهتف رازوميخين كما لو أنه فهم الأمر فجأة :

ـ لكن ماذا دهاك ؟ ان العمال كانوا يدهنون في يوم الجريمة بالذات . أما هو فقد كان هناك قبل ذلك ! فما هو السؤال الذي تسأله ؟

هتف بورفير ، وهو يضرب جبهته بيده :

ـ هيه ! لقد اختلط علي الامر ... ليحملني الشيطان ... ان هذه القضية تفقدني العقل .

ثم استدار نحو راسكولنيكوف وقال وكأنه يعتذر

ـ اننا نهتم جدا بمعرفة ما اذا كان أحد قد شاهد ذينك العاملين حوالي الساعة الثامنة في ذلك المسكن • ولقد أجهدت نفسي في محادثتنا هذه حتى اختلط عليّ الامر • ولعلك تدرك ذلك •

فأجابه رازوميخين بلهجة ناقمة :

ـ كان ينبغي أن تكون أكثر انتباها •

نطق رازوميخين بهذه الكلمات بينما كان وصديقه وراء باب المسكن الخارجي • ورافقهما بورفير بيتروفيتش اليه ببشاشة ، غير أنهما كانا عابسين منفعلين حتى استمرا يمشيان في الشارع بضع خطوات قبل أن ينطق أحدهما بكلمة • وبعدئذ تنفس راسكولنيكوف الصعداء •••



كان رازوميخين قلقا مشتت الفكر يحاول بكل قواه أن ينقض استنتاجات راسكولنيكوف، فكان يقول ويقرر : « لا أظن ذلك ، لا أظن ذلك » . وكانا في تلك الأثناء قد بلغا منزل باكاليف المؤثث حيث كانت بولشيري ألكسندروفنا تنتظرهما منذ زمن طويل . وكان رازوميخين يتوقف في حمى النقاش بين لحظة وأخرى وهو فريسة اضطراب وانفعال كبيرين سببهما ذلك الحديث الصريح الذي سمعه منذ لحظات، والذي لا يخلو من شك قريب من الاتهام. وكان راسكولنيكوف يجيبه بضحكة باردة حائرة :

ـ حسنا ! لا تصدق ! انك حسب عادتك لا تلاحظ شيئا ، أما أنا فانني كنت أزن كل كلمة .

ـ ذلك لأنك كثير الشك ولهذا السبب كنت تزن الكلمات . هم! في الحقيقة ـ وأعترف لك ـ ان لهجة بورفير كانت غريبة وعلى الاخص ذلك الصعلوك زاميوتوف . انك على حق . أما ما هو السبب فذلك ما لا أعلمه . لكن لم ؟ لم ؟

ـ لعله غير رأيه أثناء الليل .

ـ لكن على العكس ، على العكس ... اذ لو أن هذه العرجاء كانت تحوم في رؤوسهم لكانوا عملوا ما في وسعهم لاخفائها بكل الوسائل ... كانوا أخفوا لعبتهم بانتظار الوقوع على آثار أخرى . ولكنهم الآن يمضون في طريقهم بصفاقة ودون أية حيطة !

ـ لو كانت لديهم وقائع ، أقصد وقائع حقيقية أو على الاقل شكوك ترتكز على شيء من الصحة ، لعملوا ما في وسعهم على اخفاء

لعبتهم مؤملين الاستزادة من الادلة ، بل لعمدوا منذ أمد طويل الى إجراء تفتيش . لكن ليس لديهم دليل واحد . ان كل هذا خيالي بحت لامؤاس له ولا ذنب ولا يستند على شيء ، ولذلك فانهم يجهدون أنفسهم بالنيل مني بالصفاقة . ولعله هو نفسه ساخط لعدم وجود الادلة لذلك لم يستطع كبت التحدي فأعلنه . ويجوز أيضا أن تكون لديه بعض النوايا الخفية ، فهو رجل ذكي ولعله كذلك أراد أن يخيفني بتصنع المعرفة ... ان ذلك عنده مسألة نفسانية يا عزيزي . وانني لأجد أن التماس التفاسير أمر مناف لذلك فلندع الامر حيث هو ...

ـ ولكن ذلك مهين ، مهين ، انني أفهمك ... لكنني سأعترف لك بوضوح طالما أننا نتحدث بصراحة ـ وانني لسعيد اذ بلغنا هذه المرحلة ـ أعترف لك بأنني منذ زمن طويل لاحظت هذه الفكرة عندهم ، ولكنها كانت بالطبع لا تقوم على أية قائمة . لقد كانت في دور التلميح . أما وانها قد رسخت في فكرهم ـ حتى ولو كانت على تلك الصورة البدائية ـ فان ذلك أكثر مما يطاق ! كيف يجرؤون على السماح لأنفسهم بالاخذ بمثل هذه الفكرة ? وفي أي ركن مظلم كانت مختفية ? ليتك تعلم درجة الغضب التي بلغتها بسبب ذلك ! ... هوذا طالب فقير يثقله العوز والهوس على وشك الانهيار تحت وطأة مرض مؤلم بلغ حد الهذيان ، أو لعله كان تحت وطأة المرض فعلا ـ لاحظ هذا ـ وهو مع ذلك تفور من النار عزة الكرامة ذو وجدان من هذا المستوى ، عاش خلال ستة أشهر منطويا في حجرته لا يرى أحداً ، يتقدم هذا الطالب الى دائرة البوليس ـ بناء على دعوة ـ مرتديا أسماله وفي قدميه حذاء سقط نعله ، وهناك يتعرض لاهانات أمام أولئك الرجال القذرين ويحشر تحت أنفه فجأة طلب استعادة مبلغ مع المال عليه أن يدفعه الى المحامي القضائي تشيباروف . وتكون رائحة الدهان الخانقة متصاعدة في الغرفة التي تبلغ حرارتها ثلاثين درجة بميزان ريمور ، والهواء خانق

بسبب احتشاد الجمع المزدحم هناك فيسمعهم يتحدثون عن مصرع شخص كان البارحة عنده . أضف الى ذلك الجوع الذي كان ينهش أحشاءه فكيف لا يغمى عليه بعد ذلك ؟ مع ذلك تراهم يبنون نظريتهم على أساس ذلك الاغماء . ألا ليحملهم الشيطان . انني أعرف أن هذا مزعج مثير ، لكنني لو كنت في مكانك يا روديا لانفجرت ضاحكا رغم أنوفهم جميعا ، بل وعملت خيرا من ذلك : كنت بصقت في أفواههم واستهزأت بهم لأنه يجب معاملتهم على هذا الشكل وبذلك أنتهي منهم . لنبصق عليهم ولنتشجع ! انه لمخجل .

غمغم راسكولنيكوف يناجي نفسه قائلا : « آنه يحسن عرض القضية » . ثم قال بصوت مرتفع تشوبه المرارة :

ــ البصاق عليهم ؟ لكنني سوف أعرض غدا للاستجواب ! فهل يجب أن أصل لدرجة تقديم تفاسير اليهم ؟ انني ناقم على نفسي لأنني أسففت البارحة اذ تحدثت الى زاميوتوف في ذلك المشرب .

ــ ليحملهم الشيطان . سأذهب بنفسي الى بورفير وثق أنني سأعامله تماما كما أعامل قريبا . سوف أجعله يفرغ ما في جعبته . أما زاميوتوف ...

قال راسكولنيكوف يخاطب نفسه حينما بلغ صديقه هذه المرحلة : « وأخيرا فهم ! » . بينما استمر هذا مسترسلا بانفعال وقد قبض على كتف راسكولنيكوف بيده :

ــ انتظر ، انتظر . لقد نطقت بحماقة منذ قليل . نعم لقد فكرت . انك نطقت بحماقة ! أين تجد تلك الخطة الغادرة ؟ لقد قلت ان السؤال المختص بالعاملين كان خطة غادرة ، ففكر قليلا وقل لنفسك انك لو كنت ارتكبت « هذا » بالفعل فهل كان يعقل أن تسمح لنفسك بالاسترسال لدرجة الاغتراق بمشاهدة أولئك الذين كانوا يشتغلون

بعثرت نقودك لدى تلك الاسرة التي ــ رغم الشقاء الذي حل بها ــ ليس فيها أشخاص يستحقون الاعتبار •

ــ أعتقد ، رغم كل اعتبارك ، أنك لا تساوي اصبع تلك الفتاة التعسة الصغيرة ، تلك الفتاة التي تلقي اليها بالحجر •

ــ على ذلك فانك لن تتردد في ادخالها في مجتمع أمك وأختك ؟

ــ بل انني فعلت ذلك ، اذا كنت تصر على معرفة الأمر • لقد أجلستها بجانب أمي ودونيا •

فهتفت بولشيري ألكسندروفنا :

ــ روديا •••!

واحمر وجه دونيا خجلا • أما رازوميخين فكان يلقي نظرات مروعة ، بينما ابتسم لوجين ابتسامة سامة محتقرة وقال :

ــ هل ترين ، يا أفدوتيا رومانوفنا ، امكان وجود اتفاق بعد هذا، آمل أن تكون هذه القضية قد سويت الآن ووضحت نهائيا • انني سأنسحب الآن كيلا أشوش مسرات اجتماعكم العائلي وتبادلكم الاسرار •

ونهض من مكانه ، وأخذ قبعته ، وأضاف :

ــ لكنني قبل أن أبارحكما أسمح لنفسي بان ألفت انتباهكما الى أنني آمل مستقبلا أن تجنباني هذا اللون من اللقاء اذا لم أقل من الاحراج • انني أتقدم بهذا الطلب بصورة خاصة اليك ، يا بولشيري ألكسندروفنا الشديدة الاحترام ، كما ألفت نظرك كذلك الى أن رسالتي كانت موجهة اليك شخصيا وليس الى شخص آخر •

شعرت بولشيري ألكسندروفنا بصدمة في عواطفها ، فقالت :

ــ هل تضعنا تحت رحمتك ، يا بيير بيتروفيتش ؟ لقد أخبرتك دونيا عن السبب الذي من أجله لم تنفذ رغبتك • لم تكن لديها الا

نوايا حسنة • ثم انك تكتب الي وكأنك تصدر الي الأوامر ، فهل يعقل أن تعتبر كلا من رغباتك بمثابة أمر ؟ انني أصرح لـك بأن من الواجب عليك أن تظهر الآن رقيقا ومتسامحا كثيرا على عكس ما تبدو عليه ، لأننا اذ وضعنا ثقتنا فيك تركنا كل شيء لنحضر الى هنا • مع ذلك فانك تجعلنا منذ الآن رهن مشيئتك !

قال لوجين بلهجة شرسة :

ـ ان ذلك ليس صحيحا تمـاما ، يا بولشـيري ألكسندروفنا ، خصوصا في هذه اللحظة بعد أن بلغتم بأن مارت بيتروفنا تركت لابنتك ثلاثة آلاف روبل • يخيل الي أن هذا المال جاء في الوقت المناسب نظرا للهجة الجديدة التي تحدثينني بها •

وأضافت دونيا بانفعال :

ـ اذا نظرنا الى ملاحظتك هذه بعين الاعتبار نستطيع أن نفترض بأنك كنت تعول كثيرا على اذلالنا استنادا الى حالتنا المادية •

ـ لكنني في الوقت الحاضر لا أستطيع ـ على الأقل ـ الاعتماد على ما تقولين ، خصوصا وأنني لا أريد أن أريك العروض السرية التي كلف آكاد ايفانوفيتش سفيدريكايلوف أخاك بابلاغها اليك والتي ـ على ما أرى ـ لها بالنسبة اليك معنى جوهريا ، بل ويمكن أن يكون معنى مرموقا •

هتفت بولشيري ألكسندروفنا :

ـ آه ، يا رب !

بينما كان رازوميخين لا يقر له قرار في مكانه •

سأل راسكولنيكوف :

ـ أو لست تخجلين الآن ، يا أختي ؟

فقالت دونيا مكفهرة الوجه من الغضب ، وهي تجيب على سؤال

أخيها مخاطبة بيير بيتروفيتش :

ـ انني خجلى . يا بيير بيتروفيتش ، أخرج !

كان بيير بيتروفيتش ـ على ما يبدو ـ لا ينتظر مثل هذه النهاية. كان شديد الاعتداد بنفسه وبقوته ازاء عجز ضحيته فلم يكن يصدق أذنيه في تلك اللحظة . لذلك شحب لونه وتقلصت شفتاه :

ـ يا أفدونيا رومانوفنا ، اذا كنت سأجتاز هذا الباب الآن بنتيجة هذه الكلمات الطيبة فاعلمي أنني لن أعود بعد ذلك أبدا . فكري جيدا في الأمر.. ان ما وعدت به لا زلت أتمسك به .

فصاحت دونيا ، وهي تقفز من مكانها :

ـ يا للوقاحة ! لكنني لا أريد أن تعود أبدا !

صاح لوجين ـ الذي لم يكن ولا شك يعتقد ببلوغ هذه النتيجة حتى آخر لحظة ـ وقد فقد سيطرته على عواطفه :

ـ كيف ! اذن هكذا ! اذن هكذا ! لكن أتعلمين ، يا أفدونيا رومانوفنا ، أنني أستطيع الاحتجاج عليك ؟

فتدخلت بولشيري ألكسندروفنا ، وقالت بلهجة محتدمة :

ـ بأي حق تحدثها بهذه اللهجة ؟ كيف يمكنك الاحتجاج ؟ وبأية حقوق ؟ هل سأعطي دونياي الى رجل مثلك ؟ هيا أخرج ! دعنا الى الأبد ! لقد أخطأنا نحن اذ اندمجنا في قضية غير شريفة . كنت أنا أكثر خطأ من الآخرين .

فأجاب لوجين بلهجة غاضبة :

ـ مع ذلك ، يابولشيري ألكسندروفنا، أراك تسحبين الآن الكلمة التي أعطيتيها الي وأوثقتني بها كذلك ... أخيرا دفعت الى بذل نفقات ...

كان ذلك الادعاء متناسقا تماما مع عقلية بيير بيتروفيتش، حتى أن

راسكولنيكوف ، رغم شحوبه من الغضب الذي كان يعصف في نفسه، ورغم كل الجهود التي بذلها للسيطرة على أعصابه ، لم يستطع الا أن ينفجر بضحكة مجلجلة . أما بولشيري آلكسندروفنا فقد كادت أن تخرج عن وقارها ، فصاحت :

ــ نفقات ؟ وما هي تلك النفقات ؟ لعلك تتحدث عن الصندوق ؟ لكن السائق نقله لنا مجانا . رباه، هكذا اذن نكون نحن الذين أوثقناه! يجدر بك أن تذكر ، يا بيير بيتروفيتش ، بأنك أنت الذي أوثقت أقدامنا وأذرعنا وليس نحن .

فتوسلت اليها أفدونيا رومانوفنا :

ــ كفى . أماه ! أرجوك ، يا بيير بيتروفيتش، أن تتلطف بالخروج.

فأجاب ، وهو يتمالك نفسه قليلا :

ــ انني ذاهب . كلمة أخيرة : لقد قاومت من أجلك الرأي العام وقومت سمعتك منذ قررت الزواج منك وفي اللحظات التي كانت سمعتك فيها موضع التداول والشائعات العامة ، لذلك فأنني أستطيع على الاقل أن آمل الحصول على تعويض ، بل وأن أصر على طلب مكافأة . أما الآن فقد أزيل الحجاب عن عيني . انني أرى أنني تصرفت تصرفا طائشا اذ تصاممت عن سماع الشائعات العامة !

زمجر رازوميخين ، وهو يندفع من مكانه مطبقا قبضتيه :

ــ انه يريد أن نحطم له رأسه .

فقالت دونيا :

ــ انك رجل دنيء وخبيث .

بينما هتف راسكولنيكوف ، وهو يستوقف رازوميخين :

ــ ولا كلمة ! ولا حركة !

ثم اقترب من لوجين وقال له بصوت مختنق لكنه واضح ، وقد

أدنى وجهه من وجهه حتى كاد أن يلمسه :

ـ تفضل بالخروج دون أن تتفوه بكلمة أخرى والاّ ...

فحدجه بيير بيتروفيتش لحظات بعينيه وهو شاحب الوجه متقلصه من الغضب ، ثم استدار على عقبيه وخرج . وغني عن الذكر أن لوجين لم يشعر في حياته كلها بحقد عنيف كالذي شعر به حيال راسكولنيكوف . لأنه هذا الأخير وحده الذي سبب اخفاقه ! غير أنه من الجدير ملاحظة أنه لم يكن يعتقد ، وهو يهبط السلم ، أنه خسر قضيته نهائيا . كان يعتقد بأن كل شيء يمكن اصلاحه مع نينك السيدتين .



٣

لم يكن بيير بينروفيتش حتى آخر لحظةمنتظرا نهاية كالتي وقعت. تلك كانت النقطة الرئيسية : تعنت على هـواه متـأكدا من أن تينك الامرأتين الفقيرتين المحرومتين من أية قوة لا يمكن لهما أن تتسربا من بين يديه . كان غروره مما أورث ذلك الافتراض في رأسه، بالاضافة الى ذلك النوع من الثقة الذي كان يعتبره قضية كرامة شخصية . لقد بدأ من لا شيء واعتاد الاعجاب بنفسه ، لذلك فقد كان يؤمن ايمانا قويا بذكائه ومعلوماته ، حتى أنه كان أحيانا يذهب الى المرآة ليتأمل وجهه فيها كلما وجد نفسه وحيدا ! غير أنه كان يقدر كل التقدير ويعتبر فوق كل شيء المال الذي جمعه بفضل عمله وبالوسائل الأخرى . كان ذلك المال يسمح له ـ على زعمه ـ أن يضـع نفسه عـلى قدم المساواة مع العناصر الأسمى منه .

تناسى بيير بيتروفيتش عندما كان يذكر دونيـا بمرارة أنه قرر الزواج منها رغم الشائعات المزعجة التي كانت تلوك سمعتها ، تناسى أنه لما عقد خطوبته عليها كان معتقدا تماما بخطأ تـلك الدسـائس التي قامت مارت بيتروفنا نفسها تدحضها وتسكتها ، وأنه منذ زمن بعيد كفت تلك الشائعات عن الرواج في المدينة الصغيرة حيث عادت سمعة دونيـا الى مستواها اللائق وعادت كرامتها الى سابق عهدهـا من التقـدير ! تناسى كل ذلك رغم أنه كان شخصيا لا يستطيع الانكار أنه ملم بهذه الدقائق منذ بعيد ، لذلك العقوق الاسود الذي جابهته به ! كان يعتبر نفسه محسنا اذ قرر رفع دونيا الى مستواه فراح يعتبر هذه البادرة منه لونا من الاحسان ، لذلك فانه لما ذهب لزيارة راسكولنيكوف دخل عليه

وهو منتفخ بأحاسيس المحسن الكريم منتظرا أن يقتطف ثمار عمله الطيب ، وأن يستمع الى أشد عبارات المديح حرارة ! لذلك كان وهو يهبط السلم يعتبر نفسه مغدورا جدا ، أسيء فهم قوله •

كانت دونيا بكل بساطة شيئا ضروريا ، فكان التنازل عنها أمرا لا يتقبله عقله • كان قد استسلم الى أحلامه وسكر بها ، وكان ينشد في سره : « فتاة شابة ذات أخلاق عالية فقيرة ـ وينبغي حتما أن تكون فقيرة ـ جميلة جدا ، فتية جدا ، من عائلة طيبة ، حسنة الثقافة ، شديدة الخجل ، تعرضت لكثير من الشقاء وعنت الزمن ، ستكون له متفانية كل التفاني ، وستمضي كل العمر وهي تباركه وتعتبره محسنا كبيرا ! ستكون خاضعة له وستذوب اعجابا أمام شخصه ولن تكون لأحد سواه » • كم من مشاهد وأفكار عذبة مسكرة كانت تتمثل في خياله وهو يهدهد في سره ذلك الحلم الجذاب المرح كلما تحرر من وطأة العمل ! كان ذلك الحلم الذي كان ينتظر تحقيقه طيلة سنين على وشك التنفيذ ! لقد أذهله جمال أفدونيا رومانوفنا وثقافتها وشوّقه فقرها الزائد الذي كان يخيم عليها تشويقا متناهيا حتى أنه وجد فيها أكثر من الحلم الذي كان يأمل فيه : كانت الفتاة تبدو فخورة نشيطة طاهرة ، تفوقه ثقافة وتهذيبا (وكان يشعر بذلك) •

كانت تلك المخلوقة ستحتفظ له طيلة حياتها باعتراف أقرب الى الاسترقاق لأنه تنازل وحررها من فقرها ، فهي اذن كانت ستجثو أمامه على أربع لتسره ! لم يكن عليه الا أن يأمر ليطاع • كان قد قرر في ذلك اليوم بالذات أن يبدل اتجاه حياته ليدخل في دائرة نشاط أوسع • ولكي يتقدم بخطى وئيدة في طريقه الى المجتمع الراقي الذي كان يحلم بالدخول فيه ، فقر قراره أن يجرب حظه في بطرسبورغ • كان يعرف أنه يستطيع هنا أن يربح كل شيء بواسطة النساء ، لأن الجمال الذي

يشرق على وجه سيدة جميلة طاهرة ومثقفة يجمّل وجوده ويجذب اليه الانتباه ، بل ويصنع له الهالة ! وفجأة ... هذا كل شيء ينهار . أحدث ذلك الانقطاع المفاجيء العنيف في نفسه تأثيرا صاعقا ! كان كخرافة كريهة غير معقولة . انه لم يظهر الا ذرة صغيرة من التجبر ، بل انه لم يجد الوقت الكافي للتعبير عن رأيه ! لقد كان يمزح بكل بساطة : فانساق قليلا مع أفكاره ، وهذه النتيجة قد أصبحت خطيرة جدا . ثم انه كان يحب دونياه على طريقته ، وكان يشعر بأنها تملك له في أحلامه ، واذا ...

كلا ! غدا ، نعم غدا ينبغي اعادة الوضع الى ما كان عليه سابقا ، فينبغي رتق ما تصدع ، وكذلك ينبغي حتما سحق ذلك السفيه الغرير الذي كان سبب كل هذا . شعر رغما عنه بلون من الانزعاج حينما تذكر رازوميخين . غير أنه طمأن نفسه بسرعة وهو يقول : « لم يبقَ الا هذا في مصافيّ أنا لوجين » ! أما الوحيد الذي كان يخشاه ويحسب له حسابا حقيقيا فكان سفيدريكايلوف . والخلاصة انه كان يتوقع كثيرا من المزعجات ...

قالت دونيا ، وهي تعانق أمها :

ـ كلا يا أماه ، انني أنا ، أنا التي أخطأت . لقد كنت أريده من أجل ماله . لكنني أقسم لك يا أخي بأنني لم أكن أتوقع أن أراه رجلا على هذه الشناعة . ثق أنني لو عرفته على حقيقته من قبل لما سمحت للاغراء أن يحل في نفسي . لا تتهمني ، يا أخي !

غمغمت بولشيري ألكسندروفنا بلهجة لاشعورية وكأنها لم تتفهم بعد تماما كل ما وقع وحدث :

ـ لقد وقانا الله .

كانوا جميعا مسرورين متفائلين حتى أنهم لم ينفكوا عن الضحك

خلال الخمس دقائق الأولى • غير أن دونيا كانت في بعض الأحيان تشحب أو يكفهر وجهها عندما تذكر المشهد الذي وقع • أما بولشيري ألكسندروفنا فانها لم تكن تتصور أبدا أنها ستسر بوقوع حادث كهذا، وهي التي كانت صباح ذلك اليوم تعتبر قطع العلاقات مع لوجين مصيبة كبيرة تحل بهما ! وكان رازوميخين محلقا في السماء ، لم يكن يجرؤ بعد على التعبير عن سروره ، لكنه كان يرتجف بشدة كالمحموم ويشعر كأن حملا ثقيلا هائلا أزيح عن كاهله • لقد أصبح له الحق الآن في أن يكرس لهما كل حياته وأن يخدمهما ••• الآن ، وأي شيء لا يعمله الآن ؟ كان يطرد بعيدا عنه كل الأفكار المتعلقة بالمستقبل ، خشية أن يستسلم الى الخيال• كان راسكولنيكوف وحده جالسا فيمكانه الأول يبدو على وجهه لون من العبوس والشرود • كان يبدو ــ وهو الذي ألح كل الالحاح في ابعاد لوجين ــ أقل اهتماما بالحادث من الباقين جميعا • تصورت دونيا رغم ارادتها أنه لا زال حانقا عليها ، بينما كانت بولشيري ألكسندروفنا تتأمله في شيء من القلق •

قالت دونيا ، وهي تقترب منه :

ــ ماذا قال لك سفيدريكايلوف ؟

وهتفت بولشيري ألكسندروفنا :

ــ آه !•• نعم ! نعم !

فرفع راسكولنيكوف رأسه ، وأجاب :

ــ انه يريد قطعا أن يقدم لك عشرة آلاف روبل كهدية ! ثم انه يبدي رغبته في لقياك مرة أخيرة في حضرتي •

هتفت بولشيري ألكسندروفنا :

ــ أن تراه ! أبد العمر ! ثم كيف يجرؤ على عرض المال عليها ؟

فراح راسكولنيكوف يتحدث بلهجة جافية ساردا على مسامعهم

الحديث الذي دار بينه وبين سفيدريكايلوف ، بعد أن حذف منه ظهور شبح مارت بيتروفنا المتكرر ، كي لا يخرج بهم عن الموضوع ، ولرغبته الأكيدة في الابتعاد عن أي حوار يتعدى الضروري جدا .

ــ بماذا أجبته ؟

ــ لقد صرحت له أولا بأنني لن أنقل لك كلمة واحدة من ذلك الحديث ، وعندئذ أبلغني أنه سيعمل ما في جهده وعلى طريقته ليحصل على موعد منك . انه يزعم بأن الرغبة التي كان يغذيها حيالك لم تكن الا هذرا ، وأنه في الوقت الحاضر لا يحس نحوك بأية عاطفة ... انه لا يريد أن تتزوجي من لوجين . غير أنه كان يتحدث بلهجة غامضة .

ــ ما هو الرأي الذي كونته عن هذا الرجل ، يا روديا ؟ كيف وجدته ؟

ــ أعترف لك بأن كل هذا لا يبدو لي واضحا تماما . انه يهب عشرة آلاف روبل ثم يدعي بأنه ليس غنيا ، وهو يصرح بأنه سيذهب ليسكر ويعود بعد عشر دقائق فينسى ما قال . انه يعلن فجأة انه سيتزوج وأنهم وجدوا له الزوجة المنشودة ... انه ولا شك يغذي أفكارا معينة أظنها سيئة . مع ذلك لا يمكن الاعتقاد بأنه كان يغذي بالفعل أفكارا رديئة في رأسه !.. أما كيف تتصرفين ، فانني قد رفضت باسمك نهائيا كل العروض المتعلقة بالمال . لقد بدا لي على العموم غريبا نوعا ... بل وانني لاحظت عليه بعض دلائل الجنون . لكنني قد أكون مخطئا اذ أن ذلك يمكن أن يكون مجرد خدعة . يبدو أن موت مارت بيتروفنا أحزنه .

صاحت بولشيري ألكسندروفنا :

ــ ليمنح الرب روحها الراحة . انني لن أنقطع مطلقا عن الصلاة من أجلها ! ماذا كان يحدث لنا يا دونيا لولا هذه الثلاثة آلاف روبل .

حقيقة أنها سقطت من السماء ! آه ! فكر يا روديا أننا هذا الصباح لم نجد معنا الا ثلاثه روبلات هي كل ثروتنا • لقد فكرنا ــ دونيا وأنا ــ أن نرهن بأقرب وقت ساعاتنا كي لا نطلب شيئا من لوجين الذي كان لا يدرك موقفنا •

كان عرض سفيدريكايلوف بالنسبة الى دونيا أمـرا غير منتظر ، لذلك راحت تفكر • وفجأة تمتمت بشبه قشعريرة :

ــ لقد بيت الرجل أمرا مريعا •

لم تفت على عيني راسكولنيكوف تـلك البـادرة مـن الخوف المتزايد ، فقال :

ــ أعتقد أنني سأجد أكثر من مناسبة واحدة لرؤيته من جديد •

هتف رازوميخين بلهجة نشيطة :

ــ لسوف نعثر على آثاره • سوف أتعقبـه ولن أدعه يغيب عن ناظري ! لقد سمح روديا بذلك • لقد قال لي منذ حين بنفسه : « اسهر على أختي » • وأنت يا أفدونيا رومانوفنا ، هل تسمحين لي بذلك ؟

ابتسمت دونيا ومدت له يدها ، غير أن ملامح وجهها لبثت تحمل طابع القلق • أما بولشيري ألكسندروفنا فقد كانت تنظر اليها بحياء اذ يبدو أن تصور تلك الثروة ــ ثلاثة آلاف روبل ــ جعلتها متحفظة •

لم تمض ربع ساعة حتى كانوا جميعا يتحدثون بحمـاسة ، وكان راسكولنيكوف بنفسه رغم احتفاظه بالسكـوت يصغي الى الحديث باهتمام • أما رازوميخين فقد اعتلى منصة الخطـابة ••• كـان يقول بحماس ملتهب :

ــ ولماذا ، لماذا تذهبان ؟ ماذا ستعملان في عزلتكما باقليمكما ؟ انكما هنا ستبقيان مع روديا ، وانكم جميعا ضرورة ملحة لبعضكم البعض ، وأيـة ضرورة ألا تفهماني ؟ عـلى الاقل امكثا أيضا بعض الوقت •••

واعتبراني كصديق ، كشريك • انني أؤكد لكما بأننا سنؤلف مشروعا ممتازا معا ! اصغوا الي وسأشرح لكم مشروعي بالتفصيل : لقد خطر لي هذا الصباح قبل أن يحدث شيء مما حدث ••• اليكم هذا : ان لي عما ــ ولسوف أعرفكما به فهو كهل طيب محترم جدا ــ وهذا العم يملك ألف روبل ويتقاضى الى جانبها جراية تكفيه وتدفع عنه الحاجة • ومنذ عامين ألح علي بأن أقبل ماله ذاك على أن أدفع له فائدة قدرها ستة بالمائة • بالطبع ان اللعبة ظاهرة ، لأنه يريد ــ بكل طيبة خاطر ــ مساعدتي بلباقة • غير أنني لم أكن في حاجة الى هذا المبلغ في العام الماضي • أما هذا العام ، فانني كنت أنتظر مجيئه بفارغ صبر لأتقبل العرض•فاذا أضفت ألف روبل الى الثلاثة آلاف روبل التي ستقبضينها، فاننا بذلك نكون قد أوجدنا ما يلزم للشروع في شركة • اما ماذا سنعمل ؟

وهنا راح رازوميخين يشرح تفاصيل مشروعه ، فسرد باسهاب أوضاع كل أصحاب المكاتب والناشرين وأكد أنهم لا يحسنون مهمتهم ، وأن الناشرين هم عادة من أسوأ الناس بينما تكون المنشورات الجيدة،المعنى بها ، رائجة تماما ومدرة للمال ••• ذكر أنه خلال عامين استغل لحساب الآخرين فكان أبدا يحلم في أن يصبح هو نفسه ناشرا ، وصرح بأنه يعرف ثلاث لغات أجنبية كما يجب (رغم ما ادعاه منذ ستة أيام حينما قال لراسكولنيكوف أنه لا يحسن الالمانية لأن ذلك القول كان بغية اقناعه بقبول نصف الترجمة والسلفة التي قدرها ثلاثة روبلات ، لقد كذب آنذاك غير أن راسكولنيكوف لم يؤخذ بتلك الكذبة) • وأضاف أخيرا بحماسه المعهود :

ــ لماذا ؟ نعم لماذا ندع عملية جيدة كهذه تفلت من أيدينا عندما تكون لدينا أفضل الامكانيات لانجاحها ، وأقصد رأس المال الذي يخصنا

بكلينه ؟ لا شك أن ذلك سيقتضينا كثيرا من العمل لكننا سوف نعمل آفدونيا رومانوفنا ، وروديون ، وأنا ! ان بعض النشرات تدر حاليا أرباحا طائلة . ان ما يشجعنا ويدعمنا في مشروعنا هذا هو أننا نعرفه على الأقل ماذا ينبغي أن نترجم . لسوف نترجم وننشر ونتابع مع ذلك دراستنا . انني أستطيع الآن أن أكون نافعا بعد الخبرة التي حصلت عليها ... لقد مضى عليّ عامان وأنا محشور بين أصحاب المكاتب حتى أصبحت أعرفهم حق المعرفة ، فليس في عملهم شيء من السحر . صدقوني ! ثم لماذا ندع الفرصة تفلت منا ؟ انني شخصيا أعرف ـ وأحتفظ بذلك لنفسي في الوقت الحاضر ـ كتابين أو ثلاثة، تدر علي مجرد فكرة ترجمتها مائة روبل عن كل منها . بينما هناك مؤلفات أخرى لن أطلع عليها أحدا ليترجمها الا لقاء خمسمائة روبل . مع ذلك فانني واثق من أنهم سوف يترددون قليلا اذا أطلعتهم عليها لأنهم عصبة من الحمقى ! أما فيما يتعلق بالناحية المادية من حفر وورق وبيع فانكما تستطيعان الاعتماد عليّ فيها لأنني ملم بأدق دقائق الموضوع ! صحيح أننا سنبدأ بشكل محدود ، غير أننا سوف نتوسع في عملنا أكثر فأكثر ، ولسوف نكسب قوتنا على الأقل ونربط بين طرفي الموارد والنفقات .

كانت عينا دونيا تلمعان سرورا ، فقالت :

ـ ان ما تقوله هنا يا دميتري بروكوفيتش يعجبني كثيرا .

وقالت بولشيري ألكسندروفنا :

ـ أنا بالطبع لا أفقه شيئا من هذا يجوز أن يكون ذلك ممتازا . الله أعلم ! ان الانسان لا يدري أبدا نتيجة أي عمل يبدؤه . غير أننا ولا شك سوف نضطر الى البقاء هنا بعض الوقت على الأقل ...

وراحت تنظر الى روديا بينما سألت دونيا :

ـ ما رأيك في ذلك ، يا أخي ؟

فأجاب :

ــ أعتقد ان فكرته ممتازة • أما فيما يتعلق باقامـة دار كبيرة للنشر فأظن أن الوقت ولا شك لا يسمح حاليـــا بالتفكير فيها • غير أن نشر خمسة أو ستة مؤلفات مضمونة النجاح ممكن تمامـــا • انني شخصيا أعرف كتابا سيلقى رواجا كبيرا حتما • أما عن رازوميخين وهل يستطيع حقيقة أن يقود الأمر ، فاطمئني تماما وابعدي عن نفسك كل شيء • على أننا لن نعدم وقتا مقبلا نعاود البحث فيه حول هذا الموضوع •

هتف رازوميخين :

ــ مرحى ! والآن انتظروا : هناك مسكن في هذا البناء بالذات عائـد لاصحاب هذا المسكن الذي نحن فيـه • انـه مؤلف من شقة مستقلة الحجرات ، فيها ثلاث غرف مؤثثة أجرتها معتدلة ، تستطيعون احتلاله في الوقت الحاضر • وسأذهب غدا لأرهن ساعتك وآتيك بالمال ثم يترتب الامر • المهم هو أن تستطيعوا العيش كلكم معا وسيكون روديا معكما •••• لكن الى أين تذهب ، يا روديا ؟

سألت بوليشيري ألكسندروفنا وقد استحوذ عليها الخوف :

ــ كيف ؟ روديا ! أتذهب ؟

وهتف رازوميخين :

ــ في مثل هذا الوقت ؟

ونظرت دونيا الى أخيها بدهشة ممزوجة بالحذر • كان قد أخذ قبعته بيده واستعد للخروج فغمغم بلهجة غريبة :

ــ انكم تبدون وكأنكم ستدفنونني أو كأننـــا نقول الوداع للمرة الأخيرة • ثم ابتسم ابتسامة غامضة وأضاف فجأة :

ــ مع ذلك من يدري ! لعل هذه هي المرة الاخيرة التي نلتقي فيها !

كان يريد أن يهمس بهذه الجملة الاخيرة لنفسه لكنهـــا أفلتت دون ارادة منه وقيلت بصوت مرتفع •

صاحت الام :

ــ لكن ماذا بك ؟

وقالت دونيا بلهجة خاصة :

ــ أين تمضي ، يا روديا ؟

فأجاب ساهما ، وكأنه يتردد في نطق ما يريد قوله :

ــ يجب أن أذهب .

كان وجهه الشاحب يعبر عن عزم أكيد مقرر . قال :

ــ أردت أن أقول لكم ... عندما جئت الى هنا ... أردت أن أقول ، يا أماه ... ولك أنت أيضا يا دونيا أن من الخير لنا أن نفترق بعض الوقت . انني أشعر بأنني لست على ما يرام ، لست مرتاحا ... لسوف أحضر في المستقبل عندما ... يكون ذلك ممكنا ... انني أحفظ ذكراكما كما وأحبكما ... دعوني !.. دعوني وحيدا . انه قرار اتخذته من قبل ... نعم لقد قررت ذلك ... ومهما حدث لي وسواء مت أم لم أمت فانني أريد أن أكون وحيدا ... انسياني تماما . ان ذلك أجدى . لا تستقصيا أنبائي ... لسوف أحضر بنفسي عندما ينبغي أن أحضر أو ... سوف أستدعيكما . لعل كل شيء يتضح أخيرا !... والآن اذا كنتما تحبانني فاعزفا عن رؤيتي .. والا فلسوف أمقتكما .. انني أشعر بذلك .. الوداع !...

صرخت بولشيري ألكسندروفنا :

ــ رباه !...

كانت الأم والأخت فريسة رعب فجائي لا يوصف ، وكذلك كان رازوميخين .

صرخت الأم البائسة :

ــ روديا ... روديا . عد الينا يا بني ، لنتفق معا يا روديا ولنعد كما كنا في الماضي .

لكنه مضى ببطء متجها نحو الباب وخرج من الغرفة فتبعته دونيا وغمغمت وقد التهبت نظراتها :

ـ أخي ؟ ماذا تعمل بأمنا ؟

فتأملها طويلا ، وتمتم بصوت خافت وكأنه لا يدرك أقواله تماما :

ـ لا أهمية لذلك ، لسوف أعود ...

ثم خرج من الغرفة . صرخت دونيا :

ـ يا عديم القلب ! أيها الأناني المتوحش !

بينما همس رازوميخين في أذن الفتاة ، وهو يضغط على يدها بشدة :

ـ انه مجنون وليس أنانيا . لقد أضاع عقله! ألا ترين ذلك ! انك أنت عديمة الاحساس في هذا .

ثم أضاف محدثا بولشيري ألكسندروفنا التي كانت أقرب الى الأموات منها الى الأحياء :

ـ سأعود على الفور .

واندفع خارج الغرفة .

كان راسكولنيكوف ينتظره في نهاية الممشى فقال له :

ـ كنت أعرف أنك ستتبعني . اذهب اليهما وابقَ معهما . كن قريبا منهما غدا والى الأبد . لسوف أعود غدا . اذا أمكن . الوداع .

وابتعد راسكولنيكوف دون أن يمد له يده مصافحا ، بينما زمجر رازوميخين وهو لا يدري ماذا يعمل :

ـ لكن أين تذهب ؟ ماذا بك ؟ ماذا جرى لك ؟ كيف يمكن أنْ تتصرف على هذا النحو ؟

توقف راسكولنيكوف مرة أخرى :

ـ أقول لك للمرة الأخيرة : لا تسألني عن أي شيء . ليس لدي

ما أجيبك به ... لا تأتِ الى منزلي . لعلني أعود الى هنـا ... دعني أنا . أما هما فلا تهجرهما . أبدا . هل فهمتني ؟

كان المشى مظلما قليلا وكانا يقفان قرب مصباح ، فراحا يتبادلان النظر خلال دقيقة وهما صامتين ! لسوف يذكر رازوميخين تلك الدقيقة كل حياته . كانت نظرة راسكولنيكوف الثابتة الملتهبة تبدو من حين الى آخر أشد وميضا ، تتغلغل حتى تصل الى أعماق نفسه . وفجأة اقشعر رازوميخين . لقد حدث بينهما أمر غريب اذ تسللت فكرة وراحت تتجلى .. فكرة مريعة مخيفة شعر بها كلاهما . فشحب وجه رازوميخين حتى حاكى وجوه الاموات ، بينما تقلص وجه راسكولنيكوف وبان عليه الألم وهو يقول فجأة :

ــ هل فهمت الآن ؟ عد ، ابقَ بالقرب منهما !

واستدار على عقبه بحركة عنيفة وانصرف .

لن أصف الوقائع التي حـدثت ذلـك المسـاء عنـد بولشيري ألكسندروفنا حينما عاد رازوميخـين الى السيدتـين ، ولا كيف كان يطمئنهما مؤكدا لهما أن روديا كان مريضا ، وأنه كان بحاجة الى الراحة! كان يقسم لهما أن روديا لن يتأخر عن الحضور لرؤيتهما ، أنه سيحضر كل يوم ، وأنه كان في تلك اللحظة في حالة عصبية عنيفة ، وأنه لا ينبغي مشاكـسته ! قال لهما بأنه هو ، رازوميخين ، سوف يسهر على روديون، وسيأتي له بطبيب ممتاز ماهر ، أحسن طبيب ، بـل جمعية أطباء اذا اقتضى الأمر... وبكلمة واحدة فقد غدا رازوميخين بالنسبة اليهما منذ ذلك المساء ابنا وأخا ...

٤

مضى راسكولنيكوف لتوه نحو القنال حيث تقطن سونيا . كان البناء الذي تقطن فيه مؤلفا من ثلاث طبقات مدهـونة بدهان أخضر . توصل الى اكتشاف مكان البواب فحصل منه على ارشادات غير دقيقة حول المسكن الذي يقيم فيه الخياط كابيرناووموف ، وعثر في زاوية من الباحة على مدخل يؤدي الى سلم ضيق معتم فارتقاه الى الطابق الثاني، وهناك سار في المشى الذي يمتد على طول واجهة البنـاء المطـلة على الباحة . وبينما كان تائها في الظلام يتساءل بانفعال عن المدخـل الذي يمكن أن يؤدي الى حيث يقطن كابيرناووموف ، فتح باب فجأة على بعد خطوتين منه فتعلق به بحركة لا ارادية . سمع صوتا نسائيا يهتف بصوت مرتعد :

ــ من هناك ؟

فأجاب راسكولنيكوف :

ــ هو أنا ! لقد جئت لرؤيتك !

دخل الى ردهة صغيرة ضيقة فرأى على مقعد بال شمعدانا مصنوعا من النحاس أثبتت فيه شمعة مضاءة .

هتفت سونيا بصوت خافت وقد تسمرت في مكانها :

ــ هذا أنت ؟ رباه !

ــ أين غرفتك ؟ أهي هنا ؟

ودخل مسرعا الى الغرفة وهو يجهد ألا يلقي نظرة على الفتاة .

دخلت سونيا بعد دقيقة حاملة الشمعدان ، فوضعته في مكانه المعد

له ووقفت أمامه مضطربة فريسة انفعال خفي ، وقد روعتها هذه الزيارة غير المنتظرة • وفجأة ، اكتسحت وجهها الشاحب حمرة شديدة وتلألأت الدموع في عينيها ••• كادت أن تختنق من الانفعال وهي تشعر باحساس من الخجل الممزوج بلون من العذوبة •

استدار راسكولنيكوف فجأة وجلس على كرسي قريب من المنضدة • واستطاع بنظرة واحدة أن يشمل محتويات الغرفة كلها •

كانت غرفةواسعة ولكنها شديدة انخفاض السقف، وهي الوحيدة التي كان آل كابيرناووموف يستطيعون تأجيرها • كان هناك باب مغلق في الجدار الأيسر يؤدي الى حيث يقطنون ، والى الجانب المقابل له ــ في الجدار الأيمن ــ كان باب آخر مغلق بشكل نهائي • كان يبدو أن وراءه مسكنا آخر يحمل رقما آخر • كانت غرفة سونيا تشبه « غرفة المهملات » ، على شكل مستطيل غير متناسق يجعلها تبدو أكثر بشاعة ، وكان الجدار المطل على القناة والذي فتحت فيه نوافذ ، يقطع الغرفة بانحناء الأمر الذي جعل أحد زواياها الحادة جدا تغيب في العمق حتى أن ضوء الشمعة ما كان ليستطيع أن يكشف الظلام المخيم عليها • أما الزاوية المقابلة فكانت على العكس شديدة الانفراج • لم يكن في تلك الغرفة الكبيرة شيء يذكر من الأثاث ، فقد كان السرير قائما في ركن الى اليمين وبالقرب منه ــ الى جانب المنضدة ــ مقعد واحد ، وفي الجهة الثانية لمكان السرير ــ قرب الباب المغلق المؤدي الى المسكن المجاور ــ قامت منضدة من الخشب الأبيض تغطيها قطعة صغيرة من القماش الازرق ، وأمام تلك المنضدة كان هناك مقعدان من القش ! كان هناك كذلك ــ بالقرب من الزاوية الحادة ــ دولاب صغير غير مطلي يبدو ضائعا في ذلك الفراغ • هذا هو كل الاثاث الذي كان موجودا في تلك الغرفة • كانت الجدران مغطاة بورق أصفر ممزق حائل اللون ومسود

من كل الجهات ، والفاقة تفقأ العيون في ذلك المسكن حتى أن السرير كان بغير أغطية •

راحت سونيا تتأمل ضيفها ــ الذي كان ينظر بامعان إلى الغرفة دون أي ارتباك ــ بسكون • ثم لم تتمالك أن شعـرت برعدة خوف تسري في أوصالها وكأنها كانت أمام قاض يتوقـف مصيرها على مـا سيتلفظ به !

قال راسكولنيكوف دون أن يرفع اليها بصره :

ــ انني متأخر في هذه الزيارة ••• ان الساعة قد بلغت الحـادية عشرة على الاقل !

فغمغمت سونيا بلهفة مفاجئة وكأنها وجدت لنفسها مخرجا :

ــ نعم • آه ! نعم ان الساعة هي الحادية عشرة • لقد سمعتها تدق منذ حين لدى أصحاب المسكن ، ولقد سمعت دقاتها •• ان الساعة هي الحادية عشرة !

تابع راسكولنيكوف قوله بلهجة كئيبة :

ــ لقد جئت لأراك للمرة الأخيرة رغم أن هذه هي أولى زياراتي، اذ لعلني لن أراك بعد الآن •••

ــ هل ••• سترحل ؟

ــ لست أدري ، لسوف يتقرر ذلك غدا •

سألت سونيا بصوت مرتعد :

ــ انك اذن لن تذهب غدا عند كاترين ايفانوفنا !

ــ لست أدري ! ان الأمر موكول بمشيئة صباح الغد ••• لكنني لم أحضر من أجل هذا • لقد جئت لأقول لك كلمة •••

رفع اليها نظرة حالمة فلاحظ أنه جالس بينما لا زالت هي واقفة أمامه • هتف بصوت تغيرت رنته فغدا فجأة وديعا حانيا :

ـ لماذا تلبثين واقفة ؟ اجلسي !

فجلست وراح ينظر اليها برفق وحنان طيلة دقيقة كاملة ٠

ـ كم أنت هزيلة ! أريني يدك ! انها شفافة ! ان أصابعك تشبه أصابع الموتى !

وأخذ يدها بين يديه فابتسمت سونيا ابتسامة ضعيفة ، وقالت :

ـ لقد كنت كذلك أبدا ٠

ـ حتى عندما كنت تعيشين في منزلك ؟

ـ نعم ٠٠٠

فقال بصوت متهدج وقد تبدلت تقاسيم وجهه فجأة واختلفت رنة صوته :

ـ طبعا ٠٠٠ لا شك في ذلك !

وألقى حوله نظرة أخرى ، وسأل :

ـ أهم كابيرناوموف الذين أجروك هذه الغرفة ؟

ـ نعم !

ـ أيقطنون هنا وراء هذا الباب ؟

ـ نعم ٠ ان لديهم غرفة كهذه !

ـ غرفة واحدة لهم جميعا ؟

ـ نعم غرفة واحدة ٠

فقال بلهجة مكتئبة :

ـ لعمري ان غرفتك تخيفني ليلا لو كنت فيها ٠

فأجابت سونيا ، وقد بدا عليها أنها لم تتمالك بعد أعصابها :

ـ ان أصحاب الغرف كثيرو اللطف شديدو الرقة ٠ ان كل قطع الاثاث التي في هذه الغرفة عائدة اليهم ٠ انهم طيبو القلب وأبناؤهم لا يكفون عن زيارتي !

ـ أهم تمتامون ؟

ـ نعم انه أعرج وألكن • وزوجته كذلك • انهـا ليست لكنـاء فحسب بل ان الكلمات لا تريد الخروج من فمها • وهي طيبة جدا • أما هو فقد كان مملوكا سابقا، وله سبعة أولاد أكبرهم ألكن كذلك • أما الآخرون فهم ضعفاء البنية فقط ••• لكنهـم لا يجـدون صعـوبة في النطق !

وصمتت برهة ثم أردفت :

ـ لكن كيف عرفت أنت كل هذا ؟

ـ لقد حدثني أبوك عن ذلك من قبل ••• لقد أطلعني على قصتك كلها ، وأنك خرجت في الساعة السادسة ، وعـدت بعد الثامنة ، وأن كاترين ايفانوفنا ركعت بالقرب من سريرك •

فارتعدت سونيا وغمغمت مترددة :

ـ لقد رأيته بوضوح اليوم !

ـ من هذا ؟

ـ أبي ! كنت أسير في الشارع غير بعيد عـن هنـا ، بالقرب من المنعطف ، وكانت الساعة بين التاسعة والعاشرة ، خيل الي أنه كان يمشي أمامي • كان لا يمكن أن يكون غيره ! لقد أردت عندئذ أن أذهب عند كاترين ايفانوفنا •••

ـ كنت تتنزهين ؟

أطرقت سونيا برأسها الى الأرض وأجابت بصوت متقطـع وقد عاد الاضطراب اليها :

ـ نعم !

ـ لقد كانت كاترين ايفانوفنا تضطهدك عندما كنت عند أبيك ، وكانت لا تتورع عن ضربك لو تسنى لها •••

هتفت وهي تنظر اليه نظرة فيها شيء من الرعب :

ـ أوه ! كلا ! ماذا تقول ؟ كلا !

ـ اذن انك تحبينها ؟

ضمت يدها الى صدرها بابتهال وأجابت بلهجة متخاذلة موجعة وقد بدت على قسماتها آيات الألم :

ـ هي ؟ نعم ... وكيف ! آه ! ليتك كنت ... لو أنك فقط كنت تعرفها ! لاحظ ، انها كالطفل تماما ... ان لها عقلا مضطربا تماما ... من شدة الحزن . لكنها ذكية جدا ... كريمة ... طيبة جدا ! انك لا تعرف ذلك ! انه لا يمكنك أن تعرفه ... آه !

كانت سونيا تتلفظ بتلك الكلمات بلون من اليأس ، والألم يهزها بعنف فكانت تلوي يديها وتضغط على أصابعها ، وعاد الاحمرار الى خديها الشاحبين فكان العذاب يقرأ بوضوح في عينيها ! لا شك أن راسكولنيكوف كان قد مس وترا شديد الحساسية في نفسها . كانت تتحرق شوقا للاعراب عن وجهة نظرها ، للحديث ، للدفاع عن كاترين ايفانوفنا . كانت تقاطيع وجهها تعكس حنانا نهما اذا جاز هذا التعبير .

ـ تضربني ؟ لكن ماذا تقول ؟ رباه ! هي ! تضربني ! حتى ولو ضربتني ماذا في الأمر ؟ انك لا تعرف شيئا ، أبدا ... انها شديدة التعاسة ، آه ! شديدة التعاسة ، ومريضة ! انها تبحث عن العدالة ... انها نقية طاهرة ... انها تؤمن بشدة بأن العدالة ينبغي أن تكون موجودة في كل شيء ... انها تفرض وجودها فرضا ... لك أن تعذبها ما شئت فانها لن تعمل شيئا بعيدا عن روح العدل ! انها لا تعتقد بأن من المستحيل أن تشمل العدالة كل العالم ، بل انها تثور اذا قيل لها ذلك .. كالطفل تماما ! تماما كالطفل ! انها عادلة ! عادلة !

ـ وماذا سيحصل لك ؟

راحت سونيا تتفحصه بنظرها .

ــ لقد أصبحوا جميعهم عالة عليك ! صحيح أنهم من قبل كانوا كذلك ، وأن المرحوم كان يأتي اليك مطالبا بنقود ليثمل بها . لكن الآن ماذا سيحدث لك ؟

فردت سونيا بكآبة :

ــ لست أدري !

ــ هل سيلبثون هناك ؟

ــ لست أدري ، انهم مدينون بأجر مسكنهم . يبدو أن صاحبة المسكن قالت لهم اليوم بأنها تريد طردهم ، وعندئذ قالت لها كاترين ايفانوفنا بأنها لن تبقى دقيقة واحدة بعد ذلك ...

ــ وكيف يتسنى لها أن تتحدث بمثل هذا التعاظم ؟ أهي تعتمد عليك ؟

هتفت سونيا ، وقد عادت مجددا ترتعد وتنفعل كشحرور مسكين أو أي عصفور صغير آخر :

ــ آه ! كلا . لا تقل هذا ! اننا لسنا الا روحا في جسدين .

ثم راحت تسأل بحماس متزايد متقد :

ــ لكن كيف يمكن أن تكون ؟ كيف ... كيف يمكن أن تكون؟ آه ... كم ... كم بكيت اليوم ! ان عقلها مضطرب .. ألم تلاحظ ذلك ؟ مضطرب : انها تكتئب حينا ! ــ كالفتاة الصغيرة ــ خشية أن يحدث في الغد ما يزعج ، أو أن لا يكون على المائدة كل متطلباتها ... وتلوي يديها وتبصق دما وتبكي وتضرب رأسها بالجدار من اليأس حينا آخر . ثم تعود فتعزي نفسها وتضع كل آمالها فيك ، انها تقول بأنك الآن الدعامة التي ترتكز اليها ، وانها سوف تقترض مالا من مكان ما ، وتعود الى مدينتها حيث مسقط رأسها ، وانها ستصطحبني معها فتنشىء

هناك مدرسة للفتيات تجعلني مفتشة فيها ، وعندئذ ستبدأ بالنسبة الينا حياة جديدة فتانة ، انها تعانقني وتواسيني لأنها تؤمن بذلك . نعم انها تؤمن بشدة كالحديد بكل تخيلاتها! لكن هل يستطيع أحد أن يناقضها؟ لقد أمضت سحابة هذا النهار وهي تغسل وترتق وتدلك وتنظف. ورغم كل ضعفها ، لقد حملت لوحدها رغم كل ضعفها علبة كبيرة الى غرفتنا، فلما بلغتها كانت على آخر رمق ، مما جعلها ترتمي على السرير عاجزة عن الحركة . لقد ذهبنا صباح اليوم معا الى السوق لنشتري أحذية لبوليا ولينا لأن أحذيتهما قد خلقت . غير أننا لم تكن نملك من المال ما يكفي لندفع أثمانها . كان ينقصنا مبلغ كبير وكانت الاحذية جميلة جدا وقد انتقتها بذوق لأن لها ذوقا رفيعا ـ وأنت لا تعرف ذلك ! ولما لم نستطع دفع الثمن راحت تبكي بحرقة ولوعة في دكان البائع وأمام الباعة كلهم ... آه كم كان منظرها مؤلما !

قال راسكولنيكوف بابتسامة مريرة :

ـ هيا ... انه يفهم من ذلك أنكم كنتم تعيشون على هذا الشكل !

فصاحت سونيا :

ـ وأنت ... أو لا تسبب لك ألما ؟ أنت نفسك ـ وانني واثقة من ذلك ـ أعطيتها كل ما معك رغم أنك لم تكن قد رأيت شيئا يذكر بعد ! لكنك لو رأيت كل شيء ! آه يا رب ! كم من مرة ومرة جعلتها تبكي ! كان آخر مرة في الاسبوع الفائت ، ثمانية أيام قبل وفاة أبي ! أوه كم ...! وكم من مرة ومرة تصرفت على ذلك النحو ! لقد كنت شديدة الخجل طيلة هذا اليوم حينما تذكرت ذلك كله !

كانت سونيا وهي تتحدث بهذا الاندفاع والانفعال ، تلوي يديها بعنف لكثرة ما كانت تلك الذكرى أليمة بالنسبة اليها !

ـ اذن أنت القاسية ؟

أجابت وهي تبكي :

ـ نعم أنا ! أنا ! لقد جئت ذلك اليوم فقال لي أبي : « سونيا ، اقرئي لي شيئا ••• ان رأسي يؤلمني ••• اقرئي لي ••• خذي هذا الكتاب » • وكان كتابا أعاره اياه أحد الجيران واسمه اندره سيميونوفيتش ليبيزياتنيكوف ، وكان يعيره دائما كتبا غريبة ! فأجبته : « لقد أزف وقت رحيلي » • لم أكن أريد أن أقرأ لأنني كنت قد ذهبت اليهم بصورة خاصة لأعرض على كاترين ايفانوفنا « تطوبقات » • كانت اليزابيت بائعة الثياب القديمة قد أتتني بياقات وبعض من ألبسة الزينة جميلة جدا وجديدة جدا وملأى بالرسوم • أعجبت كاترين ايفانوفنا بها فوضعتها ولبستها وراحت تنظر الى نفسها في المرآة ! كانت تجدها جميلة جدا، جميلة جدا ! قالت لي: «سونيا، سونيا ، أرجوك أن تعطينيها !» • كانت تقول : أرجوك ! لأنها تشعر برغبة هوجاء لامتلاك هذه الأشياء• لكن ماذا كانت ستعمل بها ؟ انها لا تني تتذكر ماضيها ، تلك الأيام القديمة الجميلة ! كانت تتأمل نفسها في المرآة وتعجب بنفسها وهي التي لا تملك ثوبا واحدا ترتديه ، أي ثوب ! أي ثوب منذ زمن طويل ••• منذ سنوات ! مع ذلك فانها لا تتطلب شيئا من أحد أبدا • انها فخورة شديدة الاعتداد بنفسها • بل انها كانت مستعدة لاعطاء نفسها وكل ما تملك وما تبقى لها • مع ذلك فقد طلبت الي في تلك المرة تلك الأشياء لشدة ما راقت في عينيها ! وأنا ، لقد كان يصعب علي أن أعطيها لها • قلت لها : « وماذا ستنفعك هذه الأشياء ، يا كاترين ايفانوفنا ؟ » نعم هذا ما قلت لها • لم يكن ينبغي أن أقوله • عندئذ نظرت الي وكانت قسمات وجهها تنطق بالحزن لأنني رفضت اعطائها تلك الاشياء • كنت أنا أتألم شديد الألم لرؤيتها على ذلك الشكل • لم يكن فقد تلك الياقات هو الذي آلمها بل كان الرفض ، الرفض في حد ذاته ! وكنت

ألمس ذلك بنفسي •• آه ! لو استطعت العودة الى هذا الموضوع وازالة ذلك الألم ! آه أنا •• لكن ماذا •• ان كل هذا لا يعنيك في شيء !

ـ انك تعرفين اليزابيت بائعة الثياب ؟

سألت سونيا بلهجة لا تخلو من الدهشة :

ـ نعم ••• لكن أنت ، هل كنت تعرفها كذلك ؟

قال راسكولنيكوف بعد سكون قصير دون أن يجيب على سؤالها :

ـ ان كاترين ايفانوفنا مصدورة وفي الدرجة الأخيرة ، ولسوف تموت قريبا !

ـ آه ! كلا ، كلا ، كلا !

كانت تصيح بهذه الكلمات وقد أخذت يديه بين يديها بحركة لاشعورية وهي ترجو ألا يحدث ما تنبأ به !

ـ لكن ذلك أجدى ! انها اذا ماتت •••

فكررت سونيا قولها مروعة ، وقد شرد ذهنها :

ـ كلا ، انه ليس أجدى ، ليس أجدى • كلا أبدا !

ـ لكن الاطفال ؟ ماذا ستعملين حينئذ بهم ؟ خصوصا وأنك لا تستطيعين أخذهم عندك !

صاحت سونيا بيأس وقد أضاعت رشدها :

ـ آه ••• لست أدري !

كان واضحا أن تلك الفكرة قد خطرت لها من قبل وأن راسكولنيكوف لم يعمل أكثر من ايقاظها بعد نوم !

تابع راسكولنيكوف دون اشفاق :

ـ لكنك اذا وقعت بنفسك فريسة المرض ـ حتى ولو كانت كاترين ايفانوفنا لا زالت على قيد الحياة ـ وحملوك الى المستشفى ،

فماذا سيحدث ؟

تقلص وجه سونيا بفعل دهشة مريعة ، وقالت :

ـ آه ! ماذا تقول ، ماذا تقول ؟ ان ذلك مستحيل .

قال راسكولنيكوف وعلى وجهه ابتسامة قاسية :

ـ كيف مستحيل ! هل أنت مؤمنة على نفسك ضد المرض ؟ اذن ماذا سيحدث لك حينئذ؟ ان كل هذه الفرقة ستصبح على بلاط الشارع . لسوف تستجدي الأم وهي تسعل وتضرب الجدار برأسها كما فعلت اليوم ، أما الأطفال فسيكون ... حينئذ ستسقط وستنقل الى قسم الشرطة فالمستشفى حيث تموت والاطفال ...

أفلتت سونيا صرخة مكتومة ، وصاحت بصوت مختنق :

ـ آه كلا ... لن يسمح الله بذلك !

كانت قد أصغت بسكون محدقة النظر بالشاب وقد جمعت يديها في صلاة صامتة وكأن كل شيء كان يتوقف عليه . أما راسكولنيكوف فقد نهض من مكانه وراح يتمشى في الغرفة . وانقضت دقيقة . كانت سونيا واقفة منفرجة الذراعين منحنية الظهر فريسة ألم شديد .

توقف راسكولنيكوف فجأة أمامها ، وسأل :

ـ هل من سبيل لادخار بعض المال ، لابقاء بعضه للأيام السوداء ؟

غمغمت سونيا :

ـ كلا !

فأضاف بشيء من التهكم :

ـ طبعا لا . ولكن هل حاولت ؟

ـ لقد حاولت .

ـ ولم تنجحي ! هيا ان ذلك يلمس فلا مجال للسؤال !

وعاد يمشي في الغرفة من جديد . وانقضت دقيقة أخرى :

ـ انك لا تربحين مالا كل يوم .

ازداد اضطراب سونيا وشعرت بالاحمرار يكتسح وجهها فتمتمت بمجهود أليم :

ـ كلا .

قال فجأة :

ـ كذلك سيكون حال بوليا .

شعرت سونيا بتلك الكلمات تخترق قلبها كطعنة سكين فصرخت بيأس مرير :

ـ كلا ! كلا ! مستحيل ، كلا ! الله ، الله لن يسمح برذيلة كهذه .

ـ انه يسمح برذائل أشد وأكثر .

كررت الفتاة بانفعال هائل :

ـ كلا ! كلا ! سوف يحميها الله ! الله !

أجاب راسكولنيكوف بلون من السرور الأثيم ، وهو يتضاحك ويحدق في وجه الفتاة :

ـ لكن يجوز أنه لا يوجد اله !...

اكفهر وجه سونيا فجأة واكتسحت قسماتها رعدة عنيفة . وراحت تتأمله بعتاب لا يمكن الافصاح عنه . كانت تريد أن تقول شيئا لكنها لم تستطع النطق بكلمة واحدة . وفجأة انخرطت في بكاء مر أليم وهي تخفي وجهها بيديها . وأخيرا وبعد صمت قال :

ـ تقولين ان كاترين ايفانوفنا تفقد رشدها ؟ انك تفقدينه كذلك!

وانقضت خمس دقائق . كان يذرع أبدا الغرفة طولا وعرضا دون أن ينظر اليها وأخيرا اقترب منها . كانت عيناه تومضان . وضع يديه كتفيها وراح يتأمل وجهها المستطير . كانت نظرته ملتهبة عنيفة عميقة متغلغلة ، وكانت شفتاه ترتجفان بعنف ... وفجأة انحنى بحركة سريعة وارتمى على الأرض يقبل قدميها . فتراجعت سونيا وكأنها التقت

بمجنون . والحقيقة أن وجهه كان متسما تماما بطابع الجنون .

تمتمت شاحبة ، وهي تشعر فجأة بانقباض أليم في قلبها :

ــ ماذا تعمل ؟ ماذا تعمل ؟ أمامي !

نهض فورا وقال بلهجة غريبة وهو يقترب من النافذة :

ــ انني لم أنحنِ أمامك بل انحنيت أمام آلام البشرية كلها .

عاد نحوها بعد دقيقة وقال مسترسلا :

ــ اسمعي . لقد قلت منذ قليل لأحد الأشخاص انه لا يساوي سلامة أصبعك الصغير.. وانني أضفيت اليوم على أختي شرف اجلاسها بقربك ...

صاحت سونيا مروعة :

ــ آه ! قلت له هنا ! وأمامها ؟ جلوسها بجانبي شرف ! لكنني .. فاقدة الشرف ... آه لِمَ قلت له ذلك ؟

ــ انني لم أقل ذلك بسبب قلة شرفك وخطيئتك بل بسبب ألمك الكبير .

وأضاف بشيء من الوجد :

ــ صحيح انك خاطئة كبيرة ، والأدهى أنك خاطئة لأنك دنست نفسك وبعتيها عبثا . كيف لا يكون مريعا أن تعيشي في هذه الأوحال التي تمقتينها وأن تعرفي بنفس الوقت ــ ويكفي أن تفتحي عينيك قليلا ــ أن كل ذلك لا يفيد وأنك لا تستطيعين انقاذ أحد !

ثم قال وهو فريسة لون من الاحتداد :

ــ لكن قولي لي أخيرا كيف تعيش في نفسك معا هذه القذارة وهذا الانحطاط مع العواطف النبيلة جدا المضادة لها تماما ؟ انه سيكون أجدى ألف مرة أن ينتهي المرء دفعة واحدة بغطسة في الماء بادئا برأسه.

رفعت سونيا نحوه نظرة ضعيفة كليلة مفعمة بالألم وبدت وكأن ذلك الاستنتاج لم يدهشها في شيء ، وقالت بصوت خافت :

ــ وهم ؟ ماذا سيحدث لهم ؟

راح راسكولنيكوف يتأملها بشغف ، لقد قرأ كل شيء في نظرة الفتاة ! لقد فكرت اذن في مثل تلك النهاية . لعلها في يأسها فكرت كثيرا بانهاء حياتها جديا لدرجة أنها لم تعرب عن أية دهشة لدى سماعها رأيه. لم تكن تلاحظ حتى ما في تلك الافتراضات من قسوة : « اتجاه الدرس الذي كان يفرضه عليها ووجهة النظر الخاصة التي كان ينظر خلالها الى عارها » . لكن راسكولنيكوف كان يفهم تماما أنها كانت تتعذب عذابا وحشيا قاسيا ، لمجرد تفكيرها في مركزها المهين . كان يسائل نفسه : ما الذي أوقفها حتى الآن عن اتخاذ قرارها بالانتحار ؟ وعندئذ فقط فهم مبلغ حبها لأولئك الأيتام المساكين ولتلك البائسة كاترين ايفانوفنا التي كانت نصف مجنونة تأوي السل في صدرها وتضرب رأسها بالجدران.

فهم كذلك بوضوح أن سونيا بعقليتها [illegible] التي حصلت عليها لن تستطيع البقاء أبدا في ذلك الموقف . كان يعتبر قدرتها على المقاومة كل هذا الوقت وهي في ذلك المركز دون أن تصاب بالجنون مسألة قائمة في ذاتها ، جديرة بالتفكير فيها . رغم أنها لم تجد في نفسها القدرة على الانتحار غرقا . طبعا ، لقد كان يفهم أن موقف سونيا ليس ليس الا ظاهرة عرضية في المجتمع رغم كثرة الظواهر المشابهة لها وللأسف . لكن تلك العقلية الطارئة وتلك النتف من الثقافة التي حصلت عليها وشرف ماضيها ، كل ذلك كان يبدو كافيا لقتلها منذ خطوتها الاولى في هذا الطريق الفاجر الذي سلكته . ما الذي يدعمها اذن ؟ انه ليس ميلها للفجور ولا شك . ان كل ذلك الخجل وكل ذلك العار ــ كما كان يرى ــ كان قد مسها بشكل آلي حتى أنه يمكن أن يقال ان قلبها لم تدخل فيه نقطة واحدة من الرذيلة الحقيقية . كان راسكو لنيكوف يرى ذلك لأنها كانت واقفة أمامه على حقيقتها الحقة..

راح يتساءل مفكرا : « ليس أمامها الا ثلاثة سبل : الاول أن تلقي بنفسها الى القنال • الثاني أن تنزل في دار المجانين • والثالث والاخير أن تندفع في الفحشاء التي ستغلظ عواطفها وتجعل من قلبها حجرا صما » •

كانت الفكرة الاخيرة تخالف نزعاته أكثر من سواها • لكنه كان قد أصبح مرتابا بالقدرة ! فهو شاب متحرر من كثير من الاشياء لذلك لم يستطع الامتناع عن التفكير والاعتقاد في المخرج الاخير أو بالاحرى في الرذيلة التي كانت تبدو أكثر امكانا من غيرها •

راح يتساءل في سره : « لكن هل يجوز أن يكون ذلك حقيقيا ، هل يجوز أن تكون هذه المخلوقة التي تحتفظ حتى الآن بصفاء الروح قادرة على المضي في تلك البؤرة الشنيعة بملء ارادتها ؟ ألم تبدأ هذه المرحلة بالفعل ؟ ألا يجوز أن تكون الرذيلة بادية لها غير شائنة الى هذا الحد حتى احتملتها الى اليوم ؟ كلا ! كلا ! ان ذلك مستحيل كما كانت تقول سونيا منذ قليل • كلا ! ان الذي أبعدها عن القنال حتى الآن هو الخوف من الخطيئة و « هم » ••• هذا اذا لم تكن قد أضحت مجنونة بالفعل ••• لكن من الذي يقول انها ليست مجنونة ؟ ألا زالت تحتفظ بفكرها النير ؟ هل يمكن أن يتحدث المرء مثلها وأن يفكر مثل تفكيرها اذا كان يملك قواه العقلية السليمة ؟ هل يمكن أن يبقى المرء هكذا على شفا الهاوية أمام تلك البؤرة الشنيعة التي بدأ ينحدر اليها ! ثم يلوح بيده اشارة تدل على العجز ويصم أذنيه عندما يحدثونه عن الخطر؟ ماذا بعد ؟ أليست تنتظر معجزة ؟ نعم لا شك أنه كذلك • أليست هذه دلالات الجنون ؟

توقف بعناد امام هذه الفكرة • بدا له أن ذلك المخرج بالذات أفضل من أي مخرج آخر ، راح يعاين الفتاة بنظرة طويلة ثم سألها :

ــ على ذلك يا سونيا فانك تصلين كثيرا الى الله ؟

نظرت اليه سونيا بصمت • كان يقف بالقرب منها منتظرا جوابها ، فغمغمت بسرعة وبصوت مثير وهي تلقي اليه نظرة خاطفة من عينيها الملتمعتين وتأخذ يده في يديها فتضغط عليها بشدة :

ــ ماذا يحل بي لولا الله ؟

حدث نفسه قائلا : « انه الجنون ولا شك » • ثم سألها راغبا في المزيد :

ــ لكن هذا الله ، ماذا يعمل من أجلك ؟

صمتت سونيا طويلا وكأنها لا تستطيع الجواب،بينما انتفض صدرها الضعيف وارتفع • صاحت فجأة ، وهي تنظر اليه بغضب وقسوة :

ــ اصمت ! لا تسألني • انك لا تساوي •••

عاد راسكولنيكوف يحدث نفسه بعناد : «انه جنون ! انه لكذلك»•

غمغمت بسرعة ، وقد أعادت نظراتها لتطرق بها الى الارض :

ــ انه يعمل كل شيء •

فقال راسكولنيكوف في سره وهو يتأملها بفضول زائد : ذلك هو الحل ، الحل المفسر ! » •

راح يتأمل ذلك الوجه الصغير الشاحب الهزيل غير المتناسق ، وتينك العينين الزرقاوين القادرتين على ارسال مثل تلك الومضات وعكس تلك التعابير الصارمة العنيفة ، راح يتأمل ذلك الجسد الناحل الذي لا زال يرتجف من الغضب والاستنكار ، راح يتأمل كل هذا بشعور جديد غريب مرضي تقريبا فوجده يزداد غرابة في نظره بل ويبلغ مرتبة الخيال• أكد لنفسه قوله : « مجنونة ! مجنونة » •

كان على الدولاب كتاب لاحظه في غدواته وروحاته • فحمله وراح يتفحصه : كان نسخة من « العهد الجديد » المترجم الى الروسية • كان

الكتاب قديما ملصقا ومجلدا بقطعة من الجلد .

صاح يسألها وهو في الطرف الاقصى من الغرفة، بينما هي في مكانها على بعد ثلاث خطوات من المنضدة :

ـ من أين جاء هذا ؟

أجابت ، وكأنها مرغمة دون أن ترفع اليه عينيها :

ـ لقد جاؤوني به .

ـ من الذي جاءك به ؟

ـ اليزابيت ! لقد طلبته اليها .

فكر في سره قائلا : « اليزابيت ! هذا غريب ! » . كان كل شيء عند سونيا يزداد غرابة ودهشة في نظره من حين الى آخر . قرب الكتاب من الشمعة وراح يقلب صفحاته ثم سألها فجأة :

ـ أين يتحدثون فيه عن أليعازر ؟

لبثت سونيا مطرقة بعينيها الى الارض لا تجيب . كانت تقف بعيدة عن المنضدة قليلا .

ـ بعث أليعازر ، أين هو ؟ أوجديه ، يا سونيا !..

كانت تنظر اليه من جانب عينيها . غمغمت بخشونه دون أن تتقدم نحوه خطوة واحدة :

ـ ليس هنا ... انه في الانجيل الرابع .

قال :

ـ جدي المقطع واقرئيه لي !

ثم جلس متكئا بمرفقيه الى المنضدة مسندا رأسه الى يده ناظرا جانبا بكآبة ومستعدا للاصغاء . كان يحدث نفسه قائلا : « أظن أنني سأكون « هناك » خلال ثلاثة أسابيع ، هذا اذا لم يكن أسوأ من ذلك ايضا » .

اقتربت سونيا من المنضدة مترددة • كانت تشعر بايمان ضعيف ازاء مطلب راسكولنيكوف الغريب • مع ذلك فقد أخذت الكتاب •

سألت ، وهي تنظر اليه عبر المنضدة بصوت عال يبدو أكثر خشونة :

ـ ألم تقرأه من قبل ؟

ـ كان ذلك منذ بعيد ••• عندمـــا كنت أذهب الى المدرسة ••• اقرئي •••

ـ أو لم تسمعه في الكنيسة ؟

ـ ما ••• كنت أذهب اليها • لكن أنت ، أتذهبين غالبا ؟

غمغمت سونيا :

ـ كلا !

تضاحك راسكولنيكوف :

ـ فهمت ••• وعلى ذلك فانك لن تحضري غدا مأتم أبيك • غدا ••

ـ سأذهب• بل انني كنت في الكنيسة الاسبوع المنصرم ، واستقرأت صلوات •

ـ لمن ؟

ـ لاليزابيت التي قتلوها بضربات فأس •

كانت أعصاب راسكولنيكوف تزداد توترا وانفعالا، وبدأت رأسه تدور •

ـ هل كنت صديقة اليزابيت ؟

ـ نعم ••• لقد كانت عادلة ••• كانت تأتي عندي ••• نادرا •• ما كانت تستطيع • كنا نقرأ معا ، كنا نتحدث ••• سوف ترى الله •

كانت تلك الكلمات الأخيرة المنقولة بأمانة عن الكتب تدوي في أذنيه بشكل غريب ، ثم هناك خبر جديد ! تلــك الاتصــالات السرية الغامضة بين اليزابيت وسونيا وكلتاهما مهووستان بالتصوف •

فكر في نفسه : « علني سأصبح مثلها • ان ذلك معد » •

صرخ فجأة بصوت ملحاح غاضب :

ـ اقرئي ...

كانت سونيا تتردد أبدا وكان قلبها يخفق بعنف . كان يبدو عليها أنها لا تجرؤ على القراءة . نظر اليها بشيء من الألم : « يا للمجنونة المسكينة ! » .

غمغمت بصوت منخفض يكاد أن يختنق :

ـ ماذا يجديك ذلك ؟ طالما أنك لا تؤمن !

ألح قائلا :

ـ اقرئي ، أريد أن تقرئي . كنت تقرئين لاليزابيت .

فتحت سونيا الكتاب وبحثت عن المقطع . كانت يداها ترتجفان وصوتها مختنقا . حاولت مرتين أن تقرأ ، وفي كلتا المرتين لم تستطع أن تتفوه بكلمة واحدة . وأخيرا نطقت بمجهود جبار :

ـ « كان يوجد مريض ، أليعازار من بيتاني (١) ... »

لكنها لم تكد تبلغ الكلمة الثالثة ويتجاوب صوتها حتى تحطم فجأة وكأنه وتر شدّ كثيرا فانقطع . أعوزها التنفس ، وشعرت بقلبها يعتصر .

كان راسكولنيكوف يفهم جزئيا السبب الذي من أجله لم تكن سونيا تستطيع تقبل القراءة . وكلما ازداد فهما للسبب ، ازداد الحاحا خشنا فظا ، مطالبا اياها بالقراءة . كان يفهم بوضوح أنها ستتألم اذ تكشف له في تلك اللحظة عما تعتبره أخص خصوصياتها . أدرك أن تلك العواطف تشكل لديها لونا مما يدعى سرها الحقيقي ! ولعل ذلك راجع الى طفولتها عندما كانت لا تزال بين أسرتها ، بين أبيها التعس

---

(١) قرية فلسطينية من جبل الزيتون واورشليم تدعى اليوم «العازارية» ـ المترجم ـ .

وزوجته التي جنت من الحزن ، وبين أطفال يضري الجوع أحشاءهم ، في ذلك الوسط الذي لا تنبعث منه الا الفضائح الصـاخبة والتأنيب . لكنه كان يعرف بنفس الوقت ، ويعرف جيدا ، أنها على الرغم من خوفها العنيف من القراءة ، فانها كانت بشوق اليها ، شوق يبلغ مرتبة الألم ، وأنها رغم حزنها ومخاوفها في شوق الى أن تقرأ — له — لكي يسمع ، وخصوصا الآن رغم ما يمكن أن يحدث نتيجة ذلك ... كان يقرأ تلك الرغبة في عينيها ، وكان يفهمها من الاضطراب الحماسي الذي يسيطر عليها ... توصلت أخيرا الى السيطره على نفسها فأزاحت تـلك الغصة التي أطبقت على حنجرتها منذ الآية الأولى ، وراحت تقرأ الفصل الحادي عشر من الانجيل تبعا للقديس يوحنا . وبلغت الآية التاسعة عشرة :

« كثير من اليهود جاؤوا الى مرتا (١) ومريم ليعزيانهما بصـدد أخيهما . ومنذ أن علمت مرتا بقدوم يسوع ذهبت لا[...] مريم جالسة في المنزل . قالت مرتا ليسوع : أيها المولى ، لو أنـك كنت هنا لما مات أخي . لكن الآن أيضا أعرف أن كل ما تطلبه من الله يمنحه الله لك »

لما بلغت هذه المرحلة توقفت مرة أخرى وهي تشعر بالخجل لأن صوتها كان مرتعدا يتحطم من جديد :

« قال يسوع لها : سيبعث أخوك . أجابته مرتا : أنـا أعرف انه سيبعث يوم البعث في اليوم الآخر . قال لها يسوع : انني أنا البعث وأنا الحياة ، كل من يؤمن بي ولو كان ميتا سيحيا ، وكل من هو حي ويؤمن بي لن يموت أبدا . هل تؤمنين بذلك ؟ »

وعلى الرغم من الصعوبات التي كانت تشعر بهـا عندمـا كانت

---

(١) ترجمت آيات الانجيل الواردة في هذا النص بكل امانة ولم تنقل من الانجيل نفسه، فاذا وجد فيها بعض من عدم المطابقة الحرفية فان السبب واضح ومنظور

تتنفس ، فان سونيا كانت تقرأ بوضوح وقوة كما لو كانت هي نفسها تعلن ايمانها !

قالت له نعم أيها المولى أنا أؤمن أنك أنت المسيح ابن الله الذي كان يجب أن تأتي الى هذا العالم .

كادت أن تتوقف وأن تلقي عليه نظرة مختلسة ، لكنها تمالكت نفسها بسرعة وتابعت القراءة . كان راسكولنيكوف يصغي اليها وهو جالس لا يتحرك ولا يدير رأسه ، متكئا بمرفقيه الى المنضدة وملقيا ببصره الى الجانب . بلغت الآية الثانية والثلاثين .

« عندما وصلت مرتا الى المكان الذي كان فيه يسوع ورأته ارتمت على قدميه وقالت له : أيها المولى ! لو أنك كنت هنا فان أخي ما كان ليموت . نظر اليها يسوع وهي تبكي ، هي واليهود الذين كانوا يصحبونها ، فارتعد في فكره واستسلم لانفعاله وقال : أين وضعتموه ؟ — فأجابوه : أيها المولى تعال وانظر . وبكى يسوع . قال اليهود : أنظروا كم كان يحبه ! . لكن بعضا منهم قالوا : ألا يستطيع وهو الذي فتح عيون مولود أعمى أن يعمل على ألا يموت هذا الرجل .

استدار راسكولنيكوف نحوها ونظر اليها بانفعال . نعم ، انه كذلك ! لقد كانت ترتجف كلها فريسة حمى حقيقية . لقد كان يتوقع ذلك . كانت تقترب من القراءة المتعلقة بالمعجزة الخارقة فاستحوذ عليها شعور بالفخار . راح صوتها يهتز مدويا كالمعدن ، وكانت لهجة النصر والفرح هي التي تعطيه تلك القوة وذلك الجلد . كانت الأسطر تتراقص أمام عينيها المخضلتين بالدموع ، لكنها كانت تعرف عن ظهر قلب ما كانت تقرأ . وعندما بلغت الآية الأخيرة : « ألا يستطيع وهو الذي فتح عيني طفل أعمى بالولادة .. » كانت تعبر عن اضطراب ولوم ومطعن أولئك اليهود العميان الجاحدين الذين سوف يخرّون ساجدين على ركبهم منتحبين ومؤمنين بعد دقيقة واحدة ، وكأن صاعقة انقضت عليهم ...

كانت تعبر عن ذلك بصوتها المنخفض وحماسها المتقد ... وهو ، هو الأعمى كذلك والجاحد ، هو كذلك بعد لحظة سوف يسمع ، هو أيضا سوف يؤمن نعم ! نعم ! حالا وفي هذه اللحظة ...

كانت تفكر في ذلك ، وهي ترتعد بانتظار اللحظة المفرحة .

« ارتعد يسوع اذن في نفسه ومضى الى اللحد : كان كهف صغير وضع عليه حجر كبير . قال يسوع « ارفعوا هذا الحجر » . قالت له مرتا أخت الذي كان ميتا : « أيها المولى ان الرائحة تنبعث منه لأنه قد مضى عليه أربعة أيام هنا »

وضغطت سونيا بشدة على كلمة « أربعة » .

« قال لها يسوع : ألم أقل لك انك اذا آمنت فسوف ترين مجد الله ؟ » ارفعوا اذن الحجر . ورفع يسوع عينيه الى الأعلى وقال: «أبي، انني أشكرك من أجل كل ما استجبت لي به . أنا أعرف أنك تستجيب لي دائما لكنني قلت هذا بسبب هذا الجمع الذي يحيط بي لكي يؤمنوا بأنك أنت الذي أرسلتني » . وبعد أن قال ذلك صرخ بصوت قوي: « أليعازر أخرج » وخرج الميت ...

قرأت هذه الكلمات بصوت قوي منتصر . كانت ترتعد وكان جسمها متجمدا وكأنها ترى ذلك المشهد بأم عينيها .

« ... وقدماه ويداه موثوقة بالأربطة ووجهه محجوب بكفن . قال لهم يسوع : « حلوا وثاقه ودعوه يذهب » .

« كثير من بين اليهود الذين جاؤوا بالقرب من مريم ومن مرتا والذين رأوا ما عمل يسوع فآمنوا به » .

توقفت عند هذا الحد لأنها لم تستطع الاستمرار، وأغلقت الكتاب ونهضت بعنف .

تمتمت بصوت قاس مرتعش :

ـ هذا كل ما يتعلق ببعث أليعازر .

ولبثت جامدة تنظر جانبا ولا تجرؤ على رفع عينيها الى راسكولنيكوف احتشاما • كان ارتعادها المحموم متواصلا ، وكانت الشمعة المستهلكة في الشمعدان العتيق منذ أمد طويل لا تكاد تضيء تلك الغرفة الحقيرة حيث وقف القاتل والعاهرة ـ ويا للدهشة ـ والتقيا لقراءة كتاب أزلي ، ومضت خمس دقائق أو أكثر •

قال راسكولنيكوف فجأة بصوت عنيف ، وهو يقطب حاجبه وينهض مقتربا من سونيا :

ـ لقد جئت أحدثك بشيء ما •

رفعت اليه عينيها بسكون ، فكانت نظرة راسكولنيكوف تفضح تصميما مخيفا • قال :

ـ اليوم هجرت أسرتي : أمي وأختي • لن أعود اليهما بعد اليوم • لقد حطمت كل رباط بيننا •

سألت سونيا مضطربة :

ـ لماذا ؟

كان لقاؤها القريب مع أم راسكولنيكوف وأخته قد أحدث في نفسها شعورا خارقا لم تكن تستطيع تحديده • لذلك تلقت خبر ذلك الانقطاع بارتياع •

أضاف راسكولنيكوف :

ـ الآن لم يعد لي سواك • لنذهب معا ••• لقد جئت اليك • اننا ملعونان كلانا • وعليه لنذهب معا •

كانت عيناه تومضان • فكرت سونيا بدورها: «انه يبدو مجنونا» •

سألت برهبة ، وهي تتراجع رغم ارادتها •

ـ نذهب الى أين ؟

ـ وهل أدري ؟ انني أعرف فقط أن أمامنا طريقا واحدا علينا اجتيازه • انني أعرف هذا حقيقة ولا شيء أكثر من هذا ••• ان هدفنا

كذلك موحد .

كانت تنظر اليه دون أن تفهم • كانت لا تفهم الا أمرا واحدا : هو أنه تعيس بشكل مريع •

أضاف :

ـ لن يفهمك أحد منهما اذا تحدثت اليهما • أما أنا ففد فهمتك • انك ضرورة لي ولذلك جئت اليك •

همست سونيا :

ـ لست أفهم •

ـ سوف تفهمين فيما بعد • ألم تعملي مثلي ؟ انك أنت أيضا خرقت القاعدة ••• لقد استطعت خرقها • لقد رفعت يدك ضد نفسك، لقد حطمت حياتك ••• حياتك أنت والقضية سيان • كان يمكنك أن تعيشي بالفكر والعقل ، واذا بك تنتهين الى سوق العلف !••• لكنك لن تستطيعي المقاومة • واذا لبثت وحيده لسوف تفقدين عقلك مثلي • انك منذ الآن أشبه بالمجانين ، وعلى ذلك فانه يفيدنا أن نمضي معا، أن نتبع طريقا واحدة • لنذهب !

تمتمت سونيا ، وقد أخذت بهذه الكلمات بعنفه غريب :

ـ لماذا ؟ لماذا تقول ذلك ؟

ـ لماذا ؟ لأنه يستحيل البقاء هكذا • هذا هو السبب ! يجبأخيرا أن تنفضي يدك جديا وأن تنظري الى الأمور كما هي بدلا من البكاء والصياح بأن الله لن يسمح بذلك ! قولي لي ماذا سيحدث اذا حملت غدا الى أحد المستشفيات لسبب جدي ؟ ان الأخرى قد فقدت عقلها وهي مصدورة ، ولسوف تموت قريبا فماذا سيحل بالأطفال ؟ هل تستطيع بوليا الا أن تخسر نفسها؟ ألم تري في الشوارع بعضا من أولئك الأطفال الذين ترسلهم أمهاتهم ليتسولوا وليطلبوا الاحسان ؟ لقد عرفت أين وكيف يعيش أولئك الأمهات ! وان في مثل تلك الأمكنة يستحيل

على الأطفال أن يبقوا أطفالا . ففي سن السابعة يفجر الطفل ويسرق . مع ذلك فان الأطفال صورة المسيح : « ان ملكوت الله يخصهم ! » لقد أمر أن نحترمهم ونحبهم لأنهم الانسانية المقبلة ...

كررت سونيا القول ، وهي تلوي يديها وتنتحب بهسترية :

ـ ما العمل اذن ؟ ما العمل ؟

ـ ما العمل ؟ ينبغي العزوف نهائيا ولا شيء أكثر ، واحتمال الألم شخصيا ! ماذا ؟ ألا تفهمين ؟ لسوف تفهمين في المستقبل ... الحرية والقوى قبل كل شيء ، القدرة ! السيطرة على جميع المخلوقات المرتعدة وكل بيوت النمل . ذلك هو الهدف . اذكريه جيدا ! هـذا هو الطريق الذي أبينه لك ! لعلني أتحدث للمرة الأخيرة . واذا لم أحضر غدا فسوف تعلمين كل شيء بنفسك وعندئذ تذكري كلماتي . وفي المستقبل، مع الزمن ، بعد عام من اليوم ، لعلك تفهمين ماذا تعني تلك الكلمات . اذا جئت غدا لسوف أقول لك من قتل اليزابيت . الوداع !...

ارتعدت سونيا من الذهول ، وسألت وهي متجمدة من الخوف تتأمله بشرود :

ـ لكن هل تعرف من الذي قتلها ؟

ـ أعرفه وسأقوله لك ... لك أنت وحدك ! انك أنت التي انتقيتها . لن أحضر غدا لأطلب صفحك ، بل سأقوله لك بكل بساطة. لقد انتقيتك منذ زمن بعيد لأقوله لك . منذ الوقت الذي حدثني أبوك عنك وكانت اليزابيت على قيد الحياة كنت أفكر في ذلك . الوداع . لا تمدي لي يدك ! الى الغد ...!

خرج . وكانت سونيا تنظر اليه نظرتها الى مخبول . لكنها كانت نفسها كمخبولة أيضا وكانت تشعر بذلك . شعرت بدوار في رأسها : « رباه ! كيف يعرف قاتل اليزابيت ؟ ماذا كانت تعني كلماته ؟ ان ذلك غريب ! » رغم ذلك فان « الفكرة » لم تخطر لها على بال مطلقا . « آه

كم هو تعيس تعاسة مريعة ... لقد هجر أمه وأخته . لماذا ؟ ماذا حدث؟ ما هي نواياه ؟ ماذا قال لي ؟ لقد قبل قدمي وقال لي ... لقد قال لي ـ نعم ، تلك هي كلماته ـ انه لن يستطيع العيش بدوني ... رباه ! » .

أمضت سونيا ليلتها فريسة الحمى والهذيان . كانت تنتفض أحيانا فتبكي ، وتلوي يديها وتستغرق في نوم محموم أحيانا أخرى . رأت في الحلم بوليا وكاترين ايفانوفنا واليزابيت وقراءة الانجيل وهو ... هو، بوجهه الشاحب وعينيه المتقدتين يقبل قدميها ويبكي ...آه ! رباه !

ووراء الباب الأيمن ، وراء ذلك الباب الذي يفصل مسكن سونيا عن مسكن جيرترود كارلوفنا ريسليش كانت تقوم حجرة ملاصقة، كانت خالية منذ زمن طويل وكانت تابعة لمسكن السيدة ريسليش التي كانت تريد تأجيرها بدلالة اللوحة الموضوعة على الباب الخارجي والأوراق الملصقة على زجاج النوافذ المطلة على القنال . كانت سونيا منذ بعيد قد اعتادت اعتبار تلك الغرفة خالية غير مسكونة ، ومع ذلك فقد كان السيد سفيدريكايلوف قابعا طوال ذلك الوقت في الغرفة الخالية وأذنه الى الباب يسترق السمع . وعندما خرج راسكولنيكوف لبث برهة يفكر ثم عاد على أطراف قدميه الى غرفته الملاصقة للغرفة الخالية فجاء بمقعد وعاد يضعه دون ضجة لصق الباب الذي يصل بين غرفة سونيا والغرفة الخالية . لقد بدا له الحديث مهما جديرا بالاستماع اليه ، لقد أحس بسرور عميق ورغبة عنيفة حتى أنه جاء بذلك المقعد ليستطيع في المرة القادمة ، منذ الغد مثلا ، أن يجنب نفسه عناء الوقوف ساعة كاملة، فيجلس بكل راحة وهدوء ، كي يصبح سروره في المرة المقبلة أكثر كمالا من جميع وجهات النظر .

٥

صباح اليوم التالي ، قدم راسكولنيكوف نفسه في الساعة الحادية عشرة الى قسم البوليس ــ حيث كان قاضي التحقيق يشغل مكتبا خاصا ــ وأعلن عن قدومه لبورفير بيتروفيتش. أدهشه أن ينتظر طويلا قبل أن يستقبل ، اذ انقضت عشر دقائق على الاقل قبل أن يدعى للدخول ، بينما كان ينتظر ــ بحسب تخميناته ــ أن يلقوا بأنفسهم عليه حالما يصل . لبث بانتظار استدعائه ، واقفا في غرفة الانتظار بين عدد من الناس يروحون ويغدون حوله دون أن يبدو على أحد منهم أنه يلتفت اليه أو يهتم بشأنه . وفي الغرفة التالية التي كانت تشبه مكتبا رسميا، كان عدد من الكتاب منهمكين في الكتابه حتى أنه كان من الواضح أن أيا منهم لا يضمر أية فكرة نحوه ولا يدري سبب وجوده هناك . كان يجيل حوله نظرة متشككة قلقة ويتساءل : ألا يوجد مخبر أو شرطي سري ما مكلف بمراقبته وبالتالي بمنعه من الخروج ؟ لكن شيئا من هذا القبيل لم يكن موجودا ، لم ير حوله الا كتبة متواضعين منهمكين في أعمالهم ، وأشخاصا آخرين لم يكونوا يعيرونه التفاتا، بل كانوا يتركون له حرية التنقل في أربع زوايا المكان ! راحت فكرة تتركز في رأسه بشدة وحزم : لو أن ذلك الشخص المجهول الذي ظهر أمس ، ذلك الشبح الذي انشقت عنه الأرض ، كان يعرف كل شيء ، وكان قد رأى كل شيء ، فهل كانوا يتركونه ــ هو راسكولنيكوف ــ ينتظر كل هذا الوقت بهدوء وراحة حيث هو ؟ هل كانوا سينتظرون الساعة الحادية عشرة لكي يتعطف أخيرا ويزعج نفسه بالحضور لتقديم افادته ؟ اذن ..

اما أن يكون ذلك الرجل لم يش به بعد ••• أو أنه كان ـ بكل بساطة ـ لا يعرف شيئا ولم يرَ شيئا بأم عينيه • ثم كيف كان يمكنه أن يرى؟ على ذلك فان كل ما وقع له البارحة ـ هو راسكولنيكوف ليس الا وهما وتخيلا راحت مخيلته تجسمه له بسبب شدة تهيجه ومرضه •

كان قد تصور أمس هذه النتيجة بالذات أثناء غمه الشديد ويأسه، وبينما هو يفكر في هذا كله ويهيىء نفسه لصراع جديد شعر فجأة بأنه يرتعد ، فراح يغلي غيظا عندما فكر بأن ارتعاده هذا راجع الى خوفه من الظهور أمام ذلك البغض : بورفير بيتروفيتش • كان لقاء ذلك الرجل من جديد شديد الرهبة في نفسه ، كان يمقته الى أقصى حدود المقت ، مقتا لا حد له ، ويخشى بعد ذلك أن يفضح نفسه بنفسه بشكل من الاشكال بسبب ذلك البغض • كان غضبه من الشدة حتى أن رعدته زالت تماما ، واستعد للدخول بهيئة يبدو عليها البرود والتثاقل وأقسم في سره على أن يتكلم بأشد اختصار ممكن وأن يفتح أذنه وعينه ، وأن يسيطر هذه المرة على مزاجه الذي تبلغ فيه سرعة الغضب مبلغا مرضيا مهما كانت الأسباب ••• وفي تلك اللحظة أدخل الي حضرة بورفير بيتروفيتش !

كان بورفير بيتروفيتش في تلك اللحظة وحيدا في مكتبه • وكان ذلك المكتب عبارة عن غرفة لا كبيرة ولا صغيرة ، فيها مكتب كبير وضع قباله أريكة مغطاة بقماش مشمع ، ودولاب صغير وخزانة في ركن آخر مع بعض المقاعد • وكانت هذه القطع كلها مقدمة من الادارة مصنوعة من الخشب الاصفر الذي راح طلاؤه يتساقط • وفي الحاجز القائم في صدر المكان ، كان هناك باب مغلق يدل على وجود غرف أخرى وراء ذلك الحاجز •

لما أدخل راسكولنيكوف ، أغلق بورفير الباب وراءه مباشرة ، ولبث كلاهما في خلوة •استقبله بوجه شديد الجذل وبمظهر كثير

الايناس ، واستطاع راسكولنيكوف بعد دقائق معدودة أن يلمس بعض الدلالات التي تثبت أن نوعا من الارتباك كان قائما في نفس بورفير : كان يبدو كأنه فقد الأثر الذي كان في يده ، وأنه أزعج وشوش باله بأعمال معينة . هتف بورفير ، وهو يمد ذراعيه نحوه :

ـ آه ! أيها الباسل ! ها أنت ذا ... في نواحينا ! هيا أجلس ؛ أيها الطيب ! لكن لعلك لا تحب أن أناديك بـ : «أيها الباسل» و «أيها الطيب » فقط دون الاسم . لا تلقَ بالك الى هذا أرجوك ، لا نعتبره تكلفا ... هنا ... اجلس على الاريكة .

جلس راسكولنيكوف دون أن تبارح عيناه وجه بورفير . راح يتساءل في سره : « في نواحينا » ، وذلك الاعتذار عن أنسه وهو عبارة فقط دون الاسم الخ ... ان كل ذلك بشكل أدلة بينة ! لقد مد الي يديه ولم يعطني واحدة منهما اذ سحبهما في الوقت المناسب !

كان راسكولنيكوف يفكر بحذر في كل هذه الامور ، وراح كلاهما يراقبان بعضهما بعضا لكنهما كانا يغضان طرفهما بسرعة البرق كلما التقت أبصارهما .

ـ لقد جئتك بمعروض يتعلق بالساعة ... ها هوذا ... هل هو مناسب على شكله الحالي ، أم ينبغي تبديله ؟

قال بورفير ، وكأنه كان على عجلة من أمره بسبب عمل ما :

ـ ماذا ؟ أي معروض ؟ نعم نعم ... لا تزعج نفسك ... انه مناسب جدا ...

لم يلق نظرة على « وريقة » راسكولنيكوف الا بعد أن أكد صلاحها دون أن يراها ، ولما نظر اليها استرسل بلهجته السريعة :

ـ نعم ... ان ذلك حسن ، لا حاجة الى شيء آخر .

ثم وضع المعروض على مكتبه . ولم تمضِ دقيقة ـ وبينما كانا

يتحدثان بشأن آخر ـ أخذ تلك الورقة ووضعها بعناية في الدولاب.

قال راسكولنيكوف :

ـ خيل الي أنك حدثتني البارحة عن رغبتك في استجوابي ... قانونا ... بصدد علاقاتي مع ال ... مرأة القتيل !

مرت في خاطره بسرعة البرق فكرة فناجى نفسه: «لم أضفت كلمة (خيل الي) ؟ لكن فكرة أخرى ترددت في ذهنه بمثل سرعة الأولى اذ قال : لم أقلق بهذه الشدة لمجرد أنني أضفت كلمة (خيل الي) ؟ » .

وفجأة شعر بأن اتصاله مع بورفير وتلك الكلمات القليلة المتبادلة بينهما ، وتلك النظرات المتعاقبة ، هي وحدها التي جسمت في نفسه ذلك الحذر العجيب ... وأن ذلك كان شديد الخطورة ...

«عادت أعصابي الى التهيج... لسوف أفضح نفسي من جديد».

غمغم بورفير ، وهو يذرع مكتبه ويدور حول المنضدة :

ـ حسنا ... حسنا ، حسنا ! لا تبتئس ! لدينا الوقت الكافي، لدينا الوقت الكافي !

لكنه بدا وكأنه لم يفكر في ذلك مطلقا ، اذ راح يلقي النظر الى الشارع من خلال زجاج النافذة ثم يعود الى مكتبه أو الى المنضدة تارة أخرى ، وتارة يتحاشى نظرة راسكولنيكوف المرتابة ثم يتوقف ليحدق في ثبات عينيه تارة أخرى . كان منظره ، وهو الرجل الضخم المستدير، كالكرة التي تتدحرج من جهة الى أخـــرى ، ثم تقفـــز من جـــديد بين الجدران الاربعة ، يثير الفضول !

ـ لدينا الوقت ، لدينا الوقت ... آه ! هل تدخن ؟ هل لديـك تبغ ؟ ها هي ذي سيجارة . انك تعرف بأنني أستقبلك هنا ... لـــكن مسكني وراء هذا الحاجز ، هنا أيضا ... انني أقطن هنا على نفقـــة الدولة ، أما في الوقت الحاضر فانني غير مستقر الى حين . كان ينبغي اجراء بعض الترميمات هنا . لقد انتهت تقريبا.. هل تعرف أن الاسكان

على نفقة الدولة شيء معروف ؟ هم ؟ ما رأيك فيه ؟

أجاب راسكولنيكوف وهو ينظر اليه نظرة فيها سخرية :

ــ نعم ... انه أمر معروف !

كرر بورفير بيتروفيتش الذي كان يبدو شارد الذهن :

ــ أمر شهير ... أمر معروف ... أمر مشهور !

ثم توقف على بعد خطوتين من راسكولنيكوف وراح يحدق في وجهه . كان ذلك الترديد الرتيب « ان ايواء الشخص من قبل الدولة أمر معروف ، بديع ... شهير » وذلك البرود يتناقضان بشدة مع تلك النظرات الجدية الغامضة التي كان يصوبها الى زائره في تلك اللحظة . لكن هذا ما كان الا ليزيد غضب راسكولنيكوف حتى أنه لم يستطع الامتناع عن اعلان تحد طائش بمظهره الاستفزازي !

قال فجأة ، وهو ينظر اليه في شيء من الوقاحة وكأنه يشعر بلون من التلذذ في تلك الوقاحة :

ــ أتدري أن هناك قاعدة حقوقية ، أو أسلوبا حقوقيا ينهج عليه قضاة التحقيق ويتبعونه : وهو يقضي بالتحدث بالحماقات أو بأشياء جدية خارجة تماما عن الموضوع بقصد تنشيط أو بعبارة أصح تلهية الشخص المستجوب ، وتخدير يقظته ، ثم الانهيال على رأسه فجأة بالسؤال القاتل شديد الخطورة . أليس كذلك ؟ أعتقد تماما أن هذه القاعدة لا زالت تتبع بكل دقة حتى الآن .

قال بورفير بيتروفيتش وهو يغمز بعينه ، وقد طفح وجهه بأمارات الوداعة والمكر وزالت التجعدات عن جبينه وغدت عيناه ضيقتين وتمددت قسمات وجهه وراح ينظر فجأة في عيني راسكولنيكوف :

ــ هكذا ... هكذا اذن تفكر بأنني حدثتك عن المسكن المقدم من قبل الدولة لكي ... هم !

انفجر ضاحكا ضحكة عصبية طويلة هزت جسمه بعنف . كاد

راسكولنيكوف أن يشاطره الضحك بأن يرغم نفسه قليلا عليه لمجاراته، لكن بورفير عندما وجد أنه على وشك الضحك ، غرق في حماسة فظيعة صبغت وجهه بلون قرمزي فتخطى راسكولنيـــكوف حدود التعقل : توقف عن الضحك وقطب حاجبيه وراح يتأمل بورفـــير بنظرة طويـــلة حاقدة طيلة نوبة الضحك التي استولت عليه والتي بدت مصطنعة بعض الشيء !•• كان عدم التروي باديا من الجانبين : كان بورفير يضحك مستهزئا من زائره الذي اعتبر تلك الضحكة لونا من الحقد ومع ذلك فان بورفير لم يبد ارتباكا • كانت هذه المناسبة الأخيرة تستلفت انتباه راسكولنيكوف : فهم فجأه أن بورفير بيتروفيتش لم يكن أبدا منزعجا بل على العكس كان هو ، راسكولنيكوف ، الذي ترك نفسه يسقط في الشرك ! كان هناك ولا شك شيء لا يزال يجهله ، كان الأمر كله يسير حسب خطة مرسومة : لعل كل شيء كان معدا ولعل المفاجأة ستقع بعد قليل •

أراد أن يحسم الموضوع مباشرة فأخذ قبعته بيده وقـــال بصوت حازم يتخلله انفعال شديد :

ــ يا بورفير بيتروفيتش ، لقد أعربت البارحة عن رغبتك في رؤيتي لتخضعني لاستجواب معـــين ــ وضغط بصورة خـــاصة عـــلى كـــلمة استجواب ــ وها أنا جئت• فاذا كنت تريد استجوابي فاستجوبني والا فاسمح لي بالانسحاب • ليس عندي وقت أضيعه ــ انني مشغول ••• ينبغي أن أحضر دفن ذلك الموظف الذي دهسته عربة أمس والذي ••• سمعت عنه من قبل •

انزعج لأنه أضاف هذه العبارةفراح غضبه يتزايد ! أضاف بصوت مرتفع :

ــ لقد عيل صبري من كل هذا • اني أشعر منذ زمن بعيد بارهاق

مفرط بسببه ! وأعتقد أن مرضي ناجم عنه أكثر من أي سبب آخر !

تضاعف غضبه ازاء تلفظه بهذه الجملة الأخيرة المتعلقة بمرضه، وشعر أنها في غير موضعها فاسترسل :

ــ وبكلمة واحدة تفضل باستجوابي أو دعني أنسحب في الحال. لكنك اذا أردت أن تستجوبني فليكن ذلك ضمن الاصول المتبعة، والا فانني لن أسمح لك بغير ذلك . وبالانتظار أودعك طالما أننا لا نجد ما يدعو لوجودنا معا في الوقت الحاضر .

هتف بورفير بيتروفيتش ، وقد أبدل فجأة لهجته وتصرفاته وكف عن الضحك :

ــ رباه ! ماذا دهاك ؟ لكن لِمَ استجوبك ؟ لا تبتئس ، أرجوك .

وعاد يذرع الغرفة بادي الانشغال حينا ويتهافت على راسكولنيكوف ليجلسه حينا آخر :

ــ لدينا الوقت . لا شيء يدعونا الى العجلة ثم ان كل هذا دون الأهمية ! انني على العكس مسرور جدا اذ جئت أخيرا الينا ... انني أستقبلك كزائر . أما ضحكتي الملعونة فاعذرني يا روديون رومانوفيتش الباسل . تلك هي أسماؤك ، أليس كذلك ؟ انني رجل عصبي وقد شغلتني دقة ملاحظتك . صحيح انني أحيانا أقفز ككرة المطاط خلال نصف ساعة كاملة ... انني ضحوك بطبعي ... ان مزاجي يجعلني أخشى أن أصاب بالشلل . لكن ... اجلس أرجوك أيها الباسل ، والا فسأعتقد بأنك منزعج .

كان راسكولنيكوف صامتا يسمع ويراقب وقد قطب الغضب حاجبيه ثم جلس ولكن دون أن يترك قبعته من يده .

استرسل بورفير بيتروفيتش الذي لبث في تجواله في الغرفة يحاول أن يستأثر بنظرة ضيقة :

ــ سأقول لك شيئا يا روديون رومانوفيتش الشجاع ، يتعلق بي

ويجعلك تفهم عقليتي • انني عازب ، وبالتـالي لا أختـلط بالأوساط الراقية الا نادرا لأنني مجهول منها • ثم انني رجل قضي عليه و••• و••• هل لاحظت يا روديون رومانوفيتش أن عندنا ـ وأقصـد في روسيا وبصورة خاصة في بطرسبورغ ـ عندما يلتقي شخصان ذكيان لم يتعرفا بعد على حقائق بعضهما تماما لكنهما يميلان الى بعضهما بعضا كما هو الحال بيني وبينك ، فانهما لا يجدان خلال نصف ساعـة كلمـة واحدة يتبادلانها ، بل يتبادلان النظر كالتماثيل ويشعر كلاهما بالارتباك • ان الناس يجدون موضوعات للكلام • خذ النساء مثلا ••• الأشخاص في المجتمع •• انهم جميعا يجدون موضوعا يتحدثون فيه • بل يجب أن يجدوا موضوعا للحديث• أما رجال الطبقة الوسطى مثلنا فانهم يرتبكون وينطوون على أنفسهم صامتين ••• انهم يفزعون ، فكيف يحدث ذلك أيها الباسل ؟ أليس لنا نحن مصالح اجتماعية ؟ أم هـل نحن شـديدو النزاهة حتى أننا نعزف عن خداع بعضنا بعضا : لست أدري • أما أنت، فما رأيك ، ذلك ؟ لكن دع قبعتك • ان من يراك يعتقـد أنك تريـد الذهاب على الفور ، وذلك يزعجني لأنني على العكس سعيد جدا •••

وضع راسكولنيكوف قبعته في صمت ملـح وقد تقطب حاجباه وراح يصغي الى ثرثرة بورفير الملحاح • فكر : « ماذا ؟ انه يهدف الى اشغال انتباهي بلطف بذلك السيل المتدفق من الحماقات » •

تابع بورفير :

ـ انني لن أقدم لك القهوة لأن المجال لا يسمح بها • لكن لِمَ لا تقضي خمس دقائق مع صديق لترفه عنه ؟ ثم ـ وأنت تعرف ـ كل هذه الضرورات المصلحية ••• هيا لا تنزعج ، يا صديقي الباسل • اذا كنت تراني غاديا رائحا فاعذرني كذلك أيها الباسل • انني أتحاشى جدا أن أسبب لك أية صدمة ، لكنني في حاجة قصوى الى الحركة لأنني أجلس باستمرار ويسعدني جدا أن أتمشى خمس دقائق •• انني مصـاب

بالباسور ••• وقد عنيت أبدا بأن أعالج نفسي بالرياضة ، اذ يبدو أن مستشاري دولة سابقين وكذلك مستشارين سريين لا ينقطعون عن القفز بالحبل بانتظام • ان العلم يفرض ذلك في هذه الأيام • أما واجباتنا هنا واستجواباتنا وكل هذه الرسميات ••• انك ترى أيها الباسل أنك أنت الذي بدأت تتحدث عن الاستجوابات ••• اذن فاعلم يا روديون رومانوفيتش الباسل أن تلك الاستجوابات تحير أحيانا القاضي أكثر مما تحير الموقوف كما أبدت ملاحظتك الدقيقة منذ حين (مع العلم أن راسكولنيكوف لم يبد أية ملاحظة حول هذا الموضوع) • ان الانسان ليتفعل حقيقة ، انه ليرتبك ••• ثم دائما المسألة بالذات كضربات الطبل المتناسقة • ومن هنا التهذيب الذي يحصل لنا أو بالأحرى الذي نحن مدعوون الى العمل به • ها ! ها ! ها ! ها ! أما فيما يتعلق بوسائلنا الحقوقية ـ وانني أستعمل اصطلاحك البارع ـ فانني من رأيك تماما • من هو ؟ قل لي ، ذلك الموقوف حتى ولو كان قرويا من أكثر الأشخاص جهالة ، الذي لا يعرف أننا سنبدأ بمحاولة اشغاله (حسب تعبيرك البديع) بطرح أسئلة غريبة عن الموضوع ثم بالانهيال عليه بالمسألة المطلوبة كضربة فأس على جمجمته ؟ ها ! ها ! ها ! تماما على جمجمته حسب تشبيهك البديع • ها ! ها ! ها ! • على ذلك فانك فكرت بأنني اذ حدثتك عن المسكن أردت ••• ها ! ها ! ها ! ان روح التهكم لا تنقصك • لكن لعمري لن أعمل شيئا من هذا ! آه ! نعم ! على فكرة ان كلمة تذكر بأخرى وفكرة تستدعي فكرة ثانية : منذ حين تفضلت بالحديث حول الاصول فيما يتعلق بالاستجواب كما لعلك تذكر ••• لكن ما هي الأصول ! ليس للاصول في حالات كثيرة أي معنى • في بعض الحالات يجدر التذرع بمحادثات ودية تماما • ان الاصول لا تختفي أبدا ـ واسمح لي أن أطمئنك حول هذا الموضوع ! لكن ما هي الأصول في الحقيقة ؟ انني أسألك رأيك • ان قاضي التحقيق لا ينبغي أن يجد

نفسه في كل خطوة موثوقا بالأصول المرعية . ان مهنة هذا القانوني تشبه الفن الحر أو شيئا من هذا القبيل ... ها ! ها ! ها ! ها !

التقط بورفير بيتروفيتش أنفاسه وصمت دقيقة . كان يتحدث بلا انقطاع فيلقي أحيانا جملا محرومة من المعنى تماما وأحيانا يسقط كلمات صغيرة غامضة ويعود بعدها الى لون من البله . كان في تلك اللحظة يجري في الغرفة بدلا من المشي ، وكان يحرك ساقيه الغليظتين أكثر فأكثر تاركا يده اليمنى مخبأة وراء ظهره بينما كان يستعمل اليسرى في حركات مستمرة مختلفة تتناقض كل التناقض مع مدلول أقواله ولونها. لاحظ راسكولنيكوف فجأة أنه خلال جريه في الغرفة توقف مرتين أو ثلاث مرات قرب الباب وكأنه ينصت برهة ... تساءل : « هل ينتظر أحدا ؟ »

تابع بورفير بوداعة ، وهو ينظر الى راسكولنيكوف بشكل مفرط بطيبة القلب جعل هذا الاخير يرتعد فورا ويستعد لكل شيء :

ــ الحقيقة أنك على صواب تماما . لك الحق في أن تتهكم بهذه البداهة الجميلة من الاصول القضائية ... ها : ها ! ان تلك الأصول ــ بعضا ولا شك ــ التي تبدو ذات قيمة نفسانية عميقة مضحكة جدا ولنقل كذلك عديمة النفع لسبب واحد ، وهو أنهم يمارسونها بنصها الحرفي . لكن ــ لكي تنتهي من البحث في الأصول ــ لنفرض أنني مكلف بالتحقيق في قضية وأنني أعرف ــ أو بالأحرى أعتقد أنني أعرف ــ أن المجرم هو هذا أو ذاك ... هل درست القانون ، يا روديون رومانوفيتش ؟

ــ نعم لقد درست الحقوق .

ــ حسنا اليك مثالا صغيرا قد يكون ذا فائدة لك في المستقبل ، أقصد لا تظن أنني أسمح لنفسي بالوقوف منك موقف المعلم خصوصا بالنسبة اليك وأنت الذي تكتب بحوثا عن الاجرام ! كلا ! انني أقصد

فقط مجرد تقديم مثال . على ذلك أقول انني أميل مثلا الى الاعتقاد بأن هذا أو ذاك أو ثالثا مجرم ، فما الفائدة اذن — وانني لأسألك — في أن أضايقه قبل الأوان رغم الأدلة التي تكون في يدي ضده ؟ هناك مثلا من أراني مضطرا الى توقيفه وآخر ذو عقلية مختلفة ، فلمَ لا أدعه يتجول في المدينة ؟ هم ؟ هيا حسنا ! أرى أنك لا تفهمني تماما . لسوف أعرض لك رأيي بشكل أوضح ! هب مثلا أنني أوقفته قبل الوقت المناسب فانني بتوقيفه أهيىء له لونا من المساعدة الفكرية اذا أردت أن تسميها كذلك ... ها ! ها ! ها ! ان ذلك يضحكك ، أليس كذلك ؟ (لم يكن راسكولنيكوف اطلاقا يميل الى الضحك . لقد كان جالسا يصرف على أسنانه ويحدق بنظرات ملتهبة في عيني بورفير بيتروفيتش) مع ذلك فان الأمر هو كما شرحته لك ! انما يصح ذلك مع بعض الأشخاص فقط لأن الناس يختلفون كثيرا ولأن المسألة ليست الا مسألة خبرة ومراس ، والآن سوف تقول لي : والأدلة ؟ فأقول : لنفترض أن الأدلة موجودة ، ولكن ألا ترى يا عزيزي بأن الأدلة تكون غالبا ذات وجهين ؟ وأنا نفسي ، قاضي التحقيق ، أقصد انني رجل ضعيف ، لذلك أوافق على أن العادة جرت على أن يقدم القاضي نتائج تحقيقه بدقة رياضية ، اذا صح التعبير ، وأنه يتوق الى ايجاد دليل يعادل اثنين واثنين تساوي أربعة ! أي أن يكون دليلا مباشرا لا يقبل النقض ! لكن اذا أوقفت الشخص قبل الأوان — حتى ولو كنت واثقا أنه « هو » — فانني أحرم نفسي من الوسائل التي تجعله يفضح نفسه بصراحة أكثر ! وكيف ذلك ؟ لأنني قدمت له — اذا صح التعبير — مركزا محدودا ، أو بعبارة أخرى أنني أثبته وطمأنته من الوجهة السيكولوجية ، وبذلك يتسرب من بين يدي ويدخل في قوقعته : انه سيفهم أخيرا أنه أوقف . يقال انه في سيباستوبول بعد قضية « آلما » ، راح أهل الفكر يرتاعون من العدو خشية أن يهاجمهم فورا ويأخذ منهم سيباستوبول ، لكنهم

عندما رأوا أن العدو يفضل ضرب حصار منظم وأنه مد خطه المتوازي الاول هللوا فرحين يطمئنون أنفسهم بقولهم : سوف يطول الأمر شهرين على الأقل حتى نستسلم بفعل الحصار ! آه ! أتضحك أيضا ؟ ما زلت لا تصدقني ؟ لعمري انك على حق من جانبك . انك على حق ! حق ! لا شك أن هناك حالات خاصة . انني من رأيك تماما . ان ما نراه الآن هو في الحقيقة حالة خاصة . لكن ألا ترى يا روديون رومانوفيتش الباسل أن الحالة التي تنطبق عليها الاصول القضائية المرعية وكل القوانين التي صدرت عنها تلك الاصول وسجلت في السجلات ، ان مثل تلك الحالة الدقيقة تماما غير موجودة أصلا لسبب بسيط وهو أنها حالما تقع في الحقيقة ، وليس بالافتراض ، فانها تتحول فورا الى حالة خاصة حتى أنها أحيانا تصبح حالة مختلفة كل الاختلاف عن كل ما سبقها من الحالات . ان المرء ليصادف حالات مضحكة من هذا الطراز . انني في هذه الحالة أترك الرجل طليقا لا أوقفه ولا أزعجه ، لكنني أجعله يعرف أو على الاقل يخمن بأنني أعرف كل شيء ، وأنني أراقبه كل ساعة دون أن أغمض عيني ، فيصبح بذلك فريسة للشك والرعب الدائمين، وعندئذ ـ وأقسم لك ـ سوف يفقد أعصابه حتما . ولسوف يأتي بنفسه أو لعله يسمح لنفسه بارتكاب أمر يعادل اثنين واثنين تساوي أربعة، وأقصد أمرا ايجابيا رياضيا وذلك أجمل ما في الموضوع . يمكن أن يحدث ذلك مع بدوي أو فلاح ، بل وكذلك مع الرجال الأذكياء الشجعان والمتمدنين حتى ومع مثقفين في هذا الموضوع . ولقد لمس ذلك ! على هذا ، يا صديقي العزيز ، فان معرفة اتجاه الشخص قضية صغيرة قائمة بذاتها . ثم هناك الأعصاب ، الأعصاب التي يبدو أنك نسيتها ! ألا ترى أنها اليوم النقطة الضعيفة المريضة الحساسة ؟.. وكذلك الغضب . واذن ؟ ان غضبا كثيرا يفترس صدور هذا النوع . وأؤكد لك بهذه المناسبة أنه غالبا ما يقضي عليهم ! وعلى هذا فماذا يعنيني اذا لبث طليقا

فترة ؟ بلى ليستمر في التنزه بانتظار الوقت المناسب ، بينما أنا أعرف بأنه « فريستي الصغيرة » وأنه لن يفلت من يدي ! ثم أين يفر ؟ أللخارج ؟ نعم ؟ ان البولوني يستطيع الفرار الى الخارج ولكن ليس « هو »، ثم انني أراقبه دائماً وقد اتخذت كل احتياطاتي . فهل سيفر الى أعماق البلاد ؟ لكن لا يعيش هناك الا الفلاحون ، الروسيون الصميمون : وعلى ذلك فان رجلنا المثقف ثقافة عصرية ليفضل السجن على الحياة مع أجانب كفلاحينا .. ها ! ها ! ها ! لكن كل هذا ليس الا تفاهات بجانب السؤال الحقيقي ؟ ما معنى كلمة الفرار ؟ انها شكلية بحتة . والأساس المهم غيرها ! انه لن يبتعد عني لا لأنه لا يعرف أين يفر ، بل لأسباب بسيكولوجية أيضا ... ها ! ها ! يا للتعبير الجميل ! انه لن يفر استنادا الى قوانين الطبيعة حتى ولو عرف الى أين يذهب . ألم ترَ مرة فراشة قرب مصباح ؟ حسنا . انه سوف يدور باستمرار حولي أنا وكأنه يدور حول مصباح . لسوف يشعر بثقل حريته . ولسوف يفكر ويسخط وأخيرا يأتي من تلقاء نفسه ليدخل في شبكتي لأنه يخيفه نفسه بأفكاره خوفا مميتا !.. ثم هناك شيء آخر : سوف يحضر بنفسه مزحة جميلة من نوع اثنين واثنين تساوي أربعة ، ويكفي من أجل ذلك أن أقدم له بدوري استراحة قصيرة . سوف لا ينفك يحوم ويحط حولي وهو يضيق الحلقة أكثر فأكثر و ... هوب ... سيقع أخيرا في فمي ولسوف أبتلعه ، الأمر الذي يسبب لي لونا من السرور اللذيذ ! ها ! ها ! ها ! ألا تصدق ؟

لم يجب راسكولنيكوف : كان شاحبا جامدا وعيناه محدقتان في وجه بورفير .

راح يحدث نفسه وقد بعث الخوف في نفسه قشعريرة باردة : « درس ممتاز ! ان القط لا يلعب اليوم مع الفأر كما كان يلعبه

البارحة • انه يتحاشى اليوم أن يظهر لي قوته دون جـدوى وأن••• يوحي الي ! انه ماكر جدا اليوم ••• انه يتابع هدفا معينا • لكن أي هدف ؟ هيا يا صديقي ان هذا حمق • أتريد أن تخيفني ؟ أين خدعك ؟ انك لا تمتلك أي دليل ! ان رجل الأمس لا وجود لـه ! انك تحاول فقط أن تثير غضبي • انك تحاول اثارتي سلفا كي تستطيع تعليقي الى الكلاب عندما أكون في حالة الهيجان • لكنك تخطيء خطـأ كبيرا • لقد نفذت حيلتك ! لكن لماذا يهمس لي بكل هذه الاشياء ؟ هل سيعتمد على أعصابي ؟ كلا يا صديقي انك تضع أصبعك في عينك رغم كل ما هيأت ، ولسوف نرى الآن ماذا هيأت ! »

تذرع بكل قواه استعدادا لاستقبال مصيبة هائلة مجهولة • كان أحيانا يشعر برغبة في خنق بورفير على الفور • لقد كان يوجس خيفة من سورة غضبه منذ أن دخل • شعر بشفتيه تجفان وقلبه يخفق خفقات عنيفة والزبد يحيط بفمه • لكنه رغم ذلك قرر أن يصمت وألا يتفـوه بكلمة واحدة قبل الوقت المناسب • كان يعرف أن ذلك التصرف هو خير أسلوب يلجأ اليه في موقفه ، ليس فقـط لأنه لـن يفضح نفسه بالحديث ، بل كذلك لأنه سيغضب خصمه بسكوته وسينجم عن ذلك أن يفضح الآخر نفسه • ذلك ما قدّره •

تابع بورفير كلامه ، وهو يمعن في المزاح ولا يني يقهقه من السرور ويتمشى في الغرفة :

ــ كلا ! كلا ! انني أرى أنك لا تصدقني • انك تفكر بـأنني أسمعتك تفاهات باردة • لقد حباني الله بأسلوب في الحـديث يوحي الى الآخرين عني بأفكار ماجنة مضحكة ! لكن يجـب أن أقول لك ــ وأكرر لك مرة أخرى يا روديون رومانوفيتش البـاسل ــ أن تعـذر العجوز الذي يتكلم لأنك شاب في زهرة العمر كما يقال • ولهذا فانك

تضع الذكاء البشري فوق كل شيء على غرار الشباب كلهم • ثم ان الدعاية الفكرية الحادة والاستنتاجات العقلية السلبية تدهشك ، وهذا يتماشى على سبيل المثال نقطة فنقطة مع العقلية الحربيـة النمساويـة القديمة ، اذا جاز لي الحكم على القضايا العسكرية : كانوا على الورق يعتقدون أنهم سيسحقون نابليون وأنهم سيسجنونـه ، فراحوا في مكاتبهم يعدون ويتابعون خططهم وبحوثهم بكل نشـاط وجد • ثـم ـ لاحظ هذا ـ استسلم « جنرالهم » مع كل جيشه • هي! هي! هي! انني أرى ، يا روديون رومانوفيتش ••• انني أرى أنك تهزأ بي لأنني ، وأنا ذلك المدني ، أستعيد تشبيهاتي الصغيرة من التاريخ العسكري • لكن ما العمل ؟ تلك هي نقطة الضعف عنـدي • انني ضعيـف ازاء القضايا الحربية وأنواع المناورات التي تبحث في الجيوش ••• لا شك أنني أخطأت في عدم اتباعي ميولي • كان ينبغي أن أدخل في عداد الجيوش • ثق بما أقول • يجوز أنني ما كنت سأصبح نابليونا ، لكنني كنت أستطيع بلوغ رتبه ضابط كبير ! هي ! هي ! هي ! لعمري طالما أنا في سبيل التحدث اليك بالحقيقـة بخصوص تـلك « الحـالة الخاصة » فان الواقع والطبيعة يا سيدي الباسل أشياء مهمة • يحدث غالبا أنها تحور كل الخطط الحاذقة ! هيا ! صدّق عجوزا • انني أقول لك ذلك جديا ، يا روديون رومانوفيتش (كان بورفير بيتروفيتش هذا يتحدث على هذا المنوال وهو في الثلاثين من عمره ، ولم تـكن تبدو عليه مطلقا هيئة الكهولة • بيد أنه أبدل صوته قليلا وبدا كأنه منحنيا) هيا ، انني رجل صريح ، هل أنا رجل صريح ؟ نعم أم لا ؟! مـا رأيك في ؟ أعتقد أن ذلك واضح تماما : انني أقدم لك كل هذه المعلومات لقا لا شيء ، بل دون أن أطالب بأية مكافأة ها ! ها ! هيا سأتابع : ان الفكر ـ بحسب رأيي ـ هو صفة لامعة • انه ـ ويمـكن القول ـ تجميل حبتنا به الطبيعة وتعزية منحتنا اياها الحياة • وهو قادر على كل

المخاتلات والشعوذات لدرجة يتساءل المرء بعدها كيف يستطيع قاضي التحقيق المسكين أن يعرف الحقيقة بينها ! وهنا التعاسة ! نعم هنا الشيء الذي لا تفكر فيه شبيبتنا المعتمدة على الفكر — وهي تمشي خلال عقبات كثيرة — (كما قلته بنفسك بشكل دقيق جدا يدل على شدة الذكاء) . لنفرض أنه تذرع بالكذب (والبحث هنا يدور حول شخص ما وحول حالة خاصة مجهولة) ، وأنه كذب بشكل عجيب مدهش ، فانه يظن بعدئذ أنه سينتصر وأنه سيتلذذ أخيرا بقطف ثمار عبقريته ! لكنه فجأة ، باف ! ها هو ذا يغمى عليه في أشد الأمكنة حراجة والتي تعطي امكانيات أكثر لظهور الحقيقة. ليكن . انني أفضل أن يكون مريضا أيضا اذ يحدث أحيانا أن يضيق المرء في غرفة فيشعر بالاختناق . لكن رغم ذلك ! رغم ذلك فانه يعطي باغمائه دليلا ! لقد ألقى الرماد في العيون وبشكل لا يبارى ، لكنه لم يحسب حساب الطبيعة . وهنا ، هنا فقط السر ! ثم راح مرة أخرى يهزأ — مدفوعا بحميته العقلية — بالرجل الذي يشك فيه، فشحب وكأنه واضعا خطته، بل وكأنه كان يتسلى ، شحب بشكل طبيعي تقريبا وكأن الأمر حقيقة تماما . لكنه للمرة الثانية قدم دليلا آخر ! ، لقد خدع للمرة الاولى،انه ليستطيع دائما أن يخدع ، لكنه عند المساء يعود للتساؤل : « ألم أرتكب هفوات صغيرة خلال النهار ؟ » . وسيلبث كذلك في كل خطوة يخطوها ! ماذا أقول أيضا ؟ انه هو نفسه يقف في المقدمة : فهو يحشر أنفه في كل ما لا يعنيه ، ويثرثر دون توقف لما تقضي مصلحته بالسكوت ، ثم يندفع في الافتراضات ... هيه هيه ! ويأتي من تلقاء نفسه ويسأل عن السبب الذي من أجله لم يوقف بعد ! هيه هيه هيه ! ان أشياء من هذا القبيل يمكن أن تحدث لأكثر الناس مكرا ، وللعالم النفساني ، وللاديب ! ان الطبيعة مرآة وهي من أكثر أنواع المرايا نقاء ! ولا يلزم الا أن ينظر المرء اليها ويتأملها ! لكن لم أنت شاحب الى

هذا الحد ، يا روديون رومانوفيتش ؟ هل الهواء خانق ؟ أتريد أن أفتح النوافذ ؟

صاح راسكولنيكوف :

ــ أوه ! لا تزعج نفسك أرجوك • أرجوك ألا تزعج نفسك •

ثم انفجر ضاحكا • اقترب بورفير منه وانتظر قليــلا ولم يلبث حتى انفجر هو الآخر ضاحكا • أما راسكولنيكوف فقد نهض عــن الأريكة وقطع ضحكته العصبية فجأة وقال بصوت مرتفع واضح :

ــ يا بورفير بيتروفيتش ! أرى في النهاية بوضــوح أنك تشك جديا في أن أكون أنا قاتل تلك العجوز وأختها اليزابيت • وانني أصرح لك بأن هذه الشكوك تزعجني منذ زمن طويل • فاذا كنت تجد أن من حقك متابعتي قانونيا فلتفعل • أو توقيفي فلتوقفني • لكنني لن أسمح أبدا أن يسخر مني وأن أتعرض لهذا التعذيب •

كانت ساقاه لا تقويــان على حمله الا بالكاد • وقــد راحت شفتاه ترتعدان وعيناه تومضان بالغضب وصوته الذي سعى حتى تلك اللحظة أن يجعله هادئا يجلجل قويا •

هتف بكل قواه ، وهو يضرب المنضدة بجمع قبضته :

ــ لن أتقبل ذلك • هل تسمع ، يا بورفير بيتروفيتش ؟ لن أتقبل ذلك !

قال بورفير بيتروفيتش ، وهو يطلق صيحات صغيرة شأنه شأن من استبد به الخوف :

ــ آه ! رباه ! ماذا حدث أيضا ؟ يا روديون رومانوفيتش ! يــا صديقي ، يا صديقي العزيز ، ماذا دهاك ؟

صرخ راسكولنيكوف مرة أخرى :

ــ لن أتقبل ذلك •

همس بورفير مروعا، وقد غدا وجهه شاحبا كوجه راسكولنيكوف:

ــ هيا ! اخفض صوتك ! لعلهم يسمعون فيحضرون. فماذا تقول لهم عندئذ ؟ فكر في هذا !

كرر راسكولنيكوف بهمس هذه المرة :

ــ لن أتقبل ذلك ، لن أتقبل ذلك !

هرع بورفير فجأه الى النافذة ففتحها .

ــ قليل من الهواء المنعش ؟! يحسن بك يا عزيزي أن تشرب قليلا من الماء . انها نوبة !

هم أن يندفع الى الباب ليطلب ماء غير أنه لمح في تلك اللحظة زجاجة ملأى بالماء موضوعة في احدى الزوايا ، فهرع اليها وعاد بها اليه وهمس :

ــ اشرب قليلا ، ياصديقي العزيز . لسوف يفيدك هذا .

كان رعب بورفير وتودده خاليين تقريبا من التصنع حتى أن راسكولنيكوف لبث فاغرا فاه يتأمله بفضول وحشي . وغني عن الذكر أنه رفض أن يشرب الماء .

ــ يا روديون رومانوفيتش ! أيها الطبيب ! لسوف تفقد صوابك اذا لبثت هكذا . أؤكد لك . خذ . اشرب ، اشرب ولو جرعة واحدة !

استطاع أخيرا أن يجعله يأخذ القدح بيده وأن يرفعها بحركة آلية الى شفتيه ، لكنه تمالك نفسه فجأة فأعاد القدح باشمئزاز ووضعه على المائدة .

نق بورفير باهتمام ودي ، وقد بدا الاضطراب عليه :

ــ نعم ! انها نوبة صغيرة تلك التي اعترتك الآن ! ها انك يا عزيزي تعود للسقوط في مرضك القديم . رباه ! هل يعقل أن يهمل المرء صحته بهذا الشكل ؟! اسمع. لقد جاء دميتري بروكوفيتش مساء

أمس الى منزلي • انني أعترف ، لا شك أن نعم ، بأن لي عقلية رديئة قذرة • لكن أترى ما هو المغزى الذي استنتج بسبب ذلك !••• نعم، لقد جاء البارحة مساء ، بعد ذهابكما ، وكنا نتناول طعام العشاء ، فتحدث وتحدث دون أن أستطيع الافصاح عن رأي واحد ••• لكنني أفكر في الموضوع : ألا يكون قد جاء من قبلك ؟ هيا اجلس ، يا عزيزي ! ناشدتك الله !

أجاب راسكولنيكوف بجفاء :

ــ كلا ! لم يأت من قبلي • لكنني كنت أعرف أنه سيأتيك• وكنت أعرف كذلك لماذا !

ــ كنت تعرفه ؟

ــ كنت أعرفه ! ثم ماذا !

ــ هيا يا عزيزي روديون رومانوفيتش ! أتظن بأنني لا أعرف كل مآثرك ؟ انني أعرفها كلها ! انني أعرف أنك ذهبت عند هبوط الظلام لتستأجر « ذلك المسكن » ، وانك جذبت حبل الجرس وانك سألت عما حل بالدم ، الأمر الذي أقلق الخدم والعمال حينذاك • انني أفهم حالتك الروحية تماما • هيا ، لسوف تفقد عقلك وأقسم لك • لسوف تشعر بالدوار ! ان التخيل عنيف في نفسك رغم نبل عواطفك وذلك بسبب الامتهان الذي نالك من الحياه أولا ومن رجال البوليس ثانيا • هذا هو السبب في أنك تبحث هنا وهناك لتصغي الى كل ما يقال ــ اذا جاز هذا التعبير ــ ولترغم الأشخاص على الانتباه دفعة واحدة ، لأنك سئمت تماما من تلك الحماقات وتلك الرتب • أليس كذلك ؟ ألم أضمن حالتك النفسيه تماما ؟••• غير أنك تفقد السيطرة على أعصابك وتسبب لرازوميخين فقدانها بارساله الي لأنه سليم الطوية جدا ، وأنت لا تجهل هذا • فاذا كنت مريضا فهو طيب النفس ، وسينتهي الأمر بأن

ينتقل مرضك اليه ... لسوف أشرح لك ذلك عندما تهدأ ... هيا اجلس بحق السماء ! أرجوك اهدأ . انك شديد الاضطراب . أجلس.

جلس راسكولنيكوف واكتسحت جسده قشعريرة وعادت الحمى تداهم جسمه . راح يصغي باهتمام الى أقوال بورفير بيتروفيتش وهو في ذهول عميق ودهشة بالغة للشعور الودي الذي أخذ هذا الأخير يبديه نحوه . غير أنه ما كان يصدق كلمة واحدة ، رغم أنه ما كان يشعر بميل الى التصديق . كانت كلمات بورفير غير المنتظرة حول موضوع المسكن قد أذهلته . راح يتساءل في سره : « كيف ذلك ؟ اذن فهو يعرف أنني ذهبت الى ذلك المسكن ؟ طبعا انه يعرفه طالما أنه حدثني به منذ قليل ؟ » .

استرسل بورفير قائلا بسرعة :

ـ نعم . لقد وقع حادث مماثل خلال مراننا القانوني ، حادث نفساني مرضي كهذا تماما : اتهم بعضهم بجريمة قتل . فراح يصف سوء حالة وهمية ويمثل الاوضاع ويروي الظروف فيفسر البعض ويعقد البعض الآخر . ثم ماذا كان السبب أخيرا ؟ لقد كان هو نفسه ـ دون أن يتعمد ـ سببا جزئيا للجريمة ، جزءاً بسيطا فقط ! فلما بلغه بأنه كان السبب للقتل رُوع تماما وراح يرتكب حماقات ويتصور أشياء ، فيهذي ويشوه الحقائق ، حتى انتهى به الأمر الى اعتبار نفسه قاتلا . وقد اهتمت محكمة الاستئناف بهذه القضية وهناك برىء التعس ووضع في مأوى شعبي ! والفضل في ذلك لمحكمة الاستئناف ! لكن ان ... ان ... هيا أيها الصديق ، ان الانسان ليصاب بالحمى الساخنة اذا كانت الأعصاب ميالة للانفعال بهذا الشكل . واذا كان الانسان يذهب ليلا ليجذب حبال الأجراس بل حتى اذا راح يسأل عما جرى للدم ! ان كل هذه الحالة النفسانية تعلمتها بالمران . يحدث

أحيانا أن يشعر امرؤ بالرغبة في القفز من نافذة أو من برج من أبراج الأجراس • ويكون ذلك الشعور قويا عنيفا••• كذلك هو قرع الجرس ••• مرض ••• مرض ، يا روديون رومانوفيتش • انك رحت تهمل حالتك المرضية كثيرا • كان عليك أن تستشير أطباء اختصاصيين بدلا من رجلك الضخم ذاك ! انك تهذي ! وكل هذا عندك نتيجة للهذيان !

خلال لحظة شعر راسكولنيكوف أن كل شيء يدور حوله• راح يتساءل :

ـ ماذا ؟ هل سيكذب الآن أيضا ؟ كلا • ان هذا مستحيل ! ان هذا مستحيل !

كان هذا السؤال والجواب قد خامرا عقله دفعة واحدة ، فشعر سلفا بمدى ما سيحل به بتأثير الغضب والانفعال • شعر أن الغضب سوف يفقده الصواب•

هتف مستجمعا كل قواه العقلية ليستطيع اكتشاف لعبة بورفير وغرضه :

ـ ما كنت أهذي أبدا • لقد كنت في كامل قواي العقلية، بكامل الاشراق والصحو • هل تسمع ؟

ـ آه • نعم ! انني أفهم وأسمع ! لقد قلت البارحة أيضا بأنك لا تهذي ، بل لقد ألححت على هذه النقطة ! ان كل ما يمكنك أن تقوله أستطيع أن أفهمه • هيه ! هيه ! لكن أصغ الي قليلا ، أيها الباسل ! يا روديون رومانوفيتش الطيب ! لنفرض جدلا صحة ذلك ••• لو أنك كنت حقيقة مرتكبا هذه الجريمة أو كان لك أي اتصال من أي نوع كان بتلك المسألة الملعونة ، قل لي : هل كنت تلح وتصر بنفسك بأن ذلك لم يكن تحت وطأة دافع جنوني ، بل انه على العكس كان بكل صفاء واشراق عقل ! نعم • بالحاح وبالحاح خاص • قل لي هل يمكن

أن يكون ذلك ؟ في رأيي أن الأمر على العكس • فلو كنت ــ جدلا ــ مجرما ، ألم يكن من الأجدى الالحاح دائما على أنــك فاقــدا عقلك تماما ؟ أليس ذلك صحيحا ؟

كانت هذه الجريمة تخفي في طياتها لونا من المكر •••

تراجع راسكولنيكوف بظهره حتى استقر على مسند الأريكــة وراح ينظر بسكون وصمت الى بورفير الذي انحنى فوقــه ، وراح ينظر اليه بدوره نظرة ثابتة :

ــ الآن: لنعد الى مسألة السيد رازوميخين، أو بالأحرى لنتساءل عما اذا كان قد جاء الى مسكني من تلقاء نفسه أو تبعا لتعليماتك • انك تقول بأن مجيئه كان من تلقاء نفسه ! ان تصرفك الطبيعي يوحي اليك أن تخفي عني مجيئه الي طبقا لتعليماتك ! هذا هو المنطق ، وعليه : أما كنت لتخفي ذلك ؟ انك تؤكد بأنه جاء طبقا لتعليماتك •

لم يكن راسكولنيكوف قط قد أكد مثل هــذا القول ، لذلــك شعر ببرودة في ظهره وغمغم بصوت ضعيف بطيء بينما ارتسمت على شفتيه ابتسامة مريرة :

ــ انك لا تنفك تكذب •

شعر كأنه يجد صعوبة في ربط الأفكار والكلمــات التي يريــد التعبير عنها فأضاف :

ــ انك تريد أن تبين لي بأنك تعرف دخيلتي وأنك تعرف سلفا أجوبتي ! انك تحاول ترويعي ••• وبكل صراحة وبساطة : انك تسخر مني •••

استمر وهو ينطق بهذه الكلمات يحدج بورفير بثبات ، وفجأة التمعت عيناه ببريق كراهية لا حدود لها وصاح :

ــ انك تكذب ! انك تعرف شخصيا أن خير ذريعة يمكن لمجرم

أن يلجأ اليها هي أن يحاول التحدث ما استطاع بالحقيقة ... أن لا يخفي شيئا على قدر المستطاع من الأشياء التي لا يستطيع اخفاءها . لذلك فانني لا أصدقك .

تضاحك بورفير :

ــ يا لك من شخص غريب ! لا يعرف المرء من أية نـاحية يأخذ بك : انك مريض بجنون «المونومانيا» (١) ! على ذلـك اذن فانك لا تصدقني ؟ حسنا . أما أنا فأقول لك بأنك تصدقني، بل وانك صدقتني حتى الآن في ربع ما قلت، ولسوف أعمل لأجعلك تصدقني تماما لأنني في الحقيقة أحبك وأريد ضمان مصلحتك بكل اخلاص .

ارتعدت شفتا راسكولنيكوف ، بينما استرسل بورفير :

ــ نعم ، أريد ذلك . انني أقوله لك (وضغط ضغطا خفيفا وديا على ذراع راسكولنيكوف فوق المرفق) أقول لك مرة أخيرة : راقب مرضك . ان من أجل هذا جاءت أسرتك وينبغي أن تفكر فيها . يجب أن تطمئن أقرباءك وأن تظهر لهم الود والحب بينما أنت لا تني تروعهم.

ــ وهل يعنيك هذا ؟ ماذا تعرف عن هذا الموضوع ؟ كيف تهتم بأمرهم الى هذا الحد ، ومن أين جاءك هذا الاهتمام ؟

ــ لكن يا صديقي لقد علمت ذلك منك . منك بالذات علمت ذلك كله ! ألا تلاحظ أنك بانفعالك تفضح سلفا كل ما في نفسك لي كما للآخرين ؟ لقد اطلعت على ذلك مساء البارحة بواسطة السـيـد دميتري بروكوفيتش رازوميخين ، كما اطلعت على تفاصيل أخرى مهمة ... لكن لا . لقد قاطعتني . كنت أقول لك انك بحذرك ــ مهمـا

---

(١) نوع من الخبل العقلي تبدو فيه فكرة واحدة مسيطرة على كل القوى العقلية . ــ المترجم ــ

كان نشاطك الذهني ــ لا تني تفسر الأمور بشكل غير صحيح • خذ على سبيل المثال مسألة الجرس : ان هذه العملية على جانب كبير من الأهمية • حسنا لقد عملت ما في وسعي وأنا قاضي التحقيق لأنبئك بهذا الخبر ! هلا يعني هذا لديك شيئا ؟ لكنني لو كنت أرتاب بك أدنى ريبة ، هل كان يجب أن أتصرف على هذا الشكل ؟ كان يجب علي على العكس أن أموه منذ البداية أية فكرة حول هذا الموضوع ، وأن أجعلك تعتقد بأنني أجهل كل شيء ثم أدفعك في اتجاه مختلف كل الاختلاف عن هذا • وفجأة انقض عليك بهذا الخبر بما يشبه ضربة المهدة (وأستعيد تعبيرك الشخصي) • لكن قل لي يا سيدي ــ اذا شئت : ماذا ذهبت تعمل في مسكن القتيل في الساعة العاشرة مساء ، بل وما بعد الحادية عشرة ؟ ثم قل لي لماذا جذبت حبل الجرس ؟ ثم ما سبب سؤالك عن الدم ؟ ولماذا ، أخيرا ، أردت أن تخدع الحارسين لترغمهما على سوقك الى قسم البوليس ؟ كذلك ينبغي أن أتصرف لو كان في نفسي ظل من الشك بصددك • كان ينبغي أن ألجأ الى كل الاصول المتبعة لأنتزع منك اقرارا وأفتش مسكنك بل وأوقفك ••• ومن هذا يتضح أنني لا أرتاب بك طالما أنني بدأت معك بشكل آخر! آه ان على عينك غشاوة ، انك لا ترى شيئا • أكرر القول !

انتفض راسكولنيكوف انتفاضة عنيفة بلغت من القوة أن لاحظها بورفير بيتروفيتش : وصرخ :

ــ انك تكذب • لست أدري ما هي نواياك ولكنك تكذب ••• انك لم تتحدث منذ حين بهذه الروح وهذا المعنى ، لا يمكن أن أخدع نفسي ••• انك تكذب ؟•••

قال بورفير ، وقد بدا يحتدم غيظه لكن دون أن يبدو عليه تبدل يذكر :

ـ ... أكذب !...

بدا وكأن الرأي الذي اتخذه راسكولنيكوف وأصر عليه لم يؤثر في نفسه مطلقا ، بل لبث مرحا ساخرا :

ـ أكذب ؟... ولكن كيف تصرفت معك منذ قليل ، أنا قاضي التحقيق ، حينما أفهمتك بنفسي وأعطيتك كل وسائل الدفاع وجسمت في نفسك كل هذه النفسية : المرض . لا أكثر ولا أقل . والهذيان ، والرزوح تحت وطأة الامتهان والتطير ورجال البوليس . هم ؟! لكنني أبادر الى القول بأن كل وسائل الدفاع هذه والحجج والمبررات قوية ولها وجهتان « المرض ، الهذيان ، الأحلام ، الوهم ، لست أذكر » . كل هذا جيد وحسن . ولكن لمَ يا عزيزي يشعر المرء بهذا النوع من الأحلام الوهمية في حالات المرض والهذيان وليس في حالات أخرى ؟ ألا يمكن أن يشعر بهما في غير هذا الحالة ؟ ها ... ها ... ها ...

كان راسكولنيكوف يتأمله باعتداد واشمئزاز . صرخ بصوت حازم وهو ينهض دافعا بورفير بلطف جانبا :

ـ موجز القول ، أريد أن أعرف : هل تقر بأنني نهائيا فوق الشبهات أم لا ؟ قل يا بورفير بيتروفيتش ! تكلم بوضوح ولننته من هذا الموضوع فورا اذا أردت .

هتف بورفير بلهجة وديعة هازئة خالية من الارتباك :

ـ لا شك . انه ليس أمرا سهلا أن يكون للمرء علاقة بك ! ثم لماذا تريد وتصر على معرفة ذلك ؟ لماذا تريد وتصر على معرفة كل هذه الأشياء طالما أننا لم نبدأ بمضايقتك حتى الآن؟ انك تشبه الطفل: «أريد أن ألعب بالنار ! » لم تقلق نفسك بهذا ؟ هل تستطيع أن تعلمني بما يدفعك لطرح هذا السؤال علي ؟ هيه ، هيه ، هيه !

هتف راسكولنيكوف ، وقد انفجر غاضبا :

ــ أكرر ما قلت من أنني لا أستطيع تقبل أكثر من ذلك •

قاطعه بورفير :

ــ ما هو ذلك الـ « ذلك » ، أهو الشك ؟

ضرب راسكولنيكوف المنضدة بقبضة يده بشدة ، وصاح :

ــ كفى ! لا أريد ! قلت لا أريد ! انني لا أستطيعه ولا أريده ! هل تسمع ! هل تسمع !

قال بورفير بصوت خافت أقرب الى الهمس :

ــ أخفض صوتك ، أخفض صوتك ! لسوف يسمعونك ! انني أخطرك جديا بأن تنتبه الى نفسك • أنا لا أمزح !

لكن وجهه لم يكن يحمل الطابع الذي ارتسم عليه منذ حين ، والذي كان يعطيه مظهر السيدة المروعة، بل كان [illegible] «يأمر» بلهجة قاسية وهو يقطب حاجبيه ويبدو كأنه فجأة قد كشف عن كل الاسرار وكل الملابسات • لكن ذلك أيضا لم يدم الا لحظة واحدة • أما راسكولنيكوف فقد أثير اثارة عاتية حتى كاد أن يستسلم الى الغضب الرهيب لكنه ــ ولدهشته ــ أطاع الأمر هذه المرة أيضا فأخفت صوته رغم أنه كان في أعلى ذروات الغضب •

تمتم فجأة كما فعل منذ حين ، وقد فهم بألم ممتزج بالحقد بأنه لا يستطيع الامتناع عن اطاعة ذلك الأمر مما دعا غضبه أن يشتد ويتزايد:

ــ لن أدع نفسي أتعذب • أوقفني ! واخضعني للتفتيش • لكن اعمل ذلك حسب الاصول دون أن تتلاعب بي ! ليس لك الحق في هذا •••

قاطعه بورفير بتلك الابتسامة المستهزئة ، وهو يتأمله بنظرة شرهة :

ــ لكن لا تبال بالأصول ! هيا أيها الباسل • لقد دعوتك دون تكلف تماما كالأصدقاء •

ـ لا أريد صداقتك بل انني أبصق عليها ! هل تسمع ؟ خذ ! ها انني أحمل قبعتي وأذهب . فماذا تقول الآن ؟ هل تنوي توقيفي ؟

وأخذ قبعته واتجه نحو الباب .

قال بورفير ضاحكا ، وهو يقبض على ساعده فوق المرفق ويوقفه في اللحظة التي كاد أن يجتاز الباب فيها :

ـ لكن ألا تريد أن أقدم لك مفاجأة صغيرة ؟

كان يبدو عليه أنه غدا أكثر انشراحا وسرورا وأكثر ميلا للمزاح، الأمر الذي جعل راسكولنيكوف يفقد السيطرة على أعصابه !

سأل ، وهو يتوقف فجأة وينظر الى بورفير برهبة :

ـ أية مفاجأة ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

ـ مفاجأة صغيرة موجودة هنا وراء هذا الباب . هيه ، هيه، هيه !

أشار باصبعه الى الباب المغلق الظاهر في الحاجز والذي يؤدي الى مسكنه وتابع :

ـ لقد أغلقت الباب على تلك المفاجأة بالمفتاح خشية أن تفر .

ـ ما هي ؟ أين ؟ ماذا ؟

واقترب راسكولنيكوف من الباب وأراد فتحه لكنه كان موصدا .

قال بورفير ، وهو يخرج من جيبه مفتاحا يمد يده به اليه :

ـ ان الباب مغلق بالمفتاح وهذا هو .

زمجر راسكولنيكوف وقد فقد أعصابه نهائيا :

ـ انك لا تني تكذب . أنت تكذب أيها المهرج اللعين !..

واندفع نحو بورفير الذي راح يتراجع نحو الباب دون أن يبدو عليه الفزع وصاح :

ـ انني أفهم كل شيء • أنت تكذب • انك تهيجني وتثيرني لكي أفضح نفسي •••

ـ لكنك لن تستطيع بعد الآن أن تفضح نفسك أكثر من ذلك يا روديون روماتوفيتش الباسل • انك الآن في حالة حنق وسخط • لا تصرخ والا فسأدعو رجالي •

ـ أنت تكذب لن يكون شيء ! ادع رجالك ! أنت تعرف بأنني كنت مريضا فأردت أن تعمل على ايلامي واثارتي لتدفعني الى فقد السيطرة على نفسي وبالتالي فضح أمري • نعم ذلك هو هدفك ! كلا • تقدم ببراهينك ! لقد فهمت كل شيء ! ليست لديك براهين • كل ما لديك ليس الا تخمينات حقيرة تتنة • تخمينات أدخلها زاميوتوف في رأسك !••• انك عارف بعقليتي فأردت أن تجعلني أفقد السيطرة على نفسي ثم أنهار فجأة بين القساوسة والوكلاء • هؤلاء هم الذين تنتظرهم ، أليس كذلك ؟ ماذا تنتظر ؟ أين ؟ أئت بهم !

دمدم بورفير ، وهو يصغي باذنه الى حركة وراء الباب :

ـ الأمر يتعلق فعلا بالوكلاء ، يا صديقي المسكين • يا لها من أفكار ! حتى ولو كان لمجرد الشكليات كما تقول • فانه لا يمكن أن تتصرف هكذا ، انك لا تعرف الأصول ، يا عزيزي • لكن الأصول لن تخسر شيئا • ولسوف ترى بنفسك •

وفي تلك اللحظة بالفعل انبعثت حركة من الغرفة التي يؤدي اليها باب الحاجز •

هتف راسكولنيكوف :

ـ آه ! انهم آتون ، لقد كنت قد أرسلت في طلبهم !•• كنت

تنتظرهم ! كنت تعتقد ... حسنا ائتِ بهم كلهم : وكلاء ، شهود ، كل من تريد ! أدخلهم ! انني على استعداد ! انني على استعداد !

لكن في تلك اللحظة وقع حادث غريب ، حـادث غير منتظر في السياق العادي للامور ، حتى أن لا راسكولنيكوف ولا بورفير كان ينتظر نتيجة مماثلة ..

٦

عندما تذكر راسكولنيكوف تلك الدقيقة الأخيرة فيما بعد ، تخيلها على الشكل الآتي :

ازدادت الضجة التي بدأت وراء البـاب فجأة ثم وورب الباب قليلا •

فصاح بورفير بيتروفيتش بغضب :

ــ ماذا هناك ؟ لقد نبهت مع ذلك •••

لم يسمع جوابا أول الأمر ، لكنه كان من الواضح أن عددا من الاشخاص كانوا واقفين وراء الباب وكانوا يحاولون دفع شخص ما الى الداخل !

كرر بورفير بيتروفيتش غاضبا :

ــ ماذا هناك ؟

فأجابه صوت :

ــ لقد جئنا بالمتهم نيكولا !

صاح بورفير ، وهو يندفع نحو الباب :

ــ لست في حاجة اليه ! اذهبوا ! انتظروا ! لِمَ أدخلتموه الى هنا ؟ يا للفوضى !

كرر الصوت :

ــ ذلك أنه •••

ثم صمت فجأة •

حـدث خـلال ثانيتـين لـون من العراك الحقيقي ثم بدا كأن أحدا قد دفع شخصا آخر بشدة ، وبعد ذلـك تقدم شخص شديد شحوب الوجه ، وقصد مباشرة الى مكتب بورفير بيتروفيتش• كان مظهر ذلك الرجل للوهلة الاولى يوحي بشيء غريب جدا •

كان ينظر أمامه بحدة ولكنه كان يبدو كأنه لا يرى أحدا • كانت عيناه تلتمعان ببريق حزم وتصميم ، لكن شحوبا مميتا كان بنفس الوقت يغطي وجهه وكأنه يساق الى ساحة الاعدام • كانت شفتاه مبيضتين تماما ترتجفان برعدة خفيفة •

كان رجلا في مقتبل العمر يرتدي ثياب العمال ، متوسط القامة ، نحيل البنية ، محلوق الشعر على شكل « طاسة » ، ذا تقاطيع دقيقة جافة • أما الرجل الذي دفعه ذلك الشاب ليدخل الغرفة ، فقد اندفع وراءه بدوره الى الغرفة وتمكن من الامساك بكتفيه : كان أحد رجال الدرك ! دفع نيكولا الدركي عنه وتخلص منه مرة أخرى •

كان هناك بعض المتطفلين اجتمعوا على عتبة مكتب قاضي التحقيق ، بل ان بعضهم حاول الدخول • وقع كل هذا خلال لحظات معدودة قصيرة •

زمجر بورفير في أوج انزعاجه وغضبه :

ـ اذهب ، لم يحن الوقت بعد • انتظر حتى ندعوك• لم أدخلوك الآن ؟

ركع نيكولا فجأة على ركبتيه ، فهتف بورفير ذاهلا :

ـ ماذا تعمل ؟

تمتم نيكولا فجأة بصوت مختنق ولكن شديد النبرات :

ـ انني مجرم ! انها غلطتي ! انني قاتل !

خيم سكون هائل خلال عشر ثوان حتى ليخيل أن العالم كله أصيب بداء السكتة ، حتى أن الدركي نفسه سقطت يداه دون وعي وتراجع من الغرفة نحو الباب حيث وقف جامدا •

هتف بورفير ، وقد تخلص من ذهوله القصير :

ـ ماذا تقول ؟

كرر نيكولا بعد صمت قصير :

ــ انني ... قاتل ...

ــ كيف ... أنت ! كيف ؟ من قتلت ؟

كان يبدو على بورفير أنه فقد اتزانه بشكل ملحوظ .

صمت نيكولا لحظة ، ثم أضاف فجأة :

ــ آليونا ايفانوفنا وأختها اليزابيت ايفانوفنا ... لقد قتلتهما بضربات فأس . لم أكن مالكا قواي ...

صمت من جديد دون أن ينهض من جثوه !

بدا على بورفير بيتروفيتش أنه يفكر . لكنه انتفض فجأة ولوح بيده مشيرا الى الشهود غير المنتظرين بالانسحاب ، فانسحب هؤلاء فورا ثم اغلق الباب من جديد . عاد ينظر الى راسكولنيكوف الذي كان واقفا في احدى الزوايا يتأمل نيكولا بشرود . كاد أن يخاطبه عندما توقف فجأة وراح يتأمله ، ثم نقل نظره الى نيكولا ومن الى راسكولنيكوف وعاد به مرة أخرى الى نيكولا . وفجأة اندفع نحو نيكولا بشيء من الغضب وصاح به بصوت حاقد :

ــ لِمَ جئت تقول لي سلفا بأنك كنت فاقدا قواك العقلية ؟ لم أسألك بعد اذا كنت ذاهلا أم لا ... تكلم ! أأنت القاتل ؟

غمغم نيكولا :

ــ انني القاتل ... انني أعترف بذلك .

ــ آه ... آه ... وبأي شيء قتلت ؟

ــ بفأس كنت حملتها معي .

ــ آه ... انك تسرع الى النتائج ... أكنت وحيدا ؟

لم يفهم نيكولا السؤال .

ــ هل كنت وحيدا حينما قتلتها ؟

ـ وحيدا . ان دميتري بريء ، انه لم يشترك مطلقا في الجريمة .

ـ لا تتحدث بسرعة عن دميتري . اه . اه ... كيف فعلت ذلك ؟ كيف تصرفت لتنزل السلم ؟ لقد قابلك البوابان .

أجاب نيكولا وقد بدا عليه الاستعداد للاجابة على كل سؤال وكأنه يتعجل النهاية :

ـ لقد فعلت ما فعلت لأبدد شكوكهم ... عندئذ ... ركضت وراء دميتري ...

صرخ بورفير بغضب :

ـ أهذا صحيح .

ثم غمغم يحدث نفسه ، وقد عاد بصره فتوقف على راسكولنيكوف :

ـ انه يكرر ما أوحي به اليه .

لقد اجتذب نيكولا جل اهتمامه حتى أنه نسي أو تناسى وجود راسكولنيكوف ، فلما تذكره بدا وكأنه خجل ...

ـ يا روديون رومانوفيتش الشجاع ، اعذرني ...

وأشار له برأسه ، وهو يمسكه من ذراعه ووجهه نحو الباب :

ـ لا يمكنك البقاء هنا أرجوك ... لم يعد لديك ما تفعله هنا ... انني شخصيا كما ترى ... آه ، يا للمفاجأة !.. أرجوك !

قال راسكولنيكوف الذي لم يكن بدوره قد فهم شيئا مما حدث ، ولكنه كان بالمقابل قد استرد الشيء الكثير من رباطة جأشه :

ـ يظهر انك لم تكن تتوقع هذا ؟...

ـ لعمري كلا ... ولا أنت على ما أظن ، انك لم تكن تتوقع ذلك بالمثل ... هيا ماذا بك ... ان يدك ترتجف ها ! ها !

ـ انك أنت أيضا ترتعد ، يا بورفير بيتروفيتش .

ـ نعم انني أرتعد أنا الآخر . انني لم أكن أتوقع مثل هذا .

كانا قد بلغا باب المكتب ، وكان بورفير ينتظر بفارغ صبر أن ينسحب راسكولنيكوف .

قال راسكولنيكوف فجأة :

ــ هيا ... أين مفاجأتك الصغيرة ؟ لِمَ لا ترينيها ؟

ــ رباه . أنت تسخر في حين لم تتوقف أسنانك بعد عن الاصطكاك ! ها ها ! انك لا تعدم المزاج ! الى اللقاء !

ــ بل أعتقد أنه الوداع .

غمغم بورفير بلون من الهمس :

ــ سيكون كما يشاء الله ، نعم كما يشاء الله .

عندما اخترق راسكولنيكوف المكاتب في طريق الخروج، لاحظ أن هناك من ينظر اليه محدقا . كما شاهد في الردهة بين جمع من الناس البوابين اللذين كانا في ذلك « البيت » ، والذي عرض عليهما « ذاك المساء » أن يرافقهما الى قسم البوليس . كانا واقفين يبدو عليهما أنهما ينتظران شيئا .

لكنه لم يكد يبلغ رأس السلم حتى سمع صوت بورفير بيتروفيتش وراءه ، ولما استدار شاهد قاضي التحقيق يلهث من التعب الذي سببه له تهافته على اللحاق به ، قال :

ــ كلمة صغيرة ، يا روديون رومانوفيتش . ان كل ما حدث سينتهي كما يشاؤه الله! ومع ذلك سوف أستجوبك مراعاة للشكل فقط ... اذن ، لسوف نلتقي مرة أخرى ولا شك !

توقف بورفير أمامه وعلى فمه ابتسامة ، وأضاف مرة أخرى :

ــ لا شك.

كان يمكن القول بأنه كان يرغب الافصاح عن شيء آخر ، لكنه لم يضف كلمة الى ما قال .

شرع راسكولنيكوف يقول ، وقد استعاد هدوءه نهائيا بل وشعر برغبة لا تقاوم تدفعه الى التهكم :

ــ وأنت يا بورفير بيتروفيتش ، أعذر موقفي حيالك منذ حين • لقد غضبت وانفعلت •••

أردف بورفير بلهجة أنيسة نوعا :

ــ لا عليك ، لا عليك • انني شخصيا كنت ••• انني ذو عقلية سامة قاسية ، اعترف لك ، نعم أعترف • لكننا سنلتقي • ان شاء الله سنلتقي أكثر من مرة أخرى •

وعقب راسكولنيكوف :

ــ ولسوف نتعارف نهائيا وتماما •

أيد بورفير بيتروفيتش أقوال راسكولنيكوف وهو يغمز له بعينيه ويتأمله جديا :

ــ معرفة نهائية ! لسوف تذهب الآن لتقيم حفلة عيد ميلاد ؟

ــ بل الى مأتم •

ــ ماذا ؟ أهو صحيح ، مأتم ! دار صحتك • ان الصحة كما ترى••

عاد راسكولنيكوف يقول ، وهو يهبط السلم :

ــ من جهتي ، لست أدري أية أمنية أوجهها لك• انني أتمنى لك كل توفيق عن طيبة خاطر لأنك كما ترى تشغل وظيفة غريبة شاذة !

قال بورفير ، وقد أنصت باهتمام بعد أن كان قد أدار له ظهره :

ــ لم هي شاذة وغريبة ؟

ــ لكن ماذا دهاك ؟ خذ مثلا نيكولا المسكين • لا شك أنك مزقته وعذبته على طريقتك أشد العذاب ــ من الناحية النفسانية طبعا ــ لكي يعترف • لقد اضطررت أن تبين له ليل نهار بأنه قاتل • والآن ، وقد جاء يعترف بأنه قاتل ، تبدأ أنت من جديد فتنهال عليه : « أنت تكذب ، أنت

لست القاتل ! ليس أنت من استطاع ارتكاب هذه الجريمة ! انك لا تقول الصدق ! » فكيف بعد هذا لا تكون وظيفتك غريبة وشاذة ؟

ــ ها ، ها ، ها ! اذن لاحظت منذ حين بأنني قلت لنيكولا بأنه ينطق بما أوحي به اليه ؟

ــ كيف لا ألاحظه ؟

ــ ها ، ها ! انك دقيق الملاحظة ، انك دقيق الملاحظة . انك تلاحظ كل شيء ! ان لك عقلا ولا شك ميالا الى المــزاح ! ولقــد لمست الحبل الهزلي.. ها ، ها ! يقال ان بين جميع الكتاب كان جوجول (١) Gogol وحده يمتاز بهذه الخاصة بأشد الارهاف .

ــ نعم جوجول .

ــ هو كذلك جوجول ... يسرني لقاؤك .

عاد راسكولنيكوف مباشرة الى غرفته . كان متعبا منهوكا حتى أنه لم يكد يدخل الحجزة حتى ألقى بنفسه على الأريكة ولبث ربع ساعة جالسا صامتا يستريح من عنائه ويحاول ترتيب أفكاره فقط . لم يحاول قط أن يجد تفسيرا لسلوك نيكولا لأنه كـان يشعر بالذهول مستوليا عليه، كان يشعر أن وراء اعتراف نيكولا شيئا لا يفسر، شيئا مدهشا لم يكن في تلك اللحظة قادرا على التعمق فيه واختراق حجبه. وفجأة بدت له ملابسات هذا الأمر العجيب بوضوح . سوف يظهر خطأ هذا الاعتراف بعد قليل وعندئذ سيعودون من جديد اليه. لكنه [illegible] ذلك . كان عليه أن يقوم بعمل ما في سبيل نفسه لأن خطرا جسيما يهدده .

---

(١) شاعر وكاتب وروائي روسي ولد في سوروتشينزي (١٨٠٩ — ١٨٥٢) مؤلف تاراس بولبا والارواح الميتة وعدد من المؤلفات الادبيــة الروسية القيمة .

لكن الى أي مدى يهدده ذلك الخطر ؟ راح موقفه يتضح • تذكر على الفور الموقف الذي كان له مع بورفير ، تذكره بصورة عامة دون التدقيق في التفاصيل فلم يتمالك أن اقشعر من الفزع • صحيح انه لم يكن قادرا على كشف نوايا بـورفير كلها وأفكاره ، لكنـه مع ذلك كان قد اكتشف لعبته نوعا ما • لم يكن أحد ـــ مثل راسكولنيكوف ـــ يستطيع أن يتكهن بالنقطة الخطيرة الدقيقة التي بلغت اليها اللعبـة التي بدأها بورفير معه • لولا قليل من الحظ ، لكان فضح نفسه أمام قاضي التحقيق مقدما اليه أدلة ملموسة تدعم فعلته • ولما كان بورفير عارفا باضطراب أعصاب راسكولنيكوف ، ذلك الاضطراب المرضي ، فانه راح يعمل على هذا الأساس بعد أن اكتشفه للوهلة الاولى • راح يعمل متأكدا من النتائج رغم أن لعبته كانت سابقة لأوانها قليلا • كان راسكولنيكوف ـــ ولا شك في ذلك ـــ قد استجـاب لحظة لقاضي التحقيق فكاد أن يثبت على نفسه الاتهام على شكل مـا • لكن الأمر لم يكن قد وصل بعد الى حد « الأدلـة » • كـان مجـرد اشتبـاه واستنتاجات !

لكن ، هل كان يرى الأمور الآن على حقيقتها ؟ ألم يكن مخطئا في هذا الاستنتاج ؟ ما هي النتيجة التي كان بورفير يتوقعها اليوم ؟ هل كان مدبرا أمرا ما لذلك اليوم بالذات ؟ وما هو ذلك الأمر على وجه التحديد ؟ هل كان ينتظر شيئا ؟ نعم أم لا ؟ كيف كانا سيفترقان ذلك اليوم لولا تلك الكارثة غير المنتظرة التي يرجع الفضل فيها الى نيكولا ؟

لقد ترك بورفير خطته كلها تكتشـف دون ترو ، ذلك لأنه لم يكن ينتظر تلك النتيجة • لذلك يمكن القول بـأن لعبتـه كـانت سابقة للأوان • لكن هل كان يعمد الى تلك اللعبة ـ لعبة الارهاق والاثارة ـ لو كان يمتلك أشياء أخرى بين يديه ؟ انه ما كان يمكن أن يخفيها وهو الذي عمد الى كل شيء في حوزته ـــ أو على الاقل هكذا خيـل الى

راسكولنيكوف ـ ماذا كانت اذن تلك المفاجأة ؟ هل كانت خدعة ؟ ماذا كان فيها من حقائق ؟ هل كان هناك دليل ايجابي ؟ هل كان ذلك رجل الأمس ؟ أين اختفى ذلك الرجل ؟ أين هو اليوم ؟ لو كان بورفير يمتلك ذلك اليوم شيئا ايجابيا لكان حتما ذا علاقة بذلك الرجل، رجل البارحة ...

كان جالسا على الاريكة منحنيا وقد ركز مرفقيه على ركبتيه وجعل وجهه في راحتي يديه . شعر برعدة عصبية تهز جسمه . أخيرا نهض واقفا وأخذ قبعته ثم فكر لحظة واتجه الى الباب .

شعر باحساس غريب يؤكد له بأنه يستطيع اعتبار نفسه في أمان ذلك اليوم على الأقل ! وفجأة أحس بفرح طاغ يغمر قلبه : أراد أن يذهب فورا الى كاترين ايفانوفنا . لا شك أنه كان متأخرا فيما يتعلق بحضوره مراسم الدفن ، لكنه كان يستطيع الوصول في الوقت المناسب لتناول الغداء الجنائزي . ولعله سيلقى سونيا هناك .

توقف فجأة وراح يفكر وارتسمت ابتسامة مرضية على شفتيه :
« اليوم ! اليوم ! نعم اليوم بالذات ! ذلك ضروري ، واجب ... »

كان ذلك هو حديثه مع نفسه ، فلما اتجه نحو الباب وأراد أن يفتحه ، وجد أن هذا قد فتح من تلقاء نفسه . ارتعد وقفز الى الوراء. كان الباب يفتح بهدوء وبطء ! وفجأة برز على العتبة شكل انسان: كان هو رجل الامس ، ذلك الذي انبعث من تحت الأرض .

توقف الرجل على العتبة وراح ينظر الى راسكولنيكوف صامتا، ثم تقدم خطوة داخل الغرفة . كان يرتدي ملابس أمس بالذات ، كان رجل أمس بالذات. لكن وجهه كان يحمل تعابير مختلفة جدا عن تعابير أمس : كان يبدو في تلك اللحظة مرتبكا جدا، لذلك فانه بعد أن توقف برهة أطلق زفرة عميقة ! لم يكن ينقصه في تلك اللحظة ليشبه امرأة

عجوزا الا أن يضغط خده على راحة يده ، وأن يميل برأسه قليلا الى الجانب .

لبث الرجل صامتا ، وفجأة انحنى أمامه حتى كـاد أن يـلامس الأرض ، بل انه لمسها بالخاتم الموجود في اصبع اليـد اليمنى . هتف راسكولنيكوف :

ـ ماذا تعمل ؟

قال الرجل بصوت خافت :

ـ انني أطلب اليك الصفح .

ـ ماذا ؟ تطلب ماذا ؟ لأي شيء ؟

ـ عن أفكاري السيئة ...

راح كلاهما يتبادلان النظر .

ـ لقد كنت منزعجا! عندما جئت ذلك اليوم ـ ولعلك كنت ثملا بعض الشيء فانك ناديت البوابين وسألتهما عـن الدم . لقد استأت عندما وجدتهما يعتبرانك ثملا ولا يهتمان بشأنـك . لقـد بلـغ من استيائي أنني لم استطع النوم ، وبما أنني كنت أذكر عنوانك فقد جئت أمس مساء أسأل عنك ...

سأل راسكولنيكوف ، وقد بدا عليه أنه على وشك فهم القضية بحذافيرها :

ـ من الذي جاء ؟

ـ أنا . أقصد أنني أهنئك .

ـ لقد كنت اذن في ذلك البيت ؟

ـ نعم . لقد كنت قرب الباب العام مع الآخرين . هـل نسيت ؟ ان لي هناك كوخا خشبيا منذ زمن طويـل ... ان صنـاعتي فرّاء، وأتعهد كذلك صنع الفراء وتهيئتها ... لكن ما أزعجني على الأكثر .

وأخيرا تذكر راسكولنيكوف بجلاء مشهد أول أمس أمام الباب العمومي • كان يحدث نفسه بأنه كان هناك ، علاوة عن البوابين ، أشخاص آخرون عديدون وبعض النساء • تذكر أن صوتا كان قد اقترح سوقه الى مركز البوليس فورا • لم يكن يذكر وجه ذلك الذي تقدم بذلك الاقتراح ، حتى أنه الآن أيضا لم يكن متأكدا من أنه سبق له رؤية ذلك الوجه هناك ، رغم أنه تذكر أنه أجابه بشيء في ذلك الحين ، وأنه التفت نحوه أيضا وقال له شيئا •••

وهكذا اتضح أخيرا ذلك السر الرهيب ! كان أشد ذلك رهبة تفكيره في أنه كاد أن يخسر نفسه ويستسلم بنتيجة هذه المسألة « التافهة » ! على ذلك ، فان هذا الرجل الواقف أمامه ، لم يكن اذن يستطيع التحدث الا فيما يتعلق بأسئلته عن الدم ، وبالتالي فان بورفير بالذات لم يكن لديه أي دليل ايجابي ، أي برهان باستثناء ذلك الهذيان • تلك البسيكولوجية ذات الوجهين ! اذن اذا كان قاضي التحقيق يفتقر الى وقائع أخرى ــ الأمر الذي كان واضحا لاستحالة وجود دليل واحد ــ اذن ••• اذن ••• ماذا يستطيعون أن يعملوا حياله ؟ كيف يستطيعون نهائيا اقناعه باجرامه بل وأن يوقفوه ؟ واذن فان بورفير لم يكن على علم بزيارته لذلك المسكن الا في تلك اللحظة بالذات ، وانه كان يجهل أمر تلك الزيارة من قبل •

هتف راسكولنيكوف ، وقد خامرته فكرة مفاجئة :

ــ هل كان تحدثك اليوم مع بورفير حول موضوع زيارتي الى هناك ؟

ــ أي بورفير ؟

ــ قاضي التحقيق ؟

ــ لقد حدثته بذلك• عندما لم يذهب البوابان ذلك اليوم بالذات

ذهبت اليه اليوم •

ـ اليوم ؟

ـ قبل وصولك بدقيقة واحدة • لقد سمعت كـل شيء ، كل شيء ! رباه كم عذبك !

ـ أين ؟ ماذا ؟ متى ؟

ـ لكن هناك ، في مسكنه ، وراء الحاجز ! لقد لبثت هناك طوال الوقت !

ـ كذلك اذن كنت أنت « المفاجأة » ؟ لكن كيف وقع ذلك ؟ قل أرجوك !

قال الرجل :

ـ عندما وجدت أن البوابين لا يتفقان معي بالـرأي ويرفضان الذهاب الى قسم البوليس بحجة أن الوقت قد فـات ، وأن القاضي سوف يؤنبهما أو يعاقبهما على اغفالهما الحضور فورا ، انزعجت جدا حتى فقدت النوم • جمعت المعلومات عن حديثك ، ولما تم لي كل شيء البارحة ، ذهبت صباح اليوم أمثل بين يديه • لم يكن في مكتبه في المرة الاولى ، فعدت بعد ساعة لكنه لم يستقبلني كذلك • أما في المرة الثالثة فقد أدخلت عليه فقصصت الأشياء كما وقعت ، فراح يقفز في الغرفة وهو يضرب صدره بقبضة يده ويصيح : « آه ، أيها الأشقياء ! هكذا اذن تتصرفون معي ! لو علمت ذلك لأرسـلت رجـال الدرك يبحثون عنه ليأتوني به ! » ثم خرج راكضا ونـادى أحـدهم وراح يتحدث اليه في احدى الزوايا ، ثم عاد الي وراح يمطـرني وابـلا من الأسئلة وهو يطلق السباب من فمه كالقذائف • لقد حدثته بكل شيء : قلت له انك لم تجرأ البارحة على الاجابة على أقوالي ، وانك لم تتعرف على وجهي ! فعاد اثر ذلك يقفز من جديد ويضرب صدره بقبضته

وينفعل ويثور • فلما أعلن قدومك قال لي : « اختبيء وراء الحاجز وانتظر ولا تتحرك مهما سمعت ! » ثم أتاني بمقعد وأغلق علي الباب بمفتاح وهو يقول : « يجوز أن أستدعيك » • لكن لما جيء بنيكولا، أطلق سراحي فورا عقب خروجك وهو يقول : « لسوف أستدعيك مرة أخرى ، ولسوف أستجوبك » •

ـ هل استجوب نيكولا بحضورك ؟

ـ لقد أخرجني من الغرفة بعد خروجك مباشرة ومن ثم عاد يستجوب نيكولا •

توقف الرجل عن الكلام وعاد ينحني مرة أخرى وهو يلمس الأرض باصبعه :

ـ اصفح عن وشايتي والألم الذي سببته لك •

فأجاب راسكولنيكوف :

ـ ليصفح الله عنك !

لم يكد ينطق بهذه الكلمات حتى انحنى الرجل مرة أخرى ، لكن انحناءة أخف من الاولى ـ حتى وسطه فقط ـ ثم استدار ببطء وخرج من الغرفة •

قال راسكولنيكوف بحزم وثبات :

ـ لا شيء الا نظريات ذات وجهتين •

وغادر غرفته وهو أشد اطمئنانا من أي وقت مضى •

راح يحدث نفسه وهو يهبط السلم : « الآن نستطيع أن نثابر على النضال » • كان يشعر بشيء من الغضب : كان يذكر بخجل واشمئزاز « دناءة نفسه وصغارها ! ».

القسم الثاني

١

غداة اليوم الذي وقعت فيه المقابلة الخاسرة التي قضت على آمال بيير بيتروفيتش ، والتي جرت بينه وبين دوتيا وبولشيري ألكسندروفنا ، استيقظ هذا من نومه وقد أزيحت الغشاوة عن عينيه. واضطر ــ رغم عظيم انزعاجه ــ أن يعتبر ما وقع البارحة أمرا حقيقيا لا يقبل الجدل رغم اعتقاده السابق بأنه أمر خيالي بعيد الوقوع. شعر بأفعى كرامته المجروحة تنهش قلبه وتدميه . لم يكد يغادر السرير حتى مضى الى المرآة يتأمل نفسه فيها . كان يخشى أن يكون الاصفرار قد تغلب على وجهه خلال نومه : غير أنه وجد ألا خطر عليه مطلقا من هذه الناحية في الوقت الحاضر على الاقل ، فراح ينظر الى وجهه النحيل الشاحب المنتفخ قليلا بفعل الشحم الذي تراكم عليه في الأيام القليلة الأخيرة . راح بيير بيتروفيتش يعزي نفسه مفكرا بأنه سوف يستطيع ايجاد خطيبة أخرى في مكان ما لعلها تكون خيرا من هذه وأرفع قدرا ومكانة ! لكنه لم يلبث أن تحرر من هذا الوهم وشعر بوطأة الكارثة، مما جعل صديقه الذي يقطن عنده : السيد آندريه سيميونوفيتش ليبيزياتنيكوف، يضحك ضحكة صامتةساخرة. لاحظ بيير بيتروفيتش تلك الضحكة وسجلها فورا في عداد نفاق زميله الشاب . كان يرى أن حساب ذلك الزميل بدأ يتضخم بصورة خاصة منذ وقت قصير ، وتضاعف غضبه عندما فكر في أنه كان يجدر به ألا يطلع آندريه سيميونوفيتش على وقائع حادثة الأمس أبدا . اعتبر تلك الصراحة خطيئته الثانية في يوم واحد بدافع انفعاله وسخطه : لقد شعر بأنه تبسط كثيرا واندفع أكثر من اللازم مع غضبه .

وقع له بعد ذلك عدد من المزعجات والمضايقات في تلك الصبيحة ــ وكأن الأمر كان متعمدا ــ اذ خسر الدعوى التي كان يرافع فيهـا أمام مجلس الشيوخ وأبلغ بفشله في ذلك اليوم، وضاعف غضبه رفض صاحب المسكن الذي استأجره ليعقد فيه زواجه ويقطن فيه ــ والذي كان بناء على الاتفاق دفع نفقات عديدة لاجراء التعديلات فيه ــ ادخال أي تبديل على نصوص الاتفاق أو اعادة شيء من النفقات اليه ! كان صاحب المسكن من طراز أولئك العمال حديثي الثراء ، ألماني الجنسية ــ فاضطر بيير بيتروفيتش أن يعيد اليه مسكنه الذي أضحى في حالة جديده ! ولم يتوقف الامر عند هذا الحد ، بل تعداه الى مخزن الأثاث الذي رفض كذلك أن يعيد روبلا واحدا من العرابين التي دفعها بيـير بيتروفيتش من ثمن الأثاث الذي أوصى بصنعه ، والذي لم يكن قـد تسلم منه قطعة واحدة بعد ! فراح يحـدث نفسه وهـو يصرف على أسنانه : « هل يجب أن أتزوج عامدا لأنني أوصيت على أثاث جديد ؟ »

خطرت له فكرة يائسة لكنها راودت ذهنه زمنا : « هل صحيح أنه أضاع كل شيء الى لا رجعـة ؟ ألا يمكن بذل محاولة جديدة ؟ » وعادت صورة دونيا الفاتنة تمزق قلبه من جديد ، وشعر بهذا العذاب طيلة دقيقة حتى أنه لو أتيح له في تلك اللحظة أن يقتل راسكولنيكوف لمجرد الرغبة لنفذ تلك الرغبة دون تردد .

ناجى نفسه : « لقد ارتكبت خطأ آخر جسيما : ذلك أنني لـم أعطهما نقودا من قبل ! ليحملني الشيطان كم كنت يهوديا ! مع أنها لم تكن قضية مصلحة ! كنت أفكر في ابقائهما في العـوز ودفعهما الى اعتباري كملاك منقذ هبط من السماء . وهكذا ... أوه ! كلا لو انني خلال هذا الوقت أعطيتهما بعض ألف وخمسمائة روبل لاعداد الألبسة وقدمت لهما بعض الهدايا الصغيرة أو اشتريت كـل أنـواع اللوازم

والألبسة الداخلية والحرق وما الى ذلك من القذارات المشابهة من مخزن « كنوب » أو المخزن الانجليزي • آه ! لو انني فعلت هذا ! لكانت القضية أشد وضوحا ••• بل وأكثر قوة ومتانة ! ما كان باستطاعتهما القيام بهذا العمل لو أنني فعلت شيئا من ذلك • ان هؤلاء الناس ذوو عقلية خاصة ، يعتقدون أنهم في حال فسخ الخطوبة ملزمون باعادة الهدايا والمال : لكن الاعادة كانت ستكون بالنسبة اليهم صعبة متعبة • ثم انهما كانتا ستنظران الى الأمر من الوجهة الوجدانية وستقولان في سرهما : « كيف نطرد فجأة رجلا كان حتى الآن شديد الكرم ، كثير الرقة ؟••! » لقد ارتكبت حماقة !•• ومن جديد صرف بيير بيتروفيتش على أسنانه ونعت نفسه بالسخيف •• في سره طبعا •

ازاء هذا القرار الذي اتخذه عاد بيير بيتروفيتش الى المسكن مضاعف الحنق والغضب أكثر مما كان عليه حين خروجه • كانت استعدادات الطعام الجنائزي الذي كان يعد في غرفة كاترين ايفانوفنا تجذب انتباهه • لقد سمع بالأمس عن ذلك الطعام بشكل غير واضح، وظن أنه مدعو ؛ فهرع الى السيدة ليبيوبشسل التي كانت في غياب كاترين ايفانوفنا ــ وكانت هذه متغيبة في المدافن ــ تتشاغل حول المائدة المعدة ؛ يسألها • فعلم بأن الأمر متصل بطعام جنائزي وقور دعي اليه كل المستأجرين حتى الذين لم تسبق لهم معرفة بالمرحوم• وأن آندريه سيميونوفيتش ليبزياتنيكوف في عدادالمدعوين رغم مشاجرته الأخيرة قريبة العهد مع كاترين ايفانوفنا ، وأنه هو ــ بيير بيتروفيتش ــ لم يكن مدعوا فحسب بل كان منتظرا بفارغ الصبر نظرا لأنه من أرفع المستأجرين اعتبارا • بلغه أيضا أن أميلي ايفانوفنا نفسها دعيت بترحاب رغم الحوادث المؤسفة الأخيرة التي وقعت بينها وبين كاترين ايفانوفنا، وأنها بسبب ذلك التسامح من جانب كاترين كانت في تلك اللحظة تقوم

بدور ربة البيت ، الأمر الذي كان يضفي عليها لونا من السرور . كانت ترتدي ثوبا جديدا من الحرير الثمين الأنيق تختال فيه بكبرياء !

كانت هذه المعلومات والوقائع التي توصل بيير بيتروفيتش الى معرفتها توحي اليه بمكره ما ، فعاد الى غرفتــه أو بالأحرى الى غرفة آندريه سيميونوفيتش ليبزياتنيكوف وهو فريسة انشغــال فكري . كان على حق في قلقه وانشغاله ، ذلك لأنه عــرف أن راسكولنيكوف سيكون في عداد الحاضرين .

لبث آندريه سيميونوفيتش ذلك الصباح في غرفتــه لسبب من الأسباب ، وكان لبيير بيتروفيتش مع ذلك السيد علاقات غريبة لكنها طبيعية : كان بيير بيتروفيتش يحتقره ويكرهــه الى أقصى الحدود ، وكان ذلك الشعور يختلج في نفسه منذ اليــوم الأول الذي نزل فيه عنده ! لكنه كان يشعر اضافة الى ذلك بلون من [illegible] كان قد حل عنده منذ وصولــه الى بطرسبــورغ وليس بسبب عقليتــه الاقتصادية المتعننة فحسب ــ رغم أن هــذا هــو السبــب الحقيقي الرئيسي ــ لكنه فعل ذلك لسبب آخر أيضا . كان قد بلغه ــ لما كان لا يزال في المقاطعة ــ أن آندريه سيميونوفيتش الــذي كــان تحت وصايته من قبل ، انه من أكثر الشباب التقدميين نشاطا ، ويُنظر اليه كما ينظر الى رجل يلعب دورا هاما في عدد من الأوساط الغامضة التي بلغت سمعتها حد الخرافة ! وكانت هذه الشهــرة التي حــازها ذلك الموصى عليه قد أدهشت الوصي بيير بيتروفيتش لأنه كان يعرف أن تلك الأوساط القوية النفوذ المحيطة علما بكل شيء ، تحتقر كل الناس وتشهّر بكل الناس . فشعر بيير بيتروفيتش بلون خاص من الخوف لم يكن يستطيع تحديده على الضبط ، ذلك أنه بسبب اقامته في المقاطعة لم يكن يسهل عليه أن يكوّن لنفسه أفكارا حقيقية واقعية عن كثير من

الأمور . لقد سمع أن في بطرسبورغ تقدميين وملحدين ومتشيعين لاحلال العدالة وانصاف المغبونين الخ... الخ... لكنه كان ـ شأن الكثيرين غيره ـ يبالغ في تفسير المعنى الذي تشتمل عليه تلك الكلمات، بل ويشوهه حتى يبلغ به درجة الوهم والشذوذ ! كان يخشى منذ سنوات طويلة التشهير بين الجماهير ، فكان هذا الخوف السبب الرئيسي الذي ارتكز عليه قلقه وراح ينمو خصوصا عندما قرر أن ينقل حقل نشاطه الى بطرسبورغ . كان يخاف حتى الاطفال بهذا الصدد . لقد عرض عليه قبل سنوات ـ أثناء وجوده في المقاطعة، وكان في بدء حياته العملية ـ حادثان كان ضحاياهما من الشخصيات القوية التي ذهبت ضحية ذلك التشهير القاسي ! تبرع مدافعا عنهم بكل قواه فبسطوا حمايتهم عليه . لقد انتهت احدى تينك القضيتين نهاية فاضحة بالنسبة لصاحب العلاقة . أما الحادث الآخر فقد أحدث للضحية عددا كبيرا من الارتباكات . لذلك عمد بيير بيتروفيتش حال وصوله الى بطرسبورغ الى تحسس مواقع خطاه . كان مستعدا أن يأخذ المقدمة بين هؤلاء التقدميين لكي يكسب عطف « أجيالنا الناشئة » ! وكان يعتمد في هذه الخطوة على آندريه سيميونوفيتش . وبفضله استطاع، أثناء زيارته لراسكولنيكوف ، أن يتدبر ويصوغ تلك العبارات التي ألقاها أثناء الحديث ، والتي كان التقطها تنفا من أحاديثه مع آندريه سيميونوفيتش .

غني عن الذكر أنه بعد فترة من بقائه راح بيير بيتروفيتش يعتبر آندريه سيميونوفيتش غاية في التبذل والبساطة . لكنه لم يقتنع بنجاته من الخطر ولم يستطع تبديل رأيه . لم يجد على العموم ما يعمله بكل تلك المعلومات والافكار والدراسات والاساليب التي كان آندريه سيميونوفيتش يوقر أذنيه بها ! لقد كان له هدفه الخاص . كان يريد أن يعرف بأسرع ما يمكن الأجوبة على « لم وكيف » المتعلقتين بهذا

أو ذاك من الاوضاع ، وأن يتأكد من قوة هؤلاء « الاشخـاص » أو ضعفهم . وهل بمقدورهم خلق « شيء » يضرّ به شخصيا ؟ كان يريد أن يعرف : هل يستطيعون فضح أمره مثلا اذا اندمج في مشاريع معينة أم لا ؟ وما هي النقاط التي يستطيعون بناء تشهيرهم عليها ؟ انـه كان يريد أن يعرف هل يمكن محاولة الخداع والتلاعب مع هؤلاء «الناس» اذا كانوا بالفعل أقوياء ؟ هل يجب خداعهم أم لا يجب ؟ هل كـان يستطيع الاعتماد على منظماتهم ليبني عليها مركـزا ممتـازا لنفسه ؟ وبكلمة واحدة كانت هناك مئات من الأسئلة تتطلب أجوبة .

كان آندريه سيميونوفيتش ذاك رجلا ساذجا قصير القامة هزيلا مصابا « بداء الخنزير » ، يشتغل موظفا في مكان ما . كان لونه أشقر فاتحا وله سالفان طويلان يفخر بهما يصلان حتى أسفل عظم الحنك ، وكان كذلك يشكو دائما ــ تقريبا ــ آلاما في عينيه . كان ذا مزاج مائع يظهر في خطاباته وأقواله كثيرا من الاعتداد الذي يبلغ أحيـانا مبلغ القسوة ويتناقض تناقضا مضحكا مع عقليته الماكرة . وكـانت أميلي ايفانوفنا تعتبره من أحسن المستأجرين لأنه لم يكن يثمل أبدا، ولأنه كان يدفع أجرة سكنه بانتظام ! ولولا هذه المزايا لكان آندريه سيميونوفيتش سخيفا ثقيل الظل . كان منخرطا في الحزب التقدمي « والاجيال الناشئة » يبدي نحوه حماسا متوقدا . كان واحدا مـن أولئك البلهاء المندفعين الذين لا يتورعون أبدا عـن اتبـاع الفـكرة الرائجة ، يقبح ويشوه كل شيء يلمسه حتى ولـو كان يميـل اليـه باخلاص !

بلغ ليبيزياتنيكوف حدا جعله ــ رغم ما كان عـليه من الدعـة والتبسط ــ يبرم بوصيه السابق بيير بيتروفيتش حتى بات لا يطيق احتماله ، بل ويمكن القول ان تلك الكراهية أصبحت متبادلة من كلا

الجانبين وقد نبتت بينهما بشكل عرضي. أدرك آندريه سيميونوفيتش أخيرا ، رغم بساطته ، أن بيير بيتروفيتش كان يخدعه ويزدريه وأنه لم يكن قط كما كان يريد أن يبدو. كان قد حاول أن يعرض عليه أسلوب فورييه Fourier (١) ونظريات داروين . لكن بيير بيتروفيتش راح في الأيام الأخيرة يصغي اليه بشيء من التهكم ، بل أهانه في الأيام الأخيرة ! والسبب في ذلك أن لوجين بدأ يفهم مؤخرا أن ليبيزياتنيكوف ليس سخيفا صغيرا فحسب ، بل انه كذلك مهذار محروم من كل علاقة هامة في الوسط الذي هو منه ، وأن كل ما كان يعرفه من معلومات ونظريات كانت تأتيه عن طريق ايحاء شخص ثالث . ثم انه توقع ألا يكون قويا في قضية « الدعاية » التي كان ينوق اليها ، لأنه وجده فارغا لا يمكن الاعتماد على مؤهلاته كواحد من ناشدي العدالة .

ونسجل في هذه المناسبة أيضا أن بيير بيتروفيتش كان — طيلة أيامه العشرة التي أقامها مع ليبيزياتنيكوف — يتقبل باعتبار ، وخصوصا في الفترة الاولى ، كل الاقوال والآراء الغريبة التي كان يقدمها اليه آندريه سيميونوفيتش ، أو أنه على الاقل كان يمتنع عن الاعتراض عليها . فكان يصمت مثلا لما كان آندريه سيميونوفيتش يعزو اليه قرار اقامة وحدة اشتراكية جديدة مقبلة في مكان ما من شارع «بورجواز»، أو أن يدع دونيا وشأنها اذا شاءت بعد شهر واحد من زواجهما أن تتخذ لها عشيقا ، أو — أكثر من ذلك — أن لا يعمّد أولاده الخ. الخ. كان حسب عادته لا يناقش تلك الاقوال ولا يناقضها ، بل ولم يكن ينفي ما يُعزى اليه منها بل وكان يسمح أيضا أن يُمتدح على هذا الاساس لشدة ما كان المديح — من أي نوع كان — يعزيه ويرضيه .

---

(١) شارل فورييه فيلسوف وعالم نفساني فرنسي ولد في بيزانسون ١٧٧٢ ومات ١٨٣٧ وهو رئيس المدرسة الفالانستيريانية « الوحدة الاشتراكية » — المترجم —

كان بيير بيتروفيتش ، لسبب ما ، قد أبدل ذلك الصباح بعض الاسهم بنقود • فكان جالسا الى المنضدة يعد رزم الأوراق المالية والاعتبارية • أما أندريه سيميونوفيتش الذي كان معدما أبداء فانه كان يتجول في الغرفة ويتظاهر بالنظر الى تلك الاوراق المالية نظرة لامبالاة بل ونظرة احتقار • غير أن بيير بيتروفيتش ما كان يصدق أبدا أن أندريه سيميونوفيتش ينظر حقيقة الى ذلك المال باستخفاف • وكان أندريه سيميونوفيتش بالمقابل يفكر بمرار بأن بيير بيتروفيتش كان في واقع الحال مقتدرا ومستعدا تماما لانتهاز هذه الفرصة لاغاظة صديقه الشاب بنثر هذه الاوراق المالية على المنضدة ، مذكرا اياه بتفاهته وبكل الفارق البعيد القائم بينهما بوضوح •

وجده في تلك المرة أكثر انفعالا وأقل انتباها من كل مرة سبقت حتى أنه ـ هو أندرية سيميونوفيتش ـ انطلق مندفعا في شرح نظريته المفضلة : اقامة « اشتراكية » جديدة ذات طابع خاص ! فكانت الاجوبة القليلة التي راح بيير بيتروفيتش يتفوه بها بين الحين والحين ـ وهو مستمر في احصاء الرزم النقديه وتبديل مواضعها ـ طافحة بالسخرية الجريئة الوقحة • لكن أندريه سيميونوفيتش ـ كواحد من « الانسانيين » ـ عزا مزاج بيير بيتروفيتش الغريب الى التصدع الذي حصل بينه وبين دونيا ، فراح يتحرق شوقا الى اثارة هذا الموضوع • كان عليه أن يتفوه ببعض العبارات «التقدمية والدعاوية» لكي يعزي صديقه المحترم، ولتكون ذات فائدة في تنمية نفسيته «دون أدنى شك » •

سأل بيير بيتروفيتش مقاطعا أندريه سيميونوفيتش في نقطة من أشد النقاط أهمية في حديثه •

ـ ما هو هذا الطعام الجنائزي الذي يعدونه لدى • • • تلك الارملة ؟

ـ كأنك لا تعرفه ! لقد حدثتك البارحة في هذا الموضوع وعرضت لك آرائي حول كل هذه الاحتفالات • لقد دعتك أنت الآخر حسب ما سمعت ، وقد تحدثت بنفسك معها البارحة •••

ـ ما كنت أنتظر أن تكون تلك الحمقاء ـ وقد بلغت بها الفاقة هذا المبلغ ـ مستعدة لانفاق مـــال تلقته من أحمـــق آخر اسمـــه راسكولنيكوف في سبيل اعداد طعام ••• بل لقد دهشت بنفسي منذ حين حينما مررت هناك وشهدت تلك الاستعدادات : حتى الخمرة لم تخل منها المائدة • لقد دعت عددا كبيرا من الاشخاص ••• الشيطان يعرف ما هذا !

وأردف بيير بيتروفيتش ، وقد بدا أنه يغذي فــكرة معينة في رأسه :

ـ ماذا ؟ أتقول بأنني مدعو كذلك ؟ متى ؟ انني لا أذكر !

ثم رفع رأسه قليلا واسترسل متمما حديثه :

ـ على كل حال ، سوف لن أذهب ! ماذا سأعمـــل هناك ؟ لم أحدثها البارحة الا بقولي انها تستطيع أن تحصل على منحـــة مباشرة تعادل أجرة زوجها عن عام واحد بصفتها أرملة موظف شديدة العوز • ولعلها دعتني من أجل هذا • ها ! ها !

قال ليبزياتينكوف :

ـ انني كذلك لا أنوي الذهاب الى هناك !

ـ لم يكن ينقص الا هذا ! لقد ضربتها بيدك أمس • ولسوف يفهم أنك تتذرع بهذا السبب لعدم الذهاب ، هاهاها !

سأل ليبزياتينكوف بانفعال وقد احمر وجهه :

ـ ضربت من ؟ عمن تتحدث ؟

ـ نعم ، لقد ضربت كاترين ايفانوفنا منذ شهر ••• هيا ! لقد

علمت ذلك أمس ... ها هم أولاء جماعتك بنظرياتهم ... هذه هي أساليبهم في تسوية المشاكل النسائية . ها ها ها !

عاد بيير بيتروفيتش يؤدي عمله بين جمع واحصاء بلهجة مرحة.

أجاب ليبيزياتنكوف غاضبا ، وقد كان من عادته أن يثور وينفعل كلما أعبدت على مسامعه هذه القصة :

ــ انها حماقة وسبة ! لم تحدث الأمور هكذا كما تحدثت .. لم تقع الأمور هكذا أبدا مطلقا ! لقد أسأت الفهم ! انها أكاذيب كريهة ! انني كنت أدافع عن نفسي فحسب ! انها هي التي هاجمتني مشرعة أظافرها . لقد جذبتني من سالفي ... انه مسموح للرجل على ما أعتقد أن يدافع عن شخصه ... ثم ــ وهذا مبدئي ــ انني لا أسمح بأن أعامل بالشدة والقسوة لأن ذلك لون من الاستبداد . هل كان يجب أن أقف أمامها دون حراك ؟ انني لم أعمل أكثر من دفعها عني.

أردف لوجين متضاحكا بوحشية :

ــ تا ! تا ! تا !

ــ انك تحاول مخاصمتي لأنك سيء المزاح اليوم ... لكن هذه ليست الا حماقات وليس لها أي شأن في قضية « النهضة النسائية » ! لقد أسأت الفهم . انني أفكر بأنه اذا كان تساوي المرأة بالرجل في كل المرافق الاجتماعية وحتى من حيث القوة مقبولا ــ وهو بالواقع مقبول ومؤكد ــ فان المساواة ينبغي كذلك أن تكون شاملة من هذه الناحية بالمثل . لا شك أنني فكرت بعدئذ بأن مسألة كهذه ما كان يمكن أن تعرض في الواقع لأن المشاجرات والمخاصمات لا ينبغي أن تكون، وهي ــ أي المخاصمات ــ لن تكون مقبولة أو حاصلة في المجتمع المقبل ! على هذا فانه من الغريب أيضا البحث في المساواة في التخاصم . انني لست غبيا الى هذا الحد ... ان المشاحنات والمشاجرات ، رغم أنها موجودة . أقصد أنها في المستقبل لن تكون ، رغم أنها في الوقت

الحاضر لا زالت في الوجود !... هه ! يا للشيطان ... يستطيع الانسان أن يكون صريحا معك ... انني لن أتخلف عن حضور الوليمة من أجل هذا الحادث العرضي بل حفاظا على المبدأ ! انني لا أريد أن أشرك في هذا التقليد السخيف الفاسد !... الطعام الجنائزي ! هذا هو السبب ، ومع ذلك فانني أستطيع الذهاب ولو على سبيل الهزء والسخرية . لكن لسوء الحظ لن يكون هناك قساوسة ، والا لذهبت حتما .

ـ تعني أنك كنت في هذه الحالة ستذهب وتجلس الى المائدة لتبصق على ألوان الطعام ، بل وعلى الأشخاص الذين دعوك . أليس كذلك ؟

ـ ليست القضية قضية بصاق مطلقا ! انها قضية احتجاج ومعارضة ! سأعمل ذلك في سبيل غايات نافعة . انني أستطيع أن أنتهز الفرص بشكل غير مباشر لأخدم الدعاية . ان كل رجل مدعو الى المساهمه في مجهود الدعاية . وكلما قام بها بشكل حاسم كلما كان ذلك أكثر فائدة وأعم جدوى . انني أستطيع أن أزرع الفكرة ، الحبة ... ولسوف ينجم عن تلك الحبة واقع ثابت ... هل أنا مدين لهم بشيء ؟ انهم سيشعرون أولا بشيء من الهوان لكنهم لن يلبثوا حتى يروا بأنفسهم أنني ذو نفع لهم في أمر من الأمور . كذلك عندنا ، في قضية «تيريبيف» ـ تلك التي انتهت الآن الى « الوحدة الاشتراكية » ـ لقد تركت منزل أبويها وأسلمت جسدها . فكتبت الى أبيها وأمها تقول انها تستطيع العيش وسط معتقدات سخيفه وأنها ترغب في ممارسة الزواج الحر ! فاستنكروا منها هذا وزعموا أن الاسلوب كان شديد الفظاظة والقسوة نحو والديها ، وان كان باستطاعتها توفير العناء عليهم والكتابة اليهم بلهجة أكثر لطفا ولباقه . أما بالنسبة الي ، فان كل هذه الاشياء ليست الا حماقات ، فلا حاجة اذن الى اضافة أو تعديل شيء على الاسلوب

والشكل بل على العكس ، طالما أن الأمر كان بصدد الاعتراض على شيء والاحتجاج ضده ! خذ مثلا السيدة فارانتز ! لقد عاشت ثماني سنين مع زوجها ثم هجرت فجأة طفليها وفسرت ذلك في رسالتها الى زوجها بكل وضوح : « لقد فهمت بأنني لن أستطيع أبدا أن أكون سعيدة معكم • سوف لن أصفح عنكم مطلقا اذ أخفيتم عني وجود تنظيم اجتماعي آخر بواسطة الوحدات الاشتراكية • لقد عرفت بالأمر حديثا بفضل رجل شهم منحته جسدي • ولسوف أذهب معه لنؤسس معا اقامة اشتراكية• انني أقول لكم ذلك بصراحة لأنني أعتقد أنني اذا خدعتكم فلسوف يكون عملي هذا غير نبيل • تدبروا أمركم كما يحلو لكم • لا تنتظروا مني أن أعود • انكم رجعيون شديدو التأخر • انني أرغب في أن أكون سعيدة » • هكذا يجب أن تكتب الرسائل من هذا النوع •

ـ هذه الـ « تيريبيف » ، أليست هي التي قلت لي عنها انها بلغت زواجها الحر الثالث ؟

ـ انها لم تبلغ بعد الا الزواج الثاني هذا اذا عوينت الأشياء على حقيقتها ! ثم لنفرض أنها تزوجت للمرة الرابعة أو الخامسة فان ذلك عديم الأهمية ! انني اذا أسفت مرة لموت أقربائي فان ذلك الاسف سيكون اليوم ! انني أتصور أبدا أنهم لو كانوا على قيد الحياة « لأطلقت » عليهم احتجاجا بديعا ! نعم ، كنت تصرفت على هذا النحو عامدا ••• كنت أفهمتهم نوع العقائد التي أدين بها ! وأعتقد أنهم كانوا سيذهلون من الدهشة ! حقا انني آسف لأنني فقدتهم كلهم !

قاطعه بيير بيتروفيتش :

ـ لتدهشهم ؟ هم ؟ حسنا افعل ما يروق لك ••• لكن ، قل لي ، هل تعرف ابنة المرحوم تلك الصغيرة الهزيلة••• هل صحيح كل ما يروى عن سمعتها ؟ هم ؟

ـ وماذا بعد ؟ في رأيي ، أقصد حسب عقيدتي الشخصية ، أن

موقفها هو الموقف الطبيعي للمرأة • لمَ لا ؟ أقصد لتميز الامر : ان موقفها في المجتمع الحاضر ليس طبيعيا تماما لأن بواعثه هي الحاجة والعوز اللذين أرغماها على سلوك هذا السبيل • أما في المجتمع المقبل فانه سيكون طبيعيا تماما لأنه سيكون مجتمعا حرا • ثم ان من حقها الآن أيضا أن تستسلم لمن تشاء ! لقد كانت تتألم ، وهذا الألم هو رأسمالها الذي لها كل الحق في أن تتصرف به كما تشاء طبعا ! ان المجتمع المقبل لن يكون فيه مكان لمثل هذه الاسس ، بل ان دور الفتاة العامة سيكون له مظهر آخر ، لسوف يسوّى بشكل معقول منطقي • أما صوفي سيميونوفنا ، فانني أنظر الى تصرفاتها خلال هذه المدة على اعتبارها احتجاجات عنيفة ناطقة ضد التنظيم الاجتماعي ! انني أعطف على تلك التصرفات كثيرا بسبب هذا بل انني أغتبط اذ أراها على هذا النحو !

ــ مع ذلك فقد سمعت أنك كنت السبب في طردها من هذه الدار!

غضب ليبزياتنيكوف حتى غدا وجهه شديد الاحمرار ، وزمجر :

ــ افتراء جديد ! لم يقع الأمر هكذا ، ليس هكذا أبدا ! انها كاترين ايفانوفنا التي روجت كذلك هذه الاشاعة المغلوطة لأنها لم تفهم الغاية • هل كنت حقيقة أميل الى صوفي سيميونوفنا أو كنت مشغوفا بها ؟ أبدا ، لقد كنت أقتصر في علاقتي معها على تنشئتها وتثقيفها فقط بشكل خال من الغاية والغرض لأوقظ فيها روح الاحتجاج •• انني لم أكن أنشد الا الاحتجاج فحسب • ولقد فهمت صوفي سيميونوفنا بنفسها بأنها لا تستطيع الاقامة في هذه الدار المؤثثة •

ــ هل كنت تدعوها الى الانضمام الى الوحدة الاشتراكية ؟

ــ انك تتعمد السخرية ولكنك لا توفق ــ واسمح لي بأن ألاحظ هذا ! ــ انك لا تسمع شيئا • ليس في الوحدة الاشتراكية أدوار كهذه • بل ان الوحدة الاشتراكية قد أقيمت خصيصا لمحو هذه الادوار وافنائها •

ان هذا الدور يتبدل في الوحدة الاشتراكية تبدلا كليا : سيصبح حاذقا هناك ما هو سخيف وغبي هنا ، ذلك الذي يبدو الآن ــ بسبب الظروف الحاضرة ــ مخالفا للطبيعة سيصبح هناك طبيعيا • كل ذلك يتوقف على البيئة والوسط اللذين يكون فيهما الرجل • ان كل شيء متوقف على « الوسط » والرجل لا حساب له فيه • انني على أحسن تفاهم مع صوفي سيميونوفنا ، والدليل على ذلك أنها لم تعتبرني أبدا عدوا لها أو شخصا مهينا • نعم ! انني أجتذبها في هذه الاثناء نحو الوحدة الاشتراكية لكنني أقوم بذلك تبعا لمبادىء خاصة • لم تضحك ؟ اننا نريد أن نقيم لأنفسنا « وحدة » خاصة مبنية على أسس أكثر شمولا واتساعا من كل ما سبقها • اننا نعمق في عقائدنا ونزداد انكارا ! ولو أن دوبروليوبوف خرج من ضريحه الآن لوجد أننا نتحدث اليهم ! انني ــ بالانتظار ــ أتابع تثقيف صوفي سيميونوفنا • انها طبيعة جميلة بل كثيرة الجمال !

ــ وانك تستثمر [illegible] ، أليس كذلك ؟ هاها !

ــ كلا ، كلا ! آه كلا ! بل على العكس !

ــ على العكس ! ها ! ها ! ها ! انه هو الذي يقول ذلك •

ــ لك أن تصدقني ! اذ لم أخف عنك شيئا ! لمَ أخفي الحقيقة عنك ؟ قل لي أرجوك !

ــ على العكس ، انها بالنسبة الي حالة غريبة : انها في حضوري تبدو مرتبكة ، انها متحفظة بفعل لون من الحياء المذعور و •••

ــ وأنت ــ بالطبع ــ تهذبها وتثقفها ••• ها ها !•• انك تبين لها بأن خفرها وحياءها ليسا الا حماقات ؟

ــ مطلقا! مطلقا! آه! يا لها من طريقة سمجة وسخيفة ــ واعذرني ــ تلك التي تفسر بها كلمة « التثقيف » • لكنك لا تفهم من معاني هذه الكلمة ومراميها شيئا ! رباه ، كم أنت سيء التحضير حتى الآن ••• اننا نطلب حرية المرأة وأنت لا تفكر الا ••• اذا وضعنا جانبا مسألة العفاف

والطهارة ، وهي مسألة في حد ذاتها عديمة الأهمية بل وشاذة سخيفة، فانني أتقبل منها تحفظها حيالي طالما أن تلك هي رغبتها ولها كل الحق في التصرف حسب هواها • لا شك أنها اذا قالت لي : « أريدك » لكنت أعتبر ذلك حظا عظيما لأن هذه الفتاة تروق لي كثيرا ، لكن في هذه الاثناء ، في هذه الاثناء على الاقل ، لم يتحدث اليها بعد أحد — ولا شك — بمثل الادب واللياقة التي أتحدث بها انيها ، بل وبمثل احترامي لأهليتها ••• انني انتظر وآمل وهذا كل ما في الأمر •

— قدم لها هدية بدلا من هذا • أراهنك على أنك لم تفكر في هذا حتى الآن ؟

— انك لا تفقه شيئا كما حدثتك ! نعم ، تلك هي وضعيتها، ولكن هناك سؤالا آخر ، سؤالا جديدا خاصا ! انك تحتقرها بكل جوارحك بسبب تصرف — تعتبره أنت خطأ — غير مشرف • بل انك تمضي الى أبعد من هذا الحد فترفض أن تتأمل بانسانية مخلوقا بشريا • انك لا تعرف بعد طبيعتها ! انني آسف لشيء واحد : هو أنها منذ بعض الوقت توقفت عن القراءة واستعارة الكتب مني • لقد كنت أعيرها كتبا من قبل • من المؤسف أيضا أن تكون — رغم عزمها وحيويتها في الاحتجاج، ولقد برهنت من قبل على هذا العزم وهذه الحيوية — قليلة الاستقلال، تبدو بمظهر سلبي بعض الشيء ، حيال كل هذه التقاليد السخيفة الخاطئة التي يجب أن تتخلص منها دفعة واحدة ••• كل هذه الحماقات مع ذلك، فانها تفهم تماما بعضا من المسائل • مثلا : انها فهمت تماما قضية تقبيل اليد أو بعبارة أصح ذلك الجرح المعنوي الذي يسببه الرجل للمرأة بتقبيل يدها • لقد نوقشت هذه القضية عندنا فأطلعتها على تفاصيل المناقشة فور وقوعها • وقد أصغت بانتباه شديد الى ما حدثتها به عن النقابات العمالية في فرنسا • والآن ، فانني أمهدها لتفهم قضية الدخول المباح الى المساكن ، كما تبدو للمجتمع المقبل •

ــ ما هذا الذي تقول ؟

ــ لقد كان السؤال التالي موضوع مناقشة حادة في الأيام الأخيرة: هل يحق لعضو من أعضاء الوحدة الاشتراكية أن يدخل متى شاء الى غرفة رجل أو امرأة من الأعضاء الآخرين أم لا ... وقد انتهت المناقشة بايجابية هذا الحق .

ــ لكن ماذا يحدث لو كان العضو الآخر يقوم بازاحة ضرورة ملحة ؟

غضب أندريه سيميونوفيتش وصاح بصوت محنق حاقد :

ــ انك لا تفكر الا في هذه الأمور . انك لا تهتم الا بتلك « الضرورات » الملعونه . أواه ! انني أنقم على نفسي وآسف كل الأسف لأنني نوهت أمامك قبل الاوان بتلك الواجبات الملعونة ! ليحملك الشيطان ! انها حجر العثرة بالنسبة لكل من هم على شاكلتك. والأدهى من ذلك ، أنهم يلقون أمامكم بذلك الحجر قبل أن يدركوا الغاية من الموضوع ! كأن ذلك حقا صريحا من حقوقهم ! بل يخيل اليهم أن ذلك يشرفهم ! لقد أكدت أكثر من مرة بأن هذه المسألة لا ينبغي أن تعرض أمام المبتدئين الا في المرحلة الأخيرة ، عندما يكونوا قد اقتنعوا نهائيا بالمبدأ والاسلوب ، وبعبارة أخرى : لا يجوز الا للرجل المثقف تمام الثقافة المتعمق في معرفة الأسرار أن يبحث في هذا الموضوع . ثم قل لي ماذا تجد من مخجلات وحقارة في حفر المراحيض ؟ انني على استعداد ــ قبل أي شيء آخر ــ أن أقوم « بتعزيل » أي مجرى من هذه المجاري ! انني بذلك لا أبدي أية تضحية ! انه عمل كأي عمل آخر ، بل انه أسمى وأجل من حرفة رافائيل أو بوشكين نظرا لأنه أكثر نفعا !

ــ بل انه أنبل أيضا ، أكثر نبلا لعمري !

ــ ما معنى « نبيل » ؟ انني لا أفهم معنى هذه الكلمة عندما تستعمل في وصف عمل انساني، « أكثر نبلا » « أكثر شهامة » ! ان كل

هذه ليست الا حماقات ، تقاليد بالية أرفض الاستماع اليها ! ان كل ما هو نافع للانسانية ، هو وحده النبيل • انني لا أفهم الا كلمة واحدة : كلمة « نافع » • اضحك ما شئت ، ان الأمر كذلك !

استدار بيير بيتروفيتش • كان قد انتهى من احصاء نقوده وأعادها الى حافظته • غير أنه ــ لسبب ما ــ ترك على المنضدة مبلغا من المال • كانت مسألة حفر المراحيض ، رغم غرابتها ودناءتها ، قد سببت من قبل أكثر من داع للتنافر بين بيير بيتروفيتش وصديقه الشاب • كانت السخافة في الموضوع أن أندريه سيميونوفيتش كان يغضب حقيقة بينما كانت تلك المسألة بالنسبة الى لوجين لونا من التفكه • أما في تلك اللحظة فقد كان يرغب بصورة خاصة أن يثير ليبيزياتنيكوف وأن يغيظه !

كان ليبيزياتنيكوف رغم « استقلاله » وعقليته « الاحتجاجية » لا يجرؤ عادة على مناهضة بيير بيتروفيتش بشكل سافر ، بل كان يتصرف حياله باستمرار بذلك الامتثال المهذب الذي تعوده في صباه • مع ذلك فقد أفلت من بين شفتيه العبارة التالية :

ــ انك رديء المزاج بسبب اخفاقك البارحة !

فقاطعه لوجين بلهجة اشمئزاز متعالية :

ــ قل لي قبل هذا ، هل تستطيع ••• أو هل أنت على صلة وثيقة بتلك الفتاة الشابة التي تتحدث عنها أتسمح لك بدعوتها الى هنا ، في هذه اللحظة ، والى هذه الغرفة ؟ ينبغي أن يكونوا جميعا قد عادوا من المقبرة ••• لقد سمعت صوت خطى ••• وددت أن أرى هذه الفتاة لحظة •••

سأل ليبيزياتنيكوف دهشا :

ــ لكن لماذا ؟

ـ لا شيء ! أريد أن أتحدث اليها • انني أزمع الرحيل اليوم أو غدا وأنوي قبل ذلك أن أطلعها ••• ثم انك تستطيع أن تحضر هذه المقابلة ، بل ان ذلك أجدى ، والا فان الله وحده يعرف كيف ستفسر الأمر •

ـ ما كنت لأفكر في أي شيء ••• لقد سألتك هذا السؤال دون أن أعيره أية أهمية • فاذا كنت في حاجة اليها ، فلا أسهل من احضارها • سأذهب لدعوتها • أما أنا ، فثق بأنني لن أزعجكما •

لم تمض خمس دقائق حتى عاد ليبيزياتنيكوف ومعه سونيا • دخلت الغرفة وهي فريسة دهشة قصوى ، فكانت ـ كعادتها ـ ترتعد • لقد كانت تضطرب دائما في مناسبات كهذه ، وكانت ترهب رهبة كبيرة كل وجه جديد وكل المعارف الجدد • لقد كانت كذلك في طفولتها وهي الآن تشعر بذلك الخوف أكثر فأكثر ••• استقبلها بيير بيتروفيتش استقبالا « ودیا مهذبا » ، ولم يفته أن يضفي على استقباله لمحة من رفيع الكلفة • كان يعتقد في نفسه بأنها تتناسب مع مركزه الجدي المحترم ، وبأنها ضرورية عندما يخاطب مخلوقة فتية ، وبمعنى آخر « مغرية » • بادر الى « تطمينها » وأجلسها بالقرب من المنضدة، قبالته تماما • جلست سونيا وألقت نظرة حولها ، نقلتها بين ليبيزياتنيكوف والمال الذي على الطاولة أمامها • ثم عادت فجأة الى وجه بيير بيتروفيتش فلم ترفع بصرها عنه منذ تلك اللحظة وكأن شيئا فيه كان يوثقها اليه • اتجه ليبيزياتنيكوف نحو الباب فنهض بيير بيتروفيتش ودعا سونيا الى البقاء جالسة واستوقف ليبيزياتنيكوف على العتبة وسأله بصوت منخفض :

ـ هل ذلك « الراسكولنيكوف » هناك ؟ هل جاء ؟

ـ راسكولنيكوف ؟ انه هناك • ثم ماذا ؟ نعم انه هناك •• لقد وصل توا وقد رأيته ••• ماذا في ذلك ؟

ـ في هذه الحال ، أرجوك بالحاح أن تبقى معنا وأن لا تدعني منفردا مع هذه الفتاة. انها مسألة تافهة، لكن الله يعلم ماذا سيستنتجون منها • لا أريد أن يذهب راسكولنيكوف الى هناك ويقص ••• هل فهمت ما أقصد ؟

أجاب ليبيزياتنيكوف ، وكان قد خمن الفكرة التي تعتلج في رأس زميله :

ـ انني أفهم ، انني أفهم • نعم لك الحق ••• ولا شك ـ حسب عقيدتي الشخصية ـ انك تبالغ جدا في تصور الخطر ••• ماذا يهم ؟ ان ذلك حق من حقوقك • ليكن ، سأبقى • سأمضي قرب النافذة كي لا أزعجكما • في رأيي أن هذا من حقك !

عاد بيير بيتروفيتش يجلس على الأريكة أمام الفتاة ينظر اليهـا باهتمام ، وفجأة تبدلت سحنته واتخذت تقاطيعهـا لونـا مـن القسوة والخطورة : « لا تحشري في رأسك أيتها الحسناء أفكارا معينة ! » طال الصمت ففقدت سونيا أعصابها •

شرع بيير بيتروفيتش يقول بلهجة شديدة الرزانة أضفى عليهـا كثيرا من التودد :

ـ أرجوك أن تتفضلي بالاعتذار عني يا صوفي سيميونوفنا الى المحترمة والدتك ••• أعتقد أنني لا أخطىء اذ أنوه بأن كاترين ايفانوفنا تقوم عندك مقام الأم ، أليس كذلك ؟

كان يبدو من لهجته أنه يضمر نوايا ودية صادقة حيالها •

أجابت سونيا بلهجة سريعة مذعورة :

ـ نعم ، في الحقيقة انها تقوم مقام أم لي !

ـ حسنا ، اعتذري لي اذن منها اذ أنني ـ بسبب ظروف خارجة

عن ارادتي ـ أراني مضطرا الى التغاضي عن دعوة والدتك اللطيفةوعدم مشاطرتكم وليمتكم ، أقصد طعامكم الجنائزي .

نهضت سونيا مسرعة ، وهي تقول :

ـ نعم سأقول لها ذلك ، نعم .

استوقفها بيير بيتروفيتش وهو يبتسم لسذاجة الفتاة وجهلها بأساليب المجتمعات الراقية :

ـ ليس هذا كل شيء . انك لا تعرفينني الا قليلا ، أينتها العزيزة صوفي سيميونوفنا . ما كنت لأسمح لنفسي بازعاجك شخصيا وباستدعاء شخص مثلك الى هنا لسبب تافه كهذا يتعلق بي . ان لي هدفا مختلفا كل الاختلاف عن هذا .

جلست سونيا وعادت الأوراق النقدية من مختلف الالوان تصافح عينيها ، لكنها أشاحت بوجهها ونظرت الى بيير بيتروفيتش : لقد شعرت بأن النظر الى مال الغير ليس الا فاحشة كبرى خصوصا اذا كان الناظر الى ذلك المال شخصا « مثلها » . شخصت ببصرها أولا الى النظارة ذات الاطار المذهب التي كان بيير بيتروفيتش ممسكا بها في يسراه ، ثم الى الخاتم الجميل الكبير المزين بحجر أصفر والذي كان يلتمع في إصبع تلك اليد الوسطى . لكنها أشاحت فجأة ببصرها من جديد وحارت في أمرها فرفعت أبصارها أخيرا وراحت تنظر مباشرة في عيني بيير بيتروفيتش .

تابع هذا أخيرا ـ وبعد صمت ـ بلهجة أكثر خطورة من الأولى:

ـ لقد استطعت البارحة أن أتحدث عرضا بكلمتين مع كاترين ايفانوفنا . لقد فهمت منهما أنها في حالة غير طبيعية ـ اذا جاز لي استعمال هذا التعبير .

قالت سونيا تؤيد قوله بشدة :

ـ نعم ... غير طبيعية .

ـ أو اذا شئنا التحدث ببساطة أكثر وبايضاح أكثر: حالة مرضية!

ـ نعم ، اذا شئنا التحدث بشكل أكثر بساطة وأكثر ايـ ... ، نعم انها مريضة .

ـ هكذا . اذن ، فقد هزتني العاطفة الانسانية و ... و ... الشفقة اذا جاز القول ، فأردت من جانبي أن أكون ذا نفع لها بعد أن تصورت المصير التعس المؤلم الذي ينتظرها بلا شك . يبدو أن الاسرة كلها الآن تعتمد عليك وحدك .

قالت سونيا فجأة ، وهي تنهض واقفة :

ـ اسمح لي بأن أسألك سؤالا . هل حدثتها البارحة عن امكانية الحصول على مرتب ثابت ؟ لقد قالت لي البارحة انك ستتخذ التدابير اللازمة لتسهل لها الحصول على جعالة . فهل هذا صحيح ؟

ـ أبدا بل ان هذا القول لون من الاستحالة . لقد ألمحت الى امكانية حصولها على مساعدة مؤقتة تدفع اليها بوصفها أرملة موظف كان في الخدمة وذلك كله استعانة بالنقود والوساطات ، ولكنني أعتقد أن أباك ليس فقط لم يمض المدة المحدودة في الخدمة ، بل انه لم يكن كذلك موظفا لما توفي . وبكلمة واحدة ، يمكن [illegible] صغير ، لكنه أمل غير محقق . لأنه في الحقيقة ليس هناك حق في المساعدة على الاطلاق بل على العكس ... وهي التي كانت تفكر في جعالة ... ها ها ! ان السيدة تسرع جدا في بلوغ النتائج !

قالت سونيا ، وهي تنهض مجددا محاولة الخروج :

ـ نعم ، لقد كان الامر متعلقا بجعالة ... لأنها امرأة طيبة تصدقه بسرعة ، وانها بسبب هذه الطيبة التي تملأ قلبها تميل بسرعة الى تصديق ... و ... ثم ان هذا في طبعها . نعم ... اعذرني ...

ــ اسمعي لي ، انك لم تسمعي بعد كل الأمر •

نمتمت سونيا :

ــ كلا ، انني لم أسمع كل شيء •

ــ فلتجلسي اذن !

جلست سونيا للمرة الثالثة وهي شديدة الخجل •

ــ عندما فهمت مركزها مع طفليها الصغيرين ، أردت ــ كما قلت لك ــ أن أكون ذا نفع لها ضمن حدود امكانياتي ليس أكثر • نستطيع مثلا أن ننظم لمصلحتها اكتتابا أو « يانصيبا » أو أي شيء من هذا القبيل • ان مثل هذه التدابير تتخذ عادة بين الاقرباء بل وبين الاشخاص الغرباء الذين يرغبون في مساعدة شخص ما • لقد أردت أن أتحدث معك بصدد هذا الموضوع • ان القضية ممكنة •

تمتمت سونيا ، وهي تحدج بيير بيتروفيتش بشدة :

ــ نعم ، سيكون ذلك مفيدا ••• ان الله من أجل هذا سوف •••

ــ نعم ، سنستطيع تنظيم ذلك • لكننا سنعود الى بحث هذا الموضوع فيما بعد ••• أقصد أننا نستطيع أن نبدأ اليوم • لسوف نلتقي هذا المساء وسنتفق و ــ كما يقال ــ سنضع الحجر الاساسي • تعالي لمقابلتي مساء اليوم في الساعة السابعة • انني آمل أن يحضر أندريه سيميونوفيتش حديثنا أيضا ••• لكن ••• هناك مسألة أريد أن أنوه بها سلفا وقبل كل شيء ، ومن أجل هذه المسألة سمحت لنفسي بأن أزعجك ، يا صوفي سيميونوفنا ، باستقدامك الى هنا • ان من رأيي أن لا يسلم المال الى كاترين ايفانوفنا بالذات ، بل ان تسليمه اليها خطر تماما • وليس طعام اليوم غير شاهد ودليل على صحة قولي • فهي ــ رغم أنها لا تمتلك لقمة تمضغها غدا بأسنانها ، ولا زوجا من الجوارب تضعه في قدميها ــ قد اشترت شراب الروم والجماييك بل انها ــ على ما

أظن ـ اشترت نبيذ مادیرا وقهوة • لقد شاهدت ذلك وأنا أخطر مثل هناك • وغدا ستجدين نفسك ملزمة باحتمال كل شيء حتى تقـديم خبزهم اليومي ! هيا ، ان هذا شاذ ! وعلى هذا فان الاكتتاب ينبغي أن يتم بشكل يجعل الأرملة التاعسة لا ترى لون النقود ، بل تكونين أنت القيمة على المال • فهل هذا موافق ؟

ـ لست أدري • انها اليوم فقط تسير على هذا الشـكل من الاتفاق • ان ذلك لا يحدث الا مرة واحدة في العمر • انها تـود من صميم قلبها أن تمجد ذكر المرحوم وترفع من شأنه ••• انها شديدة الذكاء • على العموم ، اعمل ما يروق لك • سأكون ممنونة جدا جدا •• بل سيكونون جميعا ••• والله ••• وكذلك الأيتام •

لم تستطع سونيا اتمام حديثها بل انخرطت في البكاء •

ـ فكري تماما في كل ما قـلته لـك • والآن أرجو ـ ونحـن بالانتظار ـ أن تتفضلي بقبول هذا المبلغ الذي يمثـل مسـاهمتي في الاكتتاب المنشود ، لحساب والدتك • انني أرغب بشـدة في ألا يذكر اسمي في هذه المناسبة : هناك ••• انني شخصيا لا أخلو من مشاغـل مادية تجعلني عاجزا عن المساهمة بأكثر من هذا ! •

ومد يده اليها بورقة من ذات العشرة روبلات عني باظهارها على أحسن ما تسمح به مقاييسها ، فأخذتها سونيا وهي محمرة الوجه خجلا ثم نهضت باندفاع وهي تتمتم بكلمـات غـير مفهومة وبـادرت الى الانسحاب • خرجت من الغرفة وهي شديدة الانفعال منهوكة تقريبـا ، وعادت الى حيث كاترين ايفانوفنا وهي فريسة اضطراب خارق •

كان أندريه سيميونوفيتش صامتا خلال هذا المشهد كله ، فلم يتدخل في الحديث بل كان يتنقل بين النافذة وركن الغرفة الآخر • فلما

خرجت سونيا اقترب فجأة من بيتروفيتش وهو يمد له يده بحركة اعتيادية :

ــ لقد سمعت كل شيء وشاهدت كل شيء (وضغط بصورة خاصة على هذه الكلمة) . انه نبل ، أريد أن أقول انها انسانية منك ! لقد أردت أن تتحاشى الاعتراف بجميلك ، لقد شهدت ذلك ! وعلى الرغم من أنني ــ وأعترف بذلك ــ مخالفا لمبدأ الاحسان الشخصي الذي لا يستأصل المصيبة نهائيا بل يتعهدها الى حين ، فانني لا أستطيع رغم ذلك الا أن أعترف بأنني نظرت الى تصرفك هذا بسرور . نعم ، نعم ، لقد سرني ذلك .

غمغم بيير بيتروفيتش ، وهو ينظر بشيء من الحذر الى ليبيزياتنيكوف :

ــ آه ! ان هذا تافه !

هتف أندريه سيميونوفيتش الباسل ، وهو يشعر باحترام متين حيال بيير بيتروفيتش :

ــ كلا ، انه ليس تافها ! ان رجلا جرح في كرامته ــ كما كانت حالك أمس أثر تلك الاهانة ــ ثم يهتم بآلام سواه ... ان رجلا كهذا جدير بالاحترام رغم ارتكابه خطأ اجتماعيا بهذا التصرف . لم أكن أنتظر ذلك منك ، يا بيير بيتروفيتش ، خصوصا وأنا الذي درست أسلوبك ووجهة نظرك في الحياة ! آه ! كم تزعجك تلك الاساليب ! خذ مثلا ، مبلغ حزنك من أجل مسألة البارحة ! لست أدري لم تتعلق بهذا الزواج هذا التعلق ، وبتلك الرابطة المشروعة ، يا بيير بيتروفيتش شديد الاحترام واللطف . ماذا تهمك تلك « المشروعية » ؟ ؟ ؟ هيا ... اضربني اذا شئت ، لكنني سعيد تماما اذ أفكر بأن هذا الأمر لم يتم ،

وبأنك حر لم تمت بعد تماما ولم تدفن في سبيل الجنس البشري.. أنت ترى بأنني حدثتك بما في نفسي !

أجاب لوجين محاولا الافصاح عن فكرته ، وهو ساهم قلق :

ـ اذا كنت أستجبك بالزواج فذلك لأنني لا أريد أن أحمل « قرونا » في علاقاتكم الحرة ولا أبغي تربية أبناء غيري ...

صخب أندريه سيميونوفيتش كالحصان المدرب تدريبا عسكريا حينما يسمع قرع الطبول :

ـ الاولاد ؟ هل يصير الموت الى الاولاد ؟ ان الاولاد هم ـ كما أوافقك ـ مسألة اجتماعية ذات أهمية قصوى ، لكن مسألة الأولاد ينبغي أن تسوى بشكل آخر . ان بعضهم يمضي في اندفاعه الى درجة انكار الاولاد ، بل وانكار كل تلميح عن الاسرة . سوف تتحدث عن الأولاد فيما بعد . أما الان فلنهتم بقضية « القرون » ! انني أعترف لك بأن هذه هي نقطة الضعف عندي . هذا يا سيدي تعبير بذيء ، تعبير مبتذل ، عزيز على بوشكين ؟ لكن قاموس المستقبل سوف ينبذه ويقصيه ! ما هي اذن هذه « القرون » ؟ يا لها من مغالطة سمجة ! أية قرون ؟ ان كل هذا لا معنى له ! لكن يكون مثله في الارتباط الحر ! ان القرون هي النتيجة الطبيعية للزواج ، انها ـ كما يجوز القول ـ الملين أو الملطف ، أو انها حجة مقامة ، تجعل وجهة النظر هذه خالية من كل ما يهين ... واذا حدث أبدا ـ وهو افتراض مستحيل ـ أن اضطررت الى الزواج بالتقاليد الصحيحة ، فانني سأكون شخصيا مرحبا بحملها ، تلك القرون المخيفة ! سأقول لزوجتي : « حتى الآن يا عزيزتي لم أنقطع عن حبك ، أما اليوم فانني أميل اليك لأنك عرفت كيف ترفعي احتجاجا !.. » أتضحك ؟ ذلك لأنك أضعف من أن تستطيع الانقطاع عن التقاليد البالية ! ليحملني الشيطان! أنا أفهم لون التعاسة التي تكون

عندما يخدع المرء في زواج شرعي ، لكنه ليس الا النتيجة الحقيرة لتصرف مشين لكلا الجانبين • وعندما تكون القرون مشرعة بشكل صريح ، كما يحدث في المجتمع الحر ، فانها لن تبقى في الوجود ، لن يشعر بها أحد ، وعندئذ ستفقد تسميتها : القرون ! بل ان زوجتك على العكس ستريك فقط مبلغ ميلها اليك عندما تؤمن بأنك عاجز عن التصدي لهنائها ومتقدم تقدما كافيا يجعلك لا تنتقم من علاقاتها مع زوجها الجديد • ليحملني الشيطان ، انني أفكر أحيانا في أنني لو تزوجت (بشكل حر أو بشكل مشروع ، سيان عندي) لوجدت في نفسي الاستعداد لادخال عشيق زوجتي الى مخدعها بنفسي اذا تأخرت هي عن ايجاد مثل ذلك العشيق ! كنت سأقول لها: يا عزيزتي، انني أحبك وأريد فوق ذلك أن تقدريني ، بل وانني « أصرُّ على ذلك ! » • ألست على صواب ؟••

ضحك بيير بيتروفيتش بشيء من الفتور • فقد كان يصغي بأذن ساهمة الى ذلك الخطاب • كان يبدو مشغولا بشيء آخر حتى أن ليبزياتنيكوف نفسه لم يلبث أن خمن ذلك • كان بيير بيتروفيتش في حالة اضطراب ، فقد كان يفرك يديه ويفكر باستغراق •

لقد تذكر أندريه سيميونوفيتش كل هذه الملاحظات فيما بعد ، عندما فكر في الموضوع ••

٢

من الصعب تحديد الاسباب التي خلفت في عقـــل كاترين ايفانوفنا المشوش تلك الفكرة الغريبة المتعلقة بالطعام الذي أعدته • لقد اضطرت من أجله الى انفـاق أكثر من عشرة روبـلات من أصل العشرين التي منحها اياها راسكولنيكوف للانفاق على تكاليف المأتم والدفن • لعـل كاترين ايفانوفنا كانت تحسب أنها مرغمـة ــ حيال المرحوم ــ عـلى تمجيد ذكره « كما ينبغي » ، كي يعرف المستأجرون وعلى الاخص أميلي ايفانوفنا بأنه لم يكن أقل شأنا منهم ، بل ليعرفوا بأنه كان أرفع شأنـا منهم وأن أيا منهم لا يحق له أن « يحوقل » كلما فكر فيـه أو أن يقلب شفتيه ازدراء • لعلها أيضا استسلمت « لكبرياء الفقراء » التي تدفـع كثيرا من التعساء ــ في مناسبات معينة يصعب التخلص منها ــ الى بذل كل قواهم وانفاق آخر فلس معهم كي يظهروا في مظهر الآخرين • لذلك فانه ينتظر جدا أن تكون كاترين ايفانوفنا قد أرادت ــ في تلك المناسبة حيث بدا وكأن الناس كلهم انفضوا من حولهـا ــ ان تثبت لأولئـك « المستأجرين المشردين » بأنها لم تكن « تعرف معنى الحيـاة وتحسن الاستقبال » فحسب ، بل أنها كذلك قد نشأت وخلقت من أجـل لون آخر من الحياة وفي « بيت عريق بل وارستقراطي بمنزل زعيم » أيضا ، وأنها لم تكن مهيأة أبدا لكنس الارض و[illegible]

ان مثل تلك النفحات من العظمة والغرور تصيب. أحيانا أكثر الناس حتى أنه ليندر أن تنقلب تلك النفحات في بعض الاحيان الى نوع مـن الاحتياج الصحيح الذي لا يمكن كبته والصمود لاغرائـــه • غير أن كاترين ايفانوفنا لم تكن تسمح لنفسها أن تتهدم • كان يمكن أن تخدع

أحيانا خداعا قويا ، لكنها لم تكن تتقبل مطلقا أن تنهار معنويا • وعلى ذلك فان رأي سونيا لم يكن قائما على أساس متين عندما صرحت بـأن عقل أمها كان مضطربا مختلا لأنه ـ في الحقيقة ـ لم يكن أمرا واقعـا ايجابيا بل انه منذ بعض الوقت ـ عام على الارجح ـ تعرض عقلهـا المسكين لعدد من التجارب القاسية والمحن يصعب بعدها النجاة منهـا دون خسارة • وكان السل التي ينخر رئتيها ـ على ادعاء الاطبـاء ـ يسهل كثيرا اختلال القوى الفكرية •

كانت الانبذة لا كثيرة ولا متعددة الاصناف ، ولم يكن هناك نبيـذ ماديرا ، لقد كان ذلك القول مبالغا فيه • كان على المائدة نبيـذ وعرق وروم وبورتو ، من أنواع رديئة جـدا ولكن بكمية متوفرة ، وكان الطعام يتألف ـ الى جانب حلوى الأرز التقليدية ـ من نوعين أو ثلاثة أنواع أخرى ، بينها « الفطائر » ، وكانت تلك الاطعمة قد جهزت كلهـا وطهيت في مطبخ أميلي ايفانوفنا، أضف الى ذلك سماوران أعدا لأولئك الذين يرغبون في شرب الشاي أو « التنشيفة » بعـد الطعـام • كانت كاترين ايفانوفنا قد اهتمت بنفسها بشراء لوازمها يساعدهـا صعلوك بولوني كان يقطن ـ والله أعلم بالسبب ـ لـدى السيد ليبيويشسل ، وضع نفسه للوهلة الاولى تحت تصرفها وراح طيـلة يوم أمس وصباح اليوم التالي يجري في كل مكان ينقل الخبر حتى ليقال انه كان يعمـل على جذب انتباه خاص الى هذه المناسبة الأخيرة • كان في كل لحظة ـ ولأتفه الاسباب ـ يندفع قرب كاترين ايفانوفنا بل ويتبعها حتى السوق ويكثر انحناءاته واظهار اعتباره حتى أنهكها وبرمت به كما لم تبرم بأحد من قبل الا نادرا ، رغم أنها صرحت بادىء الأمر أنها لولا ذلك الرجل الصدوق الشهم لتاهت في أمر نفسها •

كان من عقليـة كاترين ايفانوفنـا أن ترسم لنفسها صورة أول من

تصادفه بأزهى الالوان وأبدعها ، وأن تغطيه بالمديح الى درجة تجعله مرتبكا خجلا من نفسه ، وأن تضفي عليه من المزايا التي ليست موجودة في شخصه ثم تؤمن ــ أول الناس ــ بتلك الصورة التي رسمتها ايمانا مخلصا . غير أن كل هـذا لم يكن يمنعها مـن أن تمقت ذلك الشخص فجأة ، وأن تشتم ذلك الذي غمرته منذ ساعـات بالورود ، وأن تلقي به الى الباب ! لقد حبتها الطبيعة عقلية هادئة أنيسة ومتفائلة . لكن كثرة المصائب وتكرار الاخفاق الذي منيت به جعلتها ترغب بخشونة بل «تتطلب» أن يعيش كل الناس في سلام وسرور ، وأن لا يتقبل أي كان العيش على غير هـذا النمط حتى أن أي شذوذ مهما بلغت تفاهته أو أي اخفاق كان يخرجها عن طورها فورا ، وينتشلها بعنف من لحظاتها السعيدة التي تهدهد خلالها في نفسها أعذب الامنيات والآمال ، وألمع التخيلات والاوهام ، مستسلمة لمصيرها ، فتقذف حولها بكل ما يصل الى يدها بل تضرب الجدار برأسها .

اكتسبت أميلي ايفانوفنا ــ هي الاخرى ــ اعتبارا خارقا في عيني كاترين ايفانوفنا ، وراح تقديرها لها يتعاظم فجأة ولعله بسبب اقامة تلك الوليمة التي تطوعت اميلي ايفانوفنا بملء رضاها للمساهمة في اعداد اللوازم والاستعدادات الاولية لها : فقد تعهدت بترتيب المائدة ، وتقديم الاغطية اللازمة والاواني الخ ... وأن تطهي الطعام على موقدها . فلما ذهبت كاترين ايفانوفنا الى المدفن ، خولتها كل السلطات وتركتها تتصرف على هواها . وقد أجادت اميلي ايفانوفنا في تنفيذ مهمتها : فالمائدة كانت معدة بنظافة كافية ، والاطباق والملاعق والسكاكين والاقداح الكبيرة والصغيرة الخ ... كلها كانت ــ رغم تباين أنواعها وأشكالها نظرا لانها استحضرت من لدن عديد مـن المستأجرين ــ في الساعة المعينة في أماكنها على المائدة . لذلك كانت اميلي ايفانوفنا ــ

وهي التي كانت واثقة من اجادتها مهمتها اجادةً مرموقة ـ تستقبـل المدعوين العائدين من المدفن بشيء من العظمة ، وقد استعدت لذلك الاستقبال فارتدت ثوبا أسود تدلت عليه شرائط جديدة كانت ملفوفة على الغطاء الرقيق الذي حجبت به شعرها بعد أن أعدته اعدادا مبالغا فيه • ولقد استاءت كاترين ايفانوفنا من تلك الكبرياء ـ رغم أنها في محلها ـ لسبب أو لآخر : « لعلها تظن أننا ما كنا نستطيع اعداد المائدة لولا اميلي ايفانوفنا ! » كذلك كان غطاء رأسها الجديد كل الجدة ذو الشرائط المتدلية على ثوبها يزعج كاترين ايفانوفنا ولا يعجبها: « لعلها ستعمل على ابداء ترددها ، تلك الالمانية الحمقاء ! هي ـ السيدة ـ تلطفت وتنازلت لمساعدة مستأجرين فقراء ! لمجرد الاشفاق ! هل ترى هذا عند أبي كاترين ايفانوفنا الذي كان زعيما وحاكما تقريبا كانت تقام حفلات لأربعين شخصا أحيانا ، حتى أن واحدة كأميلي ايفانوفنا ، أو على الأصح لودويكوفنا ، ما كانت لتقبل حتى في المطبخ !••• » غير أن كاترين ايفانوفنا قررت عدم ابداء شعورها في الحال ، رغم انها كانت مقررة في نفسها بأن تعاد اميلي ايفانوفنا اليوم بالذات الى موضعها ، والا فان الله وحده يعلم ماذا ستتخيل بعد ذلك ! على هذا فان كاترين ايفانوفنا استنادا الى قوة هذه الفكرة اكتفت باظهار برودها مؤقتا •

كذلك فقد ساهمت مناسبة مزعجة أخرى في استفزاز استيائها : ذلك أن من بين كل المستأجرين المدعوين الى المائدة لم يحضر أحد ـ تقريبا ـ عند تشييع الجثمان • باستثناء البولوني الذي استطاع أن يواكب الجثمان حتى المقبرة ، وفي المقابل ـ عندما أصبح الأمر متعلقا بالطعام

ـ لم يتخلف أشدهم فقرا وأكثرهم تفاهة عن الحضور ! بل ان بعضهم جاء بألبسة غير مناسبة أبدا وبالاختصار كان الحاضرون « عديمي الأهمية » • أما المستأجرون الارفع مقاما ، أولئك المتفوقون ، فكأنهم تعاهدوا بينهم على عدم الحضور • مثلا : أن بيير بيتروفيتش لوجين الذي يمكن اعتباره أكثر المرموقين في البناء كله ، لم يحضر رغم أن مساء البارحة فقط كانت كاترين ايفانوفنا تذيع في كل مكان وأمام كل الناس ـ أي أمام اميلي ايفانوفنا وبوليا وسونيا والبولوني ـ أنه رجل نبيل جدا من أكثر الرجال شهامة ، كثير العلاقات مع المتنفذين وشديد الغنى ، وأنه بوصفه صديق زوجها الأول وفي عداد الذين كانوا يستقبلون في منزل أبيها من قبل ، فقد وعد بالعمل فورا لتأمين مرتب هام لها • ويجدر الذكر بهذه المناسبة أن كاترين ايفانوفنا كانت عندما تتبجح بشيء ما ، سواء أكان بصدد علاقات أو ثروة ، فانها كانت تفعل ذلك دون أي مقصد أو غاية شخصية • بل لمجرد فيض السخاء ـ اذا صح هذا القول ، أو لمجرد الرغبة في الامتداح واعطاء قيمة أعلى لموضوع امتداحها ! وجاء في المرتبة الثانية بعد بيير بيتروفيتش ، « تبعا لتصرفه » ، ذلك الخليع المنحط ليبيزياتنيكوف الذي لم يحضر كذلك ! ماذا يفكر هذا في نفسه ؟ انه لم يدع الا على سبيل الاحسان ، مما جعل دعوته أمرا الزاميا • كذلك لم تحضر سيدة عصرية وابنتها ولأنه وبيير بيتروفيتش كانا يقطنان في غرفة واحدة ، وهما متعارفان كانتا تعطفان منذ خمسة عشر يوما لدى أميلي ايفانوفنا ، دعتهما ، رغم أنهما خلال تلك المدة القصيرة أبدتا عددا من الملاحظات بخصوص الضوضاء والصخب والصيحات التي تنبعث من غرفة آل مارميلادوف • لا شك أن تلك الملاحظات بلغت مسامع كاترين ايفانوفنا خلال المشاجرة التي وقعت بينها وبين صاحبة المسكن في المدة الأخيرة ، تلك المشاجرة التي هددتها صاحبة المسكن خلالها بطردها مع كل أفراد الاسرة ، وهي

تزمجر بأعلى صوتها بأنها تزعج « المستأجرين ذوي الحيثية وهي لا تصل الى مرتبة أقدامهم » • لذلك قررت كاترين ايفانوفنا دعوة تلك السيدة وابنتها اللتين قيل لها « انها لا تصل الى مرتبة أقدامهما » ، خصوصا وأنهما كانتا كلما التقتا بها صدفة ، أشاحتا بوجههما عنها بشيء من الاحتقار • لسوف تجعلهما تعرفان « أن النبل يتسامى هنا الى درجة نسيان السباب والاساءات » ، وستعرفان بأن كاترين ايفانوفنا لم تكن قط مفطورة على هذا اللون من الحياة • كانت مصممة على ايضاح ذلك لهما على المائدة والتحدث اليهما عن « البابا » الحاكم ، بل انها ستجد في تلك المناسبة مجالا لتهمس لهما بأنه لا مجال للاشاحة بوجههما عنها اذا التقتا بها ، وأن ذلك ليس الا حماقة •

كذلك تخلف نائب زعيم ضخم (وهو لم يكن الا رئيسا بسيطا متقاعدا) بسبب سقوطه هو الآخر وتحطم ذراعه منذ أمس • والخلاصة أن الذين حضروا هم : البولوني وموظف هزيل ، ملتهب الوجه بمرض جلدي ، صموت كالشبوط ، مرتد « فراكا » قذرا تنبعث منه رائحة مزعجة كريهة ، ثم عجوز صغير الحجم أصم وأقرب الى العمى ، كان موظفا سابقا في مصلحة البريد • وكان بعضهم يدفع ـ دون أن يعرف السبب على الضبط ـ أجرة سكنه الى أميلي ايفانوفنا منذ وقت قديم • وقد حضر بعد ذلك ضابط متقاعد ، من ضباط مصلحة المؤن في الجيش كان يقهقه بشكل يتنافى تماما مع قواعد الحشمة والادب ، وكان « وتصوروا هذا » دون صدارة !

ومضى شخص مباشرة الى المائدة دون أن يحيي كاترين ايفانوفنا ، ثم جاء آخر بمعطف منزلي لأنه لا يمتلك ثيابا يرتديها • لكن دخوله على ذلك الشكل جعل كاترين ايفانوفنا تنفجر من الغضب ، فكان أن

استطاع البولوني بالاستعانة بجهود أميلي ايفانوفنا اخراجه على شكل ما من الغرفة • علاوة على ذلك فان البولوني كان قد أحضر معه زميلين له من مواطنيه لم يكونا قد قطنا من قبل في تلك الدار ، ولم يكن أحد من المستأجرين يعرفهما •

كل هذه المضاعفات والاسباب جعلت كاترين ايفانوفنا تبدو مستاءة أشد الاستياء • «اذن فقد قمنا بكل هذه الاستعدادات من أجل هؤلاء !» كانت قد أعدت للاولاد مائدتهم في احدى الزوايا على صندوق وأجلستهم على مقعد من الخشب سعيا وراء الاحتفاظ بأكبر عدد ممكن من الاماكن حول المائدة التي كانت تشغل أكبر مساحة في الغرفة • وكانت بوليـاء وهي الفتاة البكر ، مكلفة بالعناية بأختها وأخيها الاصغر ، تطعمهمـا وتمسح لهما أنفهما «كما تمسح أنوف أولاد الاسر المحترمة» • خلاصة القول ، ان كاترين ايفانوفنا كانت تستقبل هؤلاء الضيـوف بوقـار مترفع ، بل وباستخفاف لم يكن لها يد في اظهارهما • وألقت على بعضهم وهي تدعوهم الى المائدة نظرة قاسية بشكل خاص ••• قدرت في نفسها أن اميلي ايفانوفنا هي المسؤولـة ـ لسبـب أو لآخـر ـ عن تخلف المدعوتين الممتازتين ، لذلك اتخذت حيالها موقفا وقحا لاحظته هذه فورا وتأثرت منه شديد التأثر • وأخيرا انتظم المدعوون حول المائدة •

دخل راسكولنيكوف في اللحظة التي عاد فيها القـوم من المدفن فانشرحت كاترين ايفانوفنا لمجيئه ورؤيته • أولا لأنه كان المثقف الوحيد بين كل المدعوين « الذي ـ كما يعرف كل الناس ـ سيحتل بعد عامين مركز أستاذ بكرسي في الجامعة في بطرسبورغ » ، وثانيا لأنه اعتذر بكل احترام فور وصوله عن عدم استطاعته ـ رغم عظيم رغبته ـ أن يشهد المأتم • فلم تنفصل عنه طيلة الوقت وأجلسته الى يمينها (وكانت اميلي ايفانوفنا جالسة الى يسارها) وراحت ـ رغم الاحتياطات المتتابعة التي بذلتها صاحبة الدار ، ورغم السعال المخيف الـذي كـان يقاطعها

والذي بدا منذ يومين أكثر خطورة عن ذي قبل ـ توجه الحديث اليه وحده وتبثه ـ نصف هامسة ـ كل ما كان يعتلج في قلبها مفضية اليه بسخطها المحق الذي كانت تشعر به بسبب هذا الحفل الفاشل • وكان غيظها ينقلب غالبا الى ضحكة مرحة كانت تعجز عن قمعها على حساب مدعويها وعلى الأخص صاحبة الدار نفسها •

ـ كل ذلك ناتج عن غلطة هذه المكروهة • هل تفهم عمن أتحدث؟ انها هي ••• هذه !

وراحت كاترين ايفانوفنا تشير برأسها الى صاحبة المسكن •

ـ أنظر هذا • انها تحملق بعينيها ، انها تشعر بأننا نتحدث عنها ، لكنها لا تستطيع الفهم وتكاد عيناها أن تخرجا من رأسها ! هوه ! بومه حقيقية ! ها ها ها ، هي هي هي ! ثم ماذا تريد أن تثبت لنا بهذا اللباس؟ هي هي هي ! هل لاحظت ! انها تريد ايهام الجميع بأنها تضعني تحت حمايتها وأنها تغمرني بالشرف اذ تجلس الى مائدتي • لقد رجوتها ـ باعتبارها شخصية مناسبة ـ أن تدعو أناسا « كما يجب »، وبصورة خاصة أولئك الذين عرفوا المرحوم • فانظروا ماذا جمعت لي : أشخاصا مشوهي الخلقة وبعض الخدم ! أنظروا الى هذا القذر ••• حقيقة انهم حثالة من الحيوانات ذوات قدمين ! وهذان البولونيان القذران ••• ها ، ها ، ها ، هي ، هي ، ان أحدا لم يرهما من قبل هنا ، وأنا لا أعرفهما لا من آدم ولا من حواء ! لماذا حضرا ، انني أسألك ؟ انهما جالسان بكل جلال الواحد الى جانب الآخر •••

هتفت فجأة تخاطب أحدهما :

ـ اه ! هل تناولت فطائرا ؟ خذ منها ! اشرب جعة ؟ جعة ! هل تريد قدحا من العرق ؟

وعادت تحدث راسكولنيكوف :

ـ أنظر ، لقد نهض وحيا ، أنظر ، آنظر ! انهما على ما يبدو جائعان أشد الجوع ، الشيطانان المسكينان ! هنا لنأكلا ! انهمـا على الأقل لا يصخبان ... لكنني والحق يقال خائفة على الأطبـاق الفضية العائدة لصاحبه المسكن !

هتفت بصوت مرتفع قليلا متحدثه الى صاحبة المسكن :

ـ اميلي ايفانوفنا ، انني أنذرك سلفا أنه اذا فقدت ملاعقك فانني لن أكون مسؤولة ! ها ! ها ! ها !

وهنا ، استولى عليها ضحك جنوني وراحت تحدث راسكولنيكوف وهي تشير برأسها الى صاحبة المسكن :

ـ انها لم تفهم ، انها لم تفهمني هذه المرة أيضا ! انها واقفة هكذا « ومنقارها » مفتوح تدحرج عينيها: انها بومة حقيقية! بتلك «الشوشة» من الاشرطة الجديدة ، ها ! ها ! ها !

لكن تلك الضحكة انقلبت الى سعـال عنيف فظيـع دام خمس دقائق ، وتلوث منديلها بالدم ، بينما تلألأت حبـات من العرق عـلى جبينها . عرضت لطخة الدم على راسكولنيكوف بصمت وهمست له وهي تتنفس بصعوبة فريسة اضطراب خارق عنيف ، وقـد اصطبـغ خداها بلون قرمزي :

ـ كما ترى ، لقد عهدت اليها بأدق مهمة ـ اذا جاز هذا القول ـ وهي دعوه السيدة وابنتها . انك تدري عمن أتكـلم . كـان يجب أن تتذرع في مثل هذه المناسبة بلباقة شديدة وبفن ومهارة . لكنها تصرفت بشكل جعل تلك الغريبة الحمقاء ، تلك المخلوقة ، تـلك القروية ... لأنها في الواقع ليست الا أرملة ضابط جاءت الى هنا تلتمس جرايـة ، وتكنس الردهات بذيل ثوبها ، بأنها رغم سنواتها الخمس والخمسيـن تصبغ وجهها وتتبرج (والناس يعرفون) ... ان هذه المخلوقة ليس

فقط لم تتفضل بالمجيء ، بل انها كذلك لم ترسل حتى ولا كلمة اعتذار كما تتطلب ذلك قواعد الأدب المبدئية • ثم انني لا أستطيع أن أفهم كذلم لِمَ لم يحضر بيير بيتروفيتش ؟ لكن أين سونيا ؟ الى أين ذهبت ؟ آه ! ها هي ذي أخيرا : أين كنت ، يا سونيا ؟ من الغريب ألا تحضري في الوقت المعين في يوم دفن أبيك ! يا روديون رومانوفيتش ، دعها تجلس الى جانبك • هذا هو مكانك يا سونيا • تناولي ما تشائين من الطعام • خذي من السمك المجمد • انه خير الأصناف الموجودة • لسوف نأتي لك بالفطائر • هل أطعمَ الأولاد ؟ بوليا ! هل تناولت كل شيء ؟ هي ، هي ، هي ! هيا هذا أحسن • كوني عاقلة يا لينا ، وأنت يا كوليا لا تحرك ساقيك هكذا • ابق جالسا كطفل صغير من عائلة طيبة • ماذا تقولين ، يا سونيا ؟

بادرت سونيا فورا بنقل اعتذارات بيير بيتروفيتش الى كاترين ايفانوفنا وهي تجهد في رفع صوتها كي يسمع المدعوون ، وكانت تتكلم بعبارات منتقاة ، تلك التي كان بيير بيتروفيتش يصوغها ويستعملها بل وزادت عليها بعض الشيء • أضافت أن بيير بيتروفيتش رجاها بحرارة أن تقول لها بأنه سيحضر حالما يتاح له ذلك ليتحدث اليها على انفراد حديث أعمال ، وليتفاهم معها على الاسلوب الواجب اتباعه بعد ذلك•

كانت سونيا تعرف أن هذا الكلام يطمئن كاترين ايفانوفنا ويرضي غرورها، خصوصا أن كرامتها المتطرفة ستجد فيه عزاء ورضى• جلست قرب راسكولنيكوف بعد أن حيته بعجلة وهي تلقي عليه نظرة سريعة متفحصة • غير أنها كانت تبدو طيلة الوقت وكأنها تتحاشى النظر اليه أو التحدث معه ، بل بدت أيضا ساهمة شاردة الفكر رغم أنها كانت تحدق بعينيها في كاترين ايفانوفنا محاولة التنبؤ برغباتها والاستجابة لها • ولم تكن سونيا ولا كاترين ايفانوفنا مرتديتين ثياب الحداد

لافتقارهما اليها ، فكانت ترتدي ثوبا رماديا داكنا بينما كانت كاترين ايفانوفنا مرتدية ثوبا من القماش الهندي ذا أقلام بلون داكن أيضا وهو الثوب الوحيد الذي تمتلكه . ولما أبلغت اعتــذارات بيير بيتروفيتش بدت شديدة الاغتباط وراحت ــ بعد أن أصغت الى حــديث سونيــا باهتمام ــ تسأل بلهجة خطيرة عن صحــة بيير بيتروفيش ، وبعدئذ عادت تهمس الى راسكولنيكوف بصوت مرتفع قليلا أنه من الغرابه في مكان أن يندمج رجل يعتبر ذو مركز ممتاز مثــل بيــير بيتروفيتش في « عصبة شاذة كهذه » ، مهما بلغ من تفانيه نحو الأسرة ، ورغم روابط الصداقة التي كانت تربطه بأبيها . وأضافت بصوت مرتفع تقريبا :

ــ ومن أجل ذلك فانني ممتنة لك بصورة خاصة ، يا روديون رومانوفيتش ، لأنك لم تعزف عن ضيافتي والحضور الى وسط كهذا ! انني مقتنعة الآن بأن صداقتك مع الفقيد المسكين هي وحدهــا التي دفعتك الى التمسك بوعدك .

ثم راحت تسرح طرفها باعتداد واحتقار في المدعوين . وفجــأة رفعت صوتها تستفسر من العجوز الاصم الجالس الى الجانب الآخر من المائدة : « أتريد شواء أيضا ؟ هل قدم اليك البورتو ؟ » . فلم يجــب العجوز القصير ولبث برهة لا يتوصل الى فهم ما يطلب منه ، حتى أن الجالسين بقربه حاولوا تفسير الطلب بغية الضحك ، فنظر حوله فاغرا فاه الأمر الذي جعل الموجودين يغرقون في الضحك .

تابعت كاترين ايفانوفنا مخاطبة راسكولنيكوف :

ــ انظر الى هذه « المخللة » ، أنظر الى هذا ! لماذا جاؤوا به الى هنا ؟... أما فيما يتعلق ببيير بيتروفيتش فانني كنت دائما واثقة منه .

... وصرخت وهي تلتفت الى أميلي ايفانوفنا تسخطهــا بنظرة قاسية جعلتها ترتبك فجأة :

ـ لا شك أنه لا يشبه هاتين المتسكعتين المتبرجتين اللتين ما كانتا لتقبلا عند « بابا » في المطبخ . وما كان الفقيد زوجي ليحترمهما اذا ما استقبلهما بدافع طيبة نفسه العميقة .

هتف فجأة ضابط المؤن القديم الذي كان يبتلع في تلك اللحظة القدح الثاني عشر من أقداح العرق :

ـ نعم ، كان يحب الشراب ، آه ! فيما يتعلق بهذا ، كان يحب معانقة الزجاجة .

أجابت كاترين ايفانوفنا ، وهي تكيل له الصاع صاعا :

ـ ان المرحوم زوجي كان ولا شك مصابا بهذا الضعف ، وكل الناس يعرفون هذا ، لكنه كان رجلا طيبا ونبيلا وكان يحب ويحترم أسرته وكانت خطيئته الوحيدة أنه كان ميالا ـ بسبب طيبة قلبه ـ الى الاختلاط بكل أنواع الخليعين . والله يعلم عدد من شرب معهم من هؤلاء ! تصور ، يا روديون رومانوفيتش ، أنه وجد في جيبه ديك صغير من السكر ! لقد كان يفكر في أطفاله رغم أنه كان في حالة من الثمل قريبة من الموت ! ..

صاح ضابط المؤن :

ـ ديك صغير ؟ أقلت : ديك صغير ؟

لم تتنازل كاترين ايفانوفنا فترد عليه ، بل استغرقت في لون من التفكير . وندت عن صدرها زفرة ثم تابعت تخاطب راسكولنيكوف :

ـ لا شك أنك تعتقد ـ ككل الناس ـ أنني كنت قاسية جدا معه . ان ذلك خطأ ! لقد كان يكرمني ، كان يقدرني تقديرا عميقا ! لقد كان روحا طيبة جدا ! كم كنت أشفق عليه أحيانا ! كثيرا ما وقع له أن ظل جالسا في ركن ينظر الي دون انقطاع فكان ذلك يعذبني ! كنت أتوق الى ملاطفته لكنني كنت أحدث نفسي : « اذا بدوت رقيقة فلسوف

يعود الى الشراب »• لم يكن يمكن كبح جماحه بعض الشيء الا باللجوء الى القسوة •

قال الضابط السابق بصوت أشبه بالخوار ، وهو يكرع قدحا آخر :

ـ نعم ! لشد ما كانت « تدعك شوشته » ! كثيرا ما حدث ذلك•

أجابت كاترين ايفانوفنا بلهجة حاسمه :

ـ ان بعض السخفاء لا يستحقون أن يجذب شعرهم فقط ، بل أن يطردوا بضربات المكانس • وانني طبعا لا أتحدث عن الفقيد في هذه اللحظة •

كانت اللطختان الحمراوان على خديها قد ازدادتا احمرارا وراح صدرها يعلو وينخفض • لم يكن يوقفها عن اثارة شجار في تلك اللحظة الا قليل من التعقل ! راح بعض المدعوين يتضاحكون من هذا المشهد الذي بدا مستملحا مستظرفا بالنسبة اليهم، وراح بعضهم يحرض ضابط المؤن ويهمس في أذنه • كانوا يصبون الزيت على النار بشكل واضح•

شرح الضابط يقول :

ـ هم ! اسه ••• م ••• حي ••• لي أن أسألك عمن تتكلمين ؟ أقصد بخصوص ماذا ••• مجرد استفهام ••• لقد قلت منذ قليل ••• مع ذلك لا بأس ! ان هذا لا يهم ! أرملة ! أرملة فقيرة ! انني أصفح ••• لننس ذلك !

وعاد يفرغ قدحه في جوفه •

كان راسكولنيكوف يصغي بسكون وقد اعتراه شعور بالاشمئزاز • كان يتظاهر بتناول الطعام تأدبا رغم أنه لم يكن قد استهلك شيئا من الاطعمة التي كانت كاترين ايفانوفنا لا تني تملىء طبقه بها : كان يخشى أن يسبب لها صدمة • لبث يحدق في وجه سونيا لكن

هذه كانت تزداد اكتئابا وقلقا • كانت تشعر هي الاخرى بأن المأدبة لن تنتهي بهدوء ، فكانت تراقب بوجل انفعال كاترين ايفانوفنا المتزايد • كانت تعرف أنها كانت ـ بين عدد آخر من الاسباب ـ السبب الرئيسي الذي من أجله استنكفت السيدتان الأجنبيتان عن الحضور ورفضتا بكل احتقار دعوة كاترين ايفانوفنا • فقد سمعت من أميلي ايفانوفنا نفسها أن أم الفتاة اعتبرت تلك الدعوة اهانة لها وأنها طرحت السؤال التالي: «كيف أستطيع أن أدع ابنتي تجلس الى جانب هذه المخلوقة؟»؟ غير أنها كانت تعرف كذلك أن هذه تعتبر الاهانة الموجهة الى سونيا أشد نكرا لو كانت موجهة اليها بالذات أو الى أولادها أو أبيها ، وبالاختصار فان الاهانة الموجهة الى سونيا تعتبر بالنسبة اليها اهانة قاتلة • وكانت سونيا تعرف أن كاترين ايفانوفنا لو عرفت الحقيقة لما هدأت قبل أن : تري تينك المتسكعتين قيمتهما » ، الخ ••• الخ •••

وأوصل بعضهم الى سونيا ـ وكان الأمر مدبرا ـ طبقا كان عليه قلبان تخترقهما نبلة صنعا من لباب الخبز • فغدا وجه كاترين ايفانوفنا أحمر أرجوانيا من الغضب • وأعلنت بصوت مرتفع عبر المائدة أن من فعل ذلك هو : « ثمل كالأتان » •

كانت أميلي ايفانوفنا هي الاخرى تشعر بسوء المنقلب ، وكانت منزعجة انزعاجا عميقا من لهجة كاترين ايفانوفنا المزدرية فراحت فجأة ـ وكأنها تتعمد تلطيف الجو وتخفيف حدة التوتر وتتوخى الظهور أمام المدعوين ـ تقص أن واحدا من معارفها يدعى كارل هو مساعد الصيدلي كان ذاهبا ذات ليلة في احدى العربات ، وكان السائق يريد القضاء عليه • فراح كارل يرجوه جدا جدا أن لا يقتله وكان يبكي ضاماً يديه وكان خائفا • ولشدة رعبه انفجر قلبه ! » فصرخت كاترين ايفانوفنا ـ وهي تبتسم ـ بأن أميلي ايفانوفنا لم ينقصها الذوق لتسرد

حكايات روسية ، فازداد انزعاج هذه وأجابت بأن « أباها الذي في برلين كان رجلا هاما جدا جدا وكان يمشي واضعا يديه في الجيوب ••• » ولم تستطع كاترين ايفانوفنا الساخرة أن تتمالك نفسها فانطلقت بضحكة مجنونة عنيفة جعلت أميلي ايفانوفنا تفقد الصبر وتكاد أن تنفجر •

تمتمت كاترين ايفانوفنا مجددا في شيء من الانشراح :

ـ آه ! يا للدجاجة الهندية ! كانت تريد أن تقول : « يمشي واضعا يديه في جيبيه » ، بينما تجعل المرء يعتقد بأنه كان يضع يديه في جيوب غيره ، هي ! هي ! هي ! هل لاحظت يا روديون رومانوفيتش أن كل الغرباء الذين يعيشون في بطرسبورغ ـ وخصوصا الألمان منهم الذين يتغلغلون عندنا في كل مكان ـ كلهم أكثر سخفا وحماقة منا ! هيا ألا توافق ؟ هل يعبر الانسان عن رأيه بهذا الشكل ؟ أما ذلك الصيدلي ، كارل ، فكيف ترى ذلك الأبله الذي بدلا من أن يوثق السائق : « يضم يديه وينخرط في البكاء » • يا للدجاجة الروسية ! وهي تعتقد أن قصتها مسلية جدا ولا تعتقد لحظة أنها حمقاء ! في رأيي ان هذا الضابط السكير أشد ذكاء منها فهو على الأقل يبدو بوضوح أنه في « كروم الرب » ، وأنه أودع عقله في أعماق كأسه بينما يتصنع الباقون الجد والوقار ••• أنظر اليها كيف تدير عينيها ••• انها تغضب ••• ها ! ها ! ها ! هي ! هي ! هي !

بعد أن أعربت كاترين ايفانوفنا عن ابتهاجها بهذا الشكل انهمكت في تقديم طائفة من التفاصيل ، وأعلنت أخيرا أنها بفضل الجراية التي ستحصل عليها سوف تفتتح مدرسة للبنات في مدينة « ت ••• » حيث مسقط رأسها • ولم تكن حتى تلك اللحظة قد أخبرت راسكولنيكوف بشيء عن هذا المشروع لذلك راحت تصف حياتها المقبلة الجديدة بكثير من الايضاح والتفصيل والتنميق والتزويق •

وفجأة ظهرت في يدها ـ وليس يُعرف كيف ـ تلك الشهادة العتيدة التي كان مارميلادوف المتوفي قد تحدث عنها الى راسكولنيكوف عندما كان يفسر له ، ابان لقائهما في الحانة ، أن امرأته كاترين ايفانوفنا كانت عند تخرجها من المعهد قد رقصت رقصة الشال « بحضور الحاكم وعدد من شخصيات المقاطعة » • وكان « الدبلوم » موضوع البحث يقوم ولا شك مقام شهادة تثبت أن لكاترين ايفانوفنا الحق في افتتاح مدرسة • لكنها ما أبرزته الا بغية افحام تينك المتسكعتين فيما لو قبلتا الدعوة لتثبت لهما بشكل نير أن كاترين ايفانوفنا كانت من عائلة نبيلة ، « بل ويمكن القول أنها أرستقراطية ، ابنة زعيم ، وانها كانت على ذلك تساوي أكثر من الباحثات عن المغامرات اللواتي راح عددهن يزداد زيادة مدهشة في الأيام الأخيرة » •

طافت تلك الشهاده على المدعوين السكارى دون أن تعترض كاترين ايفانوفنا على وقوعها بين أيديهم ، لأنه كان مكتوبا عليها بحروف واضحه أنها كانت حقيقة ابنة مستشار قضائي منعم عليه بوسام ، الأمر الذي يجعلها ابنة زعيم أو شيء من هذا القبيل • وبعد أن أرضت كاترين ايفانوفنا غرورها راحت على الفور تتبسط في تفاصيل الحياة البديعة جدا والهادئة التي ستحياها يوما في مدينة « ت ••• » لسوف تطلب الى أساتذة الثانويات أن يعطوا دروسا في معهدها • انها تعرف هنالك عجوزا محترما يدعى السيد « مانغو » قد علمها من قبل اللغة الفرنسية، وهو يقضي أيامه الأخيرة في مدينة « ت ••• » ولسوف يتفق معها على الأجر ! ثم تحدثت عن سونيا « التي ستذهب هي الأخرى الى ت ••• » مع كاترين ايفانوفنا والتي ستصبح هناك « مساعدة ثمينة » •

فلما بلغت هذا الحد من كلامها سُمع بعضهم من طرف المائدة الاقصى يحاول خنق ضحكة انبعثت من حنجرته • غير أن كاترين

ايفانوفنا تظاهرت بعدم السماع ورفعت صوتها لتعـدد فـورا ميزات صوفي سيميونوفنا التي لا تقدر ولا يتطرق اليها الشك ! وأضافت بأن هذه جديرة بأن تصبح شريكة لها « لأنها هادئة وصبور ومخلصة ولهـا عواطف نبيلة وثقافة جيدة » • ثم راحت تربت عـلى خـدي سونيا ، وعانقتها بحرارة مرتين فاحمر وجه سونيا ! وعندئذ انفجرت الدموع من عيني كاترين ايفانوفنا وراحت تصرح « بأنها نفسها مخلوقة مسكينـة حمقاء ضعيفة الأعصاب » لم تعد تطيق الاحتمال ، وأن الطعام قد انتهى وأن الوقت قد أزف لتقديم الشاي » • وفي تلك اللحظة حاولت أميلي ايفانوفنا ـ التي كانت تبدو شديدة الاستياء لأنها لم تستطع المساهمة في الحديث ولأن أحدا لم يكن يصغي اليها ـ محاولة يائسة وهي تخفي حنقها ، وسمحت لنفسها بأن توجه الى كاترين ايفانوفنا ملاحظة عميقة وصائبة : تتعلق بوجوب انتباه خاص الى ألبسة الفتيات الداخليات في معهدها ، وأنه ينبغي السهر على منع الفتيات الشابات من قراءة الروايات سراً أثناء الليل ، وايجاد سيدة مناسبة لتهتم بألبسة الفتيات الداخلية • غير أن كاترين ايفانوفنا التي كانت متوترة الأعصاب تماما وشـديدة الاعياء الى جانب المضايقات التي كانت تلك الوليمة تحدثها لها ، «أغلقت فم» أميلي ايفانوفنا قائلة لها انها تثرثر بحماقات ـ : لأن العناية بالألبسة الداخلية من اختصاص الخازنة وليس مديرة المعهد • أما قراءة الروايات فان ملاحظة كهذه تكاد أن تمس ناحية اللياقة ورجتهـا أن تصمت • فاحمر وجه أميلي ايفانوفنا من الحنق وأفهمتها بأنها لم تكن تقصد الا الخير ، وانها كانت تريد « كثيرا جدا من الخير » ، وأن أجرة مسكنها لم تدفع اليها منذ زمن بعيد • فأجلستها كاترين ايفانوفنا وقالت بأنها تكذب عندما تدعي بأنها تريد لها الخير ، خصوصا وأنها أمس أيضا ، بينما كان المرحوم لا زال مسجى على الطاولة ، جاءت تزعجها بصـدد الأجر • عندها أفهمتها أميلي ايفانوفنا بكثير من التعمد « بأنها دعت

تينك السيدتين ، لكن تينك السيدتين لم تحضرا لأن تينك السيدتين كانتا سيدتين كما يجب لا تستطيعان المجيء عند سيدة ليست كما يجب» • فبادرت كاترين ايفانوفنا بالمثل « تبرر » بأنها باعتبارها متشردة عديمة الاعتبار فانها لا تملك المؤهلات التي تسمح لها بالحكم على معنى كلمة « ان يكون المرء من عائلة طيبة » • فخرجت أميلي ايفانوفنا عن وقارها وأعلنت على الفور ان « أباها الذي في برلين كان رجلا هاما جدا جدا، وأنه كان يمشي دائما ويداه « الاثنتان » في الجيوب ، وأنه كان يعمل دائما : بوف ! بوف ! » ولكي تعطي صورة حية أكثر دقة عن « أبيها » نهضت أميلي ايفانوفنا وحشرت يديها في جيبيها ونفخت خديها وراحت تخرج من فمها أصواتا واضحة تشبه بوف ! بوف ! فانفجر المستأجرون ضاحكين وراحوا بتأييدهم يثيرون أميلي ايفانوفنا آملين في اثارة معركة « تجاذب شعر » بينهما !

كانت كاترين ايفانوفنا في أقصى درجات الغليان فأعلنت بصوت مرتفع ليسمع كل الموجودين ، أن أميلي ايفانوفنا قد لا تكون عرفت أباها مطلقا ، وأنها لم تكن الا من « أطراف » بطرسبورغ ، احدى المرتزقات التي كانت تشتغل من قبل طاهية أو أحقر من هذا عملا • فغدت أميلي ايفانوفنا حمراء كالسرطان وراحت تزمجر : « ان كاترين ايفانوفنا هي التي يمكن أن تكون بلا أب أما هي فان أباها كان في برلين • وكان يلبس ردنجوتا طويلا ويعمل دائما بوف ! بوف ! بوف ! » وأجابت كاترين ايفانوفنا بلهجة ازدراء بأن حسبها ونسبها معروفان من كل الناس وأنه حتى في دبلوم الشرف هذا قد ذكر بأحرف مطبوعة أنها ابنة زعيم • أما أبو أميلي ايفانوفنا ــ اذا افترض وكان لها أب ــ فانه لا يمكن أن يكون أكثر من أحد رعاع بطرسبورغ ، بائع حليب مثلا • لكن بحسب الظواهر كلها فانها لا يمكن أن يكون لها أب طالما أنه لا يعرف حتى الآن اذا كان اسم اسرتها ايفانوفنا أو لودويكوفنا • فانفجرت أميلي

ايفانوفنا غضبا وضربت المائدة بقبضة يدها وراحت تزعق بصوت كالنباح قائلة ان اسمها هو أميلي ايفانوفنا وليس لودويكوفنا ، وأن أباها كان اسمه جوهان وأنه كان « شيخ بلد » . بينما لم يكن أبو كاترين ايفانوفنا في مثل هذا المركز . وهنا نهضت كاترين ايفانوفنا وأعلنت بصوت قاس لكنه شديد الوقار في ظاهره ــ رغم شحوبها وأنفاسها المبهورة ــ أنه اذا سمحت أميلي ايفانوفنا لنفسها ولو مرة واحدة في أن نضع «باباها» هي، كاترين ايفانوفنا . فانها ستنزع غطاء رأسها وستطؤه بأقدامها » . فلما سمعت أميلي ايفانوفنا هذه الكلمات راحت تجري في الغرفة بكل قواها مؤكدة أنها هي صاحبة المكان وأن كاترين ايفانوفنا « ينبغي أن تخلي المسكن على الفور » ! واندفعت بعدئذ الى المائدة لتأخذ عنها الملاعق الفضية ! وحدث صخب فظيع وانفجر الاطفال بالبكاء وكادت سونيا أن تندفع لتستوقف كاترين ايفانوفنا لكن أميلي ايفانوفنا كانت قد تفوهت بكلمات تلمح الى « البطاقة الصفراء » . وعندئذ جن جنون كاترين ايفانوفنا فدفعت سونيا وألقت بنفسها على صاحبة المسكن لتنفذ على الفور تهديدها المتعلق بكساء الرأس .

في تلك الاثناء فتح الباب وظهر على عتبته فجأة بيير بيتروفيتش لوجين توقف برهة وسرح الطرف بين الجمع الحاشد وفي عينيه نظرة قاسية متفحصة . رأته كاترين ايفانوفنا فاندفعت اليه .

٣

همست :

ــ يا بيير بيتروفيتش ! تعال أنت على الأقل الى تجدتنا ! أسمع هذه المخلوقة بأنه لا يحق لها أن تتحدث بمثل هذه اللهجة الى سيدة من أسرة طيبة سقطت في البؤس ، وأن هناك قضاة من أجل هذا القول...لسوف أشكو الى الحاكم العام بنفسه ... ولسوف تسأل هذا...احترم الايتام اكراما لذكرى الضيافة وعلاقاتك بأبي .

قال بيير بيتروفيتش ، وهو ينحيها باشارة من يده :

ــ اسمحي ، يا سيدتي ... اسمحي ، اسمحي يا سيدتي ، انني لم أتشرف أبدا ــ وأنت تعرفين ذلك جيدا ــ بمعرفة أبيك ... اسمحي يا سيدتي (وهنا انفجر أحد الموجودين ضاحكا) . أما فيما يتعلق بمشاجراتك التي لا تنتهي مع أميلي ايفانوفنا فانني لست على استعداد مطلقا للتدخل فيها ... لقد جئت الى هنا بصدد مسألة خاصة...وانني أرغب بالحصول على تفاهم فوري مع ابنة زوجك صوفي ايفانوفنا ، أليس هذا هو اسمها ؟ اسمحي لي بالدخول ...

وتوجه بيير بيتروفيتش الى الطرف الآخر من الغرفة حيث كانت سونيا بعد أن أعرض عن كاترين ايفانوفنا ...

لبثت كاترين ايفانوفنا جامدة في مكانها وكأن صاعقة انقضت عليها . ما كانت تستطيع ان تفهم كيف سمح بيير بيتروفيتش لنفسه لنكران ضيافة أبيها ، لأنها منذ أن تصورت تلك الضيافة آمنت بها بنفسها ايمانها بالعقيدة المقدسة . ثم ان لهجة لوجين ، تلك اللهجة الجافة النابية التي

تفيض احتقارا وتهديدا ، قد ضاعفت ذهولها . ولما كان رجل الاعمال الخطير ذاك أرفع مستوى من المجتمعين فانه كان واضحا أنه ما جاء الا لسبب هام ! سبب خارق أتي به الى ذلك الوسط وبالتالي فان حادثا ما لن يلبث أن يقع ! وكان راسكولنيكوف بالقرب من سونيا فاضطر الى التنحي ليسمح له بالمرور، فبدا بيير بيتروفيتش كأنه لم يلاحظ وجوده وبعد برهة شوهد ليبيزيا تنيكوف على عتبة الغرفة لكنه لم يدخل اليها بل ظل واقفا وفي عينيه نظرة استطلاع غريبة يرى ويسمع باستغراب ولا يبدو عليه أنه قد أدرك سبب ذلك المشهد .

صرح بيير بيتروفيتش بشكل عام دون أن يوجه حديثه الى شخص معين :

ـ أعذروني اذا أزعجتكم ، ولكن القضية خطيرة واني لسعيد اذ أكشف عنها بشكل علني . يا أماليا ايفانوفنا ، انني أرجوك بكل خضوع بصفتك صاحبة هذا المسكن ، أن تصغي بانتباه الى الحديث الذي سأتبادله مع صوفي سيميونوفنا !

وأضاف موجها حديثه الى سونيا التي كانت مشدوهة ترتعد سلفا :

ـ يا صوفي سيميونوفنا ! بعد مغادرتك منذ قليل غرفة صديقي ، اختفت ورقة نقدية من ذات المائة روبل كانت موضوعة على المنضدة ، فاذا كنت تعرفين بشكل من الاشكال مصير تلك الورقة وتحدثيننا عنها فانني أعطيك كلمتي وأشهد كل هؤلاء الموجودين على أن أدع القضية تنتهي هنا ، والا فانني سأضطر الى اللجوء الى تدابير خطيرة . وعندئذ تكونين قد تسببت لنفسك بالمتاعب .

ران سكون عميق على الغرفة . حتى الاطفال الذين كانوا ينتحبون صمتوا واجمين . كانت سونيا واقفة شاحبة كالاموات تنتظر دون أن تستطيع جوابا . كانت تبدو غير فاهمة لحقيقة الامر . وانقضت بضع

ثوان ...

سأل لوجين ، وهو يحدجها ببصره :

ــ اذن ، ماذا تقولين ؟

غمغمت سونيا بصوت ضعيف :

ــ لست أدري ... لا أعرف شيئا .

قال لوجين :

ــ كلا ؟ لا تعرفين شيئا ؟

وصمت برهة ثم أردف بصوت قاس :

ــ فكري جيدا يا آنسة ! ابحثي ، انني أمنحك الوقت للتفكير . اعلمي انني لو لم أكن على ثقة تامة وأنا ــ بالطبع ــ كثير التجارب ، لما وجهت اليك تهمة مباشرة ؛ لأن مثل هذه التهمة الموجهة علنا ومباشرة اذا ثبت خطؤها ستجعلني مسؤولا عنها . انني لست أجهل هذا . هذا الصباح بالذات استبدلت لحاجاتي الشخصية بعض الاسهم بمبلغ نقدي قدره ثلاثة آلاف روبل ، ذلك هو الرقم المسجل في مفكرتي . وعندما عدت الى غرفتي ــ ويشهد على ذلك أندريه سيميونوفيتش ــ رحت أحصي نقودي من جديد فعددت ألفين وثلاثمائة روبل وضعتها في حافظة أودعتها جيب « رودنجوتي » الجانبي ؛ وبقي على الطاولة حوالي خمسمائة روبل أوراقا مصرفية بينها ثلاث أوراق من ذوات المائة روبل . وفي تلك اللحظة دخلت أنت ــ بناء على دعوتي ــ وكنت خلال الوقت الذي قضيتيه عندي بادية الاضطراب والارتباك . بل انك حاولت خلال حديثنا قمت ثلاث مرات تحاولين الخروج دون سبب معين رغم أن حديثنا لم يكن قد انتهى بعد . ان أندريه سيميونوفيتش يستطيع أن يؤيد هذا القول . ولا شك أنك يا آنسة لن ترفضي التصريح بأنني استدعيتك بواسطة أندريه سيميونوفيتش لكي أتباحث معك ــ

فقط ـ بصدد مركز قريبتك كاترين ايفانوفنا المحزن ـ التي ما كنت أستطيع تناول طعام الغداء عندها ـ بغية ايجاد الوسائل القمينة بامدادها بالمساعدة سواء أكان ذلك باعداد قائمة باكتتاب أو باقامة « يانصيب » أوأي شيء آخر من هذا القبيل • ولقد شكرتني والدموع ملء عينيك (انني أسرد الاشياء كما وقعت تماما : أولا لأذكرك بها وثانيا لأثبت لك بأن أية ملاحظة لم تغب عن ذاكرتي) • وأخيرا أخذت ورقة من ذات العشرة روبلات كانت في عداد الاوراق الاخرى على المائدة فأعطيتها لك باسمي لأثبت لك اهتمامي بأسرتك معلنا أنني اول متقدم للمساعدة • وقد شاهد أندريه سيميونوفيتش كل هذا • ثم شيعك حتى الباب وأنت في حالة الاضطراب والارتباك التي بدت عليك من قبل • وبعد ذهابك لبثت وحدي مع أندريه سيميونوفيتش فاستغرقت معه في حديث دام خمس دقائق • ثم خرج اندريه سيميونوفيتش فرجعت الى المنضدة مزمعا ـ بناء على تصميم سابق ـ وضع بقية النقود على حدة • ولشدة استغرابي ودهشتي لاحظت أن ورقة من ذات المائة روبل فقدت من المبلغ • والآن كوني قاضيا : هل أتهم أندريه سيميونوفيتش ؟ انني لا أستطيع، بل انني لأخجل من مجرد ذلك الاحتمال• كما أنني لا يمكن أن أكون مخطئا في حساباتي خصوصا وأنني قبل قدومك بدقيقة واحدة عددت وأحصيت مجموع المبلغ فوجدته كاملا • وانك لتوافقيني بنفسك على أنني عندما تذكرت اضطرابك وتهافتك على الخروج وانك كنت خلال لحظات طويلة واضعة يديك على المنضدة ؛ ثم عندما تأملت وصفك الاجتماعي والعادات التي ترافقه ، روعت رغما عني عندما اضطررت الى تقبل مثل هذا الشك القاسي • لكن الدوافع اليه سليمة منطقية • وانني أضيف وأكرر أنني رغم وثوقي الأكيد فانني أفهم أيضا أن اتهامي الحالي لا يخلو من بعض المخاطرة ، لكنني كما ترين لم أتردد دقيقة واحدة بل انني ثرت ، ولسوف أقول لك لماذا : لقد ثرت يا آنسة بسبب جحودك الفظيع !•• كيف لا ؟ أأدعوك الى بغية مساعدة قريبتك المسكينة

وأمنحك لهذه الغاية عشرة روبلات فألقي منك هـذا الشكر العجيب ؟ كلا ! ان هذا ولا شك غـير مقبول • ينبغي أن تتلقي درسا • فكري ! انني أتوسل اليك باعتباري أحسن صديق لك (لأنه لا يمكن أن يكون لك في هـذه اللحظة صديق خـير مني) أن تعترفي بنفسك والا فانني سأكون قاسيا ! والآن هل تعترفين ؟

تمتمت سونيا مذهولة :

ـ انني لم آخذ لك شيئا • لقد أعطيتني عشرة روبلات ، ها هي ذي، استعدها •

وأخرجت سونيا منديلها من جيبها وبحثت عن العقدة التي ربطتها فحلتها وسحبت ورقة العشرة روبلات فدفعت بها الى لوجين •

قال هذا بلهجة معاتبة دون أن يستعيد الورقة النقدية :

ـ على هذا اذن • فانك لا تريدين الاعتراف بالمائة روبل •

سرحت سونيا طرفها فيما حولها • كان الموجودون ينظرون اليها بارتياع وقسوة وازدراء وحقد ، ونظرت الى راسكولنيكوف ••• كان هذا واقفا مستندا الى الجدار معقود الذراعين يحدجها بنظرة ملتمعة •

غمغمت سونيا بصوت ضارع :

ـ آه ، يا رب !

قال لوجين بوداعة لا تخلو من التحبب مخاطبا صاحبة المسكن :

ـ يا أميلي ايفانوفنا ، ينبغي اخطـار البوليس • وبانتظار ذلـك ، أرجوك بكثير من التواضع أن تتفضلي باستدعاء البواب •

نطقت أميلي ايفانوفنا بعبارة بالالمانية اعرابا عن رأيها وقالت وهي تضرب كفا بكف :

ـ كنت أعرف تماما أنها سارقة !

فقال لوجين :

ـ كنت تعرفين ؟ بناء على ذلك فان لديك من الاسباب المسبقة ما جعلك تستنتجين هذا الرأي.أرجوك يا أميلي ايفانوفنا شديدة الاحترام أن تتذكري هذه الكلمات التي تلفظت بها للتو أمام هؤلاء الشهود •

حمي النقاش في كل أركان الغرفة وتفاقم الاضطراب والبلبال حتى شمل كل انسان •

صرخت كاترين ايفانوفنا فجأة ، بعد أن استعادت روعها :

ـ كيف ؟

ثم قفزت باتجاه لوجين وكأنها اندفعت بقوة لولبية وصرخت :

ـ كيف ؟ انك تتهمنا بالسرقة ؟ هي ؟ سونيا ؟ آه ! يا للأنذال ! يا للأنذال !

وجرت الى سونيا تضمها بقوة وعنف مطبقة ذراعيها حولها واسترسلت :

ـ سونيا ! كيف جرؤت على تقبل عشرة روبلات من هذا الرجل ! آه ! يا للحمقاء ! رديها اليه فورا ! أعيدي اليه روبلاته العشرة ! خذ !

وانتزعت الورقة المالية من بين يدي سونيا ، فكورتها بين أصابعها وألقتها في وجه لوجين ، فأصابته الكرة الورقية في عينه • وتدحرجت على ارض الغرفة ، فاندفعت أميلي ايفانوفنا تلتقطها •

غضب بيير بيتروفيتش وصرخ :

ـ أمسكوا هذه المجنونة !

بدا على مدخل الغرفة الى جانب لوجين عدد من الاشخاص بينهم السيدتان « المتسكعتان » •

زمجرت كاترين ايفانوفنا :

ـ ماذا ! مجنونة ! أأنا المجنونة ؟ أيها السخيف ! سخيف أنت نفسك أيها القط المنتفخ! أيها المخلوق القذر! سونيا، سونيا تأخذ منه مالا؟ سونيا

سارقة ؟ لكنها تعطيك بدلا من أن تأخذ منك ، أيها السخيف !

وانفجرت كاترين ايفانوفنا بضحكة هيسترية وصاحت ، وهي تجري في أركان الغرفة تشير الى لوجين :

ــ هل رأيتم هذا السخيف ؟ كيف ؟

وفجأة وقع بصرها على صاحبة المسكن فصرخت :

ــ وأنت أيضا ! أنت أيضا تدعين أنها لصة ، أيتها البروسية القذرة ؟ هل ترون هذا ! هل ترون هذا ! لكنها لم تبرح هذه الغرفة . وقد جاءت منذ أن خرجت من عندك أيها الرجل الفظ تجلس قرب روديون رومانوفيتش ، فتشها ! طالما أنها لم تذهب الى أي مكان فان المبلغ يجب أن يكون باقيا معها ! فتش اذن ، فتش فتش ! لكنك اذا لم تجد شيئا فلسوف يكون لي معك شأن ، يا عزيزي ! الى الامبراطور ! سأمضي الى الامبراطور لأشكوك ، الى القيصر الرحيم ، سألقي بنفسي على قدميه فورا ، اليوم بالذات ! انني يتيمة ! ولسوف يدعونني أدخل! أو تظن أنهم لن يدعونني أدخل ؟ انك مخطىء ! لسوف أصل اليه ! لسوف أصل !لقد كنت تعول على خجلي ! وبنيت املك على هذا الأساس ! لكنني ــ ألا ترى ــ لست شديدة الخجل ! لسوف تجد من تتحدث اليه ! ابحث اذن ، ابحث ، ابحث .. ما بك ؟ ابحث !!!

راحت كاترين ايفانوفنا تهز لوجين بعنف وتجره نحو سونيا .

غمغم لوجين :

ــ انني على استعداد لتحمل مسؤولية ما أقدمت عليه يا سيدتي، فاطمئني ! انني أرى أنك لست شديدة الخجل ... انه ... في الحقيقة ... يجدر أن يستدعى البوليس ... ثم ان هناك عددا أكثر من اللازم من الشهود ... انني مستعد ... لكن هذا العمل دقيق جدا بالنسبة للرجل .. نظرا لاختلاف الجنس ... لو كان يمكن اللجوء الى مساعدة أميلي ايفانوفنا رغم أن الامور لا تسوى على هذا النحو ... ما العمل ؟

صرخت كاترين ايفانوفنا :

ــ خذ من تشاء ! ليفتشها من يشاء ! سونيا، اقلبي جيوبك أمامهم ! خذ ! خذ ! أنظر ، أيها الوحش ! ألا ترى أنها فارغة ؟ كان هنا منديل فقط ... أنت ترى أن الجيب فارغ ... والان الى الجيب الاخر . خذ ! ألا ترى ! ألا ترى ؟

راحت كاترين ايفانوفنا تعرض جيوب الفتاة على الموجودين وهي تقلب بطانتها وتهزها بعنف . وفجأة قفزت من الجيب الايمن ، الجيب الاخر ، ورقة رسمت في الهواء نصف دائرة وسقطت عند أقدام لوجين. كان الموجودون جميعا قد شاهدوها ، فتعالت صيحات التعجب من حناجر الكثيرين .

انحنى بيير بيتروفيتش والتقط الورقة بين اصبعيه وراح ينشرها على مرأى الجميع، كانت ورقة مالية من فئة المائة روبل مطوية ثماني طيات . أخذ بيير بيتروفيتش يدير يده عارضا الورقة على انظار الموجودين .

نبحت أميلي ايفانوفنا :

ــ يا سارقة ! أخرجي من هنا ! الشرطة ، الشرطة ! ينبغي ارسالها الى سيبيريا . اخرجي !

انبعثت صيحات الاستغراب والتعجب من كل مكان ، بينما كان راسكولنيكوف صامتا ينظر الى سونيا دون انقطاع الا خلال فترات كان ينقل بصره منها الى وجه لوجين ، وكانت سونيا جامدة في مكانها وكأنها أصيبت بالخبل حتى أنه لم يكن يبدو عليها شيء من الدهشة . وفجأة اندفع الدم الى وجهها فأطلقت صيحة خافتة وأخفت وجهها بين يديها . صرخت خلال عبراتها بصوت يمزق القلوب ، وهي تندفع نحو كاترين ايفانوفنا :

ــ كلا ! كلا ! لست أنا . انني لم آخذ شيئا ! لست أدري !

ضمتها كاترين ايفانوفنا بعنف الى صدرها وكأنها أرادت أن

تجعل من صدرها درعا لها • وصاحت تكذب عينيها وتهدهد سونيا بين ذراعيها كالطفل وتغمرها بالقبلات :

ـ سونيا، سونيا ! انني لا أصدق شيئا ! ألا ترين أنني لا أصدق! أنت تأخذين شيئا ؟ لكن ، أو ليسوا حمقى هؤلاء ! رباه ! أيجب أن تكونوا جميعا حمقى • حيوانات !

واستدارت تخاطب الاشخاص الموجودين قائلة بصوت لاهث :

ـ انكم لا تعرفون شيئا عن قلبها ! انكم لا تعرفون من هي هذه الفتاة ! انها تعطي آخر قميص عندها، نعم تعطيه ، وتسير عارية القدمين، انها تعطيكم كل شيء اذا كنتم في حاجة اليه • هذه هي سونيا ! لقـــد باعت جسمها وحملت بطاقة لأن أولادي كانوا يموتون جوعا • لقـــد باعت نفسها من أجلنا ! آه يا زوجي المرحوم المسكين ! آه ! أيها المرحوم المسكين ! يا فقيدي المسكين ! هل ترى هذا ؟ أو َ تراه ؟ أنظر أي نوع من طعام جنائزي كان معدا لك ! رباه ! لكن احموها أنتم بدلا مـــن وقوفكم هكذا ! يا روديون رومانوفيتش ، لِمَ لم تدافع عنها أنت ؟ هل تصدق أنت الآخر مثل هذه الاشياء ؟ انكم جميعا ، مهما سمت مراتبكم، لا تساوون أصبعها الأصغر ! كلكم ! كلكم ! كلكم ! رباه • هيا دافع عنها أخيرا •

أخذت عبرات المصدورة البائسة تثير اشفاقا كبيرا بين الموجودين• كان في وجهها التالف الهزيل الذي حمره المرض ، وشفتيها الذابلتين المدميتين وصوتها الأجش الزافر ونحيبها العنيف الذي يحاكي نحيب الأطفال ، وفي ذلك الرجاء البريء المخلص وهي في أعماق يأسها، شيء يثير الاشفاق ويعتصر القلب • كانت حالتها البائسة تستدر العطف حتى أن بيير بيتروفيتش « رأف » بها وأعرب عن ذلك بلهجة رزينة :

ـ سيدتي ، سيدتي ان هذا الأمر لا يعنيك في شيء • ان أحدا

لا يفكر في اتهامك بسوء التدبير أو الاشتراك بالأمر ، خصوصا وأنك أنت التي عرضت أمر تفتيش جيوبها . واذن ، فانك ما كنت تعتقدين بامكان حدوث ما حدث . انني على استعداد ــ نعم على استعداد تماما هنا ــ لابداء الرحمة اذا كانت الفاقة هي التي دفعت صوفي سيميونوفنا الى ما أقدمت عليه . لكن لِمَ اذن يا آنسة رفضت الاعتراف ؟ هل خشيت التعرض للتشهير ؟ أهذه هي فعلتك الأولى ؟ لعلك كنت فاقدة عقلك . ان القضية مفهومة .. لكن لماذا وضعت نفسك في مثل هذا المأزق !

ثم استشهد بالحاضرين وقال :

ــ رباه ! رباه ! انني على سبيل الاشفاق وحسم الموضوع على استعداد الآن أيضا للصفح رغم الاهانات الشخصية التي وجهت الي ! نعم يا آنسة : ليكن لك من العار والخجل اللذين لحقا بك الآن درس يردعك في المستقبل . انني لن أدفع الأمر الى أبعد من هذا ، وأرغب في أن تتوقف الأمور عند هذا الحد .. ان هذا يكفي .

نظر بيير بيتروفيتش من زاوية عينه الى حيث كان راسكولنيكوف والتقت نظراتهما . كانت نظرة راسكولنيكوف الملتهبة تكاد أن تسحق لوجين . أما كاترين ايفانوفنا فكانت كأنها لم تسمع شيئا : كانت لا تزال تعانق سونيا كالمخبولة . وحذا الأطفال حذوها . فراحوا يطوقونها بأذرعهم الصغيرة . وانخرطت بوليا في البكاء وراح جسمها يهتز من النحيب . كانت تخفي وجهها الجميل المنتفخ بالبكاء في كتف سونيا وهي لا تدري عن المأساة شيئا .

وفجأة انبعث صوت خطير بجانب الباب يقول :

ــ كم هو وضيع هذا !

فألقى بيير بيتروفيتش نظرة سريعة حوله .

كرر ليبيزياتنيكوف ، وهو يحدج لوجين بقسوة :

ــ يا للدناءة !

شعر بيير بينروفيتش بما يشبه القشعريرة في جسمه ولاحظ كل الموجودين ذلك . خطا ليبيزياتنيكوف خطوات الى داخل الغرفة، وقال وهو يتجه نحو بيير بينروفيتش :

ــ مع ذلك فقد جرؤت على تقديمي شاهدا عليها ؟

نعق لوجين :

ــ ما معنى هذا ، يا أندريه سيميونوفيتش ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

أجاب ليبيزياتنيكوف باحتداد وهو ينظر اليه بقسوة بعينيه المريضتين الصغيرتين المستعدتين لملاحظة كل كلمة واعطائها ما تستحق من تقدير :

ــ معنى ذلك انك مفتر نمام ، ذلك ما تعنيه كلماتي !

ران السكون من جديد ، فبدا بيير بيتروفيتش كأنه فقد سيطرته على أعصابه للوهلة الأولى .

شرع يقول متلعثما :

ــ اذا كنت توجه الحديث لي ... لكن ماذا دهاك ؟ هل أنت مالك لقواك ؟

ــ نعم ! انني مالك لقواي ! لقد سمعت كل شيء ! ان معنى ذلك أنك خائن مخاتل . آه ! كم هو دنيء كل هذا ! لقد سمعت كل شيء ولقد انتظرت عامدا لأفهم كل شيء لأنني ــ وأعترف ــ حتى في هذه اللحظة لا يبدو الأمر لي بشكل معقول تماما ... لكن لِمَ عملت كل هذا ؟ انني لا أفهم السبب !

ــ لكن ما هذا الذي عملته ؟ هل بدأت تتكلم بأحاجٍ سخيفة أم أنك ثمل ؟

ــ بل انك أنت أيها الرجل المنحط الذي يمكن أن تكون ثملا وليس أنا ! انني لا أشرب العرق مطلقا لأن ذلك يخالف عقائدي ! تصوروا أنه هو ، هو بنفسه الذي أعطى بيده ورقة المائة روبل الى صوفي سيميونوفنا ، لقد رأيته وكنت شاهدا على ذلك • انني على استعداد للادلاء بهذا القول أمام المحكمة • انه هو ! انه هو !

قال لوجين بصوت كالنباح :

ــ لكنك مجنون ، أيها الغر ! لقد ادعت بنفسها أمام الموجودين منذ برهة بأنها لم تأخذ مني روبلا واحدا أكثر من ورقة العشرة روبلات، فكيف أكون قد أعطيتها هذا المبلغ ؟

كرر ليبيزياتنيكوف تأكيداته :

ــ لقد رأيتك ، لقد رأيتك • وعلى الرغم من تنافر ذلك مع عقائدي فانني مستعد للادلاء بقولي في المحكمة بعد أداء اليمين ، لأنني رأيتك تدس لها هذا المال سرا في جيبها : لكنني كنت من الحماقة بحيث ظننت أنك فعلت ذلك على سبيل الاحسان • كان ذلك قرب الباب حينما كنت تودعها ، وبينما استدارت لتصافح يدك الممدودة ، دسست أنت بيسراك الورقة المالية في جيبها • لقد شهدت ذلك بنفسي ! لقد شهدته !

شحب وجه لوجين و[illegible] :

ــ ما هذه الخزعبلات التي [illegible] ؟ لقد كنت قرب النافذة فكيف يتاح لك رؤية هذه [illegible] ذلك !••• انك بعينيك المريضتين تتخبط •••

ــ كلا ، انه ليس تخيل أو وهم ! انني رغم المسافة بيننا لم تفتني شاردة من تصرفاتك • نعم ، انه من العسير علي تمييز هذه الورقة وأنا في مكاني على النافذة • انك محق في هذا • لكنني كنت أعرف ــ بسبب ظرف خاص ــ أن ما دسسته في جيبها كان ورقة من ذات المائة

روبل • لأنني كنت حينذاك قريبا منك ورأيت الورقة في يدك • لقد طويتها واحتفظت بها طوال الوقت في يدك ، لكنني بعد قليل نسيت هذه الملاحظة تقريبا • وعندما نهضت نقلتها من يدك اليمنى الى يـدك اليسرى فكادت أن تسقط من يدك ، فأتاح لي ذلك أن أتذكرها مـن جديد • فظننت أنك تريد أن تسدي الى صوفي سيميونوفنا جميلا دون أن تشعرني به • وهكذا رحت أراقبك ! لقد رأيتك بعدئذ قد توقفت في دس الورقه في جيبها • لقد رأيت ذلك وانني على استعداد لتـأييد أقوالي بالقسم !

كان ليبيزياتنيكوف شديد الانفعال يكاد الغيظ أن يخنقه ، بينما ارتفعت من أنحاء الغرفة مئات الهمسات وعبارات الاستغراب والدهشة• لكن بعض تلك العبارات كانت تحمل طابع التهديد ! والتف الموجودون حول بيير بيتروفيتش بينما اندفعت كاترين ايفانوفنا الى ليبيزياتنيكوف وهي تقول ، وقد جثت على ركبتيها أمامه دون وعي :

ـ يا أندريه سيميونوفيتش ، لقد كنت مخطئة في حقـك ! دافع عنها ! انك وحدك الذي نصرتها ! انها يتيمة ! لقد أرسلك الله لحمايتها! يا أندريه سيميونوفيتش ، أيها الباسل العزيز !

نبح لوجين ، وقد اشتد غضبه :

ـ خرافات ! هذا ما جئت تلغو به ، أيهـا السيـد ! « نسيت ، تذكرت ، نسيت » • ما هذا القول ؟ على حد قولك أكون أنا الذي دسست لها المائة روبل عامدا ؟ لماذا ؟ ماذا يجمع بيني وبـين هذه الـ •••

ـ ما هي الاسباب ؟ هذا هو بالضبط الذي لا أتوصل الى فهمه• أما ما قلته فانه الحقيقة نفسها ! انني لا أخدع أيها النذل القذر السافل، انني كنت أفكر في هذا الكرم الغريب حينما رحت أشكرك على حسن

ضيعك ضاغطا على يدك . لقد تساءلت : لم دسست لها هذه الورقة سرا أو على الأصح : لم تصرفت بتلك الطريقة المكتومة ؟ وقلت لنفسي: ألا يجوز أن يكون السبب في ذلك محاولتك اخفاء الأمر عني بعد أن علمت بأن مبادئي تتنافى وهذا الاحسان الخاص ، ذلك الاحسان الذي لا يستأصل أبدا عوز أي كان نهائيا ؟ لقد فكرت بأنك تشعر بالارتباك لتقديم مثل هذا المبلغ بحضوري، وانك تريد ــ علاوة على ذلك ــ أن تجعل القضية على شكل مفاجأة لتدهشها عندما تعثر في جيبها على تلك الورقة من ذات المائة روبل ! ان بعض المحسنين يسرهم أن يجعلوا أعمالهم المحسنة منطبقة بهذا الطابع المميز . ثم خطر لي أنه من الجائز أن تكون قد أردت اختبار أمانتها ، أي أنك أردت أن تعرف ما اذا كانت ستعود لتشكرك عندما تعثر على المائة روبل في جيبها أم لا ، لكنك كنت تبدو عازفا عن التعرض للشكر عملا بالمبدأ ــ كيف يقولونه عندكم ؟ ــ أن تجهل اليد اليمنى ما ... لذلك لا تسل عن الأفكار التي مرت برأسي وكثرتها . لكنني قررت بيني وبين نفسي أن أفكر في تصرفك ذاك محاولا تفسيره عندما يتاح لي فراغ من الوقت أصرفه في التفكير . أما في تلك اللحظة فقد قدرت أنه من غير اللائق أن أدعك تعلم بأنني مطلع على سرك . غير أن فكرة أخرى حلت في رأسي في تلك اللحظة : يجوز أن تضيع صوفي سيميونوفنا هذا المال دون أن تنتبه الى وجوده . ولهذا السبب تراني جئت الى هنا . لقد كنت عازما على استدعائها واعلامها بأنك دسست لها مائة روبل في جيبها ، فمررت في طريقي على مسكن السيدتين كوبيلياتنيكوف لأقدم لهما كتاب : «لمحة عامة عن المنهج الايجابي» وأوصيهما بدراسة مقال بيديري وفاكنر ، ثم جئت الى هنا لأجد نفسي وسط أغرب قضية يتصورها العقل ! فهل يعقل أن أكون قد فكرت كل هذا التفكير وتصورت كل هذه الامور لو لم أرك حقيقة تدس المائة روبل في جيب صوفي سيميونوفنا ؟

لما أنهى أندريه سيميونوفيتش ملاحظاته الغريبة تلك ، وأعطى لأقواله تلك النتيجة المنطقية القوية ، كان الاجهاد قد أنهكه حتى أن وجهه كان سابحا في العرق ٠ والمؤسف أنه ما كان يستطيع التعبير عن آرائه بطلاقة باللغة الروسية ، رغم أنه لم يكن يعرف لغة أخرى غيرها ٠ لذلك فقد بدا فجأة منهوكا بل ومهدما بعد تلك المحاولة الخطابية ٠ غير أن تدخله أحدث تأثيرا خارقا اذ كان يتحدث بلهجة لا تنبىء عن تدبر سابق ، بل تطفح بالاقناع حتى أن كل السامعين صدقوه ٠

شعر بيير بيتروفيتش أن القضية راحت تدور ضده بشكل خطير فهتف :

ــ ماذا تعنيني الأسئلة السخيفة الحمقاء التي مرت برأسك ؟ انها ليست دليلا ! يمكن أن تكون قد تخيلت كل هذا ! انني أقول لك بأنك كاذب ، أيها السيد ! انك تكذب وتفتري علي بسبب ضغينة في صدرك ضدي ، بل وعلى التأكيد لأنك سخطت علي حينما وجدتني لا أميل الى نظرياتك الاشتراكية الملحدة ، هذا كل ما في الأمر !

غير أن تلك الحركة الدفاعية لم تكن لتحمي بيير بيتروفيتش ، بل على العكس فقد ارتفعت الهمسات والغمغمات من كل الجهات ٠

صرخ ليبيزياتنيكوف :

ــ آه ! هذا هو اذن هدفك ! انك تكذب ! ادع الشرطة ٠ لسوف أقسم اليمين ! ان هناك أمرا واحدا فقط لا أستطيع فهمه ٠ ما هي الأهداف التي من أجلها غامرت بهذه العملية المنحطة ! أوه ! يا للرجل الحقير النذل !

وأخيرا تقدم راسكولنيكوف وقال بصوت مرتفع :

ــ انني أستطيع ، أنا ، أن أفسر سبب فعلته هذه ٠ وانني على استعداد اذا اقتضى الأمر أيضا للتحدث أمام العدالة ٠

كان يبدو هادئا شديد الاعتداد بنفسه ، وكانت نظرة واحدة الى وجهه تكفي ليشعر المجتمعون أنه وحده عارف دقائـق المسـألة ، وأن النتيجة لن تلبث حتى تظهر .

تابع راسكولنيكوف مخاطبا ليبيزياتنيكوف مباشرة :

ـ لقد فهمت الآن كل شيء . منذ بدء هذه المسألة كنت أرتاب في وجود تدبير قذر وراء هذه القصة . كنت أرتاب في ذلك اثر ملابسات خاصة أعرفها وحدي ، وسأذكرها قبل كل شيء لأنها هي عقدة القضية . وانك أنت يا أندريه سيميونوفيتش الذي فتحت عيني نهائيا بأقوالك الثمينة . انني أرجو الجميع أن ينصتوا . ان هذا السيد (وأشار الى لوجين) خطب مؤخرا فتاة ، ولكي أكون أكثر دقة أقول : انه خطب أختي أفدوتيا رومانوفنا راسكولنيكوف . لكنـه عندمـا وصـل الى بطرسبورغ أول أمس تشاحن معي في لقائنا الأول فطردته من غرفتي بحضور شاهدين . ان هذا الرجل شـديد الخبـث ... أول أمس ـ وكنت لا أعرف أنه يقطن في غرفة مؤثثة عندك يا أندريه سيميونوفيتش ـ وأقصد في اليوم الذي تشاجرنا فيه ، شاهدني بنفسه أعطي بعض النقود الى السيدة كاترين ايفانوفنا بصفتي واحدا من أصدقاء زوجها لتقوم بنفقات دفن زوجها المرحوم السيد مارميلادوف . فكتب فورا الى أمي يبلغها أنني أعطيت كل نقودي ليس الى كاترين ايفانوفنا بـل الى صوفي سيميونوفنا ، واستعمـل بهـذا الخصوص أقبـح التعابير وأبشعها ليصف صوفي سيميونوفنا أو بالاحرى ليبين علاقاتي مع صوفي سيميونوفنا . وقد هدف من كل هذا ـ كما تفهمـون ـ الى اثـارة الشحناء بيني وبين أمي وأختي باطلاعهما على أنني أبعثر المـال الذي ترهقان نفسـيهما في تدبيره لسد حاجاتي، بشكـل يثير الاشمئزاز . والبارحة مساء خلال مقابلة جرت مع أمي وأختي بحضوره ، كشفت عن

الحقيقة وأثبت أني أعطيت المال الى كاترين ايفانوفنا من أجل تفقات الدفن وليس الى صوفي سيميونوفنا التي لم أكن أعرف وجهها قبل ذلك الحادث مطلقا • وأضفت الى أقوالي أن بيير بيتروفيتش لوجين رغم كل ميزاته ومواهبه لا يبلغ منزلة موطىء أقدام صوفي سيميونوفنا التي تحدث عنها بأسوأ العبارات • ولما سألني عما اذا كنت أضع صوفي سيميونوفنا في حضرة أختي وفي سويتها أجبته بأنني فعلت ذلك في ذلك اليوم بالذات • رأى أن أمي وأختي لم تستجيبا لرغبته في التخاصم معي استنادا الى أقواله وحدها ، فغضب غضبا شديدا وراح يحدثهما بعبارات فاحشة لا يمكن التغاضي عنها • فقطعت أختي كل علاقة له بها وباء بما يستحقه من الاحتقار اذ أنه طرد شر طردة • كل ذلك حدث مساء البارحة • والآن ، انني أطلب اليكم الاصغاء والانتباه : تصوروا أنه لو استطاع في هذه اللحظة أن يثبت أن صوفي سيميونوفنا ليست الا لصة سارقة فانه كان يستطيع بعد ذلك أن يثبت لأمي وأختي أنه كان على صواب في ظنونه بها ، وأن يؤكد لهما أن سبب غضبه لم يكن الا لرفع صوفي سيميونوفنا الى مرتبة أختي • وبعبارة أصح ، كان يستطيع ايهامهما أنه بتهجمه علي كان يدافع عن شرف أختي ويحافظ عليها بوصفها مخطوبته • والخلاصة أنه كان سيجد بفضل ذلك وسيلة لخلق التنافر بيني وبين أسرتي والعودة الى سابق علاقاته معها • بل وأقول أيضا أنه بذلك كان يهدف الى الانتقام كذلك لأنه يعرف أن شرف صوفي سيميونوفنا وراحتها ثمينان عندي عظيمان في المرتبة • هذه كانت خطته ! هذا هو تفسير الأمر وهذا هو السبب الذي جعله يتصرف على هذا الشكل • لا يمكن أن يكون هناك سبب آخر •

بمثل هذه العبارات أنهى راسكولنيكوف « خطابه » أمام ذلك الحشد ، وهو يقاطع غالبا بعبارات التعجب والاستغراب من المستمعين

الذين برهنوا على اهتمام كبير بأقواله • كان راسكولنيكوف يتحدث بلجهةواضحة هادئة دقيقة وبوضوح لا يقبل الجدل: كان صوته المدوي ولهجته المقنعة ووجهه القاسي قد أحدث في الجمهور تأثيرا عجيبا •

صرخ ليبيزيا تنيكوف ، وهو شديد الانفعال مؤيدا :

ـ نعم ، نعم هو ذلك ! ينبغي أن يكون الامر كذلك لأنـه بالضبط سأل حال دخول صوفي سيميونوفنا الغرفه « اذا كنت هناك واذا كنت قد شاهدتك في عداد الموجودين لدى كاترين ايفانوفنا » • لقد أبعدني الى قرب النافذة وألقى علي هذا السؤال همسا • أنه كان اذن يريد أن تكون حاضرا ! نعم انه كذلك ، كذلك تماما !

كان لوجين صامتا وعلى شفتيه ابتسامة مقيتة ، وكان رغم ذلك شديد الامتقاع يخيل للناظر اليه انه يبحث عن مخرج لنفسه من تلك الورطة • ولعله كان على استعداد لترك القضية في تلك المرحـلة والخروج مـن الباب ، ولعله كان في تلك اللحظة مستحيلا لأنه يؤكد اعترافه بصحـة التهم التي وجهت اليه : أي أنه افترى علنـا على صوفي سيميونوفنا • وكان الموجودون قد أثارتهم العبارات والحجج ، فراحوا يتحمسون • حتى أن ضابط الاعاشة نفسه ، رغم أنه لم يفهم القضية كلها ، رغـم عقيرته وراح بصوت أعلى من أصوات الآخرين عـارضا على لوجـين شروطا مزعجة • وكان بينهم عدد من السكان هرعـوا من غرفتهم توا فكانت هذه الفئة ممتلكة حدة ذهنهـا لم يقرب أفرادهـا الشراب • والبولونيون الثلاثه أنفسهم كانوا في انفعال عنيف يهتفون بلغتهم مـا معناه : « ان هذا الرجل لص ! » ويتمتمون بعبارات التهديـد ضد بيير بيتروفيتش • أما سونيا فقد كانت كمن استفاق للتو من اغماء عميـق : تصغي بجهد دون أن تفهم كل شيء • كانت عيناها تلاحقان راسكولنيكوف وهي تشعر أنه وحده سندها ، وكانت كاترين ايفانوفنا تتنفس بصعوبة

وتطلق من صدرها الزفرات وهي شديدة الانهاك • وكان أكثر الوجوه بلاهة وجه أميلي ايفانوفنا التي كانت فاغرة فاها بذهول • شيء واحد لم يفتها فهمه وهو أن بيير بيتروفيتش كان في مأزق !

أراد راسكولنيكوف أن يتابع كلامه غير أن الموجودين لم يدعوه يفعل • كانوا يصيحون معا ويتكأكؤون حول لوجين يمطرونه بالسباب والتهديدات ، لكن بيير بيتروفيتش احتمل ذلك كله • ولما تأكد من أن حملته ضد صوفي سيميونوفنا قد باءت نهائيا بالفشل ، عمد الى الصفاقة يتسلح بها •

قال وهو يشق لنفسه طريقا من الازدحام :

ــ اسمحوا ، اسمحوا ، أيها السادة ، لا تقطعوا علي الطريق • كفوا من فضلكم عن تهديدي • أؤكد لكم أن هذا عبث وأنكم أنتم الذين ستسألون أمام القضاء لأنكم تذرعتم بالعنف لاخفاء جريمة • ان السرقة ثابتة تماما ولسوف أشكو الى القضاء • ان القضاة ليسوا عميانا ولا سكارى • انهم لن يصدقوا ولا يمكن أن يصدقوا زنديقين فاجرين ثائرين ملحدين يتهماني بغية الانتقام مني لاسباب شخصية كما اعترفوا بذلك بكل حماقة ••• نعم اسمحوا !

قال ليبيزيا تنيكوف باحتقار :

ــ لتنزح نهائيا عني ، بارح غرفتي على الفور ولينته كل شيء بيننا ! كلما أفكر أنني كنت أنهك نفسي في شرح ••• منذ خمسة عشر يوما !

ــ لكنني بنفسي كنت منذ قليل أنبئك بأنني سأرحل يا أندريه سيميونوفيتش ، بينما كنت أنت تلح على بقائي • انني أضيف الآن كلمة واحدة : وهي أنك سخيف • أتمنى لك أن تشفي عقلك وعينيك المريضتين • اسمحوا أيها السادة !

نجح في التسلل ، غير أن ضابط الاعاشه لم يقنـع بتلك النتيجة ولم يعتقد أن الامر ينتهي بمجرد السباب ، فرفع كأسا عن المائدة وألقاهـا بكل قواه باتجاه بير بيتروفيتش بينما فقد ـ هو ـ توازنه فسقط على المائدة محدثا ضجة كبيرة . أمـا القدح فقـد مضى مباشرة الى أميلي ايفانوفنا التي راحت تصرخ صرخات حادة . ذهب بير بيتروفيتش الى غرفته فقضى فيها نصف ساعة غادرها بعدها وبارح البناء كله !

كانت سونيا ، بسبب خجلها الطبيعي ، تعرف أن أبـا كان يستطيـع القضاء عليها ، وأن التعديات والاهانات يمكن أن تنهال عليها من قبـل أي كان دون أن يسأل عن عمله . لكنها مع ذلك كانت تؤمن حتى تلك اللحظة أن باستطاعتها تحاشي المصائب الكبرى على شكل من الاشكال، بالحكمة والتواضع والاطاعة والتذلل للافراد والجماعـات . ولا شك أنها كانت تستطيع احتمال ذلك باستسلام وتقبل . أما في تلك اللحظة ، فانها ما كانت قادرة على امتلاك نفسها على الرغم من انتصارها وانصاف الناس لها. قدرت الأمور قدرها فشعرت بأن ذلك التخلي والنبذ اللذين تعرضت لهما ، والاهانة التي وجهت اليها ، تعتصر قلبها اعتصارا أليمـا ولما لم تستطع المقاومة ، فرت من الغرفة وركضت باتجاه مسكنها. وكان ذلك منها فور خروج لوجين . أما أميلي ايفانوفنا فانها في اللحظـة التي أصابها القدح فقدت أعصابها بسبب عاصفة الضحك التي انفجرت مـن أفواه الموجودين ، فراحت كالمجنونة تهاجم كاترين ايفانوفنـا ، معتبرة أنها وحدها مسؤولة عن كل ما جرى . راحـت تصرخ وقد أعماهـا الغضب :

ـ اخرجي من هنا ! فورا ! الى الأمام سر !٠

كانت وهي تزعق بمثل هذه الكلمات ، تأخذ كل ما يقع تحت يدهـا وتلقي به الى الارض . وكانت كاترين ايفانوفنا ـ التي كانت مستلقية

على سريرها مـن الانهاك ـ في حالـة مؤسية من الألم • فانـدفعت المسكينة بمجهود كبير نحو أملي ايفانوفنا ، غـير أن العراك لم يكن متكافئا اذ راحت هذه نهزها وكأنها غصن صغير •

راحت المسكينة تزمجر والعبرات تخنقها :

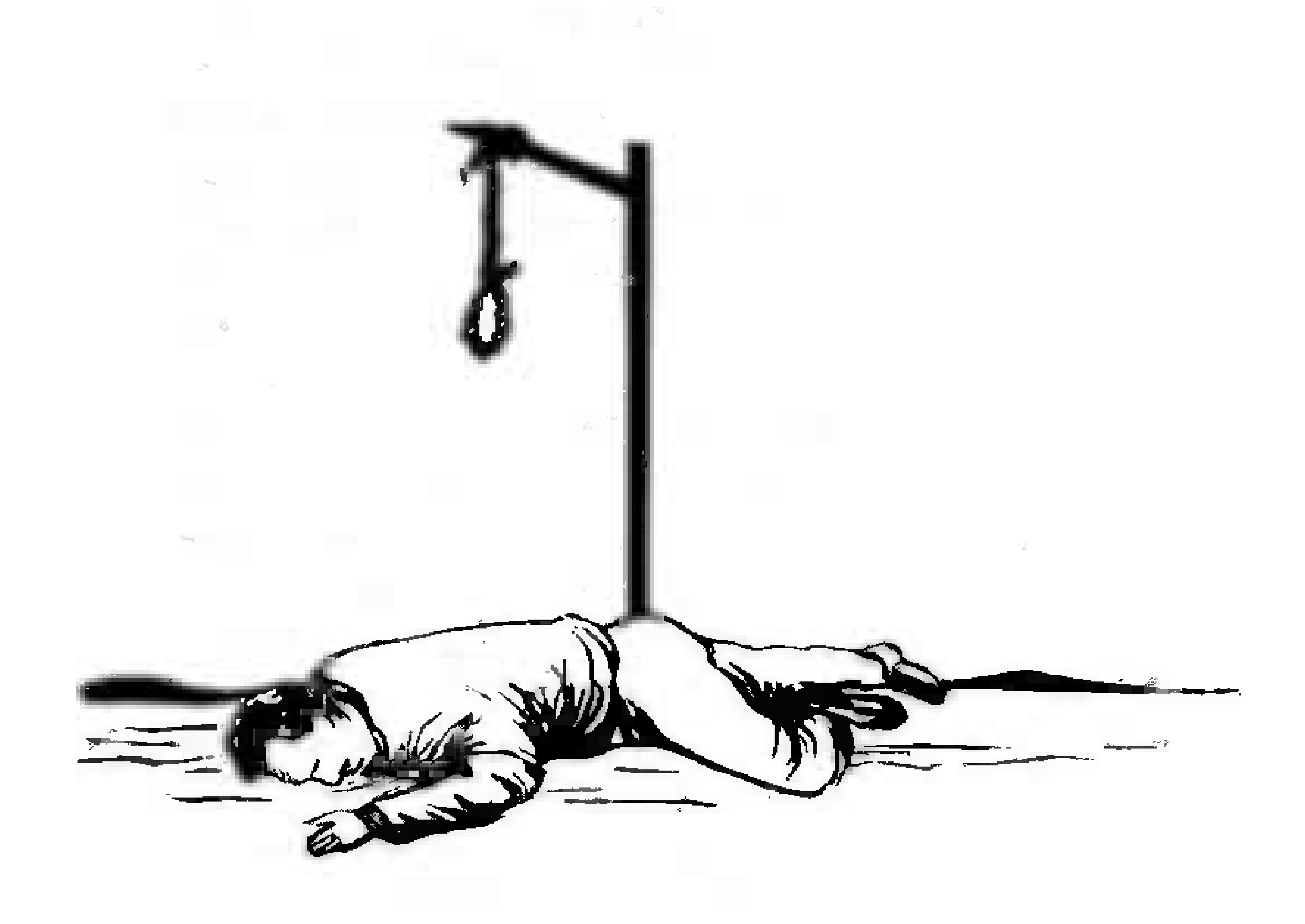
ـ كيف ! ألا يكفي أن تكون هذه المخلوقة قد افترت على سونيـا ؟ ها هي ذي تلتفت الي ؟ كيف ! أأطرد يوم دفن زوجي ! أبعد أن تقبل ضيافتي ألقى الى الشارع مع أيتامي ! لكن الى أين أمضي ؟ ربـاه ، أيجوز أنه لم يبقَ في الارض ، أيجوز أنه لم يبقَ في الارض عدل ؟ من الذي تحميه يا رب اذا لم نكن نحن الايتام ! لكننا سنرى • هناك قضاة على الارض ومحاكم • لسوف ألجأ الى هؤلاء ! فورا ! انتظري قليلا ، أينها الكافرة • بوليا ابقي مع الاولاد ، سأعود بعد قليل • انتظروني في الشارع اذا اقتضى الامر • سوف نرى اذا كانت العدالة موجودة •

ألقت على رأسها الشال الأخضر العتيد المصنوع من قماش « المدام » ، والذي تحدث عنه مارمیلادوف مـن قبل الى راسكولنيكوف ، وشقت كاترين ايفانوفنا طريقها بين الحشد الصاخب من المستأجرين الذين مـا برحوا يتوافدون الى الغرفة • هبطت السلم وهي تنتحب باكية آملة في البحث عن العدالة والانصاف مهما كلفها الامر • أما بوليا فقد انطوت على نفسها مع اخوتها من الرعب قرب الصندوق • وراح الصغار الثلاثة ينتظرون عودة أمهم خائفين وجلين بينما ظلت أميلي ايفانوفنـا تصخب في الغرفة وترعد وهي تلقي على الارض كل ما تصادفه • أما المستأجرون فقد راحوا يتناقشون بعنف وحماس وكل جماعـة منهم تنظر الى الامر من زاويتها الخاصة ، فكان بعضهم يتحدث والبعض الآخر يرفع عقيرته بالغناء معربدا •

فكر راسكولنيكوف في نفسه :

ـ لقد حـــل الوقت بـــالنسبة اليك • حسنا ، سنرى يا صوفي سيميونوفنا ماذا ستقولين الآن •

ومضى متجها نحو مسكن سونيا •



٤

أقام راسكولنيكوف مـن نفسه محاميا جريئا متحمسا عن سونيـا ضد لوجين رغم أنه كان يقاسي في سره كثيرا من الذعر والألم • لكنه شعر بعد آلام ذلك الصباح برغبة حقيقية في تبديل عواطفه التي أضحت لا تحتمل ، وخصوصا تلك العاطفة التي كانت تدفعه الى التدخل لمصلحة سونيا • وكان يفكر أيضا في موعده القريب مع سونيا ، ذلك الموعـد الذي كان يقلقه أحيانا بوحشية • كان « يجب » عليه أن يطلعها عـلى قاتل اليزابيت ، وكان يشعر بسبب ذلك بعـذاب حقيقي ، فراح يلوح بيده وكأنه يطرد تلك الرؤيا • وهكذا عندما خرج مـن مسكن كاترين ايفانوفنا وهتف لنفسه : « حسنا يا صوفي سيميونوفنا، ماذا ستقولين الآن ! » كان يهتف بهذا الكلام تحت تأثير الانفعال الذي أحدثـه في نفسه انتصاره الأخير على لوجين • غير أن أمرا شاذا وقع له بعد ذلك : شعر حينما بلغ مسكن كابيرناووموف بأن قواه قد خانته ، وأنها أسلمت مكانها الى الخوف • توقف حائرا أمام الباب قليلا وطرح عـلى نفسه السؤال الغريب التالي : « هل يجب أن أقول من قتـل اليزابيت ؟ » • كان السؤال غريبا لأنه شعر فجأة في تلك اللحظة بالذات أنه ليس فقط ممنوعا عليه اخفاء ذلك ، بل انه يستحيل كذلك أن ينافي ذلك الاعتراف الحقيقي ولو بأتفه تفصيل • لم يكن يعرف لم كان ذلك مستحيلا ، بل كان يشعر به فقط • وكان ذلك الشعور بالضعف أمام تلـك الضرورة الملحة يثقل عليه ويكاد أن يستحقه • ولكي يضع حدا لأفكاره وقلقـه فتح الباب بعنف ونظر مـن العتبة الى سونيا • كـانت جالسة مسندة مرفقيها الى المنضده مخفية وجهها بين يديها • فلما رأت راسكولنيكوف

نهضت مسرعة وجاءت تستقبله وكأنها كانت بانتظاره •
هتفت بشدة ، وهي تعود به الى وسط الغرفة :
ـ ماذا كان سيحل بي لولاك ؟
بدا كأن تلك العبارة كانت كل ما تريد التفوه بـه والافصـاح عنه بسرعة كلية ، لذلك فقد صمتت فور النطق بها وراحت تنتظر •
اقترب راسكولنيكوف من المنضدة وجلس على المقعد الذي بارحته سونيا منذ حين ، فلبثت كذلك واقفة على قيد خطوة منه كأمس تماما •
قال فجأة بصوت متهدج :
ـ اذن ، يا سونيا • ألا ترين أن القضية كلها كانت تقوم على أساس « مركزك الاجتماعي والعادات التي تنجم عنه » • هـل فهمت ذلـك منذ حين ؟
ظهر على وجه سونيا طابع الألم ، فقاطعته بقولها :
ـ لا تحدثني كحديث البارحة أرجوك • لا تعاود الحديث ! كفاني عذابا ما لقيت •
اغتصبت ضحكة ، خشية أن تزعجه ملاحظتها ، وأردفت :
ـ لقد كنت حمقاء اذ بارحت المسكن منذ حين • ماذا يحدث هنـاك الآن ؟ وددت أن أعود لولا أن فكرت في أنك سوف تحضر !
أطلعها راسكولنيكوف على أن أميلي ايفانوفنا طردت الأسرة مـن المسكن وأن كاترين ايفانوفنا خرجت قاصدة مكانـا ما « للبحث عـن العدالة » •
أطلقت سونيا صرخة قصيرة ، وهتفت :
ـ آه ، يا رب ! لنعد على الفور •
ومدت يدها تأخذ دثارها فصرخ راسكولنيكوف بلهجة غاضبة :
ـ دائمـا نفس الشيء • ليس في رأسك الا التفكير فيهم ! امكثي لحظة معي •

ـ لكن ... كاترين ايفانوفنا ؟

ـ كاترين ايفانوفنا لن تستغني عنك . لسوف تحضر بنفسها الى هنا طالما أخرجت من الدار .

وأضاف بخشونة :

ـ فاذا لم تجدك فالخطيئة خطيئتك .

جلست سونيا على مقعد وهي فريسة الشك الأليم والحيرة الشديدة، بينما صمت راسكولنيكوف وراح يحدق في الارض يناقش فكرة في رأسه .

شرع يقول دون أن ينظر الى وجه سونيا :

ـ لنفرض الآن أن لوجين لم يكن يرغب في ذلك . أما اذا كان راغبا فيه وكانت المسألة داخلة في حسبانه وتصميماته فانه كان قـــادرا على سجنك في اصلاحية لولا ليبيزياتنيكوف وأنا ، أليس كذلك ؟

فأجابت بصوت ضعيف :

ـ نعم .

وراحت تكرر هذه الكلمة ساهمة قلقة .

ـ كان يمكن إن لا أكون موجودا هناك ! أما ليبيزيا تنيكوف فلقد كان موجودا بفعل الصدفة البحتة .

لبثت سونيا صامتة .

ـ اذن ؟ لو أنه وضعك في السجن ، ماذا كان سيحدث عندئذ ؟ هل تذكرين ما قلته لك البارحة ؟

ومن جديد ظلت سونيا صامتة ، وظل هو ينتظر جوابها فترة . ولـمـا لم تجب قال وهو يغتصب ضحكة :

ـ أتدرين ؟ كنت أعتقد أنـك ستصيحين أيضا : « آه ! لا تكلمني بذلك ! اصمت !» ...ماذا ، ألا زلت صامتة ؟ ما بك؟ ينبغي أن تتحدث

بشيء من الاشياء ؛ بل وانني أتلهف لمعرفة أسلوبك في حل « مسألة » كما قال ليبيزيا تنيكوف (وبدا كأنه على وشك الهذيـــان) . كلا ، صدقيني انني أتحدث جديا . تصوري يـا سونيا بأنك كنت تعرفـين سلفا كل نوايا لوجين . وأنك متأكدة كل التـأكيد مـن أن كاترين ايفانوفنا سيقضي عليها بسببه ، وكذلك سيقضي على اولادها ، وأنـك ستكونين مهانة مرذولة ـ رغم أنك مستعدة لاحتمال هذا ـ وأن بوليا كذلك ... لأن ذلك هو الطريق الوحيد الذي سيفتح أمامها . حسنا ، بعد كل هذا ، اذا كان أمر بقاء هذا أو هؤلاء على قيد الحياة منوطا بك أو بمعنى أصح : أن يبقى لوجين على قيد الحياة مرتكبا آثامه مسترسلا في غيه أو أن تموت كاترين ايفانوفنا ؛ في مثل هذه الحالة أي طريـق تقررين سلوكها ؟ وموت أي منهما تفضلين ؟ انني أسألك رأيك .

نظرت اليه سونيا بكآبة . لقد خمنت أن وراء هذه الكلمات المتعثرة فكرة بعيدة ذكرتها بشيء ما .

قالت وهي تنظر اليها بفضول مضطرم :

ـ كنت أتوقع أن تلقي علي سؤالا من هذا النوع .

ـ حسنا ، ليكن ، أي طريق كنت تنتقين ؟

فأجابت سونيا بفور :

ـ لِمَ تسألني عن الامر الذي يمكن أن يقع ؟

ـ اذن من الافضل أن يبقى « لوجين » ويستمر في الحياة مرتكبـا شروره وآثامـه ! انها مجرد فكرة لا تجـدين في نفسك الجرأة على تصورهـا .

ـ لكن ، انني لا أريد أن أتدخل في أسرار القدرة الالهية . مـا فائدة سؤالي عن أشياء ممنوع التساؤل عنها ؟ ما فائدة هـذه الاسئلة التي لا طائل تحتها ؟ كيف يمكن أن أفكر بأن أمرا كهذا كـان يتوقف

على مشيئتي ؟ من ذا الذي خولني حق الحكم في مـن يجب أن يعيش ومن يجب أن يموت ؟

غمغم راسكولنيكوف بلهجة شرسه :

ــ طالما أن القدرة الالهيه تتدخل في هذه الأمور فلم يعد هناك مـا يعمل .

هتفت سونيا بانزعاج :

ــ من الخير أن تقول لي بصراحة ما تريد أن تقوله . ها انـك مرة أخرى تبيت أمرا ... أيجوز أن تكون قد جئت لتعذبني فقط ؟

لم تتمالـك نفسها فراحت فجـأة تبكي بمراره ، فنظر اليهـا راسكولنيكوف نظرة كئيبة حزينة ، وانقضت خمس دقائق .

قال بلهجة عذبة :

ــ هيا يا سونيا . انك على حق .

بدا فجأة متغيرا كل التغير فقد اختفت اللهجة الوقحة المتحديـة التي كان يتصنعها وأصبح صوته خافتا :

ــ لقد قلت لك البارحة أنني لن أحضر لأطلب صفحك . وها انني قد بدأت بالاعتذارات تقريبا ... انه بصدد لوجين والقدرة ... اذا كنت أعتذر ، يا سونيا .

أراد أن يضحك . لكن أمارات الضعف والتعب بدت واضحة عـلى ابتسامته الشاحبة ، فأطرق برأسه وغطى وجهه بيديه . شعر فجـأة شعورا غريبا غير منتظر ، شعورا بالحقد على سونيا يدمي قلبه ، فدهش وذعر من ذلك الاكتشاف . ورفع رأسه بعنف وحدج سونيا بعينيـه . غير أنه لم يلمس في نظرة الفتاة القلقة الكئيبة المعذبة الا لونا من الحب. فتبخر الحقد من قلبه كالحلم . ان الامر ليس كذلك ! لقد فهم شعوره فهما خاطئا . ان كل ذلك يعني أن « الوقت » قد أزف .

ومن جديد راح يطرق برأسه ويخفي وجهه بيديه ، وفجـأة شحب لونه فنهض من مكانه ونظر الى سونيـا ثم جلس على السرير دون أن ينطق بكلمة واحدة .

كانت تلك الدقيقة ــ وقد شعر بذلك ــ مشابهة تمامـــا لتلك التي قضاها واقفا وراء العجوز بعد أن خلص فأسه من العقدة السبالة وهـــو يشعر بأنه « ليس لديه لحظة واحدة يضيعها » .

سألته سونيا ، وهي شديدة الذعر :

ــ ما بك ؟

لم يستطع الجواب . لم يكن ينتظر « أن يفسر » الامر على هـــذا الشكل . كان لا يدري في تلك اللحظة ماذا يجري في أعماق نفسه .

اقتربت سونيا من راسكولنيكوف بلطف وجلست على حافة السرير بجانبه وراحت تنظر اليه صامتة وقد تضاعف وجيب قلبها حتى كاد أن ينفجر . أصبح الموقف لا يحتمل فأدار وجهه الشاحب شحوب الاموات نحوها وراحت شفتاه تتقلصان بتأثير المجهود الذي كان يبذله عبثـــا للتلفظ بأية كلمة ، فسمر الذعر قلب سونيا .

كررت وهي تبتعد عنه قليلا :

ــ ما بك ؟

تمتم قائلا كمن لا يعرف عن نفسه أنه يهذي :

ــ لا شيء ، يا سونيا . لا تفزعي ... حماقات في حقيقتها اذا فكر المرء فيها . لكن لِمَ جئت أعذبك أنت ؟ صحيح لماذا ؟ انني لا أني أطرح على نفسي هذا السؤال ، يا سونيا .

لعله طرح على نفسه ذاك السؤال منذ ربع ساعة تقريبا . أمـــا الآن فقد كان يتكلم وهو في حالة ضعف كامل لا يكاد يحس بحركاتـــه وتصرفاته . كان كل جسمه ينتفض مرتعدا باستمرار .

قالت بحنان ، وهي ترفع عينيها اليه :

ـ أوه ! كم تتألم !

ـ سخافات !... هيا يا سونيا (وارتسم على شفتيه طيف ابتسامة لم يلبث الا ثانيتين) هل تذكرين ما كنت أريد أن أقوله لك أمس ؟

لبثت سونيا تنتظر فريسة القلق :

ـ لقد قلت لك وأنا خارج أنني قد أكون أودعك للمرة الاخيرة . لكنني اذا عدت اليوم فسأقول لك ... من الذي قتل اليزابيت ؟

راحت سونيا ترتعد بعنف فجأة .

ـ حسنا . ها قد جئت لأقوله لك .

تمتمت سونيا بمجهود كبير :

ـ نعم لقد قلت لي البارحة حقيقة ... لكن كيف تعرفه ؟

بدت سونيا اثر هذا السؤال وكأنها استعادت حواسها . كانت تتنفس بصعوبة ووجهها يزداد شحوبا

ـ انني أعرفه .

فصمتت دقيقة كاملة ثم سألت بخجل :

ـ هل وجدوه ؟

ـ كلا لم يجدوه بعد ...

سألت بصوت مختنق بعد دقيقة صمت أخرى :

ـ اذن كيف تعرف ذلك ؟

فاستدار اليها وحدق في عينيها وقال ـ وشبح تلك الابتسامة على شفتيه :

ـ احزري ...

انتفضت سونيا وكأن تشنجات عصبية انتابتها ودمدمت ، وهي تبتسم كالطفل الغرير :

ـ لكن أنت ... ت ... لماذا هكذا تخيفني ؟

تابع راسكولنيكوف دون أن ينقطع عن النظر الى وجهها وكأنه لا يملك القوة على تحويل عينيه :

ـ ذلك لأنني شديد الاتصال به ... لذلك أعرف ... انه لم يكن يريد قتل اليزابيت ... لقد قتلها دون سابق تصميم ... كان يريد أن يقتل العجوز ... عندما كانت وحدها ... وذهب اليها ... وعندئذ دخلت اليزابيت . كان هناك ... فقتلها .

لبثا يتبادلان النظر وانقضت دقيقة أخرى حافلة بالرعب .

سألها فجأة وهو يرى نفسه كمن يوشك على القاء نفسه من أعلى قبة جرس :

ـ ألا تستطيعين التخمين بعد ذلك ؟

غمغمت سونيا بصوت لا يكاد يسمع :

ـ كلا .

ـ ابحثي جيدا ، فكري .

لما نفوه بهذه الكلمة ، شعر من جديد بذلك الشعور البارد المتجمد الذي عرفه من قبل ، يجتاح جسمه فجأة ويتغلغل في أعماقه . نظر الى سونيا وفجأة بدا له وجهها شبيها بوجه اليزابيت . تذكر على الفور الامارات التي ارتسمت على وجه اليزابيت في تلك اللحظة التي اقترب منها رافعا فأسه ، وهي تتراجع أمامه نحو الجدار رافعة يدها أمامها كالاطفال الصغار تماما عندما يخافون فينظرون الى الشيء الذي أرعبهم نظرة ثابتة وجلة وهم على أهبة الانخراط في البكاء . كذلك كان حال سونيا في تلك اللحظة : كانت تنظر اليه في تلك البرهة بذلك الذعر وذلك الارتياع والتشوش . وفجأة رفعت يسراها ولمست صدره بأطراف أناملها ونهضت ببطء وهي تبتعد عنه رويدا دون أن تنقطع عن النظر

الى وجهه بشدة وقوة • تجاوب الذعر الذي في نفسها مع الاحساس الذي في روحه ، فارتسمت على وجه راسكولنيكوف امارات الخوف والرهبة ونهض بنفس الوقت وهو يحدجها بنظرته ويبسم تلك الابتسامة ـ ابتسامة الاطفال •

تمتم أخيرا :

ـ لقد حزرتِ •

هتفت سونيا ، وهي تطلق زفرة محزونة :

ـ رباه !

وسقطت على السرير خائرة القوى وأخفت وجهها في الوسادة • لكنها لم تلبث أن نهضت بنشاط واقتربت منه على الفور فأخذت يديه بين يديها وراحت تضغط عليهما بعنف وعادت تنظر في عينيه وكأنها لا تستطيع الانفصال عنه • كانت تبحث بتلك النظرة اليائسة الأخيرة عن أمل ، أي أمل • لكن انتظارها كان عبثا • لم يبقَ أي شك • نعم ! ان الأمور كانت « كذلك » !

تساءلت بذهول ـ حينما استعادت في ذهنها تلك اللحظة فيما بعد ـ كيف استطاعت التأكد من أنه فعل ذلك دون شك ؟ انها لم تكن تستطيع القول انها شعرت بهذه الخاتمة شعورا مسبقا • مع ذلك فانه لم يكد يتكلم اليها ويلفظ تلك الاقوال حتى خيل اليها بأنها كانت تتوقع « ذلك الامر بالذات » •

ابتهل اليها بألم :

ـ كفى يا سونيا ، كفى ! لا تعذبيني •

لم يكن يفكر أبدا في أن يعترف لها على ذلك « الشكل » • كلا ! ولكن الامر وقع على ذلك « الشكل » دون أن تكون له يد فيه •

بدت سونيا كأنها فقدت اتزانها اذ قفزت حتى منتصف الغرفة وهي تلوي يديها • لكنها عادت مسرعة الى جانبه فجلست وكادت أن تلمس

كتفه بكتفها • وفجأة راحت ترتعد وكأن سهما اخترق قلبها • أطلقت صرخة ثم جثت على ركبتيها أمام راسكولنيكوف دون أن تعرف السبب:
ـ ماذا عملت ؟ ماذا عملت ضد نفسك ؟
تراجع راسكولنيكوف قليلا ونظر اليها ، وهو يبتسم بحزن :
ـ كم أنت شاذة ، يا سونيا ! أتعانقينني بعد أن قلت لك ذلك ؟ انك لا تعي ما تفعلين •
هتفت مندفعة دون أن تسمع الملاحظة التي أبداها :
ـ كلا ، كلا ! ليس هناك انسان في العالم أتعس منك !
وانخرطت فجأة في نوبة من البكاء •
شعر راسكولنيكوف باحساس كان مجهولا منه منذ أمد طويل ، شعر به يكتسح قلبه فلم يحاول الاعتراض أو المقاومة • وانبعثت دمعتان من عينيه تعلقتا بأهدابهما ، ونظر اليها نظرة تشع بالأمل ، وقال :
ـ على ذلك يا سونيا ، فانك لن تهجريني •
صرخت :
ـ كلا ، كلا أبدا ، اطلاقا سأتبعك أينما تكون ! سأتبعك في كل مكان ! أوه ! رباه ! أوه ! كم أنا حقيرة ! ولكن لِمَ ، لم لم أعرفك من قبل ؟ لِمَ لم تأتِ اليّ قبل الآن ؟ أوه ! يا رب !
ـ ها أنت ترين : لقد جئت !
كررت حائرة ، وهي تعانقه من جديد :
ـ الآن ! أوه ، ما العمل الآن ! معا ، معا ، سأذهب معك الى « الليمان » !
اخترقت هذه الكلمات صدره كنصل حاد وعادت الى شفتيه الابتسامة الحقود المتعالية التي ارتسمت عليهما منذ حين :
ـ لعلني يا سونيا لا أرغب حتى الآن في الذهاب الى « الليمان » •
نظرت اليه سونيا بحدة •

شعرت عقب عاطفة الاشفاق العنيف المتـألم نحـو التعس بفكرة المجرم الشرسة تعاود ايلامها • أحست بأنها تسمع القاتل يتحدث بتلك الكلمات التي فاه بها أخيرا بلهجته المبتذلة ، فنظرت اليه بذهول كانت لا تعرف حتى تلك اللحظة لماذا وكيف وقع كل هذا • استيقظ عدد كبير من الأسئلة في نفسها وراحت من جديد تشك في صحة ما سمعته: «هو، هو، قاتل ! أيعقل ذلك ؟ »

قالت في دهشة عميقة وكأنها لم تستعد احساسها بعد :

ـ لكن ماذا هناك ؟ أين أنا ؟ كيف أنت ، أنت ، باعتبارك من أنت ••• وافقت على مثل هذا ؟ لكن ••• لماذا ؟••

قال بلهجة متعبة بل وبشيء من الامتعاض :

ـ من أجل السرقة ! كفي ، يا سونيا !

ذهلت سونيا لهذا القول وفجأة هتفت :

ـ أكنت جائعا ؟ أكان ••• لمساعدة أمك ؟ نعم ؟

تمتم وهو يتحول عنها ويطرق برأسه :

ـ كلا يا سونيا كلا ! لم أكن جائعا الى هذا الحد • في الحقيقـه انني كنت أريد مساعدة أمي لكن هذا السبب لم يكن حقيقيا تماما ••• لا تعذبيني ، يا سونيا •

ضربت سونيا كفا بكف :

ـ هل يعقل ؟ هل يعقل أن يكون هذا قد وقع بالفعل ! رباه، أين هي الحقيقة اذن ؟ من كان يصدق كل هذا ؟ ثم كيف يحدث أن تكون، أنت الذي تعطي آخر نقودك للناس ، تقتل من أجل السرقة •

وفجأة صرخت :

ـ آه ! ذلك المال الذي أعطيته الى كاترين ايفانوفنا ؟؟•• ذلك المال ••• رباه ، هل يعقل أن يكون ذلك المال أيضا •••

فقاطعها بعنف :

ــ كلا ، يا سونيا ! ان ذلك المال لم يأت من ذلك المصدر فاطمئني. انّ ذلك المال أرسل الي من قبل أمي بواسطة أحد التجار وقد تلقيته أثناء مرضي في اليوم الذى أعطيته ... لقد رآه رازوميخين ... وهو الذي قبضه باسمي ... ان هذا المال هو ملكي حقيقة .

كانت سونيا تصغي اليه وهي لا تعرف ماذا تصدق وتجهد في لم شتات أفكارها .

أضاف قائلا بهدوء وبلهجة حالمة :

ــ أما المال « الآخر » ... على كل حال لست أدري اذا كان هناك مال بالفعل . لقد رفعت عن جثة العجوز حافظة نقود من جلد الماعز ... حافظة مملوءة بل ومحشوة حشوا ... لكنني لم أنظر الى ما فيها ... لم يكن لدي الوقت لذلك ... ثم انني وجدت هناك بعض الأشياء، أزرار الأكمام وسلاسل فأخذتها كلها مع الحافظة ومضيت أخفيها في باحة منزل في شارع « ف ... » ولا زالت هناك حتى الآن .

كانت سونيا تنظر اليه بلهفة ، فسألت وكأنها تحاول التعلق بالقشة الواهية شأن الغريق :

ــ لكن . كيف ذلك ... ألم تقل انك ... « لتسرق » ، ومع ذلك لم تأخذ شيئا !

فأجابها شارد البال :

ــ لست أدري ! لم أقرر بعد اذا كنت سآخذ ذلك المال أم لا .

وفجأة عاد اليه شعوره فقال :

ــ يا للحماقة التي تلفظت بها ! أليس كذلك ؟

ومضت في خاطر سونيا فكرة سريعة : « ألا يمكن أن يكون مجنونا ؟ » لكنها أبعدت تلك الفكرة فورا : « كلا هناك شيء آخر ». بيد أنها لم تكن تفقه شيئا .

قال فجأة في شيء من الايحاء :

ـ أتعرفين يا سونيا ، أتعرفين ماذا سأقول لك : انني لو قتلت مدفوعا بالجوع لكنت الآن ... سعيدا ! تأكدي من ذلك .

كان يضغط على كلمة من هذه الكلمات وهو ينظر اليها نظرة غامضة .

هتف بعد لحظة :

ـ ولكن ماذا يهمك ! ماذا يهمك أن أكون قد اعترفت بخطئي ؟ ما فائدة هذا النصر السخيف على نفسي ؟ آه يا سونيا ! أمن أجل هذا جئت اليك الآن ؟

ومن جديد أرادت سونيا أن تقول شيئا لكنها لزمت الصمت .

ـ اذا كنت دعوتك أمس فذلك لأنك الوحيدة التي بقيت لي .

سألت سونيا بوجل :

ـ دعوتني الى أين ؟

فأجابها بضحكة غاضبة :

ـ ليس لتسرقي وتقتلي . اطمئني ، ليس من أجل ذلك . نحن مخلوقان مختلفان ... هل تعرفين ، يا سونيا ؟ انني عرفت فقط الى أين دعوتك بالأمس . لم أكن أعرف ذلك البارحة . لقد دعوتك لسبب واحد ، وقد جئت من أجل سبب واحد . أن لا تهجريني . هل ستهجرينني ، يا سونيا ؟

ضغطت سونيا على يده بينما هتف بيأس فجأة ، وهو يتأملها بألم عميق :

ـ ولِمَ ، لم اعترفت لها ؟ ها انك يا سونيا تسمعين اعترافات مني وأراك تنتظرين المبررات . انني أرى ذلك . ماذا سأقول لك ؟ انك لن تفهمي منها شيئا ولن يزيدك هذا الا ألما .. بسببي ! ها انك تبكين

أيضا وتعانقينني • لِمَ تعانقينني ؟ ألأنني استطعت احتمـال كل هذا ؟! ألأنني جئت أفثأ همومي بحضرة شخص آخر وأنا أقول : « تألم أنت الاخر ، لسوف يرفه عني ذلك ! » هل يمكن أن تجبي نذلا لهذا ؟

هتفت سونيا :

ــ لكن أو لا تتألم أنت الآخر ؟

ومن جديد عادت تلك العاطفة تجلد قلبه ، ومن جديد هدأ بعض الوقت :

ــ سونيا ، انني سيىء القلب فانتبهي لذلك • ان هذه الكلمة تستطيع أن تفسر أشياء كثيرة • لقد جئتك لأنني خبيث • ان آخرين ما كانوا ليأتوا • أما أنا ، فأنا جبان و ••• نذل ! على كل حـال ••• لا أهمية لهذا ! ان الأمر لا يتعلق بهذا • انني يجب أن أتكلم ولست أدري أين أبدأ •

وجلس ثم راح في بحران عميق •

هتف فجأة :

ــ اه ! نحن مخلوقان مختلفان يستحيل تفاهمنا • فلماذا جئت؟ لن أغفر لنفسي أبدا •

قالت سونيا :

ــ كلا لقد أحسنت صنعا بالمجيء ! من الخير أن أعلم ! من الخير كثيرا !

فنظر اليها بألم وقال : وكأنه يتابع فكرة ما :

ــ ان الامور قد وقعت تماما على هذا النحـو : كنت أريـد أن أصبح نابليونا • ولهذا السبب قتلت • والآن هل فهمت ؟

غمغمت سونيا بسذاجة بصوت خجول :

ــ كلا ••• لكن ••• تحدث ، تحدث ! لسوف أفهم ، لسوف

أتهـــم •

ـــ لسوف تفهمين ؟ جسنا سوف نرى •

صمتت فجأة ، وراح في تفكير عميق :

ـــ ان كل القضية محصورة في أنني ألقيت على نفسي مرةالسؤال التالي : « ماذا كان يحدث ـــ مثلا ـــ لو أن نابليون كان في مثل مركزي ولم يكن لديه ، في بدء حياته لا في طولون ولا في مصر ولا في ممر الجبل الابيض « مون ـــ بلان » بدلا من كل هذه الأشيـــاء الجبـــارة الكبيرة ، الا عجوز خبيثة غريبة مرابية كان يجب عليه قتلهـــا ليسلبهـــا مالها المخبأ في صندوقها وذلك خدمه لمركزه ومستقبله، هل تسمعين ؟•• جسنا • هل كان يقرر ذلك اذا لم يكن لديه أي وسيلة أخرى ؟ ألم يكن يشعر بلون من الخجل العميق لمجرد أن أمرا كهذا تنقصـــه العظمة ••• وأنه شديد الاجرام ؟ لعمري ان هذا « السؤال » ما انفك ينكد حياتي زمنا طويلا لدرجة أنني شعرت بخجل قاتل عندما استنتجت فجأة أنه ما كان ليخجل مطلقا ، بل وان فكرة افتقار هذا العمل الى العظمة ما كان ليخطر له على بال • بل وما كان ليفهم أي خجل يسببه ذلك ، وأنه اذا لم تكن هناك وسيلة أخرى فانه كان سيقتل دون أن يفكر لحظه أو أن يتردد • وعلى ذلك فانني أنا الآخر خرجت بهذا الرأي :

« ••• لقد قتلت ••• تشبها بالسلطات ••• وقد حدث ذلك تماما كما قلت ! أيبدو ذلك غريبا ؟ نعم يا سونيا • ان الأغرب من ذلك أن يكون قد وقع تماما على هذا الشكل » •

لم تكن سونيا ترغب في الضحك ، فقالت بصوت أشد ذعرا لا يكاد يميز :

ـــ قل لي ••• دون أمثلة •

فاستدار نحوها وتأملها طويلا وأخذ يديها بين يديه :

ــ انك على حق ، يا سونيا • ان كل ذلك شاذ وغريب ، انه ليس الا ثرثرة ! اعلمي أن أمي ــ كما عرفتِ ــ لا تمتلك شيئا تقريبا • وأن أختي التي تلقت بعض الثقافة على سبيل الصدفة محكوم عليها أن تتنقل من مكان الى آخر لتشغل وظيفة مربية • كانت كل آمالهـا معلقة بي وحدي • وقد بدأت دراساتي في الجامعة ثم اضطـررت الى الانقطاع عنها بعد أن فقدت الأسباب المعاشية • حتى اذا افترضنا أنني أتممت دراساتي فانني كنت بعد عشرة أو اثني عشر عاما ــ هذا اذا خدمني الحظ ــ آمل أن أصبح أستاذا أو موظفا ما لقاء راتب سنوي قدره ألف روبل •

كان يبدو على راسكولنيكوف أنه يتلو درسا حفظه • استرسل :

ــ وبانتظار هذا الوقت كانت أمي ستفنى في الأحزان والهموم • وما كنت لأستطيع أن أطمئنها • أما أختي ••• فانها ••• كانت معرضة لشر من هذا ! فلمَ اذن أسيء الى حياتي وأحرم نفسي مـن كل شيء فأهجر أمي ولا أشعر بجرح في كرامي لما قد يصيب أختي من امتهان ؟ ما فائدة كل ذلك ؟ ألكي أستطيع ــ بعـد أن أدفنهمـا ــ أن أنشيء لنفسي بيتا مع زوجة وأطفال أتركهم بدورهم عندما أموت دون قرش واحد أو قطعة من الخبز ؟ اذن ••• اذن ••• لقد قررت في نفسي أن أكرس أموال العجوز ــ عندما أحصل على أموالها ــ لدراساتي ثـم لأستعين بها في تسديد خطواتي الأولى بعد خروجي مـن الجامعة ••• كنت أتوقع أن أتصرف بشكل شامل عام حتى أستطيع بلوغ مـركز جديد أنعم فيه بكل الاستقلال • نعم هذا هو كل شيء ••• ولا شك أنني أسأت صنعا بقتل العجوز •• والآن كفى !

أ[illegible] قصته باعياء وجهد عنيفـين • بدا منهـوك القوى فأطرق برأسه •

هتفت سونيا بمرارة :

ـ أوه . انه ليس كذلك ! هل هذا معقول ؟ كلا ! انه ليس كذلك !

ـ انك تقولين بنفسك انه ليس كذلك ! مع ذلك فقد قصصت عليك باخلاص كل الحقيقة .

ـ ويا لها من حقيقة ! أوه ، رباه !

ـ مع ذلك انني لم أقتل يا سونيا الا حشرة ، حشرة قذرة ضارة وعديمة الفائدة .

ـ ان تلك الحشرة كانت مخلوقا بشريا .

أجابها ، وهو ينظر اليها نظرة غريبة :

ـ وأنا أعرف تماما أنها لم تكن حشرة حقيقية .

وأضاف :

ـ غير أنني أكذب ، يا سونيا . انني أكذب منذ زمن طويل ... أن الأمر ليس كذلك . انك على صواب . لقد وقع الأمر لأسباب أخرى مختلفة كل الاختلاف ... منذ زمن طويل انقطعت عن التحدث الى الناس . سونيا ... ان رأسي يؤلمني جدا في هذه اللحظة .

كانت عيناه تلتهبان ببريق محموم ، وكان الهذيان قد بدأ يكتسح عقله ، بينما راحت ابتسامة قلقة تحوم على شفتيه . كان انفعاله طافحا باعياء فظيع ، وكانت سونيا تدرك تماما مدى تألمه فشعرت هي الاخرى بدوار في رأسها . انه كان يتحدث بأسلوب شديد الغرابة : كان يستطيع المرء أن يميز شيئا في ذلك ، ولكن « ما هو ذلك الشيء ، ما هو ذلك الشيء ؟ رباه ! » وراحت تلوي يديها من اليأس .

رفع رأسه فجأة واسترسل وكأن أفكاره قد اتخذت شكلا آخر جدا لعينيه في تلك اللحظة :

ــ كلا ، يا سونيا ! ان الأمر ليس كذلــك • ليس كــذلك • أو بالاحرى ••• تصوري ــ نعم من الافضل أن تتصوري ذلك ــ بــأنني سريع الغضب حسود خبيث منحط ميال الى الانتقــام و ••• لنقــل : مخبول بعض الشيء ــ وقد لاحظت ذلك • لقد قلت لك منذ حــين أنني لم آكن أمتلك الوسائل التي تتيح لي البقاء في الجامعة • لكن أتعرفين أنني كان يمكن لي أن أتابع دراساتي ؟ كانت أمي سترسل الي ما يلزم من أجل ذلك ، وكنت أستطيع بعملي الشخصي أن أوفر لنفسي بعض الثياب والألبسة والطعام تقريبا : ان اعطاء الدروس كان يدر علي خمسين كوبيكا لكل درس • ان رازوميخين يشتغل كما يجب ، أما أنا فقد ركبت رأسي • هذه الكلمة الفنيــة • لقد انطــويت في زاويــي كالعنكبوت • لقد جئت بنفسك الى زنزانتي وشاهدتها • أتعرفين يــا سونيا أن السقوف المنخفضة والجدران الضيقة تضغط بشدة على العقل والقلب ؟ أوه ، لقد اختبرت طويلا تلك الزنزانة ! مع ذلك فانني ما كنت أريد الخروج منها ! لقد لبثت فيها عامدا • لقد قضيت هناك أياما كاملة عازفا عن العمل أرفض حتى تناول الطعام ، مستلقيا أبدا على جنبي • فاذا أتتني ناستاسيا بشيء آكلته وان لم تأتني لبثت صائما يؤلمني أن أطلب اليها شيئا ! وفي الليل ــ ولأنني لم آكن أملك ضوءا ــ كنت أبقى في الظلام الدامس بدلا من أن أعمل لأشتري لنفسي مصباحا • وبدلا من أن أدرس بعت كتبي • كان على المنضدة وفوق دفاتري طبقة مــن الغبار تبلغ كثافتها أصبعا • ولا زالت دفاتري في المكان ذاته ! كنــت أفضل أن ألبث مستلقيا أحلم وأتخيل • ما كنت أحسن شيئا الا التخيل، ولا حاجة الى القول ان تلك الاحلام كانت غريبة متبدلة ومتحولة• وفي أثناء ذلك التخيل جال في خاطري أن ••• كلا ، ليس هذا أيضا ! انني لا أسرد الأشياء كما وقعت ! كنت أتساءل طيلة الوقت : « لم أنا مغفل لدرجة أنني أعرف أن الآخرين مغفلون مثلي ، مع ذلك فلا أجهد نفسي

لأصبح أكثر ذكاء منهم ؟ » وعندئذ استنتجت يا سونيا أنه اذا كان المرء ينتظر اللحظة التي يصبح فيها العالم كله من الاذكياء ، فان عليه أن ينتظر طويلا . وقد تأكد لي فيما بعد أن ذلك لا يمكن حدوثه أبدا ، وأن الرجال لا يتبدلون وأنه ليس لأحد أن يحولهم وأن ذلك لا يستأهل اضاعة الوقت . نعم انه كذلك ! انه بالنسبة اليهم قانون ... ، قانون يا سونيا . انه لكذلك !.. وانني أعرف الآن يا سونيا أن ذلك الذي يكون قويا في ذكائه وروحه ، أن هذا يكون سيدهم ، أنه يعمل كل شيء فيعذرونه . انه ذلك الذي يسخر بكل شيء ويفرض نفسه كمشروع . بل ان الأكثر حذقا ودراية هو الذي تكون له الكلمة الأخيرة ! لقد كانت الدنيا أبدا كذلك وستبقى أبدا كذلك . ليس الا العميان الذين لا يرون هذا !

رغم أن راسكولنيكوف كان يتكلم وهو ينظر الى سونيا الا أنه كف أخيرا عن الاهتمام بتفهمها الأمر . كانت الحمى قد عادت اليه من جديد وعلى أشد ما تكون . لقد كان في لون من الانطلاق القاتم وهو الذي لم يتحدث مع أحد منذ زمن طويل ! فأدركت سونيا أن هذا المذهب الوحشي كان عنده في مرتبة الايمان العميق .

أردف بلهجة جليلة :

ـ وعندئذ ارتأيت يا سونيا ان السلطة لا تعطى الا للذي يجرؤ على الانحناء لأخذها . يكفي أن يجرؤ المرء ! والامر كله هنا . عندئذ خطرت لي فكرة لأول مرة في حياتي ، فكرة لعل أحدا من قبل لم يعنَّ بها . أي أحد ! لقد فهمت فجأة ، وبوضوح كالنهار ، ان أحدا لم يجرؤ بعد على الانحناء . لقد اعتقد الناس أنه من الشذوذ والغرابة أن يؤخذ الوحش ببساطة من ذنبه وأن يطوح به الى الشيطان ! أما أنا ... أنا ... فقد أردت أن أجرب القيام بعمل جريء ... وقتلت ... لم أكن

أريد الا « اجراء محاولة » فحسب • هذا كل شيء ، يا سونيا •

صرخت سونيا ، وهي تضرب كفيها ببعضهما :

ـ أوه ، اصمت ، اصمت ، لقد إبتعدت عن الله فضربك الله، لقد أسلمك الى الشيطان !•••

ـ على فكرة يا سونيا ، انني حينما كنت أستلقي في ظلام حجرتي قاطعا الوقت في الاحلام وتخيل الأشياء ، كان الشيطان هو الذي يغريني • أليس كذلك ؟

ـ اصمت ! لا تضحك أيها الشيطان ، انك لا تفهم شيئا من شيء••

ـ اصمتي يا سونيا ، انني لا أضحك • انني أعرف تماما ان الشيطان هو الذي أغراني •

وكرر بلجاجة كئيبة :

ـ اصمتي يا سونيا ! لقد فكرت من قبل في هذا بل وكنت قد همست به لنفسي عندما كنت في الظلمات مستلقيا ••• لقد تناظرت مع نفسي حول هذا الموضوع ، وانني أعرفه كل المعرفة لكثرة ما محصته ! ويا للسآمة التي كانت تحدثها تلك الثرثرة في نفسي ، كنت أريد نسيان كل شيء وبدء حياة جديدة أخرى • والتخلص من تلك الثرثرة • هل تصدقين يا سونيا أنني كنت أمشي هكذا كالأبله منحني الرأس ؟ لقد تصرفت تصرفه الرجل المبرهن كثير الحجج وهذا الذي قضى علي • هل تظنين أنني كنت أجهل مثلا أنني اذا سألت نفسي: «هل لي الحق في السلطة أم لا » ، لكان الجواب أنه ليس لي الحق ؟ أو أيضا لو طرحت على نفسي هذا السؤال: « هل الكائن البشري هوام؟ » لكان معنى ذلك أن ذلك الكائن قد أصبح بالنسبة الي مجردا من كيانه وأنه ليس هواما الا في عيني. ذلك الذي لم يفكر قط بل مضى الى هدفه دون أن يلقي على نفسه أسئلة • انني خلال تلك الايام الطويلة ،

عندما كان السؤال التالي يقض مضجعي : « هل كان نابليون يذهب ليقتل أم لا ؟ » كنت أشعر بصراحة ، صدقيني ، أنني لم أكن نابليونا ، ذلك هو العذاب الذي عانيته يا سونيا والذي أردت أن أنبذه دفعة واحدة . لقد أردت يا سونيا أن أقتل دون الرجوع الى الضمير . أردت أن أقتل من أجل نفسي فقط ! لم أشأ أن أكذب حول هذا الموضوع حتى ولا على نفسي . انه لم يكن لمساعدة أمي ، كلا ! ولم يكن كذلك لأفرض من نفسي محسنا الى الانسانية بعد أن أحصل على الوسائل ؛ كلا ، لقد قتلت بكل بساطة . قتلت من أجل نفسي فقط ، من أجلي فقط ، لم أكن أتساءل في تلك اللحظة عما اذا كنت سأصبح محسنا ما ، أم كنت سأمضي حياتي كالعنكبوت يوقع في نسيجه من الضحايا ليستفيد ويلتهم فواهم الحيوية . خصوصا وأن المال لم يكن الحاجة الحساسة التي قتلت من أجلها . لقد كانت حاجتي الى المال أقل من حاجتي الى أشياء أخرى . انني أعرف ذلك الان ... افهميني اذ لو كان الامر واجب الاعادة لما أعدته . كان ينبغي لي شيء آخر وذلك الشيء الآخر هو الذي دفع ذراعي : كنت أريد أن أعرفه معرفة سريعة عاجلة اذا كنت حشرة حقيرة كالآخرين أم رجلا . هل أستطيع تخطي العقبة أم لا أستطيع ؟ ذلك ما كنت أسأل نفسي عنه . هل أستطيع الانحناء للأخذ أم لا أستطيع ؟ هل أنا مخلوق رعديد أم « أن لي الحق ؟... »

قالت سونيا ، وهي تضم يديها :

ــ أن تقتل ؟ أن يكون لك الحق في القتل ؟

هتف غاضبا :

ــ ايه ، يا سونيا .

كان يريد أن يجيب غير أنه صمت صمتا محتقرا ، وأردف :

ــ لا تحتقريني يا سونيا ، لقد أردت فقط أن أثبت شيئا : أن

الشيطان قد جرني أولا ثم عاد وأفهمني أنه لم يكن لي الحق بالذهاب وأنني لست الا حشرة كالآخرين . لقد سخر الشيطان مني وهـذا هو السبب الذي جئت من أجله اليك . يا للزيارة الجميلة ! هل كنت أحضر اليك لو لم أكن حشرة حقيرة ؟ اسمعي . عندما ذهبت من قبل الى مسكن العجوز ما كنت أريد الا أن « أجرب محاولة » .. اعلمي ذلك .

ــ ولقد قتلت ... ولقد قتلت .

ــ لكن . كيف قتلت ؟ وهل يقتل المرء هكذا ؟ هل تصرفت على هذا النحو ؟ لسوف أقص عليك يوما كيف وقع ذلك ... أهي العجوز الصغيرة القذرة التي قتلت ... انني قتلت نفسي وليس العجوز ، لقد أفنيت نفسي هكذا الى الابد ، أما العجوز فان الشيطـان هو الذي قتلها وليس أنا . كفى يا سونيا كفى ، كفى ، دعيني ، دعيني .

كان يصرخ فريسة لحزن وتشنج، فركز مرفقيه على ركبتيه وضغط على رأسه بيديه بشدة وعنف .

زمجرت سونيا :

ــ يا للألم البليغ !

سألها فجأة وهو ينظر الى وجهها ، وقد قـلب اليـأس سحنتـه فشوهها :

ــ اذن ما العمل الآن ؟ تكلمي .

هتفت وهي تبارح مكانها وقد التمعت عيناها اللتان كانتا ممتلئتين حتى تلك اللحظة بالدموع :

ــ ما العمل ! انهض .

وقبضت على كتفه فتناهض ونظر اليها بذهول .

وأردفت :

ــ اذهب فورا في هذه اللحظة بالذات وقف على مفترق الطـرق

فانحني ثم قبل أولا الارض التي دنستها وبعدئذ اركع بخشوع على الجهات الاربع وقل بصوت مرتفع أمام كل النـاس : « لقد قتلت ! » وعندئذ سيعيد لك الله الحياة •

ثم سألته وهي ترتعد وكأنها فريسة نوبة ما ، وقد قبضت على يديه الاثنتين وضغطت عليهما بين يديها وشملته بنظرة ملتهبة :

ـ هل تذهب ؟ هل تذهب ؟

بدا راسكولنيكوف ذاهلا بل ومروعا بعض الشيء من ذلك الحماس المفاجيء • سألها بلهجة كئيبة :

ـ انك تريدين اذن أن أذهب الى « الليمان » ، يا سونيا ؟ ينبغي أن أشي بنفسي اذن ، أليس كذلك ؟

ـ ان ما ينبغي هو تقبل الألم وبواسطته استرداد للروح •

ـ كلا لن أذهب الى البوليس ، يا سونيا •

هتفت مستغربة :

ـ لكن لتحيا ، كيف العمل لتعيش ؟ كيف ستعيش ؟ هل ذلك ممكن الآن ؟ وكيف تجرؤ على مخاطبة أمك ؟ ومـاذا سيحدث لهما كلتيهما الان ؟ لكن ماذا تقول ؟ لقد هجرت أمك وأختك ، لقد تركتهما أوه ! رباه ! ان كل ذلك يفهمه بنفسه • كيف يعيش المرء خارج كل وجود بشري ؟ ماذا سيحدث لك الآن !

قال بلهجة وديعة :

ـ كفاك أقوالا صبيانية ، يا سونيا ! ما هي تهمتي أمامهم ؟ لماذا أشي بنفسي اليهم ؟ ماذا سأقول لهم ؟ ان ذلك ليس الا أوهاما وسرابا ••• انهم بأنفسهم يذبحون الملايين من الرجـال ويكيلون لأنفسهم المزايا والثناء • انهم سفاكون أنذال • تلك هي حقيقتهم • لن أذهب، يا سونيا • ثم ماذا أقول لهم ؟ أأقول أني قتلت ولكني ما جرؤت على أخذ المال الذي أخفيته تحت حجر ؟

ثم أضاف بضحكة ساخرة :

ـ لسوف يسخرون مني وسيقولون بأنني سخيف لأني لم أفد من ذلك المال ، سخيف وجبان •• لن يفهموا شيئا ، يا سونيا • انهم غير جديرين بفهم مثل هذا التصرف • لماذا أسلم نفسي ؟ كوني عاقلة ، يا سونيا •••

كررت متوسلة ، وقد مدت يديها نحوه بضراعة :

ـ ستكون حياتك عذابا مقيما طويلا • عذابا طويلا •

فقال بكآبة وكأنه يحلم في شيء ما :

ـ لعلني أهنت نفسي • لعلني بعد كل هذا لا زلت رجلا وليس هواما كما أسميت نفسي متسرعا • لسوف أقاوم •

وارتسمت على شفتيه ابتسامة متعالية •

ـ أتحمل عبئا كهذا ! وطيلة العمر ، طيلة العمر !

أجاب ساهما ضجرا :

ـ لسوف أعتاد على حمله

واستطرد بعد برهة :

ـ اسمعي • كفى نواحا ! لنعد الان الى الواقع : لقد أردت أن أقول لك انهم يهاجمونني الآن ولسوف يوقفونني •

قالت سونيا مذعورة :

ـ آه !

ـ ماذا بك ؟ لم تصرخين ؟ انك أنت التي تريدين أن أذهب الى « الليمان » وها أنت الآن تروعين ! لكنهم لن ينالوني • لسوف أكافحهم ولن يستطيعوا شيئا حيالي • ليست لديهم أدلة ملموسة ضدي • لقد تعرضت البارحة لخطر ماحق ، ومنذ قليل اعتقدت أنني ضائع لا محالة واليوم تحسنت الأمور • ان كل الآثار التي بين أيديهم ذات وجهتين ،

وبعبارة أصح انني أستطيع أن أدير الامور القائمة ضدي لمصلحتي • هل تفهمين ؟ ولسوف أعمل ذلك : لأنني أصبحت الآن ملما بهذه المهمة •• لكنهم سيزجون بي حتما في السجن • ولولا حادث وقع اليوم لكنت الآن فيه • غير أنه يجوز أن يبعثوا بي الى السجن اليوم أيضا •• غير أنه لا خطر هناك ، يا سونيا • لسوف يسجنونني ثم يطلقون سراحي ••• لأنه ليس لديهم دليل واحد حقيقي ولن يكون لديهم ذلك الدليل • وأعدك • أما فيما يتعلق بما لديهم حتى الآن فانه لا يكفي للقضاء على رجل • هيا • في هذا الكفاية ••• أردت فقط أن تعامي ••• أن أختي على ما يبدو في مأمن من الحاجة بالوقت الحاضر ••• وبالتالي فان أمي في مأمن كذلك • هذا كل ما في الأمر ••• وأخيرا كوني حكيمة • هل ستزورينني عندما أصبح في السجن ؟

ـ أوه ! سأحضر ، سأحضر !

كانا جالسين جنبا الى جنب حزينين منهوكين أشبه بالغريقين اللذين وجدا وحيدين وقد ألقت بهما العاصفة على شاطىء مقفر • كان يتأمل سونيا وهو يفكر في مقدار حبها له ؛ فكان ـ ولغرابة الامر ـ يشعر بعذاب وألم اذ يرى نفسه محبوبا هذا القدر • نعم ، كان ذلك احساسا غريبا مخيفا ! فهو عندما جاء الى سونيا شعر بأنها أمله وملاذه الوحيد• ظن أنه قادر على ازاحة جزء من عبئه فاذا به الآن يشعر فجأة بأنه أشد تعاسة من ذي قبل •

قال :

ـ يا سونيا ، يجدر بك ألا تأتي لزيارتي عندما أسجن •

لم تجب سونيا بل راحت تبكي • وانقضت بضع دقائق •

سألت فجأة وكأنها تذكرت شيئا :

ـ هل تحمل صليبا معك ؟

لم يفهم السؤال للوهلة الأولى •

ــ كلا ؟ ليس معك؟ خذ ! خذ هذا، انه مصنوع من خشب السرو• لدي واحد آخر من النحاس أعطتنيه اليزابيت • لقد أجرينا تبادلا ، اليزابيت وأنا ، فأعطتني صليبها وأعطيتها صورتي الصغيرة • والآن سأحمل صليب اليزابيت • وانت ستحمل هذا •• خذه •• انه صليبي! وطالما أننا سوف نتألم معا فلسوف اذن نحمل الصليب معا ••

قال راسكولنيكوف :

ــ هاتيه !

أراد أن يجاملها غير أنه سحب فجأة يده الممدودة لأخذ الصليب، وأضاف يطمئنها :

ــ ليس الان ، يا سونيا • فيما بعد • انه أجدى •

فأجابت بلهجة مؤمنة :

ــ نعم ، نعم ، انه أجدى • ستأخذه عندما تمضي لتكفر عن خطئك • لسوف تأتي الي وسوف أضعه حول عنقك • ولسوف نصلي ونمضي معا •

وفي تلك اللحظة قرع الباب ثلاثا ، وسمع صوت أنيس معروف يقول :

ــ يا صوفي سيميونوفنا ، هل أستطيع الدخول ؟

اندفعت سونيا مذعورة نحو الباب فظهر على عتبته وجه ليبيزياتنيكوف المضحك •

٥

كان الاضطراب والقلق واضحين على وجه ليبيزياتنيكوف .

ـ جئت أبحث عنك يا صوفي سيميونوفنا ، فاعذريني.

وخاطب راسكولنيكوف فجأة بقوله :

ـ كنت أنتظر وجودك هنا : أقصد انني ما كنت أفكر في شيء... مما يمكن أن يفكر الناس به ... لكنني كنت أفكر فقط ...

توقف برهة حائرا ، ثم أردف دفعة واحدة :

ـ لقد جنت كاترين ايفانوفنا !

ذهلت سونيا ، وعقلت الدهشة لسان راسكولنيكوف .

ـ انها تبدو كذلك على الاقل. ثم اننا هناك لا نعرف كيف نتصرف! يبدو أنها طردت حيث مضت ، بل ولعلهم ضربوها كذلك . لقد هرعت الى رئيس زوجها السابق فلم تجده لأنه كان يتناول الطعام عند واحد من زملائه ... تصوروا أنها تبعته الى حيث يتناول الطعام لدى « جنرال » آخر و ـ لست أدري اذا كنتم تصدقون ـ أصرت هناك على مقابلة رئيس سيميون زاخاروفيتش واضطرته الى مغادرة الطعام . أعتقد أنكم تخيلتم الان النتيجة دون أن أذكرها . لقد طردوها بالطبع ! انها تدعي بأنها شتمته وأنها قذفته بشيء الى رأسه . ان ذلك غير مستبعد وقد أدهشني شخصيا أنها لا تزال طليقة السراح . انها الآن تروي هذه القصة لكل من يرغب في الاصغاء اليها بما في ذلك أميلي ايفانوفنا . غير أنه من العسير فهم كلماتها لشدة ارتباكها واسراعها في الحديث ... آه ! نعم ، تقول انها عازمة على اصطحاب

أولادها والمضي الى الشوارع لتعزف على الأرغن طالما أنها أصبحت مهجورة من الجميع ، وهي تؤكد أنها ستجعل أولادها يرقصون ويغنون معها لاستجداء أكف المحسنين ، وأنها ستقصد كل يوم نوافذ منزل « الجنرال » . انها تؤكد : « أنه سيرى على هذه الصورة أولاد موظف محترم يتسولون في الشوارع ! » انها تضرب أولادها وهم يبكون. انها تعلم لينيا أغنية « المزرعة الصغيرة (١) » ؛ وترغم الطفل الصغير على الرقص وكذلك بولين ميخائيلوفنا (٢) . انها تمزق ثيابهم ... وتضع لهم قلنسوات كتلك التي يضعها المهرجون على رؤوسهم . وهي تزمع حمل « طست » تضرب عليه على غرار الموسيقيين ... انها ترفض الاستماع الينا . تصوروا قليلا كل هذا ! لا يمكن تركها تفعل ذلك !

كان ليبيزياتنيكوف على وشك الاسترسال في الحديث ، غير أن سونيا التي أصغت اليه حتى تلك اللحظة مبهورة الأنفاس لم تستطع الانتظار أكثر من ذلك . اختطفت تبنها ودثارها واندفعت خارج الغرفة تستكمل ارتداء ثيابها في الطريق ، وتبعها راسكولنيكوف وفي اثره ليبيزياتنيكوف . وبينما هما في طريقهما قال ليبيزياتنيكوف :

ــ انها مجنونة حقا ! لقد قلت لسونيا « انها تبدو كذلك » كيلا أفزعها ، غير أنها مجنونة ولا مجال للشك في جنونها . يبدو أن هذه الحالة شائعة في أدمغة المصابين بالسل . انني لآسف لجهلي بالطب . بيد أنني حاولت اقناعها لكنها لم تكن تصغي لأحد !

ــ هل حدثتها عن التدرن والسل ؟

ــ لم أحدثها عن التدرن بالذات . ثم انها ما كانت لتفهم قولي لو أني حدثتها عنه . لكنني أعتقد أنك اذا استطعت اقناع المرء بواسطة

---

(١) أغنية شائعة في روسيا

(٢) « بوليا » كبرى بناتها

المنطق أنه ليس ثمة في الحقيقة ما يستوجب البكاء، لكف عن البكاء فوراً . ألست من رأيي في ذلك ؟

أجاب راسكولنيكوف :

ـــ لو صح ذلك لكانت الحياة كثيرة السهولة .

ـــ عفوا : عفوا ! انه ولا شك عسير على واحدة مثل كاترين ايفانوفنا أن نفهم ذلك . لكن أتدري أنه أجريت في باريس تجارب جدية تتعلق في امكانية شفاء المجانين باستعمال الايحاء وحده ؟ ان أستاذا من كبار العلماء هناك ـــ وقد مات مؤخرا ـــ قرر أنه يمكن الشفاء على هذا الشكل . ان نظريته على أن المجانين لا يشكلون خللا عضويا خاصا ، بل ان الجنون ليس الا ـــ اذا جاز القول ـــ نوعا من الخطأ في المنطق والتفكير . وانه ليس الا وجهة نظر مغلوطة . لذلك فقد راح يناقش أقوال المريض ويدحضها و ـــ تصور ـــ أنه على ما يبدو بلغ هدفه ! لكن نتائج هذا العلاج بحاجة الى ضمان طالما أنه استعمل المقاييس البسيكولوجية فيه ... غير أنه حسب المظاهر ...

لم يكن راسكولنيكوف يصغي الى حديث ليبيزياتنيكوف ، فلما بلغ منزله حياه باشارة من رأسه وانعطف فجأة يجتاز الباب الخارجي . فتوقف ليبيزياتنيكوف مشدوها بعض الشيء وألقى نظرة حوله ثم استمر في سيره .

دخل راسكولنيكوف « زنزانته » ووقف في وسطها يتساءل عن سبب مجيئه . ألقى نظرة على الاوراق المصفرة الممزقة التي تكسو الجدران ، وعلى الغبار المتراكم ، ثم توقف بصره عند « الأريكة السرير » . كان صوت ملح عنيف يتصاعد من الباحة وكأن بعضهم يغرس مسامير في مكان ما . فاقترب من النافذة وتطاول على أطراف قدميه وراح ينظر الى الباحة بانتباه خارق وقتا طويلا . غير أن الباحة

كانت حالية ، لم يكن هناك شبح انسان يمكن أن يحدث مثل هـذا الضجيج • كان الى اليسار عدد من نوافذ الجناح مفتوحة وقد وضعت في حافة كل منها أصص فيها زهور ذابلة • وعلى الشرفات علقت ثيـاب وبياضات • كان يعرف هذه المشاهد عن ظهر قلب • فاستدار وعاد الى الأريكة يجلس عليها •

أبدا لم يشعر أنه شديد الوحدة كتلك اللحظة ، أبدا !

نعم ، شعر من جديد أنه لا شك يمقت سونيا وخصوصا الآن بعد أن زار في تعاستها • وخاطب نفسه قائلا : « لماذا ذهبت اليها أستجدي دموعها ؟ ما الذي كان يدعوني الى تسميم حياتها ؟ يا للنذالة ! »

وفجأة قال بعزم : « سأبقى وحيـدا ! لن تـأتي لمشـاهدتي في السجن ! »

رفع رأسه بعد خمس دقائق وقد غمرت وجهه ابتسـامة غريبة • خطرت له فكرة عجيبة : « لعل السجن خير من هنا »

لم يستطع أن يتذكر كم من الوقت مضى عليه وهو يستعرض في رأسه سيلا من الافكار الغامضة ، وفجأة فتح الباب ودخلت أفدونيـا رومانوفنا • وقفت برهة على العتبة تتأمله كما فعلت من قبل سونيا، ثم تقدمت وجلست قبالته على مقعد في المكان الذي احتلته أمس • فراح يتأملها بسكون ويحدجها بنظرة خالية من كل تفكير •

كان وجه دونيا يحمل طابعا وقورا دون صرامة ، وكانت نظرتها صافية هادئة • كان يرى أنها لم تأت الا مدفوعة بمحبتها • قالت :

ــ لا تحنق ، يا أخي ! لن ألبث معك أكثر من دقيقة •

وتوقفت برهة ثم أردفت :

ــ انني أعرف الان كل شيء يا أخي ، « كل شيء » • لقد حدثني دميتري بركوفيتش بكل شيء ، وشرح لي كل شيء • انهم يضطهدونك

ويعذبونك بسبب شبهة حمقاء بشعة . لقد قال دميتري بروكوفيتش انك لا تستهدف لأي خطر ، وانك تزعج نفسك دون مبرر . انني لست من رأيه لأنني أفهم أن هذا يثيرك وأن أية اهانة كهذه تستطيع أن تترك آثارا لا تمحى في حياتك ، وهذا ما أخشاه . لقد هجرتنا ولست أحكم عليك لأنني لا اجرؤ على اصدار الحكم . وأرجو أن تصفح عني للتأنيب الذي وجهته اليك . أشعر أنني لو كنت فريسة لهم كهذا لابتعدت أنا الأخرى عن العالم كله . لن أحدث أمنا بشيء من هذا القبيل ، بل سأثابر على اقناعها بأنك لن تتأخر في العودة الينا فلا تبتئس من أجلها . سوف أحدثها عنك وأطمئنها . وأنت من جانبك لا تعذبها ، يا أخي . تعال مرة واحدة واذكر أنها أمك .

وتناهضت دونيا مستعدة للخروج ، وأردفت :

ــ لقد جئت الان أقول فقط أنه حالما تحتاج الي لأي سبب كان ... لك أن تتصرف بحياتي ... ادعني وسأحضر . الوداع .

وأدارت ظهرها فجأة واتجهت نحو الباب .

نهض راسكولنيكوف واقترب منها ، وقال :

ــ دونيا . ان هذا الــ « رازوميخين » ، دميتري بروكوفيتش ، رجل ممتاز .

صعدت حمرة خفيفة الى وجه دونيا وسألت بعد لحظة صمت :

ــ اذن ؟

ــ انه رجل نشيط دؤوب شريف ومقتدر ، متيــن العــاطفة ... الوداع ، يا دونيا ...

كان وجه دونيا مصطبغا بحمرة قانية ، غير أن عبارة أخيها الأخيرة روعتها .

ــ لكن ماذا ، يا أخي ؟ هل نفترق الى الأبد ؟ حتى ... توصيني بمثل هذه الوصية ؟

ــ ذلك لا يهم ••• الوداع •••

ابتعد متجها نحو النافذة ، فانتظرت برهة ونظرت اليه باكتئاب ثم خرجت شديدة الغم •

لم يكن يشعر نحو دونيا بالبرود ، كلا • لقد مرت عليه لحظة ــ اخر لحظة ــ شعر فيها برغبة عنيفة تدفعه الى ضمها بين ذراعيه والاستئذان منها ثم اطلاعها على كل شيء • مع ذلك فانه لم يستطع أن يقنع نفسه بأن يمد لها يده مودعا •

حدث نفسه قائلا : « لعلها سترتعد كلما ذكرت أنني عانقتها، ولربما قالت أنني سرقت قبلاتها ••• ثم هل تستطيع احتمال مثل هذا الاعتراف أم لا تستطيع ؟ كلا ، انها لن تستطيع احتماله ، انها من تلك النسوة اللاتي لا يحتملن أبدا مثل هذه الأشياء ••• »

وشرد ذهنه في اتجاه سونيا •

كانت ريح رطبة تدخل من النافذة ، وقد خفت الضياء قليلا في الخارج فحمل قبعته فجأة وخرج •

كان لا يستطيع ولا شك ، وبالتالي لا يريد أبدا ، أن يعنى بحالته المرضية • غير أن هذه الهموم الملحة ، وذلك الهول المعنوي ، لن يلبث أن يحدث انعكاسات في نفسه • واذا كانت الحمى لم تصهره حتى الآن فلعل السبب راجع الى ذلك القلق المقيم الذي يجعله دائما في حالة من حالات التيقظ والحذر رغم أنها حالة غير طبيعية وموقتة •

تاه دون هدف وكانت الشمس قد غربت • كان يحس منذ بعض الوقت بحزن خاص • أوه ! لم تكن في ذلك الحزن حدة بل كان يشعره فقط ــ على نسق أبدي ملح ــ بالسنوات التي عليه أن يقضيها فريسة قلق مميت مخيف ، وبذلك اللون من البقاء الأبدي « على مساحة قدم مربعة » ! كانت تلك الفكرة تضيق عليه ــ عادة ــ وتكاد أن تخنقه في

ساعات المساء أكثر من أي وقت اخر .

غمغم بصوت حقود : « كيف أستطيع الامتناع عن ارتكاب حماقات بمثل هذا المرض الجسدي السخيف الذي يتأثر بأي غروب شمس ! انني أكاد أن أمضي ، ليس الى سونيا فحسب ، بل الى دونيا كذلك » .

شعر بمن يناديه فتلفت حوله واذا ليبيزياتنيكوف يجري في اثره .

ــ تصور أنني جئت توا من مسكنك ! انني أبحث عنك . تصور! لقد نفذت مشروعها وأخذت الاطفال معها . ولقد وجدنا صوفي سيميونوفنا وأنا عناء كبيرا في اكتشاف مكانهم . انها تضرب على مقلاة وترغم الاولاد على الرقص . والاطفال يبكون . انهم يتوقفون على مفارق الطرق أمام الدكاكين . ان عددا من المأفونين يتبعونهم في كل مكان . هيا بنا !

سأل راسكولنيكوف قلقا، وهو يحث الخطى في اثر ليبيزياتنيكوف:

ــ وسونيا ؟

ــ لقد فقدت عقلها بكل بساطة ، أقصد أنه ليس سونيا هي التي فقدت عقلها ، بل كاترين ايفانوفنا . بل ان سونيا تكاد أن تصبح مثلها، أما كاترين ايفانوفنا فقد فقدت عقلها تماما ، انني أقوله لك : انها مجنونة تماما . لسوف يسوقونهم جميعا الى القسم . باستطاعتك أن تتصور سلفا تأثير ذلك عليها . انهم الآن على الرصيف قرب جسر ايكس ...» غير بعيد عن منزل صوفي سيميونوفنا ، على بعد خطوتين من هنا .

على رصيف القنال غير بعيد عن الجسر قرب البناء الثالث بعد المسكن الذي تقطن فيه سونيا ، كان جمع من الناس محتشدا يضم في عداده عددا كبيرا من الفتيات والغلمان الصغار . وكان صوت كاترين ايفانوفنا الأجش الصدىء يسمع وهي في مكانها قرب الجسر . كان

المشهد غريبا حقا جديرا باكتساب جمهور المتسكعين • كانت كاترين ايفانوفنا مرتدية ثوبها العتيق متشحة بالشال العتيد وعلى رأسها قبعة بالية من القش محطمة مشوهة • كان الجنون واضحا عليها وكانت تعبة منهوكة لاهثة ينبىء وجهها بالألم الذي لم يظهر عليه مثيل من قبل • اذ المعروف أن المصدورين يبدون في الطريق أشد مرضا مما هم عليه في مساكنهم ، رغم ذلك فان نشاطها لم يكف لحظة ••• كانت المرأة التعسة تزداد انفعالا وغضبا دقيقة فدقيقة • كانت تندفع نحو أولادها ، تصرخ في وجوههم وتشجعهم وتعلمهم الرقص والغناء على مشهد من المحتشدين فتفسر لهم كل ما هو ضروري واجب في مهنتهم الجديدة ، ثم تشعر أن ذكاءهم يعجز عن استيعاب ما تقول فتنهال عليهم ضربا وتدعهم دون أن تنهي تعليماتها لتخاطب الجمهور • فاذا وجدت بين المحتشدين رجلا مرتديا ثيابا فيها شيء من التناسق هرعت اليه تسأله الى أى منحدر انحدر « أولاد أسرة نبيلة يمكن القول انها أرستقراطية » • واذا سمعت بعضهم يضحك بين المتجمهرين أو صك[illegible] فانها كانت ترتمي على أولئك المستهزئين تفهمهم وتهاجمهم •

كان بعضهم يضحك حقيقة لهذا المشهد والبعض الاخر يهز الرؤوس • لكن الفريقين كانا ينظران بفضول الى تلك المجنونة وأولادها المذعورين • لم يكن للمقلاة التي تحدث عنها ليبيزياتنيكوف أي وجود أو على الاقل لم يكتشف راسكولنيكوف وجودها • لكنها بدلا من أن تضرب على مقلاة ، راحت كاترين ايفانوفنا تصفق بيديها بايقاع متناسق مرغمة بوليا على الغناء ولينيا وكوليا على الرقص، بل انها كانت ترغم نفسها أحيانا على الدندنة • لكنها ما أن تبلغ في غنائها المقطع الثاني حتى تنتابها بانتظام نوبة عنيفة من السعال تقطع عليها سير الغناء، فتبأس وتلعن السعال بل وتمضي في يأسها حتى البكاء • وكانت دموع كوليا ولينيا ورعبهما يخرجانها عن صوابها أكثر من متاعبها الأخرى • فقد

جهدت بكل قوة في الباس أولادها ما يشبه ألبسة المغنين المتجولين ، فكان الطفل الصغير معمما بقماش أحمر وأبيض كأحد الأتراك ؛ أما لينيا فان قماش العمامة لم يسمح بفائض تصنع منه ثوبا لها ، فألبستها على رأسها قلنسوة ذات لون أحمر فاتح ـ تلك التي كان المرحوم سيميون زاخاريتش يضعها على رأسه عند النوم ـ وغرست فيها نتفا من ريش النعام الابيض . كانت كاترين ايفانوفنا تحتفظ به عن جدتها الكبرى في صندوقها باسم ذكريات عائلية . وكانت بوليا تلبس ثوبها الاعتيادي وتنظر الى أمها بخوف وارتباك وتواكبها خطوة فخطوة ساعية الى اخفاء دموعها عنها عارفة أنها أصبحت مجنونة ، فكانت تلقي حولها نظرات مروعة بين حين واخر . نظرات مروعة تنقلها بين وجوه المارة والشارع .

لبثت سونيا تتبع كاترين ايفانوفنا وهي تتوسل اليها باكية أن تعود الى المسكن : غير أن توسلاتها ودموعها لم تستطع اثناء كاترين ايفانوفنا عن عزمها . كانت تصيح بصوت متهافت وهي تلهث وتسعل :

ـ دعيني يا سونيا دعيني ! انك لا تعرفين شخصا ماذا تطلبين ! انك كالطفل الصغير ! لقد قلت لك من قبل انني لن أعود الى مسكن تلك الألمانية القذرة ؛ ليشهد العالم ولتشهد بطرسبورغ كلها كيف أن أولاد أب نبيل خدم بلاده طيلة حياته بولاء واخلاص ومات ـ وتستطيع القول ـ وهو يقوم بواجباته ، أصبحوا متسولين في الشوارع (كانت كاترين ايفانوفنا قد صورت لنفسها تلك الصورة الخيالية عن زوجها الاول وآمنت بها ايمانا أعمى على عادتها) ، ليشهد ذلك « الجنرال » عديم الشأن هذا ! هيا يا سونيا انك حمقاء ، قولي ماذا نعمل لكسب قوتنا ؟ لقد استثمرناك حتى اليوم بما فيه الكفاية ولست أرغب في الاستمرار ! آه ! أهذا أنت ، يا روديون رومانوفيتش ؟

كانت هذه الصرخة التي أطلقتها المجنونة دليلا على أنها شاهدت

راسكولنيكوف وعرفته • فاندفعت نحوه وقالت بصوتها المبحوح :

ــ أرجوك أن تفهم هذه الحمقاء الصغيرة أنه ليس لنا أحسن من هذا السبيل ! ان عازفي الأرغن أنفسهم يستطيعون اقتناص شيء ما، ولسوف يميزنا الجمهور نحن الاخرين ، لسوف يعرفون أننا أسرة نبيلة سحقتنا الفاقة • ولسوف يفقد ذلك « الجنرال » القذر مركزه • لسوف نرى ! سوف نقف كل يوم تحت نوافذه وسيمر الامبراطور فأركع على ركبتي وأدفع أولادي أمامه فأقول له مشيرة بيدي اليهم : « أيها الأب! ارحمنا ! » • انه أبو الايتام ، انه رحيم ، وسترون أنه سيحمينا • أما ذلك « الجنرال » الصغير الحقير ••• انصبي قامتك يا لينيا ، وأنت يا كوليا سوف تعيد هذه الرقصة ! ما بك تنتحب ؟ ها هو ذا يبكي من جديد ! أيها السخيف الصغير مم تخاف ؟ رباه ! ماذا أصنع بهم ، يا روديون رومانوفيتش ؟ ليتك تعلم مقدار غباوتهم ! ماذا أعمل بأولاد مثل هؤلاء !

كانت هي نفسها على وشك البكاء ــ رغم أن ذلك كان يمنعها من الاسترسال في الكلام ــ مع ذلك فقد كانت تشير الى أولادها المنتحبين • حاول راسكولنيكوف اقناعها بالعودة الى المنزل • بل انه استنجد بكرامتها وكبريائها معلنا أنه ليس من المناسب قطع الشوارع كالعازفين على الأرغن بينما كانت تأمل أن تصبح مديرة معهد للبنات •

ــ معهد للبنات ! هاهاها ! هل تفكر في هذا !

واهتزت كاترين ايفانوفنا اثر ضحكتها بنوبة من السعال فلما تخلصت منها استرسلت :

ــ كلا ، يا روديون رومانوفيتش • لقد تبخر ذلك الحلم ! لقد هجرنا كل الناس وهذا « الجنرال » !•• أتعرف ، يا روديون رومانوفيتش ، أنني قذفت بمحبرة الى وجهه ، تلك المحبرة التي كانت

على النضد في الزذهة الى جـانب الورقة التي كان الزوار يكتبـون أسماءهم عليها • لقد كتبت اسمي أنا الاخرى ، وعندما قذفـت بتلك المحبرة بادرت الى الفرار • أوه ! الأنذال ، الانذال ! لكنني لسـت أبالي • لسوف أطعم أولادي بنفسي منذ الان ولن أنحني أمام أحد•

ثم أشارت الى سونيا ، وأردفت :

ــ لقد عذبناها كفاية • بوليا ! كم جمعنا حتى الان ؟ أرني! كيف؟ كوبيكان فقط ؟ أوه ! يا للحثالات ! انهم شديدو التمسك بقروشهم•• انهم يكتفون بملاحقتنا والهزء بنا ! ما بك يا بوليا ، كلميني بالفرنسية• كيف يستطيعون معرفة انتمائك الى أسرة نبيلة والتأكد من أنكم ذوو تربية رفيعة لا تشبهون الموسيقيين المتجولين الاخريـن ؟ لقد علمتـك الفرنسية• انك تعرفين بضع جمل • صحيح اننا لن نمثل «غينيول» (١) في الشوارع لكننا سنغني قصصا شعرية وبصوت جميل • آه ! نعم ، ماذا سنغني ؟ انكم تقاطعونني دائما ونحن ••• كما ترى ، بـا روديون رومانوفيتش ، لم نتوقف هنا الا لنقرر ماذا كنا سنغني : ينبغي أن تجد أغنية يستطيع كوليا أن يرافقني على ايقاعها وهو يرقص لأننا ــ والك أن تعتقد ــ أخذنا في كل هذا على حين غرة • ينبـغي أولا أن نتشـاور بخصوص التجارب الأولى ، ثم سنمضي الى موقع نيفسكي حيـث المتنزهون المعتبرون كثيرون ولسوف نلفت الانظار الينا هناك • ان لينيان تعرف أغنية « المزرعة الصغيرة » لكن تكـرار هـذه الأغنيـة باستمرار يصبح مزعجا ثم ان كل الناس يغنونها ! ينبغي أن نغني نحن شيئا أرفع من هذا ••• واذن ••• بوليا هل خطرت لك فكرة ما ؟ لينك

---

(١) Guignol . الشخصية الرئيسيـة في السينما الشعبيـة الفرنسية على طريقة « كراكوز » عندنا ترجع الى اواخر القرن الثامن عشر . كان (غينيول) وصديقه (ينافرون) مشهورين جدا في طول فرنسا وعرضها . ــ المترجم ــ

تساعدين أمك قليلا ! ان ذاكرتي تخونني ولولا ذلك لسهل كل شيء ! على فكرة ألا يمكننا أن نغني : « الفارس المتكىء على سيفه ! » آه ! لنغن بالافرنسيه « خمسة قروش » . لقد علمتكما هذه الأغنية من قبل وخصوصا لأنها أغنية فرنسية . لسوف يرى الجميع أنكم أبناء نبلاء، وسيكون ذلك أدعى للشفقة ... ونستطيع كذلك أن نغني « مالبرو يمضي الى الحرب » ! خصوصا وأنها قصيدة غنائية للاطفال يغنونها في كل البيوتات الارستقراطية لتنويم الاطفال .

مالبرو ذاهب الى الحرب
لا يدري متى سيعود ...
شرعت تغني ... لكنها فجأة أبدلت رأيها :

لنغن « خمسة قروش ! » انها أحسن . هيا ، يا كوليا ! ضع يديك على وركك ، أسرع ! وأنت يا لينيا استديري في الاتجاه المعاكس . سنرافقكما ــ بوليا وأنا ــ ونضبط الايقاع بالتصفيق .

خمسة قروش ، خمسة قروش
لنتدبر نفقات البيت ...

« هي‌هي هي ! ــ وعاودتها نوبه عاتية من السعال ــ أصلحي ثوبك يا بوليا ، انه يكاد ينزلق عن كتفيك » .

واسترسلت تتكلم خلال سعالها :

ــ ينبغي الان أن تتصرفوا تصرفا حسنا ، وأن تظهروا كما يجب ليعرف الناس أنكم أولاد نبلاء . كنت أعتزم أن أجعل هذا الثوب أكثر طولا لكنك أنت يا سونيا أشرت الي أن أجعله قصيرا . فانظري الان كيف يزيد في بشاعة هذه الطفلة... هبه! ها انكما تعاودان البكاء !.. لكن ماذا بكما ، أيها الأحمقان ؟ هيا ، يا كوليا ، نحرك أكثر ، نحن ... أوه ! انه طفل لا يحتمل !

خمسة قروش ، خمسة قروش ••

ماذا ! أجندي كذلك ! ماذا تبتغي ؟

كان أحد جنود المدينة يشق لنفسه طريقا بين المتجمهرين ، غير أن رجلا آخر ـ بلباس رسمي ومعطف مأمور جليل الشأن في الخمسين من عمره يحمل حول عنقه وساما ، الأمر الذي زاد في سرور كاترين ايفانوفنا وأرهب جندي المدينة ـ تقدم في تلك اللحظة بالذات نحو كاترين ايفانوفنا مادا يده اليها بورقة من ذات الثلاثة روبلات ، قدمها اليها بصمت •

كان وجهه يعبر عن شفقة بليغة وحنان أكيد ، فتقبلت كاترين ايفانوفنا تلك المنحة وهي تنحني أمامه محيية انحناءه مهذبة عميقة •

شرعت تقول بلهجة العظمة :

ـ انني أشكرك ، يا سيدي ••• ان الاسباب التي دفعتنا ••• بوليا خذي النقود ، هل رأيت، هناك رجال كرماء شهام مستعدون لاغاثة سيدة نبيلة سقطت في العوز ، انظر يا سيدي ! هؤلاء أولاد نبلاء بل ويمكن القول انهم ينتسبون الى أرفع الأرومات الارستقراطية حسبا ••• وذلك « الجنرال » القذر كان جالسا الى مائدة الطعام يأكل الدراريج • لقد ضرب الارض بقدمه من الانفعال لانه أزعج • قلت له: يا صاحب السعادة . احم اليتامى • يا من عرفت أكثر من غيرك المرحوم سيمون زاخاروفيتش • ان ابنته أهينت من قبل أبشع الخليقات »•

ووقع بصرها مرة أخرى على الجندي ، فصرخت تخاطب الموظف الكبير :

ـ احمني ! لم يتبعني دائما هذا الجندي ، لقد فررنا من واحد آخر في شارع « بورجواز »•ماذا تريد ، أيها السخيف !

ـ ان اثارة الضوضاء في الشوارع ممنوعة • أرجو أن تتصرفي بلباقة !

ـ انك أنت الخالي من اللياقة ! انني أتصرف كما لو كنت أعزف على الأرغن ، فهل هذا يعنيك في شيء ؟

ـ لكي يعزف المرء على الارغن ينبغي أن يحصل على ترخيص . انك بهذا الشكل تجمهرين المارة . أين تقطنين ؟

صرخت كاترين ايفانوفنا :

ـ كيف ! ترخيص ؟ لقد دفنت زوجي اليوم ، وأعتقد أن هذا ترخيص كاف .

قال الموظف متدخلا :

ـ سيدتي ، سيدتي ، اهدئي ! تعالي سأرافقك ... ان وجودك بين هذا الحشد غير لائق ... انك مريضة متألمة ...

ـ سيدي ، سيدي انك لا تدري شيئا . سوف نمضي الى موقع « بيفسكي » . سونيا ! سونيا ! لكن أين ذهبت ؟ انها تبكي هي الاخرى ! لكن ماذا بكم ، أنتم جميعا ؟

ثم صرخت فجأة مذعورة :

ـ كوليا ، لينيا ، أين أنتما ؟ يا للأولاد الحمقى ! كوليا ، لينيا ، أين أنتما اذن ؟..

كان الطفلان ، كوليا ولينيا ، قد بلغ الرعب بهما مبلغا أفقدهما صوابهما ، خصوصا بعد تصرفات أمهما الشاذة واشتداد تكالب الجمهور حولهم . فلما شاهدا الجندي مقبلا وفي نيته سوقهما مع أمهما وأختهما الكبرى ، أخذ كل منهما بيد الاخر ومضيا يركضان هاربين وكأن اتفاقا مسبقا كان يقوم بينهما ! اندفعت كاترين ايفانوفنا المسكينة تركض وراءهما مزمجرة منتحبة . كان هذا المشهد من أشد المشاهد مجلبة للحزن ، وأكثرها شناعة . فقد كان الطفلان يركضان وأمهما على آثارهما ، وسونيا وبوليا تتبعانها ركضا كذلك . كانت الأم تصيح :

ــ أعيديهما ! أعيديهما ، يا سونيا ! أوه ! يا للأولاد الحمقى ، يا للعقوفين ! بوليا ! أوقفيهما ... انني من أجلكم ...!

وتعثرت في ركضها فسقطت على الأرض ، وهتفت سونيا وهي تنحني فوقها :

ــ آه ، يا رب ! انها مغطاة بالدم !

وتهافت الناس ، ولم يلبث المتطلعون أن ضربوا حلقة حولهم. كان راسكولنيكوف وليبيزياتنيكوف أول من هرع اليها ، ولم يلبث الموظف أن وصل لاهثا يتبعه الجندي وهو يغمغم : « آه ! لكن » ... ويستعيض عن الكلام باشارات من يديه ليعبر عن سخطه . راح يصيح بالمتطفلين المجتمعين :

ــ هيا انفضوا ! اذهبوا .

هتف أحدهم :

ــ انها تموت !

وأضاف آخر :

ــ لقد طاش صوابها .

وتمتمت عجوز ، وهي ترسم علامة الصليب :

ــ رباه ! احفظها ! هل جاؤوا بالبنية والطفل ؟ هه ! لقد أطبقت عليهما الأخت الكبرى ... هيا ، أيها الطائشان !

عندما عوينت كاترين ايفانوفنا تبين أن ذلك الدم الذي انسفح على بلاط الشارع لم يكن مصدره جرح أحدثه حجر كما توقعت سونيا، بل كان مصدره صدرها : لقد كان الدم ينبعث من فم المسكينة .

همس الموظف مخاطبا راسكولنيكوف وليبيزياتنيكوف :

ــ انني أعرف هذه الأعراض ولقد شاهدتها من قبل . ان الدم يفور هكذا ويسبب الاختناق . لقد كنت شاهدا في حالة

مماثلة وقعت لاحدى قريباتي • لقد قذفت هي الاخرى بأكثر من قدح من الدم ••• فجأة ••• ما العمل لسوف تموت •••

هتفت سونيا ضارعة :

ــ هنا ، هنا الى مسكني ! انني أقطن هنا في هـذه الـدار ••• الثانية • لتحمل الى غرفتي بسرعة • وليستحضر طبيب !••• آه يا رب!

كانت سونيا تثب من واحد الى آخر تستحثه وتتضرع اليه • وقد توصل الموظف بمجهوداته يساعده الجندي الى نقل كاترين ايفانوفنا ، فلما أسجوها على سرير سونيا كانت في النزع الاخير • لبث النزيف متواصلا ، غير أن المريضة بدت على شيء من صفاء الذهن • وكان في الغرفة الى جانب سونيا وراسكولنيكوف وليبيزياتنيكوف ، الموظف والجندي الذي راح يطرد الفضوليين المتطفلين ويمنعهم من الدخـول• ووصلت بوليا تمسك بيدي كوليا ولينيا وهما يرتعدان ويبكيان• وهرع بعض أفراد عائلة كابيرناووموف • جاء الاب وهو أعرج أعور ذو شعر وسالفين منفوشين كشلة من الحرير بعطيانه مظهرا شاذا • وتبعته زوجه التي تبدو مذعورة أبدا ، وعدد من أطفالهما الذين تبدو وجوههم وكأنها قدت من الخشب وأفواههم المفتوحة تنبىء بدهشة مقيمه •

وفجأة ظهر سفيدريكايلوف بين الجمهور المحتشد • نظـر اليه راسكولنيكوف ذاهلا وهو لا يدرك كيف وجد هنـا ومن أين جاء • وتحدث بعضهم عن استدعاء الطبيب والقس ، فأمر الموظف أن يؤتى بهما رغم أنه همس في أذن راسكولنيكوف بعبث المحاولة وعقمها • ومضى كابيرناووموف ينفذ الأمر•

بدت كاترين ايفانوفنا هادئة قليلا ، وانقطع النزيف موقتا • ألقت نظرة أليمة ثاقبة على سونيا المسكينة التي كانت شاحبة مرتعدة ، تمسح العرق الذي كان ينثال على جبينها ، ثم طلبت أن ترفع قليلا في مكانها

فأجلسوها على السرير بعد أن أسندوها من كل جانب •

سألت بصوت ضعيف :

ـ الأولاد ••• أين الاولاد ؟ هل أتيت بهم ، يـا سونيا ؟ أوه ! السخفاء !••• لم فررتما اذن ؟••• أوه !•••

كان الدم يغطي شفتيها الجافتين • سرحت الطـرف حولهـا ثـم قالت :

ـ هكذا اذن تعيشين ، يا سونيا ! انني لم أدخل الى مسكنك من قبل أبدا ••• كان ينبغي من أجل ذلك •••

ونظرت اليها نظرة مفعمة بالاشفاق والحنان :

ـ لقد استثمرناك ، يا سونيا ••• بوليا ، لينيا ، كوليا ، تعالوا هنا ••• ها هم ، يا سونيا ••• خذيهم كلهم••• انني أودعهم بين يديك ••• ها ! دعوني ، دعوني أموت مرتاحه •••

وسقط رأسها على الوسادة •

ـ ماذا ؟ قسيس ؟••• لا حاجة ••• هل لديكم روبل زائد ؟••• انني لا أحمل خطايا على ضميري •••• وحتى لو كنت مخطئة فيجب أن يغفر لي الله ••• انه يعلم كم تألمت ! واذا لم يغفر ، لعمري لا أبالي!

استولى عليها هذيان محزن راح يزداد باضطراد • كانت تنتفض أحيانا فتنظر حولها وتتعرف على الوجوه خلال دقيقة لكنها لا تلبث أن تسقط في هذيانها من جديد بعد فترة الصحو والاشراق ، وكان تنفسها صعبا أليما ، وكان يتعالى من حنجرتها صوت أشبه بالحشرجة •

صاحت ، وهي تتوقف بعد كل كلمة :

ـ قلت له ، يا صـاحب السعـادة ! آه ! هـذه الـ « أميـلي لوديكوفنا » ! ••• لينيا ، كوليا ، ضعا أيديكما على وسطكما ، أسرعا ، أسرع من هذا ، تحركا ، صححا الخطى ! اقرعا كعبكما ! كن طفلا وديعا ! ما هي تلك الأغنية ؟ آه ! هذا ما يجب غناؤه •

وراحت تغني بالالمانية أبياتا لهنريخ هايني، ثم مقاطعا لليرمونتوف.

ـ آه ! كم أحببت هذا ! لقد كنت أعيد هذه القصيدة . بوليـاء أتعرفين ؟ لقد كان أبوك يغنيها لما كنا خطيبين ... آه من الأيام ! هذا ما كان يجب أن نغنيه ! لكن كيف ، كيف وقع ذلك ؟ لقد نسيناها . لكن ذكروني بتلك القصيدة !

كانت شديدة الانفعال والاضطراب تحاول النهوض . وأخيـرا رفعت عقيرتها بصوت مخيف أجش محطم ، وراحت تغني وهي تصرخ صرخة وتشهق بشدة بعد كل كلمة بينما راح وجهها يعبر عـن رعـب متزايد :

تحت نيران الظهيرة

في وادي داغستان

والرصاص في الصدر ...

زمجرت ، وهي تنتحب نحيبا يمزق القلوب وقد تفجرت الدموع من عينيها :

ـ يا صاحب السعادة ! احم اليتامى ! اكراما لذكرى الضيافة التي حصلت عليها لدى المرحوم سيميون زاخاريتش ... بـل يمكـن القول أرستقراطية ! آه ! ...

وانتفضت انتفاضة عنيفة وهي تحاول تذكر شيء . وفجأة راحت تتأمل بذعر وجوه الموجودين، لكنها عرفت من بينهم سونيا على الفور فهتفت بصوت حان رقيق وكأنها دهشت لرؤيتها أمامها :

ـ سونيا ! سونيا ! عزيزتي سونيا ، انك أنت الاخرى هنا ؟

أجلسوها من جديد . فصرخت بيأس وحقد :

ـ كفى ! ... لقد آن الوقت ! الوداع ! .. ان الفرس الهزيـلة تنفـق ! ...

وتهاوى رأسها على الوسادة ...

سكنت قليلا ، غير أن تلك اللمحة من الهدوء لم تدم طويلا . اندفع وجهها المصفر الملطخ الى الوراء . وانفتح فمها واستطال ساقاها بحركة تشنجية ثم زفرت زفرة عميقة وسكنت ...

ارتمت سونيا على جثتهـا وأحاطتها بـذراعيها وضغطت رأسها على صدر المتوفاة بألم ، بينما جلست بوليا عند قدمي أمهـا وراحت تقبلهما وتغسلهما بدموعها . أما كوليا ولينيا اللذان ما كانا يفهمان بعد شيئا مما وقع فقد ارتمى كـل منهما بين ذراعي الآخر ، وشخصا بأبصارهما الى بعضهما وفغرا فاهيهما وشرعا يبكيان . كان كلاهما في ألبسته : ألبسة المهرجين . واحدهما معمم والآخر يضع على رأسه قلنسوة غرزت فيهـا ريشة نعام .

لم يعرف أحد كيف وصلت الشهادة الفخرية العتيدة فجأه الى السرير بجانب كاترين ايفانوفنا . لقـد كانت موضوعه على الوسادة ، ورآها راسكولنيكوف .

انسحب راسكولنيكوف الى النافذة فتبعه ليبيزياتنيكوف مسرعـا وقـال :

ــ لقد ماتت .

وهنا تقدم سفيدريكايلوف :

ــ ياروديون رومانوفيتش ! عندي كلمتان مستعجلتان أقولهما لك .

فانسحب ليبيزياتنيكوف متسللا تاركا مكانـــه لسفيدريكايلوف ، فجاء هذا وأخذ بيد راسكولنيكوف المشدوه وانتحى به جانبا :

ــ ان كل هذه الأشياء وأقصد المآتم وما يليه أعـدها على حسابي . ولسوف يكلفني هذا مالا ولكنني ذكرت لك من قبل أن عندي من المال ما لا حاجة بي اليه . أما الطفلان وبوليا فلسوف أدخلهم الى ميتم حيث

تحسن معاملتهم ، وسأضع باسم كل منهم ألفا وخمسمائة روبل حتى يبلغوا سن الرشد وذلك لكي تطمئن صوفي سيميونوفنا • ثم انني سأنتشل هذه أيضا من الرغام لأنها فتاة باسلة ، أليس كذلك ؟ حسنا • يمكنك أن تحدث أفدونيا رومانوفنا بالشكل الذي تصرفت فيه بروبلاتها العشره آلاف •

سأل راسكولنيكوف :

ــ ما هي نواياك التي تهدف اليها من وراء هذا الكرم ؟

فأجاب سفيدريكايلوف بضحكة صغيرة :

ــ اه ، اه ، يا لك من رجل حذر ! ألم أقل لك أن هذا المال غير ذي نفع لي ؟ انك لا تتقبل أن أتصرف كرجل فحسب ؟ حسنا • ان هــذه ــ وأشار الى الزاوية التي كانت كاترين ايفانوفنا مسجاة على السرير فيها ــ انها لم تكن « هواما » كما كانت ذات مرة عجوز مرابية • هيا قــل لي هل من الافضل أن يكون « لوجين » حياً يرتكب آثامــه أو تكون هي التي تموت ؟ ثم انني اذا أمسكت مساعدتي فان « بوليا مثلا ستكون مضطرة الى سلوك السبيل الذي سلكته أختها • »

نطق بهذه الكلمات بلهجة تشوبهـــا السخرية دون أن يفـــارق راسكولنيكوف بعينيه• فشحب هذا وشعر ببرودة تكتسح جسمه وهو يصغي الى التعابير التي استعملها بنفسه في حديثه مع سونيا • تراجــع فجأة وألقى على سفيدريكايلوف نظرة شرسة وغمغم بصوت مختنق :

ــ كيف ••• تعرف هذا •••؟

ــ لكنني أقطن هنا في الجانب الآخر من هذا الجدار ، عند السيدة ريسليش ــ ان هذا هو مسكن كابر ناووموف • وهناك مسكن السيدة ريسليش وهي صديقة قديمة لي مخلصة كل الاخلاص • انني جار •

ــ أنت ؟

استرسل سفيدريكايلوف ، وهو يتلوى من الضحك :

ـ آنا . وأستطيع أن أؤكد لك يا عزيزي روديون رومانوفيتش العزيز أنك اجتذبت اهتمامي بشكل مدهش . لقد قلت لك من قبل اننا سنتفاهم . لقد تنبأت لك بهذا . حسنا ، ها قد تفاهمنا . ألا ترى الآن أنه يمكن العيش معي ...

القسم الثالث



مضى على راسكولنيكوف حين من الزمن قضاه وكأن غمامة كثيفة حجبته وعزلته عن العالم، فعاش في وحدة ثقيلة لا خلاص منها • وعندما تذكر بعد زمن طويل هذه الفترة من الزمن أدرك أن احساساته كانت خامدة وأنه أمضى على ذلك الحال كل أيامه التي سبقت الفاجعة الاخيرة باستثناء اشراقات نادرة كانت تلمع في أفق فكره المظلم ، اقتنع تماما بأنه خلال تلك الفترة الزمنية أخطأ في كثير من الأمور وبصورة خاصة في تحديد تواريخ بعض الاحداث ومددها • وعلى ذلك فقد راح — وهو يتذكر فيما بعد أو يحاول تفسير ما كان يتذكره — يلجأ الى شهادات غريبة عنه ليتأكد من كثير من الوقائع المتعلقة بشخصه • فكان يخلط مثلا حادثا بآخر أو يعتبر واحدا نتيجة لآخر لا وجود له الا في مخيلته • وكان قلقه يستولي عليه أحيانا فيستسلم له حتى ينقلب ذلك القلق الى لون من الذعر القاتل • كذلك فقد تذكر أنه مرت عليه دقائق وساعات بل وأيام كاملة كان يقضيها غارقا في لون من الجمود والتبلد الشبيه بذلك النفور الكالح الذي يعتري كثيرا من المحتضرين ، ذلك الجمود الذي كان يحس به عقب مخاوفه الاولى•وعلى العموم فانه كان يتحاشى في — الأيام الاولى — التطلع الى حقيقة موقفه ، وكان عدد من الوقائع الشائعة في الحياة اليومية التي تتطلب معالجة سريعة تخلق في نفسه نوعا من الضيق والوساوس، لكنه كان يشعر بشيء من السرور عند اهماله بعض الاحتياطات التي كان اهمالها يستطيع أن يجر — وهو في ذلك المركز — نتائج سيئة جدا •••

كان سفيدريكايلوف يخيفه أكثر من أي كان • حتى يمكن القول ان انتباهه كله كان مركزا فيه • لقد تبدل سير أفكار راسكولنيكوف

الطبيعي منذ ذلك اليوم الذي كرر فيه سفيدريكايلوف أقواله الواضحة ـ التي لم تشكل تهديدا كبيرا بالنسبة اليه ـ في حجرة سونيا أمام السرير الذي أسجيت عليه كاترين ايفانوفنا للمرة الأخيرة. لقد أصبحت أفكاره بعد ذلك مضطربة مشوشة ، لكنه لم يحاول ايضاح التضية بسرعة رغم أن ذلك العنصر الجديد فيها كان يقلقه ويزعجه . كان احيانا يجد نفسه فجأة في مكان ما من ضاحية بعيدة ، جالسا الى مائدة في أعماق حانة حقيرة ، وحيدا غارقا في تأملاته لا يذكر كيف آل الامر به الى ذلك المكان . فكان يفكر فجأة بسفيدريكايلوف . كان يشعر عندئذ بجلاء ووضوح أنه ينبغي له أن يقابل هذا الرجل بأسرع ما يمكن وأن يسهي منه بالسرعة الممكنة . وذات مرة بينما كان يتنزه وراء الحواجز بلغ به الخيال أن تصور أنه كان ينتظر سفيدريكايلوف بناء على موعد بينهما في ذلك المكان . ومرة أخرى استيقظ فجرا فوجد نفسه نائما على الارض وسط غابة صغيرة حار في معرفة كيفية بلوغه اليها ونومه فيها . وقد أتيحت له خلال الايام الثلاثة التي أعقبت موت كاترين ايفانوفنا أن يلتقي مرتين بسفيدريكايلوف . وكان ذلك في مسكن سونيا حيث كان يذهب الى هناك دون أي هدف أللهم الا قضاء لحظة خاطفة عندها . تبادل معه خلال تينك المقابلتين بضع كلمات وقد زهد كلاهما في التطرق الى بحث النقطة الجوهرية وكأن اتفاقا مضمرا كان يقوم بينهما يقضي بعدم بحث هذه المسألة الا في الوقت المناسب . وكان جثمان كاترين ايفانوفنا لا يزال في تابوته هناك ، وكان سفيدريكايلوف يصدر التعليمات المتعلقة بشؤون الدفن . وكانت سونيا شديدة المشاغل في ذلك الحين . وقد بين سفيدريكايلوف لراسكولنيكوف خلال المقابلة الثانية أن الترتيبات التي اتخذها بخصوص أطفال المتوفاة قد أثمرت بفضل بعض الاتصالات التي مهدت سبيل مقابلة بعض الشخصيات ، وهؤلاء استطاعوا ايواء الايتام الثلاثة في

ملجأ مناسب جدا يساعدهم في ذلك المال الذي أودع باسمهم • لأنــه تأكد أن كثيرا من الملاجيء المحترمه تقبل الاطفال الذين يملكون رؤوس أموال صغيرة بسهولة شديدة خلافا لأولئك الذين يحلون دون أي سند مادي • وتحدث عن سونيا حديثا خاطفا ووعد بالحضـور ذات يـوم الى مسكن راسكولنيكوف ملمحا الى أنه يرغب من صميـم قلبـه في استشارته وأن ينفق معه بالسرعة القصوى حول بعـض المسـائل ••• جرى ذلك الحديث في الردهة ، وكان سفيدريكايلوف يحدق في عيني راسكولنيكوف طيلة الوقت • وفجأة سأله وهو يخفت من صوته :

ـ لكن ماذا بك . يا روديون رومانوفيتش ؟ انك تبدو انسـانا آخر ••• حقيقة انك نصغي وتنظر ولكنه لا يبدو عليك أنك تفهم مـا يقال لك ، هيا ، ينبغي أن نتحدث معا ، غير أنني شديد الأسفه لأنني جم المشاغل في الوقت الحاضر ، انها مشاغل الآخرين ومشاغلي معا •••

ثم أضاف فجأة :

ـ ان الرجال بحاجة الى الهواء ، يا روديـون رومانوفيتش ••• الهواء ، الهواء قبل كل شيء !•••

ثم تنحى جانبا ليسمح للقس وتابعه بالمرور ، لأنهما عـلى وشك ارتقاء السلم على جري عادتهما منذ وفاة كاترين ايفانوفنا • اذ كـان سفيدريكايلوف قد رتب الامور بحيث يحضرا مرتين كل يوم للترتيـل عن روحها بانتظام منذ وفاتها • ولم يلبث راسكولنيكوف بعد تفكيـر وانتظار أن سار يتبعهما الى غرفة سونيا •

لبث واقفا في فتحة الباب يراقب القداس الروحي الذي كان قد بدأ منذ حين بهدوء وتبجيل يوحيان بالحزن • كـان راسكولنيكوف منذ نعومة أظفاره يشعر برعدة صوفية أمام ذكرى الموت والتفكير فيه• أضف الى ذلك أنه لم يحضر منذ أمد طويل أي احتفال ديني جنائزي • لكنه في هذه المرة أحس بتلك الرعدة ممزوجة بشعور من الارتبـاك

والاضطراب والذعر لم يحس بأشد منها وقعا من قبل ! كان الاطفال الثلاثة راكعين قرب التابوت ، وكانت بوليا تبكي ، بينما وقفت سونيا تصلي بصوت خافت وهي تحاول اخفاء دموعها • فكر راسكولنيكوف في نفسه : « انها لم تنظر الي مرة واحدة خلال هذه الايام الاخيرة ولم توجه الي كلمة واحدة » •

كانت الشمس تغمر الغرفة بضوء قوي ودخان المبخرة يرتفع متصاعدا الى السقف والقس يرتل صلاة جنائزية •• لبث راسكولنيكوف في مكانه حتى نهاية الترتيل • فلما انهى القس من مهمته وبارك الجثمان نظر حوله نظرة غريبة وانسحب • فاقترب راسكولنيكوف من سونيا • أمسكت هذه بيديه فجأة وأراحت رأسها على كتفه ، فكان لتلك الحركة الودية اللطيفة أثر عنيف في نفس راسكولنيكوف جعله يستغرق في أعماق الدهشة • كيف لا تشعر ازاءه بأي مقت ؟ ألا تحس بالفزع منه ؟ ان يديها ثابتتان لا ترتجفان ! لقد كان ذلك لونا من ألوان التفاني الشخصي ! أو أنه فسره على هذا النحو • لم تنبس سونيا بكلمة واحدة • فضغط راسكولنيكوف على يديها وخرج • كان يحس بارهاق فظيع وود لو استطاع الذهاب الى أي مكان وبأسرع ما يمكن ليجد نفسه في وحدة كاملة مدى الحياة • اذن لشعر بسرور وراحة • لأنه لم يكن يشعر مطلقا أنه وحيد حقا رغم أنه قضى وقته في الآونة الاخيرة دون أن يؤنس وحدته أحد• وكثيرا ما كان يبارح المدينة ويبلغ الطريق الخلوية ؛ بل انه توغل مرة في غابة • لكن تلك الأمكنة كانت رغم وحشتها وبعدها والوحدة التي تشملها تشعره شعورا قويا بوجود كئيب غامض يحس معه بشيء من الرعب يزعزع ثقته • فكان يبادر مسرعا الى العودة الى المدينة فيختلط بالجماهير ويدخل الحانات والمشارب أو يأوي الى الأسواق : « سوق البراغيث » أو « سوق العلف » ، فيشعر هناك براحة ويحس بالاستئناس • وذات مرة ، في

دكان شواء ، كانت الأغاني تتعالى ذات مساء فأمضى ساعة يصغي اليها وهو يحدث نفسه بأنه يشعر بسرور عظيم في الاصغاء ، غير أن اكتئابه سرعان ما عاوده : كان ذلك الاكتئاب لونا من تبكيت الضمير ينخر قلبه . فراح يفكر في نفسه قائلا : « انني هنا جالس أصغي الى الاغاني! لكن هل هذا هو حقيقة ما يجب علي صنعه ؟ ... وسرعان ما أدرك أن سبب اكتئابه وانزعاجه كان وجوب الفراغ من قضيته بأسرع ما يمكن. أما ما هي تلك القضية ؟ فذلك ما كان يحار في معرفته : لم يكن يستطيع التعبير عن تلك الفكرة ولا بكلمة . كان كل شيء يدور في رأسه مدويا متشابكا : « كلا ، من الخير لي أن أناضل ! من الخير أن أجابه بورفير ... أو سفيدريكايلوف . نعم ! نعم ! من الخير استقبال تحد جديد أو هجوم جديد » . وهرع يغادر دكان الشواء .

كان تفكيره بدونيا وبأمه يسبب له ألما . وفي تلك الليلة استيقظ عند الفجر في غياض جزيرة « كريستوفسكي » وهو يرتعد من الحمى، فنهض يسعى الى « حجره » حيث بلغه في الصباح الباكر جدا ، فنام بضع ساعات تخلص من الحمى بعدها. ولما استيقظ كانت الساعة الثانية بعد الظهر . تذكر أن تشييع جثمان كاترين ايفانوفنا سيكون في ذلك اليوم فاغتبط لأنه لم يساهم فيه . ولما أتت له ناستاسيا بطعامه ، أكل بشهية كبيرة بل بشره . فشعر ببعض الهدوء وبحرارة رأسه تنخفض ، وأدهشه أن يكون قد أمضى أيامه الثلاثة الاخيرة فريسه ذلك الذعر القاتل الذي لم يكن يحس به في تلك اللحظة . وفتح الباب ودخل رازوميخين .

قال رازوميخين ، وقد جلس على مقعد قبالة راسكولنيكوف :

ـــ هه ! انه يأكل ، واذن فهو غير مريض .

كان رازوميخين شديد الانفعال فاشلا في اخفاء انفعاله ، وكان

يتكلم بلهجة مفعمة بالسخط • لكن صوته كان منخفضا وكلماته بطيئة حتى ليقال انه كان يخفي نية معينة ذات طابع خاص •

استرسل بقوله بلهجة حازمة :

ــ اسمع • ليحملكم الشيطان جميعا • انني أرى الآن بوضوح تام أنني لا أفهم من أمركم شيئا ! أرجو ألا تعتقد بأنني جئت أطرح عليك أسئلة • انني لا أبالي بهذا بل انني أمتنع عنه بنفسي • لكنني جئت لهدف واحد وهو محاولة الاطلاع شخصيا وبشكل نهائي عما اذا كنت حقيقة مجنونا أم لا ؟ لأن هناك بعض الناس ــ ولا يهمك معرفتهم ــ يعتقدون بأنك مجنون حقا أو على الاقل بأنك على وشك الجنون • بل وأصرح لك بأنني كنت ميالا الى تأييد هذه النظرية بسبب سلوكك المضحك وتصرفاتك التي لا تخلو من بشاعة ولؤم لا يمكن تفسيرهما ، وأخيرا بسبب تصرفك الاخير حيال أمك وأختك • اذ ينبغي أن يكون المرء وحشا أو نذلا ان لم يكن مجنونا حتى يتصرف حيالهما كما تصرفت • واذن فانك مجنون •••

ــ متى رأيتهما لآخر مرة ؟

ــ توا • وأنت ، ألم تعد لرؤيتهما ؟ هل أثرت من جديد ؟ قل لي أرجوك لان هذه هي المرة الثالثة التي أحضر فيها اليك • ان أمك مريضة منذ البارحة مرضا جديا • وقد أرادت أن تحضر لتراك رغم محاولات أفدونيا رومانوفنا التي حاولت ثنيها عن عزمها عبثا • كانت تقول : «اذا كان ولدي مريضا أو كان عقله مختلا فمن الذي يعنى به ان لم تكن أمه ؟ » وقد جئنا جميعا الى هنا لنتحاشى خروجها منفردة • وعملنا كل ما في وسعنا طيلة المدة التي استغرقناها في الطريق على تهدئة خاطرها • فدخلنا واذا بغرفتك خالية • وقد جلست أمك هنا تماما ولبثت عشر دقائق ونحن واقفان بجانبها صامتين • وبعدئذ نهضت وقالت : «طالما

أنه ليس في غرفته فان ذلك معناه أنه ليس مريضا بل أنه نسي أمه • وعليه فانه من غير اللائق بل ومن المخجل بالنسبة الي أن أبقى على عتبة بابه أستجدي ملاطفاته وكأنها احسان••• » وعادت الى غرفتها واستلقت على السرير • وهي الان تشكو من الحمى • انها تقول : « انني أرى بوضوح أنه يجد من الوقت ما يكرسه لصحبة صديقته » • انها تعتبر أن صوفي سميونوفنا خطيبتك أو عشيقتك أو لست أدري ماذا• فذهبت الى دار صوفي سيميونوفنا لأنني أردت يا عزيزي أن أريح ضميري ، ولكن ماذا وجدت ؟ وجدت تابوتا وأطفالا يبكون حوله ؛ بينما صوفي سيمبونوفنا تلبسهم ثياب الحداد ! ولم تكن أنت هناك فألقيت نظرة واعتذرت وخرجت فوري قاصدا مسكن أفدونيا رومانوفنا حيث نقلت لها مشاهداتي • وهنا قام افتراض غريب عجيب وهو أنك لا تكرس الوقت لخطيبة أو عشيقة ، واذن فانك مجنون • لكنني أراك الان تفتك بلحم البقر المسلوق وكأنك لم تأكل منذ يومين • صحيح أن المجانين أنفسهم يأكلون • ولكن على الرغم من أنك لم تتفوه بعد بكلمة ، فانني واثق بأنك لست مجنونا ، بل وانني على استعداد لوضع يدي في النار اذا ثبت عكس ذلك • وعلى هذا فانني أبعث بكم جميعا الى الشيطان لأن في الأمر سرا لا أفهمه ، ولست على استعداد لتحطيم رأسي بأسراركم •

وصمت برهة ثم أردف :

ــ لقد جئت لأتشاجر معك ليس أكثر ، لأن ذلك يريحني ويخفف ما في نفسي • والان فانني أعرف ما يجب أن أعمل •

ــ ماذا تريد أن تعمل ؟

ــ وهل يعنيك ذلك ؟

ــ انتبه ••• انك تريد أن تثمل ؟

ـ كيف ... كيف خمنت ؟

ـ هل في ذلك شيء من الذكاء ؟

لبث رازوميخين فترة واقفا صامتا وفجأة انفجر قائلا :

ـ لقد أثبت دائما ذكاءك المتوقد . انك لم تكن مجنونـا أبدا .
نعم . أريد ! أن أثمل . الوداع !

وتقدم خطوة نحو الباب .

قال راسكولنيكوف :

ـ لقد حدثت أختي عنك أول أمس ، يا رازوميخين !

توقف رازوميخين وقد شحب وجهه قليلا ، وسأل :

ـ عني ؟

كان واضحا أن وجيب قلبه أضحى قويا في صدره !

ـ لقد جاء تالي وحدي وجلست على هذا المقعد وتحدثت معي .

ـ هي ؟؟

ـ نعم هي .

ـ ماذا قلت لها ؟... أقصد ماذا قلت لها عني ؟

ـ قلت لها انك غلام ممتاز نبيل ودؤوب ، ولم أقل لها انك تحبها
لأنها تعرف ذلك .

ـ تعرف ؟

ـ يا للسؤال ! أينما مضيت ومهما حصل ينبغي أن تبقى ساعدهما وحاميهما . انني أودعك اياها ، يا رازوميخين . وأقول لك ذلك لأنني عارف بمدى حبك لها ، واثق من نقاء عواطفك ونبلها . ثم انني واثق من أنها تستطيع محبتك ان لم تكن قد أحبتك . والان ، لـك أن تقرر اذا كان من الخير أن تذهب لتثمل .

ـ روديا ، ألا ترى ... حسنا ... آه .. يا للشيطان ... وأنت الى أين تمضي ؟ انتبه . اذا كان كل ذلك سرا فليكن ! لكن .. لسوف

أعرف هذا السر أخيرا •• أنا واثق من أن الامر متعلق باحدى الحماقات أيضا ، بلون من الهذر المريع • ثم انك أحسن الناس ، أحسنهم !

ــ أردت أن أضيف شيئا الى قولي ولكنك قاطعتني • وذلك الشيء الذي أردت اضافته هو : لقد كنت على صواب منذ حين حينما قلت بأنك لن تحاول معرفة تلك المعميات والاسرار • دعهـا في الوقت الحـاضر واهدأ • لسوف يكتشف كل شيء في حينه • لقـد قـال لي أحدهم البارحة ان الانسان يلزمه هواء ، هواء ! وانني ذاهب اليه لأسأله عمـا يقصد بتلك الكلمة !

كان رازوميخين واقفا يفكر ، وقد انطبعت تقاطيع وجهه بمسحـة من الكآبة وبدا كأنه يقدر أمرا •

حدث نفسه قائلا : « انها مؤامرة سياسية ولا شك ! وهو عـلى وشك القيام [illegible] نعم انه لكذلك ! لا يمكن أن يكون غير ذلك ••• ولا شك أن دونيا تعرف ذلك » •

أضاف بصوت مرتفع ، وهو يهز كلماته :

ــ اذن ، ان دونيا تأتي اليك وتريد أنت أن ترى الرجل الـذي تحدث عن مزيد من الهواء و ••• على ذلك فان تلك الرسالة ••• انهـا من ذلك الرجل •

كان في صوته شيء من الشراسة • فسأل راسكولنيكوف :

ــ أية رسالة ؟

ــ لقد تلقت اليوم رسالة أزعجتها كل الازعاج بل انها أفزعتهـا • فألححت اليك ، لكنها رجتني ألا أحدثك بشيء ، ثم ••• ثم قالت اننـا قد نفترق زمنا طويلا ، وراحت تشكرني بحرارة ثم انسحبت الى غرفتها وحبست نفسها فيها •

سأل راسكولنيكوف بلهجة حالمة :

ـ لقد تلقت رسالة ؟

ـ نعم ! رسالة . هل كنت تجهل ذلك ؟ هم ؟

صمت كلاهما .

ـ وداعا ، يا روديون. ألا ترى ، يا عزيزي... أنه خلال زمن ما ... على كل حال . الوداع ! لقد مضى زمن ... هيا الوداع ! علي أن أذهب ، أنا الاخر . لن أشرب . اذ ما فائدة ذلك الان ؟...

وانسحب مسرعا لكنه ما كاد يتوارى وراء الباب ويغلقه حتى عاد وفتحه فجأة وقال ، وهو يلقي نظرة مختلسة جانبية :

ـ على فكرة : أتذكر تلك الجريمة . تلك التي كان لها علاقة بيورفير ، مقتل العجوز ؟ اذن اعلم أن القاتل قد عرف ! ولقد اعترف مقدما بكل الأدلة . تصور أنه واحد من ذينك العاملين الدهانين. وأنا ـ ولعلك تذكر ـ نصبت من نفسي حاميا لهما ! هل تصدق أن ذلك المشهد . مشهد الشجار مع صديقه وضحكاتهما وقهقهاتهما على السلم عندما كان الاخرون يصعدون وأقصد البواب والشاهدين ، حسنا لقد وضع كل ذلك بنفسه لسبب واحد وهو ايجاد دليل نفي . يا له من سفالة خبيث حاضر الذهن ! ان المرء ليصعب عليه تصديق ذلك لكنه هو الذي قدم كل تلك الاعترافات بصدق ، تدعمه الأدلة ! لقد كنت بنفسي مخدوعا ! في رأيي أن ذلك ليس الا عبقرية التمويه والتفكه . انها عبقرية ايجاد دليل النفي . على ذلك فليس في الأمر ما يدهش أكثر من الدهشة العادية ! اذ هل يصعب وجود مخلوقات عبقرية مماثلة على الارض ؟ انما يدهشني ألا يستطيع الاستمرار في تمثيل دوره حتى النهاية . ان ذلك يدهشني . بل ان الامر أقرب الى المعقول ! مع ذلك فقد خدعت ورحت أدافع عنهما بحماسة عنيفة .

سأل راسكولنيكوف بادي الانفعال :

ـ قل لي أرجوك كيف اطلعت على هذا ؟ ولم يثير في نفسك مثل هذا الاهتمام ؟

ـ آه ! لم يثير هذا اهتمامي ؟ يا للسؤال ! لقد أطلعني بورفير على ذلك بنفسه كما أطلعني على أشياء أخرى •

ـ بورفير ؟

ـ نعم !

سأل راسكولنيكوف مذعورا :

ـ ماذا قال لك اذن ••• ماذا قال •••؟

ـ لقد فسر لي الامر بأسلوب ممتاز • لقد فسره نفسانيا على طريقته !

ـ لقد فسره لك ؟ أهو نفسه الذي فسره لك ؟

ـ هو نفسه ، هو نفسه • الوداع ! لسوف أقص عليك أمرا آخر في المستقبل • أما الان فانني على عجلة من أمري • هناك ••• مرت فترة فكرت فيها ••• لكن ماذا • سأقص عليك في المستقبل ••• لِمَ سأثمل الان • لكنك أسكرتني دون كحول • لأنني ثمل ، يا روديا • ثمل دون أن أكون قد شربت • الوداع • سوف لا أتأخر في العودة •

وخرج •

وبينما كان رازوميخين يهبط السلم ببطء راح يقول في نفسه : « ان هذه ليست الا مؤامرة سياسية ولا شك • وبكل تأكيد ! لقد استطاع أن يدمج أخته فيها والأمر على غاية من السهولة بسبب عقلية أفدونيا • انهم على مواعيد ••• ألم تلمح لي بذلك ؟••• ان كل تلك الكلمات الصغيرة ••• تلك التنويهات ••• ذلك التلميح ••• تثبت كلها هذا الرأي ! والا فكيف يمكن تفسير كل هذا الغموض ؟ هم ! وأنا الذي فكرت ••• رباه ! ما هذا الذي حشرت رأسي به ؟ نعم لقد أسأت اليه

في سري ! بل انه أوحى الي بذلك لما كنت قرب المصباح ذلك المساء • بواه ! يا للفكرة القبيحة الدنيئة التي خطرت لي ! ان اعترافات نيكولا جاءت في حينها • والآن أصبح كل ما وقع قبلها واضحا : فالمرض الذي عاني منه وتصرفاته الغريبة العجيبة حتى ما سبق منها هذه الفترة ؛ بل ومنذ أن كان في الجامعة ، وعقليته وصحته وكآبته ••• لكن ما معنى هذه الرسالة الآن ؟ هل هناك شيء وراءها ؟ من أين أتت تلك الرسالة ؟ انني أشك ••• هم ! سوف أعرف نهاية هذه القضية » •

راحت أفكاره وذكرياته تتجه نحو دونيا ، فأثلج صدره وأحس بالذهول ، غير أنه سرعان ما انتزع نفسه منه وتابع السير •

لم يكد راروميخين يخرج من الغرفة حتى نهض راسكولنيكوف واقترب من النافذة وراح يسير من زاوية غرفته الى الاخرى وكأنه نسي الأبعاد التي بينها ، ثم عاد فجلس على الأريكة • بدا مخلوقا جديدا ، لأن رغبة النضال قد عادت اليه لذلك فقد اكتشف مخرجا جديدا !

« نعم • هذا أخيرا مخرج ! » لقد كان شديد الضيق ، ملتصقا بالجدار ، يختنق حتى ليخيل للناظر اليه أن شيئا يجثم على صدره منذ الحادثة الأخيرة : حادثة نيكولا عند بورفير • وفي اليوم الثاني كانت حادثة أخرى تنتظره عند سونيا • حادثة لم يجل بعد غوامضها ••• لقد كان ضعيفا جدا حتى أنه اعترف بكل شيء ، فانهار دفعة واحدة الى لا قيام ، لأنه اعترف أخيرا أمام سونيا ؛ اعترف من صميم قلبه ، بأنه لن يستطيع الاستمرار على الحياة وهو يحمل وحده مثل ذلك العبء ! وسفيدريكايلوف ؟ لقد كان سفيدريكايلوف لغزا ••• كان سفيدريكايلوف يزعجه حقا ولكن على شكل آخر مختلف تماما • بل لعله كان مرغما على النضال ضد سفيدريكايلوف هذا ، ولعل هذا سيكون له مخرجا آخر • أما بورفير فان أمره يختلف •

كان راسكولنيكوف خلال الأيام الأخيرة قد تصور باستمرار المشهد الذي كان له مع بورفير ، غير أنه ما كان يستطيع احتمال تلك التفاصيل كلها لو أنها عرضت في خياله دفعة واحدة • راح يحدث نفسه :

ــ وعلى ذلك اذن فان بورفير نفسه هو الذي فسر كل شيء لرازوميخين وفسره له على الطريقة النفسانية ! دائما تلك الطريقة اللعينة! لكن هو ، بورفير ؟ كيف فسّر الامر حتى آمن دقيقة واحدة بتجريم نيكولا ؟ ليس هنالك الا تفسير واحد : لقد قيلت بعض كلمات أشفعت بعدد من الحركات ، ووقعت تصرفات وتبودلت نظرات خاصة ، وتحدثا فترة بلهجة معينة• وادن فان نيكولا ليس هو الذي يجعل بورفير يبدل من قناعته ، خصوصا وأن بورفير فضح ذلك منذ كلمات نيكولا الاولى •

« أرأيت ! لقد بدأ رازوميخين نفسه يشك في الأمر ، واذن فان الموقف الذي وقع لي معه قرب المصباح ذلك المساء لم يغب عن نظره تماما ! فهل مضى عقب ذلك الى بورفير ؟ لكن لِمَ سخر منه هذا الأخير على هذا الشكل ؟ ماذا كان هدفه حينما وجه ظنون رازوميخين ضد نيكولا ؟ لا شك أن لديه فكرة ما • لكن ما هي تلك الفكرة ؟ منذ ذلك الصباح وبورفير لم يحرك ساكنا رغم مرور كل هذا الوقت • ان هذا ليس فأل خير ••• »

أخذ راسكولنيكوف قبعته بعد تفكير قصير وغادر الغرفة • كانت هذه أول مرة منذ أيام شعر خلالها بأنه يتمتع بوعيه الفكري كاملا • فكر في نفسه : « ينبغي أن أنتهي من سفدريكايلوف مهما كلف الامر وبأسرع ما يمكن • انه على ما أعتقد ينتظر كذلك أن أذهب اليه من تلقاء نفسي » • كان يشعر في تلك اللحظة بحقد مرير وكره شديد يدميان قلبه حتى أنه كان على استعداد لو أتيح له أن يضل واحدا من اثنين ، سفيدريكايلوف أو بورفير • بل انه كان يحس بأنه اذا لم يفعل

ذلك الآن فانه لا شك فاعله في المستقبل لأنه ما فتيء يردد : « لسوف نرى ، لسوف نرى » .

لكنه لم يكد يفتح باب المشى حتى اصطدم ببورفير . كان هذا على ما يبدو آتيا لزيارته فاستولى على راسكو لنيكوف ذهول عارض لم يدم أكثر من ثانية . والغريب أنه لم يشعر بمزيد من الدهشة لرؤية بورفير، بل ولم يشعر أيضا بشيء من الفزع ! صحيح أن قشعريرة مرت في جسمه لكنها سرعان ما تبخرت وعاد اليه ثباته واتزانه . تساءل : أهي الخاتمة ؟ لكن لِمَ كان يقترب بخطى خفيفة متلصصة كالقط فلم أسمع لخطواته وقعا ؟ أكان يسترق السمع وراء الباب ؟

هتف بورفير بيتروفيتش مازحا :

ــ ألم تكن تنتظر زيارتي ، يا روديون رومانوفيتش ؟ لقد كنت أعتزم زيارتك منذ أمد ! ولما كنت مارا بالقرب من هنا فقد قلت لنفسي : لِمَ لا أصعد اليه لخمس دقائق ، مجرد زيارة صغيرة ، هل كنت على وشك الخروج ؟ انني لن أؤخرك . اقبل مني هذه السيجارة .

قال راسكولنيكوف ، وهو يقدم مقعدا للزائر ويستقبله ببشاشة وهدوء حتى أنه دهش بنفسه من تصرفاته :

ــ لكن اجلس ، يا بورفير بيتروفيتش . اجلس .

كانت مشاعره السابقة قد اختفت كلها دون أن يبقى أي ظل ! وهكذا فان الانسان أحيانا يلبث نصف ساعة كاملة فريسة رعب قاتل يوحيه اليه التفكير بأحد اللصوص . لكنه حالما يشعر بالسكين على عنقه تتبخر كل مخاوفه . وهكذا جلس راسكولنيكوف قبالة بورفير وراح ينظر اليه دون ان يرمش بعينيه . فغمز بورفير بعينيه على عادته وأشعل سيجارته ببطء .

ود راسكو لنيكوف من أعماق نفسه لو صاح : حينما تحدث تحدث . لِمَ اذن ، لِمَ أنت صامت لا تتحدث » .

٢

قال بورفير بعد أن أشعل سيجارته وأطلق من فمه سحابة من الدخان:

ــ اه ! هذه السجائر ! انهــا سم ، سم حقيقي لا سبيل الى الخلاص منه ! انني أسعل منها وأشعر بضيق في حنجرتي أكاد أختنق منه . لقد أقلقني ذلــك ، وزاد في خــوفي ، حتى أنني ذهبت أستشير الطبيب « ب ... » ، انه يفحص كل مريض طيلة نصف ساعة كامــلة في الحد الادنى . فلما رآني للوهلــة الاولى راح يستهزىء بي وهــو يفحصني ويقرع بيده على جسمي . وأخيرا قال : « ان التبغ بين عدد آخر مــن الاشياء يَضِرُ بك . وانني أرى تضخما في رئتيــك » نعم . ولكن كيف أعمل على الخلاص منه ؟ بأي شيء أستعيض عنه ؟ انني لا أشرب وهنا البلاء ! هه هه هه ، مصيبه حقيقيــة أن أكون لا أشرب ! ان لكل شيء علاقة بالآخر ، ألا ترى ذلك ، يا روديون ، رومانوفيتش !

فكر راسكو لنيكوف وهو يشعر بنفور : « هل يزمــع العودة الى مخاتلاته الكريهة ؟ » .

عادت به الذاكرة الى المواقف التي جرت له معه خــلال مقابلتهما الأخيرة ، وشعر بالغضب الذي أحس به آنذاك يعصف من جديد بقلبه .

أردف بورفير ، وهو يلقي حوله نظرة شاملة :

ــ لقد أتيت الى غرفتك أول أمس مساء ، ألم تكن تعرف ذلك ؟ نعم لقد جئت الى حجرتك ، هنا بالذات . كنت أراني مارا بالقرب من منزلك فقلت لنفسي : « ماذا لو صعدت اليه أعيد اليه زيــارته الصغيرة ؟ » فصعدت واذا بالباب مفتوح على مصراعيه . فألقيت نظرة وانتظرت دون

أن أترك اسمي لدى الخادم • ألا تغلق بابك بالمفتاح ؟

راح وجه راسكو لنيكوف يزداد عبوسا • حتى أن بورفير أدرك ما يدور في خاطره • فأردف وعلى شفته ابتسامة خفيفة :

ــ لقد جئت أعتذر ، يا عزيزي روديون رومانوفيتش • أعتذر ! انني مدين لك باعتذارات وأريد أن أقدمها اليك •

وضرب على ركبة راسكولنيكوف بحركة ودية وقد علت وجهه مسحة من الكآبة وانشغال الخاطر • فلمس راسكولنيكوف فيها لونا من الحزن دهش له، لأنه لم يسبق له أن رأى على وجهه مثل ذلك التعبير من قبل • كان يشك في أن يستطيع قاضي التحقيق تصنع ذلك المظهر • قال :

ــ لقد وقع بيننا حادث غريب ، يا روديون رومانوفيتش ولم يخل لقاؤنا الاول من مواقف غريبة أيضا لكن ••• ما وقع قد وقع ! انني أشعر بأنك تعتبرني مذنبا • لا شك أنك تذكر كيف افترقنا لآخر مرة ، فقد كانت أعصابك مرهقة تماما وساقاك لا تحتملانك • أما أعصابي فكانت كذلك متوترة وساقاي متخاذلتين• بل انني أعترف بأن الاسلوب الذي سارت عليه مقابلاتنا كانت تنقصه السمة الودية ، ومع ذلك فاننا أشخاص مذنبون ، ولا ينبغي أن ننسى ذلك • تذكر مع ذلك المدى الذي بلغته الأمور فتجد أنه كان غريبا مهينا •

تساءل راسكولنيكوف مذهولا ، وهو ينظر في عيني بورفير بجرأة « ماذا يقصد ؟••• من يعتقدني ؟ »

تابع بورفير بيتروفيتش وهو يدير رأسه جانبا ويخفض عينيه وكأنه يخجل من ارباك ضحيته السابقة بنظراته أو كأنه عازف عن اللجوء الى وسائله وشراكه المعتادة :

ــ أعتقد أن من الأنسب لكلينا أن نعمل بصراحة • كلا ان افتراضات

ومواقف من ذلك النوع لا ينبغي أن تظل أبدا • لقد جـاء نيكولا في المرة الأخيرة فوضع حدا لما كان بيننا • ولولاه لست أدري الى أي مدى كانت بلغت الأمور • لقد كان ذلك الصانع الملعون مصغيا وراء الباب ، هل تتصور ذلك ؟ انك لا تجهل هذه المسألة ولا شك • انني أعرف أنه جاء اليك حال خروجه من عندي•غير أن الشكوك التي ساورت مخيلتك كانت صحيحة لأنني لم أرسل أي انسان للتحقق مـن أي أمر كـان • ولعلك تسألني لِمَ لم أعمل ذلك فأجيبك بأن تلك الأقوال قلبت آرائي رأسا على عقب•بل انني لم أهتم بالبوابين ــ ولقد شاهدتهما بنفسك ــ الا اهتماما يسيرا • ومن ذلك فقـد كنت أرى يا روديون رومانوفيتش أن قراري قد اتخذ ، وكنت أعتقد بأنني اذا أخطأت أمرا ما فانني قمين بالعثور على آخر مكانه ، وانني لن أفلت مــا أقبض عليه • انـك يا روديون رومانوفيتش ذو طبيعة سريعة التأثر ، سريعة الغضب ، بل انك متأثر بهذه الطبيعة أكثر من الحـد المعقول الى جـانب الشواذ الاخرى التي تكون عقليتك وعواطفك التي أجرؤ على القول بأنني عرفت قسما منها • ولا شك أنني حتى تلك اللحظة ما كنت أعتقد أن بالامكان ايجاد شخص يحدثني بكل ما في نفسه بمحض رضاه واختياره • رغم أن مثل ذلك يحدث عادة اذا كان الشخص قـد أنهك ! باستثناء حـالات نادرة جدا • لذلك فقد وضعت هذه النظرية نصب عيني ، وكنت أحدث نفسي قائلا : انني أكتفي بدليل صغير واحد مهما بلغت تفاهته ، دليـل أطبق عليه يدي شريطة أن يكون شيئا ايجابيا ملموسا ، لا علاقة له بالاوضاع النفسانية : لأنني كنت أحسب أن الرجل اذا كان مجرما فمن المنطق أن أنتظر منه شيئا ما ايجابيـا وملموسا • بل ولي أن أنتظر أكثر النتائـج غرابة ومفاجأة • وعلى هذا فقد كنت أعتمد على عقليتـك ، يا روديون رومانوفيتش ، نعم كنت أبني على عقليتك آمالا جسيمة •

غمغم راسكولنيكوف بسؤال لم يكن يتعمد القاءه :

ـ لكن أنت ... لِمَ تسرد لي الآن كل هذا الاسلوب ؟

وراح يتساءل في سره وقد تاه في عديد من الافتراضات : « مـــاذا يريد أن يقول ؟ هل يمكن أن يعتبرني بريئا حقا ؟ »

ـ لماذا أتكلم على هذا الشكل ؟ انني جئت لأعتذر ، بل لأوضح مـــا أعتبره نوعا من الواجب المقدس . لقد سردت لـــك كل هذا من الألف وحتى الباء ، كل قصة ... منازعتنا الأخيرة كما وقعت . لقد أخضعتك لتجارب قاسية يا روديون رومانوفيتش ، لكنني رغم هذا لست وحشا . انني أعرف كم كان ذلك قاسيا صعب الاحتمـــال بالنسبة لرجـــل تبهظه الحياة ويحرقه الاعتداد ، رجـــل متسلط نافـــد الصبر ، نعم ! خصوصا نافد الصبر ! انني أعتبرك على كل حال رجلا ذا قلب يميـــل بشدة الى العظمة النفسية رغم أنني لست مطلعا على كل ظروفك ـ وأجد أن من واجبي أن أبين لك هذا فجأة وبكل صراحة لأنني أريد أن لا أخدعك ـ [illegible] أن عرفتك شعرت بميل نحوك . لعلك تضحك من قولي . ان من حقك أن تضحك . انني أعرف أنك منذ النظرة الاولى لم تحلني في قلبك . رغم أنه لم يكن في الامر شيء بعد ، لكن ـ ولك أن تعتبر هذا كما يحلو لك ـ أريد بكل الوسائل أن أعرف الشعور الذي أحدثتــه في نفسك لأثبت لك بأنني ـ رغم كل هذا ـ رجل ذو وجدان وقلب . انني أحدثك بكل صراحة .

اتخذ بورفير بيتروفيتش مظهرا وقورا فشعر راسكولنيكوف بموجة جديدة من الذعر لأن الفكرة التي نبتت في رأس بورفير الذي بات يعتبره بريئا أخافته وأزعجته .

تابع بورفير مسترسلا :

ـ أعتقد أنه لا مجال لاطلاعك كيف وقع كل هذا من ألفه الى يائـــه ، بل انني أظن مثل هذا الشرح عديم الجدوى ، وأظن أنني لا أجد وسيلة

للتعبير عنه بوضوح • اذ كيف يمكن تفسير كل ذلك بشكل توضح فيه الظروف والملابسات ؟ لقد راجت شائعات في البدايه • لكن من أي نوع كانت تلك الشائعات ؟ ومن أين جاءت ؟ وكيف بدأت ؟••• ولأي سبب التصقت بك ؟ انني أعتقد أن البحث فيها غير مرغوب فيه • أما أنا شخصيا ، فان ما جذب انتباهي كان الصدفة ، والصدفة البحتة ، التي كان يمكن كذلك ألا تقع • والآن ما هي هذه الصدفه ؟ هم ! أعتقد أن من الأنسب أن أصمت عن هذا الموضوع أيضا ! كانت تلك الشائعات وتلك الصدفة موضوع البحث تتلاقى عندي في فكرة واحدة ! انني أعترف بصراحة — لأنه منذ أن يبدأ المرء بكشف الستر عن خطاياه عليه أن يعترف بها جميعها — أنني كنت البادىء في مهاجمتك • لأن مما دونته العجوز على الاشياء المرهونة لديها وكل ما تبع القصة لم يكن الا حماقات مماثلة• لقد أتيحت لي الفرصة فعرفت حادث قسم الشرطة الذي وقع لك ، وكانت الصدفة أيضا هي التي مهدت لي سبيل معرفة تفاصيل ذلك الحادث • ولم تكن تلك الاقوال قد بلغتني بشكل عرضي ، ولكن نقلها الى شاهد عيان احتفظ بذلك المشهد في نفسه بشكل بارز • فكان هذا بمثابه القلنسوة البيضاء ، نعم القلنسوة البيضاء يا عزيزي روديون رومانوفيتش ! اذ كيف يجوز أن لا يلتفت قاضي التحقيق الى جهة ما ؟ وهناك مثل انجليزي يقول : أن مائه أرنب لا تعادل حصانا ، ومائه شك لا تشكل أدلة ! لعمري انها الحكمة مجسدة• لكن ما العمل مع الرغبات• حاول ان استطعت أن تقاوم الرغبات ! وقاضي التحقيق ليس الا رجلا ! ولما تذكرت المقال الذي نشرته في تلك المجلة ، أعتقد أنك تذكره انه ذلك الذي حدثتني بتفاصيله في المقابله الاولى — رحت أسخر منك في البداية ، ولكنه أسلوب لاحراجك وسوقك الى اعترافات أوسع • وأنت يا روديون رومانوفيتش — وأكرر القول — نافد الصبر سريع الغضب ثم انك الى جانب ذلك مخاطر مندفع جدي ، ولقد تأثرت تأثرا شديدا

الأمر الذي كنت أشك فيه منذ زمن بعيد . انني أعرف هذا اللون من الاحساسات . فلما قرأت مقالك خيل الي أنني أعرفه من قبل . لقد كتبته ولا شك خلال ليال طويلة من الأرق والحمى ، كان قلبك خلالها مفعما مضطربا عنيف الضربات ، كنت فريسة حماس واندفاع لا سبيل الى توقيفهما . ان ذلك الكبت خطير ، وحماس الشاب يدفع به دائما الى أخطر المواقف ! لقد هزأت بك في حينه لكنني أستطيع أن أجزم لك الآن بأنني أحب حبا عميقا ــ بصفتي من الهواة ــ تلك المحاولة الصاخبة العنيفة التي جرت بها ريشتك . ان مقالك غامض قاتم ولا شك ، غير أن وترا حساسا لاينى يهتز في تلك الظلمة انه مقال غريب خيالي ، لكنه لا يخلو من الاخلاص ، يشعر المرء فيه بلون من الكبرياء الخالصة والجرأة البائسة ، جرأة عقل ينظر الى الحياة بمنظار أسود . انه مقال جيد . ولقد قرأته وحفظته وقلت في نفسي: «ان رجلا كهذا لا يقف عند حد» . والان قل لي كيف كنت أستطيع كبح جماح نفسي عن الاندفاع وراء التفاؤل بعد تلك البوادر كلها ! آه ربــاه ! هــل أقــول شيئــا ؟ هل أقرر شيئا في هذه اللحظة ؟ كلا انني بصدد ابداء ملاحظة فقـط . ماذا كان في الأمر ؟ انني لا أتساءل ، لا شيء ! لم يكن هناك شيء بل ويمكن أن أقول بأنه لم يكن هناك شيء على الاطلاق ! وعلى ذلك، فانه ليزعجني أن أكون قد سلكت ذلك السبيل . وها أنذا الان أحمل نيكولا على ذراعي الى جانب بعض الأدلة . وسواء شئت أم لم تشأ فانها أدلة قوية كافية !... لقد اضطررت مرة جديدة الى اللجوء الى أســلوبي البسيكولوجي وقلت لنفسي : انه يجب أن أعنى به تماما لأن المسألة مسألة حياة أو موت ! أما لم أفسر لك كل هذا ؟ فلأنني أريدك أن تعلم كل شيء لكي لا تحكم علي في صميم نفسك ووجدانك استنادا الى المعاملة القاسية التي عاملتك بها ذلك اليوم . ان الأمر لم يكن عن خبث وأؤكد لك بكل اخلاص ، هه ! هه ! لعلك تتساءل لِمَ لم أرسل مـن

يتحرى منزلك في ذلك الحين ؟ لكنني جئت لما كنت مريضا ملازما فراشك هنا • صحيح أنني لم أحضر رسميا أو بصفتي الرسمية ، لكنني جئت على كل حال • لكن فتشت مسكنك تفتيشا دقيقا وبحثت في كل المخابىء الخفية التي فيه • لقد أجريت هذا التفتيش منذ الشكوك الاولى ، لكن كان عبثا • كنت أقول لنفسي : « سوف يأتي هذا الرجل ، لسوف يأتي بنفسه بعد زمن قصير • ان أيا كان غيره ما كان ليحضر ، أما هذا فانه سيأتي اذا كان مجرما » • هل تتذكر كيف عنفك رازوميخين بقسوة عند ابلالك ؟ لقد كنا قد سوينا الأمر لنلقي بك في الارتباك ، خدعنا رازوميخين فأقنعناه بلزوم توبيخك وتعنيفك • ورازوميخين ـ كما تعلم ـ واحد من أولئك الرجال الذين لا يستطيعون كبت انفعالهم وسخطهم • أما السيد زاميوتوف ، فان غضبك وجرأتك غير المحدودة ، وهي التي أثرت فيه ، راح يتساءل : كيف يمكن الصراخ في حانة عامة : « لقد قتلت ! » ؟ هل هي المفاجأة ؟ انها أكثر من ذلك • انها شجاعة مجنونة • وقلت في نفسي : اذا كان هذا الرجل مجرما فانه ولا شك ماجن رهيب • لقد انتظرت على هذا الاساس ـ كنت أنتظرك بعد أن أخمدت قوى زاميوتوف المسكين • وهنا ـ كما ترى ـ ليس الخطأ الا خطأ السيكولوجية ذات النتائج المزدوجة ! لكنني انتظرتك ، فأرسلك الله فجأة ! ليتك تعلم كم اشتدت ضربات قلبي ! لعمري ماذا دعاك الى الحضور في ذلك اليوم ، وتلك الضحكة ، تلك الضحكة التي دخلت بها مسكني ! هل تذكرها ؟ لقد كان كل هذا بالنسبة الي صافيا واضحا كماء الصخور ! ولو أنني ما كنت أنتظرك لذلك السبب الذي كونته لنفسي ، لما كانت ضحكتك ذات معنى خاص في نفسي • كان ذلك الموقف من جانبي نتيجة للاستعداد العقلي الخاص الذي كنت هيأته عنك • ثم السيد رازوميخين حينذاك ! آه ! والحجر ، ـ ألا تذكره ـ الحجر الذي أخفيت الاشياء تحته ؟ ••• يبدو لي انني أراها في مكان

ما ، في بستان آخضر ! لقد قلت ذلك لزاميوتوف وكررته عندي، آليس كذلك ؟ ثم لما رحنا نناقش مقالك ، فرحت تحاول ايجازه وعرضه وتلخيصه ... ان كل كلمة من كلماتك كانت تحتمل معنيين يمكن ان تؤخذ بهما ، وكان وراء كل واحده منها شيء مستتر ! حسنا ، هذا هو موجز الأمور التي جعلتني أتصرف كما شهدت ، والتي لولا أن اصطدم رأسي صدمة قويه لما تماسكت وتمالكت نفسي !

كنت أقول لنفسي : « هيا ... الى أين أمضي على هذه الوتيرة؟ لو شئت ، أو على الأصح لو أنصفت ، لكان لكل هذه التفاسير معنى عكسي اخر ، بل انها قد تبدو أكثر تصديقا واحتمالا . نعم، انني أعترف بأنها ـ لولا فكرتي المسبقة ـ كانت تبدو أكثر حقيقة واحتمالا . ليتك عرفت المجهود الذي بذلته . كنت أقول : ان دليلا واحدا ، دليلا صغيرا واحدا ، يكفيني ! » فلما سمعت قصة الجرس ، كاد أن يغمى علي ! شعرت برعدة تسري في جسدي وقلت لنفسي : ها هو ذا الدليل الصغير أخيرا ! كنت مؤمنا بذلك تلك المرة ! فلم أفكر في تلك اللحظة ، بل انني لم أحاول التفكير . كنت في تلك الاثناء مستعدا لدفع ألف روبل لأراك بعيني هاتين تمشي تلك المائة خطوه جنبا الى جنب مع ذلك الصانع « الغراء » الذي وصفك بالقاتل دون أن تجرأ خلال تلك الخطوات المائة على سؤاله أو الاحتجاج بكلمة !... ثم تلك القشعريرة الفجائية التي اعترتك ؟ وقصة الجرس ، هل جذبته بفعل المرض والهذيان ؟ وعلى هذا يا روديون رومانوفيتش ، هل ترى ما يدهش اذا أنا لجأت الى تلك اللعبة معك ؟ ثم لماذا جئت في تلك اللحظة بالذات الى مكتبي ؟ لقد كنت مدفوعا الى تلك الزيارة ، ولولا أن نيكولا قطع علينا استمرارنا ... هل تذكر مجيء نيكولا ؟ لقد كانت صاعقة حقيقية ! كان وكأن الرعد قد سقط عند أقدامي فزلزلها ! وكيف استقبلته ؟ لقد أذهلتني

المفاجأة ، وقد لاحظت ذلك بنفسك . حسنا ، لقد دهشت بنفسي وكانت دهشتي عظيمة حينما أجابني بعد رحيلك بشكل دقيق ومفصل أجوبة حول نقاط معينة كانت غاية في الدقة . غير أنني ما شئت تصديق أقواله ! هذه هي نتائج الاحتفاظ بفكرة ما في الرأس ! كنت أقول لنفسي : كلا ! كلا ، ان نيكولا لا علاقة له بهذه القصة !

ـ لقد قال لي رازوميخين منذ برهة ان اتهامك ينصب الان على نيكولا ، وانك أنت نفسك قد أقنعت رازوميخين بـ ...

واختنق صوته فلم يستطع الاستمرار . كان فريسة اضطراب لا يوصف ، فقد سمع استدراك الرجل وتراجعه ، ذلك الرجل الذي استطاع كشف حقيقته ، فكان يخاف أن يصدقه ، لذلك فانه لم يصدقه كلمة مما قاله له . كان يحاول بكل قواه ايجاد شيء واضح تهائي خلال أقواله العامرة بكثير من الغموض .

هتف بورفير بيتروفيتش ، وكأنه ابتهج لسماع راسكولنيكوف يجيب على كلامه بعد أن لبث صامتا كالصنم حتى تلك اللحظة :

ـ السيد رازوميخين ! هيه ، هه ، هه ! كان يجب أن أتخلص من رازوميخين لأنه حيث يكون مكان لاثنين يكون الشخص الثالث غير مقبول ! ان رازوميخين طينة خاصه من الرجال ، انه شخص غريب عن القضية ، ثم انه هرع شاحبا ... لندعه جانبا اذا أحببت . أما نيكولا ، فانني سأبين لك نوعه بين الرجال اذا أردت . هل تريد ؟ انه قبل كل شيء طفل لم يبلغ بعد سن الرشد . وهو ليس جبانا لكنه يشبه الفنان في عقليته . لا تضحك اذا كنت أصفه بهذا الشكل . انه يتحدث عن الغناء والرقص أحاديث تجعل الناس ـ كما يقول ـ يهرعون من بعيد للاستماع اليه . ولما كان في المدرسة ، كانت الاشارة تكفي لينفجر التلاميذ بالضحك . انه يشرب حتى يصبح ثملا أقرب الى الموت .

وليس السبب في ذلك عادة متأصلة في نفسه، بل لمجرد التشبه بالآخرين، وللتسلية ، لذا فهو يشرب كل ما يقدم اليه . لم يكد يفهم أنه ارتكب سرقة ما . كان يقول : « لقد التقطت على الارض ما كان ملقى عليها لكنني لم أسرق ! » أتدري أن عددا من أفراد أسرته كانوا من شيعة «التائهين» ، وأنه كان قد أمضى عامين في الريف لدى واحد من هؤلاء . لقد علمت كل هذا من نيكولا ومن بعض مواطنيه من سكان زارائيسك . لقد كان يريد الفرار الى الصحراء ، ثم انه شديد الورع والتقوى ، فقد أمضى ليالي طويلة وهو يصلي الى الله ويقرأ الكتب المقدسة القديمة « الحقيقية » ويستغرق في تلك القراءة . لقد أثرت عليه بطرسبورغ تأثيرا سيئا . فغدا مولعا بالنساء ، وكذلك لعمري بالكحول . ولما كانت طبيعته متقلبة جساسة ، فانه لم يلبث أن نسي المرشد الذي كان عنده في الريف . ثم ان أحد الفنانين بدأ يهتم به لاعداده ، غير أن هذه المثالة المحزنة جاءت فأوقفت هذا المجهود ! لقد روع الغلام ، بل انه حاول الانتحار شنقا كما حاول الفرار ! ماذا تريد أن أعمل اذا كان الشعب قد ابتدع لنفسه مثل تلك الفكرة عن رجال القضاء ؟ ان مجرد كلمة « محكمة » تبعث الذعر والرعب. لكنها خطيئة من ؟ اننا نأمل أن يضع النظام القضائي الجديد كل شيء في مكانه .

اذن لما أدخل نيكولا السجن ، عاد مجددا يذكر مرشده الباسل. وهنا تدخل الانجيل أيضا . أتدري ، ياروديون رومانوفيتش ، ما معنى « تقبل الألم » بالنسبة الى بعض هؤلاء المتصوفين ؟ انه لا يعني فقط أن يتألم المرء نيابة عن غيره، بل أن يتألم فقط . أعني أنه ينبغي أن يحتمل الألم الذي تفرضه السلطات وهذا في نظرهم أسمى من الألم العادي . لقد عرفت شخصا سجينا وديعا مرتاح البال أمضى عاما كاملا في سجنه كان يقرأ الانجيل كل ليلة وهو قابع قرب المدفأة ، وقد قرأه بتعمق حتى أنه ذات يوم — دون أي سبب — نزع قرميدة وقذفها على مدير

السجن الذي لم يكن قد أساء اليه مطلقاً ، لكن كيف ألقاها ؟ لقد تدبر الامر بحيث تسقط القرميدة على بعد متر من انهدف على الاقل فلا تسبب للمدير أي جرح أو أذى ! ولا شك أنك تدرك نتيجة مثل هذه العملية بالنسبة لسجين أراد الاعتداء على أحد الرؤساء ، لكنه بهذه الطريقة « تقبل الألم » ! وعلى ذلك فانني أشك في أن يكون نيكولا لا يهدف الى مثل هذه الغاية أو الى شيء من هذا القبيل ، اذ يكفيني أن أعاين الوقائع ، غير أنه لا يعرف أنني أعرف ذلك ، ألا تعتقد بوجود مثل هؤلاء الاشخاص الخياليين في عداد الشعب ؟ انهم كثر ، ان تأثير تلك الشيعة الصوفية عاد الى الظهور في نفسه مجددا خصوصا عندما فكر في شنق نفسه ، لقد اعترف بذلك شخصيا ، لكن أتعتقد أنه سيؤيد هذه الأقوال ؟ كلا سترى أنه سوف يسحبها ويتراجع عنها ، انني أنتظر من لحظة الى أخرى أن ينكر اعترافاته الاولى ، انني أشعر بميل الى هذا الـ « نيكولا » لذلك فانني أدرسه بتعمق ، ثم انه تقدم بتفاسير واضحة جدا حول بعض النقاط، لقد عرف كيف يقدم المعلومات اللازمة ، حتى أنه يرى تماما أن كل شيء كان معدا في نفسه ، أما فيما يتعلق بنقاط اخرى فقد كان غامضا لم يستطع اعطاء كل فكرة صحيحة ... لكنه لا يشك لحظة واحدة في أنه لا يعرف عنها شيئا ! لذلك ينبغي الدفاع عنه ، يا روديون رومانوفيتش ، لأنه بعيد عن كل هذا !. ان المسألة هنا مسألة وهم وغموض ، مسألة مفاجئة تلمس في كل الازمنة التي يكون القلق مستوليا على القلب البشري خصوصا في هذا الوقت التي تسمع فيه عبارات كهذه : « الدم يصلح » ، وحيث الهناء والراحة هما ما تهدف اليهما الحياة كمذهب جديد في الوقت الحاضر، ان أحلاما مقتطفة من الكتب تبرز في هذه القضية ، ان فيها عقلية بعض أصحاب النظريات الملتهبة ، عقلية تقرير المصير «منذ» الخطوة الاولى، لكنه تقرير من لون خاص ، اذ أن المتهم قد حزم أمره ، وكأنه يسقط

من أعلى جبل أو برج ، بدا كأنه صعد اليه بأقدام غيره • لقد نسي أن يغلق الباب وراءه ثم قتل ، قتل شخصين تنفيذا لنظريته • لقد قتل ولم يستطع الاستيلاء على المال • أما ما وفق في الاستيلاء عليه فقد ذهب يخفيه تحت حجر • انه لم يكتف بذلك القلق والخوف اللذين احتملهما لما كان قابعا وراء الباب الذي كان يقرع عليه بضربات قوية ، بينما كان الجرس يقرع كذلك بعنف • كلا ان ذلك لم يكفه ، بل انه لبث فريسة وهم وهذيان ، فتذكر الجرس ومضى نحو المسكن الخالي ، ليحس من جديد بتلك القشعريرة المتجمدة بين كتفيه ••• لنفرض جدلا أن ذلك كان بتأثير المرض ، لكن هناك شيئا أكثر من ذلك ، وهو أنه قتل ويعتقد نفسه رغم ذلك رجلا شريفا يحتقر الناس ويرتفع الى مصاف الملائكة • كلا يا عزيزي روديون رومانوفيتش العزيز ، ان الامر هنا لا يتعلق بنيكولا • انها ليست قضية نيكولا ، أبدا •

ارتعد راسكولنيكوف من رأسه حتى قدميه وكأنه أصيب بطعنة نجلاء • كان يظن أن كل ما قيل ان هو الا استدراك واعتذار غير أن الكلمات الاخيرة بددت تلك الفكرة •••

غمغم بصوت مختنق رغم ارادته :

ـ اذن ••• من الذي ••• قتل اذن ؟

استلقى بورفير بيتروفيتش على مسند مقعده وبدا دهشا لهذا السؤال غير المنتظر •

أجاب وكأنه لا يصدق أذنيه :

ـ كيف • من الذي قتل ؟

ثم أضاف بصوت قريب الى الهمس وبلهجة لا تحتمل الجدل :

ـ لكنك أنت الذي قتلت • أنت الذي قتلت ، يا روديون رومانوفيتش ، انه أنت •••

انتفض راسكولنيكوف وهب واقفا ولبث بضع ثوان دون حراك. ثم عاد وجلس دون أن يتفوه بكلمة . تقلص وجهه بفعل نوبة من التشنج !

أردف بورفير مغمغما بشيء من الاهتمام :

ــ ها هي ذي الشفة ترتجف تماما كذلك اليوم . يبدو لي ، يا روديون رومانوفيتش ، أنك تفهمت تماما الاسباب التي دفعتني الى قول ما قلت . لذلك أراك مبهور الانفاس مذهولا . جئت خصيصا اليك لاروي لك الامر وأكشف القضية أمامك .

غمغم راسكولنيكوف شأن الطفل الذي ضبط متلبسا :

ــ لست أنا الذي قتلت .

فأجابه بورفير بصوت منخفض ولهجة خطيرة مقنعة :

ــ بلى . انه أنت ، يا روديون رومانوفيتش ! أنت ولا أحد سواك .

صمت كلاهما فترة طويلة تجاوزت العشر دقائق . كان راسكولنيكوف متكئا على المائدة تعبث أصابعه خلال شعره الاشعث. أما بورفير بيتروفيتش فقد كان ينتظر وهو في مكانه هادئا . وفجأة نظر راسكولنيكوف الى القاضي باشمئزاز :

ــ انك تعود أبدا ، يا بورفير بيتروفيتش ، الى هذه النقطة! دائما آراؤك نفسها. ألا يزعجك استمرار هذا أبدا ؟

ــ اه ! دعك من أساليبي وآرائي ! لو كان هناك شهود لاختلف الامر لكننا نتحدث منفردين كما ترى بنفسك . انني لم أحضر اليك لأطاردك أو أصطادك كالارنب البري . وسواء اعترفت لي أم لم تعترف في هذه اللحظة فان الامر عندي سيان . ان نظريتي قائمة دون تأييدك.

سأل راسكولنيكوف بلهجة خائفة :

ـ لماذا جئت الى هنا طالما الامر كما تقول ؟ انني أطرح عليك السؤال اياه • اذا كنت تعتبرني مذنبا فلم لا ترسلني الى السجن ؟

ـ يا للسؤال البديع ! لسوف أجيبك على سؤالك فورا : أولا انه ليس من مصلحتي أن أبادر الى توقيفك على الفور •

ـ كيف لا يكون في مصلحتك ؟ اذا كنت مقتنعا فيجب أن •••

ـ اه ، ما قيمة قناعتي ؟ انها قائمة حتى الان على الاحلام • ثم لماذا أضعك هناك في « الراحة » ؟ انك تعرف أنها راحة لك لأن ذلك هو ما تطلبه • فلو أنني مثلا جابهتك بذلك الغراء وقلت له : « انك ثمل ولا شك • من الذي شاهدني معك ؟ لقد اعتبرتك ثملا بكل بساطة لأنك كنت كذلك في الواقع » • نعم لو أنك قلت له ذلك ، فأي جواب أستطيع أن أقوله ؟ خصوصا وان ادعاءك هذا يحتمل التصديق أكثر من ادعاءاته ، لأن أقواله مبنية على المبدأ البسيكولوجي فقط ، أما أنت فانك تبني أقوالك على حقائق ملموسة • اذ أن للرجل فما ، والحيوان نفسه يشرب • فلا يستبعد والحالة هذه أن يكون هو الاخر قد شرب ولكن كحولا • ان الأمر واضح تماما • ألم أخبرك بنفسي أن نظرياتي النفسانية ذات وجهتين احداهما أقرب الى الصواب والحقيقة من الاخرى ، وأنه ليس هناك في الوقت الحاضر أي دليل ايجابي ضدك؟ لسوف أوقفك ولا شك رغم أنني جئت ـ خلافا لكل الاصول المتبعة ـ أخطرك بكل هذا • انني أصرح لك ـ ضد تلك الاصول دائما ـ أنه ليس من مصلحتي أن أوقفك في الوقت الحاضر • أما السبب الثاني الذي جئت من أجله فهو •••

كان راسكولنيكوف مبهور الانفاس • سأل :

ـ حسنا ما هو السبب الثاني ؟

ـ لكنني ذكرته لك • انه الاعتذار الذي أريد تقديمه اليك •

انني لا أريد أن تعتبرني وحشاً خصوصا وانني أشعر بميل مخلص نحوك سواء أصدقت أم لم تصدق • لذلك فان هناك سبباً ثالثا وهو أنني أريد أن أعرض عليك عرضا لا أخفي وراءه أي شيء : انني أعرض عليك أن تعترف بنفسك لأن ذلك سيكون أكثر نفعا لك ، وكذلك بالنسبة الي لأنني سأتخلص من هذا الوزر • هل ترى عرضي صريحا بهذا الشكل ؟

فكر راسكولنيكوف دقيقة ثم قال :

ــ اسمع ، يا بورفير بيتروفيتش • لقد قلت ان قناعتك قائمة على أساس نفساني بحت مع ذلك أراك تحاول اللجوء الى الرياضيات، فماذا يكون موقفك لو كنت مخطئا في هذه اللحظة ؟

ــ كلا ، يا روديون رومانوفيتش ، انني لست مخطئا ! ان في يدي واقعة صغيرة • وتلك الواقعة الصغيرة اكتشفتها ذلك اليوم• لقد أرسلها الله الي •

ــ ما هي تلك الواقعة الصغيرة ؟

ــ لن أقولها لك ، يا روديون رومانوفيتش • غير أنه مهما حصل فانني لا أجد من حقي أن أمهلك ولسوف أوقفك ، وعليه احكم : ان موقفك في الوقت الحاضر لا يهمني في كثير أو قليل • انني ما جئت الا لمصلحتك • والله يشهد ، يا روديون رومانوفيتش ، أن من مصلحتك الاعتراف •

قهقه راسكولنيكوف مستهزئا بشكل آلي :

ــ الحقيقة أن هذا أكثر من شاذ • انه وقاحة • ثم انني مجرم حقا ــ الامر الذي لم أعترف به مطلقا ــ لماذا أعترف لك [illegible] انك قلت منذ لحظة بأنني سأكون في « راحة » في السجن •

ــ ايه ، يا روديون رومانوفيتش ، لا تفسر كلماتي حرفيا • قد لا

يكون في ذلك كل الراحة • ان القضية مجرد نظرية خاصة بي ، اذ ما هي سلطتي أنا بالنسبة اليك ؟ لعلني في الوقت الحاضر أخفي عنك شيئا • لأنه لا يمكنك أخذ اعترافاتي واستعمالها وفق هواك • أما النقطة الثانية فهي : ما هي مصلحتك في الموضوع ؟ هل لديك فكرة عن تخفيف العقوبة التي تشملك اذا اعترفت ؟ فكر في ذلك ! فكر فيما ينبغي أن تتعامل به اذا جاء اعترافك في الوقت الذي تقدم فيه آخر معترفا بجريمته فأدار الانتباه عنك وركزه في نفسه • أما أنا ! فانني أقسم لك أمام الله أنني سأتدبر الامر وأتصرف به بكل قواي حتى اجعلك تستفيد منه دون أي شك، لسوف نهدم كل ذلك البناء النفساني الذي أقمناه • سوف أجعل الشبهات التي حامت ضدك عديمة القيمة حتى أجعل جريمتك تبدو لونا من الغموض طالما أنها كانت متلجلجة في نفسك بشكل غامض غريب• انني رجل شريف، يا روديون رومانوفيتش، أتمسك بوعودي•

أحنى راسكولنيكوف رأسه صامتا واستغرق في تفكير عميق، وأخيرا ابتسم ابتسامة عذبة سويداوية وقال دون أن يحاول خداع بورفير :

ـ لست في حاجة • ان الامر لا يستوجب العناء • انني لست في حاجة الى كرمك •

هتف بورفير بحماسة لا ارادية :

ـ ان هـذا ما كنت أخشاه • كنت أنتظر أن أراك عازفا عن رحمتنا •••

ألقى عليه راسكولنيكوف نظرة حزينة ثاقبة • بينما استرسل بورفير :

ـ لا تشمئز من الحياة • انها لا تزال طويلة أمامك • فكيف لا

تريد الرحمة ، كيف ؟ انك صعب جدا •
ـ ماالذي سيكون طويلا أمامي ؟
ـ الحياة ! هل أنت نبي فتعرف كل هذه الامور ؟ ابحث وسوف تجد • قد يكون الله بانتظارك هناك • فالسجن لن يكون أبديا •
قال راسكولنيكوف باسما :
ـ ستخفف العقوبة اذن •••
ـ ماذا ؟•• أيكون خجلا برجوازيا ذلك الذي يوقفك ؟ قد يكون هو الخوف الذي يراودك دون أن تشعر لأنك شاب • مع ذلك فانه لا يجب أن تخجل أو أن تخاف من الاعتراف بالاثم الذي ينهش قلبك •
تمتم راسكولنيكوف بلهجة السأم والاحتقار وكأنه يأبى الكلام :
ـ اه ! لست أبالي •
بدا كأنه يحاول النهوض والذهاب لكنه عاد فجلس وهو فريسة يأس واضح•
ـ لست تبالي ! انك حذر وكأنك تعتقد أنني أخدعك بالتلطف معك بهذا الشكل الفظ • لكن هل عشت كل هذا العمر حتى تفكر في مثل هذه الامور ؟ لقد تخيلت نظرية وها انك خجل اذ تراها تقوم على الماء ، وانه يعوزها الواقع والاساس المتين ! بل ان ما نتج عنها رديء • لكن لست سفاكا لا يرجى صلاحه ! انك لست ذلك السفاك• أبدا لست سفاكا ، بل انك لم تحاول قبل هذه المرة ، بل قمت بفعلتك دفعة واحدة دون مقدمات • أتدري ماذا أفكر عنك ؟ انني أعتبرك من أولئك الرجال الذين يفضلون التهشم والتحطم على الاستسلام ، وينظرون ضاحكين الى جلاديهم شريطة أن يكونوا قد آمنوا بمبدأ ما أو رب ما • حسنا ابحث عن الله والمبدأ ولسوف تحيا • ثم انك في حاجة الى تبديل الهواء منذ زمن طويل • ان الألم شيء جيد أحيانا ، فلنتألم اذن • لعل نيكولا على صواب في رغبته في الالم • انني أعرف

أنك لا تؤمن بشيء ، لكن لا تحاول تعقيد الامور • استسلم لسياق الحياة دون مناقشة : كن خلي البال وعندئـذ ستحملـك الحيـاة الى الشاطىء وستعود واقفا على قدميك • أما ما هو ذلك الشاطىء ؟ وكيف أستطيع معرفته ؟ لست أدري • ان كل ما أعرفه هو انك ستعيش أيضا زمنا طويلا • انني واثق مما أقول ، لك أن تعتبره الآن قسما معظمـا • ولعلك ستذكر كلماتي مستقبلا فتنتفع بها ، ومن أجل ذلك أقولها لك • ولك أن تغتبط لانك لم تقتل الا عجوزا خبيثة • اذ لو خطرت ببالك نظرية أخرى ، فانك كنت قادرا على ارتكاب فعلة أشد نكرا بألف مليون مرة ••• لعلك تشكر الله على هذا ، ماذا يدريك ؟ لعل الله يحفظـك لأمر آخر • تشدد وكن أقل جبنا • هل تخاف من انجاز المهمة التي وجبت عليك ؟ ان الخجل ينبغي أن يكون من الشعور بالخوف في هذا المضمار ! وطالما أنك خطوت الخطوة الاولى ، فلا ينبغي أن تتراجع • ان هناك قضية العدالة • فاعمل ما تتطلبه العدالة ! انني أعرف أنك لا تؤمن بهذه الأقوال لكنني أشهد الله على أن الحياة ستنتصر عليـك • لسوف تعود الى محبة الحياة بنفسك • انك الآن في حاجة الى الهواء فقط ، ان ما ينبغي لك هو الهواء ، لا شيء الا الهواء !

ارتعد راسكولنيكوف وصرخ :

ـ ولكن من أنت ؟ من أنت حتى تتصنع خطورة الانبياء ؟ من أي « سيناء » تتنبأ لي بهذه الحكم ؟

ـ من أنا ؟ انني رجل انتهى دوره لا أكثر من ذلك ! رجل حساس رؤوف غير محروم تماما من المعرفة ولكن دوره قد انتهى تماما ! أما أنت فالامر خلاف ذلك بالنسبة اليك • ان الله قد هيأ لك الحيـاة • ومن يدري لعل كل هذه الامور ستتبخر من سماء حياتك وكأنها سحـابة صيف ! ماذا يهم اذا كنت الآن تنتمي الى فصيلة أخرى من الناس ؟ أهو

الهناء الذي ستأسف له وأنت تملك مثل هذا القلب ؟ أم أنك ستأسف على ابتعادك زمنا طويلا بعيدا عن أنظار الاخرين ؟ ان الوقت لا قيمة له ، ان المهم في هذا الموضوع هو أنت بالذات • صر شمسا ولسوف يراك الناس أجمعين • لم تبتسم ابتسامتك هذه ؟ ألا تحدث نفسك بأنني أحذو حذو شيلر في الحديث ؟ أراهنك على انك تعتقد بأنني أحاول أن أنتزع منك اعترافات لا تريد الادلاء بها ؟ لعمري انه ممكن، هه، هه، هه ! حسنا ، يا روديون رومانوفيتش • لا تصدق وعدي ، لا تصدق أقوالي ، انني أقوم بمهنتي وعملي • غير أنني سأضيف : لك أن تحكم اذا كنت رجلا شريفا أو خائنا ماكرا •

ـ متى تنوي توقيفي ؟

ـ أستطيع أن أدعك يوما ونصف اليوم أو يومين آخرين متمتعاً بحريتك • فكر يا صديقي ، صل وابتهل الى الله ؛ ولسوف تربح • وأؤكد لك : سوف تربح !

سأل راسكولنيكوف ، وهو يضحك ضحكة غريبة :

ـ واذا فررت ؟

ـ كلا ، انك لم تفر ! ان أي موجيك قادر على الفرار ، كذلك المتشيع للافكار الحديثة ، خادم فكرة الاخرين الذي يكفي أن يؤنب مرة ، ليقضي العمر كله يؤمن بما تقول ! لكن أنت ، انك لم تعد تؤمن الان بنظرياتك الشخصية • فكيف اذن تلوذ بالفرار ؟ ثم ماذا سيكون وجودك بصفتك هاربا ؟ ان حياة الهارب كريهة صعبة • انك بحاجة قبل كل شيء الى حياة هادئة مستقرة في جو تحس به وتميل اليه• فهل تكون كذلك اذا فررت ؟ انك اذا ذهبت لن تلبث أن تعود ! « لن تستطيع الاستغناء عنا » • وعندما سأضعك في السجن ، لسوف تعود كلماتي هذه الى ذاكرتك ولو بعد شهر أو اثنين أو ثلاثة • لكنها

ستعود ، ولسوف تعترف بنفسك بصحتها وربما اعترفت في وقت لا تتوقعه بنفسك • قبل ساعة من الزمن لم تكن تعترف أنك نضجت للاعتراف بما عملت • بل انني أرى أنك على استعداد لتحمل الألم وتقبله • انك لا تؤمن الان بما أقول ولكنني واثق من أنك ستعود الى الايمان به • ان الألم يا روديون رومانوفيتش شيء عظيم ولا شك • انني أعرف ـ ولو أن الامر يبدو مضحكا ـ أن في الألم فكرة ما، وأن نيكولا على حق في نهجه • انك لن تفر ، يا روديون رومانوفيتش •

نهض راسكولنيكوف عن مقعده وأخذ قبعته فحذا بورفير بيتروفيتش حذوه •

ـ أتزمع القيام بنزهة ؟ ان الليلة جميلة اذا لم تهب عاصفة• لكنها اذا هبت فلسوف تلطف حرارة الجو •

وأخذ قبعته كذلك •

قال راسكولنيكوف ملحا بلهجة خشنة :

ـ يا بورفير بيتروفيتش ، لا تعتقد أنني اعترفت لك بشيء اليوم• لقد كنت شديد الشذوذ فأصغيت اليك بمحض الفضول • انني لم أعترف لك بشيء ••• فلا تنسى هذا !

ـ نعم ، نعم ، لن أنسى ذلك • ألا ترى نفسك كم أنت مضطرب• لا تبتئس يا عزيزي ، ستكون مشيئتك محترمة • اذهب وقم بنزهة صغيرة ولكن لا تبتعد •

ثم أضاف بصوت خافت :

ـ ان لي رجاء آخر أتقدم به اليك ، انه رجاء دقيق ولكنه هام : اذا جال في خاطرك ـ رغم أنني لا أعتقد بامكان حدوث ذلك وأعتبرك غير قادر على صنعه ولكن ينبغي التحفظ ضد كل شيء ـ خلال الثمان والاربعين ساعة المقبلة أن تنتهي من الحياة وتقضي على حياتك بنفسك

ـ واصفح عن هذا الافتراض النائي ـ فأرجو أن تترك ورقة صغيرة تفسر فيها موضع الحجر ، ورقة وعليها سطران فقط . لأن ذلك سيكون أكثر اباءً . هيا ـ الى اللقاء ... عسى أن تراودك أفكار طيبة وأن تنفذها على الفور !

انسحب بورفير وقد خيل الى راسكولنيكوف أنه كان منحني القامة قليلا ، وانه كان يتحاشى النظر الى وجهه . فهرع هذا الى النافذة وانتظر بنفاذ صبر محموم الوقت الذي قدر أن قاضي التحقيق يستغرقه للابتعاد عن المسكن ، ثم خرج مسرعا من غرفته ...





كان يتلهف للقاء سفيدريكايلوف دون أن يدرك ماذا يأمل من لقائه . حسبه أن ذلك الرجل كان يمارس عليه لونا من السلطة الغامضة؛ ومنذ أن أدرك راسكولنيكوف هذه الحقيقة لم يشعر قط بالراحة . أضف الى ذلك أن الوقت قد أزف لايضاح هذه النقطة وجلائها .

كان سؤال واحد يعذبه وهو في طريقه: هل مضى سفيدريكايلوف الى بورفير وأطلعه على ما يعرف ؟ كان راسكولنيكوف ميالا الى الاعتقاد بعدم وقوع الشيء ، بل انه كان واثقا من ذلك . ولذلك فقد راح يفكر ويفكر . استعاد في مخيلته زيارة بورفير الأخيرة الى غرفته وخرج بالنتيجة التالية : كلا ، ان سفيدريكايلوف لم يذهب اليه، أبدا !

لكن اذا كان لم يذهب حتى الان فهل سيذهب في المستقبل أم لا يذهب ؟

استحسن في تلك الاثناء الرأي القائل ان الزيارة لن تكون. ولكن لم مال الى هذا الرأي القاتل ؟ لم تكن لديه مبررات معقولة، حتى ولو كان يستطيع تفسير الاسباب لما حطم دماغه في التفكير في دوافعها. كان كل هذا يعذبه ويؤلمه، فقد كانت هذه النقطة ثاني أشجانه وأحزانه. والغريب في الموضوع أن مصيره الحالي المباشر ما كان ليشغل باله الا على نطاق ضيق جدا ، بل انه كان يفكر فيه تفكيرا غير جدي الأمر الذي لا يبدو معقولا. كان شيء آخر يؤلمه أكثر من مصيره الشخصي، شيء أكثر خطورة واستثناء يخصه وحده ولا يخص أحدا سواه ، شيء كان مختلفا كل الاختلاف عن كل ما عداه ولكنه كان ذا أهمية رئيسية

كلية . وكان يشعر الى جانب ذلك باعياء فكري شديد رغم أنه كان ذلك الصباح في حالة فكرية ممتازة أكثر من أي يوم مضى .

ثم ، لم يحاول الآن التغلب على كل هذه المصاعب الحقيرة التي عادت الى الظهور من جديد على طريقه بعد الذي حدث هذا الصباح ؟ هل يستوجب الأمر المضي الى سفيدريكايلوف والتآمر معه لمنعه عن الذهاب الى بورفير والادلاء بأقواله اليه ؟ هل يستوجب كل هذا اضاعة الوقت في كشف خفاياه والاحاطة بأي سفيدريكايلوف كان والتغلب عليه ؟

ألم يكن مغاليا في هذا كله ؟

مع ذلك فقد كان يتعجل البحث عن سفيدريكايلوف . ألم يكن ينتظر منه شيئا جديدا ، أو دلالة ما ، أو بعض الوسائل للخلاص ؟ ان هذا يكفي للبحث عنه . نعم ، انه يحدث غالبا أن يتعلق المرء بالقشة الواهية ! أو ليس المصير أو الغريزة هما اللذان يجمعان بينهما ؟ لعل ذلك كان مبعثه اجهاد راسكولنيكوف فقط . لعله لم يكن في حاجة الى سفيدريكايلوف بالذات ، بل الى آخر سواه ، ولكنه تهالك على هذا لعدم عثوره على الآخر ! الى أين يمضي اذن ؟ الى سونيا ؟ ولكن لم عند سونيا دون سواها ؟ أليستجدي دموعها ؟ ان سونيا تخيفه ! كانت تمثل الحكمة التي لا تنقض ، القرار الذي لا ينقض ! والذهاب اليها يعني الاستسلام والتخلي عن النضال . انه لم يكن — في تلك اللحظة على الاخص — قادرا على احتمال رؤيتها . وعلى ذلك : أليس من الافضل أن يعمد الى سفيدريكايلوف ؟ لم لا ؟ لم يكن يستطيع الانكار في سره . ان هذا الرجل أصبح منذ زمن ما ضرورة ملحة بالنسبة اليه .

لكن ، ما هو التفاهم أو التشابه الذي يجمع بينهما ؟ أهو

اجرامهما ؟ ان لكل منهما طابعا خاصا يختلف عن الاخر • لقد كان في ذلك الرجل شيء مزعج لا يحتمل • وهو حسب كل المظاهر ليس الا شديد الفجور ، شديد الحذر والمكر ، ولعله شديد الخبث كذلك • ان مئات الشائعات تحوم حوله • صحيح أنه راح يعنى بأولاد كاترين ايفانوفنا ولكن من يدري ما هي نواياه ! ان رجلا كهذا لا يمكنه البقاء متعطلا عن أي مشروع قذر يتدبره !

منذ أيام عديدة ، لم تنفك فكرة معينة عن مراوده راسكولنيكوف وتعذيبه، رغم ما بذل من المساعي لطردها والتخلص من ايلامها العنيف• كان يحدث نفسه أحيانا : « ان سفيدريكايلوف يحوم حولي أبدا ، بل انه يحوم حولي في هذه اللحظة كذلك • لقد اكتشف سفيدريكايلوف سري • كانت لسفيدريكايلوف نواياه الخاصة ضد دونيا • فماذا لو كانت نواياه لا زالت كما هي لم تتبدل ؟ بل يمكن القول انها لم تتبدل اطلاقا • والان وقد عرف سري ، وله نوع من السيطرة علي ، ألا يمكن أن يستعمل هذا السلاح ضد دونيا لاخضاعها ؟ »

تلك هي الفكرة التي كانت تزعجه حتى في منامه • لكنها كانت تبدو لأول مره بمثل هذا الوضوح • لم تظهر واضحة الا في هذه اللحظة التي جاء يسعى فيها وراء سفيدريكايلوف • وكانت هذه الفكرة كافية لتثير في نفسه غضبا مكبوتا • لأن الأمر أصبح شديد الاختلاف بالنسبة اليه ، وبات يجب عليه أن يفضح سره فورا أمام دونيا ليقطع الطريق على ذلك • بل لعل الأصوب أن يسلم نفسه الى العدالة ليحول انتباه دونيا عن أي تصرف طائش قد تكون مصممة على الاقدام عليه في سبيله •

وفجأه قفزت الى ذهنه كلمة: الرسالة ! لقد تلقت دونيا رسالة ذلك الصباح ! ممن يمكن أن تتلقى دونيا رسالة في بطرسبورغ ؟ ألا يمكن

أن تكون من لوجين ؟ ان الحقيقة أن رازوميخين كان يقوم بحراسة طيبة ، ولكن رازوميخين لا يعرف من الأمر شيئا • لعله اذن يكشف عن نفسه أمام رازوميخين • لكن راسكولنيكوف شعر بشيء من الرعب عندما بلغت أفكاره هذا الحد •

قرر في نفسه أخيرا! « على كل حال، ينبغي مقابلة سفيدريكايلوف بأسرع ما يمكن • وانني أحمد الله على أن التفاصيل هنا ليست كثيرة الأهمية لأن صميم الموضوع هو الأهم فيها • لكنه قادر على ذلك ••• اذا كان سفيدريكايلوف يدبر أي شيء ضد دونيا ، فعندئذ ••• »

كان راسكولنيكوف شديد الاعياء بعد هذا الشهر الطويل من النضال والمفاجئات • وقد بلغ به الاعياء أن شعر بنفسه عاجزا عن حل هذه المعضلات وايجاد الاجوبة عليها ، فلم يجد الا هذه الكلمات اليائسة ينهي بها نجواه : « ••• اذن ، سأقتله » • كان يشعر باحساس أليم يعتصر قلبه • فتوقف في منتصف الشارع يجيل الطرف حوله • أي طريق سلك ، أي كان في تلك اللحظة ؟ وجد نفسه في شارع «ايكس» ••• على بعد ثلاثين أو أربعين خطوة من شارع العلف الذي كان قد اجتازه • كانت الطبقة الاولى من البناء الواقع على يساره تشغلها حانة، فكانت نوافذها مفتوحة كلها • وكان المشرب ــ اذا اعتبرت الوجوه المطلة من النوافذ ــ غاصا بالناس • كانت أصوات الغناء تتعالى من « الصالة » يرافقها عزف على الكلارينيت والكمان يصحبه ايقاع طبل• وكانت صرخات نسائية حادة تسمع بوضوح في ذلك الضجيج • همّ راسكولنيكوف بالعودة وهو يتساءل عن السبب الذي حمله على المجيء الى هنا ، لكنه فجأة لمح وراء احدى تلك النوافذ وجه سفيدريكايلوف وغليونه بين أسنانه وهو جالس الى مائدة شاي • فشعر بدهشة لم تخل من فزع • كان سفيدريكايلوف يتأمله ويراقبه

بصمت . بل وأغرب من ذلك : بدا على سفيدريكايلوف أنه يحـــاول النهوض ليتسلل من مكانه قبل أن يلاحظـه راسكولنيكوف ، الامر الذي زاد في دهشة هذا واستغرابه .

تظاهر راسكولنيكوف بأنه لم يره ، وراح ينظر الى جهـة أخرى بشيء من الاضطراب والحيرة دون أن يغفل عن مراقبته بزاوية عينـه . كان القلق يزيد في ضربات قلبه ! تأكدت ظنونه ، لأن سفيدريكايلوف كان يحاول ألا تقع العين عليه . لذلك نزع غليـونه مـن فمـه وأراد الاختفاء . لكنه لما نهض وأزاح المقعـد من أمـامه ، تـأكد مـن أن راسكولنيكوف شاهده وأنه كان يراقبه بامعان . ووقع بينما مشـهـد مماثل لذلك الذي وقع ابان لقائهما الاول في غرفة راسكولنيكوف لما كان هذا يتصنع النوم . لاحت ابتسامة ماكرة على شفتي سفيدريكايلوف راحت تتسع حتى غمرت وجهه . وهكذا فان كلا منهما شعر أن الاخر كان يراقبه ويتأمله . وأخيرا أطلق سفيدريكايلوف قهقهة مجلجلة وهتف من النافذة :

ـ هيا ، هيا ؟ ادخل اذا شئت ، انني هنا !

فصعد راسكولنيكوف الى الحانة .

وجد سفيدريكايلوف جالسا في احدى الحجرات الخلفية المتصلة « بالصالة » الكبرى ، حيث كان عدد من التجار والموظفين ومن مختلف الطبقات والدرجات يشغلون حوالي عشرين مائدة يتناولون الشاي وسط ضجيج المغنين وفرقهم وصخب الزبائن الذي يصم الاذان ! وكـانت هناك أصوات ارتطام كرات البيليارد تصل من مكان ما الى أسماعه . كان سفيدريكايلوف يمسك بيده كأسا من الشمبانيا ممتلئة حتى نصفهـا ، وعلى المائدة زجاجة من هذه الخمرة الراقية . وكان في تلك الحجـرة غلام يحمل أرغنا صغيرا يعزف عليه ، بينما راحت فتاة سمينة في الثامنة

عشرة من عمرها ذات خدين منتفخين شديدي الاحمرار تغني لحنا شعبيا بصوت منخفض أجش ، رغم الضجة القوية التي كانت منبعثة من الصالة الكبرى . كانت ترتدي « تنورة » مخططة تبرز تقاطيع جسمها وتضع على رأسها قبعة ذات أشرطة ملونة على غرار أهل التيرول .

قاطعهما سفيدريكايلوف حينما دخل راسكولنيكوف :

ـ هيا ، هذا يكفي !

فتوقفت الفتاة على الفور ، ووقفت وقفة محترمة تنتظر . لقد كانت منذ قليل تحمل ذلك الطابع من الخطورة والاحترام قبل أن تشرع في ترديد قذاراتها الملحنة ...

هتف سفيدريكايلوف :

ـ اه ، فيليب ! أعطني قدحا !

فقال راسكولنيكوف :

ـ لن أحتسي الخمرة .

ـ كما تشاء ، انني لم أطلب القدح لك . أشربي يا كاتيا واذهبي، انني لم أعد في حاجة الى شيء اليوم .

وصب لها كأسا من الخمرة ودس في يدها ورقة نقدية ، فوضعت كاتيا القدح على فمها شأن النساء المدمنات وشربته على عشرين جرعة صغيرة دون أن ترفعه عن شفتيها ، وأخذت الورقة النقدية ثم قبلت يد سفيدريكايلوف ـ الذي لم يمانع في ذلك بل مد لها يده وعلى وجهه امارات الجد ـ وبارحت الحجرة يتبعها الغلام وهو يجر أرغنه جرا . لقد كان كلاهما من أولاد الشارع . لم يكن قد انقضى على وجود سفيدريكايلوف في بطرسبورغ أكثر من ثمانية أيام مع ذلك فقد راح يجول فيها ويلهو وكأنه في منزله ! وكان فيليب النادل المولج بتلك الحجرة أحد « معارفه » ، فكان يقوم على خدمته باحترام وتفان . فاذا

أدار سفيدريكايلوف المفتاح في قفل الباب ، أصبح في تلك الحجرة وكأنه في مسكنه الخاص ، ينعم بكل الحرية . ولعله كان يقضي هناك أياما كاملة . كان المشرب قذرا كريها لا يمكن أن يرفع الى مصاف حانات الدرجة الثانية .

شرع راسكولنيكوف يقول :

ـ كنت أريد رؤيتك وكنت أبحث عنك ! ولست أدري لم انعطفت في هذا الشارع بعد أن اجتزت سوق العلف ! انني لم أمر مرة واحدة من هنا قبل اليوم ، بل جرت عادتي على المضي الى يمين السوق . ثم ان هذا الطريق لا يقود الى مسكنك ، مع ذلك فأنني لم أكد أستدير قليلا حتى شاهدتك . أليس هذا غريبا ؟

ـ لم لا تقول بكل بساطة انها معجزة !

ـ لأنها قد تكون محض صدفة !

قال سفيدريكايلوف ، وهو ينفجر ضاحكا :

ـ يا لسذاجة الناس المضحكة ! انهم يرون المعجزة بأم عينهم لكنهم لا يقرونها ! انك نفسك تقول انها « قد تكون » صدفة . يا لجبن الناس ازاء آرائهم الشخصية ! انك لا تستطيع تكوين فكرة عن ذلك ، يا روديون رومانوفيتش ! انني لا أقول هذا لك . ولا شك لأنك تمتلك فكرة شخصية لم تخش من الاحتفاظ بها والحصول عليها . بل ان هذا هو السبب الذي أثار فضولي نحوك .

ـ أهذا هو السبب فقط ؟

ـ انه سبب كاف !

كان سفيدريكايلوف في حالة انفعال غير ظاهرة تماما اذ لم يكن قد شرب بعد الا نصف القدح الاول .

قال راسكولنيكوف ملمحا :

ـ أظن أنك جئت الي قبل أن تعرف اذا كنت قادرا على امتلاك « فكرة خاصة » • أليس هذا هو الاسم الذي أطلقته ؟

ـ صحيح • غير أن الأمر كان في ذلك الحين مختلفا • ان لكل انسان أسلوبه في الحياة • أما فيما يتعلق بهذه المعجزة ، فانني أخالك قد أمضيت هذه الأيام الثلاثة الاخيرة نائما • لقد أنبأتك بنفسي عن هذه الحانة ، فليس هناك اذن أية معجزة اذا كنت قد جئت مباشرة الى هنا • لقد بينت لك الطريق الذي ستسلكه والمكان الذي يقع فيه هذا المشرب ، ثم أوضحت لك الساعات التي أكون فيها موجودا هنا • ألا تذكر ؟

أجاب راسكولنيكوف مأخوذا :

ـ لقد نسيت هذا •

ـ أظن ! لقد ذكرت لك العنوان مرتين فانطبع بصورة آلية في ذاكرتك • لقد انعطفت بصورة آلية أيضا من هذا الطريق دون أن تتذكر العنوان على الضبط • انني أذكر أنني عندما كنت أحدثك ، لم أكن أنتظر منك أن تفهمني• انك تهمل نفسك كثيرا ، يارودیون رومانوفيتش• انني أصبحت واثقا أن في بطرسبورغ عددا كبيرا من الناس يحدثون أنفسهم وهم يسيرون • انها مدينة أنصاف المجانين • ولو كان لدينا بعض من العلوم ، بين أطباء وقضاة وفلاسفة ، لاستطاع كل منهم في اختصاصه أن يؤلف عن بطرسبورغ ملاحظات ثمينة جدا غاية في الدقة• لن يجد الانسان بسهولة مدينة أخرى تمارس مثل هذه التأثيرات المظلمة الحادة الغريبة سلطانها على النفوس البشرية ، كما هو الحال في بطرسبورغ • ان من الجائز أن يكون المناخ سبب كل هذا ! مع ذلك ، فان هذه المدينة ، بوصفها المركز الاداري في البلاد ، يجب أن يمتد تأثيرها هذا على كل الارض الروسية • غير أنني لا أريد التحدث عن

هذا الامر في الوقت الحاضر • كنت أريد أن أقول لك أنني شهدتك أكثر من مرة دون أن تشعر • فكنت اذا خرجت من مسكنك ، رفعت رأسك • لكنك لا تكاد تقطع عشرين خطوة حتى تعود الى احنائه وتعقد ذراعيك وراء ظهرك • انك تنعم بالنظر ولكنك لا ترى شيئا أمامك أو حولك • وأخيرا فانك تحرك شفتيك وتتحدث مع نفسك ! بل انه يحدث لك أحيانا أن تحرك يديك وكأنك تهدد أو تتوعد ، ثم تتوقف في منتصف الطريق فترة طويلة • ان هذا لا يجديك نفعا اذ يجوز أن يراقبك الاخرون ، وعندئذ ستكون المسألة على غير ما تشتهي • ان هذه القضية لا تهمني مطلقا ولست أنا الذي أقدر على شفائك • انك تفهمني ولا شك !

نظر اليه راسكولنيكوف بفضول ، وسأل :

ـ أتدري بأنهم تتبعونني ؟

فأجاب سفيدريكايلوف بدهشة :

ـ كلا ، انني لا أعرف شيئا •

قطب راسكولنيكوف حاجبيه ، وغمغم قائلا :

ـ اذن لنسقط التحدث عني من حسابنا •

ـ حسنا ، لن نعود الى الكلام عنك •

ـ قل لي : اذا كنت ترتاد هذا المكان لتسكر ، وكنت قد أطلعتني مرتين على هذا العنوان لألقاك فيه ، فكيف اذن حاولت الاختباء منذ حين لما كنتُ في الشارع أنظر اليك ؟ لقد حاولت التسلل ، انني واثق من ذلك •

ـ قد تكون هناك ••• أسباب ••• انك تعرفها بنفسك !

ـ وأنا أيضا قد تكون لدي أسباب قد لا تعرفها !

اتكأ راسكولنيكوف بذراعه الأيمن على المائدة وأسند ذقنه

على أصابع تلك اليد وراح ينظر الى سفيدريكايلوف نظرة ثابتة عميقة . كان يتأمل منذ دقيقة مضت ذلك الوجه الذي كان يشعر دائما بتأثيره في نفسه . كان وجها غريبا يشبه القناع : أبيض ، أحمر ، بشفتين قرمزيتين ولحية شقراء صهباء وشعر غزير أبيض . كانت عيناه شديدتي الزرقة ونظراتهما ثقيلة عميقة وثابتة . كان في ذلك الوجه الجميل الذي لبث رغم السنين محتفظا بشبابه الخارق شيء يبعث على النفور العنيف العميق ! كان سفيدريكايلوف مرتديا ثوبا صيفيا أنيقا من قماش خفيف ويمتاز بقميصه الثمين الأنيق . وكان يحلي اصبعه بخاتم كبير يزينه حجر كريم مشع .

قال راسكولنيكوف فجأة ، وهو يمضي الى هدفه بلهفة محمومة:

ــ هل يجب أن تثير أنت الآخر بعض المتاعب حولي ؟ على الرغم من أنك أكثر الرجال خطرا علي حينما يصمم على الاضرار بي ، فانني لم أحاول التمويه وقتا أطول ، بل سأثبت لك على الفور أنني لا أخاف على نفسي . اعلم أنني ما جئت الا لأنذرك بأنك اذا قررت الاستمرار على نواياك السابقة ازاء أختي ، أو أنك تفكر في استغلال السر الذي اطلعت عليه مؤخرا ، فانني سأقتلك قبل أن تستطيع الزج بي في السجن . ثق بكلمتي . انك تعرف أنني قادر على تنفيذها . اذا كنت ترغب في اطلاعي على شيء ما ــ ولقد شعرت منذ بعض الوقت أنك تريد البحث معي حول موضوع معين ــ فاسرع في اعلامي بما تريد لأن الوقت ثمين ولعله يفوت بعد قليل !

سأل سفيدريكايلوف ، وهو يتأمله بفضول :

ــ ما الذي يضايقك الى هذا الحد ؟

فأجاب راسكولنيكوف بلهجة غامضة :

ــ لكل أعماله !

قال سفيدريكايلوف باسما :

ـ انك تدعوني الى الصراحة معك واذا بك ترفض الجواب على السؤال الأول ! انك تعتقد دائما بأنني أتدبر أمرا ما ، لذلك فانك تنظر اليّ بريبة وتشكك . انني أفهم الأمر تماما بالنسبة لمن كان في مثل مركزك . لكن مهما كانت رغبتي في ايجاد علاقات جيدة بيننا فانني لن أضيع وقتي في دحض آرائك وتسفيهها . والله ان الامر يستوجب هذه العناية . انني لم أكن مطلقا على استعداد للتفاهم معك حول موضوع معين أو بشكل خاص .

ـ لِمَ اذن كنت شديد الاهتمام بي؟ انني أراك تحوم أبدا حولي!

ـ لأنك ، بكل بساطة ، موضوع طريف يجدر ملاحظته . لقد أعجبتني بسبب حالتك الخارقة الدقيقه . هذا هو السبب كله ! ثم انك أخو فتاه أعجبتني فيما مضى كل الاعجاب . ولقد سمعت عنك أشياء كثيرة من قبل نقلت الي بواسطة تلك الفتاة بالذات ، فاستنتجت من ذلك أن لك عليها تأثيرا كبيرا . فهل هذا كله أمر تافه ؟ هه ، هه ، هه ! ثم انني أعترف بأن سؤالك عميق ودقيق جدا من الصعب علي الاجابه عليه ، خذ مثلا ، انك لم تحضر الى هنا لتحدثني فقط عن الاعمال بل لتطلعني على شيء جديد ، أليس كذلك ؟

قال سفيدريكايلوف هذا بشيء من الالحاح وعلى شفتيه ابتسامة هازئة ، ثم أردف :

ـ تصور ، اذن ، أنني لما كنت في القطار في طريقي الى بطرسبورغ ، كنت أعتمد عليك آملا أن تقول لي شيئا « جديدا » أو أن أوفق في استعاره شيء منك . نحن جميعا هكذا معشر الاغنياء !

ـ تستعير مني ماذا ؟

ـ كيف أفسر لك الأمر ... هل أدري ؟ لكن أنظر في أي بؤره

قذرة أقضي وقتي • مع ذلك ، فانني أشعر بسرور ، لمجرد أنني أنعم بالجلوس في مكان ما حتى ولو لم يكن فيه الا تلك المسكينة كاتيا ••• هل رأيتها ؟••• انها تكفي ! كم أتمنى لو كنت أكولا أو ميالا الى الشراب ••• مع ذلك ••• خذ ••• هذا ما أستطيع أن آكله •

وأشار باصبعه الى طبق من الحديد الابيض كان على طرف المائدة وفيه بقايا لحم بقر مشوي مهيأ بشكل كريه مع قطع من البطاطا ، وأردف :

ـ على فكرة ، هل تناولت طعامك ؟ انني لم أكد أستهلك جانبا من طعامي ولا أشعر بأية شهية الى الطعام • أما الخمرة فانني لا أشرب الا الشمبانيا • حتى هذه فان قدحا واحدا منها يكفيني كل الامسية لأنها تسبب لي الصداع • فاذا كنت قد طلبتها اليوم فذلك لأمتلك نفسي ، لأن علي أن أمضي بعد حين الى مكان ما • ألا تراني في حالة فكرية خاصة ؟ لقد حاولت منذ لحظات أن أختفي كالتلميذ الخجول لأنني تصورت أنك سوف تزعجني •••

ثم أضاف بعد أن أخرج ساعته من جيبه وألقى عليها نظرة :

ـ غير أنني أستطيع قضاء ساعة معك • فالساعة الآن الرابعة والنصف • هل تصدق ؟••• لو أنني كنت ملاكا مثلا أو أبا لأسرة أو جنديا أو مصورا أو صحفيا ••• لكنني لا أملك أى اختصاص وهذا ما يضجرني أحيانا • الحقيقة أني كنت أنتظر منك اطلاعي على شيء جديد •

ـ لكن من أنت ولِمَ جئت الى هنا ؟

ـ من أنا ؟ انك تعرف • انني أحد النبلاء وقد خدمت عامين في سلاح الفرسان وأخيرا جئت أحوم هنا في بطرسبورغ ، وبعدها تزوجت مارت بيتروفنا وعشت في الريف ؟

ـ انك تبدو مقامرا ، أليس كذلك ؟

ـ بل انني غشاش ولست مقامرا •

ـ وهل غششت ؟

ـ نعم لقد فعلت ذلك أيضا •

ـ أو لم تعاقب من أجل ذلك ؟

ـ وقع لي مثل هذا الأمر ، ملذا بعد ؟

ـ يمكنك اذن أن تجابه الأمور على شكل مبارزة شريفة • ان ذلك يثير الدم •

ـ انني لا أعارضك وأعترف كذلك أنني لا أفهم شيئا عن الفلسفة • انني أصرح لك بأن سبب مجيئي كان على الغالب من أجل النساء •

ـ رغم أنك لم تكد تدفن مارت بينروفنا ؟

أجابه سفيدريكايلوف بضحكة صريحة هادئة :

ـ لعمري نعم • لم لا ؟ هل يزعجك أن أتحدث هكذا عن النساء ؟

ـ أتسألني اذا كان يزعجني أن يعيش المرء في الفجور والغش ؟

ـ في الفجور ؟ انك تسمي الأشياء بأسمائها ! لكن لكي أنتهج في الجواب على أسلوب متسلسل أبدأ في بحث النساء • انك تعرف أنني ميال الى الثرثرة • قل لي لِمَ أزعج نفسي بذلك ؟ لم أكف عن الاهتمام بالنساء طالما أنني أعمل من أجلهن ؟ ان قضيتهن لون من العمل •

ـ على هذا فان كل آمالك مبنية على الفجور فقط ؟

ـ حسنا ، لنقل على الفجور طالما أنك تتمسك بهذه الكلمة • نعم انني عاشق وهذه بالنسبة الي هي المسألة الاولى • ان للفجور على الاقل شيئا من الاستمرار يضفيه على الطبيعة ، وليس عليه أن يحتمل

نزعات خيالاتنا وأهوائنا • انّ فيه شيئا دائما أشبه بالشعلة المتوقدة في الدم ، على استعداد أبدا لمتابعة اللهيب الذي لا ينطفيء بمرور السنين• أو َلا توافقني بعد هذا على أنه لون من الانشغال جدير بالاهتمام ؟

ــ في الحقيقة أنه ليس فيه ما يستوجب التهنئة عليه • انه مرض، ومرض خطير •

ــ آه ! هذه هي اذن غايتك التي تهدف اليها ! انني أوافقك على أنه مرض ككل شيء يتجاوز حدوده • والحدود هنا لا يمكن الا أن تتجاوز • لكن الامر الذي قد يكون على غرار هذا بالنسبة للبعض لا يكون كذلك بالنسبة للآخرين • ثم انه يجب على المرء أن يتلطف في هذا الامر رغم أنه حساب بشع دنيء ، لكنه بدونه لا يبقى للمرء الا الموت • مع ذلك فانني أعترف أيضا بأن الرجل الشريف يشعر ولا شك بالضجر والضيق •

ــ هل أنت على استعداد لقتل نفسك اذا أخفقت في هذا المضمار؟

أجاب سفيدريكايلوف باشمئزاز :

ــ يا للسؤال !

وأسرع يضيف وقد تبدلت تقاطيع وجهه التي لبث مختفيا وراءها حتى تلك اللحظة • فأصبح وجهه يعبر عن تبدل مفاجيء :

ــ أرجو أن لا تحدثني بهذا• انني أعترف أن لدي ضعفا لا يغتفر، ألا وهو الخوف من الموت • لذلك فانني لا أحب أن يتحدث المرء عنه• هل تعرف أنني متصوف على شكل من الأشكال •

ــ آه ! آه ! لعلك ستتحدث عن شبح مارت بيتروفنا ! وعلى فكرة ، ألا تزال تلك الرؤيا تعرض لك ؟

ــ دعنا من هذا ، انك لا تؤمن به ، ثم انني لم أعد أراها هنا في بطرسبورغ ••• ليحملهم الشيطان •

نزعات خيالاتنا وأهوائنا • ان فيه شيئاً دائماً أشبه بالشعلة المتوقدة في الدم ، على استعداد أبداً لمتابعة اللهيب الذي لا ينطفيء بمرور السنين. أو َلا توافقني بعد هذا على أنه لون من الانشغال جدير بالاهتمام ؟

ـ في الحقيقة أنه ليس فيه ما يستوجب التهنئة عليه • انه مرض، ومرض خطير •

ـ آه ! هذه هي اذن غايتك التي تهدف اليها ! انني أوافقك على أنه مرض ككل شيء يتجاوز حدوده • والحدود هنا لا يمكن الا أن تتجاوز • لكن الامر الذي قد يكون على غرار هذا بالنسبة للبعض لا يكون كذلك بالنسبة للآخرين • ثم انه يجب على المرء أن يتلطف في هذا الامر رغم أنه حساب بشع دنيء ، لكنه بدونه لا يبقى للمرء الا الموت • مع ذلك فانني أعترف أيضاً بأن الرجل الشريف يشعر ولا شك بالضجر والضيق •

ـ هل أنت على استعداد لقتل نفسك اذا أخفقت في هذا المضمار؟
أجاب سفيدريكايلوف باشمئزاز :
ـ يا للسؤال !

وأسرع يضيف وقد تبدلت تقاطيع وجهه التي لبث مختفياً وراءها حتى تلك اللحظة • فأصبح وجهه يعبر عن تبدل مفاجيء :

ـ أرجو أن لا تحدثني بهذا، انني أعترف أن لدي ضعفاً لا يغتفر، ألا وهو الخوف من الموت • لذلك فانني لا أحب أن يتحدث المرء عنه• هل تعرف أنني منصوف على شكل من الأشكال •

ـ آه ! آه ! لعلك ستتحدث عن شبح مارث بيتروفنا ! وعلى فكرة ، ألا تزال تلك الرؤيا تعرض لك ؟

ـ دعنا من هذا ، انك لا تؤمن به ، ثم انني لم أعد أراها هنا في بطرسبورغ ••• ليحملهم الشيطان •

كان صوته طافحا بالغضب ، وأضاف :

ـ كلا ، لنتكلم على الأصح عن ... هم ... ان الوقت يمضي ولا أستطيع البقاء معك زمنا طويلا . يا للأسف ! كان يمكنك أن تطلع على أمر جديد !

ـ هل الأمر متعلق بامرأة أيضا ؟

ـ نعم بامرأة . وانه موعد غير منتظر ... كلا انه ليس ما تظن .

ـ أوَ لم تشعر ببشاعة هذه البؤرة ؟ أليس لديك من العزيمة ما يساعدك على التوقف ؟

ـ ماذا ، أهو أنت الذي تتكلم عن العزيمة ؟ هاهاها ! انك تغرقني بالذهول ، يا روديون رومانوفيتش ! مع ذلك فقد كنت أنتظـر ذلك . انه أنت الذي تحدثني عن الفجور والجمال . أنت ؟ شيلر ! مثالي ! انه جميل ولا شك أن يكون المرء كذلك ، بل وانه أدعى للدهشة أن يكون المرء خلافا لذلك . على كل حال انه ليس مدهشا الى هذا الحد... من المؤسف أن يكون الوقت متسلطا علينا بهذا الشكل لأنك انسان تستثير الفضول ! على فكرة ، هل تحب شيلر ؟ انني أتذوقه بكل متعة .

قال راسكولنيكوف بشيء من الاحتقار :

ـ يا للمشعوذ النادر الذي تبدوه !

أجاب سفيدريكايلوف ، وهو ينفجر ضاحكا :

ـ لعمري انك مخطىء ! مع ذلك فانني لا أنقض كلمتك حول الشعوذة ، لكن لمَ لا يشعوذ المرء في الحياة اذا كان الأمر لا يسيء الى أحد ؟ لقد عشت سبع سنين بصحبة مارت بيتروفنا في الريف ، لذلك فانني ما كدت ألتقي برجل فكر مثلك حتى ارتميت عليك . انني أقول رجل فكر . بل وأقول رجلا مثيرا . نعم انني مرتاح تماما للثرثرة معك . أضف الى ذلك أن نصف القدح من الخمرة الذي شربته قد أثر تأثـيرا

خفيفا في رأسي • لكن هناك حدثا آخر سبب هذا الاضطراب الذي تراه ، وانني أفضل ألا أتفوه بكلمة عنه •

وفجأة سأل سفيدريكايلوف مروعا :

ــ الى أين تذهب ؟

ذلك أن راسكولنيكوف كان قد نهض • لقد شعر بارتباك لمجيئه الى هنا بل وأحس بأنه يكاد يختنق • أدرك في اللحظة أنه ازاء أسوأ فاجر شرير حقير حملته الارض •

قال سفيدريكايلوف متوسلا :

ــ اه ! ابقَ ، ابقَ أرجوك • اشرب كأسا من الشاي ، هيا اجلس• هكذا • لسوف أكف عن التحدث اليك بمثل هذا الهذر، أي أنني سأكف عن التحدث عن نفسي • سوف أقص عليك شيئا • أتريد أن تعلم كيف أنقذتني امرأة ؟ ان ذلك سيكون جوابا على سؤالك الاول • ان تلك المرأة كانت أختك • هل أستطيع التحدث ؟ ان ذلك يقتل الوقت •

ــ تكلم • غير أنني أرجو •••

ــ أوه ! لا تبتئس ! ان أفدوتيا رومانوفنا لا يمكن الا أن توحي بالاحترام العميق حتى بالنسبة الى رجل في مثل دناءتي•

وشرع سفيدريكايلوف يروي قصته •

٤

انك لا تجهل ولا شك ـ خصوصا وأني حدثتك به من قبل ـ أنني سجنت من قبل بسبب ديون ، وكان سجني هنا بالذات • كـان الأمر يتعلق بمبلغ كبير لم أكن أملك منه القـرش الأول • أعتقد أنك تعرف الى أي مدى تفقد المرأة المحبة عقلها • لذلك فلا حاجة بي الى سرد تفاصيل شراء مارت بيتروفنا حريتي • لقد كانت امرأة شريفة عاقلة رغم افتقارها التام الى الثقافة • تصور أن تلك المرأة الغيور شـديدة النزاهة أقدمت أخيرا ـ بصدد عديد من مواقف التوبيخ ـ على عقـد لون من الاتفاق معي ظلت محافظة على شروطه طيلة المدة التي لبثنا فيها متحدين • ولا يفوتني في هذا المضمار التنويه بأنها كانت تكبرني سنا بشكل ملحوظ ، وكانت أبدا تمضغ لونا من الزهور لعله عقار •

لقد بلغت بي الحماقة وشدة الصراحة أن أعلنت لها استحالة بقائي مخلصا لها كل الاخلاص، فاندفع غضبها من عقاله• غير أن صراحتي راقت لها بعض الشيء رغم ما فيها • لعلها قالت في نفسها : « انـه لا يريـد أن يخدعني طالما أنه ينذرني سلفا » • وهذا بالنسبة الى المرأة الغيور أمر جوهري • لذلك فانها بعد أن ذرفت دموعا كثيرة قام بيننا اتفاق شفهي خلاصته أولا : أنني لا يجب أن أهجر مارت بيتروفنا أبدا وأن أظـل أبدا زوجها ، ثانيا : أن لا أتغيب دون اذنها وموافقتها ، ثالثا : أن لا تكون لي عشيقة فاتنة جذابة ، رابعا : تسمح لي مارت بيتروفنا بمقابل ذلك أن أغازل الخادمات شريطة أن أعلمها سرا بالأمر ، خامسا : لا ينبغي أن أعشق امرأة من وسطنا ، سادسا وأخيرا : في حال وقوعي فريسـة

بعض العواطف الجدية ـ ولا سمح الله ـ فينبغي علي أن أصارح مارث بيتروفنا بالأمر • ولقد تأكدت مارت بيروفنا ووثقت بي فيما يتعلق بهذه المادة الأخيرة لأنها كانت امرأة ذكية • لذلك فانها ما كانت تستطيع اعتباري أكثر من فاجر فاسق عاجز عن الوقوع في الحب الصادق• غير أن امرأة ذكية غيورا تساوي اثنتين وهنا المصيبة!! ولكي يستطيع المرء أن يحكم على انسان ما بتجرد ، عليه أولا أن يتخلص من بعض آرائه وعاداته اليومية المتخذة ضد أشخاص أو أشياء تحيط به • وانني ألجأ الى حدة ذهنك وبعد نظرك في الحكم • يجوز أنك سمعت كثيرا من الحماقات عزيت الى مارت بيتروفنا ، والحقيقة أنها لم تكن خالية من بعض الشذوذ ، مع ذلك فانني آسف بكل اخلاص ـ ولا أخشى الاعتراف به ـ للأحزان الكثيرة التي سببتها لها • انني أعتقد أن هذا القول كاف ليكون تأبينا مناسبا يليق بأكثر الزوجات حنانا ويصدر عن فم أكثر الأزواج تحنانا •

عندما كان يحصل بيننا شقاق أو شجار ، كنت أسكت معظم الوقت متسلطا على غضبي متخليا عنه ، فكان موقفي النبيل هذا يبلغ دائما غايته • لأن زوجتي كانت تتأثر به بل وكانت ترتضيه ، حتى أنها لم تعدم مناسبات كانت تجد نفسها فخورة بي ، رغم ذلك فانها لم تستطع هضم تلك القصة التي كانت أختك طرفا فيها • أما كيف غامرت باستخدام فتاة على هذا القدر من الجمال كأختك في منزلها كمدرسة ؟ انني لا أستطيع تفسير ذلك ، الا على اعتبار أن مارت بيتروفنا كانت امرأة حساسة شديدة التأثر تعلقت بأختك ـ والحقيقة أنها كانت شديدة التعلق بها • ولما رأيت أفدونيا رومانوفنا ، فهمت للوهلة الأولى أن الأمور ستكون سيئة • لذلك فقد قررت ـ لست أدري اذا كنت تصدق ـ أن لا أرفع عيني اليها • لكن أفدونا رومانوفنا ـ سواء أصدقت أم لم تصدق ـ قامت بنفسها بالخطوة الأولى • فهل تصدق

أن مارت بيتروفنا سخطت علي أول الامر لأنني ما كنت أتحدث أبدا الى أختك ، بل كنت أتصرف حيالها بلا مبالاة وأتهكم من كل ما يتعلق بها ؟ انني لم أكن أعرف بعد ما ترمي اليه أفدونيا رومانوفنا . ولا شك أن زوجتي روت لها كل ما تعرفه عني ، لأنها كانت « تستمتع » بخطيئة نقل أسرارنا العائلية والشكوى مني أمام كل الناس . لذلك فانها ما كانت لتتخلى عن مثل تلك الحليفة الفتانة . أستطيع القول انهما في أحاديثهما ما كانتا تتحدثان الا عني . لذلك فان أفدونيا رومانوفنا كانت ولا شك مطلعة على كل مشاكلي القذرة ، وكل الشائعات التي كانت تروج ضدي ... بل وانني أراهن على أن بعض الشائعات قد بلغ مسامعك .

ـ صحيح . فقد أتهمك لوجين بأنك سبب موت طفلة . هل هذا صحيح ؟

أجاب سفيدريكايلوف باشمئزاز :

ـ أرجوك ألا تحرك هذه القذارات . اذا كنت مصرا على معرفة مصادر مثل تلك الشائعات السخيفة فانني على استعداد للافضاء اليك به ذات يوم بمناسبة ... أما الان ...

ـ لقد تحدثوا أيضا عن خادم كان عندك في الريف ، وادعوا كذلك أنك كنت سبب بعض الأمور هناك .

قاطعه سفيدريكايلوف ، وقد بدا نافذ الصبر :

ـ أرجوك ، كفى !

تابع راسكولنيكوف بانفعال متزايد :

ـ انه ذلك الخادم الذي رأيت شبحه بعد وفاته يحشو لك غليونك ... لقد حدثتني عنه بنفسك .

نظر سفيدريكايلوف الى راسكولنيكوف ، فخيل لهذا أنه طالع في عينيه بريقا خاطفا ينم عن استخفاف وحشي . لكن ذلك البريق لم

يدم الا لحظة عابرة استطاع بعدها سفدريكايلوف أن يتمالك نفسه وأن يجيب بلطف جم :

ــ انه هو بالذات • اني أرى أن ذلك يثير اهتمامك اثارة عنيفة، وأعتقد أن من واجبي أن أرضي فضولك هذا في أول فرصة مناسبة تعرض لي • ليحملني الشيطان ! أنني سأصبح شخصية خيالية في أعين بعض الناس • فاحكم بعد هذا اذا كنت لا أدين لمارت بيتروفنا بشكر عميق للقصص التي سردتها على حسابي الى أختك • انني لا أستطيع الحكم على هذه الاحساسات ، لكنني واثق من أن المنشأ كان في مصلحتي• اذ مهما كان اشمئزاز أفدونيا رومانوفنا مني لأسباب معروفة، ورغم لهجتها الصارمة وأساليبي الممقوتة التي تستوجب النفور ، فانني ولا شك أوحيت اليها أخيرا بلون من الحنان ، ذلك الحنان الذي يشعر به حيال رجل ضال • لذلك فان الفتاة التي تشعر بالشفقة في قلبها تكون في تلك اللحظة في خطر جسيم ، لأنها عندئذ تكون مستعدة للتضحية بنفسها « لانقاذ » الشخص الذي تشفق عليه، واقناعه بالمبادىء الحسنة، ومحاولة انتشاله من وهدته لمساعدته على السير في حياة نبيلة • انك ولا شك تتصور نظام الأفكار التي تعرض في مثل هذه المناسبات، لذلك فقد توقعت أن يطير العصفور من تلقاء نفسه ليدخل القفص • وعلى ذلك فقد رحت بدوري أنصب شباكي •

يخيل الي ، يا روديون رومانوفيتش ، أنك تقطب حاجبيك • لا بأس أن تعرف أن القصة قد انتهت أخيرا الى الفشل ••• يجوز أن أكون قد ارتشفت أكثر من طاقتي من الخمرة • لكنني أصر على القول بأني شديد الأسف لأن الاقدار لم تجعل أختك تعيش في القرن الثاني أو الثالث للميلاد في مكان ما « تكون فيه ابنة أمير مالك ، أو ابنة حاكم ما ، أو والٍ من ولاة آسيا الصغرى » • لو أنها خلقت في

ذلك الحين لكانت واحدة من تلك النسوة اللاتي تعرضن للعـذاب ، ولكانت ولا شك ابتسمت للحديد المحمى في النار عندما كـان يخترق أحشاءها • بل انها كانت سـمضي من تلقاء نفسها الى التعذيب ! ولو أنها عاشت في القرن الرابع أو الخامس لتعمقت في مجاهيل مصـر لتعيش ثلاثين عاما تقتات بالجذور والحشائش ، وبالرؤيا والتمجيـد والتعظيم • لأنها لا تنتظر ولا تتوق الا الى اللحظة التي تستطيع فيها أن تضحي بنفسها في سبيل شخص ما • بل وانها قادرة على القاء نفسها من النافذة لو أن تلك التضحية منعت عنها •

لقد سمعت حديثا عن سيد اسمه رازوميخين، وقد قيل لي انه شاب متعقل كما يستنتج من اسمه ، وأنـه ولا شك متخـرج من مـدرسة اكليريكية (١) • حسـنا ، ليسهر اذن على أختك ! الخلاصة ، أعتقد أنني فهمت عقلية أفدونيا رومانوفنا • وانني أشيد بها • لكنك تقرني على أن الانسان لما يجهل نفسية شخص ما تكون له به بعض العلاقات فانه يسهل عليه ارتكاب بعض الخطيئات بل وبعض العثـرات• ثم ــ يـا للشيطان ــ لم هي جميلة الى هذا الحد ؟ انها ليست خطيئتي ! وبكلمة واحدة ، أقول : انني شعرت بميل وعواطف لا يمكن مقاومتها • ان أفدونيا رومانوفنا ذات خصر فريد لا يصدق• انني أقول ذلك ــ وأرجو أن تلاحظ ــ على اعتباره واقعة ملموسة • لأن أختك شديدة التمسك بالاحتشام لدرجة مرضـية رغم عقلها النير •

كان لدينا في تلك الاثناء خادمة وهي فتاة اسمهـا باراشا وكنـا ندعوها السمراء باراشا ذات العينين السوداوين ، جئنا بها مـن قريـة مجاورة • لم أكن قد شاهدتها حتى تلك اللحظة لأن الفرصة لم تسنح

---

(١) ان اساس كلمة رازوميخين مشتق من كلمة رازوم اي العقـل ، مما يدل على ان صاحبه ينحدر من اسرة اكليريكية « هذا التفسير وارد في الترجمة الفرنسية » .

لي ٠ كانت جميلة جدا ولكن حمقاء جدا لدرجة لا يتصورها العقل ٠ وذات مرة غرقت في دموعها وراحت تملأ الباحة بالصياح والعويل حتى تتجت عن ذلك فضيحة ٠ وذات يوم ، بعد طعام الغداء ، تدبرت أفدوتيا أمرها حيث لاقتني في أحد ممرات البستان ، فأصرت عـــاي وعيناهـــا تلتمعان أن أترك الخادمة المسكينة باراشا بسلام ٠ كانت تلك هي المرة الأولى التي تحدثت بها معها على انفراد ٠ فلما أنهت الي رغبتها اعتبرت ولا شك أن تنفيذ تلك الرغبة شرف لي ، وكنت أسعى للظهور أمـــامها بمظهر المتهيب المضطرب ٠ وبالايجاز أقول انني عرفت كيف أمثـــل دوري ٠ واعتبارا من تلك اللحظة رحنا نلتقي معا فتقوم هي بـــاسداء المواعظ سرا وتلقنني دروسا في الأخلاق بل وتوصيني وتتوسل الي وأحيانا تبكي أمامي ــ هل تصدق ؟ ــ نعم أحيانا تبكي أمامي ! ذلك هو الحد الذي تذهب اليه بعض الفتيات اللاتي يشعرن بميل للدعـــاية والتثقيف ؟ ولا شك أنني كذلك كنت أعزو كل خطيئاتي للقدر ، وأبدو بمظهر المتعطش للمعرفة والنور ، فرحت أمارس أسلوبا رائعا لا يخطىء أبدا ، يوصلني دائما الى قلب النساء ! أسلوبا لا يخدع أحدا ، ولكنه مع ذلك ، ينجح عند كل النساء بلا استثناء ٠ ذلك الأسلوب هو الاطراء والمديح ٠ لا شيء في الحياة أصعب من ممارسة الاخلاص باخـــلاص ، وعلى النقيض ، فان لا شيء أسهل من استثمار المديح ! لأن الاخـــلاص اذا اعتراه صدفة أي خطأ أو خيانة مهما كانت تافهة ، فانه يكون شديد الوضوح سريع الاكتشاف فتعقبه ٠٠٠ فضيحة ٠ أما في المديح ، فانه ولو كان كله خطأ من أوله الى آخره ، فان ذلك لا يقلل من شأنه ، لأن الناس يصغون اليه دائما بسرور ٠ وقد يكون ذلك السرور غير عنيف أو ظاهر ، ولكنه على كل حال سرور ولا شك ٠ ومهما كان المـــديح كاذبا ممجوجا ، فان نصفه على الاقل يروق لصاحب العلاقة ٠ والأمـــر كذلك في كل طبقات المجتمع ٠ ان الانسان قادر على اغواء كاهنة متزمتة

بالمديح وعدم التعرض للحديث عن آثام الانسان الفاني ، ولا أستطيع أن أذكر دون أن أضحك كيف أنني ذات يوم أغويت امرأة شديدة الاخلاص لزوجها ولأولادها ، شديدة التمسك بالمبادىء والاخلاق . لقد كان الأمر مضحكا شديد السهولة ! مع ذلك فان تلك السيدة كانت فاضلة تماما حسب وجهة نظرها على الاقل . لقد كان أسلوبي حيالها يتلخص في الظهور أمامها بمظهر المذهول لفضائلها ، العابد لطهرها ، وكنت أطريها وأمتدحها بشكل وقح ، فما كنت أفوز منها بنظرة ، أو بضغطة خفيفة على يدي ، حتى كنت ألوم نفسي أمامها بأنني انتزعت تلك الحركة مهما أنكرتها ، معترفا بأنها مانعت فيها واعترضت عليها ، وأنها أظهرت مقاومة شديدة كان من جرائها أنني ما كنت أستطيع الحصول على ما [illegible] لولا أن كنت فاسدا . لأنها بطهرها وبراءتها لم تستطع اكتشاف نواياي الخبيثة ، فتركت نفسها تنقاد ببراءة دون أن يكون لديها أي شك ... الخ الخ ... والخلاصة أنني بلغت ما كنت أريد ، ولبثت تلك السيدة مقتنعة بأنها لا زالت عفيفة طاهرة تقوم بواجباتها وخدماتها كاملة ، وانها لم تخطىء الا بمحض الصدفة . لذلك فقد بلغ سخطها مبلغا جسيما ، عندما أعلنت لها — وتلك هي عادتي أبدا — بأنها بدورها كانت تبحث عن اللذة مثلي تماما .

كانت مارث بيتروفنا نفسها شديدة الاستسلام للمديح . كنت أستطيع — لو شئت — أن أجعلها تهبني كل ممتلكاتها وهي على قيد الحياة . لكن ماذا دهاني ؟ انني لا أكف عن الشراب والثرثرة !... حسنا ... أعتقد أنك لن تغضب اذا ذكرت لك الآن أن تلك التأثيرات نفسها بدأت تتسلط على أفدونيا رومانوفنا . لكنني أفسدت المسألة كلها بحماقتي ونفاذ صبري . فقد حدث أكثر من مرة خلال مقابلاتي مع أفدونيا رومانوفنا — وأخص بالذكر لقاء معينا — أن كان بريق نظراتي يزعجها بشكل فظيع . فهل تصدق ؟ لقد كانت نظراتي تشع

بنار الشهوة التي كانت تزداد وقاحة والتي كانت تراها شديدة البشاعة. وغني عن الذكر أن مشاحناتنا ومشاجراتنا حول هذا الموضوع كانت لا تنتهي • لقد ارتكبت في هذا المضمار خطيئة اثر خطيئة • اذ رحت أهزأ بشكل قبيح جدا من كل أساليبها ودعاياتها ! وبكلمة واحدة فان المنزل كله أضحى أشبه بمدينة سودوم التي أحرقها الله بناره لفجور سكانها. آوه ! لو انك رأيت مرة يا روديون رومانوفيتش عيني أخلك ، لعرفت اذن ما تستطيعان بعثه من وميض ! لا يهمني أن أكون ثملا في هذه اللحظة وأن أكون قد احتسيت كأسا كاملة من الخمرة ، غير أن ما أقوله هو الحقيقة • أؤكد لك أن نظراتها كانت تلاحقني حتى في نومي. وأخيرا ما عدت أستطيع احتمال حفيف ثوبها • بلغ بي التصور أنني سأصبح ضحية نوبات قلبية ، اذ ما كنت أعتقد أنني سأكون يوما في مثل تلك الحالة من الشغف والتدله • لذلك وجدت أن الواجب يدعوني الى التقدم بمصالحة واعتذار • تصور ماذا عملت • والى أي سخف وشذوذ يقود الغضب الرجل ! اياك يا روديون رومانوفيتش أن تعمل شيئا تحت تأثير الغضب • كنت أعرف أن أفدونيا رومانوفنا معدمة ـ آه ! اعذرني ••• ما كنت أريد ••• لكن ماذا يهم البحث عن تعبير اخر في هذا المعنى ؟ وأنها كانت تعيش من الكدح وتعول أمها وأخاها ـ آه ! يا للشيطان ! انك تبدي نفورك مرة أخرى ـ فقررت أن أقدم لها كل المال الذي أملكه ـ وكنت أستطيع امتلاك ثلاثين ألف روبل ـ لأغريها على الفرار معي حتى ولو الى بطرسبورغ • وبالطبع فانني كنت حال بلوغي معها الى هنا سأقسم لها مؤكدا حبي الأبدي ، والسعادة ، ولست أدري ماذا أيضا • لعلك تصدقني اذا قلت انني كنت شديد الاغتباط • حتى أنها لو طلبت مني ذبح مارت بيتروفنا أو قتلها بالسم للزواج منها لما ترددت عن تنفيذ طلبها على الفور ! لكن الامر كله انتهى بالكارثة التي تعرفها • ومع ذلك فانك تستطيع الحكم على مبلغ الغضب الذي تغلبت

عليه ، حينما علمت أن مارت بيتروفنا قد أعدت ذلك البخيف الكريه لوجين ، وراحت تحيك فكرة زواجه من أفدونيا رومانوفنا ، الأمر الذي لم يكن يختلف في كثير أو قليل عن عروضي التي تقدمت بها بنفسي الى أفدونيا رومانوفنا . ألست من هذا الرأي ؟ أليس هذا صحيحا ؟ انني ألاحظ أنك تصغي الي بانتباه عظيم ... أيها الشاب المغري !...

استولى نفاذ الصبر على سفيدريكايلوف فضرب المائدة بقبضة يده وغدا وجهه شديد الانفعال . لاحظ راسكولنيكوف أن القدح الاول ونصف الثاني من الشامبانيا التي احتساها سفيدريكايلوف بجرعات صغيرة بدأت تعطي مفعولها المدمر . لذلك قرر استغلال هذه الفرصة لأنه كان يشعر بوجوب الحذر الشديد من هذا الرجل الذي يقارعه.

قال راسكولنيكوف فجأة متوخيا احراج محدثه :

ـ حسنا . انني واثق بعد كل هذا أنك ما جئت الى بطرسبورغ الا وفي رأسك نوايا معينة تتعلق بأختي .

أجاب سفيدريكايلوف ، وهو يحاول السيطرة على نفسه :

ـ دعك من هذا ! ألم أحدثك ؟.. ان أختك لا يمكن أن تثيرني وتجعلني دائم التفكير فيها .

ـ أوه لا شك ! انني واثق من ذلك، لكن الأمر لايتعلق بهذه الناحية .

غمز سفيدريكايلوف بعينه وضحك متهكما :

ـ انك متأكد اذن من أن أختك لا تثيرني ! انك على صواب فهي لا تحبني . لكن يجدر بك أن تركن كثيرا الى ما يحدث بين الزوج وزوجته ، والعاشق وخليلته ، لأن هناك دائما زاوية يجهلها الناس ولا يعرفها الا هما . هل تجيب أن أفدونيا كانت تنظر الي بتقزز ونفور ؟

ـ ألاحظ من بعض كلمات وتوريات في حديثك أنك تغذي في

نفسك بعض النوايا حيال دونيا وأنه لا يمكنك التجاوز عنها ، ولا شك أنها نوايا سيئة قذرة •

سأل سفيدريكايلوف وقد اعتراه خوف بريء دون أن يبالي بالصفه التي وصفت بها نواياه :

ــ ماذا ؟ هل أفلت مثل تلك الكلمات والتوريات ؟

ــ نعم لقد ظهرت منذ حين • ثم لماذا روعت فجأة ؟ كيف تشعر بمثل هذه الخشية ؟

ــ أنا خائف ؟ أنا مروع ؟ أنا أخاف منك ؟ بل انني أخاف من نفسي ، يا صديقي العزيز • يا لها من كلمات !•• لا تنسَ أنني ثمل قليلا • انني أشعر بذلك • ولو اندفعت قليلا لارتكبت شططا • ليذهب الخمر الى الشيطان ! اه ! أريد ماء !

ثم أخذ الزجاجة وألقى بها من النافذة بكل بساطة • وجاءه فيليب بالماء •

أردف سفيدريكايلوف ، وهو يبلل منشفته في الماء ويضعها على رأسه :

ــ ان كل هذا ليس الا حماقات • انني أستطيع بكلمة واحدة أن أبدد ظنونك وأمضي شكوكك • أتدري مثلا انني عازم على الزواج ؟

ــ لقد أخبرتني بذلك من قبل •

ــ أخبرتك به ؟ لقد نسيت • لكنني ما كنت أستطيع أن أقرر لك هذا الامر بكل تأكيد لأنني لم أكن قد شاهدت بعد خطيبتي • فالأمر اذن كان مجرد مشروع • أما الآن فان خطيبتي موجودة والأمر منته • ولولا أنني مرتبط بأعمال مستعجلة في الوقت الحاضر لدعوتك لتصحبني الى منزلها لأنني سأحتاج الى نصائحك • يا للشيطان ! لم يبقَ الا عشر دقائق • خذ ، أنظر الى ساعتي • على كل حال سوف أقص عليك الخبر •

ان زواجي أمر غريب في نوعه • لكن الى أين تذهب ؟ هل تريد أن تذهب من جديد ؟

ــ كلا ، لن أذهب الآن •

ــ لن تعاود الذهاب ؟ حسنا • سنرى ! لسوف أصحبك الى هناك لأريك خطيبتي ، ولكن ليس الآن • اذ يجب أن أرتحل الان ، فتمضي أنت الى اليمين وأمضي أنا الى اليسار • هل تعرف ريسليش ؟ تلك التي أقطن عندها في الوقت الحاضر ؟ لعلك سمعت شيئا عنها ؟ انها تلك المرأة التي قيل انها تسببت في القاء فتاة صغيرة الى الماء في صميم الشتاء؟ هيا ، ألا تعرفها ؟ لعمري انها هي التي قالت لي : « لا شك أنك ستشعر بضيق شديد ببقائك منفردا ، وانك بالزواج ستمضي وقتا جميلا » ! والحقيقة أنني رجل كئيب المزاج حزينه • هل تظنني مرحا ؟ أبدا • انني حزين لا أسيء الى أحد • لكنني أقبع في زاويتي • وقد وقع لي مرة أنني لم أتذوق طعاما طيلة ثلاثة أيام متعاقبة • أما ريسليش الخليعة فان لها رأيها الذي أحب اظهاره فورا • فهي تعتقد أنني سأضيق ذرعا بزوجتي وأنني سأهجرها وألوذ بالفرار فتبقى المرأة لها • وعندئذ تستثمرها بتقديمها الى أشخاص من طرازنا ، بل ولعلها تقدمها الى من هم أرفع منا شأنا • لقد أخبرتني أن أبا الفتاة موظف قديم مريض لم يبارح مقعده منذ ثلاث سنوات لأنه مصاب بشلل في ساقيه ، أما أمها فسيدة ذكية ، لها ابن يشتغل في مكان ما بالأقاليم لكنه لا يساعد ذويه، ولها أيضا فتاة متزوجة لا تعرف مصيرها • وكأن عدد أفراد الاسرة لم يكن كافيا • اذ أنهم تعهدوا كذلك اطعام اثنين من أبناء أخت الأم• لقد تركت الفتاة التي سأتزوجها المدرسة قبل اتمام دروسها ، وستنهي السادسة عشرة من عمرها بعد شهر ، وعلى ذلك فاننا سنستطيع الزواج بعد انقضاء هذا الشهر • ثم انهم يعولون علي كثيرا •

ذهبنا لرؤية هؤلاء الناس وكان ذلك مضحكا ! لقد قدمت نفسي

كما يلي : ملاك ، أرمل ، من عائلة طيبة ، ثري ، ذو علاقــات ممتازة ! فماذا يهم بعد كل هذا أن أكون في الخمســين من عمري وأن تكون هي في السادسة عشرة ؟ من ذا الذي يلتفت الى مثل هــذا الفرق ؟ هيا ، ألست غنيمة طيبة بالنسبة اليهم ؟ بل انني صفقة ممتازة ... ها ها ! ليتك رأيتني أتكلم مع بابا وماما ! أؤكد لك أن رؤية ذلك كان يستوجب التضحية ! اذ جاءت الفتاة وانحنت باحترام . تصور أنها لا زالت ترتدي أثوابا قصيرة — لأنها لا تزال برعما صغيرا لم يتفتح بعد — وقد احمر وجهها خجلا . ولا شك أن الدرس كان قد لقن لها من قبل . لست أدري ما هو رأيك حول وجوه النساء ، أما أنا فانني أجد تلك السنين الست عشرة وتينك العينين الصغيرتين المفعمتين بالطفولة وذلك الخجل ودموع الاحتشام تساوي عندي أكثر من الجمال ، فكيف اذا كانت بعد كل ذلك جميلة كالصورة . ان لها شعرا أشقر ناعما مقسما الى خصل صغيرة ، وشفتين غليظتين حمراوين وقدمين صغيرتين ... انها فتانة !. أعلنت — بعد أن تعرفت اليها — أنني مرغم على استعجال الأمور بسبب أعمال عائلية . وفي اليوم التالي ، أعني أول أمس ، تمت خطوبتنا . ومنذ ذلك الحين ، أجلسها على ركبتي كلما حضرت ولا أدعها أبدا ... انها تكسف الشمس ! انني أعانقها وأقبلها في فمها . ولا شك أن أمها تفهمها أن لا بأس في ذلك طالما أنني زوجها . والخلاصة أنها لؤلؤة ! ان حالة الخطيب أجمل ولا شك وأدعى الى الراحة من حالة الزواج ! لأن فيهــا كما يسمى : الطبيعة والحقيقة . ها ! ها ! ها ! لقد تحدثت مرتين معها فوجدت أنها متوقدة الفؤاد . انها تختلس أحيانا النظر الي ... فاذا بي أحترق كعود الثقاب . ان لها وجها يشبه صورة عذراء رافائيل «مادونا» .

ألم تلاحظ أن لـ « مادونة سيكستين (١) » وجها يعبر عن حزن غير طبيعي ؟ اذن ان فتاتي مثلها . لقد قدمت لها في اليوم التالي من خطوبتنا هدايا قيمتها ألف وخمسمائة روبل بينها حلية من ألماس وأخرى من اللؤلؤ ولوازم زينة من الفضة كبيرة الحجم مع كل ضرورياتها وكمالياتها . حتى أن وجه مادونتي أشرق من الاغتباط . وقد أجلستها البارحة على ركبتي دون مقدمات ولا كلفة حتى أنها غدت بلون الأقحوان ، وانبعثت الدموع من عينيها انبعاثا . انها لم تكن تريد الكشف عن نفسها رغم أنها بالنسبة الي نار ولهب . كان ذووها جميعهم قد خرجوا لحظة ، فبقينا وحدنا هي وأنا . وفجأة أحاطت عنقي بذراعيها الصغيرين — وقد فعلت ذلك من تلقاء نفسها وللمرة الاولى — وعانقتني وهي تقسم أنها ستكون لي زوجة طيبة مطيعة مخلصة وانها ستسعدني وستكرس لي كل حياتها ، وكل لحظة من لحظات وجودها دون أن تطالبني مقابل ذلك الا بشيء واحد ، ألا وهو تقديري لها ولا أكثر . لقد أعربت لي أنها لا تريد الا ذلك التقدير وأنها لا حاجة بها الى الهدايا ! أرجو أن تعترف معي أن الاستماع الى هذا التصريح في جلسة خاصة جمعت بين كلينا يتفوه به ذلك الملاك المرتدي ثوبا خفيفا من الحرير ، والذي تحجب جبهته خصلات من الشعر الاشقر الناعم المتمرد ، وخداه بلون قرمزي من الخفر ، بينما تلتمع دموع الحماسة في عينيه ، أعترف أن كل ذلك شديد الجاذبية . ألا تعتقد أن كلمة « شديد الجاذبية » هي أصلح ما يستعمل في هذا المقام ؟ انها تساوي كثيرا ، أليس كذلك ؟ حسنا ... سنذهب يوما لرؤية خطيبتي ولكن ليس الان .

— على العموم ان ذلك الفارق القطيع بالسن والثقافة أدعى

---

(١) سيكستين : كنيسة شهيرة من كنائس الفاتيكان بنيت في عهد البابا سيكست الرابع وبناء على امره . وقد زينت بصور زيتية اشهرها لميكيل آنج تمثل مواقف دينية عديدة منذ خلق الطبيعة حتى يوم الحساب — المترجم —

لتحريض شهواتك • هل من المعقول أن تفكر حقيقة في ابرام زواج في مثل هذه الشروط ؟

ـ ولمَ لا ؟ لا شك • ان كل انسان يجب أن يعيش حياته • ومن يحسن خداع نفسه يعيش أحسن من سواه • ها ! ها ! يا الله ما أسرع ما أصبحت رجلا فاضلا ! ارحمني يا عزيزي لأنني مخطىء • أنا ••• هيه هيه هيه !

ـ مع ذلك فقد عنيت بأطفال كاترين ايفانوفنا • ثم انك لا تعمل شيئا دون مسببات ••• انني أفهم كل شيء الآن •

أجاب سفيدريكايلوف ، وهو ينفجر ضاحكا :

ـ على العموم انني أحب الاطفال حبا جما • وأستطيع أن أفض عليك فصلا من ذلك الحب لا زال قائما حتى الآن • منذ اليوم الاول من وصولي تهافتُّ على كل البؤر والمواخير في هذا البلد ••• لا شك أنك تفهمني • لأنني منذ سبع سنين لم أطأ واحدة منها بقدمي • ولعلك لاحظت ولا شك فتوري في ربط صلات جديده مع أصدقائي القدماء• انني أنفر منهم كما أنفر من الطاعون• ألا فاعلم أنني عندما كنت أعيش في الريف مع مارت بيتروفنا كنت أشعر بحنين شديـد الى هذه الاماكـن السرية حيث يجد العقل النيّر فيها كثيرا مما يثقفه ويزيد في معلوماته• ليحملني الشيطان ! ان الشعب كله قد استسلم للسكر • والشبيبـة المثقفة تتعفن من قلة الحركة ، وهي سابحة في أحلام وخيالات مستحيلة الوقوع ، بعد أن أغلظت النظريات الأحاسيس والشعور ، بينما يهرع اليهود من كل مكان فيستولون على المال تاركين المواطنين أصحـاب البلد غارقين في فجورهم ودعاراتهم • كذلك عرفت هذه المدينة مـن رائحتها • وذات ليلة وجدتني في واحد من تلك الحفلات الراقصة التي يطلقون عليها اسم : حفلات عائلية ، بينما هي دنس في بيوت دعارة ـ انني أميل الى مثل هذه البؤر خصوصا اذا كان فيها كثير من القذاره•

لا شك أنهم كانوا يرقصون هناك رقصات غريبه لا يرى المرء مثلها الا هناك • رقصات لم أشهد مثلها في شبابي • صحيح أن هناك تقدما في هذا المضمار • وفجأة شاهدت فتاة في الثالثة عشرة من عمرها مرتدية ألبسة لطيفة ترقص مع راقص حاذق محترف يقوم بدور الرفيق لها • كانت أمس تجلس قرب الجدار • انك تستطيع تخيل هذه الراقصة ! كانت الفتاة الصغيرة مرتبكة محمرة الوجه وكأنها أهينت في كرامتها ، فقد انفجرت باكية • أما المحترف فقد راح يتلقفها في الهواء ويدربها ، وهو يقوم بحركات مضحكة جعلت النظارة يفجرون بالضحك ! انني أحب مواطنينا في مثل هذه المواقف حتى في مثل تلك المواخير • لأنهم يضجون ويضحكون ويصخبون ويصرخون • وأنا لا يهمني من أمرهم أن يتمتعوا بهذه الحقوق المنطقية ! أدركت فورا ماذا يجب علي عمله ، وسرعان ما جلست قرب الأم ، وبدأت أخبرها أنني أنا الآخر لست من بطرسبورغ • وأن كل هؤلاء المجتمعين كانوا أشخاصا فظين خشنين لا يستطيعون التمييز بين الغث والثمين ، وألمحت لها بأنني عظيم الثراء • ثم دعوتها الى عربتي أنقلها فيها الى حيث تشاء • وهكذا كان • اذ أوصلتها الى مسكنها وعرفت مكانه وموقعه — كان مسكنا مؤثثا مزعجا سيء السمعة نزلت فيه مع ابنتها — وأخبرتني أنها تعتقد وابنتها أن تعرفهما بي ليس الا شرفا لهما • عرفت أنهما لا تمتلكان شروى نقير وأنهما جاءتا الى بطرسبورغ للسعي لدى لست أدري أية مصلحة حكومية ، فقدمت لهما خدماتي ومالي وعرفت أنهما وقعتا خطأ تلك الليلة في تلك البؤرة لأنهما أعتقدتا أنها حفلة راقصة حقيقية تستطيع الفتاة الصغيرة أن تتعلم فيها شيئا من الرقص • فعرضت عليها الأمكنة التي أعرفها لتثابر ابنتها على تعلم الرقص فيها ، وتتعلم اللغة الفرنسية الى جانب الرقص • فقبلتا حماسي واعتبرتا كل ذلك شرفا حقيقيا ولا

زالت علاقاتنا قائمة . انني أستطيع أن أمضي بك اليهما . ولكن ليس الآن .

ـ كفى ! لقد كفاني ما سمعت من قصصك القذرة ، أيها الفاجر القذر !

ـ ها هو ذا شيلر ، « شيلرنا » ! هل تصدق أنني أجد رغبة في الاستمرار في سرد مثل هذه القصص لأصغي الى استنكارك وصباحك. انه سرور حقيقي !

غمغم راسكولنيكوف :

ـ لست أشك في ذلك . أو لست أنا بنفسي شاذا بنظري في هذه اللحظة ؟

ضحك سفيدريكايلوف بانشراح ملء حنجرته . ثم نادى فيليب وسوى حسابه ثم وقف يريد الانسحاب ، وهو يقول :

ـ لقد تحدثنا بما فيه الكفاية . لكنني ثمل ... كنت سعيدا جدا بمجالستك !

هتف راسكولنيكوف ، وهو ينهض بدوره :

ـ طبعا . ولمَ لا تكون سعيدا ! ان سرد مثل هذه المغامرات بالنسبة لفاجر كريه مثلك لا زال يغذي أفكارا من هذا النوع ، يعتبر سرورا حقا خصوصا في ظروف معينة، وأمام شخص مثلي . ان ذلك يبهجك !

أجاب سفيدريكايلوف بدهشة :

ـ لعمري اذا كنت تعتبر الأمر كذلك، فانك ماجن جميل حقا! انك على استعداد لتدبير بعض الامور بل وتنفيذها أيضا . ان هذا يكفي. انني آسف بكل اخلاص اذا كان لقاؤنا قصيرا على هذا الشكل ، ولكنني أرجو أن لا تتركني هكذا ... انتظر قليلا ...

خرج سفيدريكايلوف من المشرب يتبعه راسكولنيكوف . لم

يكن سفيدريكايلوف شديد الثمل بل كان يشعر بدوار بسيط تخلص منه على الفور • كان يبدو مشغول البال بشيء ما ، شيء عاجل جـدا كان يزعجه • كان ولا شك فريسة قلق ما • ولم يفت راسكولنيكوف أنه سفيدريكايلوف قد غير لهجته معه منذ بعض الزمن ، وأنه كان يبدو سمجا مستهزئا أكثر فأكثر • لذلك فقد شعر بشيء وراءه وقرر تعقبه•

لحق به على الرصيف فقال هذا :

ــ ستمضي الى اليمين وأمضي الى اليسار الا اذا كان الأمر على عكس ذلك • الوداع يا « سروري » • يسرني لقاؤك•

واتجه الى اليمين من ناحية سوق العلف •



تأثر راسكولنيكوف خطاه فالتفت سفيدريكايلوف اليه ، وهتف:
ــ ما معنى هذا ؟ أعتقد أنني أخبرتك ...
ــ ما ... ذا ؟
توقف كلاهما وراح كل منهما يحدق في وجه الآخر وكأنهما يزنان بعضهما بعضا ودام الموقف دقيقة .
قال راسكولنيكوف بلهجة حاسمة :

ــ بعد كل القصص التي سردتها علي وأنت نصف ثمل ، فانني أعتقد أنك لم تهمل مشاريعك الدنيئة حيال أختي فحسب ، بل انها ازدادت أكثر من أي وقت مضى . انني أعرف أن أختي تلقت هذا الصباح رسالة . أرى أنك بدأت تضطرب . يجوز مع ذلك أن تكون قد اكتشفت امرأة أخرى ، غير أنني أرغب في أن أتأكد من الأمر بنفسي .
كان راسكولنيكوف شديد الارتباك لأنه اضطر الى الافصاح عن رغبته في التأكد شخصيا من هذا الأمر :
ــ آه ! هكذا اذن ! هل تريد أن أستعين بالبوليس ؟
ــ ادعُ البوليس !

ووقفا من جديد وجها الى وجه . ولما رأى سفيدريكايلوف أن راسكولنيكوف لم يعبأ بتهديده تبدلت أسارير وجهه لحظة وراح يتحدث بلهجة ودية كلها تشابه :
ــ هذه هي عقليتك ! لقد تعمدت ألا أحدثك عن قضيتك رغم أن

الفضول ينهش فؤادي ؟ انها قضية خيالية ! كنت أريد ارجاءها الى مرة أخرى لكنك تستطيع أن تستفز شعور الميت ... حسنا ، هيا ! لكنني أخطرك بأنني مضطر الى العروج على منزلي لآخذ بعض المال . ثم سأغلق الباب بالمفتاح وأقفز الى عربة تحملني الى الجزر حيث سأقضي المساء . فلِمَ اذن تتبعني .

ــ ان لي ما أعمله كذلك في البيت على كل حال فانني لا أقصد منزلك . بل منزل صوفي سيميونوفنا لأعتذر اليها عن عدم حضوري تشييع جثمان أمها .

ــ كما يحلو لك . لكن صوفي سيميونوفنا ليست في البيت . لأنها ذهبت تقود الأولاد الثلاثه الى سيدة عجوز ، سيدة أعرفها منذ زمن بعيد ، ترأس الآن أحد المياتم . لقد أعربت هذه السيدة عن ابتهاجها بوضع الأطفال تحت اشرافها عندما قدمت لها المال الذي حدثتك عنه باسم أطفال كاترين ايفانوفنا ، الى جانب مبلغ آخر وهبته للمؤسسة. لقد قصصت عليها قصة صوفي سيميونوفنا دون أن أخفي عنها حرفا واحدا منها . فأحدثت في نفسها أثرا لا يمكن وصفه . لهذا السبب دعيت صوفي سيميونوفنا اليوم للمثول في الفندق أمام السيدة المذكورة التي نزلت هناك مؤقتا عند عودتها من الاصطياف .

ــ ليكن . سأذهب مع ذلك ؟

ــ كما تشاء . لسوف أصحبك لأن لا عمل لي هناك ! ها قد وصلنا . انني واثق من أنك اذا كنت تنظر الي بمثل هذه النظرية المرتابة فما ذلك الا لأنني تلطفت معك ، فما أردت اقلاقك وارهاقك بالأسئلة، هل تسمعني ؟ أراهن على أن هذا التصرف من قبلي بدا لك شاذا غريبا! فكن اذن رقيقا بعد هذا .

ــ أنت يا من تسترق السمع وراء الأبواب !

فقال سفيدريكايلوف ، بعد أن أطلق ضحكة مرحة :

ــ آه ! لنقل ! لقد أدهشني أن لا تكون قد أبديت هذه الملاحظة من قبل ! على الرغم من أنني أعرف تنفا عن ... مشاكلك هنـاك كما رويتها لصوفي سيميونوفنا ، فانني مع ذلـك لم أصـل الى حقيقتهـا الأخيرة . لا شك انني رجل متأخر رجعي عـاجز عن فهـم أي شيء . لذلك أرجو أن تفسر لي الأمر ، يا عزيزي . بحق السماء أعلمني .

ــ انك تكذب ، ما كان يمكنك سماع شيء !

ــ الله ! انني لا أحدثك عن هذا ــ بصرف النظر عن أن أكـون قد سمعت كل شيء ــ كلا انني أهدف الى زمجراتك الأبدية ! ذلـك الـ « شيلر » الذي يقلقك في كل لحظة . انك اذا كنت لا زلت هنا فان ذلك يعادل عندي الذهاب الى قسم البوليس والادلاء بأنه قد وقع لك كذا وكذا . انه مجرد خطأ في النظرية . فاذا كنت تعتقد أنه لا يحق للمرء الاستماع وراء الأبواب ، وأنه مع ذلك يستطيع ذبح النسـاء الطيبات اللاتي يقعن تحت يده ، فهو لعمـري غريب . ارتحـل الى أمريكا أو الى حيث تشاء ! أسرع ، أيها الشاب ! لا زال الوقت مناسبا . انني أتحدث اليك باخلاص . واذا كنت لا تملك مالا فانني أمنحـك نفقات السفر .

قاطعه راسكولنيكوف باشمئزاز :

ــ انني لا أفكر مطلقا في هذا .

ــ انني أفهم ! على كل حال لا تزعج نفسك لأنك اذا كنت لا تريد الكلام فمن العبث أن نستهلك لعابنا . انني أفهم أن هناك أسئلة تجول في رأسك ، وأنها أسئلة أخلاقية . أليس كذلك ؟ من ذلك النوع ذي المساس بالرجل ، بالمواطن ؟ دع هذه الاسئلة جانبا . لم تفكر فيها في هذه اللحظة . هه هه !؟ ألا زلت تفكر في الرجل وفي المواطن ؟ في

مثل هذه الحال ما كان ينبغي لك أن تحشر نفسك في مأزق كهذا. أطلق على رأسك الرصاص . ألم تفكر في هذا ذات مرة ؟

ــ انك تحاول كما يبدو لي ازعاجي بكل الوسائل لأبتعد عنك في هذه اللحظة .

ــ ما أسخف تفكيرك ! لكننا قد وصلنا. ها هو ذا السلم، لنصعد. أرجوك . أنظر ، ها هو ذا مدخل صوفي سيميونوفنا . ألا ترى أن المسكن خال ! ألا تصدق ؟ سل آل كابيرناووموف ، انها تترك مفتاحها لديهم . هه. هذه هي السيدة كابيرناووموف . هم ؟ ماذا ؟ ــ انها صماء قليلا ــ خرجت صوفي ايفانوفنا ؟ أين ذهبت ؟ حسنا . هل تأكدت الآن ؟ انها غير موجودة ويجوز أن لا تعود الا متأخرة . والآن تعال الى مسكني لأنك ولا شك تريد أن تدخل اليه . ها نحن أولاء . ان السيدة ريسليش ليست في المسكن . ان هذه المرأة لا تني تتحرك ، لكنها سيدة باسلة وأؤكد لك ... يمكنها أن تكون نافعة لك اذا بدوت أكثر تعقلا . ألا ترى ؟ انني آخذ من مكتبي هذا المبلغ ــ أنظر كم بقي لدي من المال ــ أما هذا فلسوف أنفقه اليوم . هيا ، هل رأيت؟ لا وقت لدي أضيعه ! انني أغلق مكتبي وأغلق باب المسكن وها نحن أولاء على السلم . أتريد أن تستقل عربة ؟ انني ذاهب الى الجزر . هل يعجبك أن تقوم بجولة في العربة ؟ خذ . لسوف أستقل هذه وأسأل السائق أن يقودني الى رأس « ابيلاغين » . هل ترفض ؟ هل أنت تعب ؟ هيا لنقم بجولة معا ! انني أعتقد أن المطر على وشك الهطول . لكن لا بأس . لسوف نرفع غطاء العربة .

كان سفيدريكايلوف في تلك اللحظة جالسا في العربة يتحدث، فاقتنع راسكولنيكوف بأن ظنونه كانت ــ على الاقل في تلك اللحظة ــ خاطئة . فاستدار على عقبيه ومضى دون أن ينطق بكلمة . لكنه

استطاع أن يرى سفيدريكايلوف يستوقف العربة بعد مائة خطوة فيدفع للسائق أجرة ثم يسير على الرصيف • لكنه لم يكن يشـك في شيء • لذلك سرعان ما انعطف عند زاوية الشارع • كان يشعر بتقزز ينفـره من سفيدريكايلوف • كان يهتف دون تعمد : « يا للقذر النذل ! كيف أستطعت الاصغاء الى ترهات هذا البغيض! » والحقيقة أن راسكولنيكوف كان متعجلا في حكمه ضد سفيدريكايلوف فكان حكمه طائشا ، اذ أن تصرف سفيدريكايلوف كان يوحي اليه بشيء من الغرابة اذا لم نقل من الغموض • وكان راسكولنيكوف مؤمنا بأنه لن يترك أخته بسلام، لكن هذا الشعور كان يؤلمه ويزعجه مجرد التفكير فيه في تلك اللحظة•

وعلى جري عادته ، استغرق ــ بعد أن قطع عشرين خطوة ــ في تفكير عميق • ولما بلغ الجسر ، توقف أمام الحاجز وراح يتأمل المـاء بينما كانت أفدونيا رومانوفنا تتابعه ببصرها •

كان قد مر بها عند مدخل الجسر دون أن ينظر اليها ، وكـانت هذه هي المرة الاولى التي تلتقي به دونيا في الشارع على ذلك الشكل• لذلك فقد هصرت الدهشة قلبها • فلبثت واقفة مشدوهة بدورها لا تعرف اذا كان ينبغي لها أن تناديه أم لا • وفجأة رأت سفيدريكايـلوف آتيا بسرعة من جهة « سوق العلف »

كان يبدو على هذا الاخير أنه يتقدم بحذر وحيطة لأنه لم يتجـه مباشرة نحو الجسر ، بل توقف على الرصيف منتحيا جانبا محاولا عدم اجتذاب انتباه راسكولنيكوف • كان منذ بعض الوقت يرى دونيـا في موقفها ويشير اليها بعض الاشارات • بدا أنه يشجعها بتلك الاشـارات على ترك أخيها واللحاق به حيث كان يقف •

وهكذا تصرفت دونيا ، اذ ابتعدت عن أخيها دون أن تنطق بكلمة واقتربت من سفيدريكايلوف •

همس سفيدريكايلوف قائلا :

ــ هيا اسرعي • لا أريد أن يعرف روديون رومانوفيتش شيئا عن لقائنا • انني أخطرك بأنني خرجت للتو من حانة قريبة من هنا ، حيث جاء يبحث عني هناك ، وانني وجدت صعوبة في التخلص منه • لقد بلغه شيء من الرسالة التي كتبتها لك • انه يرتاب في شيء ما • آمل أن لا تكوني قد تحدثت اليه بشيء • لكن اذا لم تكن أنت التي تحدثت، فمن الذي تحدث اذن ؟

قاطعته دونيا قائلة :

ــ ها قد انعطفنا حول زاوية الشارع ؟ ان أخي لا يمكن أن يرانا الآن • انني أصرح لك بأنني لن أتبعك الى أبعد من هنا • فاخبرني بكل ما تريد • اذ يمكن التحدث بكل شيء في الشارع •

ــ أولا ان الأمر لا يمكن التحدث عنه في الشارع • ثانيا ينبغي أن تسمعي أقوال صوفي سيميونوفنا ، وثالثا لدي مستندات ينبغي أن تطلعي عليها ••• لكنك اذا كنت ترفضين المجيء الى مسكني فانني أرفض بدوري الادلاء بأي شيء وأذهب من فوري • أضف الى ذلك أنني أرجوك أن لا تنسي أن سرا خطيرا يتعلق بأخيك المحبوب موجود بين يدي •

توقفت دونيا مترددة وهي تسبر سفيدريكايلوف بنظرة عميقة •

قال هذا معقبا :

ــ مم تخافين ؟ ان المدينة ليست كالريف • لقد سببت لي في الريف من الاساءات أكثر مما سببت لك ••• وهنا •••

ــ هل أخطرت صوفي سيميونوفنا ؟

ــ كلا انني لم أهمس لها بكلمة • بل انني لست متأكدا مما اذا كانت الآن في مسكنها • لكنها ينبغي أن تكون هناك • لقد دفنت اليوم زوجة أبيها • ومثل هذا اليوم لا يصلح لقيامها بزيارات • انني لن

أتحدث عن هذه الاشياء الى أي كان قبل اللحظة المناسبة • بل وانني آسف على ما أطلعتك عليه منها لأن أقل هفوة هنا تعادل تشهيرا كاملا • أنظري انني أقطن هنا ، في هذا البيت الذي أمامك • والبواب يعرفني جيدا ، ألا ترين أنه يحييني ؟ انه يرى أنني في صحبة سيدة ولا شك أنه لاحظ وجهك وعرفه وهذا يحملك على الاطمئنان اذا ما كنت تخافين مني أو كنت لا تثقين بي • أرجو أن تعذريني اذا كنت أتحدث اليك بهـذه الغلظة • انني أسكن هنا مستأجرا عند سيدة ولا يفصلني عن مسكن صوفي سيميونوفنا الا جدار ، لأنها هي الاخرى تقطن في غرفة مؤثثة • ان الطابق كله مشغول بالمستأجرين • فلم اذن تخافين كالاطفال ؟ أأكون مرعبا الى هذا الحد ؟

أشرقت على وجه سفيدريكايلوف ابتسامة ليظهر وده وكرمه، لأنه كان في مسيس الحاجة الى الابتسام • بيد أن قلبه كان يقرع بعنف في صدره اللاهث • كان يحاول تغطية اضطرابه المتزايد بتصنع الخشونة في صوته • غير أن دونيا لم تلاحظ ذلك الاضطراب العنيف الذي كـان يعصف بكيانه لأنها شعرت بانزعاج لاتهامه اياها بالخوف كالطفل الصغير وأظهر لها أنه يرعبها بهذا الشكل • فقالت :

ـ على الرغم من أنني أعتبرك رجلا ••• عديم الشرف • فانني لا أخاف منك مطلقا • سر أمامي•

كانت لهجتها هادئة شرسة لكن وجهها كان شديد الشحوب •

توقف سفيدريكايلوف أمام مسكن سونيا :

ـ اسمحي لي أن أتأكد قبل كل شيء ممـا اذا كانت سونيا في مسكنها • كلا ، يا لسوء الحظ ! لكنني أعرف أنها ستحضر بين لحظة وأخرى وانها اذا كانت متغيبة الآن فما ذلك الا لذهابها لمقابلة سيـدة بصدد الايتام الثلاثة • لقد ماتت أمهم منذ حين ، وأخذت الأمر عـلى

عهدتي • فاذا لم تعد صوفي سيميونوفنا خلال عشر دقائق فانني سأرسل من يبحث عنها اذا شئت • ها هو ذا مسكني ، وهاتان هما الغرفتان اللتان أشغلهما • ان صاحبة مسكني تقطن في الجانب الاخر من هذا الباب • والآن أنظري هنا ، سأطلعك على وسائلي الرئيسية : ان غرفة نومي متصلة بغرفتين أخريين خاليتين معدتين للايجار • ها هما ••• ينبغي أن تنظري اليهما الآن بشيء من الانتباه •

كان سفيدريكايلوف يشغل غرفتين مؤثثتين فسيحتين• أجالت دونيا نظرة حولها بشيء من الحذر • فلم تجد شيئا مريبا ، لا في المسكن ولا في اعداد الغرف • لكنها كانت تستطيع أن تلاحظ أن مسكن سفيدريكايلوف كان يقوم بين مسكنين آخرين خاليين تقريبا اذ أن المدخل الى غرفتيه لم يكن يطل مباشرة على الردهة بل كان ينبغي للوصول الى مسكنه أن يتخطى الداخل غرفتين شبه خاليتين تشكلان جزءا من شقة صاحبة المسكن • فتح سفيدريكايلوف باب غرفة كان مغلقا بالمفتاح وأشار الى دونيا يدعوها الى دخول المسكن الخالي المعد للايجار ، فتوقفت على العتبة لا تفهم السبب الذي يدعوها سفيدريكايلوف من أجله الى ولوجها • بادر هذا الى تقديم التفسير :

ـ أنظري الى هذه الغرفة الثانية وتأملي هذا الباب • انه مغلق بالمفتاح • لاحظي أن هناك مقعدا قرب الباب وأنه المقعد الوحيد في هاتين الغرفتين • لقد جئت به بنفسي من مسكني لأصغي بشكل مريح• ان وراء هذا الباب مباشرة تقع منضدة صوفي سيميونوفنا • وقد كانت جالسة بالقرب منها تتحدث الى روديون رومانوفيتش • لقد قضيت هنا أمسيتين متعاقبتين جالسا على هذا المقعد أصغي طيلة ساعتين كاملتين كل ليلة • لقد أتاح لي ذلك الاطلاع على أمر ما • ماذا تعتقدين أنه يكون ؟

ـ لقد استرقت السمع وراء الباب ؟

ـ نعم لقد استرقت السمع وراء الباب والآن عودي الى مسكني• فليس هنا ما نستطيع الجلوس عليه •

قاد أفدونيا رومانوفنا الى الغرفة الأولى التي يستعملها كغرفة استقبال وقدم لها مقعدا ، ثم جلس بدوره الى الجانب الآخر من المنضدة على مسافة من الفتاة • لكن عينيه كانتا تلتمعان بذلك البريق الذي كان يخيف دونيا من قبل • فسرت رعدة في أوصالها ، ونظرت مرة أخرى بحذر حولها • كانت تريد اظهار خوفها وحذرها • غير أن موقع مسكن سفيدريكايلوف المنفرد جعلها مشوشة البال قلقة • ودت لو سألت عما اذا كانت صاحبة المسكن موجودة • لكن اعتدادها وكبرياءها منعاها من القاء ذلك السؤال • كان قلبها فريسة ألم آخر شديد يفوق خوفها على نفسها • وأصبح القلق لا يحتمل فقالت وهي تضع الرسالة على المنضدة :

ـ هذه رسالتك • هل ما جاء فيها صحيح ؟ انك تلمح فيها الى جريمه تعتبر أن أخي ارتكبها • وتلميحاتك واضحة جدا فلا تحاول الآن استدراكها • اعلم أنني سمعت شيئا عن هذه القصة العجيبة قبل أن أطلع على رسالتك ، لكنني لا أصدق كلمة واحدة مما قيل ويقال• ان افتراضا كهذا مضحك وبشع معا • انني أعرف هذه القصة والطريقة التي حيكت بها • انه يستحيل عليك أن تقدم أي دليل على صحتها• لكنك وعدت باثبات قولك بالدليل • فتكلم اذن ! لكن اعلم أولا بأنني لا أصدقك ! كلا انني لا أصدقك •

نطقت دونيا بتلك الكلمات بحماسه وطلاقة فاصطبغ وجهها باللون الأحمر :

ـ ان الشجاعة لا تنقصك، ما في ذلك ريب• وقد كنت أعتقد أنك

ستطلبين الى السيد رازوميخين أن يصطحبك الى هنا ، لكنه لم يظهر لا معك ولا في الأمكنة القريبة من هنا . لقد عنيت بالتأكد من ذلك بنفسي . وهذا دليل على تعقلك لأنك أردت التستر على روديون رومانوفيتش . ثم ان الامر بالنسبة اليك يختلف عنه لدى أي شخص آخر . أما ما يتعلق بأخيك فماذا أقول لك ؟ لقد شاهدته منذ لحظات . انه جميل ، أليس كذلك ؟

ــ انك لا تبني أقوالك على هذا فقط ؟

ــ كلا انني لا أبنيها على هذا ، بل على أقواله الشخصية . لقد جاء ليلتين متعاقبتين الى مسكن صوفي سيميونوفنا ، وقد بينت لك المكان الذي يجلسان فيه . لقد اعترف لها اعترافا كاملا . انه قاتل ، لقد قتل المرابية العجوز التي كان قد رهن بعض أشيائه عندها ، وقتل كذلك أختها المدعوة اليزابيت والتي كان من تعاستها أن دخلت عندما كان قد فرغ من قتل الأولى . لقد قتلهما ليسرق وقد سرق . لقد أخذ نقودا وحليا ... لقد قص بنفسه هذا القول كلمة فكلمة على صوفي سيميونوفنا . انها وحدها تعرف هذا السر لكنها لم تكن مشتركة في الجريمة لا بالقول ولا بالفعل ، بل انها ذهلت لاعترافه تماما كما أنت ذاهلة الآن . انما لك أن تطمئني ، لأنها لن تشي بأخيك .

تمتمت دونيا ، وقد ابيضت شفتاها واختنق صوتها :

ــ ان ذلك لا يمكن أن يكون ! إن ذلك لا يمكن أن يكون ! لم تكن لديه أية أسباب أو مبررات ... ان هذا خطأ ! ان هذا خطأ !

ــ لقد سرق والمبرر هو السرقة ! لقد أخذ مالا وحليا . صحيح أنه ــ حسب اعترافه ــ لم يستفد لا من هذا ولا من تلك ، بل انه أخفاها تحت حجر حيث لا زالت حتى الآن ، لكن ذلك مبعثه خوفه من استعمال تلك المسروقات .

هتفت دونيا ، وهي تنهض واقفه بانتفاضة عنيفة :

ـ هل يتقبل العقل أن يكون أخي سارقا ؟ بل أن يكون قد فكر في هذا مجرد تفكير ؟ انك تعرفه ، وقد رأيته ، فهل يمكن أن يكـون لصـا ؟

كانت تتوسل الى سفيدريكايلوف بعد أن نسيت خوفها •

ـ ان في العالم يا أفدونيا رومانوفنا ملايين وملايين من الاصطلاحات والانواع • فهناك لص يمارس السرقة لنفسه ولا ينكر أنه لص• وقد سمعت بنفسي عن شخص ذي محتد من أسرة كريمة سلب عربة بريد • من يدري ؟ لعله فكر بعملية أسوأ من ذلك ! لا شك أنني كنت سأتصرف مثل تصرفك لو أن الامر نقل الي من قبل شخص ثالث• لكنني لا يمكنني أن أغالط ما سمعته بأذني • لقد سرد على صوفي سيميونوفنا الاسباب الموجبة كلها • لكن هذه أيضا لم تكن تريد تصديق أذنيها • ولولا أنها شهدته بعينيها لما آمنت بأقواله •

ـ ماذا كانت ••• تلك الاسباب اذن ؟

ـ ان نقل هذه الأسباب يا أفدونيا رومانوفنا سيطول شرحه • كيف أفسر لك الأمر ؟ انه يستلهم نظريته العتيدة التي تتيـح لي مثـلا ارتكاب اثم بديع اذا كان هدفي الرئيسي صالحا وعادلا ! أي أن اثمـا واحدا تبرره مائة حسنة ! ثم أليس مخزيا بالنسبة الى شاب موهوب ذي كرامة لا تضاهى أن يعتقد بأنه لو امتلك ثلاثة آلاف روبل فقط لأمكن تبديل حياته ومستقبله كله ؟ فيرى بعد ذلك أنه لا يمتلك تلك الآلاف الثلاثة من الروبلات ؟ أضيفي الى ذلك الانفعال الذي يحدثه الجـوع وغرفته الخزانة التي يعيش فيها والأسمال التي يرتديها والضمير الحي والمركز الاجتماعي الذي يشغله ثم موقف أمه وأخته ـ وكذلك عـلى ما أظن ـ الغرور والكبرياء مع ـ والله يعلم ـ بعض العواطف الطيبة

الأخرى !... انني لا أتهمه ولا أريد اتهامه . فأرجو ألا تصدقي ما قلت. ثم انني لست في مركز يخولني الاتهام . لقد كان يحتفظ بنظريته فوق كل ذلك ـ تلك النظرية التي تساوي نظرية أخرى مماثلة ـ والتي بموجبها تنقسم الانسانية بين رجال ومواد أولية ، أي بين رجال موهوبين يمتلكون مستوى عقليا عاليا يرفعهم فوق القوانين ويجعلهم يملون شرائعهم وقوانينهم على الآخرين ، على أولئك الذين يشكلون المواد الاولية أو التراب البشري . نعم انها نظرية كأية نظرية أخرى . انه شديد الاعجاب بنابليون حتى أنه استسلم الى اعتبار ينص على أن العباقرة لا يصغون عادة الى حالات التعسف الشخصية ، بل انهم يتجاوزونها دون أن يشعروا بأي ارتباك . فتخيل نفسه ـ كما أعتقد ـ أحد أولئك العباقرة ، أو أنه على الأقل اقتنع بذلك خلال فترة من الزمن . لقد تألم كثيرا أو لا زال يتألم حتى الآن كلما شعر أنه كوّن نظرية دون أن يستطيع تنفيذها والتجاوز عن حالة خاصة بملء ضميره ليثبت لنفسه أنه رجل عبقري ! نعم ، ان ذلك يخجل شابا يعمر الاباء قلبه خصوصا في زمننا هذا ...

ـ لكن أين تبكيت الضمير ؟ انك تنكر عليه كل احساس أخلاقي، فهل كل ما تقوله حقيقة ؟

ـ آه ، يا أفدونيا رومانوفنا ! ان كل شيء قد أصبح اليوم عاليه سافله . أضيفي الى ذلك أنه لم يسر حتى اليوم نظام شديد الكمال. ان الروسيين بصورة خاصة ، يا أفدونيا رومانوفنا ، ذوو عقول كبيرة واسعة كأرضهم ، وهم ميالون الى الفوضى والأهواء العابرة . انه من الخطر كل الخطر أن يكون للمرء عقل كبير دون أن يوهب شيئا من العبقرية . تذكري أحاديثنا القديمة حول هذا الموضوع عندما كنا في الريف جالسين ذات مساء بعد طعام العشاء على الشرفة . لقد كنت ذلك

الحين تعبين علي ذلك الاتساع الفكري ... من يدري ؟ لعلنا حينما كنا تتكلم في هذا الأمر كان « هو » يصمم ويتدبر عمليته التي نحن بصدد التحدث عنها . ان التقاليد المحترمة لا تسمو في مجتمعنا المثقف . ان بعضها يؤخذ من الكتب ... أو أنها تنقل مشوهة عن الأقاويل القديمة . غير أن معظمهم علماء يبلغ من سخفهم وتعنتهم أن الرجل العادي يخجل من مقارنة نفسه بهم . على كل حال انك تعرفين آرائي بصورة عامة . أنا لا أتهم أحداء وانني شخصيا أتحاشى الاندماج في شيء من هذا . لقد تحدثنا فيه أكثر من مرة ، وأعتقد أن نظرياتي لاقت بعض القبول منك. انك شديدة الشحوب، يا أفدونيا رومانوفنا.

ــ انني أعرف النظريات التي يبشر بها . لقد قرأت في احدى المجلات مقالا عن الاشخاص الذين يباح لهم كل شيء . لقد جاءني رازوميخين بتلك المجلة .

ــ السيد رازوميخين؟ هل أتاك بمقال لأخيك ؟ هل مثل هذا المقال موجود ؟ انني كنت أجهل ذلك . لعمري ان هذا غريب . لكن الى أين تذهبين ، يا أفدونيا رومانوفنا ؟

أجابت دونيا بصوت مختنق :

ــ أريد رؤية صوفي سيميونوفنا . أين الطريق الى غرفتها ؟ لعلها رجعت . أود رؤيتها فورا . ينبغي أن تكون ...

لم تستطع أفدونيا رومانوفنا متابعة قولها فقد شعرت بضيق في تنفسها واحتبس صوتها :

ــ أعتقد أن صوفي سيميونوفنا لن تعود قبل حلول الظلام لأنه كان عليها أن تكون هنا منذ زمن طويل لولا أن ...

صرخت دونيا ، وهي فريسة انفعال مجنون وقد فقدت السيطرة على أعصابها :

ـ آه ! هكذا اذن كذبت ! انني أرى الآن أنك كنت تكذب ! لقد كنت كاذبا في كل شيء • لن أصدقك ! كلا ، لن أصدقك !

وسقطت شبه مغمى عليها على المقعد الذي بادر سفيدريكايلوف الى تقديمه اليها :

ـ ما بك ، يا أفدونيا رومانوفنا ؟ تمالكي نفسك ! اليك جرعة من الماء • اشربي•

ونضح على وجهها قليلا من الماء فانتفضت دونيا وعادت الى صوابها •

غمغم سفيدريكايلوف محدثا نفسه، وقد بدا الانزعاج على وجهه:

ـ يا للأثر الذي خلفه ذلك في نفسها ؟!

ثم تابع بصوت مرتفع :

ـ يا أفدونيا رومانوفنا اهدئي ! انك تعرفين أن له أصدقاء ! لسوف ننقذه ونخلصه من محنته ! أتريدين أن أساعده على اجتياز الحدود ؟ إن لدي ما يلزم من المال وأستطيع الحصول على جواز سفر له خلال ثلاثة أيام • أما بشأن ارتكابه جريمة قتل فانه يستطيع في المستقبل أن يعمل كثيرا من الأعمال الصالحة التي تمحو هذه الخطيئة فاطمئني • قد يستطيع أن يصبح رجلا كبيرا • هيا ، ماذا بك ؟ كيف تشعرين بنفسك ؟

ـ أيها الرجل الخبيث ! ويحك، انك تجد وسيلة للتهكم• دعني••

ـ ولكن أين تذهبين ؟•• الى أين تمضين ؟

ـ اليه • أين هو ؟ هل تعرف مكانه ؟ لم هذا الباب مغلق بالمفتاح؟ لقد دخلنا من هنا وها هو الباب مغلق بالمفتاح • متى استطعت اغلاقه ؟

ـ ليس من الضروري أن نهتف على رؤوس الأشهاد معلنين ما نتحدث عنه • انني لا أسخر مطلقا ، وقد كفاني ما تحدثت به حتى

الآن • ولكن آين تمضين هكذا ؟ هل تريدين أن يوقف ؟ لسوف تثيرين حفيظته فيذهب بنفسه ويستسلم • اعلمي أنهم الآن يراقبونه ويتأثرون خطاه ، وأنك بذهابك اليه تعجلين نهايته • انتظري : لقد كنت معه منذ قليل وتحدثت اليه • اصبري واجلسي • سوف نفكر معا فيما ينبغي عمله • لقد دعوتك من أجل هذا ، لكن أتحدث معك في خلوة فنناقش الموضوع مناقشة عميقة • لكن اجلسي !

ـ كيف تستطيع انقاذه ؟ هل يمكن انقاذه ؟

جلست دونيا ، فجاء سفيدريكايلوف وجلس الى جانبها ، وقال بهمس ، وقد اتقدت عيناه ببريق خاطف :

ـ ان الأمر يتوقف عليك • وعليك وحدك •

كان يجد صعوبة كبيرة في ايجاد الكلمات ، بل أن اضطرابه وانفعاله حالا دونه والتلفظ ببعضها •

ذهلت دونيا وتراجعت الى مسافة بعيدا عنه• كان سفيدريكايلوف نفسه يرتعد من قمة رأسه الى أخمص قدميه • تابع :

ـ أنت ••• كلمة منك فيها نجاته ! سوف ••• سوف أنقذه• ان لي أصدقاء وما يكفي من المال • سوف أسعى لترحيله وسأحصل على جوازين أحدهما له والآخر لي • ان لدي أصدقاء شديدي الاخلاص لي • هل تريدين ؟ ما يهمك رازوميخين ؟ ان حبي لك ليس أدنى من حبه ••• انني أحبك بكل عواطفي • دعيني أقبل طرف ثوبك • دعيني، دعيني أعمل ذلك ! انني لا أستطيع الاصغاء الى حفيفه ثوبك • مريني أن اعمل شيئا بعينه وسأعمله • المستحيل ، سأعمل • سأؤمن بما تؤمنين به وسأعمل كل شيء ••• كل شيء ! لا تنظري الي هكذا ، لا تنظري الي هكذا • انك تعرفين بأنك تقتلينني !

راح يهذي وقد وقع فريسة شيء ما • وبدا كأنه فقد صوابه •

فقفزت دونيا الى الباب وصاحت خلال ثقب القفل وكأنها تدعو أحدا لنجدتها • بينما راحت يداها تهزان الباب بعنف •

ــ افتحوا ! افتحوا ! هيا افتحوا ! ألا يوجد أحد في البيت ؟

تمالك سفيدريكايلوف نفسه ، فتناهض وقد بدت على وجهه ابتسامة خبيثة مستهزئة ، ومر بلسانه على شفتيه المرتجفتين ، ثم قال ببطء وبصوت متهدج :

ــ لا يوجد أحد في البيت • ان صاحبة المسكن قد خرجت وانك لتضيعين وقتك بالصياح • انك تسببين لنفسك اضطرابا لا فائدة منه •

ــ أين المفتاح ؟ افتح الباب فورا • افتحه على الفور ، أيها المخلوق النذل !

ــ لقد أضعت المفتاح ولا أستطيع ايجاده •

صاحت دونيا ، وقد شحب وجهها حتى حاكى وجوه الأموات :

ــ آه ، انه اغتصاب ! •••

واندفعت الى أحد الأركان حيث احتمت وراء نضد صغير كان قريبا منها • لم تعد تصيح • لكنها كانت تصعق جلادها بنظراتها وهي متيقظة لكل حركة من حركاته • غير أن سفيدريكايلوف لم يتحرك من مكانه بل لبث واقفا قبالتها في الجانب الآخر من الحجرة • استطاع ــ ظاهريا على الأقل ــ أن يضبط أعصابه رغم أن وجهه ظل شاحبا والابتسامة الساخرة لم تفارق شفتيه •

ــ لقد تحدثت عن الاغتصاب ، يا أفدونيا رومانوفنا • انها لو كانت خدعة لأمكنك التفكير بأنني اتخذت كل احتياطاتي : فصوفي سيميونوفنا غير موجودة في غرفتها ويفصلنا عن آل كابيرناووموف خمس غرف مغلقة بالمفاتيح • ثم انني أقوى منك مرتين على الاقل • والى جانب ذلك فانني لا أخشى شيئا آخر • لن تستطيعي شكايتي الى

المسؤولين لأنك لا تريدين خيانة أخيك ، أليس كذلك ؟ ثم ان أحداً لن يصدقك ! اذ كيف يجوز أن تدخل فتاة بمفردها مسكن رجل ؟ على هذا فانك ستفقدين أخاك دون أن تستطيعي التدليل علي بشيء رغم ذلك . انه من الصعوبة بمكان أن تثبتي وقوع الاغتصاب ، يا أفدونيا رومانوفنا .

غمغمت دونيا بغيظ وحنق :

ـ سافل !

ـ اذا شئت . لكن لاحظي أن كل ما قلته لم يكن الا مجرد عرض . انني موافق شخصيا على أنك على صواب تماما ! ان الاغتصاب شناعة وفاحشة قبيحة . لقد تحدثت معك فقط لأفهمك بأن ضميرك لن يشعر مطلقا بأي تبكيت اذا ... حتى ولو وافقت بملء رضاك على انقاذ أخيك كما عرضت عليك فانك تكونين بذلك قد استسلمت للظروف أو للقوة اذا جاز لنا أن ننطق بهذه الكلمة . فكري أن مصير أخيك وأمك بين يديك . سأكون عبدك ... طيلة عمري ... انني أنتظرك هنا ؟

جلس سفيدريكايلوف على الأريكة على بعد ثماني خطوات من دونيا . وما كانت هذه لتشعر بأي شك في تصميمه على ما قال ، خصوصا وأنها ما كانت تجهل عقليته .

وفجأة أخرجت من جيبها مسدسا صلته وأراحت يدها على النضد دون أن تترك المسدس . فنهض سفيدريكايلوف فجأة وهتف بدهشة وهو يتهكم بخبث :

ـ آه ! آه ! هكذا اذن ؟ ان هذا يبدل الموقف من أقصاه ! لقد سحبت من قدمي يا أفدونيا رومانوفنا شوكة مؤلمة كما يقال . لكن من أين لك هذا المسدس ؟ هل جاءك من السيد رازوميخين ؟ هه ، لكنه

مسدسي ! انني واياه صديقان قديمان ! ويحي كم فتشت عليه في حينه! ان دروس الرماية التي كان لي شرف تلقينك اياها في الريف لم تذهب – كما يبدو – هباء .

– انه ليس مسدسك ، بل مسدس مارث بيتروفنا التي قتلتها أيها الاثيم ! انك لم تكن تملك شيئا في بيتها . لقد أخذته عندما ارتبت في نواياك . وفيما تستطيع عمله . أقسم لك أنك اذا خطوت خطوة واحدة قتلتك !

كانت دونيا في أوج غضبها وانفعالها . وكانت تمسك المسدس معدا للاطلاق .

سأل سفيدريكايلوف ، وهو واقف في مكانه لا يبرحه :

– وأخوك ؟ انني ألقي عليك هذا السؤال لمجرد الفضول .

– فلتش به اذا شئت ! لا تتحرك ! لا تقترب! سأطلق! لقد سممت زوجتك وأنا أعرف ذلك . انك أنت أيضا قاتل ...

– هل أنت واثقة من أنني دسست السم لمارث بيتروفنا ؟

– انه أنت !.. لقد ألمحت بذلك مرة أمامي . لقد حدثتني عن نوع من السم .. انني أعرف أنك ذهبت تستحضره ... ان كل شيء كان معدا ... انه أنت ... لا يمكن أن يكون أحد غيرك ، أيها الحقير !

– لنفرض أن هذه هي الحقيقة ، فانني أكون قد عملت ما عملت من أجلك .. انك تكونين السبب .

– كاذب . لقد كنت أمقتك دائما .

– اه ، اه ، يا أفدونيا رومانوفنا ! أرى أنك نسيت كيف كنت تنحنين علي وأنت في شبه اغماء تحت وطأة تبشيرك بالفضيلة ... انني كنت أقرأ في عينيك : تذكري ذات مساء تحت ضوء القمر . لقد كان هناك بلبل يغرد .

ومضت حدقتا دونيا بلهيب الغضب وصاحت :

ـ كاذب ! انك تكذب ، أيها المفتري الأثيم !

ـ أنا أكذب ؟ حسنا انني أكذب • لقد كذبت • لنكن •

وضحك ضحكة تقلص لها وجهه ، وأردف :

ـ لا يليق بي تذكير النساء بمثل هذه الامور • انني أعرف أنك ستطلقين النار ، أيها الحيوان الصغير الجميل • حسنا لعمري اطلقي !

صوبت دونيا مسدسها وهي شاحبة كالموتى مرتعدة الشفة بيضاؤها ، ونظرت اليه بعينين سوداوين يشع منهما اللهيب ، تفيضان بالعزم والتصميم ، وسددت الفوهة نحوه وانتظرت أن يخطو خطوة واحدة • لم يرها سفيدريكايلوف أجمل مما كانت عليه أبدا • كان الوميض الذي ينبعث من عيني الفتاة وهي تصوب المسدس اليه يزيد في تأجج عواطفه حتى أنه شعر بقلبه يصهره الألم • تقدم خطوة ودوى الانفجار ! مست الرصاصة شعره واصطدمت بالجدار فتوقف وابتسم بوداعة :

ـ لقد لسعتني النحلة ! انها تصوب مباشرة الى الرأس • ما هذا؟ دم ؟

أخرج منديله من جيبه ليمسح الخيط الرفيع من الدم الذي راح يسيل على صدغه الأيمن ، اذ يبدو أن الرصاصة خدشت رأسه •

خفضت دونيا المسدس ونظرت الى سفيدريكايلوف بذهول مريع لا يخلو من الخوف ، بدت كأنها لم تفقه شيئا مما عملت منذ حين • بينما تابع سفيدريكايلوف بهدوء دون أن تفارقه الابتسامة وقد انطبع وجهه بمسحة من الحزن العميق :

ـ حسنا لقد أخطأتني • أطلقي مرة أخرى • انني أنتظر والا فانني سأجد من الوقت متسعا للقبض عليك قبل أن تستطيعي • صلي الزناد من جديد •

أرتعدت دونيا وأعدت مسدسها بسرعة وسددته مرة أخرى وقالت بيأس :

ـ دعني والا فأقسم لك أنني سأطلق عليك مرة أخرى ••• سوف ••• أقتلك •

ـ ثم ماذا بعد ؟ انني على قيد ثلاث خطوات منك • ويستحيل عليك أن تخطئي • لكنك اذا لم تفعلي ••• عندئذ •••

كانت عيناه تومضان ، فاقترب منها خطوتين ، وضغطت دونيا على الزناد ، لكن الرصاصة لم تنطلق •

ـ لم تحسني صلية • لا بأس ! لا زال لديك خرطوشة • أعديها • سوف أنتظر •

كان سفيدريكايلوف واقفا على قيد خطوتين منها منتظرا وهي تنظر اليه • كان في عينيه تصميم وحشي مفعم ببريق شهواني مقيت • أدركت دونيا أنه يفضل الموت على تركها ••• و ••• ولا شك أنها ستقتله الآن وهو على بعد خطوتين فقط •

وفجأة ألقت بالمسدس من يدها •

هتف سفيدريكايلوف وهو يزفر زفرة عميقة وكأن قلبه قد تحرر من ثقل ساحق :

ـ لقد ألقته !

لم يكن قلقا بسبب الموت المرتقب اذ أنه كان من المشكوك فيه أن يكون شاعرا بمثل هذا الاحساس في تلك اللحظة لقد كان مستغرقا في شعور قاتم متطير كان يحار في تفسيره ومعرفة بواعثه . اقترب من دونيا وطوقها بذراعه برقة فلم تقاوم بل نظرت اليه مرتعدة كالورقة الجافة في مهب الريح العاتية • كان في نظراتها ضراعة وتوسل • كانت تريد أن تقول شيئا لكن شفتيها ما كانتا لتسعفانها بالنطق • استطاعت بعد لأي أن تبتهل اليه قائلة :

ـ دعني •

قالتها بلغة المخاطب المفرد خلافا لأسلوبها في الحديث ، فشعر سفيدريكايلوف برعشة اتنفض لها جسمه وأحس أن لهجتها في تلك اللحظة كانت مختلفة تماما عما سبقها من قبل •

سألها بلطف :

ـ على ذلك فلن تحبيني •

هزت دونيا برأسها نفيا •

كرر القول بهمس ويأس :

ـ ولا ••• يمكنك أن تحبيني ؟ أبدا ؟

غمغمت دونيا :

ـ أبدا •

عصفت معركة صامتة رهيبة في نفس سفيدريكايلوف خلال لحظة خاطفة • تأملها بنظرة يستحيل وصفها ثم رفع ذراعه من حولها فجأة واستدار يوليها ظهره ، واتجه نحو النافذة حيث لبث واقفا • وانقضت لحظات •

ـ اليك المفتاح • خذيه واذهبي بسرعة !

كان قد أخرج المفتاح من جيبه الأيسر ووضعه وراءه على المنضدة دون أن ينظر الى دونيا •

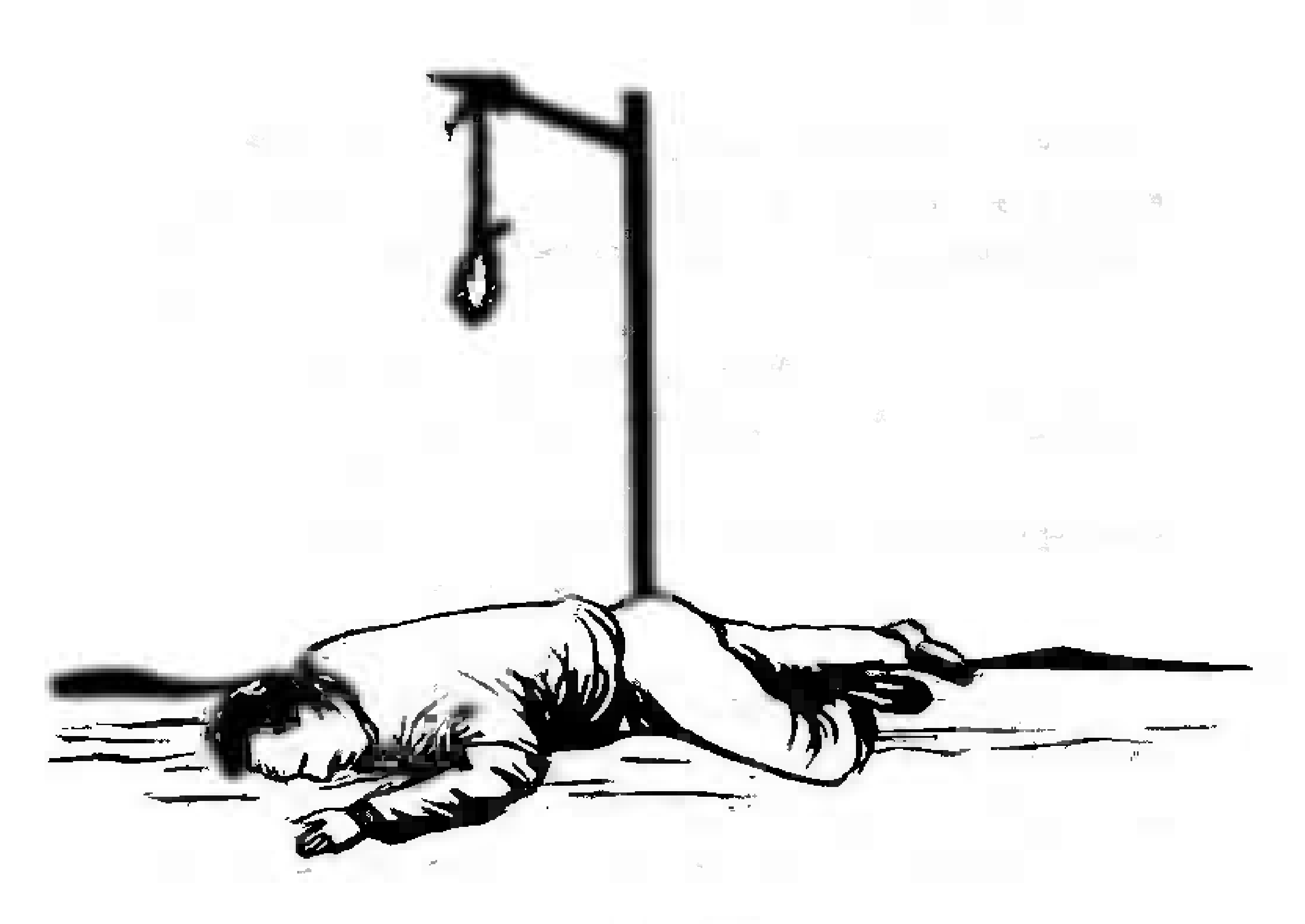
اقتربت دونيا من المنضدة لتأخذ المفتاح فهتف سفيدريكايلوف دون أن يلتفت أو يقوم بحركة :

ـ أسرعي ، عجلي !

كان في هذه الكلمة ، كلمة « أسرعي » ، تهديد غريب •

فهمت دونيا كل شيء فأخذت المفتاح واندفعت نحو الباب تفتحه وهرعت خارجة من الغرفة • ولم تمض دقيقة حتى كانت تجري على طول القنال باتجاه جسر « ايكس » وهي كالمخبولة المسعورة •

لبث سفيدريكايلوف ثلاث دقائق قرب النافذة ثم استدار ببطء ونظر حوله • رفع يده بحركة بطيئة الى جنبيه فقلصت قسمات وجهه بابتسامة غريبة ، ابتسامة باهتة حزينة ، ابتسامة يائسة • كان الدم قد تجمد على يده فنظر الى ذلك الدم بشيء من الغضب ثم غمس قطعةمن القماش في الماء وغسل صدغه • وقع بصره على المسدس الذي ألقتــه دونيا والذي كان قد تدحرج حتى بلغ قرب الباب • كان مسدسا قديما ذا ثلاث طلقات يمكن وضعه في الجيب وكان فيه طلقتان و «كبسولة» واحدة يمكن استخدامها • فكر برهة ثم دس المسدس في جيبه، وحمل قبعته وخرج •



٦

طاف ذلك المساء بالبؤر والمواخير واحدة واحدة حتى تجاوزت الساعة العاشره وعثر على كاتبا في واحده منها ، ففتنته احدى أغنياتها المبتذلة التي تتحدث عن « رجل جائر بشع » :

الذي راح يعانق كاتيا ...

قدم سفيدريكايلوف الشراب اليها والى عازف الارغن الذي يرافقها ، وكذلك الى المغنين الآخرين والخدم واثنين أو ثلاثة من الكتبة العموميين ، واستغرق معهم في الحديث . كان أنف أحد هؤلاء الكتبة منحنيا الى اليمين وأنف الآخر ملتويا الى اليسار مما أثار انتباهه ، فرافقهم بعد ذلك الى حديقه سمر حيث دفع عنهم أجرة دخولهم ! كانت تلك الحديقة تنتزع اسمها من شجرة صنوبر واحدة مغروسة فيها، والى جانبها ثلاث مجموعات من الشجيرات الصغيرة هي كل ما أوجبت اطلاق هذا الاسم على ذلك المكان ! وكان وراءها بناء أطلق عليه — تجنبا — اسم فوكسهول (حديقة عامة تقام فيها حفلات موسيقية راقصة) رغم أنه كان مجرد مشرب حقير يستطيع المرء أن ينعم بقدح من الشاي وأن يجلس الى واحدة من موائده المطلية بالاخضر وهو الطلاء الذي كان يكسو كذلك خشب المقاعد . كان هناك فرقة من المغنين تفوق رداءة أصواتهم حد الوسط ، وألماني من مونيخ ، ثمل أحمر الانف ، كان يقوم بدور المشعوذ رغم سيماه الكئيب . وكانت مهمة هؤلاء الترفيه عن الزبائن !

اشتبك الكاتبان العموميان في شجار مع عدد من زملائهما كاد

أن يبلغ مرتبة استعمال الأيدي ، وانتدب سفيدريكايلوف للقيام بدور الحكم بينهم • وقد مضى على صدور حكمه أكثر من ربع ساعة دون أن يكف الفريقان عن الصياح والمهاترة والصخب ، الأمر الذي جعل سفيدريكايلوف عاجزا عن فهم أي شيء من الحديث • لكنه خمن ــ حسب كل الظواهر ــ أن أحدهم كان قد سرق شيئا ما ونجح بعد ذلك في بيعه الى أحد اليهود ، لكنه رغم ذلك كان يرفض اقتسام الثمن مع الباقين • وظهر أخيرا أن ذلك الشيء كان ملعقة شاي سرقت من ذلك « الفوكسهول » ، فافتضح الامر واكتشفت السرقة وبدأت القضية تتأزم وتقترب من النهاية المزعجة • وأخيرا اضطر سفيدريكايلوف الى دفع ثمن الملعقة وغادر حديقة السمر !

كانت الساعة حوالي العاشرة ، وسفيدريكايلوف لم يشرب شيئا رغم ذلك التجوال بل انه اضطر ــ مراعاة للشكل فقط ــ أن يأمر لنفسه بقدح من الشاي لم يقربه ! كان الجو خانقا والسماء سوداء من الغيوم ، كانت السحب الكثيفة قد بدأت تجتمع في سماء بطرسبورغ آتية من جميع الآفاق المحيطة بها • وفجأة هبت العاصفة الصيفية وهطلت الامطار غزيرة وكأنها تنصب من أفواه القرب • لم تكن حبات المطر التي تساقطت في تلك الساعة من السماء ، بل كانت سواقي حقيقية من المياه تنهال بعنف على سطح الارض • وراح البرق يتعاقب فيضيء السماء والارض وما بينهما حتى كان المرء يستطيع أن يعد الى خمسة قبل أن يخبو الوميض الخاطف •

بلغ سفيدريكايلوف مسكنه بعد جهد عنيف وقد ابتلت عظامه تحت الثياب • ففتح درج مكتبه وأخرج كل ما يملكه من أسهم الانتفاع ، ومزق ورقتين أو ثلاث أوراق ثم أودع أمواله في جيبه • أراد بادىء الأمر أن يبدل ثيابه لكنه بعد أن نظر من النافذة وأصغى الى أصوات

العاصفة في الخارج ، لوح بيده بلا مبالاة وعاد فأخذ قبعته وخرج دون أن يغلق الباب • قصد مباشرة مسكن سونيا فوجدها في غرفتها •

لم تكن سونيا وحيدة في غرفتها حينما دخل سفيدريكايلوف ، بل كان يجلس حولها أربعة من صغار أطفال آل كابيرناووموف ، كانت تسقيهم الشاي • فاستقبلته هذه بنظرة احترام وخضوع ونظرت بدهشة الى ثيابه المبتلة دون أن تتفوه بكلمة • بينما فر الاطفال الاربعة من الحجره يمتلكهم رعب لا يوصف !

قال سفيدريكايلوف :

ـ يا صوفي سميونوفنا ، قد أسافر الى أمريكا قريبا ولعل هذا اللقاء هو الاخير من نوعه بيننا اذا آمنا بكل الظواهر البادية في الوقت الحاضر • لذلك فقد جئت أسوي بعض الأمور • أخبريني ، هل ذهبت لرؤية تلك السيدة ؟

بدرت عن سونيا محاولة للكلام ، واحمر وجهها ، فقاطعها مسترسلا :

ـ انني أعرف كل ما قالته لك فلا حاجة بك الى تكراره • ان هؤلاء الناس يمتازون بلباقة مهنية خاصة ! ان أخواتك وأخاك الصغار سيكونون في مأمن من العاديات ، وقد دفعت المبلغ الذي خصصته لهم بنفسي وحصلت على ايصالات أودعتها الجهات المسؤولة ، وها انني أقدم لك الآن « اشعارات الاستلام » لتحتفظي بها خشية حدوث أي طارىء • هذا فيما يتعلق بالاطفال • أما أنت ، فاليك ثلاثة سندات انتفاع تدر عليك سنويا خمسة بالمائة من قيمتها الاساسية • أطلب اليك أن يظل هذا سرا بيننا لأنني لا أريد أن يعرف الأمر أحد • سوف تساعدك هذه السندات في مستقبل الأيام ، يا صوفي سيميونوفنا ، لأنك لم تستطيعي متابعة العيش كما كنت في الماضي ، خصوصا وأن الأعباء

التي أبهظتك بالامس لم يعد لها وجود اليوم .

تمتمت سونيا :

ـ لقد غمرتني حتى الآن بعطفك ومساعداتك ... وكذلك الايتام و ... والمتوفاة رغم أنني حتى الان لم أشكرك على حسن صنيعك .. فلا تظهر أن ..

ـ هيا ، هيا ، هذا يكفي ، هذا يكفي !

ـ أما هذا المال يا أركاد ايفانوفيتش فانني شديدة الامتنان لك، ولكنني لست في حاجة اليه في الوقت الحاضر . سوف أستطيع اكتساب قوتي بنفسي بعد اليوم ، فأرجو أن لا تتهمني بالجحود . وبما أنك تواق الى فعل الخير كما لمست حتى الآن فان هذا المال ...

ـ انه لك يا صوفي سيميونوفنا ، فأرجوك أن تقبليه ولا حاجة الى الشكر المطول لأنني في عجلة من أمري . ان هذا المال سينفعك ، لأن أمام روديون رومانوفيتش طريقتين لا ثالث لهما : اما أن ينتحر ، واما أن يمضي الى سيبيريا .

فنظرت اليه سونيا مروعة وقد اجتاحت جسمها رعدة عنيفة !

ـ لا تقلقي . انني أعرف كل شيء . انه حدثني بنفسه بكل شيء لكنني لست ثرثارا . لن أتحدث بما أعرف الى أي كان . لقد نصحته أنت آخر مرة بالذهاب الى قسم البوليس والاعتراف بفعلته ، وانها لنصيحة ثمينة نافعة . حسنا ، لسوف تصحبينه الى سيبيريا متى حان الوقت، أليس كذلك ؟ اذن ، طالما الأمر كذلك فستكون حاجتك الى النقود ماسة . سوف تحتاجين اليها من أجله ، فهل تفهمينني ؟ انني اذ أعطيك هذا المبلغ فكأنني أقدمه اليه . ثم انك وعدت أميلي ايفانوفنا بتسديد دينها . لقد سمعت هذا الوعد . ألا تدركين أن كاترين ايفانوفنا هي المدينة لتلك الالمانية وليس أنت ؟ لذلك فانك كنت تستطيعين ارسال

تلك الالمانية الى الشيطان ! ما هكذا يتصرف المرء في هذه الحياة ؟.. هيا ، اذا سألك بعضهم ، ولنقل غدا أو بعد غد ، عني فلا تتحدثي عن زيارتي هذه ولا تلمحي بأية كلمة الى المال الذي أقدمه لك الان ، الى اللقاء !.

نهض واقفا ، وأردف قبل أن يخرج :

ـ تحياتي الى روديون رومانوفيتش . وعلى فكرة ، سلمي هذه السندات التي أعطيتها لك الى السيد رازوميخين بانتظار حاجتك اليها. هل تعرفين السيد رازوميخين ؟ لا شك أنك تعرفينه ، انه شاب باسل ! احمليها اليه غدا أو ... عندما تجدين الوقت المناسب . ولكن احتفظي بها بانتظار ذلك الوقت في مكان أمين .

كانت سونيا قد نهضت كذلك بدورها وراحت تنظر اليه بهلع. كانت تريد التحدث بشيء ما ، القاء سؤال ما ، لكنها لم تجرؤ على شيء من ذلك . أرتج عليها فلم تنطق الا بكلمات لا تعبر عما في نفسها . قالت :

ـ انك اذن .. انك اذن ستذهب رغم هذا المطر المدرار ! ؟

ـ باه ! عندما ينوي المرء السفر الى أمريكا لا يجب أن يبالي بالمطر ! الى اللقاء ، يا صوفي سيميونوفنا . عيشي وعيشي طويلا، لسوف تكونين نافعة للآخرين. على فكرة ... قولي لرازوميخين بأنني أهنئه . قولي له : ان أركاد ايفانوفيتش سفيدريكايلوف يقدم اليك تهانيه . لا تنسي ذلك.

وخرج تاركا سونيا مذهولة مذعورة وقد غمرها شعور معين كان يثقل فؤادها ويؤلمه .

لم يكتفِ سفيدريكايلوف بهذه الخطوة اذ أنه توجه بعدها ـ وكانت الساعة قد تجاوزت الحاديه عشرة ـ الى منزل مخطوبته فقام

هناك بزيارة غريبة لم يكن أحد يتوقعها ••• دخل البنك الذي يقطنه أبو خطيبته في فاسيلي أوستروف ، وكانت ثيابه شديدة الابتلال بسبب المطر الذي لم ينقطع حتى تلك اللحظة • كانت القطرات تتساقط من أطراف ثوبه ••• قرع الباب قرعا متواصلا حتى فتح له • فأحدث دخوله المسكن هرجا كبيرا • غير أن أركاد ايفانوفيتش كان يمتاز بأساليب مغرية جذابة يستطيع استعمالها متى شاء ليسقط عنه كل الريب والشكوك • وكذلك فان ذوي الفتاة ، الذين كانوا يفقدون اتزانهم أبدا ، ما كادوا يكونون فكرة ما حول مجيئه المفاجيء ومظهره ، حتى انهارت تلك الفكرة من تلقاء نفسها بعد الجمل الأولى من حديث سفيدريكايلوف • خمنوا أن أركاد ايفانوفيتش كان ثملا لذلك فانه ما كان يعقل ما يعمل • وكان هذا التخمين على جانب من الحقيقة رغم اختلاف الاسباب •••

هرعت أم المخطوبة الشفوق المتعقلة فقدمت اليه مقعد زوجها الخرف السقيم •

كانت تلك المرأة العاقلة لا تطرح أبدا أسئلة مباشرة • فكانت — مثلا — اذا أرادت أن تعرف الموعد الذي يروق لأركاد ايفانوفيتش تحديده لزفافه ، ابتسمت أولا وفركت يديها ، ثم سألته بفضول ولهفة عن باريس والمجتمع الراقي فيها لتعود به تدريجيا الى الشارع الثالث على فاسيلي أوستروف ! وكان سفيدريكايلوف يصغي اليها من قبل بصبر وسكون بل وفي شيء من الطاعة • أما تلك المرة ، فانه بدا نافد الصبر متعجلا فطلب — ليقطع السبيل على المتحدثة — رؤية مخطوبته على الفور رغم أنهم أبلغوه منذ بدء الحديث أنها قائمة • ولا شك — طبعا — أن الفتاة جاءت لمقابلته بناء على طلبه الملحاح ! فانبأها دون لف ولا دوران بأنه عازم — بسبب ظروف استثنائية — على مغادرة بطرسبورغ خلال فترة من الزمن • لذلك فقد جاء يقدم لها ألفا وخمسمائة روبل أوراقا نقدية راجيا أن تتقبلها كهدية منه لأنه كان يود

تقديم مثل ذلك المبلغ النافه هدية لها قبل الزواج • وعلى الرغم من انعدام الارتباط المنطقي بين ذلك التفسير والمبلغ المقدم الذي سيعقبه رحيل مفاجيء ، خصوصا وأن ذلك ما كان يبرر تلك الزيارة المتأخرة تحت ذلك المطر المدرار ، فان الأم والفتاة لم ترفعا اعتراضا واحداء بل ان الاسئلة العادية وأمارات التعجب التي لا غنى عنها في مثل ذلك المقام لم تنطبع بطابع التحفظ والتعقل • لذلك فان « أكثر الامهات تعقلا » انقلبت فجأة الى لسان ينطق بالشكر العميق الحار الذي تبلله الدموع والعبرات • وأخيرا ، نهض أركاد ايفانوفيتش مبتسما وعانق مخطوبته وربت على خدها بلطف مؤكدا أن غيابه لن يطول ! ولما شاهد في عينيها فضولا ولهفة تجمع بين الجد والصبيانية ، فضولا يتجسد في سؤال صامت ، فكر قليلا ثم عاد فعانقها من جديد وهو يشعر بأسف بالغ على تقديمه تلك الهدية التي ستجعل أكثر الأمهات تعقلا حبيسة في صندوقها المغلق بالمفتاح •

خرج من المسكن تاركا وراءه حالة من الاضطراب العنيف • وتمكنت الأم الرؤوم من الوصول الى جواب على عدد كبير من الاسئلة وهي تعالج الأمر بهمس في غرفتها الحقيرة • فدرت أن سفدريكايلوف رجل هام ، رجل ذو أعمال جمة ، كثير المشاغل والعلاقات ، ثري مترف، وأن الله وحده يعلم ما طرأ في ذهنه حتى عزم على الرحيل وأعطى هذا المبلغ الى ابنتها قبل مغادرته العاصمة • فالأمر اذن لا يدعو الى الدهشة• صحيح أن من الغرابة أن يكون المرء مغرق الثياب بماء المطر • لكن أية غرابة في الموضوع اذا كان قد نهج به على الطريقة الانجليزيه ؟ ثم ان رجال الوسط الراقي لا يبالون بأقاويل الناس وهم معتادون على التحرر من الارتباك ، فلعله تعمد المضي هكذا تحت المطر ليبرهن على أنه لا يخشى أحدا : لكن ينبغي الحذر وعدم الافصاح بكلمه واحدة عن هذا الأمر الى أي كان ، لأن الله وحده يعلم عندئذ الى أين سيقودهم افشاء

هذا السر • وليسوف توضع الاموال في مخبأ أمين • ولا شك أن فوديسيا حسنة الحظ ، اذا كانت ستبقى في مطبخها لا تغادره ! ولكن للمرة الأخيرة ينبغي السكوت وعدم التحدث بشيء الى ريسليش أو الى أي آخر ••• الخ الخ ••• لبثت الأم وابنتها تتحدثان هكذا بهمس حتى بلغت الساعة الثانية رغم أن المخطوبه ، وان كانت تتصنع الاصغاء الى أمها ، الا أنها كانت مستغرقة في نوم عميق قبل ذلك بوقت طويل ، وهي فريسة الدهشة والحزن •

عندما قرعت الساعة الثانية عشرة كان سفيدريكايلوف يجتاز جسر « ايكس ••• » قاصدا بطرسبورغ القديمة • كان المطر قد انقطع عن التهطال ، غير أن الريح كانت تعصف بشده • كان يرتجف من البرد وقد أمضى دقيقة كامله وهو يسأل نفسه وعيناه تنظران الى مياه «النيفا» الصغير السوداء • قرر أخيرا أن الوقوف هنا فوق الماء يبعث البرد الشديد في أوصاله فاستدار على أعقابه وعاد الى شارع «ايكس ••» • سار طويلا في ذلك الشارع الذي لا ينتهي وأمضى قرابة نصف ساعة في سيره وتعثر أكثر من مرة في الظلام الحالك على الرصيف الخشبي • كان مصمما على البحث عن شيء يعتقد أنه كائن في مكان ما الى يمين الشارع ، اذ كان قد لاحظ خلال آخر مرة مر بها من هنا فندقا مشيدا من الخشب متسع الأرجاء كان اسمه ــ اذا لم تخنه ذاكرته ــ فندق آندرينوبل • وصدقت ظنونه وتخميناته ، اذ أن ذلك الفندق كان يشكل نقطة بارزة في بيداء ذلك الشارع المقفر الضائع ، وكان يسهل الاهتداء اليه رغم الظلام •

كان ذلك الفندق بناء من الخشب اسوّد لونه بمرور الزمن وكان النور ــ رغم تلك الساعة المتأخرة ــ يسطع فيه ، بل كان الضجيج ينبعث منه عاليا مسموعا • دخل وطلب غرفة من أجير زري الهيئة ، قابله في

الممشى ، فألقى هذا نظرة على سفيدريكايلوف • ثم انحنى له ، وقاده الى غرفة صغيرة نائية ضيقة ، يعوزها الهواء ، واقعة في آخر الممشى ، في زاوية تحت السلم ، ادعى أنها الغرفة الوحيدة الخالية • ووقف الخادم القذر وعلى وجهه امارات الاستفهام •

سأل سفيدريكايلوف :

ـ هل أجد لديكم شايا ؟

ـ نستطيع أن نهيئه لك •

ـ وماذا لديكم كذلك ؟

ـ لحم بقر مشوي ، وعرق ، ومقبلات •

ـ ائتني بلحم عجل وبقدح من الشاي •

سأل الخادم في شيء من التردد :

ـ ألست بحاجة الى شيء آخر ؟

ـ لا شيء ؟ لا شيء !

فابتعد الخادم وقد تبددت أحلامه •

حدث سفيدريكايلوف نفسه : « ينبغي أن يكون هذا الموضع نظيفا ! كيف شككت في الأمر ؟ يبدو أن مظهري يدل على أنني عائد للتو من احدى صالات الغناء أو انني استهدفت لمغامرة ما في الطريق• مع ذلك فانني تواق الى معرفة نوع من الناس الذين يوقفون هنا لقضاء ليلهم » •

أضاء سفيدريكايلوف الشمعة وراح يتفحص الغرفة بامعان • كانت قفصا صغيرا جداء يتعذر على الرجل اذا كان يماثل سفيدريكايلوف قامة أن يقف فيها دون أن يلامس رأسه السقف • كانت لها نافذة واحدة وفيها سرير شديد القذارة ومنضدة من الخشب مغطاة بطبقة رقيقة من الدهان ، ومقعد كان يحتل تماما الفراغ القائم بين السرير والمنضدة كله•

كانت الجدران تبدو كأنها صنعت من ألواح الخشب المسمرة بعضها فوق بعض ، لصقت فوقها أوراق زينة بالية ممزقة ، يعلوها الغبار وتملؤها الثقوب ، حتى أن المرء لا يكاد يميزرسما واحدا على سطحها الأصغر • وكان قسم من الجدار والسقف مقطوعا بانحراف شأن كل الغرف التي تقع أسفل السلالم ، لكنها تمتاز عنها بأن السلم فيها كان منحرفا يشغل مساحة كبيرة من فراغها •

وضع سفيدريكايلوف الشمعة على المنضدة وجلس على السرير يفكر • لكن ضجة غريبة وأصواتا صاخبة ما انفكت تصك مسامعه • كانت تلك الأصوات ترتفع تارة حتى تبلغ مرتبة الصراخ ، وكانت تنبعث من الغرفة الملاصقة مما أثار فضوله ، لأن تلك الاصوات لم تخفت فترة واحدة منذ دخوله الغرفة • أصاخ السمع ، فتناهى اليه صوت أحدهم يشتم ويقرع آخر بصوت أقرب الى البكاء • لكن الآخر ما كان يرد عليه • نهض سفيدريكايلوف واقفا وأحاط زبالة الشمعة بيده ، فتبين اشعاعا من الضوء ينبعث من شق في الجدار : اقترب منه وراح ينظر خلاله • رأى غرفة أكثر اتساعا من غرفته ، فيها شخصان كان أحدهما أشعث الشعر غزيره ، هضيم الوجه ، مرتديا قميصا حسر أكمامه عن ساعديه ، ووقف وقفة الخطباء وقد باعد بين ساقيه ليحافظ على توازنه • كان يضرب صدره ويعنف زميله بلهجة مؤثرة ، متهما اياه بأنه سافل عديم القيمة والكرامة الاجتماعية وأنه انتشله من الاوحال ويستطيع وحده اعادته اليها اذا شاء القادر العلي • أما الآخر الذي كان يحتمل هذا الكلام صامتا ، فقد كان جالسا على مقعد ، منقلص الوجه أشبه بمن يوشك على العطاس دون أن يوفق اليه ، فكان يلقي نظرة بلهاء مضطربة بين الحين والآخر الى وجه الخطيب المفوه • ولا شك أنه لم يكن يفهم شيئا من تلك البلاغة والحكم ، بل ولعله ما كان مصغيا اليها اطلاقا • وكان على المائدة أمامه شمعة تشرف على نهايتها ، والى جانبها

زجاجة عرق فارغة تقريبا ، وحولها أقداح صغيرة وكبيرة ، وقطع من الخبز والقثاء • وعلى الرغم من أن عدة الشاي كانت لا تزال بأقداحها وملاعقها وأطباقها مبعثرة على المائده ، فان الدلائل كلها كانت تشير الى أن الزميلين قد فرغا من تناولـه منذ وقت طـويل • وبعـد أن تأمل سفيدريكايلوف هذه اللوحة فترة ما ابتعد عن الشق وعاد يجلس على السرير •

عاد اليه الندل القذر بالشاي ولحم العجل ، وسأله مرة أخرى اذا كان يرغب في شيء ، ولما أجابه سفيدريكايلوف نفيا ، ابتعـد نهائيا • بادر سفيدريكايلوف يحتسي الشاي بلهفة المقرور ، لكنه لم يمد يـده الى الطعام • لأن شهيته خانته فجأة وبدت عوارض الحمى تغزو جسده! نزع معطفه وسترته واستلقى على السرير ملتفا بالأغطية وهـو شـديد الكدر • غمغم يحدث نفسه بشيء من الهزء : « يجب أن أكون هـذه المرة في صحة جيدة ! » كان جو الغرفه خانقا والشمعة المحترقة تضفي عليها ضوءاً غائما ، والريح تعصف بشدة في الخارج • وفي مكان ما من الغرفة فأرة تقضم شيئا ما • وكانت رائحة كريهة تنبعث من الغرفـة ، رائحة جلود وفئران !

كان مسجى في سريره فريسة أحلام معينة ، وكل فكرة ترد رأسه تطرد سالفتها وتحل محلها • كان يريد بشق النفس أن يتخيل شيئا بعينه! همس في سره « لا شك أن هناك حديقة تحت النـافذة • ان أغصـان الاشجار تصطدم ببعضها بفعل الريح• انني أمقت ضجيج الاشجار ليلا، تحت العاصفة وفي طيات الظلام ! » ثم عاد يتذكر جسر « ايكس ••• » ونهر نيفا الصغير ، فشعر باحساس بارد كالذي شعر به لما كان واقفـا منذ حين على الجسر • فكر : « انني لم أحب الماء قط حتى ولا في اللوحات والرسوم ! » وفجأة خامرته فكرة جديدة جعـلته يزداد في

سخريته : « أعتقد أن قضية الجمال الطبيعي والرفاهية لا يجب أن تشغل في هذه اللحظة حيزا من تفكيري ، مع ذلك فها انني أتعنت كالحيوان الذي يعنى دائما في انتقاء مكان جثوه ... وفي مثل هذا الظرف ! لو أنني يممت منذ حين شطر جزيره بيتروفسكي لكنت الآن أحسن حالا . لقد خيل الي أن الليل شديد الظلمة شديد البرد . هـه ، هه ! كـان يلزمني ـ لولا قليل ـ احساسات مستحبة لذيذة ... على فكرة ، لمَ لا أطفىء الشمعة ؟ ان جاري نائمان بعد أن انقطعت أصواتهما ! » أطفأ الشمعة دون أن يبارح السرير وألقى نظرة الى حيث كان ضوء الغرفة المجاورة يتسرب منه منذ حين فوجد أن الظلمة شاملة .

« هيا يا مارت بيتروفنا ، الآن وقت ظهورك . لقد أزف الوقـت لتحضري وتلوميني! ان الظلام دامس والمكان مناسب والموقف لا يحتاج الى شيء من الابداع ! لكنك لن تحضري ولا شك ! » .

تذكر فجأة ، دون أي مبرر أو سبب ، أنه منذ حين ، قبل سـاعة على بدء تنفيذ خططه المتعلقة بدونيا ، كان قد أوصى راسكولنيكـوف بان يعهد بأخته الى رازوميخين ليسهر على سلامتها فغمغم : « الحقيقة أنني قلت ذلك من قبيل الصلف لا أكثر ، ولا شك أن راسكولنيكوف لم تفته غايتي ! يا له من مخاتل ذلك الراسكولنيكوف ! لقد لعب لعبة كبيرة ! لكن لكي يصبح المرء محتالا كبيرا ينبغي أن ينتظر زمنا طويلا ، ينبغي أن تنسى حماقاته وتندثر . لكنه شديد التعلق بالحياة . انهـم أنذال كلهم فيما يتعلق بهذه الناحية ! ليحملهم الشيطان ، انها مسألتهـم وحدهم وهي لا تهمني في شيء ! »

لم يكن يستطيع الرقاد . عادت صورة دونيا تتمثل في خاطره . وفجأة اكتسحته رعدة عنيفة . همس وهو يفتح عينيه : « كلا ، ينبغي أن أتخلص الآن من كل هذا . ينبغي التفكير في شيء آخر . الغـريب في

أمري والمضحك في آن واحد أنني لم أمقت انسانا ما مقتا شديدا ، ولم أفكر مرة تفكيرا جديا في الانتقام من أحد ! انها بادرة سيئة ! كذلك فانني لم أرغب قط في التشاجر مع الناس ولم أغضب قط غضبا شديدا، ان هذا أيضا يعتبر بادرة سيئه ! لكن كم من وعود قطعتها على نفسي لها منذ حين ! يواه ! يا للشيطان ! لعلها بعد ذلك ـ كانت تستطيع أن تخلق مني رجلا آخر ! » صمت أخيرا وصرف على أسنانه وعادت صورة دونيا تعمر خياله من جديد تصورها كما كانت عليه عندما أطلقت رصاصتها الاولى فريسة رعب هائل يعصف في كيانها، رعب جعلها تلقي بالمسدس جانبا وتنظر اليه بعينيها الكبيرتين، حتى انه كان يستطيع أن ينالها مرتين لا مرة واحدة ، دون أن تبدي أية مقاومة . لكنه لم يشأ ذلك . بل انه هو الذي أعادها الى الصواب . تذكر أنه شعر باشفاق حقيقي عليها، وأن قلبه انقبض وكأن يدا جبارة كانت تعتصره ... « الى الشيطان ! ينبغي الخلاص من هذه الافكار ، ينبغي التخلص منها ! » .

لم يكد يشعر بقشعريرة الحمى تفارقه ، وبأعضائه تميل الى التمدد والراحة ، حتى أحس فجأة بشيء يجري على ساقه وذراعه . فانتفض وهتف : « يواه أظن أنها فأرة ! لقد تركت لحم العجل على المائدة لم أمسه ! » كان يخشى اذا رفع الغطاء عن جسده ونهض من فراشه أن يتأثر بالبرد . لكنه شعر فجأة بدغدغة مزعجة في قدمه ، فألقى الأغطية جانبا ، ونهض يشعل الشمعة . كان يرتجف من الحمى وهو منحن على السرير يتفحصه . لم يجد فيه شيئا . هز الغطاء فاذا بفأر يقفز منه الى السرير . اندفع نحوه يحاول الامساك به ـ فلم يحاول الفأر الفرار ، بل راح يرسم على السرير خطوطا متكسرة ويتسلل من بين يديه بمهارة أحنقته . وأخيرا جرى فوق يده وراح يختبىء تحت الوسادة . ألقى سفيدريكايلوف بالوسادة على الارض لكنه شعر في تلك اللحظة بشيء ما يجري فوق بطنه ، يقفز ويتحرك هنا وهناك فوق ظهره وصدره تحت القميص . أحس بقشعريرة عصبية استفاق على أثرها . كانت

الغرفة في ظلام حالك كما تركها منذ حين، وكان هو ـ في سريره متدثرا بالاغطية والريح تعصف مزمجرة تحت النافذة • وهتف غاضبا « يا للحلم القذر ! » •

استوى جالسا على حافة السرير مدبرا ظهره الى النافذة وصمم : « لعل الأفضل ألا أنام مطلقا » • كانت ريح رطبة باردة تتسلل خلال مصراع النافذة ، فجذب الأغطية على نفسه يتدثر بها دون أن يبارح مجلسه • تعمد أن لا يوقد الشمعة لأنه كان لا يفكر في شيء لأنه لم يكن يريد التفكير في أي شيء • لكن الاحلام كانت تتعاقب في عقله ، وتنف الافكار تترى دون بداية ولا نهاية ولا ارتباط بينها • كان كمن سقط فريسة ذهول أو اغماء لا يحس ولا يقدر • هل كان ذلك بسبب البرد ، أم الظلمات ، أم الرطوبة ؟ أكان ذلك بسبب الريح المزمجرة تحت النافذة التي كانت تهز الاشجار هزا عنيفا ؟ كانت تخيلاته تجنح به الى أشياء وهمية طريفة فتخلق في نفسه رغبة معينة • كان يوم عيد العنصرة ! وكان هناك كوخ منيف رشيق مبني على الطريقة الانجليزية قائم وسط حديقة يانعة تحبط به مماشي مفروشة بالازهار والرياحين وقد التفت النباتات المتسلقة حول عرائش الورود • وكان عدد من الأصص المصنوعة من الصيني تحوي زهورا نادرة تزين حاجز سلم كبير مضيء رطب فرشت على درجاته سجادة بديعة • هناك على حافة النوافذ كانت بعض أواني الزهر ممتلئة حتى نصفها بالماء وقد رتبت فيها باقات من النرجس الابيض الذي كان ينحني على سوقه الطويلة الخضراء فيضوع الجو بأريج عطر عبق • ود لو بقي قريبا من تلك الزهور [illegible] لكنه ارتقى سلما قاده الى غرفة فسيحة كبيرة مرتفعة الجدران • كانت الغرفة الفسيحة غاصة كذلك بالزهور التي كانت منثورة على النوافذ والشرفة وفي كل مكان • وكانت الارض الخشبية مغطاة بالاعشاب العطرة وقد قطعت حديثا • أما درفات النوافذ فكانت مفتوحة

تسمح للريح الهادئة المنعشة بالوصول الى الغرفة ، وكانت العصافير تزقزق مغردة على الأفنان تحت النوافذ . وفي منتصف الغرفة ، على مائدة مغطاة بأكفاف من الساتان الأبيض ، كان تابوت صغير ! كان التابوت مبطنا بالحرير الثمين المزين « بالدانتيلا » تحيط به . أكاليل الزهور من كل جانب ، فلما نظر بداخله ، شاهد فتاة صغيرة غارقة بين الزهور ، مسجاة على خشبة من الريش مرتدية ثوبا أبيض من «التول»، ومعقودة اليدين على صدرها وكأنها منحوتة من الرخام . كان شعرها الاشعث الاشقر الفاتح مبتلا وهالات من الزهور تحيط به وتتوجه . وكان مشهد وجهها الجانبي الجامد يبدو كأنه قد كذلك من الرخام ، لكن ابتسامة شفتيها الشاحبتين كانت مطبوعه بطابع حزن عميق لا يمت الى الطفولة البريئة بصلة . كانت ابتسامة متألمة يائسة ! شعر سفيدريكايلوف بأنه يعرف تلك الطفلة ! ولم يكن قرب التابوت أية صورة لقديسين أو شمعة مضاءة ، ولم يكن المرء يسمع أية صلوات وابتهالات : لقد كانت الفتاة منتحرة ، كانت غريقة ! لم يكن لها من العمر أكثر من أربعة عشر عاما ، مع ذلك فان قلبها قد تحطم في تلك السن فبحثت عن الموت، لأنها استهدفت لاعتداء روع الى الابد ضميرها الفتي الطفل ! اعتداء ملأ تلك الروح الملائكية بالعار الذي لا تستحقه، وانتزع منها صرخة يأس قاتلة ، صرخة خنقها الليل المداهم ، وطوتها الظلمات ولفّها البرد في زمهريره فضاعت بين زمجرة الريح العاتية !

استفاق سفيدريكايلوف ، فبارح السرير واقترب من النافذة متحسسا ، حتى اصطدمت يده بمقبض الدرفة ففتحها . وعندئذ اندفعت نفحة من الريح الى الغرفة الضيقة وصفعت وجهه وصدره بموجة البرد فاستعاد هدوءه . وجد أن النافذة كانت تطل على حديقة سمر حيث الناس يغنون في النهار أغاني شائعة لطيفة ويحتسون الشاي جالسين الى موائد صغيرة . وفي تلك الاثناء اندفعت من الاشجار القريبةقطرات

من الماء ، كانت عالقة بالاغصان ، فحركتها الريـح ، وقذفت بها خلال النافذة الى وجهه • كان الليل معتما أشبه بظلمة النفق ، حتى ليتعـذر على المرء تمييز الاشباح السوداء التي تنبيء بوجود أجسام قريبة، فلبث سفيدريكايلوف خمس دقائق منحنيا على النافذة نصفه خارج الغرفة ، معتمدا على ساعديه ، ينظر الى الظلمة بفضول • وفجأة ، دوى قصف مدفع أعقبه ثان ! غمغم يحدث نفسه :

ـ آه ! انها الاشارة ! ان المياه تصعد • لسوف تكتسح الشوارع هذا الصباح فتغمر الأقبية والمتاجر المنخفضة والمشارب القائمة عـلى الضفتين ! لسوف تسبح الجرذان ويهرع الناس ، تحت المطـر وعصف الرياح ، فينقلون أمتعتهم من الطبقات السفلية الى الاعلى وهم يشتمون ويصخبون • ولكن ، كم الساعة الآن ؟

وبينا هو يفكر في ذلك ، سمع صوت ساعة تقرع في مكان ما قرعا هادئا متزنا عميقا معلنة الثالثة صباحا !

ـ اه، هه ! سوف ينبثق الضياء خلال ساعة ! لِمَ الخنوع؟ سأذهب على الفور الى جزيرة بيتروفسكي مباشرة، وسأنتقي دغلا سخت الامطار في ريه ، حيث لا يكاد المرء يلمس الاغصان ، حتى تتساقط ملايين من نقاط المطر فتغمر رأسه !

انسحب من مكانه بجانب النافذة فأغلقها، ثم اضاء الشمعة ولبس صدارته ومعطفه وأخذ قبعته وحمل المسرجة بيده ، وغادر الغرفة الى الممشى باحثا عن النذل الذي وجب أن يكون نائما في احدى غـرف الأمتعة • كان يريد تسوية حسابه ومبارحة الفندق لأنه قدر « أن الوقت المناسب قد أزف وأنه لا يمكن أن يجد مناسبة أفضل ! »

تاه طويلا في الممشى الضيق الطويل دون أن يعثر على أحد، وهمَّ بأن ينادي بصوت مرتفع ، لولا أن اكتشف فجأة في زاوية معتمة ، بين

خزانة قديمة وأحد الابواب، شيئا حيا يتحرك . انحنى فوق ذلك الشيء، وأدنى النور منه ، فاذا هو طفلة ، طفلة في الخامسة من عمرها لا أكثر ، مرتديه ثوبا صغيرا مهلهلا ، أشبه بالخرق التي تجفف بها الصحاف ، كانت ترتعد من البرد وتبكي . لم يبدِ عليها الخوف لرؤية سفيدريكايلوف، بل حدجته بعينيها السوداوين الكبيرتين ، وعلت وجهها مسحة من الذهول الأبله . كانت من حين الى آخر تزفر منتحبة شأن الطفل الذي بكى زمنا طويلا ، ثم كف منذ حين وتماسك لأتفه سبب . كان وجهها الصغير شاحبا متسخا وجسمها متقلصا من البرد . فما الذي أتى بها الى هناك ؟ لا شك أنها اختبأت في تلك الزاوية ولم تنم طوال الليل! أخذ يستجوبها ، فانتعشت الطفلة فجأة . وراحت تقص عليه قصتها بلغة الاطفال البريئة : كانت القضية متعلقة بأم « صغيالة » صغيرة ، وأن تلك الام « الصغيلة » الصغيرة سوف « تضلبها » تضربها لأنها « كسلت » كسرت قدحا ! كانت الطفلة تتحدث دون توقف ولم يكن حديثها خاليا من المغزى : انها طفلة غير محبوبة ، ولعل أمها طاهية مدمنة لا تنفك تشرب ـ والارجح أنها تشتغل في هذا الفندق ـ كانت لا تني تضربها وتروعها . والظاهر أن الطفلة كانت قد كسرت قدحا ، فخافت عقاب أمها ، ونفرت منذ مساء أمس ، حيث ظلت مختفية طوال الوقت تحت المطر في العراء ، ثم تسللت خلسة ، وقبعت وراء الخزانة ، حيث أمضت الليل كله في تلك الزاوية ، باكية مرتجفة، مقرورة من البرد ، هالعة من الظلمة ، خائفة من الضرب القاسي الذي ستستهدف له بسبب فعلتها . حملها سفيدريكايلوف بين ذراعيه وعاد بها الى غرفته فوضعها على سريره وراح ينزع عنها ثيابها المبللة . كانت أحذيتها الضخمة البالية تبدو كأنها نقعت في مستنقع لبثت فيه طيلة الليل ، ولم تكن الصغيرة تلبس جوارب في قدميها . فلما خلع ثيابها ، أسجاها على السرير، وأحاطها بالغطاء حتى عنقها . فنامت على الفور . وعندئذ ، عاد الى

أحلامه القاتمة .

فكر فجأة ، وهو يشعر بعاصفة من الانفعـال الأليم تنفجر في نفسه :

ـ «لقد عدت فتورطت من جديد في قضية جديدة . يا للحماقة!»

عاد فحمل المسرجة في يده حانقا وقرر البحث عن الندل والذهاب فورا ، وفتح الباب وهو يسب ويناجي نفسه مزمجرا : « اه طفلة ! » . لكنه عاد الى السرير ليلقي على الصغيرة نظرة أخيرة ، ليتأكد من أنهـا نائمة ، ويرى كيف أضحت في نومها . رفع الغطاء بحذر ... كـانت الطفلة مستغرقة في نوم سعيد عميق . لقد أحست بالدفء تحت الغطاء فعاد اللون الاحمر الى وجهها الشاحب . لكن الغريب في الامر ، أن ذلك اللون الذي اصطبغ به وجهها كان صارخا جـدا ، لا يمـكن أن ينطبع مثله على وجه طفلة صغيرة . فكر سفيدريكايلوف : « انها حمرة الحمى » ! يخيل للناظر اليها أنها سكرى أو أنها أسقيت قدحا كبيرا من الخمر . كانت شفتاها القرمزيتان تحترقان . كانتا ملتهبتين . آه ! خيل اليه فجأة أن أهدابها السوداء الطويلة ترف وتتحرك ، وكأنها تغمز له ، وانها تصوب نحوه من بين جفنيها المطبقين نظرة خبيثه ماكرة . رأى أطراف أهدابها ترتعد ، وكأنها تحاول ارغام نفسها على السكون . لكنها لم تستطع مقاومه رغبتها طويلا . ها هي ذي تضحك ، ضحكة مسموعة فيها وقاحه وجرأة ، وأشرق وجهها بالاغراء ، اغراء لا يمكن أن يكون للطفولة ! انه دليل واضح على فساد الاخلاق . انه وجه جميل ، وجه غادة كاميليا . بل انه وجه وقح ، وجه غانية فرنسيه . هـا ان عينيهـا تفتحان بعد أن عدمت ما تخفيه ، انهما تنظران اليه دون حياء نظرة ملتهبة تتلظى بالشهوة . انهما تناديانه ، انهما تضحكان . كان في ضحكتها لون من الحقارة المخيفة والسخرية العميقة ، وكذلك في عينيها وفي وجهها ، ذلك الوجه الصغير الذي بات يعبر عن سفاهة وفسق . غمغم سفيدريكايلوف

مروعا : « ملاذا ! في سن الخامسة ! ما هذا ؟ ما معنى هذا ؟ » أدارت نحوه وجها ملتهبا محموما بالنشوة ومدت اليه ذراعيها منادية ، فصرخ بهول وفزع : « آه ! يا للعبنة ! » ورفع يده يريد صفعها ••• وفي تلك اللحظة استفاق •

كان هو النائم في تلك اللحظة ، متدثرا بالاغطية • وكانت الشمعة مطفأة والصبح يكاد أن ينبثق •

غمغم مغيظا وهو ينهض على سريره : « كنت هذه الليلة فريسة الاحلام المزعجه » • وشعر أن عظامه تؤلمه • كان الضباب الكثيف يخيم على المدينة حتى ليتعذر على المرء رؤية السماء، والساعة تناهز الخامسة• لقد نام زمنا كافيا !

نهض سفيدريكايلوف وارتدى سترته ومعطفه اللذين لم يجفا بعد ، وتحسس المسدس في الجيب الذي أودعه فيه فأخرجه • أصلح من وضع « الكبسولة » ثم جلس وأخرج من جيبه دفترا صغيرا كتب على الصفحة الاولى منه بضعة أسطر بأحرف كبيرة ، أعاد قراءتها ثم استغرق في أحلامه متكئا بمرفقيه على المائدة ؛ والمسدس والدفتر الى جانب بعضهما قرب مرفقه ! كان الذباب قد استيقظ ، وتهالك على قطعة اللحم التي لم يمسها ، فنظر اليها ساهما وحاول بيمناه أن يمسك بواحدة • غير أنه أخفق فيما أراد رغم جهوده • وأخيرا انتبه الى ما يعمل ، وعجب لما يشغل به نفسه ، فانتفض ونهض واقفا ، وغادر الغرفه بخطوات ثابتة ، ولم يلبث أن بلغ الشارع •

كان الضباب الكثيف الابيض يغمر المدينة ، وسفيدريكايلوف سائرا على الرصيف الخشبي القذر الاملس ، متجها نحو نهر نيفا الصغير • كان يتخيل مياه النهر بعد صعودها المنتظر ، وجزيرة بيتروفسكي ، والماشي التي تظللها أشجار الجوز ، والحشائش المرويه،

والاشجار والادغال المغمورة بالماء ، وآخيرا الدغـل الذي كان يبحـث عنه ••• امتلكه الغيظ، فراح ينظر الى البيوت التي حوله ليوجهاهتمامه وجهة أخرى • كان الشارع مقفرا، لا انسان ولا عربه ! وكانت البيوت الخشبية الصغيرة ، ذات اللون الاصفر الفاقع، بأبوابها ونوافذها المغلقة، تبدو قذرة موحشة • عادت الرطوبة تسري في أوصاله وراح يرتعد من البرد فراح يلهى بقراءة كل لافتة دكان يمر بقربها بعناية ودقة حتى بلغ نهاية الرصيف الخشبي ، واقترب من بناء كبير من الحجر • مر بجـانبه كلب مقرور ، دفع ذيله بين سافيه من البرد والجوع ، ورأى رجلا ثملا متدثرا بمعطف ، مستلقيا على الرصيف ووجهه الى الارض ، فألقى عليه نظرة وتابع طريقه • والى يساره سمق برج مستدير عال فهتف : « َبه! هذا هو المكان المناسب • لمَ أذهب الى جزيرة بيتروفسكي ؟ سأجـد هنا على الاقل شاهدا رسميا »• وكاد أن يضحك لهذه الفكرة الطارئة! فانعطف في شارع « ايكس ••• » ، وتوقف قرب البناء الـذي يعلوه برج الحراسة • كان على المدخل رجل قصير القـامة ، متـدثر بمعطف رصاصي اللون من معاطف الجنود ، مستندا الى الجدار وعلى رأسه خوذة « آشيل (١) » النحاسية وفي عينيه نظرة متبلدة باردة لا تستطيع مقاومه سلطان الكرى • ألقى الحارس الوسنـان نظرة جـامدة على سفيدريكايلوف • كان وجهه مطبوعا بتلك المسحة السويداوية الكالحة، قديمة العهد ، التي تضفي كثيرا من المرارة على كل الوجوه المنحـدرة

---

(١) آشيل : ابن ثيتيس وبيلي ملك الميرميدونيين وهو اشهر ابطـال الياذة اليونان . قتل آشيل هكتور في حصار طرواده لكنه اصيب بسهـم مسموم في كعب قدمه اطلقه باريس . وبقى اسم آشيل رمزا للشجاعة على الزمن وفي كل اللغات . وقد اراد المؤلف باطلاق هذه التسمية تعريف نوع الخوذة التي كان الجندي يضعها على رأسه لانها مشابهة للخوذة التى كان آشيل يضعها على رأسه . — المترجم —

من أصل يهودي دون استثناء • راح كلاهما ، سفيدريكايلوف وآشيل، ينظران الى بعضهما ويفحص كل منهما وجه الآخر • وأخيرا بدا لآشيل أنه من غير الطبيعي أن يقف أمامه في تلك اللحظة مخلوق غير ثمل وأن ينظر اليه نظرة ثاقبة ويقف على بعد ثلاث خطوات منه دون أن يتفـوه بكلمة •

تمتم دون أن يعتدل في وقفته :

ــ هه ! ماذا تبحث هنا ؟

أجابه سفيدريكايلوف :

ــ لا شيء ! مرحبا ، أيها الأخ !

ــ ليس هناك المكان الذي تريده •

ــ ألا ترى أيها الاخ ، انني ذاهب الى الخارج •

ــ الى الخارج ؟

ــ الى أمريكا !

ــ الى أمريكا ؟

أخذ سفيدريكايلوف مسدسه فصلاه بينما رفع آشيل حاجبيه :

ــ ما هذه الدعابات ؟ ليس هنا المكان الذي تريد !

ولِمَ لا يكون المكان المنشود ؟

ــ لأنه ليس المكان •••

ــ هيا ، يا صديقي ، لا بأس • ان المكان مناسب ••• فاذا سألوك أجب انني ذهبت الى أمريكا !

وسدد المسدس الى صدغه الأيمن • قال آشيل منفعلا جاحظ العينين :

ــ لكن هذا غير مسموح ••• ليس هنا المكان الذي تريد •••

وضغط سفيدريكايلوف على الزناد •••



في مساء ذلك اليوم بالذات ، حوالي الساعة السادسة او السابعة مضى راسكولنيكوف الى مسكن امه واخته ، ذلك المسكن الذي نقلهما رازوميخين اليه والذي تمتلكه كذلك اسرة باكالييك . كان مدخل السلم يفضي الى الشارع مباشرة . تقدم راسكولنيكوف مترددا متسائلا : « أأدخل أم لا أدخل ؟ » لكنه كان عازما على الدخول رغم كل شيء ، فقد اتخذ قراره في هذا الصدد ولن يحيد عنه . قال يهدىء ثائرة نفسه : « على كل حال ، انهما لا تعرفان عن الامر شيئا ، وقد اعتادتا اعتباري مخلوقا شاذا » .

كان مرتديا ملابسه وقد اتسخت بشكل كريه لانه امضى الليل تحت المطر ، فعلقت الوحول بثيابه وتهدلت بشكل بشع وكأنه يستعملها للنوم ! وكان وجهه غير واضح المعالم بسبب التعب ورداءة الطقس والمجهود الجسدي الذي بذله طيلة الاربع والعشرين ساعة الماضية ، والنضال الذهني الذي اشتبك فيه منذ زمن طويل . لقد امضى الليلة الفائتة وحيدا في مكان لا يعلمه الا الله . لكنه افاد من تلك الخلوة اذ خرج منها بقرار جاء ينفذه !

قرع الباب ففتحت له امه ، لان دونيا كانت بالخارج، والخادم ما كانت في تلك الساعة في البيت . عقلت الدهشة والفرح لسان بولشيري الكسندروفنا فترة ، فامسكت بيده ، وقادته الى الغرفة ، ثم شرعت تقول بصوت تهدج من الفرح :

ـ آه ! ها أنتذا اخيرا • لا تغضب يا ردويا اذا كنت استقبلك باكيــة بكل حماقــة ! انني لا ابكي يا بني ، هيــا ، انني اضحك • او تظن انني ابكي ؟ كلا • انني شديدة السعادة • لكنني لا استطيع التخلص من عادتي الرعناء • ان دموعي تنهمر مــن تلقاء نفسها ! انني فريســة هذه العادة منذ وفاة ابيك ، يا بني • ان اي شيء يبكيني • اجلس يا عزيزي ، انــك تعب • انني ارى التعب باديا علبــك • آه ! كم اتسخت !

قال راسكولنيكوف :

ـ لقد خرجت تحت المطر ، يا اماه !

قالت بولشيري الكسندروفنا بحماس مقاطعــة :

ـ دعك من هذا ! اظننت انني سأعود الــى استجوابــك حسب عادتي العتيقــة الكريهة ؟ اطمئن ، انني افهم كل شيء • لقــد فهمت الآن اسلوب الحياه هنا ، انني ارى انهم هنا اشد ذكاء مــن عندنا • لقد افهمت نفسي مرة الــى الابد [illegible]ـي ان احاول معرفة افكارك او ان أسألك حسابا عن تصرفاتــك • ان اللــه يعلم ما هي الخطط والافكار التي يعمر بها راسك • بل لعــل تلك الافكار تزعجــك ، مع ذلك أتقدم أنا ، وامسك بذراعك لاسألك: هيا ، قــل لي ، بأي شيء تفكر ؟ أرأيت ••• آه ، يا رب ! لم اثرثر هكــذا دون هدف ولا تقــع ؟•• أرأيت يا رودي ، انني كنت اقرأ مقالك للمرة الثالثة ، ذلك المقال الذي نشرته في هــذه المجلــة • لقد اتى بها دميتري بروكوفيتش • لقد اطلقت آهة لما رأيت المقــال وقلت لنفسي : « كم كنت حمقاء ! هذا اذن ما يشغله • ان هــذا يفسر الامور • ان كل العلماء على هــذا المنوال • لعلــه الآن يغذي فكرة او افكارا جديدة في رأسه ، انه يصممها ويهذبها ، ولا شــك ان

هذهالامور لا استطيع فهمها، ولكنذلك عينالصواب لانني لا استطيع ان اكون على مستوى واحد معه !

ــ اريني هذا المقال ، يا اماه .

اخذ راسكولنيكوف المجلة والقى نظرة عابرة على مقاله . وعلى الرغم من التناقض العجيب القائم بين تلك الصفحات وبين موقفه وحالته العقلية الحالية ، فانه احس شعورا لطيفا بمرارة ، شعورا غريبا يخالج قلوب الكتاب الذين تنشر مقالاتهم للمرة الاولى ، زد على ذلك أن ذلك الكاتب كانفي الثالثة والعشرين من عمره . لكن ذلك الاحساس لم يدم الا لحظة عابرة. اذ انه ما كاد يقرأ بضعة اسطر حتى اكتأب وجهه ، واحس بحزن عميق يمزق قلبه . عادت الى ذاكرته كل تلك المقاومات العقلية التي اعدها خلال تلك الشهور الاخيرة ، فالقى المجلة على المنضدة بحركة اشمئزاز وغضب .

ــ لكنني ، يارودیا ، استطيع ان احكم ــ مهما بلغت حماقتي ــ بانك ستصبح واحدا من ألمع الشخصيات في عالمنا المثقف ان لم تصبح الاول بينها على الاطلاق . آه ، كلما افكر في انهم تجرأوا على اعتبارك مجنونا ، ها ! ها ! ها ! انك لا تعرف شيئا عن هذا ، لكنهم فكروا فيه بالفعل ! آه ، يا السذج المساكين ! كيف يستطيعون فهم معنى الذكاء ! ثم ان دونيا نفسها ، كادت ان تصدق ذلك اخيرا ، هل تصدق ! لقد ارسل أبوك المسكين مرتين اوراقا الى المجلات . ارسل ابياتا شعرية اول مرة ــ انني احتفظ بالدفتر الذي كتبها فيه وسأطلعك عليه ذات مرة ــ ثم مقالا وقد رجوته ان يدعني انسخها. لشدة ما رجوناهم ان يقبلوا نشرها فقبلوها اخيرا ؟ اعلم يارودیا انني منذ ستة او سبعة ايام

كنت كلما نظرت الى ثيابك وفكرت في اسلوب حياتك وما تأكل واين تقطن ، أشعر ان رأسي سينفجر . لكنني اقتنعت الان بانني كنت حمقاء ، لانني تاكدت من انك لو شئت لامكنك بلوغ اى شيء بفضل ذكائك ومواهبك . لكنك الان لا تريد شيئا لانك منهمك ولا شك في اشياء اكثر اهمية .

ـ هل دونيا غير موجودة في المسكن ، يا اماه ؟

ـ كلا ، ياروديا . انها تخرج غالبا وتتركني وحيدة . ان دميتري بروكوفيتش يتلطف دائما بزيارتي والبقاء معي . انه يتحدث دائما عنك . انه يحبك ويقدرك يا عزيزي . انني لا ازعم ان اختك تبخسني حقي من الالتفات والاعتبار . كلا ، وانا لا الومها لان لها عقليتها هي الاخرى ولي عقليتي . انها تخفي عني اسرارا لا اعرفها ، اما انا ، فلا اسرار عندي بالنسبة اليك . لقد تأكدت من ان دونيا شديدة الذكاء وانها تضمر لي ولك كثيرا من الحب والميل ، لكنني لست ادري نتيجة تصرفاتها . ثق يا روديا بانك جعلتني سعيدة كل السعادة بزياراتك هذه . لقد وصلت في اللحظة التي خرجت هي فيها . وعندما تعود ، لسوف اقول لها : « لقد جاء اخوك في غيابك فاين كنت في تلك الاثناء ؟ » لكن انت يا ولدي ، لا تدللني كثيرا . لكن عد كلما وجدت من وقتك متسعا . سوف انتظرك . انني ساعرف بذلك انك تحبني دائما وهذا يكفيني . ساقرأ مقالاتك ومؤلفاتك ، وساسمع الناس يتحدثون عنك ، ولسوف تأتي لزيارتي من حين الى اخر ، فماذا ابتغي اكثر من ذلك ؟ لقد وصلت اليوم في حينك يا ولدي لتعزي امك !

وفجأة انخرطت بولشيري الكسندروفنا في البكاء . هتفت ، وهي تنهض واقفة .

ـ ها انا ذي أعود الى البكاء • لأ تلقَ بالا• أنني حمقاء ! آه ، يا رب ! كيف البث جالسة ؟ لدينا قهوة جاهزة ولا اقدم لـك قدحـا ! أرأيت مبلغ الانانيـة عند العجائز ! علـى الفور ، علـى الفور ••

ـ دعك من هذا يا امي الصغيرة ، انني ذاهب من فوري ؟ لـم احضر اليـك من اجل هذا • اصغـي لي ارجوك •

اقتربت بولشيري الكسندروفنا بشيء من الذعر •

سأل راسكولنيكوف فجأة من اعماق قلبه دون ان يندبـر كلماته او ان يزنهـا :

ـ يا امي الصغيرة ، هل ستحبينني تماما كما تحبينني الان مهمـا حدث ، ومهما سمعت عني ؟

ـ روديا ، روديا ! ماذا بك ؟ كيف تطرح هـذا السـؤال ؟ من ذا الذي سيتحدث الي عنـك بسوء ؟ لن اصدق كائنا من كان ، سوف اطرد المتكلم من حضرتي ••

اردف قائلا دون ا نتتبدل لهجته :

ـ لقد جئت لاؤكد لك يا اماه بانني احبتك دائما ، وانـنـي سعيد الان اذ اكون وحيدا معك ، مرتاح حتى لغياب دونيا عـن هذا اللقاء ؟ لقد جئت لاقول لك انـه يجب عليـك في محنتـك وتعاستك ان تعلمي بان ابنـك يحبك اكثر مما يحب نفسـه ، وان كل ما يمكن أن تكوني اعتقدته ، قسوتي وقلة تعلقي بك وحبي ، خطأ في خطأ • انني لن افتأ احبـك الـى الابد •• هيا ، هـذا يكفي ، لقد قدرت انـه يجب ان اتصرف علـى هذا النحو وان ابـدأ على هذا الشكـل •

ضمته بولشيري الكسندروفنا الـى صدرها بصمت وراحت تعانقـه باكيـة بصوت خافت • واخيرا قالت :

ـ لست أدري ما بك ، يا روديا • لقد ظننت حتى هذه اللحظة أننا كنا نزعجك ونسبب لك المتاعب • لكنني أرى الآن أن آلاما كبيرة تهيأ لك • وأن تلك الآلام هي أسباب حزنك • كنت أتنبأ بهذا منذ أمد طويل ، يا روديا • اصفح عني اذا حدثتك على هذا النحو ، انني أفكر، ولكنني لا أنام • لقد كانت أختك تهذي الليلة الفائتة فكانت لا تنفك تتحدث عنك • لقد سمعت بضع كلمات لكنني لم أفهم منها شيئا • لقد كنت أشعر به شعورا مسبقا ، وها هو ذا قد وقع ! روديا ، روديا ، الى أين تذهب ؟! انك تريد الذهاب، أليس كذلك ؟ انك ذاهب !

ـ سأذهب ؟

ـ خيل الي ذلك ! لكني أستطيع الذهاب معك اذا كان ينبغي أن تذهب • ودونيا ، انها تحبك وتحبك كثيرا ، وكذلك صوفي سيميونوفنا • لتأت هي الاخرى معنا اذا وجب الأمر • ثق أنني على استعداد لنقلهما كابنتي • لسوف يساعدنا دميتري بروكوفيتش في اتخاذ أهبتنا • ولكن ••• الى أين تذهب ؟

ـ الوداع ، يا أمي الصغيرة !

هتفت وكأنها ستفقده الى الأبد :

ـ ماذا ؟ اليوم بالذات ؟

ـ لا أستطيع البقاء أكثر من ذلك ، ينبغي أن أذهب حتما •••

ـ وأنا ، ألا أستطيع الذهاب معك ؟

ـ كلا ، ولكن ابتهلي الى الله جاثية من أجلي ، علّ صلاتك تصعد اليه •

ـ سأرسم عليك اشارة الصليب ، سأباركك ، هكذا ! آه يا رب ما العمل ؟

نعم ، كان مسرورا جدا ، مسرورا حقا لأن المنزل خال الآن من أمه،

لأنه استطاع أن يختلي بها . لقد تحنن قلبه بعد كل تلك الالام الهائلة التي احتملها ، فسقط على أقدام أمه يقبلها ، وبكى كلاهما وتعانقا ...
لم تدهش الأم لتصرف ابنها ولم تلقِ عليه أي سؤال . كانت منذ أمد طويل فاهمة أن شيئا مخيفا يهيمن على نفسية ولدها ، وأن ساعة مرعبة من ساعات القدر قد أزفت لتحدد مصيره .

قالت والدموع في عينيها :

ـ روديا ، يا ولدي العزيز . يا ولدي البكر ! ها أنتذا كما عهدتك في طفولتك ، كنت تقرب مني وتضمني وتعانقني هكذا !. كذلك في حياة أبيك ، فكنت عزاءنا ، يسعدنا وجودك . ومنذ أن مضى أبوك، كم من مرة لبثنا أنت وأنا هكذا ، متعانقين ! لقد بكينا معا على قبره ! انني اذا كنت أبكي منذ أمد ، فذلك لأن قلبي كأم كان يحس بقرب وقوع مصيبة ! لقد خمنت كل شيء منذ أول لقاء لي معك . ألا تذكر ، منذ يوم وصولنا ، وانتفض قلبي مذعورا . واليوم، عندما فتحت لك الباب. فكرت وأنا أنظر اليك بأن الساعة الحاسمة قد أزفت . روديا ، روديا، هل تذهب على الفور ؟

ـ كلا !

ـ وستحضر مرة أخرى ؟

ـ نعم ... سأحضر .

ـ روديا ، لا تسخط يا بني ، انني لا أجرؤ على سؤالك . وأعرف أنني لن أجرؤ أبدا على طرح الاسئلة . لكن قل لي كلمتين : هل تذهب الى مكان بعيد ؟

ـ بعيد جدا .

ـ سيكون هناك ، مركز !

ـ ما يهيئه لي الله ... صلي فقط من أجلي .

مضى راسكولنيكوف نحو البا بفتعلقت به أمه وحدقت في عينيه بنظرة يأس • كان وجهها متعلقا بتأثير الألم •

قال راسكولنيكوف ، وقد شعر بندم عميق على مجيئه :

ــ كفى ، يا أماه •

ــ لن تتركني الى الأبد ؟ قل لي انك لن تذهب الى الأبد ؟ سوف تأتي ، سوف تأتي غدا ؟

ــ سوف أحضر ، سوف أحضر • الوداع •

تمكن أخيرا من التخلص من يديها ومضى •

كانت الامسية لطيفة منعشه منيرة لأن الغيوم كـانت قد تبددت منذ الصباح ، فبلغ راسكولنيكوف مسكنه • كان على عجلة من أمره يريد الانتهاء من آلامه قبل مغيب الشمس • كان حتى تلك اللحظة لا يستحسن مقابلة أحد ، فلما صعد الى غرفته لاحظ أن ناستاسيا تركت « سماورها » عندما رأته ، وتابعته بنظرات ثابتة مستطلعة • فخاطب نفسه قائلا : « هل يوجد أحد في مسكني ؟ » راح يفكر في بورفير باشمئزاز وتقزز • لكنه عندما بلغ غرفته وفتح الباب شاهد دونيا • كانت جالسة على الأريكة مستغرقة في تفكير عميق ، ولا شك أنها انتظرته زمنا طويلا • توقف على العتبة ، فنهضت مذعورة منتصبة القامة ، ووقفت أمامه • كانت نظرة الفتاة الثاقبة تعبر عن فزع ممزوج بضيق شديد • فهم من تلك النظرة وحدها أنها تعرف كل شيء •

سأل مجفلا :

ــ هل يجب أن أقترب منك أم أن أذهب ؟

ــ لقد قضيت سحابة النهار لدى صوفي سيميونوفنا ننتظرك كلتانا • كنا نفكر في أنك لا شك ستعود •

دخل راسكولنيكوف الغرفة وتهالك على المقعد :

ـ انني أشعر بضعف يا دونيا ، انني شديد التعب • انني في هذه اللحظة على الأقل أكون مالكا أعصابي•

ألقى عليها نظرة مستريبه ، فقالت :

ـ أين كنت الليلة الماضية ؟

ـ لا أذكر تماما ، يا أختاه • كنت أريد اتخاذ قرار حاسم • وقد ذهبت عدة مرات قريبا من «النيفا» • انني أذكر ذلك •

كان يتكلم هامسا وهو لا يكف عن القاء نظرته المستريبه على دونيا • قالت هذه :

ـ حمدا لله ! كنا صوفي سيميونوفنا وأنا شديدتي الخوف من هذه النتيجة ! على ذلك فانك لا زلت تؤمن بالحياة • حمدا لله ! حمدا للـه !

سخر راسكولنيكوف بمرارة :

ـ ما كنت أؤمن بالحياة ، ولكن منذ لحظات تعانقنا أنا وأمي وبكينا • انني لا أؤمن بشيء ومع ذلك طلبت اليها أن تصلي من أجلي ! الله وحده يعلم كيف يدور هذا الامر في نفسي لأنني شخصيا لا أفهم منه شيئا ، يا دونيا •

هتفت دونيا مروعة :

ـ كنت عند أمنا ؟ هل تحدثت اليها ؟ هل جرؤت على التحدث اليها بكل شيء ؟

ـ كلا لم اقل لها شيئا عن « ذلك » ، لكنها فهمت اشياء كثيرة • لقد سمعتك تهذين ليلا بصوت مرتفع ؛ وأنا واثق من أنها تعرف نصف الحقيقة حتى الان • لعلني أخطأت بالذهاب اليها • بل انني أعرف لم ذهبت • انني رجل منحط ، يا دونيا •

ـ رجل منحط وعلى استعداد لاحتمال العذاب لأنك ستحتمله، أليس كذلك ؟

قـال :

ـ نعم سأحتمله • لقد كنت أريد الانتحار غرقا للتخلص من هذا العار ، يا دونيا • لكنني كنت منحنيا فوق الماء ، وفكرت في أنني اذا كنت قدرت نفسي حتى تلك اللحظة رجلا قويا ، فلا ينبغي أن أخاف من العار • ان تفكيري هذا معناه الكبرياء • أليس كذلك ، يا دونيا ؟

ـ نعم ، يا روديا •

ومضت عيناه الخامدتان برهة • لقد أعجبه أن يكـون محتفظا بكبريائه •

سألها ، وهو يحدق في عينيها وقد ارتسمت على شفتيه ابتسـامة مربكة :

ـ ألا تفكرين ، يا أختاه ، أنني تراجعت مذعورا لمجرد رؤيـة المـاء ؟

صاحت دونيا بصوت غاضب :

ـ أوه ! كفاك ، يا روديا !

لبثا صامتين دقيقتين : كان راسكولنيكوف جالسا مطرقا برأسه الى الارض ودونيا واقفة الى الجانب الاخر من المنضدة تنظر اليه وعلى وجهها أمارات الالم والعذاب • وفجأة نهض واقفا :

ـ ان الساعة دنت والوقت قد أزف • سوف أمضي لأسلم نفسي • لكنني لست أدري لِمَ أفعل ذلك •

وانثالت دمعتان كبيرتان على خدي الفتاة • فقال :

ـ أتبكين ، يا أختاه ؟ لكن هل تستطيعين مد يدك الي ؟

ـ وهل شككت في ذلك ؟

وضمته بين ذراعيها ثم صرخت ، وهي تضمه وتعانقه :

ـ ألست بتقبلك العذاب تمحو نصف جريمتك ؟

زمجر بغضب مفاجيء :

ــ جريمة ؟ أية جريمة ؟ ألمجرد أن قتلت حشرة قذرة ضارة، عجوزا مرابية يستحق قتلها غفران أربعين خطيئة ، عجوزا كانت تمتص دماء الفقراء ، ألمجرد ذلك يعتبر العمل جريمة ؟ لا أظن يا أختاه ، ولا أفكر في أن أغسل يدي من هذا . ما بالهم يصيحون بي من جانب « جريمة! جريمة ! » والآن وأنا الذى على وشك التعرض لخزي مجاني دون سبب أرى بوضوح كم في دناءتي وانحطاط نفسي من شذوذ ! لعله لمجرد الانحطاط والعجز أستمسك بهذا القرار ، بل ولعل فيه بعض المصلحة كما ألمح بورفير !

هتفت دونيا بيأس :

ــ أخي ، أخي ماذا تقول ؟ لكنك أهرقت دما .

فاسترسل بعنف وخشونة :

ــ ليهرق كل الناس ما شاؤوا من الدم . ان ما سال منه وما سيسيل جازفا على الأرض يهرق كما تسفح الشامبانيا . ومن أجله يتوجون في « الكابيتول (١) » ، ويرفعون الى مصاف المحسنين للانسانية ! أنظري الى الامر بشيء أكثر من الانتباه واحكمي ! انني شخصيا كنت أريد خير الناس . وكان بودي أن أؤدي مئات الألوف من الأعمال الحسنة لأعوض عن هذه الحماقة البسيطة ، التي لم تكن حماقة بالمعنى المفهوم ، بل كانت غباوة . ان الفكرة في حد ذاتها لم تكن حمقاء كما بدت الان بعد الفشل ... لأن كل ما يفشل يعتبر شاذا غريبا . لقد

---

(١) الكابيتول : هضبة من هضاب روما السبع وبمعنى أصح احدى قمتي تلك الهضبة التي كان عليها معبد جوبيتر كابيتولن . ويراد بهذا التعبير التحدث عن قمة المجد ، والكابيتول ايضا قلعة رومانية قديمة وقصة هجوم الغاليبية عليها واندحارهم بسبب طيور الاوز معروفة ــ المترجم ــ

أردت بهذه الفعلة البليدة أن أخلق لنفسي مركزا مستقلا ، أن أتقدم ، أن أخطو الخطوة الاولى ، أن أتدبر موارد لا تنضب ، وعندئذ كنت سأقيم الأمر وأنظمه للصالح العام ... لكنني تعثرت عند أول خطوه لأنني ندل ! جبان ! والقضية كلها هنا ! لكنني لا أشاطرك وجهة نظرك: لو أنني نجحت لصيغت لي التيجان بينما يُدفع بي الآن الى التشهير والخزي !

— كلا يا أخي ليس الأمر كذلك ، ليس هذا ! ماذا تقول ؟

— ماذا ! انني لم أتبع الأصول في عملي ، تلك الأصول المأخوذة عن الجمال الطبيعي وواجب بقائه . لعمري لست أفهم بعد الان شيئا . كيف يُعتبر القاء القنابل على الجماهير خلال حصار منظم مراعاة للاصول ؟ ان الخوف من الجمال الطبيعي هو أول اشارة من اشارات العجز . انني لم أحس به أبدا كما أشعر به الآن ، ولم أفهم من قبل أبدا ما هي جريمتي كما فهمتها الان . انني لم أكن أبدا أكثر قوة وقناعة مما أنا عليه الان .

كان وجهه الشاحب المتقلص قد غدا فجأة أحمر . وبينا هو ينطق بجملته الاخيرة وقع بصره فجأة على عيني دونيا . فقرأ في نظرتها ألما عميقا فظيعا . فتمالك نفسه ، وصمت مرغما . شعر أنه سبب شقاء تينك الامرأتين . نعم لقد كان سبب تعاستهما .

— دونيا ، يا عزيزتي ! انني مذنب فاصفحي عني ، رغم أنه لا صفح عني اذا كنت مجرما . الوداع يا أختي ولنتوقف عن الحديث. لقد أزف الوقت ، الوقت المناسب . لا تتبعيني أتوسل اليك . انني سأقوم بزيارة أخرى ... اذهبي من فورك الى أمي وامكثي قربها . ان هذا آخر رجاء أتوجه به اليك . لا تفارقيها لحظة واحدة . لقد تركتها في ذعر عنيف لن تستطيع التغلب عليه : لسوف تموت منه أو تجن . امكثي الى

جانبها ! وسيكون رازوميخين قريبا منكما • لقد تحدثت اليه ••• لا تبكي علي • سأعمل جاهدا لأكون كل حياتي شجاعا شريفا ، رغم أنني قاتل • لعلك ستسمعين اسمي يذكر يوما ما • لن أجعلك تشعرين بالخزي من ذكره • لسوف ترين • سأثبت أيضا •••

توقف برهة وراح يتأمل وجه أخته فوجد تعبيرا غريبا في عينيها، تعبيرا سببته وعوده الأخيرة ، فقال مسرعا :

ـ بالانتظار أودعك ، يا أختاه • لِمَ تبكين هكذا ؟ لا تبكي ، لا تبكي • لن نفترق نهائيا ! آه ! نعم !انتظري لقد نسيت !

مضى نحو المنضدة فحمل كتابا ضخما يغطيه الغبار ، فتحه واستخرج من بين صفحاته صورة صغيرة ، صورة زيتية رسمت على قطعة من العاج • كانت صورة ابنة صاحبة المسكن ، الشابة التي ماتت من الحمى الساخنة ، والتي كانت مخطوبته من قبل ، بعد أن كانت تريد انهاء حياتها في الدير • تأمل ذلك الوجه الصغير المعبر المتألم برهة طويلة ، ثم قبل الصورة وقدمها الى دونيا •

قال وكأنه في حلم :

ـ لقد تحدثت عن نظريتي مرارا معها ، معها وحدها • لقد أعطتني قلبها استودعته أسراري فأودعته كل ما في روحي • اطمئني يا أختاه، انها لم تكن توافق عليه ، مثلك تماما • انني الان سعيد لأنها ذهبت من الوجود • ان المهم ، المهم في ذلك ، هو أن يعاود المرء الحياة مجددا ؛ أن ينقطع تماما عن الماضي•

ارتفع صوته عندما بلغ تلك النقطة الحساسة التي سببت ألمه ، وهتف مردفا :

ـ هل أنا على استعداد لاجابة ذلك ؟ هل أملك الارادة الكافية ؟ آنّ هذه التجربة ضرورية لي كما يزعمون ! ما فائدة هذه التجارب

الغريبة ؟ ما هي فائدتها ؟ أتراني لا أستطيع فهمها الا بعد أن أكون قد تحطمت من الالم وأصبحت أحمق ، عجوزا مهدما أنهكه قضاء عشرين عاما في سجن الأشغال الشاقة ؟ أي نفع سيكون لي بعد ذلك في الحياة؟ لِمَ تقبلت الان مثل هذا الوجود ؟ أوه ! كنت أعرف أنني نذل وجبان! لقد عرفته هذا الصباح عندما انحنيت على نهر « النيفا » ...

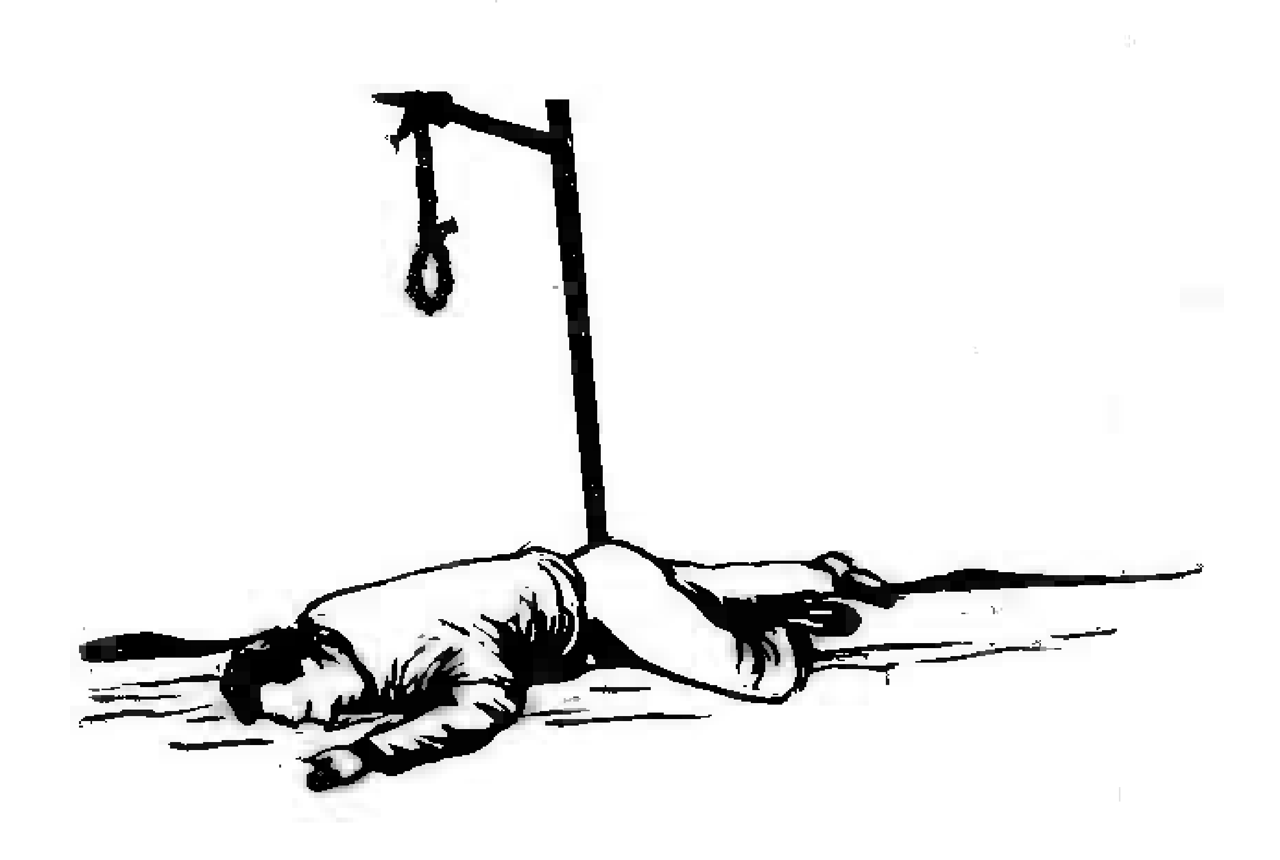
وأخيرا خرج كلاهما . كانت دونيا تحس بألم عنيف واجهاد عميق لكنها كانت تحب أخاها . ابتعدت عنه ولكن لم تقطع خمسين خطوة حتى استدارت مرة أخرى لتنظر اليه . كانت لا تزال تستطيع رؤيته . فلما بلغ منعطف الشارع التفت هو الآخر للمرة الاخيرة وتقابلت نظراتهما . فلما رآها واقفة تنظر اليه ، أشار لها بيده اشارة تدل على نفاذ الصبر والغضب ، ليفهمها بأنه يريد منها أن تتابع طريقها . ثم اختفى وراء المنعطف .

ندم اذ أشار لها تلك الاشارة العنيفة : « انني خبيث ، انني أرى ذلك بوضوح . ولكن لِمَ تحبانني طالما أنني محبتهما ! آه ! ليتني كنت وحيدا ، ليت أحدا لم يحبني قط ، وليتني ما أحببت انسانا قط . لو تحقق لي ذلك لما وقع ما وقع ! انني أضحي بشيء كثير لأعرف ما اذا كنت بعد خمسة عشر أو عشرين عاما سأكون ذا نفس متواضعة أتباكى من النسك والورع أمام الناس ، وأتهم نفسي بالسفالة في كل مناسبة. اه نعم ، هذا هو السبب الذي من أجله يرسلونني الى « الليمان » ... انهم على آثاري وكل واحد منهم سافل نذل بفطرته بل وأسوأ من هذا ... يا لي من أحمق . لكنني اذا حاولت تجنب « الليمان » اعترتهم كلهم غضبة بالتقوى والورع ! أوه ! كم أمقتهم جميعا » .

استغرق في تفكيره وراحت الاراء تتمثل له : « بأية وسيلة يستطيع أخيرا أن يزيل ما بينه وما بين الجميع وأن يصطلح معهم

باخلاص ؟ ثم لم لا يصطلح ؟ لسوف يكون الامر كــذلك . ألا تكفي عشرون عاما من العبودية المستمرة للحصول على هذا الصلح ؟ ان المــاء ينخر الحجر . ثم لم أعيش وما الفائدة من الحياة بعد ذلك ؟ لم أذهب الى هناك وأنا أعرف أن كل شيء سيتم وكأنه مسطور في كتاب ؟ »

وعلى الرغم من أنه ألقى على نفسه هذا السؤال للمرة المائة منذ أمس فانه استمر يتابع الطريق .



٨

لما بلغ مسكن سونيا كان الغسق قد أقبل ، وكانت سونيا قد قضت نهارها كله تنتظره بقلق رهيب • لقد أمضت دونيا شطرا طويلا من النهار معها لأنها تذكرت ما قاله لها سفيدريكايلوف من أن سونيا « تعرف ذلك » • لن نورد هنا تفاصيل الحديث الذي دار بين المرأتين، ولن نصف عبراتهما والعواطف التي أحست بها كل واحدة منهما حيال الأخرى ، بل نكتفي بالقول ان دونيا خرجت من تلك المقابلة الطويلة بعزاء واحد : وهو أن أخاها لن يكون في منفاه وحيدا • لقد جاء اليها ، الى سونيا ، واعترف أمامها قبل أن يعترف أمام انسان • جاء اليها يسألها وجودا حيا الى جانبه ، لما كان ذلك الوجود الحي ضرورة ملحة قصوى بالنسبة اليه • لذلك فانها ستتبعه الى أي مكان يودي به اليه مصيره • صحيح أن دونيا لم [illegible] تأكدت من أن الأمر لن يكون الا على هذا النحو • بل انها كانت تتأمل سونيا بلون من الاحترام ، جعلها أول الأمر تبدو شديدة الخجل ، تكاد أن تبكي لشدة اعتقادها بأنها غير جديرة بأن ترفع أبصارها الى سونيا ، على عكس ما بدر من هذه نحوها • كانت صورة دونيا التي حيتها لأول مرة بكثير من العناية والاحترام ، ابان لقائها الاول بها عند راسكولنيكوف ، محفورة في فؤادها باقية الى الابد • وكانت سونيا تنظر اليها كأجمل وأبدع ما في الحياة •

لم تستطع دونيا تمالك نفسها طويلا ، فافترقت عن (سونيا) ، وذهبت تنتظر أخاها في مسكنه ، لأنها خمنت أنه سيمضي الى هناك أول الأمر • فلما بقيت سونيا وحدها عادت الآلام والمخاوف تستحوذ على نفسها •

كانت تخشى أن يعمد راسكولنيكوف الى الانتحار ، وكذلك كان شعور دونيا . لكنهما كانتا تحاولان اقناع بعضهما باستحالة لجوئه الى الانتحار ، متذرعتين بشتى الحجج والذلالات مسبغتين بذلك الطمأنينة على قلبيهما . لكنهما ما كادتا تفترقان عن بعضهما حتى عادت تلك الفكرة الأليمة تنهش فؤاد كل منهما .. تذكرت سونيا أن سفيدريكايلوف قال لها أمس : « ان أمام راسكولنيكوف طريقين : الذهاب الى سيبيريا أو ... » كانت تعرف مبلغ كبرياء راسكولنيكوف وعقليته واعتداده وفخاره وجحوده ، ففكرت واليأس يغزو صدرها: « ألا يمكن أن يدفعه ضعف نفسه وخوفه من الموت الى التمسك بالحياة ؟ » . كانت الشمس على وشك المغيب وهي لم تبرح مكانها قرب النافذة تنتظر بحزن ، شاخصة البصر ، الى نقطة معينه ، دون أن ترى شيئا الا جدار المنزل المقابل المتسخ . وأخيرا آمنت بأن التعس قد مات فاجتازت عتبة الغرفة .

انطلقت من أعماق قلبها صرخة فرح ، لكنها لم تلبث أن امتقع وجهها فجأة حينما تأملت وجه راسكولنيكوف الذي أطل عليها في تلك اللحظة .

قال راسكولنيكوف مغمغما :

ـ حسنا يا سونيا ، جئت آخذ صلبانك . لقد قلت لي بنفسك أن أمضي الى مفترق الطريق ، وماذا كذلك ؟ ألأن الامر سوف يتم كما قلت ، أراك بدأت أنت الأخرى تخافين ؟

راحت سونيا تتأمله بذهول . لقد بدت لهجته غريبة جدا على مسامعها فأحست بقشعريرة باردة تجتاح جسمها ، لكنها بعد دقيقة واحدة تأكدت من أن تلك الاقوال وتلك اللهجة لم تكن الا خدعة . كان راسكولنيكوف ، وهو يتحدث ، ينظر الى احدى الزوايا متحاشيا التقاء بصره ببصرها .

ـ اسمعي يا سونيا ، لقد فكرت بالأمر واقتنعت بأن الاعتراف أجدى . ان هناك فرصة ... يطول بحثها وشرحها لكن ذلك لا يهم ! أتدرين ما يغضبني ويثيرني ؟ انني أشمئز لمجرد التفكير بأن كل هؤلاء السخفاء منتفخي الوجوه ، هـؤلاء الوحـوش ، سيلتفـون حولي ، ويصوبون مصابيحهم نحوي ، وأنهم سيطرحون علي أسئلة سخيفـة ينبغي أن أجيب عليها ، ويشيرون الي بأصابعهم . بواه ! لن أذهب الى بورفيـر . كفـاني ما نلت منه ازعاجـا . سأذهب الى صـديقي بارود . سوف أذهله للوهلة الأولى . ولكن ينبغي للمـرء أن يحتفظ بهدوئه . انني أثير نفسي منذ مدة طويلة دونما سبب . هل تصدقين أنني منذ حين كدت أرفع يدي مهددا أختي لمجرد أنها التفتت مرة أخيرة لتنظر الي ؟ ان مثل هذه المواقف تجعلني أتصرف تصرفا حيوانيا ! ترى هل انحدرت الى هذا الدرك ! هيا ، أين الصلبان ؟

لم يكن يبدو في حالة طبيعية لأنه ما كان يستقر لحظة في مكان واحد ، ولا يستطيع تركيز انتباهه في شيء واحد . كـانت أفكـاره تتعاقب بسرعة عاصفة تدوي في رأسه ويداه ترتعدان قليلا .

مدت سونيا يدها بسكون الى علبة أخرجت منها صليبين أحدهما من خشب السرو والآخر من النحاس . وبعد أن رسمت علامة الصليب على نفسها وعلى راسكولنيكوف طوقت عنقه بالصليب المصنـوع من السرو .

ـ على العموم ان هذا يعني رمزيا بأنني أحمل صليبي، هه هه ! الحقيقة أنني لم أتألم بما فيه الكفاية حتى الآن ! ان الصليب المصنوع من السرو هو صليب شعبي، أما ذلك النحاس فهو صليب اليزابيت وانك تحتفظين به لنفسك . أرينيه ؟... هكذا اذن كانت تحمله في تـلك اللحظة ؟.. لقد رأيت شيئين آخرين مشابهين لهذين : صليبا من الفضة

وصورة صغيرة . لقد ألقيت بهما آنذاك على صدر العجوز . كان يجب أن أطوق بهما عنقي . على كل حال انني أخرف . انني أنسى قضيتي . انني ساهم ... اعلمي يا سونيا أنني جئت لأبلغك لكي تعرفي ... حسنا ، هذا كل شيء ... لم أحضر الا من أجل هذا . هم ! مع ذلك كنت أفكر في أن أقول أكثر مما قلت . لكنك أنت دفعتني الى اتباع هذا السبيل . لسوف أوضع في السجن . ولسوف تنفذ رغبتك . هيا ، لمَ تبكين ؟ أنت الأخرى ؟ هيا كفي . آه ! كفاني منكما .

في تلك اللحظة نبت في قلبه شعور جديد . شعر أن قلبه يعتصر بينما كان ينظر اليها : فغمغم في سره : « هذه ، رباه ! ماذا أكون بالنسبة اليها ؟ لماذا تبكي ؟ لم تتصرف كما لو كانت أمي أو دونيا ؟ » .

توسلت اليه سونيا بصوت متهدج مذعور :

ــ ارسم اشارة الصليب ، صلِّ قليلا على الاقل .

ــ أوه ! اذا كان ذلك يرضيك لسوف أعمل منه بالقدر الذي تشائين . عن طيب خاطر يا سونيا ، عن طيب خاطر .

كان يود أن يقول شيئا آخر . لكنه لم يستطع الا أن يرسم ويكرر اشارة الصليب . نزعت سونيا منديلها ولفته حول رأسه . كان منديلا من قماش « المدام » . لا شك أنه كان « منديل العائلة » الذي تحدث عنه مارميلادوف . خطرت هذه الفكرة في رأس راسكولنيكوف لكنه امتنع عن السؤال . بدأ يلمس في نفسه سهوما شاذا ، ويحكم أن اضطرابه غير طبيعي . كان ذلك يرعبه . وفجأة أذهله أن يرى سونيا تتهيأ للخروج معه .

هتف بلون من الغضب والحنق ، وهو يتجه نحو الباب :

ــ ماذا تعملين ؟ الى أين تذهبين ؟ ابقي ؟ سأمضي وحدي ؟

ثم أردف مغمغما ، وهو يخرج من الغرفة :

ـ لمَ أحتاج الى مرافقين ؟

لبثت سونيا في غرفتها . لقد تركها دون أن يودعها بكلمة ، لقد نسيها لأنه كان يسير مدفوعا بفكرة ثائرة .

تساءل وهو يهبط السلم : « هل يجب أن أعمل ذلك ؟ هل هذا ما يجب أن أعمله ؟ ألا سبيل الى اصلاح كل شيء ؟... الى عدم الذهاب الى هناك ؟ »

ظل يمشي وهو يحس احساسا نهائيا بأنه لا يجب أن يطرح على نفسه أي سؤال . فلما بلغ الشارع تذكر أنه لم يودع سونيا ، وأنها كانت متسمرة في منتصف الغرفة ، ممسكة بمنديلها في يدها ، لا تريم ولا تتحرك ، خشية أن نغضبه ، فيصيح ويزمجر ! وفي تلك اللحظة بالذات ، ومضت في خاطره فكرة كالبرق ، فكرة بدت كأنها انتظرت تلك اللحظة بالذات لتظهر على أشد ما تكون سيطرة .

« لماذا ذهبت الى مسكنها ؟ لقد قلت لها بأنني جئت من أجل عمل ، أي عمل هو ؟ لم يكن لدي ما أقوله لها ! ألمجرد أن أقول انني ذاهب الى هناك ؟ يا لها من حجة مبررة ؟ ألا يمكن أن أكون أحبها مثلا ؟ لكن كلا ، ويحي كلا ! ألم أنبذها منذ قليل كالكلب ؟ هل كنت في حاجة الى صليبها ؟ ويحي هل انحدرت الى هذا الدرك ! كلا . كانت دموعها هي التي أردت تأملها ، امارات ذعرها ! كنت أريد مشاهدة قلبها ينمزق ويتصهر ! انها حاجتي الى التعلق بشيء ما ، الى التأني والتأخر ، حاجتي الى رؤية مخلوق حي ! وأنا الذي جرؤت على بناء آمال جسام على مقدرتي والتفكير في تلك الاحلام الطامحة ، بينما لست الا متسولا حقيرا نذلا جبانا ! »

كان يسير على طول رصيف القنال ، ولم يكن عليه أن يقطع مسافة طويلة . لكنه ما أن بلغ الجسر حتى توقف ، وانعطف فجأة متجها نحو « سوق العلف » .

راح ينظر بشوق ولهفة يمينا وشمالا محاولا عبثا تفحص كل شيء في طريقه ، لأنه ما كان يستطيع تركيز اهتمامه في شيء • كان كل شيء يفر من أمامه • وأتته فكرة : خلال شهر أو ثمانية أيام سوف أنقل الى مكان ما في احدى عربات السجن ، ولسوف نمر تلك العربة فوق هذا الجسر • فبأي عين سأتأمل القنال ؟ هل سأذكر أنني رأيتها على هذا النحو ؟ وهذه اللافتة كيف سأقرأ أحرفها ؟ انني أرى مكتوبا عليها الان « كامبابينا » فهل سأذكر حرف الـ « آ » هذا ؟ ان عيني توقفتا فترة على هذا الحرف ، فهل سأنظر اليه عند ذاك كما أنظر اليه الان ؟ كيف ستكون احساساتي ومشاعري ؟ رباه ، ان كل هذه ••• المشاغل ينبغي أن تكون حقيرة ! لا شك أن هذا مثير في نوعه ها ! ها ! ها ! بأي شيء كنت أفكر ! انني أتشبه بالصبية الصغار ! كالاطفال • هيا ، لم أحمر خجلا من نفسي ؟ أف ! انهم يدفعونني • لا شك أنه هذا الرجل الضخم، انه ألماني ولا شك ، وهو الذي دفعني • لكن هل يعرف أنه أصابني بمرفقه ؟ ان هذه العجوز التي تجر الطفل معها تطلب مني الاحسان • يا للأمر المثير ! انها تعتقدني أكثر سعادة منها ! لكنني أعتقد أن اعطاءها صدقة لا يخلو من مفارقة لطيفة• حسنا ان في جيبي خمسة «كوبيكات» باقية • من أين أتتني ؟ خذي ، خذي ، خذي أيتها الأم الصغيرة !

هتفت السائلة بصوت منتحب :

ــ ليحفظك الله !

دخل الى « سوق العلف » وأحس بشعور كريه ، بل كريه جدا لاضطراره الى دفع العديد من الاشخاص المجتمعين ليفسح لنفسه ممرا ، مع ذلك فقد كان يتجه الى حيث الازدحام على أشده • كان مستعدا للتضحية بكل شيء في سبيل البقاء وحيدا ، لكنه ما كان يستطيع احتمال تلك الوحدة دقيقة واحدة • كان هناك أحد السكارى

يصخب ، يبدو أنه كان يريد أن يرقص ، لكنه لا يكاد يقف على قدميه حتى يهوي مرة أخرى على الارض . فالتف عدد من الفضوليين حوله . وشق راسكولنيكوف لنفسه طريقا بين الجمع المحتشد ، ونظر بضع لحظات الى حيث كان الرجل الثمل ، فامتلكته ضحكة مجنونة اهتز لها جسده . لكنه بعد دقيقة واحدة لم يعد يرى السكران أمامه . لقد نسيه رغم أن عينيه كانتا تنظران اليه . ابتعد دون أن يدري الى أين مضى وأين بلغ . لكنه ما أن وصل الى وسط الميدان الذي وجد نفسه فيه ، حتى انبعثت حركة في نفسه . شعور اكتسحه من رأسه الى أخمص قدميه . شعور احتل جسده وعقله .

تذكر فجأة أقوال سونيا : « اذهب الى مفترق طرق ، وحي الجمهور ، وانحن الى الارض فقبلها ، لأنك أسأت اليها ، واهتف عاليا ليسمعك الناس : اني قاتل » . ارتعش فجأة وهو يتذكر تلك الكلمات. كانت الالام الهائلة والمخاوف العنيفة التي مرت عليه خلال أيامه السابقة ، وخصوصا في الساعات الاخيرة ، قد هدت قواه ، وأنهكت حيويته ، فانهار بكليته وكأنه أراد أن يتذوق هذا الاحساس الجديد . امتلكته نوبة عجيبة ، وومضت في روحه ومضة ساطعة أزكتها فجأة. أحس بتحنان عميق ، فسالت دموعه على وجنتيه . تهاوى في المكان الذي وقف فيه ، وجثا على ركبتيه وسط الساحة ، وانحنى الى الأرض . قبل الارض القذرة الموحلة بحماس وسعادة ، ثم نهض وانحنى مرة أخرى .

هتف رجل كان قريبا منه :

ـــ انظروا الى هذا . لقد شرب كثيرا !

وتعالت الضحكات من حوله .

أردف أحد الصناع ، وكان نصف ثمل :

ـ انه أحد الذاهبين الى أورشليم ، أيها الأولاد . انه يبتعد عن أولاده ووطنه فيحيي الناس ويقبل مدينة سان بطرسبورغ وأرضها القبلة الأخيرة .

وأجاب ثالث :

ـ انه لا زال شابا فتيا .

فأردف آخر ملاحظا :

ـ ومن أسرة طيبة .

ـ لا يمكن التمييز اليوم بين أبناء الأسر الطيبة ومن ليسوا كذلك .

أزعجت تلك المحاورات والملاحظات راسكولنيكوف ازعاجا كليا حتى أن كلمتي « لقد قتلت » اللتين كانتا على وشك الانطلاق من صدره ماتتا على شفتيه . لكنه احتمل تلك الصيحات بهدوء عجيب واتجه دون أن يلتفت حوله الى قسم الشرطة . لكن مشهدا واحدا مثل أمام عينيه بينما كان في طريقه . مشهدا لم يدهش له ، شعورا خفيا كان يؤكد له حقيقة ما رأى : في اللحظة التي كان منحنيا فيها الى الارض في «سوق العلف » لمح الى يساره على بعد خمسين خطوة من مكانه وجها مألوفا: كان وجه سونيا . كانت تحاول التستر وراء كوخ خشبي لتحجب نفسها عن ناظريه . اذن ، لقد كانت تتبعه الى مصيره المؤلم ! منذ تلك اللحظة، شعر راسكولنيكوف وفهم نهائيا أن سونيا ستبقى معه أبدا ، وستتبعه دائما ، ولو كان ذلك الى نهاية العالم ، الى حيث يقوده مصيره . أحس الفتى بقلبه ينصهر ... لكنه كان قد بلغ المرحلة الأخيرة . دخل الباحة بخطى متزنة ثابتة . وكان عليه أن يصعد الى الطبقة الرابعة . فهتف يشجع نفسه : « الى الأمام ، لنصعد » . خيل اليه أنه لا زال أمامه بعض الوقت وانه يستطيع خلاله أن يتخيل ما شاء من الأفكار .

صافحت أنظاره تلك القذارة المعهودة والقشور التي كانت مبعثرة

على السلم هنا وهناك حيث كانت أبواب المساكن المطلة عليه مفتوحة كعهده بها من قبل ، وعبقت في أنفه رائحة تلك المطابخ التي كانت تتصاعد منها أبخرة الطعام ورائحة الفحم . لم يكن راسكولنيكوف قد عاد الى هذا المكان بعد زيارته الأولى ، فشعر بأن ساقيه لا تقويان على حمله . مع ذلك فقد استمر صاعدا . كان يتوقف أحيانا ليسترد أنفاسه كي يدخل الى القسم كما يدخله «الرجل». راح يتساءل في سره : « ما نفع ذلك : لِمَ أتصنع في حركاتي طالما أنني سأشرب الكأس حتى الثمالة ؟ كلما ازداد الموقف حقارة كلما كان أجدى » . تمثل في خاطره في تلك اللحظة وجه ايليا بيتروفيتش ، فراح يتساءل من جديد : « هل أمضي اليه حقيقة ؟ ألا أستطيع أن أتوجه الى أي آخر ؟ لِمَ لا أقصد الى نيكلوديم فوميتش ؟ ماذا لو ذهبت الان مباشرة الى مسكن رئيس البوليس ؟ ان استسلامي في هذه الحالة سيكون أقل اشتهارا ؟ كلا ! كلا ! علي بـ « بارود » . ولنشرب الكأس جرعة واحدة طالما أنه لا بد من شربها » .

كانت قشعريرة بارده تسكن في أطرافه ، ولما فتح باب المكتب لم يكن يعي ما يعمل . لم يكن في الحجرة في تلك اللحظة عدد كبير من الأشخاص . كان هناك بواب ورجل من الشعب في الردهة . أما الحارس المناوب فلم يرفع عينيه الى فوق الحاجز . تخطى راسكولنيكوف الحجرة الى الغرفة المجاورة وفكر فجأة : « انه لا زال يستطيع التزام الصمت » . كان أحد المقيدين من رجال الشرطة مرتديا ألبسة مدنية ، جالسا أمام مكتب يدون شيئا ، وكان آخر قابعا في احدى الزوايا ، أما زاميوتوف فلم يكن موجودا وكذلك نيكوديم فوميتش لم يكن في مكتبه .

سأل راسكولنيكوف موجها حديثه الى الجالس وراء المكتب :

ـ ألا يوجد أحد ؟

ـ من تريد ؟

وارتفع صوت عرفه راسكولنيكوف فانتفض :

ـ هبه هبه ! ••• لقد خمنت دون أن أرى أو أسمع شيئا ، انـه روسي كما جاء في احدى القصص ••• احتراماتي •

كان « بارود » واقفا أمامه في تلك اللحظة وقد خرج من الغرفـة الثالثة • فكر راسكولنيكوف في سره : « ان القدر يريد ذلك • لماذا وجده في تلك اللحظة ؟ » •

بدا ايليا بيتروفيتش وديعا حسن الوجه في تلك اللحظة ، فهتف:

ـ أنت عندنا ؟ كيف ذلك ؟ انك اذا كنت هنا بصدد عمل ما، فان الوقت مبكر جدا • انني شخصيا لم أحضر الا بمحض الصدفة • على كل حال أية خدمة أستطيع •• ثق أنني •• ماذا كان اسمك ؟ اعذرني••

ـ راسكولنيكوف •

ـ صحيح راسكولنيكوف ! لا تظنن أنني كنت ناسيا اسمك • أرجوك أن لا تصدق ، ياروديون ••• رو ••• روديونيتش ، أليس كذلك ؟

ـ روديون رومانوفيتش •

ـ آه نعم نعم نعم، روديون رومانوفيتش، روديون رومانوفيتش! ذلك هو الاسم الذي كنت أبحث عنه • لقد استفسرت أكثر من مـرة عن أخبارك • انني أعترف لك بأنني منذ [illegible] شـديد الأسف للمعاملة التي لقيتها بسببي ••• لقد أوضحوا لي الأمر بعدئذ ، ففهمت أنك أديب شاب بل وعالم ••• وأنـك كنت تخطـو خطواتك الأولى اذا صح القول ••• رباه ، من هو ذلك الأديب ، بل من هو ذلك العالم الذي لا يتصرف في بدء حياته تصرفا طائشا ؟ ان زوجتي وأنـا

نحب الأدباء • أما زوجتي فانها تشعر نحوهم بميـــل عنيف ! الأدب والفن ! مهما بلغ المرء من نبل المحتد فان الحياة لا يمكن أن تدين له الا بالموهبة والعلم والعقل والعبقرية • القبعة ، ما هي القبعة ؟ ما معناها؟ انها قطعة مستديرة أشتريها من محلات « زيميرمان » • لكن ما تخفيه القبعة ، أو ما هو تحت القبعة ، فـانني لا أستطيـــع أن أشتريــه !••• أعترف لك بأنني أردت شخصيا أن أزورك في مسكنك لأعتذر لك • لكنني فكرت بأنك قد ••• على كل حال ، هل لك أن تبين سبـــب زيارتك ؟ لقد بلغني أن أسرتك جاءت تزورك •

ــ نعم ، أمي وأختي •

ــ لقد تشرفت مرة وأسعدت بالالتقاء بأختك • انها مثقفة شديدة الفتنة • انني آسف ، وأعترف بأن الموقف الذي جرى بيننا لم يكن الا صدفه مزعجة ! غير أنني اذا نظرت اليك في حينه نظرة شك بسبب اغمائك ، فان أسباب ذلك الاغماء قد وضحت بشكـــل صـارخ ، ان نظريتي كانت خالية ! انني أفهم سبب انزعاجك • لـــكن ألا تفـــكر في تبديل مسكنك بمناسبه وصول أسرتك ؟

ــ كلا ••• لقد جئت أسألك ••• كنت أعتقـــد أنني ســـأجد زاميوتوف •

ــ آه ! نعم ••• لقد أصبحتما صديقين ، سمعتهم يقولون ذلك• حسنا ان زاميوتوف لم يعد عندنا • انك لن تجده بعد اليوم • نعم لقد فقدنا ألكسندر غريغوريفيتش ! اننا منذ البارحه لم نعد نستفيد من خدماته لأنه قدم استقالته ••• بل انه قبل ذهابه وجه كلمات نابية الى كل الموجودين تقريبا • نعم لقد اندفع الى حد الخـــروج عـــن الأدب واللياقة ••• انه أبله ينقصه الاتزان في عقله ليس أكثر • صحيح أنـــه كان يرجى له بعض الصلاح لكن ، هيا وجرب شبيبتنا اللامعة • يبدو

أنه سيجتاز الغموض ليسبب لنا متاعب في المستقبل ، برهانا على أنه نجح • لكن أمره يختلف كل الاختلاف عن أمرك أنت ، وعن أمر السيد رازوميخين صديقك • لقد أقمت لنفسك كيانا علميا وسلكت هذا السبيل ، ولايمكن لأي اخفاق أن يجعلك تحيد عنه ! فيما يتعلق بك، أعتقد أن كل ما يكون جمال الحياة التجديدية الملحدة يروق لك، أليس كذلك ؟ ان حياتك تشبه حياة ناسك أو متعبد !••• كتاب وقلم وراء أذنك وبحوث علمية ، تلك هي كل سعادتك ! انني شخصيا الى حد ما ••• هل قرأت مذكرات « ليفيغستون (١) » ؟

ــ كلا •

ــ أما أنا فقد قرأتها • ان عدد الملحدين يزداد باطراد • والأمر شديد الوضوح • في أي وقت نعيش نحن ؟ انني أسألك • لكن ها أنا ذا أتحدث معك ••• لا شك أنك لست ملحدا • أجب بصراحة • بصراحة •

ــ كلا •

ــ كلا ؟ انك تستطيع التحدث بكل صراحة • لا ترتبك أبدا• كن معي وكأنك وحيدا مع نفسك • ان الوظيفة شيء و ••• شيء آخر • لعلك ظننت أنني سأقول والصداقة • ولكن لا ! انك لم تخمن ! ليست الصداقة ، ولكن شعور الرجل ، شعور المواطن ، شعور الانسانية والحب نحو الله القادر • صحيح أنني شخصية رسمية ، موظف، لكنني لست في حل من التحرر من الشعور بأنني مواطن ورجل ، وأنني يجب أن أثبت ذلك ••• خذ مثلا ••• لقد تحدثت عن زاميوتوف • ان

---

(١) ليفينغستون : دافيد ليفيغستون رحالة انجليزي ولد في ايقوسيا • زار افريقيا الوسطى والجنوبية ومنطقة زاميز في البحيرات الكبرى • وكان مبشرا حارب الرقيق الاسود ١٨١٣ ــ ١٨٧٣ ــ المترجم ــ

زاميوتوف هذا على استعداد لأن يصخب ويمرح على الطريقة الفرنسية في كل الاماكن الموبوءة اذا كان محتسيا قدحا من الشامبانيا أو من خمرة « الدون » . هذا هو زاميوتوف ! أما أنا فانني شديد الاخلاص كما يمكن أن أقول ، تشتعل في نفسي عواطف سامية. ثم ان لي مركزي ورتبتي ومرتبتي التي أشغلها ! وأنا متزوج وعندي أولاد . انني أقوم بواجبي كرجل ومواطن . بينما هو ، من هو ؟ اسمح لي أن أسألك . انني أتوجه اليك بالحديث بوصفك رجلا رفعته الثقافة . خذ مثلا كذلك النساء العاقلات . لقد ازداد عددهن أكثر من الحد المعقول ...

كان راسكولنيكوف ينظر اليه بتبلد ، وكانت كلمات ايليا بيتروفيتش التي اقتبسها ولا شك عن كتاب ما ، تدوي في أذنيه، وكأنها كلمات فارغة المعنى . مع ذلك فانه كان يفهم بعضا منها ، وكان يسأل ايليا بيتروفيتش بعينيه وهو لا يدري كيف يصل الى نهاية كل هذا.

تابع ايليا بيتروفيتش الذي لم يكن ينصب له معين :

— انني أتحدث عن أولئك الفتيات الناعمات ذوات الشعر المقصوص . لقد أسميتهن بنفسي بالنساء العاقلات . وأعتقد بأن هذا اللقب موفق تماما ! ها ! هذه تدرس ، وتلك تتعمق في التشريح. قل لي بربك اذا مرضت ذات مرة، فهل سأستدعي فتاة لتعالجني؟ هه هه!

انفجر ايليا بيتروفيتش ضاحكا سعيدا بكلماته الطيبة :

— ولنفترض أن القضية ليست الا تعطشا للعلم ، تعطشا أهوج . ولكن عندما يتثقف المرء سينوقف ، فلمَ اذن يسيء التصرف ؟ لم يهين المرء شخصيات نبيلة كما فعل ذلك الصعلوك زاميوتوف ؟ تصور زاميوتوفا يهينني ! ثم لاحظ هذه السلسلة من حوادث الانتحار التي لا تنفك تتزايد . انك لا تتصور بشاعتها . انهم هنا يأكلون آخر قرش معهم ثم ينتحرون . فتيات وغلمان وعجائز من كل نوع . خذ مثلا هذا

الصباح . لقد أبلغنا أن سيدا وصل مؤخرا الى هنا .. نيل بافليتش ،
اه ! نيل بافليتش ! ماذا كان اسم ذلك السيد الذي أطلق الرصاص على نفسه في بطرسبورغ القديمة ؟

فأجاب صوت صدى آت من الغرفة المجاورة بلهجة لا مبالية :

ـ سفيدريكايلوف .

ارتعد راسكولنيكوف وهتف دون وعي :

ـ سفيدريكايلوف ! سفيدريكايلوف أطلق الرصاص على نفسه؟

ـ كيف ؟ كيف تعرف سفيدريكايلوف ؟

ـ نعم كنت أعرفه ... لقد وصل منذ فترة قصيرة .

ـ حسنا جدا . صحيح أنه قدم منذ فترة قصيرة . لقد فقد زوجته ، مع ذلك فقد كان من ذلك الطراز الذي لا يعيش الا في البؤر، وفجأة أطلق على نفسه رصاصة . لقد ترك بضع كلمات في دفتره ، قال فيها أنه يموت وهو ممتلك لكافة قواه العقلية ، وأنه لا ينبغي أن يتهم أحد بموته . لقد كان يبدو غنيا هذا الرجل ، كيف عرفته ؟

ـ لقد ... عرفته ... كانت أختي مدرسة في بيته .

ـ ها ها ! فهمت ! انك اذن تستطيع امدادنا بالمعلومات . هل لديك بعض الظنون ؟

ـ لقد رأيته البارحة ... كان ... يشرب خمرة ... لست أعرف شيئا .

شعر راسكولنيكوف كأن حملا ثقيلا قد انهار فوقه وسحقه .

ـ ها قد عدت الى الشحوب ! ان الحرارة هنا خانقة ...

غمغم راسكولنيكوف :

ـ نعم . آن لي أن أنصرف . اعذرني لقد أزعجتك ...

ـ آه لا أرجوك . انني في خدمتك ! لقد سرتني زيارتك . انني سعيد جدا أن أقول لك ...

ـ لقد أردت فقط ••• لقد جئت أرى زاميوتوف •••

مد له ايليا بيتروفيتش يده ، وقال :

ـ انني أفهم ، انني أفهم • سرني حضورك •

فقال راسكولنيكوف باسما :

ـ وأنا كذلك سعيد • الى اللقاء •••

خرج مترنحا وهو يشعر بدوار عنيف في رأسه • لم يكن يحس بأنه واقف على قدميه • راح يهبط السلم ، معتمدا بيده اليمنى الى الجدار • خيل اليه أن آذنا كان يحمل دفترا في يده اصطدم به ، وهو يمر بجانبه داخلا الى قسم البوليس ، وأن كلبا كان يعوي في مكان ما في الطبقة الاولى ، وأن سيدة ألقت عليه حصاة وصاحت به تسكته ••• ولما بلغ أسفل السلم ، نزل الى الباحة ، فرأى سونيا واقفة هناك ، ممتقعة الوجه كالأموات ، تنظر اليه نظرة عابسة • توقف قليلا أمامها فبان على وجهها ألم ويأس ، وباعدت بين يديها يائسة • فارتسمت على شفتيه ابتسامة حائرة ، وتوقف برهة ينظر اليها ، ثم قفل راجعا يصعد مجددا سلم دائرة البوليس •

ـ آه آه آه ! ها أنتذا من جديد • هل نسيت شيئا ؟ ولكن ما بك ؟

كانت شفتاه ممتقعتين ونظرته شاخصة • مع ذلك فقد اقترب ببطء حتى بلغ المكتب الذي جلس وراءه ايليا بيتروفيتش واتكأ عليه بيده• كان يريد أن يقول شيئا لكن الكلمات خرجت من فمه غير مفهومة •

ـ هل أنت مريض ؟ أتريد مقعدا ؟ هاك اجلس هنا اجلس • علي بقدح ماء •

تهاوى راسكولنيكوف على المقعد • غير أن عينيه لم تبارحا وجه ايليا بتروفيتش الذي بدا شديد الذهول والدهشة • راح يتفرس في وجهه الآخر خلال دقيقة طويلة • وجيء بالماء •

شرع راسكولنيكوف يقول :

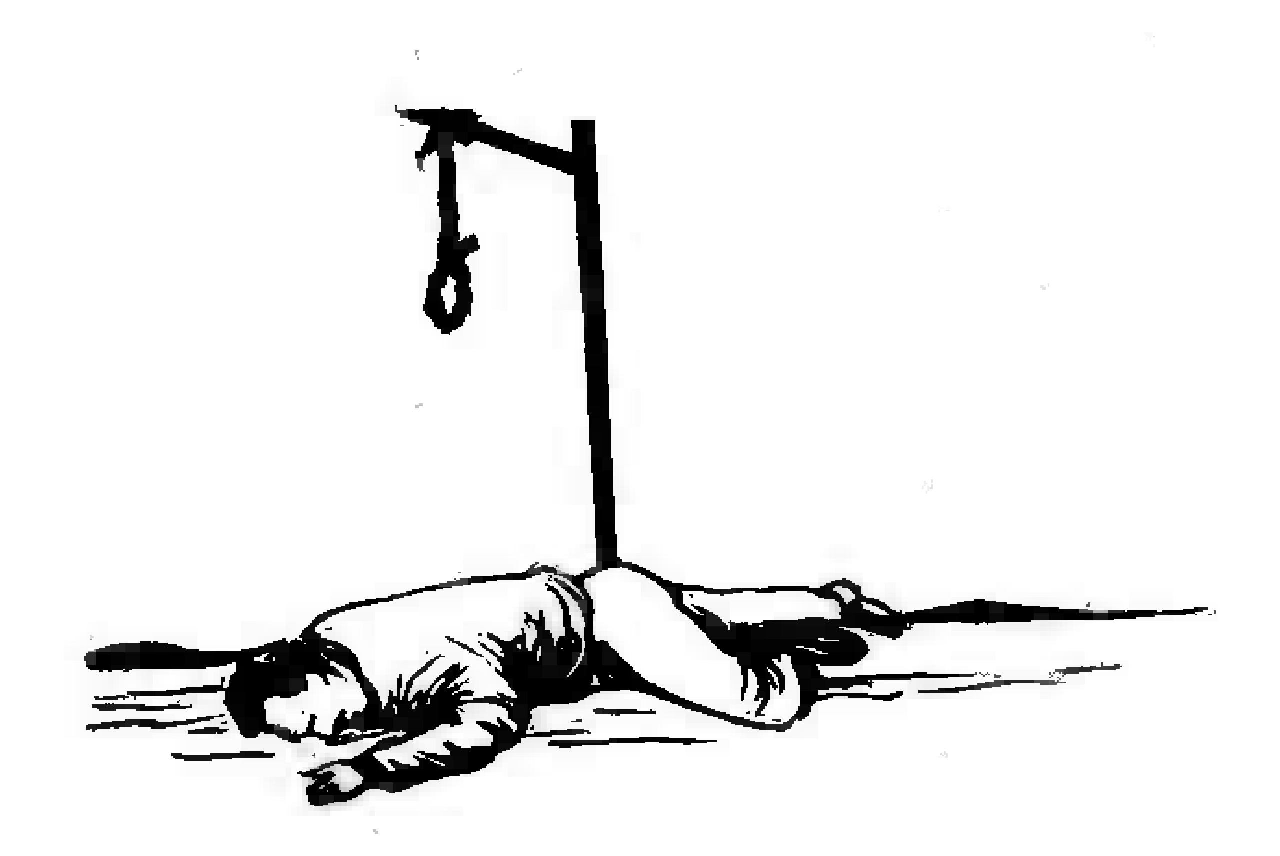
ـ انه أنا ...

دفع راسكولنيكوف بيده القدح واعتدل في جلسته ثم قال بهدوء ولهجة واضحة :

ـ انني أنا الذي قتلت العجوز المرابية وأختها اليزابيت بضربات فأس وسرقتهما .

وقف ايليا بيتروفيتش فاغرا فاه دهشة ، وتهافت الموظفون من كل صوب .

وجدد راسكولنيكوف اعترافه .



الخاتمة



سيبيريا . على ضفة نهر عريض قاحل تقوم مدينـة ، هي أحـد المراكز الادارية في روسيا ، وفي تلك المدينة حصن ، وفي ذلك الحصن سجن . كان روديون راسكولنيكوف نزيل ذلك السجن منذ شهرين محكوما عليه بالأشغال الشاقة من الدرجة الثانية . وكان قد مضى على جريمته ثمانية عشر شهرا .

لم تجد قضيته صعوبات تذكر أمام القضاء ، فلقد جدد القاتـل اعترافه بشيء كثير من الثبات والدقة والوضوح دون أن يخـلط بيـن المناسبات أو أن يحاول تخفيف الأمور وتحوير الحوادث في مصلحته . لم يدع شاردة ولا واردة الا وأوردها . سرد الوقائع من ألفها الى يائها. وأوضح سر قطعة الخشب المغطـاة بالصفيـح التي وجـدت بين يدي العجوز ، وتحدث عن الطريقة التي انتزع بها المفاتيح من جيب القتيل ، ووصف تلك المفاتيح بدقة وكذلك الصندوق . بل وعـدد بعضا مـن موجوداته ! وفسر مقتل اليزابيت الغامض ووصف الطريقة التي قرع بها « كوخ » الباب ، وكيف وصل الطالب بعد ذلك ، وروى الحديث الذي تبادلاه ، وكيفية فراره وسماعه صرخات نيكولا ودميتري أثنـاء هبوط السلم ، وروى كيف اختبأ في المسكن الخالي الذي بارحه الى بيته ، وعين في « شارع الصعود » الساحة المسورة التي أخفى الأشياء والمال تحت حجر قرب الباب فيها . والخلاصة ، فانه لم يترك شيئـا غامضا ! وقد دهش المحققون والقضاة بصورة خاصة حينما تأكدوا أن القاتل أخفى المسروقات والمال تحت حجر دون أن يحاول الافادة منها، وأنه لا يذكر تماما نوع الأشياء التي سرقها بل انه يخطىء كذلك في

عددها • ثم ان عدم فتحه حافظة النقود واطلاعه على ما بداخلها كـان وحده أمرا يصعب تصديقه • كان في تلك الحافظة ثلاثمائه وسبعة عشر روبلا وثلاث قطع من فئة العشرين كوبيكا • وكانت الأوراق المالية قد تأثرت لشدة تعرضها للشمس تحت ذلك الحجر • لبث القضاة زمنـا طويلا لا يفهمون كيف أن المجرم صدقهم القول في كل شيء ، وكذب في هذه الناحية فقط • كيف روى كل الملابسات الأخرى بطلاقة وصدق وتستر حول هذا الموضوع • وأخيرا توصل بعضهم ـ وكانوا من العلماء النفسانيين ـ الى اعتبار ذلك الأمر ممكنا ، وأنه يجوز أن يكون لـم ينظر الى ما في المحفظة ، وأن يكون جاهلا بمحتوياتها عندما أودعهـا تحت ذلك الحجر • لكنهم قرروا على الفور أن الجريمة ما كانت لتقع لو لم يكن المجرم فريسة جنون مؤقت ، لون من « المونومانيا »، وأن القتل والسرقة قد وقعتا دون مبررات أخـرى كالسعي وراء مصلحة شخصية مثلا • واستشهدوا بالنظرية العلمية الجديدة التي تجيز وقوع شلل عقلي مؤقت ، والتي يحاول عدد من المحامين تطبيقها على موكليهم للفوز بالأسباب المخففة • ثم ان حـالة الذهـول الطـويل التي كـان راسكولنيكوف فريسة لها قررت وأيدت بشهادات عدد من الشهود بينهم زوسيموف وأصدقاء راسكولنيكوف وصاحبة المسكن وكذلـك الخدم ، كل ذلك ساعد على تكوين فكرة عن راسكولنيكوف مفادهـا أنه لم يكن مجرما عاديا ، قاتلا أو لصا سارقا ، بل ان في الأمر شيئـا آخر ينبغي مراعاته • ولشدة ذعر أصحاب هذه النظرية ومؤيديها، فان راسكولنيكوف لم يحاول أبدا أن يدافع عن نفسه لما طرحت عليـه الأسئلة الأخيرة ، وسئل عن السبب الذي جعله يرتكب جريمتي القتـل والسرقة • فقد أجاب بدقة خشنة : ان السبب كان الفاقة فقط والحالة السيئة التي كان فيها ورغبته في تـأمين خطـواته الأولى في الحيـاة بالاستعانة بمبلغ ثلاثة آلاف روبل كان يعتقد أنه واجدها عند ضحيته•

وقال انه صمم على قتلها بسبب اسفاف عقله ودناءة طبعه لأنه كان غاضبا محنقا بسبب الحرمان والعوز والحاجة • ولما سئل عن السبب الذي حدا به الى الاعتراف بجرمه بنفسه ، قال انه الندم المخلص • كان الأمر يبدو كله شديد المجون •••

لكن حكم المحكمة كان رحيما • فقد عني فيه بالاشـارة الى أنه نظرا لان المجرم حاول ، بدلا من السعي الى تخفيف جرمه ، ادانة نفسه بشكل أشد ، ونظرا للملابسات والظروف الغريبة الخاصة التي أحاطت بهذه القضية ، فان المحكمة لا يمكن الا أن تنظر اليها بعين الاعتبار• ثم ان حالة المجرم المرضية والفاقة التي كان فيها قبل ارتكـابه الجريمة لا شك فيهما • أما سبب عدم استفادته من المسروقات فقد عزته المحكمـة الى يقظة ضميره والى حالته العقلية التي لم تكن سليمة حـال ارتكابه الجرم • وجاء مقتل اليزابيت العرضي يدعم أقوال المحكمة • لأن المجرم قتل ضحيتين بينما نسي الباب مفتوحا خلال هذا الوقت ! ثم انه جاء يمشي بنفسه في اللحظة التي كانت القضية تتعقد بشكل غريب، وتزداد غموضا بسبب اعتراف نيكولا الخاطيء ، ذلك الاعتراف الذي يدل على أن صاحبه [illegible] • ان الاعتراف من قبل القاتل الحقيقي جاء في فرصة لم يكن التحقيق يملك أي اشارة أو دليل يفضحه ، بل وأي شك (وهذا يدل على أن بورفيـر بيتروفيتش بـر بوعـده حتى النهاية) • كل ذلك أخذ في مصلحة القاتل ومنحه أسبابا مخففة • ثم ان حوادث معينة قامت فجأة فأدى الكشف عنها الى زيادة العطف على القاتل • ذلك أن الطالب السابق رازوميخين استطاع أن يكشف في مكان ما عن وجود بعض الشهود الـذين استدعـاهم ، فأقسمـوا أن القاتل راسكولنيكوف ، كان خلال دراسته في الجامعة ينفق كل موارده على مساعدة زميل فقير ، مصاب بمرض في صدره ، وأنه استمر ستة أشهر

متتالية يقوم بأوده وينفق عليه ، فلما مات ذلك الطالب الفقير ، اهتم راسكولنيكوف بأبيه وهو شيخ عليل سقيم وحيد في الحياة بعد فقده ابنه الذي كان مورد رزقه الوحيد منذ أن كان في الثالثة عشرة من عمره . وقالوا ان راسكولنيكوف أدخل العجوز الى مأوى عام ، ودفع بعد ذلك كل نفقات دفنه عندما مات . وجاءت الارملة زارنيستين تشهد أن راسكولنيكوف كان خلال سكناه عندها في شارع «الزوايا الخمس» قد شهد حريقا في مسكن قريب كان فيه طفلان على وشك الموت احتراقا، فاندفع مغامرا بين النيران وأنقذ الطفلين بعد أن أصيب بحروق في جسده ! وقد أجري تحقيق دقيق للتأكد من صحة أقوال الأرملة، فثبتت حقيقتها بشهادة عدد كبير من الشهود . فكانت تلك الاسباب كلها داعية الى صدور حكم المحكمة بسجن راسكولنيكوف مع الاشغال الشاقة مدة ثمانية أعوام (الدرجة الثانية) نظرا لأنه اعترف بنفسه بجرمه في تلك الظروف وبسبب تلك الاسباب المخففة المذكورة .

كانت أم راسكولنيكوف قد سقطت مريضة منذ بدء محاكمة ابنها فاستطاعت دونيا ، بمساعدة رازوميخين ، ايجاد الوسيلة لنقلها خارج بطرسبورغ خلال مدة المحاكمة . وانتقى رازوميخين مدينة صغيرة واقعة على مسافة قريبة من بطرسبورغ ، يربط بينهما خط حديدي ، فأتاح لنفسه بذلك امكانية حضور جلسات محاكمة راسكولنيكوف ، ورؤية أفدونيا رومانوفنا كلما أتاحت له الظروف . كان مرض بولشيري ألكسندروفنا يرجع الى تأثر أعصابها تأثرا غريبا يرافقه خلل في الدماغ لم يظهر بشكل كلي ، لكنه كان موجودا جزئيا بالفعل . وكانت دونيا، عندما عادت الى مسكنها بعد آخر لقاء مع أخيها ، قد وجدت أمها فريسة الحمى والهذيان فاستطاعت ذلك المساء أن تتواطأ مع رازوميخين وتتفاهم معه حول الأجوبة الواجب تقديمها ردا على أسئلة الأم ، عندما ستأخذ

هذه بالاستفسار عن ابنها، اختلقا قصةطويلة قالا فيها ان راسكولنيكوف سافر بعيدا الى الحدود الروسية ، حيث أرسل بمهمة خاصة تعود عليه بالمال الوفير والشهرة الذائعة • لكن دهشتهما بلغت حد الذهول عندما وجدوا أن بولشيري ألكسندروفنا لم تتقدم لا في ذلك الحين ولا بعد ذلك أبدا بأي سؤال عن راسكولنيكوف • بل على العكس • لقد صور لها تفكيرها قصة كاملة تفسر سبب ذهاب ابنها المفاجيء • كانت تروي باكية وقائع زيارته الاخيرة أحيانا بأنها ملمة بعدد من الظروف الخطيرة جدا والسرية جدا ، وأن روديا نظرا لكثرة أعدائه المتنفذين اضطر الى الاختفاء • أما فيما يتعلق بمستقبل ابنها فانها ما كانت تشك في أنه سيكون لامعا جدا حالما تزول بعض الاسباب العدائية التي تقوم حائلا دونه والمجد في الوقت الحاضر • كانت تؤكد لرازوميخين أن ابنها سيصبح في يوم ما رجلا بارزا من رجال الدولة ، والدليل على ذلك المقال الذي كتبه ، والأسلوب الادبي الرائع الذي سبكه فيه • كانت تقرأ ذلك المقال باستمرار ، بل وكانت تقرأه أحيانا بصوت مرتفع، حتى لكأنها تنام والمقال بين يديها • مع ذلك فانها لم تسأل أبدا أين يمكن أن يكون روديا • خشي رازوميخين أن يثير سكوتهما عن بحث موضوع راسكولنيكوف سحابة شك في نفس أمه • لكنهما ما لبثا أن راحا فريسة ذعر وقلق عندما حاولا تفسير أسباب سكوت بولشيري ألكسندروفنا • كانت لا تشكو عدم ارساله أخبارا عنه اليها ، رغم أنها كانت من قبل ، عندما كانت في مدينتها الصغيرة ، لا تستطيع الحياة الا على أمل وصول رسالة من حبيبها روديا ، رسالة كانت تترقب ورودها بلهفة وشوق • أما سكوتها الاخير فلم تستطع دونيا تفسيره • لذلك ازداد قلقها • خمنت أن أمها شاعرة بالبلاء المخيف الذي وقع لابنها، وأنها كانت تخشى استجوابهما خيفة أن يحملا اليها أخبارا أشد سوءاً• على كل حال كانت دونيا تشعر بأن أمها لم تعد مالكة كل قواها العقلية•

مع ذلك فقد حدث مرتين أن أثارت بولشيري ألكسندروفنا حديثا كان يستحيل على دونيا الدخول فيه دون أن تعين مكان وجود روديا في الوقت الحاضر ، فلما أصبحت الأجوبة مشبوهة وغامضة نظرا لوجوب اخفاء الحقيقة عنها ، سقطت المسكينة فريسة حزن عميق. اقتنعت دونيا أخيرا بأنه يستحيل الاستمرار على التلفيق والكذب، واعتقدت أنه من الأصول التسلح بالسكوت المطبق حول نقاط معينة. لكنه بدا واضحا جدا يفقأ العين أن الأم المسكينة أصبحت تشك شكا قويا ، وتتوقع أمرا مروعا . تذكرت دونيا تنفا من حديث أخيها: لقد قال لها أن أمها سمعتها تتحدث في حلمها أثناء تلك الليلة التي أعقبها اليوم الحاسم ، وكان ذلك في لقائهما الاخير بعد الحادث الذي وقع لها مع سفدريكايلوف . فهل يجوز أن تكون أمها سمعت شيئا معينا ؟ كانت المريضة تسقط أحيانا في لون من الانفعال العصبي ، فتتحدث بصوت مرتفع عن ابنها ، حديثا مطولا تصفه فيه بأنه أملها الوحيد ، وأنه أقصى ما تتمناه في الوجود . وقد وقع لها حالات مشابهة لتلك الحالة بعد أيام وأسابيع عديدة من صمت ثقيل ودموع مكتومة. كان خيالها ينقلب أحيانا الى لون من الوهم ، فكانوا يعزونها وكانوا يجارونها في الحديث. كانت — هي — شاعرة بأن حديثهم ليس الا لونا من العزاء والمسايرة ، مع ذلك فانها كانت تستمر في الحديث ...

بعد مرور خمسة أشهر على اعتراف راسكولنيكوف بجرمه، لفظت المحكمة حكمها . وكان رازوميخين يزوره في سجنه على قدر ما كان يستطيع الزيارة ، وكذلك كان شأن سونيا . وأخيرا دقت ساعة الانفصال . أقسمت دونيا لأخيها أن ذلك الفراق لن يكون أبديا . وكذلك أقسم رازوميخين . كان رازوميخين يغذي في دماغه الفتي المتقد فكرة عزم على تنفيذها ، وكانت تلك الفكرة تقضي بأن يجمع

خلال السنتين أو السنوات الثلاث المعقبة ما يستطيع جمعه وادخاره من المال ، حتى يتيسر له الهجرة مع دونيا وأمها الى سيبيريا ، حيث الارض غنية بكل شيء ، ولكنها في حاجة الى الايدي القوية ورؤوس الأموال. وقرر أن ينزلوا في تلك المدينة التي يكون فيها راسكولنيكوف .. و ... لسوف يبدؤون جميعا حياة جديدة .

بكوا جميعهم عند الفراق . كان راسكولنيكوف في أيامه الاخيرة منشغل الخاطر يتحدث كثيرا عن أمه ويبدي قلقا واضحا بسببها . كانت فكرته هذه شديدة التأصل في نفسه ، حتى أن دونيا شعرت بفزع شديد وخوف على مصير أخيها . فلما أنبىء بشكل لبق بمرض أمه ، تجهم وجهه وامتقع . لقد بدا قليل الاتصال بسونيا عازفا عنها بشكل مثير ، أما سونيا ، فقد كانت مستعدة منذ أمد طويل لتتبع موكب المساجين الذين سيكون راسكولنيكوف واحدا منهم . لقد أفادتها السندات الثلاثة التي منحها اياها سفيدريكايلوف . لكنها لم تلمح أبدا أمامه الى عزمها هذا ، رغم أن كليهما كانا واثقين من أن الأمر لن يكون الا كذلك . وفي لحظات الفراق الاخيرة ، ابتسم راسكولنيكوف ابتسامة غامضة ، وهو يصغي الى أقوال أخته وتكهنات رازوميخين الحماسية حول المستقبل والحياة الجديدة التي ستكون ممهدة له بعد خروجه من السجن . أحس سلفا بأن أمه ستموت قريبا . مع ذلك فقد سار مرغما في طريق المنفى تتبعه سونيا .

بعد شهرين من تاريخ ذهاب راسكولنيكوف الى منفاه تزوج رازوميخين من دونيا ، وكانت مراسم الزواج مكتومة حزينة . لم يكن بين المدعوين الا زوسيموف وبورفير بيتروفيتش ، وكان وجه رازوميخين قد انطبع في الأيام الاخيرة بطابع من العزم المكين . كانت دونيا تؤمن ايمانا أعمى بأنه سيتوصل الى تنفيذ مشروعاته ، ولم يكن

لها الخيار في التفكير خلاف ذلك ، لأن ارادة حديدية كانت تتمثل في هذا الرجل • عاد الى متابعة دروسه في الجامعة بغية انهاء تحصيله ، وكانت دونيا لا تكف عن مساعدته في التمهيد وبحث خطط المستقبل• كان كلاهما يأملان الذهاب الى سيبريا بعد فترة أقصاها خمس سنين ، وبانتظار ذلك كانا يعتمدان على سونيا •

باركت بولشيري ألكسندروفنا زواج ابنتها من رازوميخين بسرور ، غير أنها لم تلبث بعد ذلك الزواج أن سقطت في حزن أعمق• ولكي يقدم لها رازوميخين تسلية مناسبة ترفه عن نفسها، راح يروي لها قصة ذلك الطالب الذي كان أبوه شديد الفقر متقدما في السن، ويشرح لها سلوك روديا خلال الحريق الذي وقع والذي أصيب بسببه بحروق اضطر على أثرها الى ملازمة سريره • أشاد بمروءته التي لولاها لما أنقذ طفلان في سن الزهر من موت محقق• وجدت بولشيري ألكسندروفنا في تينك القصتين ما يبعث في نفسها الحماس ، فلم تعد تتحدث بشيء غيرهما • كانت توقف المارة في الشارع وتدخل معهم في حديث تذكر لهم فيه مزايا ابنها كلما استطاعت الافلات من رقابة دونيا • وكان هذا شأنها في الحافلة الكهربائية وفي الدكاكين وفي كل مكان ••• ولم تكن دونيا تجد الوسيلة المناسبة لمنعها عن الاسترسال في ذلك• لأنها الى جانب خوفها من اشتداد حالة مرض أمها العقلي ، كانت تخشى أن يذكر بعضهم الجريمة التي ترافق اسم راسكولنيكوف ، فيروي طرفا منها الى الأم • واستطاعت بولشيري ألكسندروفنا الحصول على عنوان أم الطفلين اللذين أنقذهما ابنها ، وألحت تريد الذهاب لزيارتهما • وأخيرا بلغ حزنها حدوده القصوى ، فكانت فجأة تنفجر منتحبة، وأصبحت شديدة المرض تهذي بتأثير الحمى • وذات صباح صرحت بتأكيد جازم أن روديا لن يتأخر عن المجيء بناء على حساب دقيق وتقدير صحيح • لأنها تذكر أنه أكد لها عند وداعه الاخير أنه سيعود بعد تسعة

أشهر • فراحت ترتب المسكن وتعد كل شيء لاستقبال ولدها البكر، وتهيء غرفتها ليحل فيها ، فتنفض الغبار ، وتمسح الارض ، وتغسل الثياب ، وتعلق ستائر جديدة ، الخ ••• وعلى الرغم من أن دونيا كانت شديدة الاضطراب قلقة على أمها ، فانها راحت تساعدها في تهيئة الغرفة لاستقبال روديا • وبعد انقضاء نهار كامل في أشد التخيلات جنونا ، بين الاحلام المفرحة والدموع ، سقطت بولشيري ألكسندروفنا فريسة المرض فلم يطلع الصباح حتى كانت الحمى شديدة الوطء عليها، وكانت تهذي • ولم يمض يوما على ذلك حتى ماتت ••• ومن خلال هذيانها أفلتت بضع كلمات فهم منها أنها كانت تعرف عن مصير ابنها أضعاف ما كانت تعتقده ابنتها ويظنه صهرها •••

لم يبلغ راسكولنيكوف نبأ موت أمه الا بعد مضي زمن طويل ، رغم أن سونيا كانت منذ اليوم الاول لوصولها الى سيبيريا قد أقامت اتصالا وثيقا بطريق المراسلة بينها وبين بطرسبورغ • كانت سونيا تكتب مرة كل شهر الى بطرسبورغ بعنوان رازوميخين ، وتتلقى كذلك مرة كل شهر جوابا من تلك المدينة • بدت رسائلها في بادىء الامر جافة غير مرضية بالنسبة الى دونيا ورازوميخين ، لكنهما ما لبثا أن تأكدا من أن لا وسيلة أفضل من هذه ، وأنهما كانا بفضل تلك الرسائل يستطيعان التعرف على الدقائق وشروط العيش التي يعيش فيها ذلك الاخ التعس• كانت رسائل سونيا ضافية بالتفاصيل ، تصف بوضوح وبساطة طراز الحياة التي اندمج فيها راسكولنيكوف في منفاه • فلم تكن تتحدث بشيء عن آماله الشخصية وأحلامه للمستقبل أو عن عواطفها الخاصة• بل كانت تسعى الى ايضاح شعور روديا بصورة خاصة أكثر من اهتمامها بحياة السجين الشخصية • كانت تدلي بوقائع ، أي بكلمات فاه بها السجين حرفيا ، وبأخبار عن صحته وما طلبه منها خلال مقابلته لها وما يريد الحصول عليه • وعما كلفها بنقله اليهما وما يريد أن تأتيه به الخ••

كانت هذه المعلومات مبينة بأدق التفاصيل، حتى أن صورة أخيها التعس كانت تتمثل أمامها بوضوح وجلاء ، لانها لم تكن تعرف عنها الا كل واقع صحيح •

لكن كل تلك الرسائل ما كانت في البداية لتعزي دونيا وزوجها، أنبأتهما سونيا بأنه كان أبدا واجما صامتا ، لا يهتم أبدا بالاخبار التي كانت لا تنفك تنقلها اليه اثر استلامها رسائل بطرسبورغ ، وروت لهما أنه يتحدث أحيانا عن أمه • وأنها عندما تأكدت من أنه خمن النهاية اضطرت الى اعلامه بموتها • لكنها دهشت دهشة بالغة حينما وجدت أن النبأ لم يحدث في نفسه أثرا كبيرا أو على الاقل لم يحدث أثرا ظاهرا • وأضافت أنه رغم ما يبدو عليه من انطواء على نفسه وضعف ، فانه كان متقبلا بكل بساطة حياته الجديدة ، فاهما موقفه ، غير آمل بأي تحسن قريب في مصيره ، لا يغذي أي أمل طائش ، كما هو حال المساجين غالبا • وأكدت انه لا يبدي أية دهشة رغم الظروف المختلفة كل الاختلاف عن تلك التي كان فيها من قبل • أما صحته ، فقالت سونيا انها ممتازة ، وانه كان يقوم بعمله المنوط به دون تردد ولا احتجاج ولا تبرم • غير أنه ما كان [illegible] لكن ذلك الطعام كان رديئا ما عدا أيام الآحاد والاعياد• وكان يتقبل بسرور نقودا من سونيا تساعده على تحضير الشاي لنفسه كل يوم • وقد رجاها أن تطلب اليهما عدم القلق من أجله مؤكدا بأن عنايتها به تزعجه أكثر مما تبهجه • وأردفت سونيا في رسالتها تقول : ان روديا في السجن يعيش حياة اشتراكية• صحيح أنها لم تشهد بأم عينها الأبنية من الداخل ، لكنها قدرت أن البناء ضيق قذر وغير صحي ، وأن روديا ينام على لوح من الخشب تكسوه قطعة من اللباد ويرفض تبديل ذلك السرير • بل انه يعيش حياة خشنة حقيرة ليس تنفيذا لخطة مسبقة ، بل اهمالا منه ولا مبالاة بمصيره من الناحية الحسية • وأكدت سونيا بوضوح أنه في بداية الأمر لم يكن

عازفا عن زياراتها فحسب ، بل انه كان يبدي مزاجا سيئا نحوها ، ويقابلها بصمت عميق بل وبغلظة. لكن تلك المقابلات ما لبثت أن أصبحت نوعا من عادة ، بل أشبه بضرورة . حتى أن السجين كان شديد الضيق والتبرم خلال الايام التي انقطعت عن زيارته فيها ، بسبب المرض الذي أصيبت به . وقالت انهما يلتقيان أيام الاعياد : فيقف كل منهما قريبا من الاخر ، يفصل بينهما حاجز يحرسه جنود . وانها كانت تلقاه أحيانا وراء ذلك الحاجز ، لبضع دقائق ، أو تشاهده عن بعد أثناء عمله، وعلى الطرق ، أو في ورشات العمل على طول نهر «ايرتيش» . وتتحدث سونيا عن نفسها فتقول بأنها استطاعت ايجاد معارف في المدينة والتماس حماية بعض الاشخاص ، وانها تشتغل في حياكة الثياب . ولما كانت المدينة خالية من صانعات الازياء ، فان وجودها فيها أصبح ضرورة لعدد من البيوت . لكنها لم تذكر أبدا أن راسكولنيكوف حاز على حماية مدير السجن بسببها وأن جرايته من الطعام والعمل قد تبدلت تبدلا ملموسا . وأخيرا وردت أخبار الى دونيا ـ وكانت هذه قد شعرت بشيء من الاضطراب والقلق في رسائل سونيا ـ تنبىء بأن راسكولنيكوف بات يتحاشى لقاء كل الناس وأن الموقوفين والمساجين في سجنه ما كانوا يحبونه لانه يقبع صامتا أياما متتالية وأن وجهه قد أضحى شديد الامتقاع . وفي رسالة سونيا الاخيرة كتبت هذه أن راسكولنيكوف كان مريضا جدا وأنه نقل الى مستشفى السجن للعناية به .

٢

كان مريضا ، مريضا منذ أمد • لكن ، لا أهوال حياة السجن ولا العمل الشاق ولا الطعام ولا الرأس الحليق ولا الثياب المتسخة كانت تستطيع النيل منه • لم يكن يعنيه شيء من تلك الآلام وذلك الشقاء ! على العكس ، كان مسرورا لأن العمل المرهق كان ينهكه جسديا ، فيتيح له بذلك بضع ساعات من نوم مريح • ثم ماذا كان من أمر الطعام ، ذلك الماء الساخن الذي كانت تسبح فيه الحشرات ! انه لما كان طالبا وفي أيامه الأولى ، كثيرا ما كان لا يتاح له خير منه • كانت ملابسه دافئة ومتناسبة تماما مع لون الحياة الجديدة • أما الأغلال التي كانت ترسف قدماه فيها ، فانه ما كان يحس بها • هل كان لمثله أن يخجل من رأسه الحليق ، وقبعته ذات القطعتين ؟ وممن يخجل ؟ أمن سونيا ؟ كانت سونيا تخاف منه فكيف يمكن أن يشعر بالارتباك أمامها ؟

ولكن مهما بلغ من تصرفه الأليم الخشن حيال سونيا فانه ولا شك يخجل منها • بيد أن ذلك الخجل لم يكن مبعثه رأسه الحليق ، أو الأغلال التي في قدميه ، بل كان بسبب كبريائه المجروح ، ذلك الكبرياء الكليم الذي كان يؤلمه • أوه ! كم كان يسعده أن يصدر على نفسه حكمه بنفسه ! كان يستطيع حينئذ احتمال كل شيء حتى الخزي والعار • لكنه كان يحكم على نفسه بقسوة • كان ضميره المتحجر لا يجد في ماضيه أية خطيئة مهولة ما عدا اخفاقه في «مشروعه» ، لكن الاخفاق أمر يحدث ويقع لكل الناس • كانت المذلة بالنسبة اليه هي أن يكون هو — راسكولنيكوف — قد أضاع نفسه دون تبصر ولا أمل بسخف وحماقة وبدسيسة من القدر الأعمى ، وأنه كان يجب عليه أن يخضع

وينحني أمام « غباوة » تلك الحكمة اذا شاء أن يستعيد الهدوء •

لقد كان كل ما نبقى له على الأرض قلق دون سبب ولا هدف في الحاضر ، وتضحية أبدية في المستقبل ، مقضي عليها أن لا يكون من ورائها طائل • وأي فائدة يجنيها اذا همس لنفسه أنه لن يكون بعد ثماني سنوات الا في الثانيه والثلاثين من عمره ، وأنه سيستطيع معاودة الحياة من جديد ! ما فائدة الحياة ؟ أي هدف سيدفعه الى التعلق بها ؟ وماذا سيفيد مبن النقل ؟ أن يبقى ليعيش ؟ لكنه كان أبدا مستعدا للتضحية ألف مرة بحياته مقابل فكرة أو أمل أو هوى • ان الحياة وحدها لمجرد الحياة كانت أبدا تافهة بالنسبة اليه • كان يطمح دائما بالمزيد • ولعله بسبب شدة رغباته قدر نفسه دائما بانه رجل ينبغي ان يكون له من الحقوق أكثر مما للآخرين •

ولو أن القدر أنعم عليه بتوبة ، توبة محرقة تحطم القلب وتطرد النوم ، توبة تجعله يحلم بالشنق والغرق ! أوه ، كم كان يحس بسعادة وسرور ! فالآلام والدموع هي أيضا لون من الحياة • لكنه ما كان يندم على جريمته •

كان على الأقل يستطيع أن يحنق وينفعل لحماقته • كما كان يسخط من قبل على تصرفاته المضحكة الشاذة التي اودت به الى السجن • لكنه بعد أن أصبح في السجن ، وبعد أن أصبح يستطيع التفكير « بكل حرية » في أعماله السابقة ، فانه لم يجدها شديدة الحمق ، شديدة الوحشية ، كما بدت له من قبل في اللحظة الحاسمة •

كان يهمس في سره : « اه ، بأي شيء كانت أفكاري تلك أكثر سخفا من الافكار والنظريات التي يصبح بها العالم وتصطدم في رحباته ، وذلك منذ أن وجد العالم ؟ يكفي أن يتأمل المرء من زاوية مستقلة تماما ، واسعة متحررة من النظريات السخيفة اليومية ، وعندئذ لن تبدو فكرتي

غريبة الى هذا الحد ... أيها الجاحدون ! أيها العقلاء ! لِمَ تتوقفون في نصف الطريق ? » .

ويتساءل : « ولكن كيف تبدو فعلتي لهم على كل تلك البشاعة؟ ألأنها جريمة ? ما معنى كلمة جريمة ? ان ضميري مرتاح . صحيح أنني قتلت، وصحيح أن ذلك يخالف حرفية القانون لأنني أهرقت دماء ولكن اذا شئتم احترام حرفية القانون ، خذوا رأسي ... ولنكف عن الحديث! صحيح أنه في مثل هذه الحالة يمكن أن يحكم بالعذاب والموت على عديد من المحسنين للانسانية الذين لم يتوارثوا السلطة بل اكتسبوها اكتسابا بأنفسهم منذ الخطوات الأولى ، لكن هؤلاء الرجال استمروا في طريقهم ، وهذا الاستمرار هو الذي برر أعمالهم . أما أنا فانني لم أستطع المقاومة ، وعلى ذلك فانه لم يكن من حقي أن أقرر تلك المحاولة » .

كان اذن يعترف بخطئه ، ولكنه يعتبر أن عدم مقاومته واستسلامه هما فقط الخطأ الذي وقع فيه .

ثم ان فكرة أخرى كانت تعذبه : لِمَ لم يضع حدا لحياته في ذلك الحين ? لم فضل الاستسلام من الالقاء بنفسه الى مياه النهر لما نظر اليها هادرة ? هل الرغبة في الحياة شديدة القوة يصعب التغلب عليها الى هذا الحد ? ان سفيدريكايلوف رغم شدة خوفه من الموت قد استطاع أن يقهر تلك الرغبة .

كان يعنف نفسه ويزعجها بالأسئلة ، كان لا يستطيع ان يتقبل شعوره عندما كان منحنيا على النهر ، بوجود خطأ عميق في معتقداته، لم يكن يفهم أن ذلك الشعور المسبق يمكن أن يكون مبشرا بأزمة مقبلة في حياته ، وببعثه المقبل ، وبالأسلوب الجديد الذي ينبغي له أن يتأمل الوجود به .

كان مقتنعا بدلًا من هذا بأن كل ما حدث لم يكن الا خبلا وتبلدا في الاحساس لم يستطع التحرر منهما بسبب ضعفه ونذالته • أحس بدهشة لرؤية رفاقه في السجن : كم كانوا يحبون الحياة ! كم كانوا شديدي التمسك بها ! يخيل اليه أنهم يحبونها ويقدرونها أكثر مما كانوا يعملون لو أنهم كانوا أحرارا • بل ان بعضهم كانوا يشعرون بعذاب شديد وعلى الاخص المتشردون منهم ! أيجوز أن هذا الخبر ، الحنين الى اشعاع شمس ، أو هدوء غابة ، أو غدير ماء صاف في أعماق دغل ، شوهد منذ ثلاثة أعوام مضت ؟ هل يحلم ذلك المتشرد بالعودة اليه ، وكأن الأمر موعد غرامي ثمين يغزو حلمه ، فيتمثله محاطا بالحشائش الخضراء بينما يزقزق عندليب على شجرة؟ كان راسكولنيكوف كلما ازداد تفكيرا في هذا بدا له صعب الفهم •

كان في سجنه عدد من الاشياء لم تستلفت انتباهه • لأنه ما كان يريد ملاحظتها • كان يعيش بعينين مخفضتين ــ اذا جاز هذا القول ــ عازفا عن النظر فيما حوله • لكن الزمن جعل تلك الاشياء تستحوذ على انتباهه ، فراح مرغما يلاحظ ما كان يشك في وجوده من قبل • كان ما يدهشه على العموم أكثر من سواه هو تلك الهوة السخيفة التي يمكن اجتيازها ، والتي تفصله عن هؤلاء الناس الذين يعيش بينهم • بدا بينهم وكأنه من أمة تختلف عن الأمة التي ينتمون اليها • كانوا ينظرون اليه بحذر وشراسة وكذلك كان شأنه • كان راسكولنيكوف يفهم ويقدر الاسباب العامة التي سببت ذلك النفور الودي ! لكنه ما كان يؤمن ، حتى تلك اللحظة ، بأن تلك الاسباب يمكن أن تكون في مثل هذه القوة والعمق • كان في السجن محكومون بجرائم سياسية ، كانوا ينظرون الى الاخرين باحتقار ، ويعتبرونهم من الرعاع • غير أن راسكولنيكوف ما كان يستطيع مشاطرتهم رأيهم • كان يرى تماما أن اولئك الرعاع كانوا احيانا اشد ذكاء من البولونيين انفسهم • وكان

بين الروسيين من يحتقر هؤلاء الناس أيضا . والاخص بالذكر منهم ضابط سابق ، واثنان من طلاب الكهنوتية ، لكن راسكولنيكوف كان متأكدا كذلك من خطئهم .

أما هو فلم يكن محبوبا وكان الجميع يتحاشونه ، بل ان الأمر انتهى بهم الى مقته . لماذا ؟ لم يكن يدري السبب . كان بعضهم ، وهم أعرق منه اجراما ، يلاحقونه بسخريتهم ويهزؤون به جاعلين من جريمته مادة للسخرية والهزء .

كانوا يقولون له :

ـ ولكنك سيد ، فهل كان ينبغي لك أن تقتل بضربات فأس ؟ ان هذا ليس من أعمال السادة !

أما في الاسبوع الثاني من الصوم الكبير ، فقد جاء دوره في الصلاة والنسك . كان كل رفاق غرفته معه . فمضى معهم الى الكنيسة للصلاة . وذات يوم ، انفجرت مشادة عنيفة لم يدر لها سببا . توافدوا عليه محنقين ، صاحوا :

ـ انك جاحد ! انك لا تؤمن بالله . ينبغي قتلك .

لم يكن قد تحدث معهم أبدا عن الله أو الدين مع ذلك فقد أرادوا قتله على اعتباره زنديقا فلم يرد عليهم . وفي تلك اللحظة اندفع نحوه أحد المحكومين، تتأجج في نفسه عوامل السخط، فانتظره راسكولنيكوف هادئا صامتا دون أن تختلج عضلة واحدة في رأسه .

استطاع الحارس التدخل بينه وبين القاتل في آخر لحظة ولو أنه تأخر ثانية واحدة لسال الدم .

ثم كانت هناك مسألة أخرى تعذر عليه حلها : لم كانوا جميعهم يحبون سونيا حبا جما ؟ انها لم تكن تسعى لارضائهم ، وما كانوا يقابلونها الا خلال فرص نادرة ، عندما كانت تأتي لرؤياه دقيقة عابرة خلال انكبابه معهم على العمل . مع ذلك ، فقد كانوا جميعهم يعرفونها، ويعرفون أنها تبعته الى هنا : يعرفون كيف كانت تعيش وأين تعيش ؟

مع أنها لم تكن تعطيهم نقودا ، ولم تكن تؤدي لهم خدمات خاصة. مرة واحدة فقط ، وكان ذلك في عيد الميلاد ، قدمت سونيا الى كل المساجين قطع الحلوى والمعجنات الصغيرة. غير أنهم لم يلبثوا أن أقاموا علاقات ازدادت وثوقا بينهم وبينها فكانت تكتب لهم رسائل لاسرهم، وتودعها البريد . فاذا ما جاء ذووهم الى المدينة ، فانهم كانوا بناء على رغبتهم وتوصياتهم يودعون سونيا الاشياء والنقود التي يودون ارسالها اليهم في سجنهم . كانت زوجات المساجين وعشيقاتهم يعرفنها ويذهبن الى مسكنها لزيارتها . فاذا ظهرت على الطريق ، أو هي آتية لرؤية راسكولنيكوف ، أو مر بها فريق من المحكومين الذاهبين الى العمل ، فانهم كانوا يرفعون قبعاتهم جميعا ، وينحنون لها قائلين : « ماتوشكا، صوفي سيميونوفنا ، انك أمنا الحنون الرؤوم » . كذلك كانوا يهتفون كلما التقوا بتلك المخلوقة الهزيلة النحيلة ، رغم أنهم وحوش مطبوعون بطابع الجريمة والعار . فكانت تبسم لهم وترد على تحياتهم . وكانوا جميعا يحبون تلك الابتسامة . بل كانوا يحبون مشيتها ويستديرون غالبا ليتابعوها بأبصارهم اذا مرت بهم . لم يكن لديهم لها الا المديح. كانوا يمتدحونها حتى لأنها صغيرة ، وكانوا يحارون في ايجاد عبارات الاطراء . حتى أنه بلغ بهم الشغف بها أن كانوا يستشيرونها في حالة مرضهم .

أمضى راسكولنيكوف الاسابيع الاخيرة من الصوم الكبير وأسبوع عيد الفصح في المستشفى . فلما استرد صحته تذكر الأحلام التي ما انفكت تتمثل له خلال مرضه ابان اشتداد الحمى والهذيان. حلم خلال مرضه بأن العالم كله كان محكوما عليه باحتمال مصيبة فظيعة لم يسبق لها مثيل ، مصيبة جاءت من أعماق آسيا تطبق على أوروبا. وأن العالم كله سوف يموت الا عددا من المجدودين المنعم عليهم. كان ذلك البلاء ممثلا في صورة طفيليات من نوع جديد ، أحياء ميكروسكوبية

تقطن في جسد الانسان فتنخره . لكن تلك الميكروبات الصغيرة الدقيقة كانت موهوبة بذكاء وارادة وعقل . كان الاشخاص الذين يصابون بها يصبحون مجانين خطيرين على الفور . لكن أحدا ما كان أبدا يعتقد أنه حاصل على الحقيقة ، مؤمن بها ، كما كان يعتقد أولئك المصابون ويؤمنون ! كانوا لا يشكون لحظة في صدق أحكامهم واستنتاجاتهم العلمية ، ومبادئهم الاخلاقية والدينية . كانت قرى بكاملها ومدن وامم كاملة مصابة بهذا البلاء تفقد صوابها . كانوا جميعهم في فزع ورعب هائلين لا يفهم بعضهم بعضا . كان كل منهم يعتقد أنه وحده يملك الحقيقة ويستطيع تبيان الخير من الشر ، فما كان يُعرف من هو المخطيء ومن هو المصيب . كان الناس يذبح بعضهم بعضا تحت تأثير غضب وحشي ، ويجتمعون ليشكلوا جيوشا كبيرة . ولكن ما أن تلتقي تلك الجيوش ، حتى تعم الفوضى الصفوف فتتمزق ، ويرتمي الجنود على بعضهم ، يذبحون بعضهم بعضا ، ويفترسون أجساد بعضهم ، وينهشون فيها . أما في المدن فكانوا يقرعون أجراس النفير ، فيدعى الشعب ولكن من قبل من ؟ ولأي سبب ؟ ما كان أحد ليعرف السبب . فكان العالم كله في حركة وصخب . كانوا يهجرون الحرف البسيطة منها والضرورية ، لأن كلا منهم كان مشغولا في عرض أفكاره وآرائه . لكنهم ما كانوا يتوصلون الى اتفاق . كانت الزراعة قد أصبحت مهملة، وهنا وهناك كان الناس يجتمعون ويتفقون على حركة مشتركة، فيقسمون أن لا يفترقوا . ولكن حالما يبدؤون بعمل ما ، مهما بلغ اختلافه عما توقعوه ، كانوا يتبادلون التهم ، ويتضاربون ويتذابحون . كانت الحرائق تلتهم الابنية والدور . فعمت المجاعة ، ومات كل الناس، وأفني كل شيء . أما البلاء فقد كان يعم ويتزايد . ما كان يمكن أن ينقذ في العالم كله الا عدد من الأتقياء الطاهرين الموعودين ، المقدر لهم تأسيس حياة جديدة ، وتجديد الارض وتطهيرها . لكن أحدا ما كان ليهتم بهؤلاء

الرجال . لم يكن أحد ليصغي الى أقوالهم ، أو يسمع أصواتهم .

كان راسكولنيكوف يتعذب كلما خطر لـه أن ذلـك الهذيـان السخيف قد ترك في نفسه تلك الآثار العميقة التي لا تمحى . وكان الاسبوع الثالث بعد عيد الفصح قد ازف ، واصبحت الايام تمتـاز بالحرارة والنور ، وتحمل رائحة الربيع . فتحت نوافذ المستشفى لأول مرة، وكانت نوافذ مشبكة بعوارض حديدية يغدو أحد الحراس ويروح قريبا منها . لم يسمح لسونيا أن تزور راسكولنيكوف الا مرتين طيلة مدة مرضه . وفي كل مرة كان عليها أن تطـلب الاذن ، وأن تخضـع لشكليات معقدة . غير أنها كانت تحضر غالبا فتقف في باحة المستشفى، تحت النوافذ وبصورة خاصة عندما يهبط الظلام ، فكانت تقف هناك، دقيقة أو أكثر ، لا لشيء الا لتنظر الى النوافذ المغلقة . وذات مسـاء كان راسكولنيكوف نائما بعد أن استعاد قواه تماما . فلما استفـاق ، اقترب صدفة من النافذة . وفجأة شاهد هناك بالقرب من باب المستشفى سونيا واقفة تحدق . كانت واقفة تبدو كأنها بانتظار شيء ما . فـأحس كأن سهما يخترق قلبه ، وارتعش مرتعدا ، وانسحب من النافذة . وفي اليوم الثاني لم تأتِ سونيا . وكذلك في اليـوم الثـالث . أدرك أنـه ينتظرها بفارغ صبر . فلما أخرج من المستشفى وأعيد الى السجن بلغه أن سونيا مريضة وأنها ملازمة غرفتها .

أحس بحزن عميق وأرسل من يأتيه بأخبارها . ولم يلبث أن عرف أن مرضها غير ذي بال . كانت سونيا من جانبها ، عندما بلغها أنه يتـألم لانقطاعه عن رؤيتها ، قد أخذت تقلق لحالته . فأرسلت اليـه رسـالة خطتها بقلم الرصاص ، أخبرته فيها بأن صحتها جيدة ، وأنها كانت قد أصيبت ببرد قليل . لكنها ستعود الى لقائه أثناء العمل في أقرب وقت ممكن . ولما قرأ راسكولنيكوف تلك الرسالة أحس بقلبه يخفق خفقانا عنيفا أليما .

كان النهار هذه المرة أيضا صحوا دافئا • فمضى منذ الساعة السادسة صباحا الى ضفة النهر ليبدأ بالعمل • وكان على ضفة النهر أتون كبير مخصص لشي المرمر الأبيض • أرسل الى هناك مع اثنين من المحكومين ، وعاد واحد من السجينين مع المراقب الى القلعة لاحضار بعض العدد ، بينما راح الثاني يهيء الاخشاب لاشعال الفرن • فغادر راسكولنيكوف مكانه ، واتجه نحو شاطيء النهر • جلس على لوح من الخشب قرب الجدار ، وراح يتأمل النهر العريض القاحل • كان يمكن للمرء أن يرى من ذلك الشاطيء المرتفع مساحة واسعة • بلغت مسامعه أغان ينشدها بعضهم على الشاطيء الاخر • فكانت تصل اليه عبر النهر خافتة هامسة • وكان هناك في اللانهايه تلال ومرتفعات صغيرة ، تغمرها الشمس • وخيام رحّل تشكل نقاطا صغيرة سوداء • هناك كانت الحرية • هناك يعيش عالم مختلف عن هذا العالم • هناك يبدو الزمن متوقفا كما لو كان لا زال العالم في عصر ابراهيم وقطعانه • جلس راسكولنيكوف ينظر دون حراك وهو لا يستطيع نقل أبصاره وتحويلها عن هناك • وتسللت افكاره الى الخيال والتأمل • فلم يكن يحلم في شيء • لكن حزنا عميقا كان يكتسحه ويعذبه ويروعه • وفجأة انتصبت سونيا أمامه • كانت قد اقتربت بهدوء وجلست الى جانبه • وكانت تلك الساعة الصباحية شديدة البرودة، لان الشمس لم تكن قد ارتقت كثيرا في السماء • كانت سونيا تلبس « برنسا » عتيقا باليا ، وتلتفح بمنديلها الاخضر • بدت أكثر هزالاً وأكثر امتقاعا ، وكان وجهها ذا التقاطيع المتقلصة يحمل آثار المرض • ابتسمت له ابتسامة وديعة سعيدة، لكنها مدت له يدها برعب على جري عادتها •

كانت دائما تمد له يدها بذعر ، وأحيانا كانت لا تمدها مطلقا، وكأنها تخاف أن ينفر منها ويطردها • كان يبدو دائما على شيء من

الاحتقار كلما أخذ يدها ، حتى ليظن أنه كان يستقبلها بشيء كثير من التقزز والانزعاج ، وكان أحيانا يصمد بعناد طيلة الوقت الذي تستغرقه زيارتها ، فكانت ترتعد أمامه وتنسحب وهي تشعر بخزي عميق ، لكن أيديهما تلك المرة ما كانت تحاول انفكاكا ، راح يشمل الفتاة بنظرة عميقة دون ان ينبس ببنت شفة ، وفجأة اطرق برأسه الى الارض ، كانا وحيدين لا يراهما أحد والحارس المكلف مبتعد في تلك اللحظة .

وفجأة ودون أن يعرف راسكولنيكوف ماذا عمل ، شعر بشيء يدفعه نحو أقدام سونيا ، فبكى وهو يضم ركبتيها بيديه ، بدت للوهلة الاولى شديدة الارتياح ، وسرى في وجهها شحوب قاتل ، فانتفضت وراحت تنظر اليه مرتعدة مضطربة ، ولكن في تلك اللحظة بالذات ، وفي مثل لمح البصر ، فهمت كل شيء ، فأشرقت عيناها بسعادة غامرة . لقد فهمت وما عادت تشك في أنه يحبها ، يحبها حبا عنيفا ، وأن ساعة الاعترافات قد دقت مدوية ...

أرادا أن يتحدثا فأعياهما النطق ، وامتلأت أعينهما بالدموع . كان كل منهما شاحبا مضطربا ممتقعا ، غير أن وجهيهما الهضيمين كانا يعكسان أضواء فجر ينبيء بمستقبل جديد ، فجر يبشر ببعث جديد في الحياة ، كان الحب قد خلقهما ونفحهما الحياة . كان قلب احدهما يضم معينا لا ينضب من الحياة ينهل منه قلب الاخر .

قررا الانتظار ، والانتظار بصبر ، كان قد تبقى لهما سبع سنين يقضيانها في سيبيريا ، ولكن كم من آلام لا تحتمل ستعقبها سعادة لا توصف ! كان قد بعث بعثا جديدا ، كان يشعر ويحس أنه قد نشر من جديد ، أما سونيا ، ألم تكن سونيا تعيش ليحيا راسكولنيكوف ؟

ذلك المساء لما أغلق باب « العنبر » ، استلقى راسكولنيكوف في مكانه وراح يفكر فيها ، خيل اليه ذلك اليوم أن المساجين ، أعداءه

بالأمس ، قد نظروا اليه اليوم نظرة مختلفة • بل انه وجه اليهم الكلام، فأجابوه بلطف ودعة • تذكر هذه البادرة ولكنه وجد أنها طبيعية • ألم يكن كل شيء ينبيء ببادرة تحول وتبدل ؟

راح يفكر في سونيا • تذكر ، وهو الذي ما انفك يؤلمها ويجرح قلبها ، تذكر وجهها الصغير المتقع الهزيل• لكن تلك الذكريات، لم تعد تؤلمه كما كانت من قبل • كان يعرف بأي حب عميق جارف سوف يشتري الآن كل آلامه •

ثم ما هي « كل » تلك الآلام الماضية ؟ خيل اليه في تلك اللحظة أن كل شيء ، حتى جريمته ، والحكم الصادر في حقه ، وتهيه الى سيبيريا ، كل ذلك كان في تلك اللحظة من الانشراح والتمجيد ليس الا حادثا غريبا ، وقع لرجل سواه • كان ذلك المساء عاجزا عن التفكير الطويل المستمر ، عاجزا عن تركيز أفكاره في نقطة ما • ما كان يستطيع حل مسألة ومعرفة مسبباتها لأنه كان كتلة من الاحساسات• والحياة كلها بدت قائمة على المنطق • كان شيء مختلف تماما ، ينضج في أعماق وجدانه •

كان تحت وسادته انجيل امتدت اليه يده وأخذته بحركة آلية ، كان ذلك الكتاب يخص سونيا ، انه الكتاب « اياه » ، الذي قرأت له فيه من قبل قصة بعث اليعازر • كان يظن أول أمره في سجنه أن سونيا ستدوخه بتدينها • وكان ينتظر منها أن لا تنفك تحدثه عن الانجيل وتقلقه بهذا الكتاب • لكنه وجد ، لشديد دهشته ، أنها لم تحدثه مرة في هذا الموضوع ، ولم تعرض عليه أيضا تصفح الانجيل • بل انه هو الذي سألها بعد مرضه أن تأتيه به • ولما جاءته به قدمته اليه دون أن تنطق بكلمة • وحتى تلك اللحظة ، لم يكن قد فتحه بعد •

كذلك الآن لم يفتحه • غير أن فكرة اخترقت ذهنه كشهاب من

نور : « أيجوز أن لا تكون معتقداتها في الوقت الحاضر معتقداتي الشخصية ؟ على الاقل ايحاءاتها ، عواطفها ... »

هي الأخرى كانت شديدة الاضطراب طيلة ذلك اليوم . بل ان المرض عاودها ليلا . لكنها كانت شديدة السعادة . حتى أن سعادتها كانت تخيفها ! سبع سنين فقط ، سبع سنين ! في بعد اللحظات كان أحدهما كالآخر ، يعتقد بدافع شعور سعادتهما الاولى ، أن السبع سنين ليست الا سبعة أيام ! كان راسكولنيكوف يجهل أنه لن يحصل على تلك الحياة الجديدة دون لقاء ، وأن عليه أن يدفع ثمنها غاليا ، وأن يحصل عليها لقاء مجهودات قاسية طويلة ...

ولكن هنا تبدأ قصة أخرى : قصة تجدد رجل وتطوره ، قصة انبعاثه المطرد ، ومروره التدريجي من عالم الى آخر ، وتساميه الى حقيقة جديدة لبثت حتى تلك اللحظة مجهولة منه . ان ذلك يصلح لان يكون موضوع قصة جديدة ، أما قصتنا هذه فها هي ذي قد انتهت .

ـ تمت ـ

في المسكن ويدهنونه ؟ على العكس • كنت لا تعترف برؤية شيء حتى ولو كنت قد رأيت ، اذ من الذي يشهد ضد نفسه ؟

فقال راسكولنيكوف الذي كان يتابع تلك المحادثة باشمئزاز واضح :

ــ لو أنني عملت «هذا» لكنت قلت حتماً بأنني شاهدت العمال والمسكن •

ــ ذلك لأن أبناء الشعب وحدهم أو على الاصح المبتدئين تماما المحرومين من كل تجربه هم أولاء الذين ينكرون دراكا عندما يسألون• أما الرجل الذكي المتدبر فانه لا يتأخر عن الاعتراف ــ ضمن حدود الممكن ــ بكل الوقائع الماديه التي لا يمكن ازاحتها ؛ غير أنه يفسر تلك الوقائع بشكل ما ويرتبها حسب هواه ثم يعطيها معنى غير منتظر ويقدمها تحت ضوء جديد • وقد كان بورفير ينتظر تماما أن أسقط في الشرك وأن أجيب بأنني شاهدت العاملين بقصد اعطاء أقوالي لونا من الحقيقة ، وأن أرضى عن نفسي بالتفسير الذي أكون قد أعطيته •

ــ لكنه كان سيجيبك فورا بأن العاملين لم يكونا موجودين في اليوم الاسبق ، وانك على هذا الاساس ذهبت الى هناك في يوم الجريمة تماما ولكان سيوقفك فورا •

ــ انه كان يعتمد على أنني لن أجد فسحة من الوقت للتفكير ، واذن علي أن أتهافت على اعطاء جواب يبدو قريبا الى الحقيقة • كذلك كان ينتظر أن أكون قد نسيت بأن العمال ما كانوا هنالك في اليوم الاسبق •

ــ لكن كيف يمكن النسيان ؟

ــ على أسهل وجه ••• في الواقع ان الأشخاص الأذكياء يسقطون رغم ذكائهم بسبب تفاصيل تافهة كهذه ، اذ أن المرء كلما ازداد مكرا

زاد اعتقاده بأنه لا يمكن لسؤال تافه بسيط أن يسبب سقوطه • إن بورفير ليس غبيا كما تظن •

ــ لعمري ! اذا كان قد تعمد ذلك فانه يكون خبيثا •

لم يتمالك راسكولنيكوف نفسه من الابتسام ، وبدا سروره من تقديم ذلك التفسير واقباله عليه غريبين في تلك اللحظة وهو الذي كان منذ قليل يشعر باشمئزاز شديد من تلك المحادثة ، فعزا ذلك الشعور الى الغاية التي كان يهدف اليها في تلك اللحظة • وراح يسائل نفسه : « هل تذوقت فعلا بعضا من هذه الاسئلة ؟ » • ولم يلبث أن شعر فجأة بقلق وكأن فكرة غير منتظرة ، فكرة مقلقة ، بدأت تراوده فراح قلقه يتزايد •

كان في تلك اللحظة قد بلغ منزل باكلييف فقال فجأة لصديقه :

ــ أدخل أنت وسأعود أنا بعد قليل •

ــ الى أين تمضي ؟ ها قد وصلنا !

ــ لدي ما أعمله وانه لواجب • ولسوف أعود في غضون نصف ساعة • أخبرهم بذلك •

ــ افعل ما تشاء ! لكنني سأصحبك •

فهتف راسكولنيكوف بصوت منفعل مفعم بالمرارة :

ــ ماذا ؟ أتريد أنت أيضا أن تعذبني ؟

وأشفع قوله هذا بنظرة يائسة جعلت ذراعي رازوميخين اللذين كان قد رفعهما للامساك به يسقطان الى جانبه • ولبث لحظات واقفا أمام مدخل الباب ينظر الى راسكولنيكوف الذي كان يمشي بخطى حثيثة باتجاه الشارع الذي يقطن فيه •

راح رازوميخين يصرف على أسنانه ويقبض يديه بعنف وقوة ويقسم في سره ليعتصرن بورفير كما يعصر الليمون ، ثم صعد الى حيث

بولشيري ألكسندروفنا ــ التي كانت قد بدأت تقلق لغيابهما ــ ليطمئنها •

بلغ راسكولنيكوف منزله وقد غمر العرق صدغيه وهو يتنفس بصعوبة فصعد السلم مسرعا ودخل غرفته ثم أغلق بابها من الداخل بالمزلاج • وهرع بحركات مروعة الى الزاوية التي كانت سجادة الجدار تخفي الثغرة الكامنة وراءها والتي كان قد أودع فيها « الاشياء » من قبل فدفع يده فيها وراح خلال عدة دقائق يبحث فيها بعناية فائقة وينظر بين الشقوق وخلال كل الثنيات • فلما لم يجد شيئا ، نهض مطمئنا • تصور منذ حين حينما بلغ منزل باكاليف ، أن أي شيء كقطعة سلسلة أو زر أو الورقة التي كانت تلك الاشياء ملفوفة فيها والتي كانت تحمل تأشيرات مكتوبة بخط يد العجوز ، أي شيء من هذا القبيل يمكن أن يكون قد سقط منه أو تخلف في الثغرة كان يشكل ــ اذا وجد خلال التفتيش المرتقب ــ دليلا جرميا يدينه بما لا سبيل الى التملص منه، فلما اطمأن الى خلو المكان منها ، استغرق في لون من الشرود وارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة مذعورة وغير ارادية ••• وأخيرا حمل قبعته وغادر الغرفة •

كانت الافكار تتزاحم في رأسه وتصطخب وهكذا راح يهبط السلم ساهما حتى بلغ الباب العمومي • فسمع صوتا خشنا يقول :

ــ خذ ! ها هو ذا !

فرفع رأسه مستطلعا : كان البواب واقفا امام كوخه يشير الى رجل قصير القامة يبدو عليه انه صانع متواضع • كان يلبس ثوبا يشبه « الرودنكوت » وصدارة فيخيل للناظر اليه عن بعد انه قروي • وكان يضع على رأسه قبعة قذرة ويمشي محني الظهر قليلا حتى لكأنه كان احدب • ومن النظر الى وجهه المجعد النحيل ، يبدو

انه تجاوز الخمسين • كانت عيناه غائرتين في محجريهما فيهما شـــيء من القسوة والشراسة والاستياء •

اقترب راسكولنيكوف من البواب ، وسأل :

ــ ماذا هناك ؟

فالقى عليه الرجل القصير نظرة من الاسفل وراح يتأمله بعنايـــــة وتمهل ثم ادار له ظهره ببطء وابتعد دون ان ينطق بحرف واحد وبلـغ الشــارع •

هتف راسكولنيكوف :

ــ ما هذا ؟ ماذا هناك ؟

فاجاب الحارس :

ــ هذا شخص جاء يسألني عما اذا كان طالب ما يقطن في هـــذا البناء ، ولقد نطق باسمك وسأل عن اسم صاحبة مسكنك وعندئـــذ هبطت انت ، فذهب هو ، وانت ترى كيف كان ذهابه !

دهش البواب قليلا لتصرف الرجل ولبث برهة يفكر ثم استدار هو الاخر ودخل كوخه ، اما راسكولنيكوف فقد اندفع في اثر الرجـــل فاذا به يمشي في الجانب الاخر من الشارع بخطى متزنة بطيئة بادي التفكير وقد تعلقت نظراته بالارض • فتبعه وراح خلال بعض الوقت يتأثر خطاه واخيراً حاذاه ونظر الى وجهه نظرة جانبية ولحظه الاخـــر فورا فالقى عليه نظرة سريعة ثم عاد الى اطراقه • مشيا هكذا جنبـــا الى جنب طيلة دقيقة كاملة دون ان ينطقا بكلمة واحدة واخيرا غمغـم راسكولنيكوف بصوت مكتوم :

ــ لقد سألت عني لدى البواب •

فلم يجب الرجل حتى ولم ينظر اليه وران الصمت مـــن جديـــد ، فاختنق صوت راسكولنيكوف ووجد صعوبة في اخراج الكلمـــات

وهو يقول :

ــ غريب ! لقد جئت تسأل عني ثم اذا بك تصمت • فما معنى هذا ؟

رفع الرجل رأسه هذه المرة وحدج راسكولنيكوف بنظرة عدائية متوحشة وتمتم بصوت منخفض واضح بين المخارج :

ــ قاتـــل ! •••

كان راسكولنيكوف يمشي الى جانب الرجل القصير فشعر فجـأة بساقيه تتخاذلان تخاذلا مريعا واحس ببرودة تسري في ظهره • وتوقف قلبه عن الخفقان لحظة وكأنه انتزع دفعة واحدة • غير انه استمر في سيره جنبا الى جنب مع ذلك الرجل يخيم عليهما الصمت • قطعـــا كذلك حوالي مائة خطوة لم ينظر الرجل خلالها اليه ، واخيرا غمغـم راسكولنيكوف بصوت لا يكاد يسمع :

ــ لكن ! ماذا تقول ؟ ماذا ؟ من هو القاتل ؟

فاجاب الاخر بصوت واضح وبلهجة اعنف من الاولى :

ــ انت القاتـــل !

وومضت على وجهه ابتسامة تفيض بحقد منتصر ثم نظر الى وجهه الشاحب وعينيه المتبلورتين نظرة ثابتة • كانا قد بلغا ملتقى طرق فسار الرجل في واحد منها دون ان ينظر حوله بينما لبث راسكولنيكـوف مسمرا في مكانه يتابعه بعينيه فترة طويلة • فرآه يلتفت وراءه بعـــد خمسين خطوة لينظر اليه بينما ظل هو في مكانه جامدا لا يتحرك •

لم يكن راسكولنيكوف في وضع يسمح له بتمييز الاشياء بوضوح لكنه خيل اليه للمرة الثانية ان ذلك الغريب قد التفت من جديد ونظر اليه وابتسامته الباردة الحاقدة المنتصرة •

عاد راسكولنيكوف ادراجه بخطى بطيئة متعثرة متخاذل الساقـين مرتعدا من الرعب • ولما بلغ مسكنه القى بقبعته على المائدة ولبث واقفا

بجانبها زهاء عشر دقائق . واخيرا مضى الى السرير خائر القوى واستلقى عليه وهو يرسل زمجرة أليمة ، فاغمض عينيه ولبث مستغرقا في خواطره نصف ساعة كاملة .

لم يكن يفكر في شيء باستثناء بعض الخواطر ، أو على الاصح نتف الخواطر التي كانت تعرض له دون ترتيب ولا تسلسل . وجوه اشخاص كان قد رآهم في طفولته أو لقيهم في مكان ما مرة واحدة فلم تعد تخطر له بعدها على بال ، قبة جرس كنيسة « ب » .. منضدة « بليار » في مشرب وبالقرب منها ضابط ما .. رائحة سيكار في دكان تبغ في قبو ... سلم حانة ، سلم مظلم جدا تجري المياه الآسنة عليه ، وقد انتثرت في ارجائه قشور البيض بينما ارتفع من هناك قرع اجراس ربانية ...

كانت هذه الاشياء تتعاقب في مخيلته كالاعصار العنيف ، فكان بعضها محببا الى نفسه يتمسك به لكنه كان سرعان ما يتبخر . وعلى العموم كان في دخيلته شيء يثقل عليه ثقلا غير شديد ، وكان يحس احيانا بشيء من الراحة ، ولم تكن القشعريرة التي اكتسحت جسمه قد غادرته بعد . لكنها لم تعد بالنسبة اليه شيئا مزعجا .

سمع خطوات رازوميخين المتلاحقة فاغمض عينيه وتصنع الاغفاء . وفتح رازوميخين الباب وظل واقفا لحظة على العتبة ثم دخل بهدوء الى الغرفة واقترب بحذر من الديوان . وتناهى الى سمعه همس ناستاسيا وهي تقول :

ــ لا تزعجه . دعه ينم ملء عينيه ولسوف يأكل فيما بعد .

وصوت رازوميخين يجيب :

ــ صحيح !

ثم خرجا بهدوء وأغلقا الباب . ومرت على ذلك نصف ساعة اخرى

فتح راسكولنيكوف عينيه بعدها، وعاد يستلقي على ظهره من جديد، عاقداً يديه تحت رأسه :

« من يكون ؟ من هو ذلك الرجل الذي انبعث من تحت الارض ؟ اين كان وماذ رأى ؟ لقد رأى كل شيء ما في ذلك شك ! اين كان اذن آنئذ ومن أين كان يراقب؟ لم لم يظهر على مسرح الحوادث الا الآن ؟ هم ! وتلك الحلية التي وجدها نيكولاي وراء الباب ! هل كان ذلك ممكنا ايضا ؟ أدلة جرمية ؟ ان نقطة تدرس بعناية يمكن ان تتحول الى دليل يبلغ في حجمه مبلغ اهرامات مصر . هل يعقل أن تكون ذبابة كانت طائرة هناك فرأت كل شيء ؟ »

كان راسكولنيكوف يفكر في هذا والرعشة الباردة المتجمدة كامنة في جسمه . وفجأة احس بالاشمئزاز العميق من الضعف الجسدي البالغ الذي كان عليه . وتابع تفكيره بابتسامة ويأس مريرين :

« كان ينبغي ان افكر في ذلك ! ثم كيف جرؤت ـ انا الذي كنت اشعر شعورا مسبقا بما سيحل بي ـ كيف جرؤت على اخذ فأس وتلطيخ نفسي بالدم ؟ لقد اردت معرفة ذلك مسبقا ! ايه ! لكنني كنت اعرفه من قبل » .

كان احيانا يتوقف طويلا امام فكرة طارئة ويقول :

« ان هؤلاء الناس لم يصنعوا هكذا . ان « السيد » الحقيقي الذي يسمح له بكل شيء يضرب (طولون) بالمدافع ، وينظم مذبحة في باريس ، « وينسى » جيشا كاملا في مصر ، و « ينفق » نصف مليون رجل في معركة موسكو ،ثم ينسحب من الميدان بلغز في « فيلنا » . ان « هذا » عند موته تقام له التماثيل وكل شيء اذن مسموح له . كلا ان هؤلاء الرجال ليسوا من لحم ودم ، بل انهم من « البرونز » .

وجاءت فكرة اخرى على هامش هذه المسألة كادت ان تضحكه :

« نابليون ، الاهرامات ، واترلو ، وعجوز قذرة فانية ارملة مسجل كلية مرابية كريهة ، صندوقها مغلف بالجلد الاحمر وموضوع تحت السرير ! كيف يمكن ان يبتلع المرء هذا ؟ حتى ولو كان بورفير بيتروفيتش ؟ كيف سيهضمه ؟ ان الذوق السليم ليعترض عليه • فهل كان نابليون ليزحف تحت سرير امرأة عجوز ؟ هيا اصمت ايها القذر ! »

كان يشعر تارة انه فريسة هذيان فأصبح تحت تأثير رعب محموم :

« لنفرض ان العجوز كانت ضحية خطيئة فان المسألة ليست هنا ، اذ انها لم تكن الا لونا من التشويش ، ولقد اودت ان اجتاز « العائق» بسرعة • انه ليس مخلوقا بشريا ذلك الذي قتلته • بل هو المبدأ ، المبدأ ، ولقد قتلته كما يجب • اما عن المرور فوقه فانني لم استطعه • نعم ، لقد لبثت عاجزا عن المرور وكل ما استطعت عمله هو القتل ، وحتى هذا فانني لم احسن عمله كما يبدو ! »

« المبدأ ؟ لم أهان رازوميخين السخيف الاشتراكيين منذ برهة ؟ انهم رجال اعمال نشيطون • انهم يهدفون الى« السعادة العالمية » ••• كلا • كلا • لقد اعطيت لي الحياة مرة واحدة ولا اريد ان انظر تلك « السعادة العالمية » • اريد ان اعيش بنفسي والا فان من الافضل الا اعيش • ماذا بعد ؟ كل ما في الامر انني لم ارغب في ان امر امام أم متلهفة مشوهة قابضا على روبلي في جيبي بانتظار « السعادة العالمية»• انهم يقولون انني احمل حجري للمساهمة في بناء تلك السعادة وذلك كاف لاحصل على هدوء القلب » •

« ها ها ! لم اذن نسيتموني ؟ ليس لي الا حياة واحدة اريد ان اعيشها أنا الآخر ؟ » ••

ثم انفجر ضاحكا وقال : لست الا هواما في دنيا الجمال الخلقي •

نعم هوام !

وعاد يضحك ضحكته المخبولة . وبدت له الفكرة جميلة . فتمسك بها بسرور حتى يمحصها ويتبلى باستعراضها على مختلف زواياها ويخاطب نفسه قائلا :

ـ لو انني ناقشت الموضوع اولا على اعتباري حثالة فقط اوهواما، ثم لانني ثانيا : ازعجت « القدرة » خلال شهر كامل وأنا اشهدها بانه لن يكون ما قررت الاخذ به من اجل الجسد او اللذة والسرور ، بل انه في سبيل هدف جميل فتان .. ها ها ! وفي المرحلة الثالثة على اعتبار انني وضعت لنفسي مبدأ التنفيذ بأدق ما يمكن من العدالة ملاحظا في تنفيذ عملي الوزن والمقياس والرياضيات ، فانني انتقيت من كل موبقات العالم أكثرها ضررا ولما قتلتها كنت مقررا في نفسي ان آخذ منها ما يلزمني للقيام بخطواتي الاولى لا اكثر ولا اقل . (والباقي كان سيذهب الى الدير طبقا لما ورد في وصيتها ! ها ها !) نعم نعم... انني لست اكثر من هوام !

وصرف على اسنانه وأضاف :

ـ ذلك لانني قد اكون شيئا أحقر وابشع من ذلك ، ولأنني من قبل كنت أشعر بأنني سأقول ذلك لنفسي عندما أقتلها . فهل هنالك شيء يمكن ان يقارن بهذا الرعب ؟ آه يا للدناءة ويا للنذالة ! آه ... آه ... كم أفهم « النبي » الممتطي حصانا ويهز بيده سيفا ! الله يريد فاستسلم وأطع أيها المخلوق الرعديد ! انه على حق ! انه على حق هو ـ النبي ـ عندما يكون تحت امرته في مكان ما من الشارع «بطارية» مدفعية ممتازة تضرب الشرير والطيب دون ان يتنازل بابداء أي تفسير! اطع ايها المخلوق الرعديد واحترس من ان تريد لأن الارادة ليست من عملك ! آه لن اغفر أبدا أبدا لتلك العجوز اللعينة ! .

واخضل شعره بالعرق وارتجفت شفتاه وفارقهما زواؤهما ! وشخص بصره الى السقف ! واردف :

ـ كم كنت احب أمي وأختي فكيف حدث ان رحت أكرههما الآن ؟ نعم ! انني اكرههما حسيا ولا استطيع احتمالهما قريبتين مني ! منذ حين اقتربت من أمي وعانقتها ... انني اذكر ذلك . كنت اعانقها وأفكر في موقفها لو كانت تعلم ... ! هل استطيع ان اروي لها الامر ! ؟ سيكون عملا طيبا مني ...هم ! ينبغي ان تكون مثلي تماما...

ثم استجمع افكاره بمجهود جبار كما لو كان يناضل للتخلص من الهذيان الذي كان يدهمه ، وأضاف :

ـ « العجوز ! اعتقد انني سأقتلها مرة اخرى اذا عادت ! مسكينة اليزابيت ! لم وجدت هناك ؟ غريب ! اني لا اكاد اذكرها كما لو انني لم اقتلها ! اليزابيت ! سونيا ! ايتها الفتيات المسكينات المتواضعات الوادعات ذوات العيون الطافحة بالطيبة والنبل ! ايتها المخلوقات العزيزة ! لماذا لا يبكين ؟ لم لا يشتكين ؟ انهن يجردن أنفسهن من كل شيء وينظرن بهدوء وعذوبة ! سونيا ... سونيا .. سونيا الهادئة ! »

وفقد الذاكرة !

وبدا له غريبا الا يذكر كيف وجد نفسه في الشارع . كان المساء قد حل وتقدم شوطا .. وتكاثف الظلام والقمر يلتمع بنور يزداد قوة! لكن الجو كان خانقا بشكل ملحوظ . وكانت جماعة من الناس تسير في الشارع والعمال المتعبون المكدودون عائدين الى دورهم أما الاخرون فكانوا يتنزهون ! وكانت هناك رائحة كلس وغبار وماء آسن . وكان راسكولنيكوف يسير حزينا مشغول الفكر وهو يتذكر أنه خرج من البيت لغاية ما ، وان عليه ان يقوم بعمل عاجل لكنه نسي طبيعة ذلك العمل .

وفجأة توقف عن السير اذ رأى في الجانب الاخر من الشارع رجلا على الرصيف يشير اليه بيده ! فاجتاز الطريق ليبلغ اليه لكن الرجل استدار فجأة وعاد يمشي كما لو انه لم يكن مشغولا بشيء • كان مطرق الرأس لا ينظر وراءه ، ولا يبدو عليه أنه نادى راسكولنيكوف• وتساءل راسكولنيكوف قائلا : « لكن ماذا ؟ لقد ناداني ! » وراح يتعقبه ! فلم يقطع عشر خطوات حتى عرفه ! كان ذلك الرجل القصير الذي تحدث معه منذ حين • وكان يرتدي ثيابه تلك ويبدو محدودبا كما رآه اول مرة !

تبعه راسكولنيكوف عن بعد وقد ازدادت ضربات قلبه ، وسلكا شارعا جانبيا دون ان يلتفت الرجل نحوه ! فتساءل راسكولنيكوف قائلا : « ترى هل يعرف انني على آثاره ؟ » وفجأة اجتاز الرجل مدخلا عومبا يؤدي الى بناء كبير • فاتجه راسكولنيكوف بسرعة نحوالمدخل وراح يمعن النظر • فهل كان ذلك الرجل ينظر اليه وهل كان يناديه ؟ لا شك لانه عندما تقدمه في الدخول التفت نحوه واشار له بيده • فتبعه راسكولنيكوف على الفور لكنه لم يجده حيث كان ! كان قد اختفى ! قدر راسكولنيكوف انه لا شك ولج اقرب مدخل الى حيث كان يقف • وكان هناك سلم قريب يقع الى اليمين فاندفع راسكولنيكوف صاعدا وما ان ارتقى طبقتين حتى كان صوت الخطوات البطيئة المتزنة يصل الى اذنيه بوضوح • والغريب في الامر ان ذلك السلم لم يبد غريبا في عينيه • هذه نافذة الطبقة الاولى •كان ضوء القمر يتسلل خلالها حزينا غامضا •• وهذه الطبقة الثانية من البناء ••• هه ! هذا هو المسكن الذي كان العاملان يشتغلان فيه ! كيف لم يتعرف على المنزل قبل ان يدخله ؟

كانت خطوات الرجل قد خفتت في تلك اللحظة ، فقدر راسكولنيكوف أنه توقف وأختبأ في مكان ما وسرعان ما ارتقى

السلم وثبا الى الطبقة الثانية • وراح يسأل نفسه عما اذا كان يجب ان يتابع الصعود ! •• يا للسكون المخيف ! وعاد الى السلم يرتقيه !

أصبح وقع خطواته الشخصية يخيفه ويرهبه ! فهتف :

ـ رباه ما اشد الظلام ! ان الغريب ولا شك مختبيء في مكان ما •• في احدى الزوايا ! آه ان المسكن الذي يطل على السلم مفتوح الباب !

فكر قليلا ثم دخل ! كان المدخل معتما جدا وخاليا لا احد فيه حتى وكأن المسكن كان خاليا • فسار على اطراف قدميه متجنبا اصدار اي صوت ،ودخل الصالون فاذا بضوء القمر يغمره وينيره بشدة • كان كل شيء كما عهده من قبل ، المقاعد والمرآة والديوان والصور في اطاراتها ! وكان القمر كبيرا ذا لون احمر كالنحاس ، يطل بنوره القوي من النافذة ! فكرر راسكولنيكوف « بأن هذا السكون مبعثه القمر لأنه ـ أي القمر ـ كان يحاول حل بعض المعميات » !

توقف برهة وانتظر طويلا وكان قلبه يزداد اضطرابا كلما ازداد القمر هدوءاً حتى انه شعر بألم جسماني من تأثير وجيب قلبه المرتفع • وكان السكون يخيم أبدا •• وفجأة تناهت الى سمعه قرقعة جافة كما لو أن بعضهم وطأ غصنا جافا ،ثم عاد السكون من جديد ! بينما دندنت ذبابة مذعورة وراحت تحوم حتى اصطدمت بزجاج النافذة وهي تطن طنينا اليما • وفي تلك اللحظة ، شاهد في الزاوية بين الخزانة الصغيرة والنافذة ، شيئا يشبه معطفا نسائيا كان معلقا الى الجدار • فراح يفكر قائلا :

ـ لماذا بقي هذا المعطف هنا ؟ انه لم يكن في هذا المكان من قبل !

واقترب بهدوء وقد خمن ان بعضهم اختبأ وراءه • وفي حذر بالغ ، أزاح بيده المعطف فرأى وراءه مقعدا وعلى ذلك المقعد في الزاوية تماما جلست العجوز منطوية على نفسها منخفضة الرأس لدرجة لم يتمكن معها من تمييز وجهها • مع ذلك فقد تأكد بأنها هي هي ! وهتف

يناجي نفسه قائلا :

ــ انها خائفة !

وبهدوء زائد خلص فأسه من الانشوطة التي ربطها بها ثم ضــرب العجوز بالفأس على جمجمتها ضربة وكررها ثانية ! لكنها ــ ولشديد استغرابه ــ لم تترنح تحت قوة الضربتين . فانحنى عليها يفحصها عن قرب لكنها أحنت رأسها اكثر فأكثر ، وبعد ذلك انطوت حتى وصل رأسها الى الارض ، ونظرت اليه من قدميه الى رأسه ونظر هو بدوره اليها ثم تسمر في مكانه !

كانت العجوز جالسة على كرسيها تضحك ! كانت تتلوى بضحكــة مكتومة تسعى بكل جهدها الى اخفائها حتى لا يسمعها . وفجأة خيل اليه ان باب غرفة النوم قد فتح وان هناك وراءه من يضحــك ساخرا منه ويهمس ! فامتلكه غضب جامح وراح ينهال على العجوز ضربا بكل قوته ولكن الضحكات والهمسات كانت تزداد كلما انهال ضربا بالفأس حتى غدت مسموعة واضحة . وكانت العجوز خلال ذلك تضحك ملء فمها ! فأراد ان يفر لكن مدخل المسكن كان قد اصبح مزدحما بالناس بينما كان الباب المؤدي الى السلم مفتوحا على مصراعيه . وكان الممشى ودرجات السلم كلها مزدحمة بالاشخاص ايضا فلم يكن يرى منهم الا رؤوسا متقاربة ! وكانوا جميعا ينظرون ولكنهم كانوا يحاولـــــون الاحتجاب وينتظرون صامتين ! .. فانقبض قلبه ورفضت ساقاه الحركة وكأنهما اتخذتا جذورا في الارض ، فأراد الصراخ و .. استيقظ !

استرد أنفاسه بصعوبة وبدا له ــ لشديد استغرابه ــ أن الحلم لا يزال مستمرا . فقد كان باب غرفته مفتوحا وعلى العتبة وقـف رجل لم يكن قد رآه او عرفه من قبل . وكان الرجل ينظر اليه نظرة ثابتة . فلم يكد راسكولنيكوف يفتح عينيه قليلا حتى عاد واغمضهما . كان مستلقيا على قفاه دون حراك . فراح يتساءل ! « أهو الحلم الذي لا

زال مستمرا ام ماذا ؟ » وعاد من جديد يختلس نظرة خلال اهدابه •

كان الغريب لا يزال واقفا في مكانه يرقبه • وفجأة اجتاز عتبة الحجرة باحتراس وأغلق الباب وراءه بعناية ، ثم اقترب من المائدة وانتظر دقيقة دون ان يفارقه بنظره ، واخيرا جلس بهدوء على مقعد بالقرب من السرير ووضع قبعته الى جانبه واتكأ بيديه الاثنتين على مقبض عصاه وترك ذقنه ترتكز على يديه • كان يبدو عليه استعداده للانتظار الطويل ، فراح راسكولنيكوف يرتقبه خلسة بقدر ما سمحت له الظروف بالمراقبة • كان الرجل مسنا قوي البنيان ذا لحية كثيفة شقراء أقرب الى البياض •

انقضت عشر دقائق وكان ضوء النهار لا يزال يضيء الحجرة ، غير ان المساء كان يقترب مسرعا • وكان السكوت المطبق يخيم على الغرفة فلا حركة على السلم ولا في اي مكان اللهم الا طنين ذبابة كبيرة كانت ترتطم بزجاج النافذة اثناء طيرانها • فلم يستطع راسكولنيكوف احتمال هذا الموقف أكثر مما احتمل • لذلك فقد نهض فجأة وجلس في مكانه على الديوان وقال :

ـ حسنا ! تكلم ! ماذا تريد ؟

فأجاب الغريب بلهجة مضحكة وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة وديعة وقال :

ـ لعمري ، كنت متأكدا من أنك غير نائم واثقا من آنك تخاتلني فحسب • اسمح لي ان اقدم نفسي اليك : أركاد ايفانوفيتش سفيدريكايلوف !

الجزء الثاني

القسم الأول

١

راح راسكولنيكوف يناجي نفسه قائلا : « ألا يجوز أن يكون هذا الذي أراه استمرارا لحلمي ؟ » ونظر الى الزائر غـير المنتظر في فطنـة وحذر ، وقال بصوت مرتفع وهو فريسة الحيرة :

ــ سفيدريكايلوف ؟ يا للاستحالة ! ذلك محال !

فلم يبد على الزائر أنه دهش لهذاالاستغراب ، بل قال :

ــ جئت اليـك يدفعني سببـان : أولا رغبتي الشخصية في التعرف اليك ، لأنني منذ زمن بعيد سمعت في كثير من الاهتمام الى مـا يروى عنك من أخبار طيبة • ثم انني أنتظر ألا تتوانى عن [illegible] في قضية تمس مباشرة مصالح أختك أفدوتيا رومانوفنا [illegible] التي [illegible] تستقبلني ولا شك اذا ذهبت اليها بمفردي طالما أنها موغرة الصدر ضدي ، الأمر الذي سيكون على العكس اذا أضيفت اليه مساعدتك !••

فقاطعه راسكولنيكوف :

ــ لقد أخطأت في اعتمادك على مساعدتي •

ــ اسمح لي أن أطرح عليك سؤالا: لقد وصلتـا أمس فقط ، أليس كذلك ؟ فلم يعطه راسكولنيكوف جوابا •

ــ انه أمس ، وأنا أعرف ذلك ! أما أنـا فقد وصلت أول من أمس • حسنا ، هذا ما كنت أريد قوله بهذا الصدد يـا روديون رومانوفيتش : أعتقد أنه لا فائدة في محاولة تبرئة نفسي ، ولكن اسمح لي أن أسألك: ما هي الجريمة الحقيقية التي ارتكبتها ؟ أقصد اذا درست المسألة بنزاهة بعيدا عن التأثر بالشائعات والأقاويل !

واستمر راسكولنيكوف يتأمله في صمت ...

ـ ألأنني جفوت في منزلي فتاة ضعيفة وغازلتها وأهنتهـا بعروضي المخزية ؟ أليس هذا هو السبب ؟ انني أعرض نفسي شخصيا للوم ! لكن أرجو أن تقدر فقط أنني رجل ككل الرجال ، معرض للاغراء والحب ـ الأمر الذي يحدث طبعا خارج نطاق ارادتنا ـ وعندئذ سيفسر لك الأمر بشكل طبيعي جدا! ان السؤال الحقيقي اذن هو: هل أنا وحش أم أنني ضحية بالمثل ؟ وأية ضحية ! والخلاصة أنني عندما كنت ـ بدافع مـن شعوري الملتهب ـ أعرض عليها الفرار معي الى أمريكا أو الى سويسرا ، ربما كنت أضمر لها أعمق العواطف المحترمة وأعتقد الى جانب ذلك بأنني أكون سعادتنا معا . ان العقل ليس الا خادم ميولنا ، ومن ذلـك ترى أنني كنت أسيء الى نفسي أكثر من الاساءة اليها .

فقاطعه راسكولنيكوف باشمئزاز قائلا :

ـ ان المسألة ليست هنا ، كل ما في الامر أنك مخلوق كريه ! وسواء أكنت مخطئا أم مصيبا فاننا لا نريد رؤيتك ونطردك ! ليس لك الا أن « تذهب ! » .

فقهقه سفيدريكايلوف ضاحكا فجأة ضحكة صافية بريئة ، وقال :

ـ أرى أنك تناقش الموضوع بحماسة لقد فكرت في استعمال الدهاء أول الأمر وها أنت تندفع مباشرة الى الهدف !

ـ ومع ذلك لا زلت تخاتل .

قال سفيدريكايلوف ، وهو يضحك ملء فمه :

ـ ماذا ؟ ماذا تقول ؟ ان هذا ما يسمونه بالحرب النزيهة .. خدعة مشروعة تماما . على كل حال لقد قاطعتني في كلامي ، ولكي نعود الى أغنامنا (١) أقول : انني أؤكد اذن أنـه لولا حادثـة البستان لأمكن

---

(١) تعبير يقصد منه العودة الى موضوع الحديث ! ـ المترجم ـ

تحاشي المزعجات جميعا . ان مارت بيتروفنا ...

فقاطعه راسكولنيكوف بشراسة :

ــ يقولون انك أرسلت مارت بيتروفنا الى العالم الآخر ...

ــ آه ! لقد سمعت بهذا أيضا ؟ لكن كيف لا تكون سمعت به ؟... لعمري لست أدري في الحقيقة ماذا أقول جوابا على هذا السؤال رغم أن ضميري مرتاح تماما من هذه الناحية ! لا تظنن بأني أخاف شيئا يصيبني بسبب ذلك . ان كل شيء قد وقع بنظام تام ودقة شديدة: فقد أثبت التحقيق الطبي وقوع حالة من حالات السكتة القلبية سببها الحمام الذي أخذته عقب طعام دسم وافر شربت معه المتوفاة بشراهة حوالي زجاجة كاملة من النبيذ ! ولم يستطيعوا اكتشاف شيء آخر ... كلا ، ليس هذا هو الموضوع . لكنني أتساءل أحيانا وأنا في المركبة خلال سفري ــ هل ساهمت حقيقة في تلك ... المصيبة باثارتي اضطرابا عقليا أو بأية وسيلة أخرى ! فتبينت استحالة ذلك عمليا .

راح راسكولنيكوف يضحك بدوره ويقول :

ــ كان هناك اذن ما يقلقك ؟

ــ لِمَ تضحك ؟ تصور الأمر كما سأصفه : لقد ضربتها بالسوط ضربتين فقط لم يبقَ لهما أثر مطلقا ... أرجو ألا تعتبرني وقحا . انني أعرف تماما أن ما صدر عني يعتبر عملا بغيضا ... لكنني أعرف تماما وبشكل تأكيدي كذلك ، أن هذه البوادر ، ولنقل بوادر الاهتمام ، لم تكن تسيء الى مارت بيتروفنا . انها استثمرت القصة المتعلقة بأختك استثمارا متواصلا ، وأخيرا لبثت في المنزل خلال الأيام الثلاثة الأخيرة مرغمة ، لأنها لم تجد أي سبب جديد تتذرع به للذهاب الى المدينة ، لقد أضجرت الناس بقراءة تلك الرسالة العتيدة ــ هل سمعت كذلك بتلك الرسالة ؟ ــ حسنا ... وهكذا وجدت فجأة ضربات السوط قد

سقطت عليها تساقط الرحمة من السماء ، فكان أول ما أرادت عمله هو تجهيز العربة !.. كذلك لن ألفت انتباهـك الى أن بعض النساء يشعرن بسرور بالغ اذا استهدفن للاهانة مهما سببت لهن من الغضب . انهن على هذا الشكل ... على كل حال ، ان الجنس البشري كله يعبد التشهير به ترى هل لاحظت ذلك ؟ أما النساء فانهن يتذوقن ذلـك بصورة خاصة حتى ليقال انهن لا يستطعن العيش بدونه ...

خطر لراسكولنيكوف أن يخرج من الغرفه فيضع بخروجه حدا لهذه المقابلة ، لكن لونا من الفضول بل ومن التعمد استبقاه في تلك اللحظة. سأل بلهجة ساهمة :

ــ هل تحب الضرب ؟

فأجابه سفيدريكايلوف بهدوء :

ــ كلا ... ليس بكثرة . أما فيما يتعلق بمارت بيتروفنـا فانني لم استعمل يدي معها تقريبا أبدا . لقد كنا نعيش في تفاهم متين وكـانت دائما مسرورة مني . لقد استعملت السوط مرتين فقط خلال الاعـوام السبعة التي قضيناها معا ــ باستثناء حالة ثالثة كانت مبهمة كانت المرة الاولى بعد زواجنا بشهرين ، عندما عدنا الى الريف ، والمرة الثانية كانت هذه الأخيرة . انك تفكر الآن بـأنني كنت وحشا ، رجعيـا ، نصيرا للاسترقاق والعبوديه ... ها ها !... على فكرة ، أتذكر يا روديـون رومانوفيتش أنه منذ بضع سنوات ، أيام « بيانـات الخلاص » شهر بشخصية لا أذكر اسمها ولطخ اسمها بالاوحال لأنها ضربت في احـدى المركبات سيدة ألمانية بالسوط ؟ هل تذكر هذا الحادث ؟ أعتقد أنـه في تلك السنة وقع ما سموه « فاحشة القرن الشنيعة » !... هيا .. تذكر المحاضرة العامة عن الليالي المصريه والعيون السود ! آه أين أنت يا أيام شبابنا الذهبية ! اليك رأيي الشخصي حول هذا الموضوع ! انني بعيد عن الاستئناس بذلك السيد الذي ضرب تلك الألمانية بالسوط لأنه ليس

في الأمر حقيقة ... ما يؤنس ! انني اذ أقول لا أستطيع الا أن أضيف أن هناك أحيانا بعض « الألمانيات » يثرن في النفس رغبة عنيفـــة في ضربهن حتى ان من يمتلك نفسه حيالهن ليس في رأيي تقدميا ! ان أحدا لم يمحص المسألة على هذا الوجه ، ومع ذلك فانه الوجه الوحيد الذي يمكن بحثه تماشيا مع روح العدل .

وانفجر سفيدريكايلوف بعد ذلـــك في ضحكة جديدة ، فتأكـد راسكولنيكوف بوضوح أن الرجل يحمـــل فكرة مدروسة بحزم . سأل :

ـ لا شك أنك انقطعت عن التحدث الى الناس خلال أيام عديـــدة متتالية !

ـ ان هذا صحيح نوعا ما : ألا يدهشك أن تجدني رجلا أنيسا جدا؟

ـ كلا ، بل انني أدهش اذ أراك أنيسا اكثر مما يجب ! ـ لأنني لم استاء من فظاظة أسئلتك ؟ أليس هذا هو السبب ؟. لـــكن ... لم أستاء منها ؟

وأضاف بسلامة نية مدهشه :

ـ مثل ما سألتني كذلك أجبتك !

ثم أردف بلهجة حالمة :

ـ انك ترى يا سيدي أنه يمكن القول بأنني لا أهتم بـأي شيء . انني في هذه الأثناء خال من المشاغل ... مع ذلك فانـــك حر في أن تصدق أنني أعتمد على مساعدتك وأن لي شأنا مع أختك كما حدثتك ! لكنني أؤكد لك بصراحة أنني شديد الملل وخصوصا في الأيام الثلاثـــة الأخيرة ـ حتى انني سعيد جدا برؤيتك ! لا تغضب يـــا روديـون رومانوفيتش ، انك تبدو لي كذلك غريبا بشكل مخيف . ان في سريرتك الآن بصورة خاصة شيئا لا يمكنك اخفـــاؤه مهما نفيت وجوده ، ولا أقصد في هذه اللحظة بالذات بل أعني في الوقت الحاضر ... هيا لا

تقطب حاجبيك . سأكف عن التحدث في هـــذا الأمر ... انني لست ذلك الدب الذي تظنه !

فنظر اليه راسكولنيكوف مريدا وأجاب :

ـ لعلك لست « دبا » أبدا ، بل يبدو لي أنك رجل اجتماعي ممتـاز. أو على الأقل انك تعرف كيف تبدو ـ عند الاقتضاء ـ رجلا طيبا ...
فأجاب سفيدريكايلوف بلهجة جافة فيها شيء من الاحتقار :

ـ لعمري لست أبالي برأي أحد ، وانني لأتساءل لم لا أكون شقيـا طالما أن هذا اللون من الحياة يبدو لنا أكثر سهولة ! خصوصا وأننا نميل غريزيا الى الشقاوة ...

وانفجر ضاحكا ضحكة ساخرة !

ـ لقد سمعت رغم ذلك بأن لك هنا كثيرا من المعارف . انـك لست من يمكن أن يطلق عليه اسم رجل محروم من الاتصالات ! على ذلـك فانني أتساءل عن الدافع الذي جاء بك الى منزلي وما هي غايتك ؟
استرسل سفيدريكايلوف دون أن يجيب على السؤال الرئيسي :

ـ انك على صواب . انني أعرف كثيرا من الناس ! لقد التقيت بعدد من الاشخاص خلال هذه الأيام الثلاثة التيقضيتها متسكعا هنا فعرفتهم، وأعتقد أنهم عرفوني بالمثل . انني أبدو رجـــلا موسرا وثيابي مناسبة تماما ، أليس كذلك ؟ ان الغاء الرقيق لم يؤثر علينا : انني أمتلك مراعي وغابات لذلك فان مواردي تبقى ثابتة . لكن ... لن أذهب عند ذلـك النوع من الناس ، لقد سئمتهم من قبل ! انني أضرب في الطرقات منـذ ثلاثة أيام ، ولم أقترب بعد من أحد . انهم يسمون هذه مدينة ! انك تمن علي كثيرا اذا قلت لي كيف هي قـائمة ! مـدينة الموظفين وتلاميذ المدارس الروحية ! الحقيقة أن أشياء كثيرة فاتني تفهمها خلال تجوالي

الفاجر السابق فيها منذ ثمانية أعوام. أما الآن فانني لا أعول ، وربي، الا على التشريح !

ــ على أي تشريح ؟

فأجاب ، دون أن يعير السؤال التفاتا :

ــ كل هذه الأندية والمطاعم التي اصطلح على اعتبارها مجهودا تقدميا ...! ينبغي ان تستغني عني . ثم هل من الضروري أن يكون المرء غشاشا ؟

ــ هل كنت كذلك غشاشا ؟

ــ كيف العمل بغير ذلك ؟ كنا جماعة من الناس الموسرين ، وكنا منذ ثمانية أعوام نبحث عن وسائل لقتل الوقت ، وكنا جميعا ــ وينبغي أن تعرف ــ نمتلك وسائل طيبة . كان بيننا الشعراء وأصحاب رأس المال . على العموم ، هل لاحظت أن خيرة الناس وأحسنهم وسائلا في مجتمعنا الروسي هم الأشقياء ؟ الريف هو المكان الذي ذهبت اليه . لأنني كدت أن أسجن من أجل ديون كانت علي ليوناني قذر من « نيبجين » ، لولا أن جاءت في تلك الأثناء مارت بيتروفنا فساومت الدائن وحررتني من سلطته لقاء ثلاثين ألف روبل ــ مع أن مجموع ديوني بلغ سبعين ألفا ــ وتزوجنا زواجا شرعيا ، ثم صحبتني فور ذلك الى القرية كما لو انها وضعت اليد على كنز ثمين . كانت أكبر مني بخمس سنين ، وكانت تحبني كثيرا ، وقد أمضيت سبع سنين لا أبارح الريف وهي ــ لاحظ ذلك ــ محتفظة بالوثيقة المتعلقة بالثلاثين ألف روبل ، وكانت أودعتها لدى شخص ثالث ، لتستعملها ضدي عند الاقتضاء ، وبذلك كانت تستطيع الاطباق علي أبدا اذا خطر لي أن أتحرر من النير ! ولقد كانت على استعداد لذلك العمل ! لك أن تجرب لترى كيف يحدث مثل ذلك مع النساء !

ـ هل كنت ستنسحب لولا وجود تلك الوثيقة ؟

ـ لست أدري بماذا أجيبك ! لم تعد تلك الوثيقة تزعجني ، ولم تكن بي رغبة للذهاب الى أي مكان • لقد عرضت علي مارت بيتروفنا نفسها أن أسافر الى الخارج عندما شعرت بأنني متضجر • نعم ••• لقد ذهبت من قبل الى الخارج فكنت دائما أشعر بسأم قاتل هنالك • صحيح أن الأمر لا يدعو الى مثل هذا التبرم : فهنالك شروق الشمس وخليج نابولي والبحر •• لكنك تنظر الى هذه المناظر فتشعر بشيء من الحزن • انذلك الحزن هو الذي يشعرني بالسأم الشديد • كلا •• ان من الخير للمرء أن يبقى في بلده لأننا هنا ، على الاقل ، نتهم الآخرين بكل شيء ونزكي أنفسنا بذلك الاتهام ••• لعلني أذهب الآن طائعا الى القطب الشمالي لأن عندي ـ بعد أن لم يتبقَ لي الا الكحول ـ خمرا رديئة تقززت نفسي من شربها • لقد جربت ذلك ! وعلى فكرة يقولون ان « بيرنج » سيطير من حديقة يوسوبوف يوم الاحد المقبل على متن منطاد كبير ، وأنه يوافق على اصطحاب رفاق طريق لقاء بدل معين ، فهل ذلك صحيح ؟

ـ كيف ، أتذهب بالمنطاد ؟

غمغم سفيدريكايلوف وقد غدا مستغرقا في التفكير :

ـ أنا ؟ كلا ••• أعني •••

بينما فكر راسكولنيكوف في نفسه متسائلا : « ترى ماذا يريد على العموم ؟ »

أردف سفيدريكايلوف بلهجة حالمة :

ـ كلا ••• ان تلك الوثيقة لم تكن تقلقني ، ولم أكن شخصيا أرغب في مبارحة الريف • عما قليل سينقضي عام منذ أن أعادت الي مارت بيتروفنا الوثيقة بمناسبة عيد ميلادي ، مضافا اليها مبلغ محترم من المال باسم هدية! لقد كانت غنية! قالت لي: «أترى يا أركادي ايفانوفيتش كم

أنا واثقة بك ؟ » . نعم ... لقد نطقت بهذه العبارة بالحرف الواحد . ألا تصدق أنها قالت ذلك ؟ لكنني كنت قد أصبحت مزارعا ممتازا معروفا في نواحينا . ثم انني استجلبت كتبا . ووافقت مارت بيتروفنا على ذلك بادىء الأمر ، ثم خشيت بعد ذلك أن أتعب نفسي بالقراءة.

ـ يبدو لي أنك سوف تتضجر بعد مارت بيتروفنا !

ـ أنا ؟ يجوز ! انه ممكن الوقوع . على فكرة ... هل تؤمن بالأشباح !

ـ أشباح من ؟

ـ الأشباح بصورة عامة ! أشباح من تريد أن يكون البحث عنها ؟

ـ هل تؤمن بها أنت ؟

ـ نعم ولا ، لأرضيك ! أقصد أن « لا » تكون أكثر من اللازم .

ـ وهل ترى أشباحا ؟

نظر اليه سفيدريكايلوف نظرة غريبة وتمتم ، وهو يكشر ضاحكا :

ـ ان مارت بيتروفنا ! ! تزورني .

ـ كيف ! هل تأتي لزيارتك ؟

ـ نعم . لقد جاءت حتى الآن ثلاث مرات . لقد شاهدتها أول مرة يوم دفن زوجتي بالذات ، بعد ساعة على عودتنا من المدفن . كان ذلك قبل سفري الى بطرسبورج بليلة واحدة.وكانت المرة الثانية أمس الاول خلال سفري عند بزوغ النهار في محطة « مالاثيا ـ فيشيرا » . أما المرة الثالثة فقد وقعت منذ ساعتين في مسكني الذي أنزل فيه وفي غرفتي بينما كنت وحيدا .

ـ هل كنت مستيقظا ؟

ـ تماما ! لقد كنت مستيقظا تماما خلال المرات الثلاث . انها تأتي

فتتحدث دقيقة واحدة ثم تذهب عن طريق الباب دائما حتى ليخيل ألي أنني أسمع وقع أقدامها .

فقال راسكولنيكوف دون وعي :

ــ ان هذا مضحك ! كنت أحدث نفسي كذلك بأن من الواجب أن يحدث لك أمر كهذا ...

ثم لام نفسه على ما بدر منه واستغرب صدور هذا الكلام عنه. لقد كان في اضطراب عنيف . سأله سفيدريكايلوف بدهشة :

ــ هكذا اذن ؟ كنت تفكر في ذلك ؟ هل هـذا ممكن ؟ حسناً ! ألم أقل لك ان بيننا شيئا عاما يجمعنا ؟

أجاب راسكولنيكوف بانفعال :

ــ انك لم تقل ذلك أبدا ...

ــ لم أقله ؟

ــ كلا !

ــ كنت أعتقد أنني قلته . منذ حين عندما دخلت ، وكنت أنت مستلقيا مغمض العينين تتصنع النوم، قلت لنفسي : «هذا هو بالذات!»

صاح راسكولنيكوف :

ــ ماذا تعني بـ : « هذا هو بالذات » ؟ الى م تلمح ؟

غمغم سفيدريكايلوف ، وقد بدت عليه حيرة ساذجة :

ــ الى م ؟ الحقيقة لست أدري ..

وأعقب ذلك دقيقة صمت راحا خلالها يحدقان في عيني بعضهما .

صاح راسكولنيكوف عفوا :

ــ ان هذا مناف للعقل ! ماذا تقول لك كلما جاءت تزورك ؟

ــ هي ؟ تصور انها تحدثني عن أتفه الأشياء ، وهذا ما يغيظني ، وستذهل عندما ترى أي نوع من الرجال أنا ! عندما دخلت علي في المرة

الاولى ، كنت وحيدا في مكتبي أدخن السيجار وأسبح في الخيال وقد أرهقني التعب اثر الحفلة الجنائزية والترتيل ثم الموكب والطعام • والخلاصة انني كنت على تلك الحال حينما دخلت من الباب وقالت : هه ! يا أركادي ايفانوفيتش ، لقد نسيت اليوم ــ بسبب كل هذه الاشجان التي عرضت لك ــ أن تملأ ساعة غرفة الطعام الدقاقة » ! وفي الحقيقة أنني درجت منذ سبع سنين على املاء تلك الساعه بنفسي كل اسبوع ، وعندما كنت أنسى ذلك كانت هي التي تذكرني به دائما • وفي اليوم التالي ، كنت عند الفجر في المحطة مستعدا للسفر الى هنا • كنت خلال الليلة الفائتة مجهدا من التعب فكان النعاس يداعب عيني • أمرت لنفسي بقدح من القهوة • وفجأة شاهدت مارت بيتروفنا تجلس الى جانبي وبيدها ورق لعب • قالت : « يا اركادي ايفانوفيتش ، هل تريد أن تعلم ما ينبىء به الورق عن رحلتك ؟ » كانت زوجتي في حياتها قد أصبحت « أستاذة » في التنجيم بالورق ، ولن أغفر لنفسي أبدا أنني لم أستشر الورق قبل رحيلي • فررت مذعورا • وكان جرس الرحيل يقرع في تلك الاثناء ! واليوم بعد أن عدت من دكان شواء تناولت فيها طعاما مزعجا وكانت معدتي مثقلة ، وكنت أدخن ــ ومن عادتي التدخين فور الجلوس ــ عندما دخلت مارت بيتروفنا فجأة في أبهى زينة مرتدية ثوبا جديدا من الحرير الاخضر له ذيل طويل جدا • قالت : « عم صباحا يا أركادي ايفانوفيتش ! كيف ترى ثوبي ؟ ان آنيسكا لن تستطيع صنع مثله بهذه الدقة » ــ وأنيسكا هذه خياطة في بلدتنا ، وهي فتاة جميلة تعلمت الخياطة في موسكو وكانت من قبل خادمة ــ ثم وقفت أمامي وراحت تستدير لتتيح لي فرصة معاينة الثوب ، فتأملته برهة ثم حدجت زوجتي بنظرة وقلت : « يا مارت بيتروفنا ، الحقيقة أن هذه الترهات لا تستوجب منك عناء المجيء لتذكرها لي • » قالت : « آه يا رب ! ها قد أصبحنا نزعجك الآن يا صديقي ! » قلت لها بغية مشاكستها قليلا :

« يا مارت بيتروفنا ••• انني سأتزوج ••• » فأجابت : « ذلك شأنـك يا أركادي ايفانوفيتش • انه لا يشرفك ولا شك أن تتزوج فـور دفن زوجتك • ومع ذلك فانك وان كنت قد أحسنت الانتقـاء فان الزواج سوف لا يجلب لكما السعادة ، ولسوف تصبحان أضحوكة للاشخاص النبلاء • » ثم أخذت قبعتها وخيل الي أنني أسمع حفيف ثوبهـا على الارض • انه أمر لا يصدق ، أليس كذلك ؟

ــ صحيح ، كما أنه يجوز أن يكون ما تقوله محض اختلاق !

فأجاب سفيدريكايلوف بلهجة حالمة كما لو أنه لم يلاحظ خشونة السؤال :

ــ انني أكذب نادرا •

ــ وهل رأيت أشباحا قبل ذلك ؟

ــ بلى ، مرةواحدة فقط وكان ذلك منذ ست سنين • كان عندي خادم اسمه فيليب • وكنا قد دفناه وعدنا لتونا فصحت وأنـا ساهم : « فيليب علي بغليوني ! » فدخل واتجه مباشره نحو الخزانة التي كانت غلاييني موضوعة فيها • وكنت جالسا أفكر في « أنه يثأر مني » لأننا ــ أنا وهو ــ كنا قد تشاحنا بعنف قبل موته، فقلت له : كيف تجرأ على المثول أمامي بكم ممزق ؟ أخرج من هنا ، أيها الخليع !•• فاستدار على كعبيه وخرج ولم يعد بعد ذلك • ولم أهمس بكلمة أمام مارت بيتروفنا وقد عقدت العزم أولا على اقامه قداس من أجل روحه غير أنني شعرت بضيق من ذلك •

ــ اذهب واستشر طبيبا !

ــ لست في حاجة اليك لأعرف أنني مريـض ، رغم أنني لا أعرف نوع المرض • غير أنني أعتقد بأنني في حالة صحيه أفضل خمس مرات من حالتك ! لم أسألك كذلك عما اذا كانت الأشباح يمكن أن تظهر أم

لا . لقد سألتك : هل تؤمن ــ نعم أم لا ــ بوجود الأشباح ؟

صاح راسكولنيكوف بغضبة هوجاء :

ــ كلا انني لا أؤمن بذلك !

غمغم سفيدريكايلوف وهو ينظر نظرة جانبيةوقد أحنى رأسه قليلا وكأنه يحدث نفسه :

ــ ماذا يقولون عادة ؟ انهم يقولون : «انك مريض وعلى ذلك فان ما يبدو لك ظاهريا لا وجود له ، انه كابوس مزعج » . ومع ذلك فان هذا لا يتفق بدقة مع المنطق . أنا أوافق على أن التخيل من خصائص المرضى ، لكن ذلك يثبت بأن الانسان لا يرى الأشباح الا في الحالات المرضية ، وليس أنها غير موجودة بحد ذاتها .

فأصر راسكولنيكوف بغضب :

ــ لا شك أنها غير موجودة !

نظر سفيدريكايلوف اليه ببطء وأردف :

ــ كلا ؟ أتفكر هكذا ؟ ماذا اذن لو ناقشنا الموضوع على الوجه التالي ــ وأرجو أن تساعدني ــ : « ان التخيلات هي قطع أو أجزاء من عوالم أخرى . والرجل السليم لا يربطه بها بالطبع شيء لأن الرجل السليم هو قبل كل شيء رجل من هذا العالم السفلي ، وانه على هذا الأساس ينبغي أن يعيش حياته الأرضية الوحيدة . هذا من حيث الانسجام والتنظيم . لكنه لا يكاد أن يمرض ، أو على الأصح لا يكاد ذلك التنظيم الارضي الطبيعي يختل في تكوينه ، حتى تبدأ في الظهور امكانية عالم آخر . وكلما ازداد مرضه كذلك تزداد اتصالاته بذلك العالم الآخر ، حتى أن الرجل الذي يموت أخيرا تماما يمضي مباشرة الى العالم الآخر » .

لقد ناقشت الأمر على هذا الوجه منذ زمن طويل، فاذا كنت تؤمن

بالحياة الاخرى فانه من الممكن لك ان تؤمن كذلك بهذه المناقشة .

قال راسكولنيكوف :

ـ أنا لا أؤمن بالحياة الأخرى !

لبث سفيدريكايلوف حالما ، وقال فجأة :

ـ ماذا لو لم يكن هناك الا العناكب أو أشياء من هذا القبيل ؟

قال راسكولنيكوف في سره : « انه مجنون ! » بينما عاد سفيدريكايلوف يقول :

ـ اننا نتمثل الأبدية كفكرة يمكن فهمها ، اننا نتمثلها دائما كشيء غير محدود، متناه في العظمة. لكن لمَ تكون حتما متناهية في الامتداد ؟ تمثل فجأة بدلا من ذلك أنه ليس هناك الا غرفة صغيرة تشبه حمامات الارياف مثلا ، سوّدها الدخان ونسجت العناكب في زواياها بيوتها، وأن « هذا » هو الابدية ! أتدري أنها تبدو لي أحيانا كذلك !

هتف راسكولنيكوف وقد أحس بشعور قلق :

ـ هل يمكن ، هل يمكن ألا تتصور شيئا أكثر تعزية وأكثر صحة من هذا ؟

فأجاب سفيدريكايلوف ، وهو يضحك ضحكة غامضة :

ـ أكثر صحة ؟ من يدري ؟ لعل هذا هو الصحيح. أما فيما يتعلّق بي فانني لا أتأخر عن اظهارها على هذا النحو عامدا ...

لم يتمالك راسكولنيكوف ازاء هذا الجواب الغريب الا أن يشعر ببرد مفاجىء . أما سفيدريكايلوف فقد رفع رأسه ونظر اليه بحدة ، ثم انفجر ضاحكا فجأة وهتف :

ـ تصور ما سأقول لك : منذ نصف ساعة لم نكن شاهدنا بعضنا بعد ، وكنا نعتبر بعضنا أعداء لبعض لأن بيننا أمرا لم يوضح وضوحا كافيا ، وها اننا قد تركنا هذا الأمر وانصرفنا عنه الى هذا النوع من

الأدب ! ألم أقل لك الحق حينما زعمت أننا ثمرتان من أرض واحدة ؟

فقال راسكولنيكوف منفعلا :

ـ اسمح لي ، اسمح لي! أرجو أن تفسر فورا ما تريد وأن تطلعني على سبب تشريفك اياي بزيارتك و .. و .. انني في عجلة من أمري.. أريد الخروج !

ـ حسنا ، لنبحث في هـــذا فقط ! ان أختك أفدونيا رومانوفنـــا ستتزوج من السيد لوجين ، بيير بيتروفيتش ؟

ـ ألا يمكن أن نتحاشى كل شيء له علاقة بأختي ، وألا نعود الى ذكر اسمها ؟ لست أفهم كيف تجرؤ على التلفظ باسمها في حضرتي اذا كنت حقيقة سفدريكايلوف !

ـ لكن كيف يمكن ألا أذكر اسمها وأنا الذي جئت للتحدث عنها ؟

ـ حسنا تكلم ، ولكن أسرع !

ـ أنا واثق من أنك اتخذت فكرة ما عن هذا السيد لوجين الذي هو قريبي بالمصاهرة ، وذلك اما أثناء مقابلتك مدة نصف ساعة أو استنادا الى المعلومات التي قد تكون جمعتها عنه والتي قـد تـكون صحيحة ودقيقة . انه غير كفء لأفدونيا رومانوفنا . وفي رأيي أنها ـ في هذه القضية ـ تضحي بنفسها بشهامة وتجرد من أجل ... من أجل أسرتها. ولقد ظننت ـ استنادا الى ما سمعته عنك ـ بأنـك ستسر جدا لفسخ هذا الزواج شريطة ألا تـغدر مصالح أختك في الأمر . والآن ، بعد أن عرفتك شخصيا ، فانني أصبحت أشد قناعة من ذي قبل !

ـ ان هذا لسذاجة كبيرة من قبلك بل واعذرني اذا قـلت بـأنه وقاحة !

ـ انك تريد بذلك القول ان تلمح الى أنني « أبشر بقديس » كما يقال ، أي أنني أمهد الطريق لنفسي . اطمئن، يا روديون رومانوفيتش.

اذ لو أنني كنت أعمل لمصلحتي لما بدأت بهذه الصراحة العظيمة • أنني لست سخيفا تماما ! انني آكشف لك في هذا الصـدد عن بسيكولوجية غريبة • انني منذ حين ، عندمـا غدرت نفسي لأنني أحببت أفـدونيا رومانوفنا ، قلت لك بأنني كنت شخصيا ضحية ذلك• حسنا! اعلم بأنني في هذه الساعة لا أشعر بأي حب ، بل ولا بأقل حب نحوها ، حتى أنني دهش شخصيا لهذا الشعور اذ أنني في الواقع شعرت من قبل •••

فقاطعه راسكولنيكوف :

ـ كان ذلك بسبب حياتك الحافلة بالبطالة والفجور !

ـ الواقع أنني عاطل وفاسد • ثم ان أختك تمتلك من المزايا ما يجعل حتى الرجل الذي مثلي يشعر حيالها شعورا ما • لكن ذلك كان كله عبثا • وانني أعترف به لك الآن •

ـ منذ متى شعرت بذلك ؟

ـ لقد كنت أشعر به من قبل • غير أنني تأكـدت منه نهائيا أول أمس حال وصولي الى بطرسبورغ رغم انني بلغـت موسـكو • كنت أتصور بأنني ما حضرت الا لأطلب يد أفدونيا رومانوفنـا وأنصب من نفسي خصما للوجين •

ـ اعذرني اذا قاطعتك : ألا يمكنك أن توجز من فضلك ؟ أرجوك أن تصل فورا الى الغاية من زيارتك • انني مضطر الى الخروج عاجلا•

ـ بسرور كبير • بعد أن بلغت المدينة ، وبما أنني قد عزمت على القيام بسفر ما ، أردت على سبيل الاحتياط أن أسـوي بعض الأعمال الهامة • لقد بقي أولادي لدى عمتهم ، وهم أغنياء • وأنا شخصيا لست بذي فائدة لهم • ثم أي نوع من الآباء أنا بالنسبة اليهم ؟ انني لم أحمل معي الا المبلغ الذي قدمته لي مارت بيتروفنا هدية في العام الماضي • انه يكفيني • اعذرني ، لقد بلغت الغرض : قبل سفري المقبل الذي يجوز

كذلك ألا يقع ، أريد أن أنتهي من السيد لوجين ، ليس لأنني أكرهـه بكل عنف ، لكن لأنه على العموم المسبب الاول للشجـار الذي وقـع بين مارت بيتروفنا وبيني عندما بلغني أنها هي التي مهدت لهذا الزواج انني أرغب في الوقت الحاضر أن أقابل أفـدوتيا رومانوفنا بواسطتك وبحضرتك ـ اذا كنت ترغب ـ لأعبر لها أولا أنه ينبغي ألا تنتظر أيـة فائدة على يد السيد لوجين ، بل انها عـلى العكس ستتعرض لاساءات جسيمة . ثم سأستأذنها ـ بعد أن التمس منها الصفح عن المضايقـات التي أحدثها لها في المدة الاخيرة ـ في تقديم عشرة آلاف روبل لأسهل بذلك قطع علاقاتها مع السيد لوجين ، ذلك القطع الـذي لن تتأخر عن قبوله ـ وأنا واثق من ذلك ـ حالما تجد الامكانيات متوافرة !

صاح راسكولنيكوف ذاهلا أكثر مما هو غاضب :

ـ لعمري انك لمجنون ، مجنون حقا ! كيف تجـرؤ عـلى التحدث هكذا ؟

ـ كنت أعرف تماما أنك ستطلق صيحات عالية ! لكنني ـ رغم أنني لست غنيا ـ أستطيع التصرف بهذه العشرة آلاف روبل ، وأقول بأنها غير ضرورية لي بأي شكل من الاشكال . فاذا رفضتها أفدوتيا رومانوفنا فانني متأكد من أنني سأنفقها بشكل أكثر حماقة وسخفا . ثم ... ان وجداني سيكون هادئا تماما . انني أقدم هذا المبلغ دون أيـة غـاية . وسواء أصدقت أم لم تصدق ، فانكما أنت وأفدونيـا رومانوفنا سوف تتأكدان من ذلك في المستقبل . ان كل ذلك راجع الى ما سببته حقيقـة لأختك الشجاعة من قلق ومزعجات ، وبما أنني أشعر بتبكيت مخلص في ضميري فانني أرغب من كل قلبي ليس افتداء نفسي ، وليس تقـديم تعويض مالي كذلك ، بل انني أرغب بكل بساطة أن أقوم بعمـل مثيب لأنني لا أمتاز ـ بعد كل شيء ـ بعمل الشر فقط . ولو أن غرضي كان

فيه أدنى جزء من أية فكرة أخرى أغذيها في سري ، لما تقدمت به على الشكل الصريح ، ولما كنت قدمت اليوم فقط عشرة آلاف روبل لا غير وأنا الذي قدمت أكثر منها منذ خمسة أسابيع • ثم انه يجوز أن أتزوج خلال فترة قصيرة جداً من فتاة شابة ، وعلى ذلك فان كل شك أو ظن أنني أهدف الى أفدوتيا رومانوفنا ينبغي — لهذا السبب نفسه — أن يتبخر ! انني أضيف مختتما كلامي بأنه اذا تزوجت أفدوتيا رومانوفنا من السيد لوجين، فانها ستتلقى هذا المبلغ بالذات ولكن من جهة أخرى •• هيا لا تزعج نفسك ، يا روديو رومانوفيتش • أحكم بهدوء وترو •

كان سفيدريكالوف ، وهو ينطق بهذه الكلمات ، هادئا رابط الجأش بشكل عجيب • فقال راسكولنيكوف :

— أرجو أن تكف • على كل حال ان ما تلفظت به منذ حين وقاحة لا تغتفر !

— مطلقا • ثم ان الانسان على هذه الارض لا يعمل الا الشر لأترابه، وعلى ذلك أفليس له الحق في أن يقدم لهم ذرة من الخير لا لشيء الا بسبب اصطلاحات محرفة [illegible] طبيعي ! هب جدلا أنني مت وتركت في وصيتي هذا المبلغ لأختك [illegible] فهل كانت سترفض قبوله ايضا ؟

— ممكن جدا •

— لا أظن ذلك ! [illegible]روبل ثروة طيبة رغم ذلك • أرجو على كل حال أن تطلع أفدوتيا رومانوفنا على هذا الحديث •

— كلا ، لن أقول لها شيئا منه !

— في هذه الحالة ، يا روديون رومانوفيتش ، سأكون مضطرا الى الحصول على موعد معها بوسائلي الخاصة ، الامر الذي سيزعجها على ما أظن •

— واذا حدثتها فيما دار بيننا فهل لا تحاول رؤيتها بنفسك ؟

ـ لست أدري في الحقيقة بما أجيب • انني أتوق الى مقابلتهـا مرة واحـدة •

ـ لا تتأمل في ذلك مطلقا •

ـ مؤسف • لكنك لا تعرفني • لعل علاقتنا ستصبح أكثر توثقا في المستقبل •

ـ أو تظن أن علاقاتنا ستصبح أكثر توثقا في المستقبل ؟

فقال سفيدريكايلوف ، وهو ينهض ويأخذ قبعته :

ـ لمَ لا ؟ ليس لأنني أريد أن أزعجك الى هذا الحد ، بل وانني عند ما جئت اليك لم آكن أعول كثيرا على ••• رغم أن مظهرك الخارجي قد أثر في نفسي هذا الصباح !

سأله راسكولنيكوف بشيء من القلق :

ـ وأين رأيتني هذا الصباح ؟

ـ صدفة • يخيل الي دائما أن فيك شيئا يشبه ما في ••• هيا اطمئن فانني لست مزعجا الى هذا الحد • لقد تعلمت كيف أتفق مع الماكرين • انني لم أزعج الامير سفيربيئي ـ أحد أقربائي البعيدين وأمير كبير ـ من أجل مجموعة السيدة بريلوكوف • وقد عرفت كيف أنظم أبياتـا في عذراء رافائيل • لقد عشت سبع سنين مع مارت بيتروفنـا دون أن أستسلم لأية ثورة ، ونمت من قبل في منزل فيازمسكي المطـل على « سوق العلف » ، ويجوز أن أصعد بالمنطاد مع برغ •••

ـ هيا ••• حسنا ! اسمح لي أن أسألك عما اذا كنت حقا تعول على السفر •

ـ أي سفر ؟

ـ ماذا ؟ هذا السفر العتيد الذي تحدثت عنه منذ حين !

ـ السفر ؟ آه نعم ••• في الحقيقة انني تحدثت معك عن السفر •••

حسنا انها مسألة واسعة جدا ... ليتك تعلم ما في سؤالك هذا ...
ثم أضاف بضحكة قوية صغيرة :
ـ علني أتزوج بدلا من هذه الرحلة أو أجد لنفسي خطيبة .
ـ هنا ؟
ـ نعم .
ـ هل كان لديك الوقت الكافي من أجل هذا ؟
ـ مع هذا ، فانني يجب أن أرى أفدوتيا رومانوفنا مرة واحدة ، وانني أسألك ذلك جديا . هيا الى اللقاء ... آه نعم ... كدت أنسى ... قل لأختك أفدوتيا رومانوفنا بأن مارت بيتروفنا قد تركت لها بموجب وصيتها ثلاثة آلاف روبل . انها الحقيقة الحقة . لقد اتخذت مارت بيتروفنا احتياطاتها قبل موتها بثمانية أيام ، وقد حدث الامر بحضوري ، ولسوف تستطيع أفدوتيا رومانوفنا أن تقبض المبلغ خلال أسبوعين أو ثلاثة أسابيع .
ـ هل تقول صدقا ؟
ـ نعم . قل ذلك لها .. هيا .. خادمك . انني أقطن قريبا من هنا .
وعندما خرج ، اصطدم سفيدريكايلوف على العتبة برازوميخين !

٢

كانت الساعة قد أشرفت على الثامنة ، وعلى ذلك فقد راحا يحثان الخطى للوصول الى منزل باكاليف قبل لوجين .

سأل رازوميخين حال بلوغه الشارع :

ــ من كان الرجل ؟

ــ انه سفيدريكايلوف ، ذلك الملاك الذي تعرضت أختي عنده للمهانات عندما كانت تعمل مدبرة لمنزله ، لقد اضطرت الى التخلي عن عملها لأنه كان يغازلها ، وقد طردتها زوجة هذا السيد المدعوة مارت بيتروفنا . ثم ان هذه المارت بيتروفنا نفسها عادت بعدئذ تعتذر لدونيا وقد ماتت مؤخرا موتة فجائية . لقد كنا نتحدث عنها منذ قليل . لست أدري لم أخاف خوفا شديدا من هذا الرجل . لقد وصل بعد دفن زوجته مباشرة ، وهو شاذ جدا ، ومزمع على القيام بعملية معينة .. ويبدو عليه أنه يعرف أمرا ... ينبغي حماية دونيا منه ... هذا ما أردت أن أقوله لك ، فهل سمعت ؟

ــ حمايتها ؟ ماذا يستطيع أن يعمل ضد افدونيا رومانوفنا ؟ هيا ... أشكرك ، يا روديا ، على أنك خاطبتني على هذا النحو . لسوف نحميها ! ... أين يقطن ؟

ــ لست أدري !

ــ لم لم تسأله ؟ يا للأسف ! على كل لسوف أعرفه .

فسأل راسكولنيكوف بعد صمت قصير :

ــ هل رأيته ؟

ـ طبعا . لقد لاحظته تماما .

فقال راسكولنيكوف بالحاح :

ـ هل رأيته ؟

ـ طبعا . لقد لاحظته تماما .

فقال راسكولنيكوف بالحاح :

ـ هل رأيته جيدا وبوضوح ؟

ـ طبعا . وانني أذكر وجهه . لسوف أتعرف عليه بين ألف رجل. انني أذكر الوجوه دائما .

وعاد الى الصمت من جديد .

غمغم راسكولنيكوف :

ـ هم ..! ذلك أن ... ذلك أن ... ماذا أقول ... لقد خيل لي ... يخيل لي دائما ... أن ذلك ليس الا وهما .

ـ ماذا تريد أن تقول ؟ أنا لا أفهمك تماما .

تابع راسكولنيكوف ، وهو يغتصب ابتسامة :

ـ هذا هو الأمر ! انكم تقولون جميعا بأنني مجنون . ولقد خيل الي منذ حين أنني قد أكون مجنونا حقا وأنني لم أرَ أشباحا .

ـ ماذا تقول هنا ؟

ـ من يدري ! لعلني مجنون حقا ، ولعل كل ما وقع خلال هذه الأيام الأخيرة لم يحصل الا في مخيلتي .

ـ آه روديا ! لقد أقلقوا فكرك من جديد ! ... لكن ماذا قال لك؟ لماذا جاء ؟

لم يجب راسكولنيكوف على هذا السؤال ، فاستغرق رازوميخين لحظة في التفكير وأخيرا قال :

ـ هيا ... اليك تقريري : لقد ذهبت الى غرفتك فوجدتك نائما،

ثم تناولنا طعام الغذاء وبعده ذهبت الى منزل بورفير • كان زاميوتوف موجودا هناك • أردت أن أتحدث غير أنني لم أفد شيئا من ذلك لأنني ما كنت أتوصل الى التحدث كما ينبغي ، فلم يفهما تماما الهدف الذي كنت أنشده • لكنهما ما كانا يبديان أي خجل • جـذبت بورفـير الى النافذة ورحت أوبخه بشدة ، ولكن دون جدوى كذلك • لقد كـان ينظر الى اتجاه وكنت أنظر الى آخر ! وأخـيرا وضعت قبضتي تحت « شدقيه » وقلت له بأنني سأحطمه رغم أنني قريبٌ له • فاكتفى بالنظر الي وعندئذ بصقت احتقارا وخرجت • هذا كل مـا في الأمـر • انـه سخف ، سخف وحماقة • أما مع زاميوتوف ، فانني لم أتحـدث بـأية كلمة • على أنني ــ بعد ما فكرت في أنني أفسدت كل شيء ــ خطرت ببالي فكرة مفاجئة وأنا أهبط السلم ، فكرة سكبت على قلبي الهدوء والبلسم • قلت لنفسي : لمَ نسخط ونغضب أنا وأنت ؟ فلو أنك كنت معرضا لخطر ما وكان في الأمر شيء ، لعرفنا ذلك وفهمناه • لكن ماذا يهمك من هذا كله ؟ فلا ضلع لك في كل ذلك • واذن تجاهلهم ولسوف نسخر منهم في المستقبل • لو أنني كنت في مكانك لسررت غاية السرور بالهزء بهم ••• يا له من أمر مخجل بالنسبة اليهـم ! ابصـق عليهم ، ولسوف نستطيع أن نؤدبهم بالضرب فيما بعد • أما في الوقت الحاضر فلنكتفي بالضحك !

فأجاب راسكولنيكوف :

ــ ذلك بالتأكيد هو الصواب •

وفكر في نفسه قائلا : « لكن ماذا تقول غدا ؟ » ! والغـريب أنه حتى تلك اللحظة لم يفكر مرة واحدة في أن يطرح على نفسه السؤال التالي : « ماذا سيفكر رازوميخين عندما يلم بالحقيقة » لذلك فقد نظـر بحدة الى وجه رازوميخين عندما طرأت هذه الفكرة لراسكولنيكوف•

لم يكن التقرير الذي قدمه اليه منذ حين عن زيارته لبورفير ليحتل في نفسه موضعا كبيرا لأن عددا من الأشياء الأخرى قد وقع بعد ذلك، كما أن عددا كبيرا آخر قد نسخ تماما !

التقيا بلوجين في الممشى ! كان هذا قد وصل في الساعة الثامنة تماما ، لكنه أضاع بعض الوقت في البحث عن الغرفة حتى أن ثلاثتهم دخلوها معا لكن دون أن ينظر فريق الى آخر أو أن يتبادل معه التحية ! دخل الشابان في المقدمة ، أما بيير بيتروفيتش فانه تأخر قليلا في فسحة المدخل لينزع معطفه ، وهو حريص كل الحرص على مراعاة قواعد اللياقة . هرعت بولشيري ألكسندروفنا على الفور لاستقباله على العتبة بينما كانت دونيا تتبادل تحية مع أخيها ، ودخل بيير بيتروفيتش فحيا السيدتين بلطف كاف رغم ما أودع تحيته من الاحترام المناسب للظرف. كان يبدو عليه الارتباك لأنه لم يكن قد تمالك نفسه، وكانت بولشيري ألكسندروفنا مرتبكة بعض الشيء فبادرت الى اجلاس الضيوف حول مائدة مستديره كأن ماء سماور يغلي فيه عليها ، وجلست دونيا مقابل لوجين على طرفي المائدة . أما رازوميخين وراسكولنيكوف فقد جلسا قبالة بولشيري ألكسندروفنا ، فكان رازوميخين قريبا من لوجين بينما كان راسكولنيكوف بجانب أخته .

مضت فترة صمت ، وأخرج بيير بيتروفيتش ببطء منديلا من « الباتيستا » نشره فانتشر منه عطر نفاذ ، وأدناه من أنفه فتمخط فيه وهو يحافظ على مظهره كرجل أهين في كرامته فقرر ــ رغم عطفه ــ أن يطلب تفسيرا عن هذا التصرف . خطر له منذ أن كان في الردهة ألا يخلع معطفه ، وأن ينسحب فيفرض بذلك عقابا قاسيا على السيدتين ، يجعلهما تفكران فورا في تصرفهما . غير أنه كان من أولئك الذين لا يحبون المجهول في الامور وها قد عرض له أمر أحب أيضاحه : اذا كانت أوامره

قد خرجت بكل هذه الصراحة فينبغي أن يكون هناك سبب ، لذلك فان من الانسب أن يبقى ليريح باله بـأسرع ما يمـكن وليعـرف السبب ، ولسوف يكون لديه من الوقت ما يجعله قادرا دائما على انزال العقاب وهو الذي يملك الوسيلة لانزاله بهما •

سأل بلهجة رسمية مخاطبا بولشيري ألكسندروفنا :

ــ آمل أن تكون رحلتك موفقة !

ــ حمدا لله ، يا بيير بيتروفيتش •

ــ سرني أن علمت ذلك ! هل لم تتعب أفدونيا رومانوفنا كذلك ؟

فأجابت دونيا :

ــ انني شابة وقوية ، لذلك فأنا لا أتعب • لكن الرحلة كـانت شاقة على أمي •

ــ ما العمل ؟ ان خطوطنا الداخلية تمتد الى مسافات طويلة • ان أمنا روسيا ــ كما يقولون ــ كبيرة جدا ••• لم أستطع البارحة ــ رغم رغبتي القوية ــ أن أكون في استقبالكما وآمل رغم ذلك أن يكون كل شيء قد تم دون عوائق تذكر •

بادرت بولشيري ألكسندروفنا الى القول بلهجة خاصة :

ــ أما هذا فلا ، يا بيير بيتروفيتش • لقد وقعنا في ارتباك شديد • ولو أن الله نفسه ــ كما يبدو ــ لم يرسل لنا البارحة دميتري بروكوفيش لكنا ضعنا بكل بساطة • ها هوذا حاضر •

ثم قدمته الى بيير بيتروفيتش بقولها :

ــ دميتري بروكوفيتش رازوميخين •

فألقى بيير بيتروفيتش على رازوميخين نظرة خالية من البشاشة ، وقال :

ــ كيف ذلك ؟ لقد كان لي سرور معرفته البارحة •

ثم قطب حاجبيه وصمت • كان بيير بيتروفيتش عـلى العموم من ذلك النوع من الناس الذين يظهرون أنفسهم في المجتمعات بمظهر اللطف المتناهي • لكنهم ـ اذا سارت الأمور على غير ما يشتهون ـ يفقـدون كل امكانياتهم ويصبحون عندئذ أقرب الى أكياس من الدقيق منهم الى الفرسان الأنيقين الذين يكونون عادة محط انظار الاندية والمجتمعات ! وهكذا عاد الصمت يخيم على الجميع • كان راسكولنيكوف صامتا بعناد ، وكانت أفدونيا رومانوفنا لا تريد الكلام قبل الوقت المناسب ، ولم يكن لدى رازوميخين ما يقوله • فاضطرت بولشيري ألكسندروفنا من جديد الى خرق السكون • قالت بعد أن استنجـدت بمواردها الاخبارية القصوى :

ـ لقد ماتت مارت • هل تعرف ذلك ؟

ـ كيف لا ، لقد علمت به • لقد أخبرت بموتها منذ اللحظة الاولى ، وكنت على وشك أن أقول لكم بأن أركاد ايفانوفيتش سفيدريكايلوف لم يكد يواري زوجته التراب حتى هرع الى بطرسبورغ • انهـا على الاقل المعلومات الموثوقة التي بلغتني !

سألت دونيا بصوت قلق ، وهي تتبادل النظر مع أمها :

ـ في بطرسبورغ ؟ هنا ؟

ـ تماما • ولا شك انه لم يأت هكذا عفويا دون غاية معينة، خصوصاً اذا نظرنا بعين الاعتبار الى تعجيله الرحيـل وعلى العموم الى الظروف التي سبقته •

هتفت بولشيري ألكسندروفنا :

ـ رباه ! هل يعقل أن يكون قد جاء الى هنا لمضايقة دونيا ؟

ـ يبدو لي أنه لا مجال لقلقك بصورة خاصة لا أنت ولا أفدونيـا رومانوفنا ، اذا كنتما ـ بالطبـع ـ ترغبان في تحاشي أي لـون من

العلاقات معه . وانني من جانبي سأعني بالاستفسار منذ الآن عن مسكنه .

فأضافت بولشيري ألكسندروفنا :

ــ آه يا بيير بيتروفيتش ، لن تستطيع أن تتصور درجة جزعي لهذا الخبر الذي ذكرته منذ حين . انني لم أره الا مرتين ولقد بدا لي مخيفا رهيبا . انني واثقة من أنه سبب وفاة تلك المسكينة مارت بيتروفنا .

ــ لا يمكن الحكم على هذه النقطة . ان لدي معلومات دقيقة ، وانني لا أعترض على أنه عجل سير الأمور الطبيعي بالمساهمة في جرحها روحيا . أما فيما يتعلق بسلوك الرجل وعقليته فانني من رأيك تماما . انني أجهل اذا كان غنيا في الوقت الحاضر ، ولسوف أعرف بأسرع وقت ما تركته له مارت بيتروفنا . لكنني لا أشك في أنه ــ لمجرد امتلاكه بعض الامكانيات ــ سيعود في بطرسبورغ الى طراز حياته السابق. انه أكثر الرجال انحلالاً وأشدهم اغراقا في المفاسد من كل من هم على شاكلته ! ان لي من المبررات الكافية ما يجعلني واثقا من أن مارت بيتروفنا التي كان لها شقاء التعلق به ودفع ديونه منذ ثمانية أعوام ــ كانت نافعة له كذلك لاعتبارات أخرى . فلقد توصلت ــ بفضل تضحياتها وتصرفاتها فقط ــ الى خنق قضية اجرامية في مهدها رغم الطابع الحيواني المفرط الذي اتسمت به تلك الجريمة ، والتي كان يمكن أن يذهب بسببها في رحلة الى سيبيريا . هذا هو الرجل اذا شئتم معرفة نوعه !

صاحت بولشيري ألكسندروفنا :

ــ آه ... يا رب !

كان راسكولنيكوف يصغي باتنباه ! وفجأة سألت دونيا بصوت خطير ، وهي تضغط على كلماتها :

ـ هل حقيقة أن لديك معلومات موثوقة حول هذا الموضوع ؟

ـ انني لم أقل الا ما اقتطفته شخصيا وبصورة سرية تامة من فم مارت بيتروفنا • انه لمن المناسب أن نلاحظ كذلك بأن تلك القضية ليست معقدة جدا من وجهة النظر الحقوقية القانونية • في ذلك الوقت كانت تعيش هنا امرأة أجنبية تمتهن الربا الى جانب أشياء أخرى ، اسمها ريسليش ، وأعتقد كما يبدو أنها لا زالت في بطرسبورغ • وكان السيد سفيدريكايلوف على علاقات وديه بل وغامضة مع هذه السيدة منذ أمد طويل : وكانت لها ابنة أخت تعيش بقربها تبلغ على ما أعتقد الخامسة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها ، وكانت صماء خرساء تحتقرها ريسليش وتعذبها كثيرا حتى أنها كانت تستكثر عليها لقمة الخبز وتضربها بشكل وحشي • وذات يوم وجدت تلك الفتاة مشنوقة في غرفة المؤونة • وقد أثبت التحقيق أنها انتحرت • وبعد الشكليات المرعية ، توقفت القضية عند ذلك الحد • غير ان البوليس تلقى أخبارا يثبت أن تلك الطفلة كانت قد•• انتهك عرضها بوحشية من قبل سفيدريكايلوف والحقيقة ان كل هذا لم يكن واضحا تماما ، لأن الاخبار كان مرسلا من قبل امرأة ألمانية أخرى ، غير شريفة كذلك ولا توحي بالثقة • فكان أن أهمل اخبارها آخر الأمر بفضل مال مارت بيتروفنا ومجهودها • ولبثت القضية في حدود الشائعات فحسب • غير أن تلك الشائعة لم تكن خالية من المعاني • ولا شك أنك ، يا أفدوتيا رومانوفنا ، قد سمعت بنفسك ـ لما كنت عندهم ـ قصة ذلك الخادم فيليب الذي مات ضحية سوء المعاملة منذ ست سنين لما أن كان الرقيق مسموحا •

ـ لقد سمعت على العكس بأن فيليب شنق نفسه •

ـ تماما • لكنه كان في قهر شديد أو على الاصح انه دفع دفعا الى وضع حد لحياته بسبب الاضطهادات والاثارات التي كان يستهدف لها من السيد سفيدريكايلوف •

فأجابت دونيا بلهجة جافة :

ــ كنت أجهل ذلك . لقد سمعتهم فقط يروون قصته على شيء من الغرابة : ذلك أن فيليب كان على ما يبدو مهووسا ، أي أنه كان خادما فيلسوفا ، وكانوا يعتقدون بأن القراءة قد أثرت في عقله وأنه شنق نفسه فرارا من السخريات أكثر من فراره من ضربات سفيدريكايلوف . لقد كان هذا الأخير في حضوري حسن المعاملة مع خدمه ، بل يمكن القول ان رجاله كانوا يحبونه رغم أنهم كانوا يعزون اليه موت فيلبب .

قال لوجين ملمحا ، وقد علت وجهه ابتسامة مبهمة :

ــ أرى ، يا أفدونيا رومانوفنا ، أن بك ميلا مفاجئا الى معذرته ! الحقيقة هي أنه رجل يفتن النساء ! ان مارت بيتروفنا ــ التي ماتت بشكل غريب جدا ــ ليست الا البرهان المؤسف ! كنت أريد فقط أن أعطيك نصيحة لك ولأمك حيال المحاولات التي لن يلبث أن يجددها دون شك بعد حين . أما أنا فانني قانع تماما بأن هذا الرجل لن يلبث حتى ينزل في سجن من السجون بسبب الديون ، وأعتقد بأن مارت بيتروفنا لم تفكر أبدا في أن تتنازل عن جانب من ثروتها لأنها لم تكن تفكر الا في أبنائها . لكنها على افتراض أنها تركت له شيئا ، فان ما تركته لن يتعدى المبلغ اللازم للحياة ، مبلغا قليل الأهمية لا يلبث ان ينفق . بل انه ــ اعتمادا على عادات هذا الرجل ــ لن يكفيه للانفاق عاما واحدا .

فقالت دونيا :

ــ أرجو ، يا بيير بيتروفيتش ، أن نكف عن التحدث في مسألة السيد سفيدريكايلوف . ان ذلك يسبب لي ألما في قلبي .

قال راسكولنيكوف فجأة للمرة الاولى بعد بدء الحديث :

ــ لقد زارني في غرفتي منذ قليل .

فعلت الغمغمات وعبارات الاستغراب في غرفة الاجتماع ، واستدارت جميع الوجوه نحـوه حتى أن بيير بيتروفيتش نفسه اضطرب للخبر ، واسترسل راسكولنيكوف يقول :

ــ منذ نصف ساعة ، بينما كنت نائما ، دخل فأيقظني وقدم الي نفسه لقد كان مرحا غير مرتبك • انه يأمل في أن تتوثق عرى صداقتي معــه ، غير أنه يرغب ويلتمس مقابلتك ، يا دونيا • وقد رجاني أن أكون شخصا ثالثا في تلك المقابلة لأن لديه عرضا يريد أن يتقدم به اليك• ولقد حدثني بنوع ذلك العرض • عدا عن ذلك فقد أنبأني بأن مارت بيتروفنا كانت قبل وفاتها بثمانية أيام قد خصصت لك في وصيتها مبلغ ثلاثــة آلاف روبل ، وأن هذا المبلغ سوف تقبضينه في أقرب وقت •

صاحت بولشيري ألكسندروفنا ، وهي ترسم على صدرهــا اشارة الصليب :

ــ حمدا لله • صلي من أجلها ، يا دونيا ، صلي !

فقال لوجين دون أن يتمالك نفسه :

ــ ان القضية صحيحة •

سألت دونيا متلهفة :

ــ ثم ••• ثم ••• ماذا بعد ؟

ــ ثم قال لي بأنه ليس غنيا ، وأن كل الثروة قد آلت الى أولاده المقيمين الآن لدى عمتهم • وأضاف بأنه يقطن على مقربة من مسكني • أما أين ؟ فانني لا أعرف ، ولم أسأله •

وسألت بولشيري ألكسندروفنا مذعورة :

ــ لكن ماذا يريد أن يعرض على دونيا ؟ هل قاله لك ؟

ــ نعم ، لقد قال لي •

ــ ما هو ؟

ــ سأقوله فيما بعد !

صمت راسكولنيكوف وانهمك يشرب الشاي الذي كان في قدحه ... وأخرج بيير بيتروفيتش ساعته فنظر اليها ثم قال بلهجة الملسوع :

ــ لدي عمل مهم وعاجل يقتضي وجودي ، فلن أزعجكم أكثر من ذلك .

وراح يتناهض ، فقالت دونيا :

ــ ابقَ يا بيير بيتروفيتش . لقد كنت ترغب فيقضاء أمسيتك معنا . ثم انك كتبت بنفسك أن لديك شيئا تريد أن تتفاهم عليه مع أمي .

فأجاب بلهجة العبوس المتجبر ، وهو يعاود الجلوس دون أن يترك قبعته من يده :

ــ تماما ، يا أفدونيا رومانوفنا . كنت في الحقيقة أريد التفاهم مع السيدة أمك حول نقاط على غاية من الخطورة . لكن لما كان أخوك لا يستطيع أن يبين أمامي بعض عروض السيد سفيدريكايلوف ، كذلك أنا فانني لا أريد بل لا أستطيع أن أفسر ما أريد ، بحضور شخص ثالث ، حول موضوع معين ذي أهمية غاية في الدقــة . أضف الى ذلك أنني ألاحظ بأن رجائي الحار الذي تقدمت به بعبارات واضحة وبينة جدا لم يلق بال اليه ..

وصمت لوجين وغدا وجهه مكفهرا وغرق في سكون ملؤه المهابة. فقالت دونيا :

ــ لقد طلبت ألا يحضر أخي المقابلة التي ستجري بيننا . واذا كان رجاؤك هذا لم ينفذ فذلك لأنني أردت أن يكون كذلك . لقد كتبت لي تقول : « انك أهنت من قبل أخي . انني أوافق على وجوب ايضاح هذه الناحية واحلال التفاهم بينكما محل الخصام . فاذا كان روديا حقيقة قد جرح كرامتك فيجب عليه ــ والحالة هذه ــ أن يتقدم اليك باعتذاراته

ولسوف يتقدم بها .

فأجاب بيير بيتروفيتش بلهجة التأكيد :

ـ هناك اهانات يا أفدونيا رومانوفنا لا يمكن نسيانها مهما بذل الانسان في سبيل ذلك من ارادة . هناك حد لا يجوز تجاوزه دون عقاب لأنه اذا اجتيز أول مرة فانه من المستحيل التراجع عنه بعد ذلك .

فقاطعته دونيا بشيء من نفاذ الصبر قائلة :

ـ انني لم أحدثك عن هذا بالضبط . أرجو أن تفهم بأن سعادتنا المقبلة متعلقة على النقطة التالية : « هل ستسوى الأمور بعد ايضاحها أم لا ؟ » انني أخطرك بصراحة منذ الآن بأنني لا أجد طريقةأخرى لانهاء هذه القضية ، فاذا كنت تحبني ولو قليلا وجب الانتهاء اليوم من هذه القضية مهما كان الثمن . أكرر القول بأن أخي اذا كان مخطئا فانه سيعتذر .

أجاب لوجين وقد ازداد غضبا :

ـ يدهشني يا أفدونيا رومانوفنا أن أسمعك تضمين السؤال بهذه العبارات . انني أستطيع كما أرى أن لا أحب واحدا من أفراد أسرتك بالوقت الذي أكون فيه ميالا اليك ، أو بعبارة أصح أكون محبا لك حتى العبادة . انني على الرغم من رغبتي في الحصول علىسعادة الزواج منك لا أستطيع كذلك التغاضي عن اعتبارات لا يمكن الاستغناء عنها.

فقاطعته دونيا بصوت منفعل :

ـ آه ! هدىء انفعالك ، يا بيير بيتروفيتش. أرجو أن تكون ذلك الرجل الذكر النبيل الذي تصورته في شخصك دائما . لقد قطعت لك على نفسي عهدا كبيرا . وانني خطيبتك . فثق بي فيهذه المسألة، وتأكد من أنني سأحاكم فيها دون أن أتحيز الى جهة ما . ان اقامة نفسي حكما بينكما لا يمكن أن يثير أيه دهشة لدى أخي وكذلك لديك . انني اليوم

عندما دعوته أثر استلامي رسالتك ، لم أخبره أبدا بنواياي • فأرجو أن تفهم أنكما اذا لم تتفقا فان واجبي يقتضيني الانتقاء بينكما ، فاما أنت واما هو • ذلك هو السؤال الذي وضعتماه كل من جانبه ! انني لا أريد ولا يجب أن أخدع في هذا الانتقاء اذ ينبغي لي أن أقطع صلاتي بأخي من أجلك ، أو أن أقطع صلاتي بك من أجله • لذلك فانني أريد أن أعرف في هذه اللحظة ـ وسوف أعرف ـ اذا كان روديا أخي حقيقة • أما أنت فالمسألة بالنسبة اليك هي : هل تحبني ، هل تميل الي ، هل أنت زوج لي ؟

قال لوجين بلهجة غاضبة :

ـ أفدونيا رومانوفنا ، ان كلماتك تتيح لي مجالا واسعا للتفاسير والتأويل بل انني أقول كذلك أنها كلمات مهينة نظرا للمركز الذي لي شرف احتلاله بالنسبة اليك • هذا اذا تغاضينا عما فيها من أشياء جارحة لي وغريبة ، اذ تضعينني على مستوى واحد مع ••• هذا الشاب شديد الزهو • وانه ليخيل الي من حديثك أنك تتوقعين امكانية فسخ الوعد الذي قطعتيه على نفسك لي • انك تقولين : « أما أنت واما هو » ، وبهذه الكلمة بالذات تظهرين لي تفاهة الشأن الذي تحتفظين به لي• انني لا أستطيع تقبل ذلك نظرا لعلاقاتنا والواجبات القائمة بيننا •

صاحت دونيا ، وقد احمر وجهها من الغضب :

ـ كيف ؟ انني أضع مصلحتك في الميزان مقابل كل ما لي في الحياة من ثمين حتى الآن ، كل ما تقوم عليه حياتي ، ثم تشكو بعد ذلك من أنني أبخسك حقك ؟

ابتسم راسكولنيكوف ابتسامة مريرة بينما أخلد رازوميخين الى الصمت • أما بيير بيتروفيتش فقد تغاضى متعمدا عن هذا الجواب • وغدا من حين الى حين أكثر غضبا وانفعالا • وقال بلهجة حكيمة :

ــ ان حب رفيق الحياة المقبل ، حب الزوج ، ينبغي أن ينتصر على الحب الأخوي • على كل حال لا أستطيع أن أتقبل الوقوف على خط واحد معه • وعلى الرغم من أنني صرحت بوضوح منذ حين أنني لا أريد ولا أستطيع أن أفسر سبب زيارتي بحضور أخيك ، فانني على استعداد للتحدث مع والدتك المبجلة لاعطائها كل التفاسير اللازمة حول نقطة جوهرية اعتبرتها أنا مهينة لي •

ثم أردف مخاطبا بولشيري ألكسندروفنا :

ــ ان ولدك أمس بحضرة السيد رازوميخين ــ أو ••• ذلك هو اسمك أليس كذلك ؟ اعذرني اذا كنت نسيت اسمك (وأيد قوله بتحية ودية وجهها مع هذه الملاحظة الى رازوميخين) ــ ان ابنك أهانني بتشويه فكرتي قياسيا ، تلك الفكرة التي أفضيت بها اليك من قبل خلال حديث ودي جرى لي معك ، عندما كنت أتناول القهوة عندك ، ذلك الحديث الذي قلت فيه : ان من رأيي ، بل انه من الافضل من وجهة الحياة الزوجية ، أن يتزوج المرء من فتاة فقيرة تذوقت التعاسة وآلام الوجود على أن يتزوج بواحدة تذوقت كل المباهج ، لأن الاخلاق لدى الفتاة الأولى تجد مجالا أوسع للظهور • لقد بالغ ابنك عامدا في تشويه أقوالي حتى جعلها منافية للعقل بان أتهمني بأسوأ النوايا معتمدا ــ على ما أظن ــ على مراسلتك الشخصية له ، وانني أعتبر نفسي سعيدا اذا أمكنك ، يا بولشيري ألكسندروفنا ، اقناعي بالعكس • لأنك بذلك تسببين لي راحة حقيقية • فاخبريني كيف نقلت عباراتي في رسالتك التي بعثت بها الى روديون رومانوفيتش ، وأي عبارات استعملت فيها •

أجابت بولشيري ألكسندروفنا وقد فقدت هدوءها :

ــ لست أذكر تلك العبارات • ولقد نقلتها اليه كما فهمتها ولا أعرف كيف كررها روديا أمامك • لعله غالى بعض الشيء •

ـ ما كان ليستطيع المغالاة لو لم تنوهي بها اليه •

فقالت بولشيري ألكسندروفنا بلهجة رزينة :

ـ يا بيير بيتروفيتش ، ان الدليل علي أننا ـ دونيا وأنا ـ لم نحمل كلماتك على محمل سيء هو وجودنا هنا •

وعقّبت دونيا تؤيد أمها :

ـ حسبنا جدا ، يا أماه •

قال لوجين منزعجا :

ـ على هذا فأنا المخطيء •

أضافت بولشيري ألكسندروفنا ، وقد شعرت بمزيد من الشجاعة :

ـ ألا ترى ، يا بيير بيتروفيتش ، بأنك تتهم روديون أبدا مع أنك شخصيا كتبت منذ حين في رسالتك أشياء مغلوطة ضده •

ـ لا أذكر أنني كتبت أي شيء مغلوط عنه •

فقال روديا بلهجة مريرة ، دون أن يلتفت الى لوجين :

ـ لقد ذكرت أنني أعطيت النقود البارحة ليس لأرملة رجل مدهوس كما هو الواقع ، بل الى ابنته التي لم أكن حتى ذلك الحين قد رأيتها أبدا ! لقد كتبت ذلك مستهدفا اثارة خصام بيني وبين أسرتي ، وأضفت ـ لتجعل التنافر أكثر امكانا ـ تلميحات بشعة كريهة جدا حول سمعة فتاة لا تعرفها • ان ذلك ليس الا هجوا ونذالة •

فأجاب لوجين ، وهو يرتجف من الغضب :

ـ أعذرني ، يا سيدتي ، انني اذا كنت تبسطت في رسالتي حول أعمالك وصفاتك فما ذلك الا استجابة لرغبات أمك وأختك اللتين رجتاني أن أطلعهما عن أي شعور الذي تحدثه في نفسي • أما فيما يتعلق بالوقائع الواردة في رسالتي فحاول أن تجد فيها سطرا واحدا يحمل معنى بعيدا عن الحقيقة ، أو على الاصح يكذب أنك